# خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة
تغمده الله برحمته

عني بهذه الطبعة خادم العلم الشريف

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

طبع على نفقة
إدارة احياء التراث الإسلامي
في دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
الرقم العام : ٣٠٣٢٢
رقم التصنيف : ٢١٩ ز٣خ

مكتبة الأنصاري
الرقم العام : ١٧٧١
الرقم الفني : ٢٠٢٣/٢١٩
تاريخ الورود : ٢٠١٤/١/٥/٧

# خاتم النبيين
## صلى الله عليه وسلم

### القسم الأول (العهد المكي)

رقم التصنيف : .....
الرقم العام : .....
مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري

تأليف
صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة
تغمده الله برحمته

٢١٩ ز٣خ
مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : .....
رقم التصنيف : .....

عني بهذه الطبعة خادم العلم الشريف
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

٥٧٨

طبع على نفقة
ادارة احياء التراث الاسلامي
في دولة قطر

واهتماماً بالغين مما حدا به إلى مضاعفة الجهدطوال مكثه فيها ، والذي امتد أمده زهاء تسعة أعوام ، قضى منها أربعة أعوام في الدراسة في القسم الثانوي ، وخمسة أعوام في الدراسة في القسم العالي .

وتخرج في مدرسة ( القضاء الشرعي ) عام ( ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م ) بعد أن نال شهادة العالمية منها بدرجة ( الامتياز ) ؛ وقد نضجت ملكاته العلمية ، واتسعت آفاقه الفكرية ، والتزم لنفسه منهجاً قويماً في دراسة وفهم الشريعة الإسلامية وعلومها ، وكلما ازداد تعمقاً في ، دراستها ازداد عطاؤه منها ، ولها .

ولم ينقطع بعد تخرجه في ( مدرسة القضاء الشرعي ) عن مواصلة الدراسة ، حتى حصل على ( دبلوم ) ( دار العلوم ) من خارجها عام ( ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٧ م )

وفي عام ( ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٧ م ) بدأ حياته العملية فعين مدرساً لعلوم الشريعة واللغة العربية بالمرحلة التجهيزية لدار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ، وظل بها مدة ثلاثة أعوام ، ثم انتقل بعدها إلى التدريس في المرحلة الثانوية العامة بالمدارس ، وظل بها زهاء ثلاثة أعوام .

وفي عام ( ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م ) نقل مدرساً إلى كلية أصول الدين ـ إحدى كليات الأزهر الثلاث آنذاك ـ فدرس فيها مواد الخطابة ، والجدل ، وتاريخ الديانات ، والملل والنحل .

وفي تلك المرحلة أخرج بواكير إنتاجه العلمي وهي :

كتاب ( الخطابة ) ، ثم كتاب ( تاريخ الجدل ) ، ثم كتاب تاريخ ( الديانات القديمة ) ، ثم كتاب ( محاضرات في النصرانية ) وقد ترجم إلى عدة لغات .

وفي عام ( ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م ) نقل مدرساً في كلية الحقوق ـ مع بقائه منتدباً للتدريس في كلية أصول الدين ودام انتدابه لها حتى عام ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢ م حيث استأثرت به كلية الحقوق ـ فدرس فيها الخطابة ثم اللغة العربية ثم الشريعة الإسلامية ، وتدرج في مناصب التدريس فيها مدرساً فأستاذاً مساعداً فأستاذ كرسي فرئيس قسم الشريعة الذي ظل يشغله حتى بلغ السن القانونية للتقاعد عام ( ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م ) .

ولم ينقطع عن التدريس بعد ذلك ، بل درس في ( المعهد العالي للدراسات العربية ) التابع لجامعة الدول العربية ،

وشارك في انشاء جمعية الدراسات الإسلامية ، وإنشاء معهد الدراسات الإسلامية كما تولى تدريس الشريعة الإسلامية في كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عام ( ٨٣ و ١٣٨٤ هـ - ٦٣ و ١٩٦٤ م ).

واختير عضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في عام ( ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م ) وظل يشغل عضويته حتى وفاته .

كما شارك في كثير من المؤتمرات العلمية الدولية داخل مصر وخارجها ومن ذلك :-

- مؤتمر الندوة الإسلامية الذي عقد في ( لاهور بباكستان ) عام (١٣٧٧ هـ - يناير ١٩٥٨ م ) .
- حلقة الدراسات الاجتماعية الي انعقدت في دمشق عام ( ١٣٧١ هـ - ديسمبر سنة ١٩٥٢ م ) .
- مؤتمر الخبراء الاجتماعيين - عدة مرات في القاهرة ، ومرة في الكويت عام ( ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م ) .

جهاده وإنتاجه العلمي :

أثرى المكتبة الإسلامية بزهاء خمسين كتاباً في الدراسات الإسلامية ، ومئات من البحوث ، والمقالات ، والمحاضرات ، والندوات ، والأحاديث ، في المجلات والدوريات ، والحوليات ، والصحف ، والإذاعة ، والتلفزيون .

وامتازت كتاباته بالوضوح والعمق والاستقصاء والابتكار والاستيعاب ، وكان أسلوبه من السهل الممتنع .

وأشرف وناقش كثيراً من رسائل الماجستير والدكتوراه ، وكان يبدو ذكاؤه المفرط وقوة حافظته حين كان يبهر الحاضرين باستيعابه لموضوع الرسالة ونقاط المناقشة وتحديد أماكنها في الرسالة في الصفحة والسطر ويورد

النصوص الطويلة تلو النصوص وكل هذا من الذا كرة ، ويحاجج بها ويناقش .

كان محاضراً ممتازاً لا يمل سامعه من متابعته الوقت الطويل ، وكان يضمن محاضراته ، وندواته وأحاديثه بعض الترويحات من نكتة علمية أو فكاهة أدبية ، أو طرفة ذهنية ، .

ولم يقتصر جهده وجهاده ـ رحمه الله ـ على قاعات الدرس وتربية الجيل وتأليف الكتب بل شارك في الحياة العامة مشاركة فعالة ومثمرة .

شارك في شبابه في ثورة سنة ١٩١٩ م .

ثم لم ينقطع جهاده بالكلمة الصادقة الهادية ، حديثاً ، وخطابة ، وكتابة، طوال حياته ، وكان رحمه الله يتميز بالشجاعة في الحق ، والجرأة في الصدع به ، لا يخشى في الله لومة لائم ، وقد لاقى في سبيل ذلك كثيراً من العنت والمتاعب فلم يهن ولم تلن عريكته ، بل تصدى لكثير من التيارات الصليبية التي تحاول صبغ المجتمع الإسلامي بصبغة غير صبغة الإسلام .

وقف وقفة المجاهدين في الانتصار للشريعة الإسلامية ، والمناداة بتطبيقها وحال دون كثير من مشاريع قوانين الأحوال الشخصية التي كان يرى فيها بعداً عن الفقه المدعم بالأدلة ، وظل ملتزماً بجهاده حتى لبى نداء ربه .

مؤلفاتـــه :

١ ـ الملكية ونظرية العقد .
٢ ـ كتاب الأحوال الشخصية .
٣ ـ كتاب الوصية ( شرح قانون الوصية ) .
٤ ـ أحكام التركات والمواريث .
٥ ـ أصول الفقه .
٦ ـ محاضرات في الوقف .
٧ ـ الجريمة في الفقه الإسلامي .
٨ ـ الميراث عند الجعفرية .
٩ ـ أصول الفقه الجعفري .
١٠ ـ الزواج وآثاره دراسة مقارنة بين المذاهب الفقهية والقوانين العربية .

١١ ـ الوقف في ماضيه وحاضره (دراسة فقهية مقارنة) .
١٢ ـ العقوبة في الفقه الإسلامي .
١٣ ـ مصادر الفقه الإسلامي من النصوص .
١٤ ـ العلاقات الدولية في الإسلام .
١٥ ـ التكافل الاجتماعي في الإسلام .
١٦ ـ الإمام زيد ـ حياته وفقهه .
١٧ ـ الإمام الصادق ـ حياته وفقهه
١٨ ـ الإمام أبو حنيفة ـ حياته وفقهه
١٩ ـ الإمام مالك ـ حياته وفقهه
٢٠ ـ الإمام الشافعي ـ حياته وفقهه
٢١ ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ حياته وفقهه
٢٢ ـ الإمام ابن حزم الأندلسي ـ حياته وفقهه
٢٣ ـ الإمام ابن تيمية ـ حياته وآراؤه .
٢٤ ـ تاريخ المذاهب الاعتقادية والسياسية .
٢٥ ـ تاريخ المذاهب الفقهية .
٢٦ ـ الخطابة .
٢٧ ـ تاريخ الجدل .
٢٨ ـ تاريخ الديانات القديمة .
٢٩ ـ محاضرات في النصرانية .
٣٠ ـ المعجزة الكبرى ـ القرآن الكريم .
٣١ ـ خاتم النبيين .
٣٢ ـ مقارنات الأديان .
٣٣ ـ الوحدة الإسلامية .
٣٤ ـ تنظيم الأسرة وتنظيم النسل .
٣٥ ـ تنظيم الإسلام للمجتمع .
٣٦ ـ فن المجتمع الإسلامي .
٣٧ ـ الولاية على النفس .

٣٨ ـ الدعوة إلى الإسلام .
٣٩ ـ رسائل : نظرية الحرب في الإسلام .
٤٠ ـ شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله .
٤١ ـ الملكية بالخلافة بين الشريعة والقانون الروماني .
٤٢ ـ بحوث في مجلات علمية منها : مجلة القانون والاقتصاد ، مجلة المسلمون ، مجلة حضارة الإسلام ، مجلة إدارة قضايا الحكومة ، مجموعات الجامعة العربية الثقافية والاجتماعية ، بحوث في كتاب أسبوع الفقه الاسلامي ، بحوث في كتاب أسبوع القانون والعلوم السياسية ، بحث في قانون الأسرة نشر بكتاب ( في الفقه الإسلامي ) نشره معهد واشنطون للقوانين الدولية ( ترجم ) .
مقال في السياسة الإسلامية : نشر في مجلة القانون الدولي المصرية .
( ومجموع هذه البحوث يقع في أكثر من ثلاثة آلاف صحيفة ) .
٤٣ ـ تفسير القرآن الكريم من الجزء الثاني إلى نصف الجزء السادس ـ نشر تباعاً بمجلة لواء الإسلام .
٤٤ ـ مقالات إسلامية بين البحث والمقالة ـ ( نشرت بمجلة المسلمون ) وبالمجلات الإسلامية المختلفة . وأكثرها بمجلة لواء الإسلام ( يقع مجموعها في أكثر من ألفي صحيفة في مجلة لواء الإسلام وحدها وفي غيرها من المجلات نحو ألف صحيفة ) .
٤٥ ـ أحاديث صحفية كان يرد بها على المهاجمين للإسلام .
٤٦ ـ محاضرات عامة في جمعية الشبان المسلمين وغيرها من الجمعيات والنوادي الإسلامية .
٤٧ ـ الندوات العامة والخاصة وندوة لواء الإسلام وقد دون فيها كلامه ويقع في ألف صحيفة .

وفي يوم الجمعة ( الأول من ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ ـ ١٢ إبريل ١٩٧٤ ) لبى نداء ربه بعد حياة حافلة بالعلم والعمل والجهاد ، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

اللهم لك الحمد أسبغت علينا نعمك ظاهرة وباطنة . نحمدك إذ هديتنا للإسلام وجعلتنا من أمة سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام لك الحمد يا من لا نحصي نعمه . رضينا بك رباً وبالإسلام ديناً . وبنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا . وبالقرآن إماماً وقدوة ومعلماً فسبحانك تباركت وتعاليت ونصلي ونسلم على رسول الإسلام . ومتلقى الوحي القرآني من الملك العلام . أدبه ربه فأحسن تأديبه وعلمه فأحسن تعليمه . وفوقه على البرية بالخلق الكامل ورضي الله عن آله الكرام وأصحابه الأئمة الأعلام وعلى التابعين لهم بالعمل الصالح . والقدوة المثلى برسول البشرية .

وبعد :

فقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وختم الله هذه السلسلة المباركة من الأنبياء والمرسلين بنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، جعل دينه خاتم الرسالات السماوية وكلمة الله الأخيرة للبشرية .

وهذه الميزة التي ميز الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، ودينه على سائر الأديان ، إنما اقتضاها أمران هامان ، أحدهما يتعلق بشخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والآخر بدعوته ورسالته وهي الإسلام .

أما الأمر الأول ، فهو أن محمداً رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، جمع الفضائل كلها ، والمكارم جميعها ، والمحامد بأكملها . إليه انتهى الخير ، وفيه تأصل البر ، وعلى يديه فاض النور وأشرقت الهداية ، وبه أنقذ الله البشرية من هلاك محقق ، وأخرجها من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الطواغيت إلى عدل الإسلام .

ومن أجل ذلك كانت سيرته أجمل السير ، وصفاته أنبل الصفات ، وأخلاقه أعظم الأخلاق ، وحياته أروع حياة وأوفاها وأشملها .

إن التاريخ الإنساني على وجه الأرض ، لم يعرف نبياً من الأنبياء ، ولا عظيماً من العظماء ، ولا زعيماً من الزعماء ، ولا مصلحاً من المصلحين ، استوعب في صفاته الذاتية ، والعقلية ، والنفسية ، والخلقية ، والدينية ، والروحية والاجتماعية ، والإدارية ، والعسكرية ، والتربوية ما استوعبته شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وما اختصه الله به من الكمالات التي تشرق في كل جانب من جوانبها ، وتضيء في كل لمحة من لمحاتها . حتى استحق أن يصفه الله عز وجل بالنور في مثل قوله تعالى :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[1] .

ولا عجب في ذلك ، فقد أرسله الله للناس كافة ، وقدوة صالحة لهم . ورحمة للعالمين . وهو القائل عن نفسه ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾.

ولو جاز لنا أن نسأل : ما الذي جعل محمداً صلى الله عليه وسلم على هذا النحو من الكمال ، الذي لم يتيسر لغيره ؟

لقادنا الجواب إلى الأمر الثاني الذي سبقت الإشارة إليه ، من أن دينه خاتم الأديان السماوية ، ودعانا أن نتحدث بإيجاز عن السبب في أن الله ختم النبوات بنبوته ، ووحي السماء برسالته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المائدة / ١٥ .

لقد أكمل الله دينه بالإسلام ، وأتم به نعمته على الناس ، فاستغنوا به عما سواه ، ولم يعودوا بعده بحاجة إلى دين جديد ، أو شريعة جديدة . فقد اشتمل الإسلام على كل ما يحتاج إليه الناس من تعاليم وتشريعات في جوانب الحياة جميعاً ، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وغير ذلك من رقائق ومواعظ وقصص للأنبياء مع أممهم ، ودعوة إلى النظر والتفكير والاعتبار . والاستدلال على وجود الله ووحدانيته والاستفادة من كل ذلك في صلاح الحياة وعمران الكون وتزكية النفوس والتوجه إلى عبادة الله وإفراده بالطاعة والدعاء والإنابة . بحيث يكتفي الناس بالإسلام ، ولا يتطلعون إلى دين آخر يلتمسون منه الهداية ، أو يبحثون عن مبدأ غريب وفكر مستورد وقانون دخيل ، بدعوى استكمال نقص ، أو استدراك على حكم ، أونحو ذلك من مزاعم باطلة ، لا تصدر إلاعن جاهل أو كافر أومغرض خبيث النية ، أو مسيء لفهم هذا الدين العظيم . واقرأ معي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١).

وقوله تعالى :

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾(٢).

ولما كان الإسلام بهذه المثابة ، فقد تكفل الله بحفظه ، وضمن بقاءه وسلامته من التحريف والتبديل الذي أصاب الأديان قبله ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٣).

وذلك ، لأنه دين البشرية الخالد ، الصالح لكل زمان ومكان ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (٤).

---

(١) المائدة / ٥ ، (٢) الانعام /٣٨ ، (٣) الحجر / ٩ (٤) آل عمران / ٨٤ .

وهنا نعود فنقول :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذ أن بعثه الله عز وجل للناس نبياً ورسولا ، كانت حياته صورة صادقة للدين الذي جاء به من عند الله ، وما أجمل ما وصفته به السيدة عائشة رضي الله عنها، حينما سئلت عنه ، فقالت . ﴿ كان خلقه القرآن ﴾.

أي أنه كان قرآناً حياً متحركاً . ملتزماً بأحكامه ، عاملا بتوجيهاته ، متبعاً لهديه ، ومنتهياً عند نهيه . يحل حلاله ويحرم حرامه ، يقف عند حدوده ، ويحتكم إلى شريعته ويحكم بها ، يدعو إلى نوره ، ويجاهد لإعلاء كلمته ، وإرساء قواعده ، وتثبيت أركانه . ومن أجل ذلك ، قال الله فيه :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً﴾(١) .

فهو القدوة إلى الخير والأسوة بين الناس إلى رضوان الله .

وأيما دعوة من الدعوات ، لا يتأتى لها النجاح والإنتشار ، ما لم يكن لها من صاحبها والداعين إليها قدوات صالحة في التطبيق العملي لتلك الدعوة في أخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم في الحياة .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في ذلك . فقد صنعه الله على عينه ، وأدبه فأحسن تأديبه، وأعده لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، والجهاد في سبيل الدين ، وإخلاص العبودية لرب العالمين .

وحسبه من الثناء والتكريم ما قال فيه العزيز الحكيم :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾(٢) .

وقوله :

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾(٣) .

---

(١) الاحزاب / ٢١ ، (٢) القلم / ٤ ، (٣) الشورى /٥٢

أجل ... فقد أرسله الله للناس بشيراً ونذيراً ، وداعيـاً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

ومن أجل ذلك ، فقد جعل الله طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة له سبحانه ، فقال :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ للتحذير (١) .

وربط بين محبته تعالى وصحة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾(٢) .

وأناط الفوز والفلاح بطاعته وطاعة رسوله فقال :

﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣) .

وأعلن أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فقال :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾(٤).

إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة ، سجل حافل بالمآثر ، مليء بالمكرمات ، مفعم بالفضائل . إنه كنز المواعظ والعبر ، ومدخر الدروس التي تنبض بالنور ، ترشد إلى الخير ، وتوقظ الهمم ، وتشحذ العزائم ، وتذكي الإيمان ، وترسم الطريق إلى مرضاة الله ، وتضع المعالم أمام الدعاة والمصلحين . وتجسم القيم العليا والمبادىء الرفيعة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم واقعاً محسوساً ، وحياة كريمة فاضلة . سار على هديها الصحابة الأجلاء ، ومن اتبعهم بإحسان . فاستنارت العقول ، وصلحت القلوب ، وزكت النفوس ، واستقامت الأخلاق ، وكانوا بحق (خير أمة أخرجت للناس).

ولقد كان السلف الصالح يعلمون أبناءهم سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كما يعلمونهم السورة من القرآن ، لكي ينشأوا على الفضائل ، وينهضوا إلى المكارم ، ويطمحوا إلى معالي الأمور ، ويتخذوا من الرسول

---

(١) النساء / ٨٠ (٢) آل عمران / ٣١ (٣) الاحزاب / ٧١
(٤) الاحزاب / ٤٠

صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى ومناراً شامخاً وقدوة صالحة . ينالون باتباعه واقتفاء أثره والعمل بسنته خير الدنيا وسعادة الآخرة .

ولعل هذا الكتاب ( خاتم النبيين ) الذي بين أيدينا، من خير ما يعرفنا بسيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، بطريقة جمعت بين الرواية والدراية ، وبين السرد والتحليل ، وإبراز ما ينبغي أن يقف عليه القارىء وينتفع منه بأسلوب رصين جذاب ، ونظرات عميقة نفاذة إلى اللباب . تكشف مواطن العظمة في شخصيته صلى الله عليه وسلم ، وتذب عن مقامه ، وترد التهمة المغرضة عنه إلى صدور أعدائه ، وتحيط سيرته بسياج من المحبة والغيرة والفهم العميق والدعوة الصادقة إلى التأسي والاقتداء .

وقد عرف مؤلف هذا الكتاب وهو المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ـ بعلمه الغزير ، وعقله المستنير ، وتمسكه بالحق ، وثباته عليه ، وتحريه الدقة فيما يقول ويكتب .

ومؤلفاته الإسلامية الكثيرة تشهد على ذلك ـ وحسبه تراجم الأئمة الكبار الذين أفرد لكل واحد منهم كتاباً ـ ليرتفع بها إلى مصاف العلماء الأفذاذ والجهابذة الأعلام ، الذين أعدهم الله عز وجل لينفوا عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيكون الواحد منهم أمة وحده .

لقد تخرج على يديه الآلاف من طلبة العلم في كل مكان ، وكان مدرسة لها صبغتها وملامحها الخاصة . وكان في مواقفه المأثورة عنه مثالا يحتذى في الشجاعة ، وإقامة الحجة ، ومناصرة الحق ، والثبات أمام خصوم الدين ، لا يخشى في الله لومة لائم .

فرحم الله الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ، وأجزل له المثوبة ، وأنزله في عليين ، كفاء ما قدم للإسلام من خدمات جلى ، وجزاء ما انتفع الناس بعلمه ، الذي بقي له بعد رحيله عن الدنيا صدقة جارية ، يصل إليه ثوابها إن شاء الله ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

والحق ، إن إعادة طبع هذا الكتاب مأثرة كريمة وثمرة طيبة من ثمار مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة ، في أوائل المحرم لعام ١٤٠٠ هـ بإذن الله تعالى لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان المؤيد لإعادة طبعه صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر حفظه الله وأيده بصالح الأعمال .

وقد أقدمنا على طبعه ـ مستعينين بالله ـ من أجل تعميم فائدته ، بتوزيعه على المستحقين ، والحث على قراءته والإحاطة بسيرة المصطفى وتوطيد العزم على إحياء سنته ، وتحكيم شريعته ، والعودة إلى منهجه القويم وصراطه المستقيم . لكي تسترجع هذه الأمة مجدها ، ويمكن الله لها دينها ، ويهديها رشدها . وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

ولا يسعنا في الختام إلا أن ندعو الله أن يوحد هذه الأمة تحت راية محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يوفق ولاتها إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحكيم شريعته ليكون لهم النصر المبين

وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرة الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١ /٤/ ١٣٩٩ هـ
١٩٧٩/٣/٢٧ م

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
مدير الشئون الدينية

---

(١) التحريم / ٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

# محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، اذ أكمل الدين ، وأتم الرسالة الالهية ، بارسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فأكمل الهداية ،وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة ، وبين الجادة ، ورفع راية الاسلام القوي العزيز المكين ، وحمل الحواريين من أصحابه ما حملهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التى حملوها ، فكانوا منارا مقتبسا من نوره ، فرضي عنهم ، ورحم الانسانية بما اقتبسوا من معاني الرسالة المحمدية ٠

## يارسول الله:

ان الله خلقك بشرا سويا ، ولكنك فوق سائر البشر ، وآثارك التى حملتها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالنا ٠ فمن خواطرنا ومنازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا ٠ ونحكم على أحوالهم ،وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ،وفى مطالع آفاقنا . فعندئذ نحاول وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله فى علولا نصل اليه ، وفى سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونتخيله ،فأنى لأمثالنا أن يكتب فى شانك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال،ويعلو على مدارك الخيال ٠

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تساميا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠

قد كتبنا فى أئمة أعلام ، قد قبسوامن نورك قبسة أو قبسات ، فادركنا نورهم ، ووفقنا الله تعالى الى ما نحسب أننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كنا ندرك مابه شرفوا ، وما به أصابوا ، واهتدوا .

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف أبصارنا الضوء المنير ، فأنى ندرك ،وأنى نرى ، وقد صرنا كذي رمد غمره ضوء الشمس، أو ما هو أعلى ، فاصابتنا الحيرة ، ولا هادي لنا يخرجنا منها ، الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر اذ قال سبحانه : « قل ان الهدى هدى الله(١) »فليس لنا الا أن نلجأ اليه ضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك الطاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل اليه ، فان التقريب يحل عند العجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر معذور ، والله عفو غفور .

## يارسول الله:

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحي عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية واحدة من نواحي العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمته ، فتسهل معرفته ، ولكنك يارسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه عظمتك تعددت، حتى يعجز المحصي عن الاحصاء ،والمستقري عن الاستقراء ، واذا نفدت الطاقة أقر مطمئناً بعجزه ، ومؤمناً بأن وجودك في هذا الوجود معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشراً ، فلست الها ، ولست ملكا من الملائكة فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك ربك ، وحفظك ورباك على عينه . حتى كنت وحيداً بين الغلمان ، بما كلأك الله به وحماك ، وصبياً فريداً بين الصبيان ،وكنت الشاب الأمين البعيد عن رجس الجاهلية بين الشباب ، فكل شيء فى حياتك الأولى كان من الخوارق التي علت عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثر تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا أثر شرف رفيع ، وان كان محققاً ،ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة بشخصك وكونك ووجودك ، ففيك البشرية ، وفيك المعجزة الالهية « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٢) .

---

(١) آل عمران ٧٣ (٢) الانعام ـ ١٢٤

## يارسول الله ياخير البشر :

كنت ذا الخلق القوي ، والسياسي الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم الرفيق ، والمربي لأمتك بالشورى ،والوحي ينزل اليك ، وكنت الرؤوف بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواءالسلام فى مرحمة النبي ، وعزة القوي، أنشأت جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرأصالحاً ، وأخذ ينمو فى بيئتك الطاهرة، مختفياً فى خلايا الايمان ، حتى أخرج شطأه ، فظهر متعرضاً لمقاومة الحدثان ، قوياً فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوىعلى سوقه ، وصار قوة الحق فى الأرض، وكنت كما قال الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً . يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ فاستوىعلى سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار(١)» وكل ذلك بتوجيه ربك ،والهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتك الدارس ، وقد كان كل شيء فيك قوياً عظيما ، كما قال فيك ربك :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

اللهم ربي ، ولا خالق سواك ، ولااله غيرك ، وليس كمثلك شيء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمداً من البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، واذا كان وجوده وماأحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليقة الى يوم الدين .

## رَبِّي العَظِيم :

لقد تطاولت فاعتزمت أن أكتب فى سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاغفر لي يارب ذلك التطاول،انك أنت الغفور الرحيم، وأمدني بعونك وتوفيقك فى هذا المقام الذى يعلو عن طاقتي ، وتعجز فيه قدرتي ان لم يكن منك العون .

---

(١) الفتح ـ ٢٩ (٢) القلم

رب لا تخزني ، فانه لا قدرة لي الابتوفيقك ، ولك الفضل ، والمن ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

واني قد اتجهت الى القصد في القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأو ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهي فوق قدرة عاجز مثلي ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

أولها ـ ذكر حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشراً رسولا ، وأوذي هو وحواريوه في الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان .

والثاني ـ فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وازالة المعاجزات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة في طريقها من غير عوج ، وفي طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يدعثره الايذاء ، وان هذا القسم ينتهي بصلح الحديبية ، حيث يئس الشرك من أن ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة في كل مسار .

والقسم الثالث من بعد الحديبية ، وفيه تجرد النبي عليه الصلاة والسلام لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الذي يئس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكتب النبي ورسله ، وبالسرايا يبثها ، وبالخروج الى الروم الذين قتلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وازالة الفتنة ، وهذا القسم ينتهي برحلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا .

اللهم انفعنا بهديه ، واهدنا سبله ، انك تهدي من تشاء ، وانك على كل شيء قدير ؟

ربيع الأول سنة ١٣٩٢ هـ
ابريل سنة ١٩٧٢ م

محمد أبو زهرة

# تمهيد

## الاضطراب الفكري:

١ ـ في القرن الخامس الميلادي ومايليه، كان العالم الانساني يموج بالشر، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانسان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحق هوالقوة ، والقوة هي الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب • وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل،وتزييف الحق ، والعبث بالميراث الانساني للنبيين من بعد ابراهيم وموسى وعيسى ،وشوهت المفاسد تعاليم موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطورية،وزكوه، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة• فالملكنيون تحكموا في اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم •

واليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام ، فضربت عليهم الذلة والمسكنة، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوي يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم وتسربلوا سربال العداوة لبني الانسان جميعاً ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقلية،والمزايا الدينية ماليس فيهم وينكرونه في غيرهم ، حتى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العرب الذين نكبوا بمعاشرتهم

﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١)

فهم يأخذون منهم بالحق والباطل ولا يعطونهم شيئا لانه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره •

---

(١) آل عمران ٧٥

٢ ـ وكان الأقربون والأبعدون ،والقاصون والدانون فى اضطراب فكري ، وعجز العقل البشري عن أن يحل مشاكل هذا الوجود • فتاه العقل في معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لايستطيع أن يفسر سر الظواهر فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء ولا يمكن أن يعرف مايحركها، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ،والمنشىء مما أنشأ ، ولكنه قد غمر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عمي عن الاصل ، وشغل بالفرع ، فتاه فى هذه السماء ،وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره •

ومع ظهور الأديان السماوية ،واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل ونفاذه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها وهو يجهل باعثها، ولا يعرف منشئها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشىء المكون •

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايمان بمن أنشأه ، وان الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشىء مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهي تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه تدعو الى دراسة الكون ، وتعرف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ،ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون في الماضي، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر •

وانما يهمنا الماضي الذى كان قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم • وما كان عليه الوجود •

٣ ـ تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التي ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدي وما ينفع فى السلوك الانساني ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدي ، ولا رشد يرشد •

أخذ يدرس نظام التعامل الانساني،ومقيـــاس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ،وخطأ السلوك واستقامته ، ليعرف ماهو فاسد وما هو صالح ٠

ودعا الى ذلك واختلف هو وتلاميذه ،فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهـو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمةوالعدالة والشجاعة والعفة ، والفضائل كلها ترجع الى هذه العناصر ٠ وقد اختارذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة . فما هو نافع ، ولو نفعاً شخصياًفهوخير،ومالانفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين ٠

وهكذا كانت المتاهات العقليـــة فىادراك أسس التعامل الانساني ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقـــلم يستطع أن يصل الى قانون التعامـــل المستقيم . كمـــا لم يصل الى ادراك سرالوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة ٠

وفى وسط ذلك الديجور ظهـــرتالسوفسطائية التي تشكك فى حقائـــق الوجود . فمنهم من أنكرها ، ومنهم منشك فى كل شىء ، ومنهم من قال ان الحق فى الأشياء هو مايعتقده كل امرىء فىذات نفسه ، وتسمى العندية ، فليس للأشياء حقيقة . وانمـــا الأمـــر فيها الىاعتقاد وجودها ٠

وهـــكذا كان الضلال المبين بسببالاعتماد على العقل المجـــرد فى وسط تلك الفلسفة التى لا تهدي ، بل يضلفيها الفكر ، كما يضـــل الســـاري فى ظلمات الليل ٠

## المجـــوسيـــة :

٤ ــ ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومن وراءهم فانا واجدون عجباً ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانيةالتى سرت اليهم فلسفة أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى وتحل مشكلةأصل الوجود بأوهام توهموها ، وأساطير اكتسبوهـــا فكانت الزرادشتيـــه التىتفرض أن الوجود له الهان اله الخير واله الشر ، وأن كليهمـــا يتنـــازع النفسالانسانية والكون وما فيه ٠

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف لدين سماوي ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ، وقد وجد في بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه السلام ، وقد قال تعالى :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (١)

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعياً خطيراً يدعو الى القوة ، وانه لاعبرة بالضعفاء وانهم لا يصلحون للبقاء ،فالحق مع القوي دائماً ، والباطل مع الضعيف دائماً ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا ايمان بالعدل ، وانما الايمان بالقوة وحده ٠

## المانويّة:

٥ ــ ثم كان بفارس أيضاً مذهب يحسب أن الوجود الانساني كله شر يجب ألا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب ( ماني ) وعقيدته تسمى المانوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهي ذلك الانسان الذي اعتبر وجوده لعنة في الأرض ،وما دام الإنسان في الإنسان مستمراً فان اللعنة الانسانية مستمرة ، وكأنه يحسب أنه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ،فالخطيئة باقية بوجوده ٠

## المزدكيّة:

٦ ــ وبعد ذلك جاء المذهب المخرب،كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الذى انتشر في فارس ، وأساسه اباحة النساء فلا زواج ولا ارتباط ، بل يساف الانسان كما يساف الحيوان من غير أي قيد من رابطة حافظة للأنساب ، وراعية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمي انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أي نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود في النساء ٠

---

(١) فاطر

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيوان فى البادية أو الغابة منطلق ، لا يقيد الا بقـــوةغير التي ترسم له حداً لا يتعداه ٠

والوهم الذى قام عليه ذلك المذهبأنه زعم أن الشحناء والبغضاء تتولدان من احتياز النساء بالزواج أو نحـوه ،واحتياز المال بالملكية ، ويحسب أنه اذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكيةللأموال يـكون الناس فى ســـلام دون خصام ، ويأليته اعتبر الانسان كالحيوانلأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطـــة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القـــوة الغالبـة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومـةالمختلفة ٠

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المـذهبفى فارس ، وضاعت الأنساب واعتنقـه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حـكمهذا الكسرى ٠

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبىصلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل ٠

## البَـرْهَـمَة :

٧ ــ ولو أننا تجـــاوزنا فارس الىما وراءهـــا من أرض المشرق ، فـانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجددياتة تقوم على التفرقة الانسـانية بين طبقات ، فالناس ليســـوا ســواء ، فىالحقـــوق والواجبات ، بل يقـرر دين البراهمـة التفرقة بين الناس من حيثالعبادة والزلفى لبراهما الههم الأكبر فقد انقســـم النـاس من حيث مهنهم التي تتوارث ، والتى تصير المهنة عندهم أصلا نسبياً ينتقل من الأصول الى الفروع ،ومن الفروع الى فروعهم ، فقسموا الى أربع طبقات ٠

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهىطبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه ويزعمون أنهم خلقوا منرأس الههم ( براهما ) ولذلك كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الاله ، وهمفي زعمهم خلاصة الجنس البشري،وعقله المتفكر ، ورأســـه المدبر ، لأن الرأس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم ٠

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب الههم براهما • ويديه ، وهم لهذا ، الحماةوالغزاة وموطن القوة • ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة •

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتى الههم• والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لهاكبيرة ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق •

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمي الههم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس ( براهما )

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيرة فىالمدن ، ويسمون من ليسوا من الهنود ( ابليج ) ومعناها أنجاس ، فكل منليس هندياً نجس ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين •

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنويةفقط ، بل هي نجاسة حسية في زعمهم، حتى ان الأجنبي لو شرب من كوب ماءحطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض •

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقي ابن طبقة الى أعلى منها، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى •

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات،ففضائل البرهمي أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطاً لنفسه ، مقيما للعدل بادي النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهمة الى التدين •

ويجب أن يكون الجندي مهيباً شجاعاً،ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصاً على لقاء الخطوب ،وتيسيرها •

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التجار بشئونالتجارة ، ومعرفة الأسواق ، وما تتقاضى الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها •

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخدمة ، والتحبب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغي أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات ٠

ويقول أبو الريحان البيروني في كتابه(ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ) بعد بيان الطبقات مانصه:« وكل من هؤلاء اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر في عبادته غير ناس في جل أعماله، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخرى ـ كان آثما بالتعدي »

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحاً عن الوثنية فيها واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شعب مهما تكن درجة التفكير فيه تلك الطبقية المقيتة ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن أجل هذه الطبقية كان التأخر النفسي والاجتماعي ٠

## هل للبرهمة أصل سماوي :

٨ ـ لاشك أنه لا يوجد فى دين سماوي التفرقة الطبقية التي يعتبرها البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح ولا تزال بقاياها قائمة ، وان خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ، وشيوع فكرة المساواة بين الناس علماً ، وان كان العمل لايزال يتخاذل عن تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذي يحسبون أنهم يطبقونه ٠

ولكن يفيد كلام أبي الريحان البيروني أن الاحتمال أن يكون لأصل البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولمثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال ٠

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرسل وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١)

(١) غافر

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

فوجود ديانة سماوية بين الهند التي كانت فيها ثقافة وادراك أمر راجح ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية ٠

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيروني فى كتابه «ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » من أن خواص الهنود موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول في هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيي المدبر المنفرد في ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب ياتنجل : من هذا المعبود القوي ؟ قال المجيب : هو المستعلي بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبريء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليه فى وقت ما أو حال » ٠

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل ٠٠ أفتصفه بالكلام أم لا ٠٠ قال المجيب : اذا كان عالما ، فهو لا محالة متكلم ٠٠ قال السائل : فاذا كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم ٠ قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وافادتهم فى زمان ، اذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم في الأزل ، وهو الذي كلم ابراهم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من

---

(١) فاطر ٠

فتح الواسطة بابا ومنهم من أوحى اليه،فقال بالفكر ما أفاض عليه قال السائل: فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل ، واذ لم يجهل قط فذاته عالمة ، لم تكتب علما لم يكن له ،كما قال في بيذ الذي أنزل على براهما: احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ • قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آنيته ، فالخبر لا يكون الا عن شيء والاسم لا يكون الا لمسمى ، وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » •

هذه نقول البيروني في كتابه عن الكتب المقدسة الهندية • وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولهما : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر ، فوحدانيته سبحانه فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصيلة•

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم، وقد ذكر أن النصوص الدينية في التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل انها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريمات •

وان براهما ــ لم يكن الها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا أنه كان رسولا من عند الله تعالى • والعبارات التى نقلها لنا البيروني من كتبهم صريحة في ذلك صراحة مطلقة •

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتوراة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقادم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لبراهما وصف فيها بالاله ، ولا وصف بالرسول عند عامتهم •

## كتبهم:

٩ ـ للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيروني ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم ٠

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى نظرهم ، وتقول جماهيرهم : « ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها » ويقول البيروني « ان خاصتهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » ولم يبين البيروني وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ؟ بمعنى أن فى استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا ، أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا ، ولكنهم صرفوا عن ذلك ، كما يقول بعض الجهلاء فى اعجاز القرآن منحرفين فى دينهم ، لم يبين لنا البيروني أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لئن أراد الأول، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضي الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من يعصي ، فيأتي بمثلها ٠ أو يزيد عليها ، لأن الناس ليسوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع فى زعمهم بصرفه ، ونكتفي من الاشارة الى كتبهم بهذا القدر ٠

١٠ ـ بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس فى عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقات ٠ ولذلك ظهر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات ٠

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانسانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هي التي تشقي فاذا كانت ويلات الناس تجيء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتساع مطالبهم ، والرغبة

فى المزيد منها فان تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبهـــا ، والاكتفاء بالقليـــل ومجانبة الأهـــواء والشهـــوات ، فانهـــا هي التي تجعـــل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وان كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء ٠

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ، الخط الأول منه يبدأ باجتناب الأهـــواء والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ، فان النفس تشرق ، ويكـــون ادراكهـــا سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقـــادسليما ، ومن بعـــد الادراك يكون النطق الصـــادق ، ثم العمـــل القـــويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقـــوم على الأخلاق ٠

ويقرر مبادىء خلقية ، فهو يقـــول فى النهي عن أمور عشرة ٠

١ ــ لا تقتل أحداً ٠

٢ ــ لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك ٠

٣ ــ لا تكذب ، ولا تقل قولا غـــير صحيح ٠

٤ ــ لا تشرب خمرا ، ولا تتنـــاول مخدرا ٠

٥ ــ لا تزن ولا تأت بأي أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما ٠

٦ ــ لا تأكل طعاما لم ينضج ٠

٧ ــ لا تتخذ طيباً ، ولا تكلل رأسك بالزهر ٠

٨ ــ لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء ٠

٩ ــ لا تقتن فراشا وثيرا ، ولا تقتن أرائك وطنـــافس ، ولا وســـائد ولا حشايا رافهة ٠

١٠ ــ لا تأخذ ذهبا ولا فضة ٠

وان هذه المبادىء البوذية فيها عيب ، وهى ناقصة ٠

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكـــر أن يكون ثمة اله منشىء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم ، وكانت وهما من الأوهام ضـــل فيهـــا العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل ٠

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهي أنها تزهد في الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتها ، فكأنما مباهج هذه الحياة ،انما خلقت لكي ترى وتشاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان ·

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ،هي نهي لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر ·

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابي ، وهو تقديم النفع الانساني والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوي في الفضيلة ، والعنصر الثاني الامتناع عن الايذاء وهذا هو العنصر السلبي ، وهو الأدنى ، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقي ، بل انه يمنع غيره، فان النفع يمنع بعض الأذى· فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها ·

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ في تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهي كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع ·

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

( أحدهما ) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون عنها ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة ، وحرموا غيرها ، ولا يختارون للباسهم الا الخشن من الثياب لما راضوا أنفسهم عليه من ترك لذات الحياة لتكون الحياة تحت سيطرتهم ، ولا يخضعوا لسلطانها ·

( ثانيهما ) البوذيون المدنيون . وأولئك لم يطبقوا المنهاج الشاق ، فاختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه افراط في اللذائذ ، ولا شدة في تركها ·

أخذوا ببعض الأخلاق البوذية من تواضع وصدق وأمانة ، ونالوا بعض الملاذ التي لا تعقب ألما ، ولم يندفعوا في اجتراع الشهوات ، حتى لا يصابوا بآلام الحرمان ان لم يستطيعوا ·

وخلاصة القول أنهم أخذوا من المبادىء السلبية المبادىء الخمسة الأولى ،وهى ألا يقتلوا ، ولا يسكروا ، ولا يسرقوا،ولا يكـــذبوا ، ولا يزنوا ، وتركـوا الباقيات من المنهيات ، فلم يحـــرموها عليهم ·

ولقد كان ذلك الانقسام سبيلا لأن يكثر المدنيون ، ولأن يوجـــد فريـق لا يأخذون بشيء من هذه المبادىء ، بل يتركونها وراءهم ظهريا ، وبذلك ضعف العقل وحـده عن أن ينشىء ديناً آمراً وناهياً ·

## الكونفوشيوسيّة :

١١ ــ وان البوذية التى ولدت فى الهند كان أكثر تابعيها فى الصين لا فى الهند ، وقد انتقلت اليها وثنية ، كمـاكانت فى الهند ، واقترن بهـا ما ليس منها ، وانحرفت العقول ·

ولكنها اذ انتقلت الى الصـين قـداحتضنتها بيئة امتازت من بين البيئات بالوثنية ، والتمسك بكثير من المبـادىءالعملية التى تتفق مع قانون الأخـلاق الى حد كبير ، ولكن لعدم اعتمادها عـلى عقيدة قـوية كانت فى قلوب شاغرة ، واذا سكنت المبادىء فى قلوب شاغـرةعن الايمان جف عـــودها ، ولم يقـــو على البقاء ·

كان فى الصين فيلســوف يسمى فى لغة الفرنجة كونفوشيوس ، وهى تحريف لاسمه الاصلي في الصين وهو « كـونغفوتس » وقـــد أخـذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذي ، ولكنه أخـــذ بمبدأالبوذيين المدنيين ، وكان مـذهبه ليس ديناً يتبعه ، ولكنه اصلاح يدعو اليه ·

ومع وجود المنهج العلمي في اصلاح كونغ فوتس نجد بجواره فيلســوفا كان أسن من كونغ فوتس اذ أن هذا ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، أى أنه يعاصر بوذا ، والفيلسوف الآخر واسمه لوتس ، كان يكبر الأول بنحو خمسين عاما ،ومذهبه هو الاعتزال أو أن ينجو بنفســه ومن يتابعه من المفاسد ·

وقد التقى الفيلسوف الشـــاب كونفشيوس الذى يرى أن مبادىء الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابى ، لا الاعتزال السلبى بالشيخ لوتس الذى لا يرى الا الاعتزال السلبي ، فتحاورا ·

قال الشيخ للشاب : « ان الخير ليس في محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والاختلاط اذ أن الاختلاط يفسده ، بل الخير كل الخير في الزهادة والقناعة والاعتزال ، والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهي العفو » .

قال الشاب للشيخ : « اذا كان واجب كل شخص من آحاد الأمة أن يعتزل في كهف من الكهوف فمن الذي يبقى في المدن يعتمرها ، وفي الأرض يفلحها ويزرعها ، وفي الصنائع يمهر فيها ،ومن الذي ينسل ويعمل ، ليبقى الكون عامراً ببني الانسان ، واذا كان الاعتزال مقصوراً على الحكماء ، والفضلاء فمن الذي يربي الانسان ويؤدبه ، أم يترك الناس حائرين باترين ، لا هادي ولا مرشد .

## عقيدة الصينيين القديمة :

١٢ ـ ومهما تكن آراء كونغ فوتس من الحكمة والصواب فقد اختلط بها ما ليس سائغا ، فقد كان يعتقد بآلهة ، وبأن السماء مرتبطة بالأرض فيصلح الكون اذا صلح الانسان ،ويفسد بفساده ، لقد كان كونغ فوتس يعتقد ما يعتقده الصينيون القدماء .

وأساس هذا الاعتقاد أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ،(الملائكة) وأرواح الآباء .

والسماء التي يعبدونها لا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون الأفلاك ومداراتها ، والقوى المسيطرة التي تسيطر عليها وتسيرها في مداراتها، وباتصالها بالأرض والرياح والأمطار تنبت الأرض ، وكانت عبادتهم للسماء لاعتقادهم أنها عالم حي يتحرك حسب نظام دقيق محكم ، وللسماء السلطان الأكبر على العالم ، اذ أن كل ما فيه من قوى مسيرة خاضع لسلطان السماء .

وظاهر كلامهم أنهم لا يفرضون للكون سمائه وأرضه قوة منشئة مغايرة هي المدبرة والتي تحفظ العالم ،وتحول قواه ، فهم بذلك يعدون منكرين لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وعلى ذلك يكون الأساس الذي بنيت عليه عقيدتهم باطلا .

وهم يعتبرون التحول والتغير فى الكون على حسب مداركهم ، وعلى أساس عقيدتهم السقيمة فهم يرون أن العالم قسمان مادي وروحي وأن الروحي هو الذى يسير المادي ، فهم بهذا يرون أن المنشىء من ذات الكون لا من قوة فوقهم، وبذلك يتقاربون من الفلسفة الأيونية.

ومع أنهم لا يؤمنون بالواحد الاحد المنفرد بذاته عن المشابهة يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويرون أن السماء هي التي تقدر وتقضي ، فلا مفر من حكمها فى زعمهم ، ولا خلاص من سلطانها فى اعتقادهم .

ويؤمنون بأن الأحكام القدرية مرتبطة هي والأمور الكونية ، بالأخلاق الانسانية ، فاذا كانت الأخلاق مستقيمة استقام الكون ، واذا فسدت اضطرب ، فكلما كان الاعتدال والانسجام والعدالة بين الناس استقام الكون ولا يضطرب . وما الزلازل وما خسف الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر الا من فساد الأخلاق ، وعدم استقامتها . وهي أمارات على ذلك ، واذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب ، فالسلوك القويم يجلب الخير ، والبركات . ويجعل كل ما في الكون يجيء على ما يحبه الانسان ويرضاه .

وعلى ذلك يكون المؤثر فى الكون ثلاثة :

أولها : السماء بسلطانها ، والأرض بقبولها لحكم السماء ، والانسان بارادته الخلقية ، فان اختار خير الأخلاق وأفضلها واتجه اليها . فان مظاهر الكون تكون لخير الانسان . فالجو يمتلىء بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة غير اللافحة ، والغيث المحيي لموات الأرض من غير أن يخرب العمران ويصير غيثاً ، وتكون الشمس المشرقة ، والنهار المبصر والليل الساجي .

١٣ ـ وبذلك نجد أن العقيدة الصينية فاسدة ، والخلق الصيني قوي ، والارادة الصينية قويمة ولكنها قائمة على عقائد فاسدة ، وما يقوم على الفاسد لابد أن ينهار ، اذ هو قائم على شفا جرف هار ، غير مستقر ، ولا ثابت الدعائم .

واذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين حكم خلقي له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والازمان ،

فان الصين قد وصلت الى حكم عملي حسن في جملته يتجه الى الخير في غايته . ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من ايمان خال من الأوهام ، وعقيدة بعيدة عن الأخيلة غير المحققة ولا الثابتة .

ان العقيدة الصالحة هي التي توجد الأخلاق الثابتة ، وهي التي توجد المجتمع الفاضل الذى يريد الخير بدافع من ايمان به ثابت الدعائم قوي الأركان .

١٤ ـ وننتهي من هذا السياق الذي انتقلت فيه من اليونان والرومان سائرين الى الشرق الأدنى فالشرق الأقصى ـ الى أن العالم كله فى الفترة التى كانت قبل المسيح ومحمد ، كان يموج فى مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة .

وأنه فى الوقت ذاته كانت الوثنية تضيق ذرعا بالوحدانية التى جاء بها موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه ـ كان الشرق الأقصى بعيدا عن هذه الدعوات الى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم والأرواح فى الصين .

كان العالم اذن يموج بفساد الفكر ، وفساد العمل ، واضطراب الحكم ، وانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وسيطرة الأقوياء على الضعفاء ، وقد اشتد الطغيان .

## وثنية اليونان والرومان :

١٥ ـ وبجوار تلك كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الوثنية ، وكان غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون فى جاهلية عمياء ، لم يكن فيها هاد ولا مرشد ، كما تعيش بعض القبائل فى مجاهل أفريقية ولا فرق بينهم الا فى اللون ، فأولئك بيض ، وهؤلاء سود ، ولكن الفعل واحد ، والوحشية متقاربة ولعل البيض أغلظ أكبادا ، وأقسى قلوبا .

١٦ ـ ولما جاءت المسيحية جاءت اليهم بعد أن شاهت ، واعتراها التغيير والتبديل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت عن اصلاح

الأخلاق ، وبث الاطمئنان في القلوب ،والرضا في النفوس ، فكان لابد من دين يقود العقل الى ما فيه خير العباد ·

وقد فقدت الأوثان قوة تأثيرها فيالجماعات ، اذ أن الفلسفة قد أيقظت العقول ، وان لم تهدها ، وحركت الأفهام ودفعتها الى التفكير ، وان لم تهدها الى الصراط السوي الذي يسلكهمن يستضيء بنورها وحدها ، فكان لابد من دين بجوارها ، وخصوصاً أن المدائن الرومانية لم يكن فيها التناسق الاجتماعي الذي يجعل كل انسان يرضى بما قسم له من حظ ·

ان التاريخ يحكي أن توزيع الثروةفي الدولة الرومانية لم يتحقق فيه العدل الاجتماعي ، فبينما ترف فيمن أفاءت عليهم الدولة بالغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ترى ألوف الألوفمن الناس قد حرموا ما يتبلغون به في حياتهم ،فاستولى عليهم الاحساس بالظلم،والناس لا يشقون بآلام ذاتية وحرمان ذاتي بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهمالتي امتنعت عليهم ، وكذلك كانت الآلام في سواد الرومان ، ولولا بقاياما من الصبر عندهم لانفجروا في ثورات ماحقة لاتبقي ولا تذر ·

## مَزْجُ الفلسَفة بالدِّين:

١٧ ـ وفي هذا الوقت أرادوا أن يمزجوا الفلسفة بالدين أو يحلوا الفلسفة محل الدين ، اذ أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان في التأثير في نفوس الشعوب ، وفقدت معابد الأوثان ما كان لها من روعة ، ولقد كان يعتور النفس الرومانيةحينئذ عاملان قويان كلاهما فيه شدة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم في حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى بالجزاء في يوم آخر غير يوم الشقاء الذين يعيشون فيه ، والعامل الثاني الذى أضعف هذه السلوى هو أن الآلهة التي تمثلوها في الأوثان في زعمهم قد فقدت قوة تأثيرها ·

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ، ولكنها لم يكن لها تأثيرها ، فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون ، وليس التقاء تخاصم وتناحر ، كما كان الشأن بينهما ·

جاء في كتاب المبادىء الفلسفية « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بها الى الشعور الديني اللجوج بفكرة في العالم قد تقنعه ،فأوجدت نظماً دينية تتفق مع الأديان في النظر فيما وراء المادة اتفاقا يختلف قلة » .

وهنا نجد الفلسفة اليونانية التي تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانتين اللتين كانتا بارزتين في ذلك الابان ، وقد تخاذلت وثنية اليونان والرومان عن أن تقف وحدها في الميدان ، فأتي بآراء في خلق العالم تقرر أن منشىء الكون الجدير بالعبادة في نظرها يشتمل على ثلاثة أمور :

أولها ـ أن الكون صدر عن منشىء أزلي دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده الأفكار ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام.

ثانيها ـ أن جميع الأرواح شعب لروح واحدة ، وتتصل بالمنشيء الأول بواسطة العقل الذي صدر عن المنشيء صدور المعلول عن علته ، فهما متلاقيان في القدم ، ويصح التعبير عن المنشيء الأول بالآب وعن العقل بالابن ، وان كان أحدهما ليس متخلفا عن الآخر في الزمان .

ثالثها ـ أن العالم في تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة .

## التثليث في الفلسفة :

١٨ ـ وخلاصة القول أن الشيء الأول هو مصدر كل شيء ، واليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ،فليس بجوهر ، ولا بعرض ، فليس بفكر كفكرنا ، ولا ارادة كارادتنا ،ولا وصف له الا أنه واجب الوجود ، يتصف بكل ما يليق به يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج هو الى موجد له .

وأول شيء صدر عن هذا المنشيء في نظر صاحب تلك المدرسة وهو أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه متولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه .

ومن العقل انبثقت الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يكون التدبير والخلق .

ويلاحظ أمران :

أولهما ـ أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين « وصارا يضربان على نغمة واحدة هى نغمة ذلك التثليث ،وهو ما اشتملت عليه النصرانية التى حالت اليها المسيحية التي تزعمها من تركوا ما دعا اليه المسيح عليه السلام ٠

وبها تلتقي الفلسفة مع ذلك الدين،وتلتقي الوثنية التى تتعدد فيها الآلهة وتكون منهما تلفيق متناسق أو غير متناسق ، من غير نظر الى كون هذا الامتزاج مزيجا ، قد اختفت فيه ظواهر العناصر الممتزجة فى مزاج واحد ، أم لم تختف ٠

الأمر الثانى ـ أن شيخ هذه المدرسة هو أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ميلادية اعتنق الديانة المسيحية الأولى التى جاءبها أتباع المسيح عليه السلام فيما نظن ، ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين ٠

وجاء من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولا ـ ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ، وبراهمة الهند وديانتهم ، وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، وقد رفعوه الى مرتبة الاله ،والبراهمة فى كرشنة ، وقد رفعوه أيضا الى مرتبة الاله ، وقد عاد من بعد هذه الرحلة التى تزود منها بالزاد البرهمي والبوذي الى الاسكندرية التي كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذى بيناه ٠

١٩ ـ فى هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم في القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكري أمداً بعده ، حتى جاء القرن السادس ، وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ، وانحل الفكر انحلالا شديداً فيما يتعلق بالاعتقاد ٠

وانشقت النصرانية التي انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى بن مريم على نفسها ، فكان منها الملكانية وكان منها اليعقوبية ، واشتد الخلاف بينهم ، حتى انتقل الخلاف الى عداوة فكرية ثم الى عداوة تشبه العداوة الجنسية ، وأغرى

الله تعالى بينهم بالعـــداوة والبغضاء ،وتفرقت النفـــوس والأفكار ، وضعف الاعتقاد ، وانحل الايمان ، فانه كلمـــا انتقلت العقائد الى أن تكون موضـــع مجادلات تضعف ، ويعرض لها الشك ،وينتهي اليقين ، وكذلك كان الأمر في الأرض التي كانت تعتنق النصرانيـــةفي القرن السادس ، في البلاد التي كانت تجاور الجزيرة العربية وفي الجـــزيرة نفسها ٠

٢٠ ــ فالمسيحية ابان القرن السادس الميلادي قد ضعف الايمان بهـــا ، لكثرة الجدل فيها ، ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ، واقتصرت على اتجـــاه معين من اتجاهاتها ٠

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ،وتجسس اليهود على النصارى ، واختفى المسيحيون في أكنان من أرض الروم وفلسطين مستسرين بعقائدهم ، وكلمـــا ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهـــاد ،والأذى المرير ، وتبارى فى ذلك مـــلوك الرومان ، وقد جعلوا عمل أمرائهـــم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليئـــدوا ذلك الدين الجديد في مهده ، ويقبروهفي حجر ولادته ٠

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلك الاضطهاد ، وقـــد جاء في كتاب تاريـــخ الحضارة ما نصه « قد كتب بلين وكان واليا فى آسيا الى الامبراطور تراجـــان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : « جريت مـــع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية، وهو أني أسألهم اذا كانوا مسيحيين ، فاذا أقروا أعيد عليهم الســـؤال ثانية وثالثة مهددا بالقتل ، فان أصروا أنفذ فيهم عقوبة الاعدام مقتنعاً بأن غلطهـــم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقـــان بهما هذه العقوبة ، وقد وجهت التهم الى الكثيرين بكتب لم تذيـــل بأسمـــاء من كتبوها ، فانكر المتهمون أنهم نصارى ،وكـــرروا الصـــلاة على الأديان التي ذكرت أسماءها أمامهم وقدموا الخمـــور والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأديان ، بل انهم شتموا المسيح ، ويقال انه من الصعب اكراه النصراني الحقيقي على شتم المسيح ، ومنهـــم من اعترفوا بأنهم نصارى وكانوا يقـــرون بأنهـــم يجتمعون فى بعض الأيام قبل طـــلوع الشمس على العبـــادة ، وعلى انشـــاد الأناشيد اكراما للمسيح ، وتعاهـــدوا بينهم لا على ارتكـــاب جرم بل عـــلى ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى أن أعذب

امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ،بيد أني لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة ٠

وقد كثر الاضطهاد ، وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير في موكبه ، اذ يطليهم بالقار ، ويشعل فيه النار ، وتصير تلك الشعلة في احتفاله بنفسه ٠

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ، وأنزل بهم العذاب وقتل في مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق ، حتى انه اعتبر تاريخ ذلك العذاب هو ابتداء التاريخ القبطي ٠

٢١ ـ وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ، فكانت بقايا الوحدانية تظهر على لسان آريوس ،ومعه أكثر كنائس الشرق ، وأكثر الكنائس في فلسطين ، وكثير من كنائس مصر ٠

ولما أراد قسطنطين أن يدخل في النصرانية جمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وأعلن ثمانية عشرة وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ، فأخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء في المجمع كانوا يبلغون ٢٠٤٨ أو يزيدون ، ولكنه أراد أن تتغير المسيحية الى ما يقرب من الفلسفة والوثنية على أن يبقى اسم المسيحية ، وان خلت من لبها ، وهي الوحدانية التي تحارب الوثنية ٠

ثم توالت بعد ذلك المجمع الذى مال بالمسيحية عن معناها ، مجامع أخرى ، وأول مجمع عام انعقد بعد ذلك كان المجتمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١ ميلادية وفيه أضيفت الى مناصب الألوهية روح القدس لتتمم عناصر الأفلاطونية الحديثة التي أشرنا اليها آنفاً ٠

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التي قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت في الأذهان ، فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ، واعتقد أن المسيح ليس ابناً للآله بالحقيقة ، انما البنوة مجازية، اذ هو ابن بالنعمة والمحبة ، لا بالألوهية، فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م، ليبطل قوله ، ويكفروه كشأنهم في كل من يجهر برأى ٠

توالت من بعد ذلك الخلافات المفرقة، فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الانسان ثم فاضت عليه البنوة الالهية التي هي اللاهوت ، فيقولون ان في

المسيح صفتين اللاهوت والناسوت ، أوالانسان والاله ، والابن هو مجمـــوع الاثنين ، وهو الأقنوم ٠

والآخرون يقولون انه طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معاً ، فقد ولدت الانسان والاله ٠

وقد اعتنقت الكنيسة المصرية وحدةالطبيعة وولادة مريم لهما معاً ٠

وكان الخلاف الشديد بينهما ، وكانالنزاع وكان الجدل ، وكل جـدل يحـل الاعتقاد ، ويضعف قوته ، ويخضد شوكته ، ولا يجعل له قوة دافعة مانعة ٠

وقد أشتد ذلك كله فى القرن الخامس والسادس ٠

وبذلك نقول مقررين أمرين :

أولهما ــ أن القرن السادس كانت العقائد فيه غـير قارة في النفـــوس ، والآراء تخلق وتمتنق ثم يتعصب لها ،وليس التعصب دليلا على قوة الاعتقاد ، بل التعصب دليل على الانحراف النفسي،والنظر الجانبي ، وكذلك كان تعصـب الملكانيين ضد اليعقوبيين ، اذ كان فيجملته ادراكا جانبياً منحرفاً ٠ العصبية هي المسيطرة فيه ، وليست قـوة اليقينهي المسيطرة ٠

ثانيهما ــ أن النفوس في القرن السادس كانت مهيأة للعقيـدة الصحيحـــة تمتنقها اذا ظهرت بيناتها ، وقام الاستدلال المنطقي عليـــه ، وخصـــوصاً أن الأفكار المرددة كانت أوهاماً ، أو أقوالاغير متميزة تمييزاً عقلياً ، ولم تكن قد استقرت استقراراً يجعل التعصب لهـا يشبه الطائفية ، كما حدث من بعد بين النصارى ، وبين اليهود ٠

وهكذا نرى المسيحية التي خلفت المسيحية الحقيقية التي جاء بهـا المسيح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جاءتالى النفوس قلقة غير مستقرة ، بل انها مضطربة غير ثابتة ٠

فاذا كانت أوثان الرومان قد فقدتقوة تأثيرها ، وحل في ربوع الوثنيـــة ديانة تأخذ من اليهودية طرفاً يأخـــذها بأحكام التوراة الا ما خالف الأناجيل ، وتأخذ من الوثنية بأطراف ، ولا تـكاد تأخذ من الدين الحقيقي شيئا ــ فان ذلك المزيج الجـــديد لم يستقـــر ، بل جاءمضطرباً واهناً حتى نهاية القرن السادس الهجـــري ، فكانت النفوس مهيأة لدينجديد هو الدين الحق ٠

# العـــرب

٢٢ ـ طفنا بتفكيرنا حول العالم من غربه القريب والبعيد ، الى شرقه الأدنى والأوسط والاقصى ، ولم نعرج على البلاد العربية ، ونحسب أنها القلب ، وأنها ذؤابة الفكر الأدبي ،فاليها تأرز الحقائق الدينية قديماً وحديثا ، ومنها خرجت أصوات الأنبياء،خرجت ابتداء من أطرافها ، ثم ختمت الرسالة الالهية في قلبها ، ولقد هاجرابراهيم أبو الأنبياء الى بلاد العرب ، وولد فيها ولده اسماعيل الذي كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومن بعده اسحاق ، والأول من جاريته هاجر ،والثاني من زوجه سارة ، وقال من بعدهما

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

وقد كان من ولده قريش الذين كانوا ذؤابة العرب ، ولهم مكانة الزعامة فيهم ، كما سنبين عند الكلام عن الكعبة،فاليهم يأرزون ، والى تلك البنية يحجون .

وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذى جاء به أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكانوا فى أصلهم موحدين لا يعبدون غير الله تعالى ، فلا يعبدون صنماً ، ولا حجراً ، ولا حيواناً،وليس من ألوهية لمخلوق الا ما كان ممن وفدوا اليهم من النصارى كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم ، وقد كان يقوي توحيدهم صلتهم بابراهيم عليه السلام ، وشرفهم في الانتساب اليه عن طريق ولده اسماعيل عليه السلام ، ولكن طرأ عليهم ما حالت به أحوالهم ، وتغيرت بسببه عقائدهم وذلك لتقادم الزمن بينهم وبين اسماعيل عليه السلام ، حتى نسوا ما عرفوا .

---

(١) ابراهيم

## دُخول الوَثنيَّة أرضَ العَرَب:

٢٣ ـ توردت عبادة الأوثان على النفس العربية ، والتفكير العربي من نواح ثلاث :

أولاها ـ أن بقايا من الديانات القديمة كانت فيها وثنية ، وان لم تكن سائدة في البلاد ، فقوم نوح كان فيهم وثنية . وقيل انه كان عربياً ، أو خاطب العرب ، وقد قص الله خبر أوثانهم فقال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ (١)

ولا شك أن هذه الأثارة من بقايا الوثنية تبقى ، وان لم تكن سائدة مسيطرة، وانك لترى أن بعض المتدينين بديانات سماوية يبقى في نفوسهم بعد اعتناقها بقايا أشربت بها نفوسهم ، وتجري آثارها في بعض آرائهم ، واذا لم تصل الى أن تكون رأياً يقنع ، فانها قد تكون تقليداً يتبع .

الثانية : من جيرانهم الرومان ، فان الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض ، ومن الاختلاط الذى كان بين بعض العرب والرومان في الاتجار كانت العقائد الدينية تجيء اليهم ، وخصوصا أن دولة الرومان كانت أقوى سلطاناً من الجماعات العربية ، وأن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم، كالغساسنة، فانهم كانوا تحت سلطان الرومان وكانت له تبعية للرومان ، ووراء هذه التبعية الاختلاط ، ووراء الاختلاط العدوى .

والناحية الثالثة : ذكرها ابن اسحق صاحب السيرة فقال :

« يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيح في البلاد الا حمل معه حجراً من

---

(١) نوح .

حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات » .

ويذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه أن ابن هشام قال : « حدثني أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ، قالوا له هذه أصنام نعبدها ، فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم ألا تعطون منها صنما ، فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته » .

وعمرو بن لحي هذا كان سيد خزاعة ، وكانت لخزاعة سدانة البيت الحرام، فكان له بهذا سلطان في التوجيه، يعظمون ما تعظمه .

وان هذا يدل على مقدار العدوى التي جاءت من الرومان ، فما كان في الشام انما هو من أثر وثنية الرومان ، وان ذلك يؤكد أن وثنية العرب كان للعدوى أثر فيها وان كان ثمة أسباب قوتها .

ومهما تكن الأسباب فقد توافرت ، حتى دخلت الوثنية الأرض العربية ، وبين ذرية ابراهيم حاطم الأوثان الذي جعلها جذاذا .

وقد سيطرت الوثنية على أعمالهم حتى لقد ورد عن أبي رجاء العطاردي أنه قال : « كنا في الجاهلية اذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها » .

## لَمْ ينسَوا اللهَ في وثنيَّتهم :

٢٤ ـ لقد أغرم العرب بعبادة الأوثان اغراما شديدا ، حتى صارت جزءا من مداركهم وعقولهم وأصبحوا يستنصرون بالأحجار ، ويظنون أنها تجيب سؤلهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا

كما قال تعالى عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (١)

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنيـــة العرب اذ أن وثنية العرب فيها ايمان بالله ، وان لم يـــكن وحدانية ، بل كانوا يشركـــون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فقـــد كانت نظرية الحلول تسري فيهم ، ولا يجيء في وثنيتهم ذكر الله تعالى قط .

والسبب الجوهري في هذه التفرقة أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كمـــا تلقوه عن اسماعيل وابراهيم عليهمـــا السلام ، فكان بقية مما وصى به ابراهيم بنيه ويعقوب ، كما قال تعالى في كتابه الـــكريم:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (٢)

الأمر الثاني ـ هو احترام الكعبة والبيت الحرام ، وهو ما ورثوه عن ابراهيم عليه السلام فقد كانوا مع وثنيتهم فيهم بقايا من عهد ابراهيم من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف عـــلى عرفات والمزدلفة وهدي البدن، والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، ويقـــول ابن اسحاق في سيرته : « كانت كنانة وقريش اذا أهلوا قـــالوا لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فيوحـــدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معـــه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده » ، ويقول تعالى لمحمد :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٣)

ومن أجل أن العرب كانوا يحاولون الجمع بين ايمانهم بالله تعالى وايمانهـــم بالأوثان نقول ان ايمـــانهم بالأوثان لم يكن قويا مستغرقا ، كما آل اليه أمرها

---

(١) لقمان ـ ٢٥ (٢) البقرة (٣) يوسف

عند الرومان ، وخصوصا قبل البعـــث المحمدي ، كما أن ايمانهم بالله تعالى • لم يكن صحيحا،لأن الايمان بالله لا يتحقق الا اذا كان المـــؤمن يؤمن بوحـدانيته لا يشرك فيه أحداً في ذاته ولا في الخلق والتكوين ، ولا في العبادة ، فـلا عبادة الا لله تعالى وحده •

ولكن الذى يدل عليه الجمع بين الايمان بالله تعالى ، والايمان بالأوثان هو أن اعتقادهم فى الأوثان لم يكن قويامكينا ، بل هو اضطراب في الاعتقاد ، ولا استقرار فيه ، بحيث تستقر النفس وتطمئن ، وكيف يستقر عقل ، يجمع قبضة من التراب أو يقتطع قطعـة من الحجر يجعله معبوده ، ويعبده أطـراف النهار وزلفاً من الليل ، وهو مـع ذلك يجزم بأنه ليس بخالق ، ولكنه مخلوق •

واذا كانت الوثنية قد ضعفت في آخر أمرها قـــوة الأوثان ، فان أوثان العرب خلقت فكرتهـا ضعيفة يوجـــدما ينازعها ، أو يجعلها قلقة غير مستقرة اذ هي في نفسها تحمل عوامل ضعفهـا وردها ، ولكنه التقليد الأعمى ، الذي يسد مسالك الادراك على العقل •

## القلوبُ فارغـة مِن إيـمَان :

٢٥ ــ ان الذى ذكرناه أن القلوب والعقـــول كانت فارغة تحتـــاج الى ما يملؤها ، ويسد فراغها ، ولا يتركها شاغرة فى شرق الأرض وغربها يستوي فى ذلك قاصي الأرض ودانيها فالشرق الأقصى كما يعبر رجال السياسة لم يكن فيه ايمان بشيء ، وقد كانت الأوهام هي التي تسيطـــر ، والأوهـــام وان استمكنت فى نفوس من تسيطر عليهـم غير صالحة للبقاء ، انما الذى يصـــلح للبقاء مما يسيطـر على النفوس هـــو ما يكون متفقا مع حكم العقل ، والتفكير السليم ، والأوهام وان قويت لا تستطيع مقاومة العقل ، ومثل الأوهام كمثـــل الضباب يبدده ضوء الشمس ، فكـذلك العقل يبدد ضباب الأوهام ، ويكشف عن المدارك غمتها •

والهنود تسيطر عليهم أوهام أشد وظلم اجتماعى غير صالح للبقاء ،والفرس ظهرت عندهم مذاهب هـدامة تهـــدم الانسانية ، فتجتثها من جذورها أو تهدم أخلاقها التى يتماسك بها آحادها •

والرومان وما كان تحت ظلهم قـــدفقدوا الايمان ، فاستبدلوا بالوثنيـــة النصرانية التى ابتدعوها ، ولكن لم يثبت بها ايمان الى القرن السادس ٠

وليس فقد الايمان كان خاصـا بالعقيدة فيمـــا وراء الطبيعة ، بل كان مفقودا فى القيم الانسانية الخلقية كماهو مفقود فى العبادة والألوهية ، فـلم يكن ثمة خلق انساني سليم ، بل كـانكل شعب ينظر الى الآخر ، نظرة العدو، وأصبح التفكير الخلقي مقصـــورا علىمعاملة أبناء الوطن الواحد ، لا أبنـــاء الانسانية عامة وعم ذلك ولم يخص ،حتى كان الفلاسفة لا يؤمنـون بحـــق الشعوب ، فأفلاطون قد كان يعتبر ماعداااليونان من الناس برابرة ، وكـــل من يبعد عن وطنه فرسخا أو دونه يسترقهمن يلقفه من غيره ، وقد وقع الرق على أفلاطون نفسه ، حتى افتدى ، وهـكذاقد فقد الايمان بالقيم الانسانية كمـا فقد الايمان بالألوهية ٠

فكانت أماكن الايمان شاغـرة من القلوب ، فلا بد من أن يكون من يملؤها، لابد من محمد رسول الله رب العالمين ،ولابد أن يقوم فى وسط الأرض يدعو أهل الأرض فى أرض النبوة الأولى ٠

# أرض النبوة الأولى

٢٦ ـ قرأت لبعض كتاب الفرنجة كلاما يتحدث فيه عن أروشليم وبيت المقدس يقول فيه ان أروشليم وما حولها من البقعة المباركة كانت مدرسة الأنبياء، ففي وسطها تربى الأنبياء ، وعلت أصواتهم بالرسالة ، وأنه لا مدرسة للنبوة غير هذه المدرسة ، ففيها ظهر داود، وسليمان ، وعيسى ،وهي التي أرادها موسى ، ودعا بنى اسرائيل لأن يدخلوها، فقالوا ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ٠

وذلك القول فيه حق ، وفيه باطل ،أما الحق فهو ما ينبىء عنه من مكانة أورشليم التى بها المسجد الأقصى مسرى النبي ، وثالث المساجد التي تشد اليها الرحال ، والتي كان منها المعراج ، والقبلة الأولى للاسلام، وهي بهذا وبغيره سميت في القرآن ، والمصادر الدينية السماوية ، الأرض المقدسة ٠

أما الباطل فى كلام ذلك الكاتب فهو :

أولا ـ فى قصره النبوة على أورشليم وما حولها ، فان القصر ليس بسليم ، فانه ما من أمة الا خلا فيها نذير ، وبعد أن قص الله تعالى قصص عدد من الأنبياء قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١)

واننا لا نذهب بعيداً عن أورشليم فانه بجوارها الجزيرة العربية وأطرافها كما فيها الأنبياء أصحاب الرسالات التى جاءت بها كتب سماوية وذكرتها التوراة والقرآن ، مما سنذكره فى هذا الموضوع قريبا ان شاء الله ٠

---

(١) غافر ـ ٧٨

ثانيا ـ لأنه فهم أن للنبوة مدرسة يتربى فيها الأنبياء وذلك باطل لأن النبوة رسالة من الله تعالى لخلقه ، لا تكون بمدرسة يتخرج فيها الأنبياء ، ولكن تكون بوحى من الله تعالى ، وتكليف منه سبحانه وتعالى ، سواء أكان ذلك الوحي بخطاب أوحي به اليه ، أو بكلام الله تعالى من وراء حجاب كما كان الشأن بالنسبة لموسى عليه السلام ، أو برسول من الملائكة ينقل عن الله تعالى لمن اصطفاه من خلقه نبيا أو رسولا ، فاعتبار أورشليم مدرسة للنبوة ، كلام ليس دينيا وليس علميا ، ولا يتفق مع تاريخ الأنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

٢٧ ـ واذا سأل سائل لماذا بعث محمد فى الجزيرة العربية وفى الحجاز منها ؟ ولم يبعث فى أورشليم كما بعث داود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام .

ونقول فى الجواب عن ذلك « ان أكثر الأنبياء خصوصا أصحاب الرسالات كموسى وابراهيم ونوح واسماعيل واسحاق لم ينشؤا بأورشليم كما توهم ذلك الكاتب الفرنجي الذى لم يعرف معنى الرسالة والرسل ، ولم تكن الجزيرة العربية خالية ، بل هى كانت منبعث الأنبياء أصحاب الرسالات من القديم ، والذين كانوا فى أورشليم ان استثنينا عيسى عليه السلام وداود وسليمان لم يكونوا أصحاب كتب يعمل بها أقوامهم وانما كان يعمل أكثرهم بكتب نزلت على غيرهم ، وأكثرهم كان يعمل على اقامة توراة موسى .

أما الرسل الذين جاؤا فى الجزيرة العربية فقد كانوا أصحاب رسالات ، ينفذونها بأنفسهم ، ولم يكن عملهم مقصوراً على بيان الرسالات لمن سبقوهم ولقد بين الله وحده الرسالة الالهية التى اختلفت كتبها ، ولم يختلف معناها ، فذكرها فى قوله تعالى

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

(١) الشورى .

وأولئك هم أولو العزم من الرسل ،ولم ينشأ فى أورشليم منهم الا عيسى عليه السلام ، والآخرون كانوا تابعين من البلاد العربية ، أو مما حولها من أرض كنعان ، أو من أطراف الجزيرة كأرض سينا .

فالبلاد العربية هى موطن الرسالات الأولى ، بها ابتدأت الرسائل الالهية ، وبها ختمت ، فلم يكن غريباً أن يبعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد ، وينبثق نوره فى الآفاق من أهل المدر ، وأهل الوبر فيها .

هذا اجمال نعرج اليه ببعض التفصيل :

## إدريس عليه السلام :

٢٨ ـ ان الحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد النبوة فادريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا ،والذى تقول الأخبار ، انه كان فى البطن الثالث لآدم أبى الخليقة ، قالوا انه كان عربياً وفى أرض العرب ، وليس لدينا دليل يجعلنا نؤمن بأنه البطن الثالث لآدم ، ولذلك نطرح القول فى ذلك غير مكذبين ولا مصدقين ، ولا نحسب أنه من أساطير الأولين .

وانما الذى نتمسك به هو أنه صديق من الأنبياء الذين وصفهم الله تعالى بذلك الوصف الكريم . فقد قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ (١)

فهو صديق،وهو رفيع المكانة عند الله تعالى ، لأنه سبحانه رفعه مكانا عليا .

ويغلب على الظن أنه لم تكن نشأته بأورشليم ، لأن أورشليم أنشأها يعقوب بن اسحاق عليهما الصلاة وأتم التسليم.

ولقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء أن ادريس فى سلسلة نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد جاء فيه ما نصه .

« ادريس عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه بالنبوة والصديقية ، وهو فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم » .

---

(١) مريم

وما دام فى عمود نسب النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم يعد عربياً ، ولا يعد من أورشليم ، ولا شك أن الحكم فى هذه المسألة الموغلة فى التاريخ لا يعد حكما قاطعا ، ولكنه حكم راجح ، وأكثر مسائل التاريخ الحكم فيها ظني لا قطعي ٠

## نـوح عـربـيّ:

٢٩ ـ تضاربت الروايات عن منشأ نوح عليه السلام أكان ببابل أم كـان بالجزيرة العربية ، ولكن الثابت أنه مر بالبلاد العربية ، وذكـروا أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مـرة ، ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البـلاد العربية ، فقد قال ابن كثير فى قبره :« وأما قبره عليه السلام ، فروى ابن جرير والأزرق عن عبد الرحمن بن ساط مرسلا أن قبر نوح بالمسجد الحرام ، أى بالموضع الذى بنى فيه المسجد الحرام »٠

ويقول ابن كثير : « وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المؤرخين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم ( أى فى القرن الثامن الهجرى ) بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك ٠

والحق أنا نميل الى أنه طوف بالآفاق ، فاذا كان منشؤه ببابل ، فهو قد آوى الى بلاد العـرب حصن الديانات الأولى ، ومنابع النبوة ٠

## هـود نـبـيّ الله كان عـربـيًّا:

٣٠ ـ هود أقدم من ابراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنـون بالأحقاف ، وكثيرا ما كانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ٠

ويذكر ابن كثير أنه يقال ان هوداً أول من تكلم بالعربية ، ويقول ابن كثير : « وزعم وهب بن منبه أن أباه ( أى أباهود ) أول من تكلم بها ، وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام ، ويقول للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجـرهم وغيرهـم وأما ولد اسماعيل ، فيسمون العرب المستعربة»٠

وقد قالوا ان هوداً كان أول نبى بعد نوح عليه السلام ، وربما يومىء الى ما حكاه الله فى خطابه لقومه :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا النص أنه يومىء الى أن هوداً جاء من بعد نوح ، وأن قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ثم يؤتي بالاشارة من جهة أخرى الى أن قوم نوح كانوا فى أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم ، والله أعلم .

وان عاداً كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، وأقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشدها غرورا ، كما قال الله تعالى عنهم :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

وهكذا نرى هوداً عليه السلام يجادل قومه بالحسنى أو التى هى أحسن ، وهم يجادلونه بالعنف أو الطغيان حتى أهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية .

## صالح عربى :

٣١ ـ صالح عليه السلام هو نبي ثمود ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر بديار ثمود رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك فى الغزوة التى قد غزاها .

---

(١) الأعراف (٢) فصلت

كان يدعوهم نبيهم الى التوحيد ، وكانت بينته ناقة لا يمسوها بسوء ، والا كانوا خاسرين كما قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح وقومه :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، اذ كانوا خلفاءهم ، وكانوا اقوى قوة واكثر عددا كما قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢)

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب واصب وأبادهم ، ويروى أن المسلمين رأوا البئر التى كانت تشرب منها ، وذلك في غزوة تبوك ، فقد روي عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها وملئوا القدور ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة .

## إبراهيم أبو العرب المستعربة وإسماعيل :

٣٢ ـ لقد ولد ابراهيم فى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل .

وقيل ان ابراهيم ولد بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له جبل قاسيون ولكن ابن عساكر راوي الخبر يقول « والصحيح أنه ولد ببابل » .

---

(١) الأعراف (٢) الأعراف .

ولكن ابراهيم لم يستقر فى بابل ، بل كان يتنقل فى الأقاليم ، فارتحل الى كنعان حيث أرض فلسطين ثم ارتحل الى حران ، والجزيرة والشام .

وكانت عبادة الكواكب سائدة فى البلاد التى نزل بها ، وكان هو يدعو الى عبادة الله تعالى الواحد القهار ، ولقد حطم الأوثان وجعلها جذاذاً ، وقد حاول المشركون أن يحرقوه بالنار لما فعل بآلهتهم ، فألقوه فى النار ، وهو لايعتمد الا على الله تعالى ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فاستجاب الله لدعائه ، وجعل النار برداً وسلاماً عليه ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، فهم أرادوا الأذى لابراهيم ، وأراد الله الخير له ، فكان كيدهم شراً ، وأراد احباط ما صنعوا وكانوا الأخسرين ، لأنه لم يتم لهم مارب ، وحقق لابراهيم الغاية .

ولم يجد ابراهيم مهاجرا الا فى بلاد العرب ، هاجر اليه بعد أن طوف ما طوف ، اذ أن أم ولده اسماعيل هاجرت بولدها الى مكة فرارا به ، وطمأنينة عليه ، وكان معها ابراهيم ، أو هو الذى أخذها اليه .

هربت بابنها اسماعيل الى موضع مكة ، ومعها أبوه خليل الله .

وقد أصابها العطش ، فأخذت تسعى الى الماء بين الصفا والمروة حتى رأت عينا ثرى ، فملأت سقاءها وشربت هى وولدها .

ولقد شب اسماعيل عن الطوق ، وتعلم العربية ، ورزقه الله هو وأمه رزقا حسنا ، كان يأتيهما من غير حساب ، وكان الخليل يزورهم الوقت بعد الآخر .

---

(١) الأنبياء .

## بنـــاءُ الكعبَـــة:

٣٣ ــ وفى احدى الزورات التقى الشاب بأبيه ، فصنع كل منهما ما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، عـــلى شوق بعد طول غياب ، فقال الأب لولده الشـــاب : يا اسماعيل ان الله تعـــالى أمرني بأمر ٠

قال الشاب : اصنع ما أمـــرك به ربك ٠

قال الشيخ : وتعينني عليه ؟

قال اسماعيل : وأعينك عليه ٠

قال الشيخ لابنه : فان الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ٠

فعندئذ رفعا القواعـــد من البيت ،فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة ، وابراهيم يبنى ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بالحجر الأسود فوضعه ، ليكون عـــلامة ابتداء الطواف وانتهائه فى مراته ٠

وهذا ما بينه الله تعالى فى قوله تعالى تعالت كلماته :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

استقر بابراهيم المطاف بأن بنى ذلك البيت أول بيت وضـــع للناس ، فشرفت البلاد العربية به ، وشرفت بابراهيم الذى جعلها تختار بناءه بأمـــر الله تعالى ٠

---

(١) البقرة ٠

فابراهيم اذا كان مولوداً ببابل ، وان بيته أول بيت لله تعالى بناه بالبلاد العربية ، فليست البلاد شريفة به وبابنه فقط، بل هي شريفة بأن ابنه أبو العربية المستعربة ٠

واذا كان ابراهيم أبا الأنبياء حقاً صدقا ، فانه لم يبن بيتاً بأمر الله تعالى الا في البلاد العربية ، ولم يبن ذلك البيت بكنعان ولا ببابل ، ولا بغيرهما ، فكانت الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى حقا وصدقا ، ولا غرابة في أن يكون مبعث محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، انما تكون الغرابة ان خرج نبته الطاهر من غيرها ٠

## شعيب ومدين :

٣٤ ـ جاء شعيب بعد ابراهيم وبعد لوط ، وقيل انه كان بعد يوسف عليهم السلام ، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط لأنه جعل من انذاره لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط ، فقد قال الله تعالى عنه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص القرآني السامي يدل على أمرين :

أولهما : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط فقد جعل في بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوي ماحق كان موضع انذار لهم ٠

ثانيهما : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا في العرب ، ولذلك قال :

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

فهم كانوا على مقربة منهم ، فهم كانوا مثلهم في أطراف أرض العرب من ناحية الشام ، اذ قد اختار لوط محلة غير المحلة التي كان بها

---

(١) (٢) هود ٠

عمه ابراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فهم من صفوة خلق الله الذين اصطفاهم على عباده ، وكانوا رسلا مبشرين ومنذرين ، وتركوا رسالات خالدة ، خلدها القرآن الكريم .

ولا نترك الكلام فى شعيب من غير أن نذكر كلمتين :

احداهما : أنه بعث لمدين ، وأهل مدين هم أهل الأيكة ، اذ كانوا يعبدون شجرة عظيمة هى الأيكة وهم أصحاب يوم الظلة ، وقد ذكر علماء تاريخ الأنبياء أن يوم الظلة يوم فيه حر شديد أصابهم ، وأسكن الله تعالى هبوب الهواء عليهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ظل ولا ماء ، ولا دخول فى الأسراب فهربوا من محنتهم الى البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا أرسلها الله تعالى عليهم ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح ، وخرت الأشباح » .

هذا ما ذكره ابن كثير فى معنى الظلة والصيحة التى أصيب بها قوم شعيب ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الرجفة والصيحة ، فقد قال سبحانه وتعالى فى قصتهم فى سورة الأعراف :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١)

وجاء فى سورة هود :

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢)

وهى عقوبات متتالية أرهقتهم الذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، حتى فروا من أماكنهم ، فجاءتهم الغمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة وكانت الرجفة التى أصابتهم .

وقد قال فى ذلك ابن كثير « جمع الله تعالى عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح

---

(١) الأعراف (٢) هود

الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات » ٠

الكلمة الثانية أن أهل مدين امتازوا من بين عبدة الأوثان بأنهم جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات بعضهم مع بعض ، كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، وكانوا قطاع طريق ، يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، يأخذون الفائدة الزائدة ، ويدفعون الناقص ، فان استدانوا نقصوا من الدين ، فكانوا بذلك أشد فسادا ، ولذلك كان نهي نبيهم لهم عن الفساد فقال لهم: ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فلا يفسد الجماعات الا التعامل الفاسد ، وهو مبيد جمعها ، لقد كانوا قليلا ، فكثرهم الله ، ولكنهم أضعفوا نخوتهم ، وأماتوا عزتهم ، فانصرفوا الى الفساد ٠

ولقد كان أوضح ما دعاهم اليه شعيب عليه السلام هو الوفاء والمعاملة الطيبة ، والتعاون على البر والوفاء بالحقوق ، بدل التعاون على الاثم ٠

وكان شعيب فصيح العبارة قوى البيان والتأثير ، حتى لقد روى فى بعض الآثار أنه خطيب الأنبياء ، ومدين من بلاد العرب على أطراف الشام ، جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء فى أرض مدين ما نصه :

« كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بني مدين بن مديان » (١) ٠

## مُوسَى كُلِّف الرِّسَالة فى أرض العَرَب :

٣٥ ــ لقد نشأ موسى بمصر حيث ولد بها ، وتربى فى دار فرعون ، وترعرع فى هذا ، وكان فى رعاية الله تعالى ، لا فى رعاية فرعون ، اذ كان يتوجس منه خيفة ، ولكن صنعه الله تعالى على عينه ، فحماه وأعطاه سبحانه وتعالى النبوة ، فكان كليم الله تعالى ٠

---

(١) قصص الأنبياء ص ٢٧٥ جـ ١ ٠

ولكنه لم تبلغ اليه رسالة ربه فى أرض مصر منبته ، ومرباه ، بل كلمه ربه من وراء الشجرة خارج مصر حيث البلاد العربية .

ذلك أن موسى عندما قتل من المصريين رجلا ، اعتدى على آخر من بنى اسرائيل قوم موسى ، وحرض على أن يقتل آخر لولا أنه أدرك أن هذه فتنة ، وقال لمن حرضه من قومه انك لغوي مبين ، ولما أخبر أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه خرج من مصر ، واتجه تلقاء مدين ، وهو يحس بالحاجة الى الغوث والمعونة ، وهو يقول :

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وهو يقول أيضا راجيا الهداية من ربه يقول :

﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ (٢)

حتى اذا ورد ماء مدين ، وجد أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان : أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم غيرهما ، وكانتا لا تسقيان غنمهما الا من فضل الماء الذى يبقى بعد سقي الرجال ، وانهم كانوا بعد سقيهم يضعون صخرة على العين ، فلا تتمكن الفتاتان الا من سقي غنمهما من فضل الرجال ، فقال موسى الفقير الى رحمة الله للفتاتين الضعيفتين في بدنهما كما هو ضعيف النفس لفقره ، والضعيف يحنو على الضعيف ما خطبكما :

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣)

فجاء موسى الى الصخرة فرفعها بعد أن صدر الرعاء وسقى لهما .

بعد ذلك قصت الفتاتان على أبيهما قصة القوي الأمين ، فاستأجره ثماني حجج أو عشرا ، حتى انقضت المدة ، عشر سنين لأنه قضى الأجلين ، أي أتمها عشرا .

---

(١) (٢) (٣) قصص .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

ومدين كما جاء فى قصص الأنبياءلأبي الفداء « هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام ·

فمدين كما ترى من بلاد العرب ،وهي التي جاءت فيها الرسالة · بعد أن أقام موسى عليه السلام فيها عشر سنين، بعد فيها عن بيئة فرعون فصفت نفسه ·

وقد يقال أن النص يفيد أنه كان بجانب الطور أي في أرض سيناء ، ونحن نقول ان ذلك حق ، ولكن بعد أن صفت نفسه من فرعون وآثاره وطغيانه، وتربيته قومه على الذلة والخنوع ، حتى كان فى مصر الرخاء والخصب والذلة مجتمعات ·

وكيف يوفق بين كون مدين ببلاد العرب على أطراف الشام · وكون موسى كلف الرسالة بجانب الطور · يجيب عن ذلك السؤال أبو الفداء في قصص الأنبياء فيقول : « وسار بأهله » أي من عند صهره ذاهباً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف ، فلما سار بأهله ، ومعهم ولدان وغنم قد استفادها مدة اقامته بمدين ، ومهما يكن من الأمر ، فان الله اصطفى موسى كليما له ورسولا الى فرعون ،

---

(١) قصص

وشعيب استنقذه من أرض مصر • مدة عشر سنين ، بعد فيها عن جو فرعون المعتم ، ليتلقى أمر ربه بتبليغ رسالته الى فرعون الذى طغى

﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ (١)

## أرضُ العرب مأوى الفارين بدينهم :

٣٦ ـ كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهاد ، فاتخذوها مستقراً فهي أرض النبيين أصحاب الرسالات العامة وهى أيضاً مأوى الديانات التى نبتت في غير أرض العرب عندما اضطهدوا في ديارهم ، ونزل بهم البلاء من التتار الذين جاسوا خلال ديار بني اسرائيل ومزقوهم كل ممزق ، وهم أولو البأس الذين بعثهم الله تعالى ، ثم من بعد ذلك الرومان الذين ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وكانوا لايعترفون لهم بحقوق الرومان ، ولم يدخلوهم في الجنسية الرومانية مع أنهم في حكمهم وتحت سلطانهم ، ورعاياهم ، ولكنهم الرعايا الأدنون ، وهم من فوقهم ، ولذلك لم يجد كثيرون منهم مأوى يأوون اليه الا البلاد العربية التى كانت حصن الذين يفرون بدينهم ، ولا يجدون ملجأ الا أرض النبيين الأولين التى لم يتغلب عليها •

وقد وجدوا الملاذ ابتداء في أرض اليمن فاستظلوا بظل قوم تبع ، ومع أنهم كانوا وثنيين وجدوا في حكمهم ظلا ظليلا ، استظلوا به ، وأخذوا حريتهم فيه ، وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، ولكن اليهود لا يعتبرون اليهودية دينا فيه اصلاح البشر وصلاحه ، ولكنهم يعتبرونه جنسية ، ويقولون مقالهم المزعوم الفاسد ، نحن أبناء الله وأحباؤه ولذلك لم يضموا اليمنيين الذين دخلوا في اليهودية اليهم ، ولم يضموهم في جماعتهم ويسمونهم السامرة ، ولقد عاشروا الأوس والخزرج في موطنهم الأصلي باليمن •

ولما هاجر أولئك الوثنيون الى يثرب حيث الجناب الخصيب ، وحيث المنجع المربع ، هاجر اليهود أيضا ، الى ما حول يثرب فهاجر بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وخيبر •

---

(١) العلق •

ولم يندمجوا في الشعب العربى ، بل اتخـــذوا حصوناً تحتويهم حينمـا أقاموا ، وانتجعوا الخصيب من الأرض ،فكان لهـم النخيـل والتمر في يثرب ، امتلكه الذين أقاموا فيها من بني قينقاع والنضير ، وقـــريظة ، وامتلك أهل خيبر مثلها ٠

وكانوا كشـــأنهم أثرين يحبون أنفسهم ، ولا يتعاونون مع أهل البلاد ، فكانوا لا يتعاملون مع العرب ، وان تعاملوا معهـــم يبخســـونهم ، وخانوهم عهودهم ، كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١)

فالعرب الذين آووهم وأنزلوهم أرضهم ، أبوا هم عليهـم المعاملة الطيبة ، ونظروا اليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والأمي يؤكل حقه فى زعمهـم الباطل ، ومنطقهم الأثيم ، وجانبوهم ،وتحيزوا في حيز دونهـــم وعاشـــوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون ٠

## النصـــرانيـة:

٣٧ ـ كما أوت اليهودية الى أرض الحرية أرض العرب ، أوت النصرانية اليها عندما كانت مضطهدة من الرومان،وكان اليهود يغرونهم بهم كما روي عن محاولتهم اغراء الرومان بالسيد المسيح عليه السلام نفسه ٠

وقد لجأت النصرانية الى أرض نجران ، ويظهر أنهم كانوا من النصـــارى الذين فروا من حكم القياصرة الذين اضطهدوهم،ويظهر أنهم كانوا فى ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانة السمـــاوية بالتثليث وادعـاء الألوهية لعيسى بن مريم ، وأمه والروح القدس ٠

---

(١) آل عمران ٠

فقد جاء في كتاب الاكتفاء ما نصه :« كان بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله التامر ، وكان موضع أصل ذلك الدين بنجـــران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان ·

وأن استقامة أهل نجران على أصل دين المسيح عليه السلام كانت قائمـة فيهم · حتى عصر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذكرهم القرآن الكريم بالثناء عليهم فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

وقد قالوا في أخبار نجران أنه مع مكانة عبد الله ، كان رجـــل صالح من نصارى الشام ، ويظهر من سياق الأخبار أنه كان ممن فر بدينه هاربا من أرض الرومان ، اما لاضطهادهم النصـــارى ،واما لأنه رأى بعد زوال الاضطهاد أن الرومان وجهوها وجهة وثنية، وانحرفوا بها عن التوحيد الذى هو لبها وأصلها ·

وذلك الرجل اسمه « فيميون » كان رجلا زاهداً صالحاً مجتهداً عاملا لا يأكل الا من كسب يده ، كان حريصاً على أن يعيش مستخفياً ، لا يريد أن يعـــرفه الناس ، فما أن يعرف في قرية ، حتى يخرج منها الى غيرها ، ولـــكن فضله كان يكشفه ·

---

(١) المائدة ·

ولعل السر في استخفائه أنه كـان مضطهداً فأراد ألا يعرف ، وأن يذهـب الى أماكن متفرقة يحتقب عقيدته الخاصة ، حتى لا يكون اضطهاد يقع به ٠

ولقد تبعه في ذهوبه وجيئته شـاب اسمه صالح ، اتبعه اتباع المريد للشيخ فكان ينزل معه حيث نزل ، ويرحل من حيث ارتحل ٠

وبينما هما يسيران اختطفتهما سيارة ، واسترقهما من فيها ، وباعوهما ، وقد رأى من ابتاع «فيميون» في عبده المزعوم خيراً كثيراً ، اذ كان يقـوم من الليل ويصلي ، غير آبه لرق الجسد ،ما كانت له حرية العبادة ٠

وكان أهل نجـران يعبدون نخلة ،كما كان يعبد من قبل أهل مدين أيكة ، وقد أخذ ذلك الزاهد الطيب يدعو لله وحـــده ، ويسيطـــر بدينـه على من استرق بدنه ٠

قال لهم : انما أنتم في باطل ، ان هـــذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها الله الذي أعبده وحده لا شريك له لأهلكها ٠

قال الرجل فافعل ، فانك ان فعلت دخلنا فى دينك ، وتركنا ما نحن عليه ، فقام «فيميون» وتطهر وصلى ، ثم دعا الله تعالى عليها ، فأرسل الله تعالى عليها ريحاً فاقتلعها فاتبعه عنـد ذلك الكثيرون ،وذاعت حاله ودعاؤه ، وما كان للشجرة بعد الدعاء ٠

وبذلك دخلت نجران في دين (فيميون ) فحملهم على الشريعة الحق من دين عيسى عليه السلام ٠

ولا شك أن هذا الخبر لا يخلو من الأساطـير ، وخصوصا أن فيـه بعض الأوهام وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً ،واكتفينا منها بما يقبل التصديق ، ولا يوجد ما يدل على الكذب ، أو يوهم بأنه غير معقول في ذاته ٠

وانه مهمـا يكن فيه من مبالغات لاينفي العقل وجودها فانه لا شـــك أن النصرانية دخلت نجران ، وفي أول دخـولها كانت مسيحيـــة المسيـــح ، لا النصرانية التي دخلها الانحراف من بعدها ، واذا كانت قد غشيتها غواشي التحريف في أهل نجران من بعد ، فان بقية من الاستقامة النفسيـة كانت فيهم عندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقد كان مع أهل نجران من

العرب من دخل في النصرانية غيرهم كنصارى بني تغلب الذين كانوا مع المسلمين ، واستمروا حتى عصر الراشدين ، ومع انتشار النصرانية في أهل نجران بدعاة المسيحيين الأصليين كان ملكها باقيا على ، وثنيته ، وقد رأى الشعب يخرج منه الدعاة الذين يدعون الى توحيد المسيحية الأولى مخلصين ، فشدد في ايذاء هؤلاء الدعاة ونكل بهم ، وأوجد فيهم صنوفا من العذاب ابتدعها ، ولم يسبق بها .

## أصحاب الأخدود:

٣٨ ـ وان أهل نجران أخلصوا في المسيحية وقبلوا في سبيلها العذاب الشديد ، ورضوا به عن أن يغيروا دينهم غير مطمئنين الى عقيدة سواه ، وابتلوا في ذلك ، فأبلوا بلاء حسنا ، وصبروا .

وذلك أن ذا نواس سار اليهم ، وأراد حملهم على اليهودية ، أو أن يعودوا الى الوثنية ، فأبى أهل نجران أن يخالفوا ، وأن يرتضوا بالعذاب بدل أن يغيروا ويبدلوا فحفر لهم أخدوداً ، أى شق لهم في الأرض شقاً طويلا امتد ، والقي بهم في النار التى أثارها في هذا الأخدود ، وحرقهم ، فما غيروا وما بدلوا ، حتى قالوا انه ألقى فيها نحو عشرين ألفا أبادهم ، وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فقال تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾(١)

وهكذا نرى أن الذين عذبوا ذلك العذاب سماهم القرآن الكريم

---

(١) البروج .

مؤمنين ، مما يدل على سلامة اعتقادهم وحسن ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بالعزيز الحميد، لا يؤمنون بشيء سواه فلا تثليث ولا شرك • واذا كان هؤلاء هم نصارى نجران ، فهو دليل على أنه لم يصل اليهم التحريف النصراني ، أو لم يكن قد دخل التحريف بعد الى ذلك الدين المتين •

وكأنه قد نزل بأولئك المؤمنين الصادقين ما نزل بهم من القياصرة قبل قسطنطين أمثال ( قلديانوس ومن قبله نيرون وغيرهما ممن أذاقوا النصارى الخسف والهوان ) •

## اختصاص الجزيرة العربية:

٣٩ ـ ولماذا اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة ادريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وكان لابراهيم الفضل في انشاء البيت ، وكان شعيب قد بعث في مدين بها ، وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها •

ثم لماذا كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأذى ، ونزل بهم سوء العذاب ولماذا وجد المسيحيون الأول فيها مأوى ؟ •

ونجيب عن هذه الأسئلة بأمور ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلاداً متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنه ، أو الذين يتجنون على الحقائق مغرضين غير منصفين ، انما هي بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة • وليس لأحد أن يدعي أن بلاداً في العصور القديمة كانت أكثر منها تحضراً ، فأوربا كانت في غربها تعيش كالوحوش ، فالواندال أو السكسون وغيرهم ، لم تصل اليهم حضارات قبل أن تصل المسيحية ، وما وصلت اليهم الا بعد أن شاهت ، وانحرفت عن أصلها، بينما كان الشرق في القديم مهد الحضارات ، ومهد الديانات ، ومهد الرسل واختصت الجزيرة العربية بأنها كانت أصفى الشرق ، ففيها انبعثت رسالات الله تعالى ، ومن حولها كأرض كنعان وأرض بابل ، وغيرهما مما يحوطها، أو من يدخل في دائرتها كاليمن والبحرين وما وراءهما •

الأمر الثاني : أن الجزيرة العربيةمع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم • وان انحرفت أحيانا عقولهم معتصم حصين ،فبيداؤها، وقراها، وبرها ، فيها حصون لمنع الاعتداء الوحشي من الأمم التياشتدت اغارتها في الماضي ، فاذا كان النبيون قد قوموا في اقناعهم ابتداء ،فانهم اذا كانت الديانة في حصنين منيعين ، حصن من الأرض المانعة لكل أجنبي من أن يقتطعها ، وحصن من النفوس التي اذا آمنت قاومت واعتزت بايمانها ، وان استقامة النفوس وقوتها هي التي بها تتميز أخلاق الأمم ، فان العقول اذا انحرفت تقوم وتستقيم ، والقلوب اذا غشيتها غاشيات الضلال في نفوس ملتوية غير مستقيمة الحق لا يصل اليها الا من رحم الله •

واعتبر بحال العرب بين دولتين قويتين من الدول التي صاقبتها فانهما لم يتجاوزا في سلطانهما أطرافها ، ولم تتمكن احداهما أن تنتقل من الأطراف الى داخلها فانهما عندئذ تجدان قلوبا صلدة قواها ضوء الشمس الساطع ، وقوة الحياة فيها • والتعرض لأوابد الحيوان ليلا ونهارا •

الأمر الثالث : قوة الشكيمة وقوة الخلق العربى ، وما امتاز به العربى من جود ، وسماحة ، وحسن تأت اذا وجدت القيادة الحكيمة ، فان العربى أنف الا اذا رأى القائد الحكيم الذى يقوده ،ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله الامام الحكيم عمر بن الخطاب عندما تولى امرة المؤمنين ، فقد قال رضى الله عنه « مثل العرب كمثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » •

وبذلك يلتقي في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في موطن الدعاة الى الحق في المكان الأول •

العنصر الأول : قوة فى النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبر ذلك في النصارى المؤمنين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، ولما حاول تبع أن يغيرهم ووضعهم في الأخدود ، ما نال مأربا ،ولا وصل الى مبتغى •

العنصر الثانى : صفاء نفسي وقوة مدارك ، احتفظوا بها حتى في جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق في القول ، والعمل الذى يوجهون اليه •

العنصر الثالث : الأنفة وألا يطيعوا في ذلة ، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقد جاءت بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، فبدت هذه السجايا، وشقت طريق النور في وسط الظلمات •

## اللّٰهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه:

٤٠ ـ نعم ـ الله وحده هو الذي يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون الرسالة والذين ينزل عليهم الوحي ،والذي يبلغ رسالة الله تعالى الى خلقه ٠

فاختار الله تعالى أرض العرب ، لأنها أرض الرسالات العامة التي جاء بها النبيون الذين أرسلوا مبشرين ومنذرين، وأوتوا الكتاب الالهي بقوة ٠

وفيها العبر وفيها المثلات ، وفيها الآثار التي تدعو الى الاعتبار ، وهي لامطمع فيها لتحكم أو تسيطر ، وهى التي لم تغلب عليهم قوى الشر ، وان كانت فيهم عيوب ، فهي التي تتعلق بالعلم ، ولا تتعلق بالنفس وهي التي لم يجر فيها الذل الذى يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال الله تعالى حكاية عن بلقيس :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هي التي حملت رسالة العزة الى بقاع الأرض ، واذا كانوا قد أبوا حكم الملوك في جاهليتهم ، فقد قوضوا عروشهم بعد اسلامهم ، هم أعداء التحكم الفردي ، وهم الذين قوضوا قصورهم انتهاء ، بعد أن أشربوا حب الاسلام ، وحملوا لواءه شرقاً وغرباً ٠

وانه لو كان لنا اختيار في أرض غير العرب ، لأعيانا الاختيار ، لأنها أرض العزة ، فلا ذلة فيها ، وأرض الحرية ،وهي أرض الشجاعة ، ولا ينقل دين العزة والاقدام ، والعمل الصالح الاالأحرار الذين يتأبون الدنية ، ويرضون بالبذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك الا في العرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام الاخرجوا من ديارهم يدعون الى الحق ، ويهدون اليه من غير مواناة ، ولا فرار ،ولا يأس، ولا يتركون اليأس الى الرخاء، لأنهم تحملوا آلام الصحراء ٠

---

(١) النمل ٠

وترى لو تصورنا أرضاً للنبوة في غير أرض العـــرب ، أتكون في أرض القياصرة حيث تطامن العامـة لحكـــم القيصر ، وديثوا بالصغار له نفوسهم ، حتى حسبوه من طينة غير طينتهـــم ،وحيث يختلفون في كـل شيء ، وحيث لا يحكم بينهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجـــاثمة على الرؤوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الانسانية ٠

واذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس هي أرض النبوة ، وكسراهم فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى اذا بعدوا عن ذل الملك ، وجدوا ذل الحاشية ، ووجدوا أنهم يتنقلون فى الذل والهوان ، وقـد لانت نفوسهم ، وخنعوا وهانوا أمـــام الملوك ، وهل هؤلاء في ذلتهم هم الذين يحملون دعوة الاسلام الى العزة ، وهل هم في رقهم النفسي هم الذين يدعون الى الكرامة الانسانية التى سجلهـا الله تعالى في قوله تعالت كلماته :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخـوتهم ، أو ممن ألفوا الخضوع ، حتى لا يستطيعوا التنصي عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا بالهون ،انما لا يدعو الى العزة ولا الى الحـــرية الا الأحرار ٠

وهل تتصور أن تكون أرض الفراعنة هى التى تدعو الى اسقاط حـــكم الفراعنة ، واعلان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وما انتقلوا من حـكم الفراعنة الا لمن هو أطغى ، وأشد بغياً ،وأكثر عتواً وفساداً ، فهم يسارعون في الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جـــانب الى جـانب ، لا يتململون ، ولا يضجون ولا يثورون لقهر قاهر ، أو ظلم ظالم ، بل انهـــم يألفون الخضوع حتى يحسـب الدارس لهم أنهم يستطيبونه ، ويستمـرئونه ، ويعاونون من يذلهم، وينفضون رؤوسهم على من يحاول أن يبث فيهم روح العزة

---

(١) الاسراء ٠

والكرامة ، بل يحسب أنهم يجدون العزة عبئاً لا يمكن احتماله ، وحملا لا يمكن حمله ، ووزرا يرزحون تحته ٠

قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ، فلم يكذبوه وقال لهم أليس لكم من اله غيري ، فقالوا أنت الاله ٠

لقد تضعضعت نفوسهم ، حتى ألفوا الذلة فصعبت عليهم ، وقبلوا أن يكونوا قوما بورا ٠

وان الذلة كانت تجري في دمائهم ،حتى انه اذا جاءهم من يريد لهم العزة استنكروا ما يدعو اليه ، وان صدقوه جعلوه معبوداً أو كالمعبود ، وأطاعوه في الخير والشر ، وتصوروا فيه ما ألفه آباؤهم من تقديس لقوله ، واطاعة لعمله ، يذوقون الجوع والعرى ،ويرضون ، لأنهم كانوا مع فرعون ، فلا يتصورون الطاعة ، الا لمن يشبهه ٠

ان موسى عليه السلام عندما بعثه الله تعالى بعثه في غير مصر ، وفي غير أرض فرعون ، ولما دعا فرعون بدعوة الحق لم يجد مستجيباً الا من السحرة ، وعدد من الشعب ليس بالكثير ، فما آمن من قوم فرعون الا قليل ، وخرج ببني اسرائيل ناجياً بهم ، وأطبق البحر على فرعون ، خرج الى سينا ليدعو بدعاية الحق ، ولكنهم لم يصلحوا لتمرسهم بما كان عليه المصريون ، حتى انهم أرادوا أن يتخذوا من عجل صنعوه لأنفسهم الها ، كما كان المصريون يعبدون العجل، وهانت نفوسهم كشأن المصريين ، حتى ان موسى عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض التي كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها ، غلبت عليهم شقوتهم ، وغلب عليهم الذل الذي أذاقهم فرعون كؤوسه ٠

واقرأ ما حكاه القرآن الكريم عنهم فقد قال موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّٰرِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾(١)

كان ذلك من تأثير اذلال فرعون ،فكتب عليهم التيه أربعين سنة ، حتى يتربوا على البأس والقوة ، ويجيء جيل يغالب ، ولو تركنا الشرق الأدنى الى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت فيها النخوة ، ودفعت شعبها الى الاستسلام للذل ، اذن فليس لدعوة الحق والعزةوالحرية الا العرب .

(١) المائدة .

# مكة المكرمة

٤١ ـ اذ كانت الجزيرة العربية موطن النبوة الأولى ، وقد ثبت أن ابراهيم خليل الله تعالى أوى الى بلاد العرب بعد تطوافه بين العراق وأرض كنعان ،وبنى بيت الله تعالى ، وقد وجد في الدعوة الى الوحدانية فيها مستجيباً ، وأنشأ فيها بيت الله الذي قال الله تعالى فيه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (١)

كانت مكة المدينة الممتازة بين العرب ، وقد تضافرت أسباب كثيرة في العرب جعلتها مناط عزتهم ، وملتقى اجتماعهم وجماع لغتهم ، وكان من أهم هذه الأسباب ، وأبرزها ·

( أ ) أن أبا الأنبياء هو الذى ابتدأ بانشائها ، وكانت من بعده مدينة العرب العظيمة وقطبها الذى تدور حوله قواها ، وهي وسكانها أولاد ابراهيم ، وهم ذووا المكانة العظمى عند العرب استجابة لدعاء ابراهيم اذ قال عليه السلام ، كما حكى الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) ابراهيم ·

فكانت الاستجابة لدعـــوة ابراهيم عليه السلام ، أن كان العـــرب يفدون اليها من كل فج ، من وقت أن أنشـــأ ابراهيم البيت الحرام ، وصـــار مثابة للناس وأمناً ، وملتقى العرب أجمعين ، مع اختلاف قبائلهم ، وتباين منازعهم •

( ب ) وكان سكان مكة هم قريشا الذين كانوا أعلى العـــرب فكراً ان كان العلو بالفكر ، وأشرفهم نسبا ، ان كان التفاخر بالنسب ، ولسانهم كان أقـــوم الألسنة أداء ، وأفصحها لفظا ، وأشرقها أسلوبا ، ولذلك كان العرب يجتهـــدون في أن تكون آثارهم الأدبية بلغة قريش ، فكان الشعراء حريصين أشد الحرص على أن يكون شعرهم بلغة قريش ، ويعتزون بأن يكون على نهج اللسان القرشي •

ولقد ذكر رواة الأدب أن من ينال قصب السبق يعلق شعره على أســـتار الكعبة ، كأنما يسجل بين العرب مآثره الشعرية ، ومكانته بين الناس •

( جـ ) وجود البيت الحرام بها ، وهو أعلى الأسباب ، اذ أنه صار بيت العرب الديني ، ومستقر شرفهم ، اليه يحجون وبه يأمنون ، كمـــا قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

لقد كانوا لتقديسهم لمكانة البيت ، كانوا يحرمون على أنفسهـــم أن يقتلوا أو ان يقتتلوا داخل الحرم ، حتى انهـــم مع تشديدهم في الأخـــذ بالثأر مما فرق جمعهم كانوا يحرمونه على أنفسهم في الحـــرم المكي ، زاده الله تعـــالى تشريفا وتكريما ، وان الرجل كان يلقى قاتل ابنه أو أخيه فلا يمسه بسوء لمكـــان التقديس النفسي بل انهم لا يحترمون المكان فقط ، بل يحترمون أيضا الزمان الذى يكـــون فيـــه الحج الى بيت الله الحرام ، فكانوا لا يتقاتلون في أشهـــر الحج ، ولا شهر العمرة ، وهو ما يسمى بالاشهر الحـــرم ، وهي ذو القعـــدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، اذ كانت فيه عمـــرة مضر ، ولذلك سمى رجب مضر •

---

(١) العنكبوت •

وقد أقر الاسلام من بعد حـــرمة البيت ، ومنع القتـــال في الأشهر الحرم الا اذا كان فيها اعتداء ، فانه يكون من ظلم النفس ألا يدافع المعتدى عليه عن نفسه ٠

( د ) انه كانت الصحراء العربية موضع تنازع بين القبائل ، ولم يكن في القبائل من تقرر لها نظام ، الا مكة وان لم تكن فيه صفة الدولة ، بيد أنه كان سلطانا ناشئا من تعاونهم ، وتضافرهم ، وتلاقيهم ، فهو نظام حر ناشىء ومنفذ بين قوم أحرار ، وان لم تكن دولة ابتداء ، فانه يجوز اذا اتسع السلطان ، ووجدت المقدرة الثابتة يصلح أن تكون فيه دولة العرب من بعد ، لأنهم يجـــدون فيهـــا الرياسة المختارة من الشعب ، بمقتضى الارادة العـــربية التي تتلاقى فيهـــا القبائل ، وبمقتضى الانتخاب الطبيعي في البلاد العربية ٠

( هـ ) وكانت قـــريش بمكة ذات اتصال تجاري بين الروم والفرس ، فكانت فيها المتاجر تغدو وتروح ذاهبة الى اليمن حاملة بضائع الروم اليها ، ومن اليمن تنفذ الى ما وراءها في أرض الفرس ، وكانت بضائع الفرس التي تؤخـــذ من اليمن تذهب الى الشام لتصل الى وراءه من الرومان ٠

والسبب في أن مكة كانت لهـــا تلك الميزة الاقتصادية أنها كانت في وســـط البلاد العربية بين اليمن والشام ، وأن المواصلات ابان ذلك كانت عن طـــريق البر بالصحراء العـــربية ، وفوق ذلك النزوع التجاري في أهـــل قـــريش ، احترفوا التجـــارة ، واتخذوها مرتزقا لهم ، اذ لم يكن في مكة زرع يغنيهم ٠

وكان العـــرب يتخذون موســـم الحج سبيلا للصفق في الأسواق التي تعقـــد في أيام الحج ، ومن هـــذه الأســـواق : عكاظ ، وغيره ، وكان هو أكبرها ٠

ولرغبة العرب البيانية قد اتخـــذ الشعراء من هذه الأسواق سوقا لترويج شعرهم فكانت الأسواق فيها الزاد المادي ، وفيها الزاد البياني ٠

وقد قال الله تعالى في روح قـــريش التجارية

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ (١)

(١) قريش ٠

( و ) ويجب أن يذكر في هذا المقام أن الوثنية سادت العرب ، فنسوا دين ابراهيم ، ودين هود وصالح وغيرهم وسرت فيهم الوثنية سريان النجاسات في الماء الطاهر القراح ، ولعل قريشا في مكة كانت آخر من دخل في الوثنية ، كما تحدث أخبار العرب ، فالوثنية سرت اليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ولكنها موجة من الموجات التي كثرت في ذلك العصر ، وما سبقه ، حتى لقد حسب بعض الناس أنها موجة من التفكير الديني سرت في العرب ، ووفدت اليهم من حولهم ، وجاءت اليهم من أرض غير أرضهم .

وقد أشرنا من قبل الى أن العرب وخاصة قريشا لم يكن ايمانهم بالأوثان ايمانا متغلغلا في النفس ، اذ أنه كان مع الاعتقاد في الأوثان اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وبقيه من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، فمناسك الحج كانوا يقومون بها على اختلاف أو انحراف ، وألفاظه الموروثة كانت تردد على تحريف يقرب من وثنيتهم .

وكون بقايا من ديانة ابراهيم فيهم كان يجعلها موضع الرسالة ، واذا كانت الوثنية قد قاومت التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما كانت كلها من أجل الاعتقاد ، بل من تسلط العصبية الجاهلية ، والمنافسة في الشرف بين بطون قريش وأفخاذها ، كما سنبين ان شاء الله تعالى عندما نتحدث في مقاومة الشرك للوحدانية ، وذلك بمقاومة زعماء مكة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

كانت مكة جماع العرب ، فكانت بها دار الندوة التي تجمع أقيال العرب وكبراء القبائل ، من شتى الجزيرة من اليمن جنوبا الى الغساسنة بالشمال ، فاذا أهم العرب أمر واحتاجوا الى أمر جامع لا يجدون مثابة تجمعهم الا دار الندوة في أرض مكة المكرمة ، وكانت الرياسة فيها لقريش ، وأقربهم كان من جدود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان عليه السلام يحضر ندوة قريش في صدر حياته ، وكان مع هدوء طبعه ، واطمئنان نفسه يلفت الأنظار ، وتتطلع اليه الأبصار ، يروى أنه كما جاء في كتاب ( زهر الآداب ) حضر الندوة قيل من أقيال اليمن ، فرأى الرسول ، كلما عرض ما يراه خيراً اطمأن الى القول اطمئنان المؤمن ، واذا كان ما يرى فيه غير الخير أحد البصر في هوادة ، من

غير هوان ، فقال ذلك القيل « مالي أرى هذا الغلام ينظر اليكم تارة بعيني لبؤة وتارة بعيني عذراء خضرة ، والله لو أن نظرته الأولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم »·

ومكة فوق ذلك لها المكانة في التاريخ الديني القديم ، فقد ذكرت في الديانات القديمة ، واليهودية والنصرانية · وقبل أن نخوض في ذلك نتكلم في ناحية حول حال مكة ·

## أوّل بناء في مكّة وبلوغها هذه المنزلة

٤٢ ـ وان مكة قد صارت مطمع آمال العرب ، لما ذكرنا من معان دينية وقومية وثقافية وتجارية ، ولكن لابدمن معرفة وقت قدسيتها ، ونيلها هذه المكانة بين العرب ، وان ذلك أمر لابدمنه في دراستنا عن النبي الذي ظهر في هذه المدينة ، واتصالها بماضيها القريب والبعيد ·

كان مكان مكة وسط البلاد العربية ، وقد ذكر ياقوت الحموي وضعها في كتابه « معجم البلدان » فذكر أنها بقعة من الأرض تحيط بها الجبال الجرداء من كل جوانبها ، وينفذ من بين هذه الجبال المحيطة ثلاثة مسالك ، أحدها سلك بها الى طريق اليمن ، ويصلها الثانى بطريق جدة حيث سيف البحر ، ويكون مرفأ جدة ، ويصلها الثالث بطريق الشام ، حيث يمر بيثرب ، وبذلك يتضح اتصالها منذ القدم ، وان كانت الشقة بعيدة ·

وقد كانت البقعة التي أنشئت فيها تلك المدينة التي تتوسط البلاد العربية· ملتقى القوافل ، ومنتجعها في السفر ،حيث تأوي وتستريح بين جبالها حيث كانت في الوادي حول هذه البقعة ماءالعيون ، وكان بجوارها أو على قرب منها ، أماكن منثورة ، كان يلوذ بها التجار بقوافلهم ·

وان ابراهيم عندما أوت الى هذه البقعة هاجر جاريته وولدها اسماعيل ، وألهمه الله تعالى بناء الكعبة ، الذى كان أول بيت للعبادة ، كما تلونا من قبل ، وان انشاء ذلك البيت المقدس هو الذي أدى الى تكوين المدينة ، وان هذا تصوير للوقائع التي حدثت ، والتي ذكرها القرآن الكريم في محكم التنزيل ·

وان في التاريخ ما يدلنا دلالة راجحة على ابتداء بناء المدينة ، وان معرفة ابتداء المدن في ذلك الماضي السحيق لا يمكن أن يكون على وجه جازم أو راجح ، فان المدن لا توجد مساكنها في أمثال هذه العصور البعيدة التي تنشأ في الصحراء ، ولم تكن في أرض لها حكومة ثابتة قائمة ، تنشىء وتخطط ، وتبني وتهندس انما الذي يتصور أنها ابتدأت ببناء المسجد ، ثم تدرجت ، ثم أخذ الزمان يزيدها بناء ، والعمران يدخل اليها شيئا فشيئا ، وان تصورها على أساس التصور الذي أومأت اليه المصادر الدينية ، فانه يكون انشاؤها قبل ميلاد المسيح بنحو تسعة عشر قرنا.

ويستفاد من هذا أن الكعبة قد بنيت، أو على الأقل بناها ابراهيم عليه السلام قبل دخول القبائل الآرية الهند، لأنها دخلت فيما نظن قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو خمسة عشر قرنا ، وعلى ذلك لا تكون ثمة غرابة في أن يجيء ذكر مكة والكعبة ، والتبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في كتب الفيدا المقدسة عند الهنود كما سنبين ان شاء الله تعالى .

ومهما يكن فان الذي بنى الكعبة ابراهيم ، والتف من بعدها حوله البناء ، سواء أكان ذلك قبل تجمع الأبنية لتكون مدينة مكة أم كان بعد التجمع ، وفصل القرآن الكريم ذلك في نصوص كثيرة .

ولكن الذين يحاولون مهاجمة القرآن الكريم من ناحية التشكيك في الوقائع التاريخية التي يشتمل عليها ، ينكرون أو يفترون ، أو يثيرون الشك المجرد .

فيثير الريب قائل ، ان قصة ابراهيم واسماعيل من صنع اليهود ، قالوها ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة من قربى النسب ، حتى يكونوا أولاد عمومتهم ، ليحسنوا ايواءهم ، اذ يؤوون اليهم ذوي قرابتهم لرابطة الرحم بينهم ، ويسوق شاهداً لكلامه التباعد بين الوثنية العربية ، وبين دين ابراهيم عليه السلام الذي كان موحداً ، وكان هادم الأوثان .

وفي الحق ان ذلك الكاتب أو المؤرخ غلبت عليه شهوة التشكيك في القرآن فساق كلاما لا يبنى على أي أساس علمي من وقائع ثابتة ، لأنه كان يجب أن يبنى الطعن على وقائع ثابتة ، أنه يحاول هدم أمر معروف مقرر،

ذكره التاريخ قرنا بعد قرن ، حتى جاءالى هذه العصور ، وقد تطابقت عليه الكتب السماوية حتى المحرفة، منها فقدجاء ذكر ابراهيم واسماعيل في التوراة ، أى كتب العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون ، وأنهم جاؤوا الى بلاد العرب .

فقد جاء فى التوراة ( أي كتب العهدالقديم عند المسيحيين ) .

قد جاء في الاصحاح السادس خبر هاجر الجارية وحملها ، وذهابها بابنها في البرية ( أي الصحراء ) « هو ذا الرب قد أسكنني عن الولادة ، ما دخل الى جاريتي لعلي أرزق منها بنين » فلمارأت هاجر أنها حملت صغرت في عينها ، فقالت ساراي لابراهيم ظلمي عليك ، وقعت جاريتي الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها ،يقضى الرب بيني وبينك،فقال ابراهيم لساراي هو ذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي، فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي فيها طريق شور وقال يا هاجر جاريةساراي، من أين أتيت؟والى أين تذهبين، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي فقال لها ملاك الرب : ارجعي الى مولاتك ، واخضعي تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثير أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدين وتدعينه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لضراعتك ، وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن » .

وجاء في الأصحاح الحادي والعشرين « مضت وتاهت في برية بير سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولدتحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس ، لأنهاقالت : لا أنظر موت الولد ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، لا تخافي ، لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام ، وشدي يدك به ، لأني سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله تعالى مع الغلام،فكبر ، وكان ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

## إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر

٤٣ ـ ( أ ) ـ هذه نصوص صريحة في التوراة تدل على أن اسماعيل ولد من هاجر جارية سارة ، وأنه ولدفي برية فاران وهي قد كانت حول

الكعبة ، وان هذا حجة على منكـــر أن يكون اسماعيل من ولد ابراهيم أو أنه جاء الى أرض الحجاز ، وأن اليهود قـد قالوا هذا ليتقربوا الى العرب ، بحسبان أنهم أولاد عمومة ٠

( ب ) وان على هذا التشكك أمـــر مثير ، من غير بينة ، ولا دليل وكأنه يشك في التوراة أيضا ، وما كانت اصحاحات التوراة مقارنة لتقريب اليهـــودي من العرب ، بل انها سابقة على ذلك ٠

وان الشك الذى أثاره تدل الأمـور الثابتة على مناقضة ما أثاره ، وذلك لأن الطبع اليهودي في ماضيهم وحاضرهـم أنهم لا يعترفون لأحد بدين غير دينهم ، وأنهم كانوا يقولون : نحن أبنـاء الله وأحباؤه ، ويقولون وهم بين ظهـراني العرب ، ما علينا في الأميين سبيل ، وأن المعروف أنهم كانوا في البلاد العـربية يستعلون على العرب ويظنـون أنهـم الأعلون بما أوتوا من كتاب ٠

( جـ ) وفوق ذلك فان العمومية المدعاة من اليهود لا أصل لها في زعـم ذلك الكاتب النحرير ، فكانت للعـرب العدنانية التي تنتهي الى اسماعيل عليه السلام ، وهم الذين يسمـــون العرب المستعربة ، واليهـود ، عنـدما آووا الى العرب فارين بدينهم من عنت التتار ،ومن بعدهم الرومان ، ومن أذاقـوهم العذاب أبؤسا ، انمـــا آووا الى أرض عرب قحطان ، فهـل يعقل أن يتملقوا القحطانيين بادعاء النسب الى العدنانيين،والارتباط بينهـم برباط القـرابة بالعمومة ونحوها ، انما المعقول الذى لم يدركه الكاتب النحـرير أن يكـون الادعاء عند القحطـانيين ، لا عنـد العدنانية ، ولا يصدق كلام ذلك الا أن يكون تصرفهم مخالفا كل معقول ويأتون عكس ما يريدون ، كعقل ذلك الكاتب ٠

( د ) وان تاريخ العرب المحفوظ أن العرب العدنانية لهم تاريـخ ثابت موصول ، تلقاه أهل العقول بالقبول ،وما يتلقاه العلماء بالقبـول لا ينقض بمجرد الشك ، بل لا يرفض الا بدليل يناهضه ، وبينات تقـاومه ، ولا يقاوم بمجرد الشك والا ضـاعت الحقائق ،وضلت الأفهام ، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به ، حتى يقوم الدليل على خلافه٠

( هـ ) وان الزعم بأن أولاد اسماعيل وثنيون ، وابراهيم عليـه السلام كان موحداً ، فكيف يلتقيان ، أو القول بأن العرب وثنيون ، والموحد لا يمكن

أن يكون أبا للوثنيين ، منطق فاسد ،لأن مؤداه أن من يكون موحداً يجب أن تكون سلالته كلها من الأولاد الصلبيين الى آخر الذرية ، ولو كانوا في الطبقة المتممة للمائة موحدين ، وذلك كلام باطل ، فانه قد ينحرف الأبناء عن وصايا الآباء ، واذا كان ذلك غريبا في الطبقة الأولى ، أو ما يكون قريبا منها ، فانه لا يكون غريبا في الطبقات البعيدة من الذرية ٠

وان ابراهيم عليه السلام قد طوف في الآفاق داعياً الى التوحيد محاربا للوثنية ، وترك أثره واضحا في العرب خصوصا ذريته ، فقد كانت ذريته موحدة ، سالكة سبيل الحق في عبادتها،ولكن القلوب اذا تقادم العهد قد تنحرف شيئا فشيئا حتى تصل الى الوثنية ، فالوثنية عارضة على العقل العربي ، وخصوصا ذرية ابراهيم عليه السلام ، فان الوثنية لم تكن أصيلة فيهم ، ومع ذلك كان في وثنيتهم بقايا من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، وما كانوا يؤمنون بأن أوثانهم لها قوة الخلق ، والانشاء كما كان عند المصريين القدماء ، وكما كان عند اليونان والرومان ، بل كانوا يقرون بأن الخلق والتكوين لله تعالى ، وحده ،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٢)

وان تفكير ذلك الكاتب المستشرق فيه غرابة من حيث المنهاج العلمي المستقيم من ناحية أمرين ٠

أولهما : أنه من الاستهانة بأى منهاج عقلى أن يثير عالم الشك من غير أي مسوغ للريب من أمور تقترن بالأمر الجازم المقطوع به،فان ذلك اثارة لطريقة

---

(١) لقمان (٢) الزمر

السوفسطائيين الذين يشكون في حقائق الأشياء شكا مجردا من غير أي باعث علمي ، أو من غير أي بينة تسوغ الشك، حتى يحارب اليقين ، ولكن هذه الأمور البدهية نسيها ذلك الباحث ان صح هذا الوصف له ، وما أنساه الا شيطان التعصب المردي الذي ينزل الناس من علياء العلم الى منهوى العمى ٠

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

ثانيهما : أن من الحقائق الاجتماعية النفسية ، أن العقائد في الناس تتحول وتتغير ، ويجرى عليها نظام التغير ، ويستمر في طريقه ، مالم يكن هناك كتاب ثابت يهدى الى الحق ، ويرشد الضال فيهتدي ، ويكون ميزانا يمنع الانحراف ٠

## مكة موطن تقديس لأجل الكعبة :

٤٤ ـ وان التاريخ الانساني العام جاء فيه ذكر مكة والكعبة ، وقد ورد اسمها في مصادر التاريخ اليونانية واسمها في كتاب بطليموس الاسكندرى ماكورابا (٢) ٠ وانها أقدم من ذلك ،فانها تمتد في القدم الى تسعة عشر قرنا قبل الميلاد ، وذكره لها فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لا يومىء من قرب أو بعد ، الى أنها كانت غير موجودة قبل ذلك العصر ، وليس انشاؤها فيه اذ هو اخبار عن الموجود ، وليس بيانا لوقت الوجود ٠

والمؤرخون بشكل عام ذكروا أنه كان في غرب الجزيرة العربية أماكن كانت مقدسة عند العرب ، وان ذلك الحي الغربي من الجزيرة كانت فيه مكة ، وما حولها من الصفا والمروة ،وعرفات ، والمزدلفة ، ومنى كانت بالقرب منها،فاذا كان المؤرخون يذكرون أماكن للعبادة في غرب الجزيرة العربية فهي هذه الأرض ٠

---

(١) الحج ٠

(٢) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٨٤ ٠

وقد جاء في كتاب تاريخ الاسلام لجواد على : « قد ذهب أوغست ميل الى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى انه معبد مشهور هو مكة » (١) .

ويستفاد من هذا أمران :

أولهما : أن مكة كانت قائمة بشهادة التاريخ العام .

وثانيهما : أن الكعبة كانت بها ، وكانت معبداً يفد اليه الحجيج من كل مكان من بلاد العرب ، يقصدها القاصى والدانى من تلك البلاد .

٤٥ ـ هذه شهادات المؤرخين بتقديس الكعبة في القديم ، وبمنزلتها عند العرب ، واجتماعهم حولها مع تفرقهم منازع ، وقبائل ، وعصبيات أحدثت حروبا مدمرة ، ودماء مهراقة ، ومع ذلك يلتفون متحابين أو غير متحابين ، ولا آخذين بثاراتهم احتراما للبيت ، وتقديسا لهذه البنية التى زادها الله تعالى تكريما وتشريفا .

(١) جواد على ص ٤ ، ٥٠٤ .

٤٦ ـ كانت مكة هي المكان المختار للرسالة ، وقد أشرنا الى ما كانت تمتاز به من البلاد العربية ، فأشرنا الى مكانتها الثقافية ، فهي ملتقى العرب ، ولغتهم أفصح اللغات وشعراؤهم يعملون على أن تسجل أشعارهم بلغة قريش ، فكأنها التي تختص بوصف الفصحى واللغات الأخرى بجوارها كاللغات العامية بجوار الفصحى في عصرنا الحاضر ، وهي ملتقاهم الديني ، فاليها يحجون ، وينسلون من كل أرضها ، ويلتقون في أسواقها ونجوعها بها تروج بضائعهم ، ويروج أدبهم وفيها يتفاخرون من غير ملاحاة ويتجادلون من غير مجافاة • وفيها تحقن الدماء ، وتغمد السيوف في أجفانها ، يلتقون على التدين ، والمحبة، ولا يلتقون على العداوة والبغضاء فآلامهم يطرحونها ، وأحقادهم يستدبرونها ، ولا يرون أمامهم الا النسك على قدر مداركهم وتبادل المنافع، والقول الطيب ، ومع أن كل قبيلة لها صنمها في الكعبة على ظاهرها ، كانوا يجتمعون في العبادة على تقديس البيت الحرام مطرحين ما عداه •

وكانت مكة مع هذه المنزلة الثقافية والدينية والاجتماعية ملتقى القوافل التي تجيء من اليمن ومن أقصى الشرق، والقوافل التي تجيء من أقصى غرب الجزيرة ، فيلتقى فيها المتاجر ، وتلتقي فيها العقول الناقلة للحضارات ، ولو نقلا سطحيا ، ولا يصل الى أعماق القلوب ، ولكنه يمس المدارك ، وأنه في مكة ويثرب تلتقى البداوة ببعض الحضارة، فيكون مزج بين رقة الحضارة ، مع خشونة البادية ، فيكون مزيج غير متميع، وقوة نفس في غير جفوة ، وتلتقى صفاء البداوة والحضارة الغريبة منها ، فينتفي الخبث ، ويبقى اللب الكريم •

وان أكثر الرسالة الالهية التي كانت على مقربة من الرسالة المحمدية كانت في أرض تكون على مقربة من البوادي ، أو هي في البوادي ومثلها كالواحات في وسط الصحراء ، لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة في مداركها :

( أ ) اذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحي الالهي . وفيها المدارك المتقبلة التي تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها، وتستخرج من ماضيها ما ينير لها حاضرها ، من غير اعنات فكري ولا اجهاد نفسي ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضا ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، اذ ليست مستكنة في أغوار النفوس ، وخبايا القلوب ، بل انها على سطحها ، والتغيير يمر و السطوح ، ولا يتجه الى عميق القلوب ٠

( ب ) وان المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة ، وتقاليد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكي تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، اذ أن العلوم وما يتصل بها من فلسفات سواء اكانت حقا أم كانت باطلة تملؤها ، واذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جدّ لهم . وأقل أبواب المصادمات المجادلة والمجادلة مع المتعصبين تضييع فيه الحقائق، ولا يبدو جوهرها نقيا صافيا٠

وان الأفكار العلمية ولو خطأً تركزت في النفس ، والتقاليد المستحكمة المسيطرة تشتد حتى تصل الى أغوارها فلا يسهل الوصول الى اقتلاعها ٠

وقد يقال ان أهل البادية لهم عادات وتقاليد ، كما أن أهل الحضارات لهم ذلك ونقول في الجواب عن ذلك ان تقاليد البدو لا ترتكز على عناصر فكرية تتغلغل في الأذهان، وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء في بلاد الحضارات ، وما يكون في دائرة العمل من غير تغلغل في النفس لا يكون راكزاً ثابتا ، كالذي يكون منشؤه التفكير العميق ٠

( جـ ) وان التجارب قد أيدت ذلك ،فان الدين الجديد يسهل دخوله في البادية الصافية نفوس أهلها ٠

( د ) وان أي دين لا بد له من ناس يحملونه ، ويسيرون به ، وأهل البادية الذين يكون عندهم نوع من التفكير والرقي النفسى يكونون أقوى نفسا ، وأشد جلاداً ، وأكثر احتمالا ، ولقد قرر الاجتماعيون أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد في سبيل مايعتقدون ما دامت أوضار الحضارة لم تصب قلوبهم بل فيهم بأس وقوة احتمال ٠

وان الشواهد قائمة ، فاننا نجد الأديان التي جاءت برسل أوحي اليهم من السماء كان بعثهم في الأرض التي تكون بين الحضارة والبداوة ، وكان التابعون دائماً من أهل البأس والقوة الذين عاشوا في الصحراء ، وقاوموا لأواءها، ولم يكونوا من أهل المدن التي أصيبت بطراوة التحضر ٠

واعتبر ذلك بموسى عليه السلام ،فقد أرسل الى قوم فرعون ، ولكن ما نزلت عليه الرسالة الا في أرض مدين المتاخمة لحدود الشام ، وما وجد الذين يستجيبون له من أهل مصر ، وما كانوا هم الذين حملوا عبء التبليغ من بعده ، وحمله غيرهم ٠

ولقد كان بنو اسرائيل أضعف في نفوسهم من أن يحملوا عبئها من بعده وذلك لأنهم مردوا على أخلاق المصريين ،وان لم يكونوا منهم ، فكان لابد من أن يتربوا على البأس في البادية، ليستطيعوا حملها ، ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ، اذ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب لهم أن يدخلوها ، وان لم يقيموا فيها :

﴿ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ولقد فهم بعض الكتاب أن الموحدين كانوا في الساميين فقط ، وجاء بعض الأوربيين ، وعلل ذلك بأن العقل السامي عقل سطحي ، لا يفهم من العقيدة الا التوحيد ، ولا يتصور المعنى الفلسفي في التثليث ، وهذا الكلام يأتي على عقيدته بالنقض ، لأن عقيدته المسيحية جاء بها سامي ٠ فلا بد أن يكون ما أتى به ، وما دعا اليه يتفق مع السامية التي لا تهضم فلسفة التثليث وأن يكون التثليث الذي نسب اليه لا تشتمل عليه رسالته ، ولا تدعو اليه رسالته ، وليس ما اشتملت عليه عقيدته ٠

على أن العقل الآري قد اعتنق الوحدانية في أصل الديانة البرهمية ٠ التي جاءت بها القبائل الآرية ، فدعوى الاقتصار في الوحدانية على العقل

(١) المائدة

السامي يأتي على أصل التثليث بالنقض، وينتهي بأن التثليث من أوهام الفلاسفة، وليس من عقائد الرسل ٠

ولعل ما ذكرنا من أن القبائل الآرية التي جاءت تحمل الديانة البرهمية من بوادي آسيا ، قرينة على أن الرسائل الالهية ، انما تنزل في الأرض التي تكون بادية قريبة من المدائن ، أو تكون في طريق القوافل ، فقد جاءت الى الهند التي كانت مملوءة بالأنهار والأحراش ، وفيها تحضر نوعا ما ، ولم يكن فيها صفاء البادية ، وبأسها ، وقوتها وسذاجتها ، وسلامة فطرتها ولذلك سرعان ما حرفت العقيدة الى الصورة التي جاءت بعد ذلك من نظام الطبقات الظالم ٠

وقد أشرنا من قبل الى أن الرسائل الالهية غير محصورة ، وأن الله تعالى ذكر أنه لم يقص في القرآن أخبار كل النبيين ، فقد قال تعالت كلماته :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١)

وسيتبين عند الكلام في البشارات التي بشرت بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن من البشارات ما جاء في كتاب الفيدا الذي هو أعلى مصادر الديانة البرهمية ، وبينا في وضوح أنها في أصلها ديانة توحيد ، كما جاءت بالفيدا النصوص الدالة على ذلك مما يدل على أنها ديانة منزلة ابتداء ، وان انحرف عنها القوامون عليها ، وشاهت الى الحال التي آلت اليها من عصور سابقة ولا تزال قائمة الى الآن ٠

٤٧ ــ من هذا البيان الموجز يتبين أن البيئة الطبيعية بمكة وما حولها ، وما لها من مزايا امتازت بها كانت من المرشحات لأن تكون موطن النبوة وموطن خاتم النبيين ، فاذا كانت النبوة قد ابتدأت بابراهيم أبي الأنبياء واسماعيل ابنه ، فان ختام النبوة في العالمين كانت بها أيضا ، برجل من ولد اسماعيل ٠

---

(١) غافر ٠

فهي أصلح مكان لأن ينبعث منها الدين الجديد الخالد الى يوم القيامة حيث يلتقي العرب جميعا فيها ، وحيث الأمن والسلام فيها ، وحيث القدسية التي تملأ النفوس تنبعث من أرضها ،وحيث دار الندوة التي يتشاور فيها العرب أجمعون ·

وكان المكان أصلح الأرض ، لأن تغرس فيه أغراس الدين الجديد وأن يؤتي أكله ·

والعرب أصلح الجماعات لأن يحملوا عبء الدعوة اليه ، والدفاع عنه ، وحمايته من سطوة الملوك ، وطغيان الجبارين حول العرب ، ومن وراءهم فهم أهل البأس والنجدة ·

ولغة قريش في مكة أصلح اللغات لأن ينزل بها القرآن الكريم الذي أعجز العالمين عن أن يأتي أحد بمثله فالمكان صالح لأن يبعث رسول الله طهراً ، وثقافة ، وقوة بأس وجلاد ، ولغة ،

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١)

٤٨ ــ اذا كان المكان الذي اختاره الله تعالى لخاتم النبوة أصلح مكان يدرك العقل البشرى صلاحيته ، ويعلم بالاختيار مكانته ، فان الزمان قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الانسانية ،ويهديها ، والقلوب قد فرغت وأصبح العالم في حاجة الى هداية من السماء ،اذ قد صار الناس على فترة من الرسل ، فالديانة السماوية حرفت ، وانحرف تابعوها ، وغيروا وبدلوا وحولوها عن غايتها ، وبعدوا عن الحق فيها ·

والأوثان قد تزايلت قوتها وضعفت مكانتها ، وأدركت العقول موضع الوهم فيها ، فآلهة اليونان قد زالت الأوهام التي تحيطها ، والأوثان الرومانية تكشف للناس أنها أحجار لاتنفع ولا تضر ، وأنها ليس فيها سر

(١) الانعام ·

يمنع أو يمنح ، يضر أو ينفع ، يشفي أو يسقم ، وعلى فرض أنها لم تذهب الأوهام حولها ، فهي خرافات يجب ازالتها ، وفساد في العقول يجب اصلاحه ٠

وكانت الامبراطورية الرومانية تعبث برعاياها ، وتفرض عليهم طاغوتها وهم لا حق لهم يستطيعون به تقويمهم ، والنفوس قد ضلت وزلت ، ولكنها لم ترض وتطمئن ، فهي هالعة جازعة ، لأنها كانت تفرض على الشعب دينها وان كان لا يرتضيه ، وتفرض عليه عقائد لا يؤمن ولا يرضا ، كما كانت الحال في الشعب المصري الذي فرض عليه دينها ، أو عقيدتها ، كما فرض عليه سلطانها ، وجعلتهم عبيداً أو كالعبيد ٠

والرومانيون في داخل أرضهم ، وفي الشعوب التي منيت بحكمهم كانت التفرقة بين الناس واضحة جلية ٠

كانت التفرقة أولا ، من حيث تحكم رجال السلطان في الرعية ، واختصاصهم بالمال يجيء اليهم من الغنائم التي يغنمونها في الحروب ، وحرمان بقية الرعية من المال والسلطان معا ، والناس لا يشقون لآلام ذاتية فقط وان كان الحرمان في ذاته يحدث ألماً نفسياً ، ولكنهم يألمون من ذلك ، ومن رؤية النعمة في يد غيرهم يرتعون ويلعبون ، ويعبثون ، ولا حق لأحد في أن يعترض عليهم أو يلومهم ، أو يوجه اليهم نقدا ٠

والتفرقة من الناحية الثانية في أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها في الطبقة المحكومة ، والشريف الروماني يعلو على كل آحاد الرعية من الضعفاء ٠

والرق في أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه ، حتى انه يسوغ لأي انسان يرى شخصا من أي شعب أن يسترقه والحكم للقوي في العلاقات الانسانية كلها ، وكأن أرض تلك الدولة أجمة يفترس قويها ضعيفها ٠

والأحكام بين الناس تسير على مقتضى تلك النظم المقيتة التي تفرض التفرقة بين الناس ٠

والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج ، وأمة لزوجها في بيت زوجهـا ولو قتلها لا عقوبة عليه .

وهكذا ترى نظاما اجتماعيا أهـدرت فيه الحقوق الانسانية الأساسية التي تثبت للانسان بمقتضى أنه انســـان ،وشاع الفساد ، وظهر في البر والبحـر بما كسبت أيدي الناس .

كان لابد من تغيير لهذه الحال ، ومن اصلاح لهذا الفساد ، لأن الله لا يحـب الفساد ، والله لايريد ظلما للعباد ، فلابد من أن يكون من يغير هذه النظم ، وليس في الناس من يغير ، ويبدل بالفســـاد صلاحا ، وبالضلالة هدى ، ولا يكون من الانســـان لأن ابن الأرض ترك لاخيه الانســـان فأكله أو أذله ، أو أهـدر انسانيته ، لابد من رسالة السماء تكون في أرض تصاقب الرومان ، وهـم ذووا بأس وقوة .

## هِـدَايَـة السّـمَاء فى أرض العـرَب:

٤٩ ـ واذا تركنا غرب الجزيرة العربية وشمالها ، واتجهنا الى شرقهـــا وجنوبها ، فانا نجد أرض فارس ، وما كان فيها من انحـلال سياسي وظلم ، وانحـــلال اجتماعي ، وانحـــلال في الأسرة ، وظلم في الحكم ، نجد كسرى يعتبر الشعب كله عبيداً أو كالعبيد ،ومن حوله من رؤساء ودهاقين يسوغون، ذلك للناس ، ولا يكادون يسيغـــونه ،وان العقائد المختلفة التي توردت عـلى العقل الفارسي جعلته في متاهات فكرية يضل فيها الســـاري ، وتظلم النفس ، والطبقية التي سرت اليهـــا من الهنود الذين على مقربة منها حلتهـا اجتماعيا وان كانت لم تصل الى مثل ما كان عليه الهنود والأسرة كانت غير قائمة عـــلى أسس قوية وسليمة ، فقـد كان الولد يتزوج أمه وأخته ، ويتزوج الرجـــل ابنته ، وغير ذلك مما يضعف النفس في العلاقة الزوجية ، وينحدر به الانسان الى أحط من الحيوان ، وكان مـــذهب مزدك الذي جاء في آخر الحكم الفارسي الذي حل المجتمع الفارسي ، وضنـــاعت فيه الأنساب واستبيحت الأمـوال حتى وهنت الحقوق ، وضعف تثمير الأموال، واختلط الحـــابل بالنابل وما كان في المستطاع أن يغـــير النظام بنظـام من فارس، فان التجارب في المذاهب السابقة من زرادشتيه الى مانوية الى مزدكيـــة ،لم تنجح في اصلاح ، بل كانت كالأدوية التي تزيد الداء العضـال استشراء في الجسم ، فتكـــون هي أسباباً لتقـــوية

الانحلال ، فالزرادشتية دعت الى القوي، فتحكم القوي في الضعيف ، والمانوية دعت الى انهاء ابن الانسان من هـذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله ، وجاء من بعـد ذلك مزدك ، فنشر الفسـاد وانهار به المجتمع الفارسي انهياراً ٠

اذن لابد من هداية السماء ، لتستقيم الأمور ، فكانت في أرض العرب التي تجاورهم ، كانت من أرض العرب للرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ٠

٥٠ ـ واذا تجاوزنا فارس وخراسان وما وراءهما ، نجد الهند والصين ، وعندئذ نجد حيرة العقول واضطرابها ، نجد مجتمعا مضطرب التفكير ، قد حرفت البرهمية ، حتى صارت وثنية بعـد أن كانت ديانة موحدة ، وصار براهما الها مجسما ، في أعينهم ، مع أنه في حقيقته رسول أرسله الله تعالى ، قد جسموه ، وجعلوا بعضه يخلق ، منه خلق من أعلاه، وخلق من سواعده ، وخلق من ركبتيه ، وخلق من قدمه ، وحالوا بين الخلق والحق ثم فرقتهم الفرقة والطبقية، ورضوا بالتنافر بينهم بدل التحـاب والتواد ، وتقطع بينهـم أمرهم ، حتى صـاروا هدفا يراد ، ومقصداً يقصد ٠

وصارت الأوهام تسيطر عليهم ، حتى توهموا في أحد رجال الدين عندهـم أنه اله أو ابن اله ونحلوه من الصفات مالا يكون لبشر عادي ، وذكـروا أن النصارى تبعوه الى آخر ما قيل مما أخذه عنهم النصارى من بعدهم ٠

ولما اتجهت بعض النفوس الى اصلاحهم كانوا فى حيرة من أي الأبـواب تدخل في الاصلاح ، لأن معرفة المداخل والمخارج في باب التهذيب الديني لايكون الا بدين ، ولم يكن ثمة دين مرشـد ، ولا نبي مبعوث يدعـو الى الحكمة والى صراط مستقيم ٠

فاقتصروا على ما يومىء اليه الاحساس ، فجاء بوذا ، وأتى بعقيدة هي الى الحرمان أقرب منها الى الاصلاح ، والايجاب ، ورفع الانسـان ، وتكـوين الارادة المتجهة الى الفضيلة الايجابية والعمل النافع المثمـر ، وعمارة هـذه الأرض ، واقامة المصـالح على أسـاس خلقي مكين ٠

وان الحرمان لا ينتج ولا يثمر ، ولا يطيقه العامة ، وان ادعاه الخاصـة ، ولذلك لم يكتب لهذا المذهب الأخذ به أخذاً كاملا ، أو قـريباً منه ، أو حتى

ارادته الا عند بعض الآحاد الذين سموافي الماضي والحاضر الفقـــراء ، وقد راضـــوا أنفسهم على الحـــرمان غير المنتج ٠

ولما انتقل المذهب الى الصين أثمـرفيه ثمرات غير ايجابية ، وكان كلهـــا يتجه الى الحرمان ، وقد أراد بعض المصلحين أن يحول الشعب الى الناحيـــة الايجابية ، ولكن ضـــلال الفكر ، حال بينهم وبين ادراك الحقـائق ، وقـــد ضلوا في تفكيرهم ضلالا بعيداً على النحو الذي ذكرناه في صدر كلامنا ، وان الاشارة فيه تغني عن العبارة ،والايجاز يقوم في ذلك مقام الاطناب ٠

فكانت حالهم تقتضي هاديا مرشـــداًلا يكون من بينهم ، ولا يكون ممن عـــلى شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، واذاكانوا قد عبدوا السماء ، فهدايتهـــم تجيء من خالق الأرض والسماء ٠

وقد يقول قائل انه بلا ريب العالم كان يحتاج الى رسالة من السماء،والى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام خاصة التي دعت الى تهذيب النفس وتقوية الجسم ، وأن يكون الانسان ربانياً نافعاً ، فهـل سد الفراغ في أوروبا وآسيا في مجاهل العالم ، ومعامله ؟ والجواب عن ذلك أن الشريعة لا تزال قائمة ثابتة وما جاء به محمد لا يزال يدعو الى الحق ، ويوجـه ويهدي ، وأتباع محمد هم الذين قصروا في العبء الذى حملوه ولم يقـــوموا بحق الأمانة التي ائتمنهم محمد عليـه الصلاة والسلام عليها بأمر ربه ، والله بكل شيء محيط ٠

# البشـــارات

٥١ ـ اذا كـانت الدنيا كلهـا تتطلع الى وجود النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ليصلح الناس ، وليعلمهـم الكتاب والحكمة ، وليهدي من تبلغـه الدعـوة ، وهم ممن يؤمنون بالغيب ويهـدون الى صراط مستقيـم فان البشارات كانت تجيء اليهم برسول قدقدر الله زمانه ، وسيدركهم ابانه ، ولم تكن البشرى من الكتب السماوية التي كانت على مقربة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي اليهودية والنصرانية، بل كانت البشرى مما وراء ذلك مما دل على أن هذه الكتب جاء بها رسـول ،وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليـه ما يدعو اليه من توحيد الله تعالى العليم العزيز ، الذى جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الايمان اليه ٠

وأقدم الكتب التي اشتملت على هذه البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليـه وسلم كتب الهنود القدماء ، فان كتابهم( فيدا ) الذى أشرنا اليه قـال بعض المطلعين من المسلمين ان في ( فيـدا )ما يدل على التبشير بوجود الرسول محمد خاتم النبيين ، واليك ما قال ذلك الكاتب ننقله مما نقله عنه الأستاذ المرحـوم عباس محمود العقاد في كتابه ( معالم النور ) جاء في هـذا الكتاب القيـم ما نصه :

يقول الأستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربى أحمد مكتوب بلفظه العربى في السامافيدا من كتب البراهمة وقـدورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها : « أن أحمـد تلقى الشريعة من ربه ، وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور ، كمـا يقبس من الشمس » ٠

ولا يخفي المؤلف وجوه الاعتراضات التي قـد تأتي من جـانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن بعضهـم أنه وقف عند كلمة أحمد ، فالتمس لهـا معنى هنديا ٠ وحاول أن يجعلهـا تفيد أنني وحدي تلقيت الحكمة من ربى ٠٠

قال الأستاذ عبد الحق ، ما فحـــواه أن العبارة منسوبة الى البرهمي ، ( فانزا كانفا ) من أسرة كنفا ، ولا يصدق عليه أنه وحده ملتقى الحكمة من أبيه (١)·

ويستفاد من هذا الكلام أمران :

أولهما : أنه ورد ذكر أحمد في كتاب ( الفيدا ) كما ورد ذكر هذا الاسـم الكريم في التوراة والانجيل ·

ثانيهما : أن البراهمة الذين حرفوا تعاليم هـــذه الديانة ، التي كانت في الأصل ديانة توحيد ، حاولوا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويغـــيروا المعنى بتفسيرها بغير مجراها ·

ولا شك أن التفسير التحريفي لهـم يخالف ما يدل عليه الأصـل كما قـرر الأســـتاذ عبد الحق ، وفوق ذلك فان العبارة تفيد بنصها « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه » ويخالفه التفســـير المنحرف ، فان الذى تلقاه بالنص أحمد هو الشريعة وأنه تلقاها من ربه لا من ابنه ، والفرق واضح بين الأب والرب الا اذا كانوا يجعلون الرب أبا كما قال النصارى من بعدهم ·

وقد يقول قائل ان البرهمية لم يأت بها رسول نزل عليه أمر من الله ، وان الجواب عن ذلك أن نصوص كتبهم تفيد كما ذكر البيروني ، أن براهمـــا كان مرسلا ولم يكن الهاً ، ولم يكن ابن اله ،وقـــد نقلنا لك ما ذكـــره البيروني فارجع اليه ·

لقد جاء فى كتب الهنود كما قررنا تبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كما جاءت بكتب ( فيدا ) التي اعتبرها الهنود أصلا لعبادتهم ، ولقد ذكر الأستاذ عبد الحق أن وصف الكعبة ثابت في كتب الآثار ( فافيدا ) ، ويسميهـــا الـكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافها أنها ذات ثمانية جوانب ، وأبواب تسعـــة والأستاذ عبد الحق يعبر عن الأبـــواب بالأبواب المؤدية الى الكعبة ، وهي باب ابراهيم ، وباب الوداع ، وباب الصفا ،وباب علي ، وباب عباس ، وباب النبي ، وباب الزيارة ، وباب الحرم ، ويفســـر الجوانب الثمانية ، كما فسر الأبواب ·

---

(١) معالم النور للاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٢ ·

فيذكر أنها جبال تكتنف البيت الحرام ، وهي جبال خليج ، وقيمقيان ،وجبل هندي ، وجبل لعلع ، وجبل كدا ، وجبل أبي حديد ، وجبل أبي قبيس ٠

ولا يلتفت الكاتب الى ما قاله البراهمة المحرفون من أن البيت هو هيكل الانسان وجسمه ، وذلك لأنه قول لا اعتبار له ، اذ أنه يتنافى مع وصف القدسية المذكورة وصفاً للبيت ، ولا الى أنه بيت الملائكة ، فلا يوصف الانسان بأنه بيت الملائكة ٠

ويسترسل الكاتب في بيان أن كتب البراهمة قد اشتملت على اشارة الى ما يلاقيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من عداوات ، ويشير الى عدد الذين حاربوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في موقعة بدر وانتصاره عليه (١) ٠

وقد تشكك بعض النصوص في الكاتب الهندي ، ولكن الكاتب لم يعتمد على أوهام توهمها ، لم يعتمد على وهمه، أو خياله ، انما اعتمد على المنقول ، وفسره تفسيراً تحتمله الألفاظ . ولايجافي العقول والذين خالفوه فسروها تفسيراً لا تقبلها العبارات٠ بل تناقضها، وهي مخالفة للمعقول ، كتفسيرهم بيت الملائكة والقداسة بأنه جسم الانسان ،وكتفسير الرب بالأب ، وغير ذلك ٠

محمد رحمة للعالمين :

٥٢ ـ ولقد ذكر الكاتب الأستاذ عبد الحق اشارة تبشر بالنبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من كتاب(زندافستا)، انه وصف في هذا الكتاب ببعض الأوصاف التي جاءت في القرآن الكريم، فقد وصف بأنه رحمة للعالمين ، والله تعالى يقول في الكتاب المبين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وذكر أنه يدعو الى الواحد الأحد الذي ليس له كفء ، وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا قريع ، ولا صاحب ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا مسكن ولا جسد ، ولا شكل ، ولا لون ولا رائحة ٠

ولا شك أن هذه أوصاف للذات العلية ، وهي من الوحدانية في الذات والصفات ، ووحدة الخلق والتكوين ثابتة واضحة ونتيجة لهذا وحدة العبادة فلا يعبد الا الله تعالى ٠

ويقول الأستاذ العقاد « ويشفع ( رأى الأستاذ عبد الحق ) ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها

---

(١) كتاب معالم النور للاستاذ المرحوم العقاد ص١٣ بتصرف قليل ٠

النبي الموعود ، وفيها اشارات الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف «ان أمة للزرادشتيين حين ينبذون دينهم، يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان ، وطوس وبلخ، وهي الأماكن المقدسة للزرادشتين ومن جاورهم ، وان نبيهم ليكون فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١)

وهنا نقف وقفة قصيرة فان هذا الكلام يدل على أن زرادشت كان نبيا ، وان ديانته ديانة سماوية ، والا ما اشتملت على هذه البشارات ، وما كان لها عندنا اعتبار ، لولا أصلها السماوي، وكيف يتفق هذا مع ما يقال في كتب الفرنجة من أن زرادشت كان يدعو الى القوة ، والى معاضدة الأقوياء ، وافناء الضعفاء ، حتى وجدت فلسفة في أوربا تدعو الى افناء الضعفاء ، وألا يكون لهم مكان في الوجود ، وذلك يتنافى كل المنافاة مع أخلاق النبوة السماوية ، وما تدعو اليه الأخلاق الانسانية الكاملة ،فان حق الحياة كانت لكل الأحياء ، والضعيف لا يموت أو يبخع بحق قانون الأخلاق وقانون السماء ، ولكن يعاون ويعيش ، حتى يبلغ أجله ٠

والجواب عن ذلك أن هذه النصوص موجودة فعلا في كتب الزرادشتية ، وهي تؤدي بمنطقها الى أنها جاءت على لسان رسول في كتاب سماوي فقد وقعت الحوادث ، كما ذكرت فقد تضعضع الشعب الفارسي فعلا ، وادخل أرضه العرب فعلا ، وكان الفارسيون حملة العلم الاسلامى الذي كان رحمة للعالمين ٠ وذلك لا يكون الا من وحي السماء ٠ فليس لنا الا أن نقول ان هنا رسولا ورسالة ، وكتابا ينطق بوحي الله تعالى ٠

أما ما ينحل الى زرادشت من أنه كان يدعو الى القوة فان كان يراد بها أن يكون المؤمن برسالته قويا في خلقه وعقله وجسمه ، فان ذلك حق ، وهو يتفق مع مبادىء الأخلاق ، ووسائل الرسل ، وقد أثر عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » وليس في هذا ما يمنع أن يكون نبيا مرسلا ، داعيا الى التوحيد ؟

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٤ ٠

وان كان يراد أنه يغلب القوة على الحق فذلك باطل ، وتقوله أوهام الأوروبيين وهو جدير بساستهم ، ولا نظن الا أن فلاسفتهم الذين زعموا هذا قد حرفوا القول عن مواضعه ، كما حرفوا دعوة المسيح عليه السلام ، وادعوا له الألوهية وهو منها براء ، وما قال لهم الا ما أمر الله تعالى به .

وكذلك ما يزعمون من أنه أوجب افناء الضعفاء ، انه فيما نرى دعا أهل الايمان الى أن يدرعوا بالقوة ، وأن يعالجوا الضعف ، لا أن يفنوا الضعفاء .

وخلاصة القول في هذا المقام أن البشارات جاءت في هذه الكتب ، وهي صادقة فيما قالت ، وتنتج اثبات النبوة لمن وجدت في كتبه ، وليس لنا أن نطعن في صدق ما تنتجه ، لمجرد أوهام توهمها ناس ينكرون الوحدانية ، وادعوا على عيسى أنه اله ، أو أنه ابن الله ، فليس غريبا أن يدعوا على غيره ما دونها .

وقد يقول قائل ان القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر هؤلاء ، بل ذكر أن الانجيل فيه أن المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه احمد ، وذكر أن التوراة فيها محمد عليه السلام مكتوب ، كما قال تعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) الاعراف .

والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ كانوا على مقربة من دعوته ،فكان يحاجهم بما عندهم ، وكانوا هم يعرفون هذا النبي ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبي عليه السلام قبل أن يبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

على أن رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين ، انما كانت قوتها تستمد من ذاتها ، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها ، والبينات الناطقة بأنها حق ،وأنها من الله العزيز الحكيم .

## محمد في التوراة :

٥٣ ـ جاء ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة بالاشارة الواضحة ، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من اشارات بينات واضحات الى رسالته عليه السلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين ، كما يعرفون أبناءهم ، واستفتاحهم على المشركين به قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا .

وقد عني الأستاذ عبد الحق ببيان النصوص العبرية التي فيها البشارة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكانت ترجمتها هي « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم ، وسطع من جبل فاران ، وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » .

وجبل فاران انما هو بمكة ، وقد قال عبد الحق فى ذلك : « ان الشواهد القديمة جميعا تنبي عن وجود فاران في مكة ، وقد قال المؤرخ جيرون ، واللاهوتي يوسبيوس : ان فاران عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من ايلة ، ولا يكتفي بالنقل العبرى وترجمته ، بل ينقل عن النص العربى المترجم أن اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز ثم يقرر أن سفر العدد من العهد القديم جاء فيه أن بني اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء فحلت السحابة في برية فاران ، ويستنبط من ذكر عشرة الآلاف الذين ذكروا على أنهم ومحمد وأصحابه عندما خرجوا في غزواتهم الى مكة ، والى الشام ، فقد بلغوا هذا العدد ، وكانوا من الصحابة الأطهار ، ويسوق من جاء في التوراة من أن موسى كليم الله تعالى بشر بمحمد عليه السلام بقوله : « ان نبياً مثلي سيقيم الرب الهكم من اخوانكم أبناء ابراهيم » .

ويسترسل الكاتب المحقق في بيان ما جاء بالتوراة من اشارات فيذكر عبارات نبي من أبناء ابراهيم مثلي تثبت أنه محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا لم يجيء أي نبي بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة تبين كل الأحكام غير القرآن الذي نسخ بعض الأحكام التي جاءت في التوراة (١) ٠

وهكذا تجد التوراة قد بشرت بالنبي ، واشارات التبليغ قائمة فيها ، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل ٠

وان هذا الكلام لا يبشر فقط بالنبي عليه السلام ، بل يبين مكان الرسالة ،ومنبعثها الذى تعم منه مشارق الأرض ومغاربها ، ففاران كما جاء في أخبار المؤرخين ، والمحققين من الكتاب الأقدمين ، كان بينها وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام ، وكما جاء في كثير من أقوال المؤرخين كانت حول مكة أو بمكة ٠

وقد ذكر الأحمديون الذين عنوا بترجمة معاني القرآن الكريم ، وان كنا نخالفهم في أصل ترجمة القرآن ،كما نرى الرأى المبطل لاعتقادهم مع ذلك نأخذ كلامهم في التبشير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهون لهوان غائصها الذى استخرجها ، والحكمة ضالة المؤمن يلقفها أنىّ وجدها ٠

ذكر الأستاذ المرحوم العقاد ما قاله الأحمديون ، فقال :

«ومن الجماعات التي عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التي ترجمت القرآن ( أي معانيه) الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا في مقدمة الترجمة ٠٠ قالت فيه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء ، وهي التجلى في سيناء ، وقد حصل في زمانه،والتجلى من سعير ، أو جبل أشقر ، وقد تجلى في زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقيم أولاد يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشقر ، وأما التجلي الثالث فمن أرض فاران ، وهي أرض التلال التي بين المدينة ومكة ، وقد

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥٠ ٠

جاء في كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج في تلك الأراضي بالرياض من برية فاران .. وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة ، كما جاء في وعد ابراهيم ، فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ولا وجه لاقامتهم ، حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب ، والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها ، وقد جاء في التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا في بلاد العرب.

ومن نبوءة أشعيا التي سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بارض الحجاز، ففي هذه النبوءة يقول النبي أشعيا في الأصحاح الحادى والعشرين تبيتين بقوافل الدادانيين ، هاتوا ماء لملاقاة العطشان ، باسكان أرض تيماء وأونوا الهارب بخبره ، فانهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ،ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب ، فانه هكذا قال الى السير في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد فيدا ويقول المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة فيدا بهزيمة المكيين في وقعة بدر ، وهي الهزيمة التي نزلت بهم في وقعة بدر بعد هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير » (١) وهذا النص يشير ، وكل تبشيرات الكتب بالأخبار المستقبلة يكون بالاشارة التي لا تخفى على المتأمل .وربما لا يفهمها من يأخذ بظواهر الألفاظ ، لا بمراميها وغاياتها ، وان التفسير بالظواهر لا يجدي ولا يؤدي معاني ، والاتجاه الى المرامي التبشيرية يجعل للألفاظ معاني قائمة بذاتها وواضحة .

ويسوق جماعة الأحمدية في مقدمة تفسيرهم بالانجليزية ، فينقلون عن الاصحاح في سفر أشعيا ، وهو يرفع راية للأمم من بعيد ، ويصف لهم من أقصى الأرض ، فاذا هم بالعجلة يأتون ، وليس فيهم وازع ولا عاثر ، لا ينعسون ولا ينامون ، ولا تنحل حزم حقائبهم ، ولا تنحل سيور أحذيتهم سهامهم مملوءة ، وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم ، كأنها الصوان » .

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٧

وان هذا النص يدل على الدعوة الى الحج ، وهي قد تدل على بعض قوله تعالى :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

وجاء في سفر أشعيا في الاصحاح الثامن : « ولا تقولوا فتنة لكل ما يقول هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفة ولازهوا ، قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدساً ، وحجر كل صدمة ، وصخرة عثرة » وكمأ وشرقاً لسكان أورشليم ، فيعثر بها كثيرون ، ويسقطون فيتكسرون ، ويعلقون فيلفظون ، صدا شهادة ، اختتم الشريعة بتلاميذي ، فاصطبر للأب السائر وجهه في بيت يعقوب .

واننا نرى أن الاشارة بعيدة ، أو أن الدلالة يعسر ادراكها على وجه يقيني ، وحسبنا ما مضى من نقول ففيها مايكفي .

## محمد في الانجيل:

٥٤ ـ جاءت البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في الأناجيل أوضح اشارة منها في التوراة ، ولنضرب لذلك بعض الأمثال .

( أ ) جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى على لسان المسيح يخاطب بني اسرائيل : « هوذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأني أقول لكم . انكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » فهو يدل على أن هناك من يأتي بعده مباركا باسم الرب ، ولم يأت بعده الا محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي الاصحاح الحادى والعشرين من هذا الانجيل على لسان السيد المسيح

---

(١) الحج .

ما نصه : « لذلك أقول لكم ، ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترخص ، ومن سقط هو عليه يسحقه.

( ب ) وجاء في انجيل يوحنا في الاصحاح الأول حديث يوحنا مع الكهنة في اللاوين ، اذ سألوه : من أنت ، فاعترف ولم ينكر ، وقال اني لست أنا المسيح ، اذا ماذا ! أأنت ايليا ، فقال لا. قالوا أأنت النبي ! فأجاب لا . فقالوا له من أنت لنعطي جوابا لمن أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال أنا صوت صارخ في البرية .

ولا شك أنه كان تنبؤ عن نبي ليس هو المسيح ولا هو نبيا ، فمن يكون هو غير محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

( جـ ) وجاء في الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الذي صرح بألوهية المسيح فيما يزعمون جاء فيه على لسان المسيح ، انه خير لكم أن أنطلق لأني ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء اليكم يبكت العالم على خطيئته ، وعلى بره ،وعلى دينونته فأما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بره فلأني ذاهب الى أبي ولا ترونني أيضاً ، وأما على دينونة الله ، فلأن رئيس هذا العالم قد دين ، وأن لدي أمورا كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تتحملوها الآن ، وانما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم ، وبعد قليل لا تبصرونني » .

وان هذا الكلام اذا طرحنا عبارات الآب ، والألوهية المدعاة ، يتبين أنه ينبىء عن المعزي الذي يجيء بعده .وانه ينطلق ليخلي له الطريق وانه يبكت على خطيئته ، وهو انكار نبوة المسيح ،ويبكت على بر بالمسيح في زعمهم ، لأنه يبكتهم على ادعائهم ألوهية المسيح لله سبحانه وتعالى المنزه عن الصاحبة والولد .

ثم انه يصرح الى أنه يدعو الى الحق جميعه ، لأنه أتى بالشريعة كاملة غير منقوصة،خالدة صالحة لكل زمان ومكان ولكمالها كانت هي الخالدة فمن غير محمد يكون ؟ وان المعزي للخليقة الذي ينكر الخطايا ، وينكر غلو أهل الكتاب في دينهم انه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد جاءت نصوص الأناجيل الحاضرة بأن المسيح يبشر بالفار قليط ، والفار قليط هو أحمد اذ أن ذلك هـو المعنى اللفظي للفار قليط (١) ٠

## على فـترة من الرسـل

٥٥ ـ ان نظرت الى العالم شرقا في أقصاه ، أو غربا في أقصاه ، أو القريب الداني ، أو البعيد النائي ، فانك واجد أن العالم في حاجة الى من يهـديه من ضلاله ، فالفلسفة لا تصلح الناس ،ولو استقامت على الطريقة لأنها ان أقنعت الخاصة لا تملأ نفوس العامة، ولا تهديها الى سواء السبيل ، وهى ما استقامت فما أصلحت أحداً ٠

والعقائد قد اعتراها التحريف ، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ، ونسوا حظا كثيرا مما ذكروا به ، ونظروا الى الناس جميعا ، على أنهم دونهم ، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ، وأن الله تعـالى خالقهم كما خلق غيرهم بل زعموا أنهم المختارون وأن كل الناس دونهم ،وبذلك عاثوا في الأرض فساداً ، ولما ذلوا وهم على الاعتقاد بأنهـم شعب الله المختار ،حقـدوا على الخليقة ، وعملوا بـكل الوسائل للكيد لغيرهم غير متحرجين ولامتأثمين بل انهم يغرون بالعـداوة بين الناس وينشرون الفساد في غير تحفظ،ولا مراعاة لأى جوار في أي مـكان فكان لابد من نبي يأتي بدين قـوي يكفكف غرورهم وينهنه من غلوائهم ٠

والنصرانية انحرفت ، وخرجت عن مبادىء المسيح وغلوا فيه ، واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء واستكبارا في الأرض وعتواً وفسـاداً فكان لابد من رسول بشير ونذير ، يهدي الى الحق والى صراط مستقيم ٠

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) قد كتب بعض تلاميذنا المسيحيين كتاباقيمـا يبين فيه نصـوص الأناجيل المبشرة بنبوة المسيح عليه السلام وقد طبع ٠

(٢) المائدة ٠

# الرسول صلى الله عليه وسلم

## محمد من أوسط قريش نسبا

٥٦ ـ التقى أبو سفيان بن حرب بهرقل بعد أن ظهر أمر نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاعت دعوته ،وسمع الرومان برسالته ، فسأله عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلةكان من بينها السؤال عن نسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبوسفيان ، وهو خصم شديد اللدد قوي الخصومة عندما سئل في ذلك ، فقالغير كاذب : « انه من أوسط قريش » أي أعلاهم لأن الأوسط هو الاعلىوالأشرف • فقال هرقل هكذا يبعث الأنبياء من أشرف الناس نسباً •

واخبار القرآن عن الأنبياء السابقين تثبت أنهم كانوا من أعلى الناس في قبائلهم من حيث مكانة أسرهم ، ولنضرب لذلك مثلا بشعيب عليه الصلاة والسلام ، فقد كان من رهط شريف ،وكان نسيبا فيهم ، ولقد قال الله تعالى في مجادلته لقومه :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص الكريم يدل على أنشعيبا عليه السلام كان من قبيل فيهم شرف ، وفيهم عزة ومنعة ، وبذلك كانمن أوسط العشائر وأعلاها في مدين •

---

(١) هود •

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أسرة فيها سمو وعلو في قومه ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة صفياً مهذباً ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » .

وفي الصحيح من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

وبذلك يتقرر أن محمداً عليه السلام كان رفيع النسب ، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فان المال لا يكون نسباً ،وقد كان عمه أبو طالب كبير البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك في المال قلا ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع علو نسبه بين العرب كان فقيراً ، وكان يتيما ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال ،أو قوة البطش ، أو عظمة السلطان ، انما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو آحادها عن النقائص ، ويخشون العار من أن يقعوا في رذيلة يستنكرها العرف ، ويستهجنها ذووا العقول السليمة ، وأن يكون لهم شرف نفسي ،ولم يجعل النبي عليه السلام شرفه في العرب بالمال ، أو السطوة ، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفساً وبيتاً ، وقد قال عليه السلام : « جعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » .

وانظر الى أبي سفيان الذي كان من أعلى قريش عندما سأله هرقل أجاب بالصدق والأمانة ، وان كان صدقه حجة عليه ، ومعطياً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ، واستعلاء بدعوته ورسالته ،ويقول أبو سفيان وهو على الشرك : « لولا أني أخشى أن تحفظ عني كذبة في العرب لكذبت »

٥٧ ـ ولماذا كان الأنبياء لا يكونون الا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد ، وان تولدت الرفعة من غير كبرياء ، واحترام النفس من غير استعلاء . ذلك ، لأن الرسالة تحتاج الى دعوة قوية لا يرنقها كدرة التعييب ، أو عدم الثقة ، أو نقص في شرف النفس أو رمية بالرذيلة ابتداء وان كان هو في ذاته كاملا .

ان النسب الذي ليس فيه رفعة ، ولم يعرف بأنه من عشـــيرة ذات تقاليد فاضلة ، كان أول ما يبادر به هو الرد ،لعدم شرف أسرته ، وانما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهـــم من أراذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوي النسب ، ويتخـــذون ذلك ذريعة لرد الدعوة ، وان كانوا في ذلك ظالمين ، وان رد قوم نوح أبي الانسانية الثاني ليبين هذا ، فقد قال تعـــالى عنه وعن قومه الذين ردوه

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) .

ان اعتراضهم على أن الذين اتبعوانوحا عليه السلام هم أراذلهم اعتراض ظالم ، ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يأتيهم بنبي مغمـــور في أسرته ، منكوب في أمر أمته ، مرذول ابتـــداء عند قومه ، فيبادرون بعدم تصديقه ، ويجاهرون ابتداء بمخالفته ،ويصرون،ويأخذون حجتهم من حال عشـيرته وما يألفون ، وان التأثير في الأقوام لا يكون باكراه النفوس على عكس ما يبدو لها ، وما تبـادر برده ، لأن المبـــادرة بادي الرأي بالرد تجعـــل النفس تبتـدىء

(١) هود .

بالانحـــراف عن الخط المستقيم الذى تدركه العقـول ، واذا انحرفت زاوية التفكير بأمـر منفر بادي الرأي ، فانه يستمر في خط الانحراف ، ولا يرجـع الى الحق ، الا بعسر ، وانه كلما استطال خط الانحـــراف انفـرجت الزاوية ، ويصعب التلاقي من بعـد ، ورضي الله تعالى عن على كرم الله وجهه اذ يقول : « ان للقلوب شهوات ، واقبالا وادبارا ، فان القلب لذا أكره عمي » ودعـوات الرسل للهداية ودعوات الرسالة للهداية ، وليست للعماية .

٥٨ ـ ولا شك أنه يجب أن يكون للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغـير ما يعلمون ، وما يعتقـــدون ، ويصدع مفاجئا بما لا يريدون ، وانهم بلا ريب يجدون أنه لا يدفع ما يجيء على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القوية ، واذا لم يكن له منعة من قومه يقتلونه في فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحا ، ويكون لها ضوء في المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فانه من بعد يكون نورا ، ولو أطفىء النور عـاش الناس في ظلام لا يضيء أبدا ، وانظر الى قصة قوم شعيب ، اذ أنه لم يمنعهم من أن يقتلوه الا رهطه ، فقـد قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهـــم مما تلونا :

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ (١)

فلو كان الرسول في غير رهـــط يمنعه ، وفي غير منعة تدفع أعـــداءه لماتت دعوته في مهدها .

وما لنا نغوص في الماضي قريباً كان أو بعيداً ، ونحن بين يدي حضـــرة الرسول عليه السلام ، اذ أن قـــريشا عند ما صدع بأمـــر ربه ، عارضته ، ولجت في المعارضة ، ولما لجت في المعارضة ساورتها نزعة الشر لقتله ، وما كان يمنعها الا أسرته ، وشرف هـــذه الأسرة ، ومكانتها عند العرب ، وخوفها من أن تبادر بالثأر ، ودفع العار ، حتى تمكن النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم من أن يخرج بدعوة الحق من الفجـر الذى يشق الظـلام الى الصباح المشرق المنـــير ، بل الى الضحى الذى يمـــلأ الوجود ضياء ، عندئذ قيض الله تعالى من يمنعه ، وقد وقفت الدعوة تناضل عن نفسها ، وترد كيد الكائدين .

---

(١) هود .

٥٩ ـ وقد يقول قائل انهم ان لم يستطيعوا النيل من شخصه ، فقد نالوا ممن يتبعونه ، ووقفوا محاجزين دون أن تصل دعوته الى الضعفاء ،فلم يمنعهم مكانه في أسرته من أن ينالوا من صحابته ، ويعوقوا رسالته ، وقد مات فعلا بعض الضعفاء من الصحابة تحت حر العذاب ٠

ونقول ان هذا دليل على أنه لو كان صاحب الدعوة كأولئك الضعفاء لم يوجد من يمنعه لقتلوه ، وقالوا انه أصلها فلو قتلناه لزالت فيستكلبون عليه وتموت الدعوة في مهدها ،فيعجلون بوقفها ٠

وانه يلاحظ أن الأذى الذى كان ينزله المشركون من قريش بالمؤمنين كان يتفاوت مقداره بمقدار قوة أسرهم ، ومكانتهم في النسب الذي كان موضع فخارهم ، فكان لأبي بكر وعثمان ، لون ما كان لآل ياسر ، وآل خباب ابن الأرت ، وكان لهؤلاء الذين لا ناصر لهم أشد ما يلاقي الانسان من أخيه الانسان ، حتى كانوا كالذين عذبوا بالأخدود كما نوهنا من قبل ، وكما جاء في القرآن تعالت كلماته ، وسمت عن القيل عباراته ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناله الأذى ، وأصابه العنت من أولئك ، ولكن دون أن يفكروا في قتله الا بعد أن يئسوا من أن يوقفوا الدعوة وبعد أن وجدوه يعمل على توجيه دعوته الى خارج مكة ، وقد أخذ نورها يتجه الى القبائل العربية ، فحاولوا أن يقتلوه ، ولكن قد آن له عليه السلام أن ينشىء دولة الايمان ، وقد تكاملت عناصر تكوينها ، ولكن في غير أرض مكة٠

وهكذا اختبر الله أهل الايمان بالشدائد ، حتى هاجروا فرارا بدينهم ، لأن الشدائد تملأ القلوب صرامة ، وتعطي الارادة عزيمة ، فلا تهن ولا تضعف ، ولا تحزن ولا تيأس من روح الله ، ومن أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وهكذا يربي الرجال الذين يكونون دعائم الحق ، قال تعالت كلماته.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١)

(١) البقرة ٠

٦٠ ـ كان لابد لنبي الرحمة أن يكون في كل حياته رحيما ، فيربى على الرحمة بالضعفاء صغيرا ، يكون بينهم ضعيفاً ليحس بآلام الضعفاء والمساكين، فليس رحيما من لم يذق مثل ما فيه حال الضعفاء ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه كان نسيبا من أعلى نسب في قومه قد كان في المال قلا ، وابتدأ حياته يتيما ، ثم كان أجيرا في رعي الغنم ، فالتقى فيه مهذبان : أحدهما ـ النسب الرفيع الذى يجعله لا يتجه الى سفساف الأمور ، بل يتجه الى معاليها ،ليتكافأ نزوعه مع شرفه ، فيتلاقيا ، ويتوافرا على اعلائه ، وبذلك حفظ محمد شرف النسب ، فكان الصادق الأمين ، الذى لم يكن فيه ما ينقص نسبه ، ويضعف شرفه العظيم ، فكان النبيل حقا وصدقا ، وكان الكامل بين ذوي الأنساب ، والمتبع من غيرهم ٠

المهذب الثانى ـ اليتم وقلة المال ، وان هذا المهذب من شأنه أن يجعله موطأ الكنف للضعفاء من العبيد ، والعاملين والفقراء ٠ فلا يستكبر ، ولا يستعلي، بل يكون قريبا منهم ، أليفا معهم من غير أن يناله ذل الفقر ، وضعف الحاجة واستخذاء المسكين ، فهو العالي الرفيع ،وهو الذى ينبع معين الرحمة من بين جنبيه ، فان الرحمة تنبع من بين الشدائد ، والرحيم هو الذي يذوق الشديدة من غير أن تذله ، ليرحم غيره ،ولا يمترى نفسه حقد على من هو أعلى منه ، بل هو ينظر دائما الى من دونه ليعليه ، وليحميه ، ويعينه ٠

ان هذين التهذيبين قد توافرا في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاتجه منذ صباه الى معالي الأخلاق التي تليق بذوي الشرف والرياسة ، ولم يتخذ الشرف سبيلا للاستطالة على غيره ٠

وان يتمه وفقره ، وعمله في ميدان الأجراء الضعفاء جعله قريباً مألوفا غير متعال ، يحس أنه من الضعفاء في اخلاصهم ، ومع الأشراف في امتناعهم عن الدنية في أعمالهم ، وفي كل أحوالهم كان العطوف الأليف ٠

وانه يلاحظ في استقراء أحوال الناس أن الضعفاء دائما اذا لم ترنق قلوبهم بحقد ، ولا حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله ، يكون في قلوبهم اخلاص ، ومع الاخلاص اشراق النفوس الذي ينزع بها الى الحق ، والى صراط مستقيم ، ذلك لأن قلوبهم لم تصبها كدرة الهوى،والشهوات واللذات

التي يدفع اليها المال ، أو يسهل سبيلها،واستغراق النفس بها ، فيكون الانسان قريباً من الايمان سرعان ما يدخل قلبه الايمان ، ولذلك كـان أول من يجيب دعوة الأنبياء ويؤمن بهـا ، وأول من يجيب دعـــوة أي حـــق ويؤمن بهـا الضعفاء • والفقراء بهذا القيد الذي ذكرناه ، وهو ألا يدنس قلوبهم حقد ، ولا حب انتقام ولا حسد يطفىء موضع الايمان فى قلوبهم •

لقد أوتي النبي عليه السلام الرحمة بالضعفاء ، لأنه أحس بأنه منهم ، من غير أن يناله ما عساه يكمن في نفوس الضعفاء من استكانة ، ورضـا بالدون من السجايا المرهقة المذلة ، لأن الضعيف اذا لم يصب بالحقد أصيب بنـوع من الرضا بالقليل ، وعدم المطالبة بحقـه الهضيم،وان ذلك قد يجر الى الاستخذاء والنبي عليه الصـــلاة والسلام أوتي مزايا الفقر من أخـــلاص واتجاه الى الطريق المستقيم ، من غـــير أن يتدلى تدلي الضعفاء الى هوان ، أو اذلال ،لأن علو النسب منعه ، وأبعده عن ذلك ،فالتقت فيه الحسنيان ، حسنى النسب ، والاخلاص لله سبحانه وتعالى ، فكـان ذلك تهيئة للرســـالة الالهيـة الرافعة للانسانية •

# النسب الطاهر

٦١ ـ يذكر المؤرخون للسيرة الطاهرة ، سيرة خير الأنام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، ولكن لا تعرف سلسلة النسب كاملة اليه ، بل ان التاريخ لا يحفظ الا عشرين منها ، فهو محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، بن هاشم واسمه عمرو ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة بن الياس بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وهذا التعريف بنسبه الكريم ، هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ، ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان يقول : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا انتهى الى عدنان أمسك ثم يقول كذب النسابون » ، قال الله تعالى :

﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

وان هذا الخبر المنسوب للنبي عليه السلام يدل على صدق تلك السلسلة الكريمة أبا عن جد الى أن ينتهي الى عدنان ، وان حفظ النبي لهؤلاء فقط يدل على أمرين :

أولهما ـ الشك فيمن فوقهم ، وأنه لم يصل اليه عن طريق صحيح ، وأنه وصل الى الناس عن طريق النسابين ، وأن النسابين قد يدفعهم الفخر الى الكذب والافتراء .

ثانيهما ـ أنه يدل على صدق هذا النسب ، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول الا حقاً ، فهو الصادق الأمين ، ويظهر أن ذلك القدر من النسب

---

(١) الفرقان .

الرفيع هو الذى كان معلوماً في حكم المتواتر ، أو المشهور عند العرب ، وغيره موضع شك ، والقول فيه رجم بالغيب ، وأخذ بالتوهم أو الظن ،وان الظن لا يغني من الحق شيئاً ·

وما كان أولئك معروفين الا لأنهم أثرت عنهم مآثر ، صارت مفاخر لذرياتهم ، وان كان النبي عليه السلام لم يفخر قط بنسبه ، ومع ذلك هو من خيار الأقوام ، فقد قال عليه السلام :« ولدت من خيار من خيار من خيار » فهو يذكر الخير فيهم ، ومكان الشرف في أسلافه ويمتنع من أن يستعلى بهم ، والتفاخر استعلاء واستطالة بالنسب ،وقد يكون فيه شحناء ، والشحناء ليست من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ·

٦٢ ـ وان الظاهر أن أولاد عدنان قد أقاموا بمكة منهم من هو في سلسلة نسبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن اسماعيل عليه السلام ، كانت اقامته قرب مكة ، وهو باني الكعبة ، ولأن النسابين ذكروا أنه كان أولئك العشرون بها ، ولأنهم كانوا معروفين فيها كابراً عن كابر ، وما يعرفون الا لاقامتهم بمكة التي قام بها الأخلاف من بعدهم ، ولتقديس الكعبة ومكة ، ووفود الناس اليها من كل فج عميق ·

ولقد ذكروا أن بعض ذرية عدنان أقام باليمن ، وأنسل فيها نسلا ، وذلك لأن عدنان ولد له ولدان أحدهما معد ، والثانى عك ، فتزوج هذا من الأشعريين ، وهم بنو أشعر الذين يقيمون باليمن ، فانتقل الى موطن زوجته باليمن ، ثم كان من بعض منهم من كان بعض ولده يخرج من مكة ، وينفرد بالبقاء فيها من يدخل في سلسلة النسب ، كما رأيت في معد ، وأخيه عك ، فهذا هاجر الى اليمن مع أسرة زوجه ، وبقى معد فيها ·

وجاء معد ، فكان مثل أبيه فكان من أولاده قضاعة الذى تنسب اليه هذه القبيلة ، وكان نزار هو الذى استمر بمكة ، حتى كان منه ولده من بعده من يدخلون في نسبه عليه السلام ·

وكان من أولاده ربيعة الذي ينسب الربعيون اليه ، وانمار ، واياد ،وهذان كانا أبوين لقبيلتين وكان ابنه مضر الذى كان جد النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي أقام بمكة ·

وكان لمضر ولدان هما الياس ، وغيلان ، ومضر خيرهما ، هو الذي يدخل في نسب النبي عليه السلام ، ويظهر أنه في عهد الياس أخذ بنو اسماعيل يغيرون ما ورثوا من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فأنكر عليهم ما غيروا من سنن آبائهم وسيرتهم ،ويقول في ذلك صاحب كتاب«الاكتفاء»: « بأن فضله عليهم ، ولان جانبه لهم ،جمعهم رأيه ، ورضوا به رضاء لم يرضوه لأحد من ولد اسماعيل ، فردهم الى سنن آبائهم ، حتى رجعت سنتهم قائمة على أولها ·

وجاء من بعد الياس ابنه مدركة ،واسمه عامر ، وله ابنان آخران ، لكن هذا كان المختار منهم ، وسماه مدركة لأن ابلا كانت قد نفرت منهم ، فتقاصر الولدان الآخران عن تتبعها ، ونهض عامر ، لردها من نفارها ، وقد بعدت ، فأدركها فردها ، فسمي مدركة وصفا لهذا العمل وكان لمدركة خزيمة وهذيل، فكان خزيمة المختار ليكون جداً للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان جداً لهما ، وولد لخزيمة ـ كنانة وأشد وأشدة والهون ، وكان كنانة هو المختار ليكون النبي عليه الصلاة والسلام من صلبه ·

وكان لكنانة عدة أولاد ، ولكن الذي اختار الله تعالى ، ليجري في صلبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو النضر المختار من بينهم ، ويقال ان النضر هذا هو الذي جمع قريشا ، ولكن الأكثرين على أنه فهر حفيده الذي هو جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

والنضر كان له أولاد كان أنجبهم فهر جد النبي عليه الصلاة والسلام ·

وكان فهر هو مجمع قريش ، وكان يسمى قريشا ، وقد كان فيه حكمة ، وخلق سوي ، وقد قال في وصيته التي قالها لولده غالب الذي أعقبه في الزعامة وهو المختار ليكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صلبه ، فقد قال لابنه غالب عندما حضرته الوفاة ·

« يا بني ان في الحزن قبل المصائب اقلاق النفوس ، فاذا وقعت المصيبة برد حرها ، وانما القلق في غليانها ،فاذا أنامت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وبما ترى من

آثارها في محبي الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وان قلت منفعته ، فقليل ما في يدك ، كان خيراً لك من كثير ما أخلق وجهك » .

ولقد كان غالب له أولاد وقد خلفه في زعامة قريش لؤي ، وقد كان لؤي هذا فيه حكمة كأبيه وجده ، بدت وهو غلام حديث ، فقد جرت مناقشة بينه وبين أبيه غالب دلت على حكمة قلبهما .

قال الغلام لأبيه : يا أبت من ربى معروفا قل اخلافه ، ونضر ماؤه ، ومن اخلفه أهمله واذا أهمل الشيء لم يذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وستره .

فقال الأب الحكيم : « انى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، واستدعى لك به الطول على قومك ، فان ظفرت بطول ، فعد به على قومك ، وكف غرب جهلهم بحلمك ، ولم شعثهم برفقك ، فانما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ، ولم تعل به على أحد ، وللعليا فضل أبدا على السفلى .

خلف الغلام بعد أن اكتمل رجلا أباه ، وقد ولد له أولاد ، كان كعب أعقلهم ، وأفضلهم ، وهو جد النبي ، وقد كان حكيما كأبيه وجده ، ويذكر رواة السيرة أنه قال هذه الخطبة :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار وضاح ، والسماء بناء والأرض مهاد والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً ، لتضربوا عن أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظنكم ، صلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم وثمروا أموالكم ، فانها قوام مروآتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم ، وتمسكوا به ، فسيكون له نبأ عظيم ، وسيخرج نبي كريم » .

هذا ما يقوله كتاب السيرة في نسبة الخطبة اليه ، وليس لنا أن نحكم بصدق النسبة أو تكذيبها ، ولكن نحملهم مغبة ذلك ، ان صدقا وان كذبا .

وقد كان لكعب بن لؤي أولاد خير هم مرة جد النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد كان أحد الرجال الذين تفاخر بهم قريش .

وقد جاء من بعد مرة كلاب ، وهو جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثم جاء من بعده ولده قصي وهو خير أولاده ، وأظهرهم ، وأبينهم أثرا في قريش فهو الذي جمع الله به قريشا،وكان اسمه زيداً ، فسمي مجمعا ، لما جمع من أمرها ، ويسمى قصيا لتقصيه أمورها ، وان قصياً على هذا جد قريب، وليس من الأجداد الذين يبعد عهدهم به عليه السلام ، وله شأن خاص فيما يتعلق بسدانة الكعبة ، ورياسة الندوة وغيرها فلابد أن نخصه بكلمة .

## قُصَيّ :

٦٣ ـ قد ترك أبوه كلاب ولدين أحدهما قصي، والثانى زهرة ،وكلاهما جد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقصي جده عليه السلام ، وهو الجد العصبة ، وأما زهرة فهو جده لأمه .فهو الجد الرحمي ، وكأن كلابا بهذا قد جمع الله تعالى له شرفين ، فهو جد النبي عليه السلام لأبيه ولأمه ، فالتقى فيه الشرفان .

وقد طوف قصي في بلاد العرب ،فهو في أول حياته لحق بأمه في قضاعة ، فأقام معها ، وقد كان فتى أيدا قويا كريما أبيا يأبى الضيم والعار ، ناضل يوما شابا من قضاعة فنضله قصي ،فغضب المنضول ، وحزت في نفسه حرارة السهام ، وسبة الهزيمة ،فتنازعا في القول ، فقال المهزوم : ألا تلحق بأهلك فلست منا ، ويظهر أنه الى هذا الوقت ما كان يعرف أباه وشرفه ، فقد عاد الى أمه وشكا لها من مرارة القول الذى سمعه ، فقالت له « أنت والله يا بني اكرم منه نفسا ووالدا ، ونسبا، وأشرف منزلا ، أنت بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله ، تفد العرب الى ذلك البيت » .

أجمع قصي من بعد ذلك الخروج ،واللحوق ، وضاق ذرعا بالبقاء غريباً ، فقالت له أمه لا تعجل ، حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فانى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس (١) .

---

(١) الاكتفاء ص ٧٣ جـ ١ .

انتقل قصي الى أسرة أبيه في مكة بعد أن جاءت الأشهر الحرم ، وخـــرج حاجاً ، وكان جلداً بهذا نسيباً . ولم يلبث أن نال سدانة البيت الحرام ، ولم تكن من قبله لقريش بل كانت لخزاعه ،وكان له الأمر في اجازة الحج للناس ، وكان ذلك لغير قريش ، فانتزع تـلك الولاية بحيلـة الداهيـــة ، وقـــوة ذي البأس .

ولي بهذا قصي سدانة البيت ، وامرة مكة ، وجمع قومه من منازلهـم ، واجتمعت في يده بمقتضى الولاية سدانة البيت وامرة مكة والحجابة والرفادة والسقـــاية والندوة واللواء ، ومعنى الحجابة أن يملك مفاتيح البيت ، فـلا يفتح الا بأمره ، ومعنى السقاية تولى سقاية الحج ، والرفادة كانت خـــرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها وتعطيه قصياً ، فتصنع به طعاماً للحجاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وقد سن هذه السنة الكريمة ، ودعا اليهـا قريشاً ، وقال في خطابه لهم بذلك .

« يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وان الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهـــم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعـاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم» .

ومعنى اللواء ألا يعقد لقريش لواء الا بيد قصي هذا ، ومعنى النـدوة دار الشورى لقريش ، ثم كانت من بعد ذلك للعـــرب ، فـكانت تعقـــد في دار قصي .

وقد أعطي كل هذه الحقوق التي نالها بهمته لابنه عبد الدار ، ليعزه بها ، وأراد أن يرفع خسيسته وينال الشرف على بنى عمه من قـريش ، ولذلك قال له أبوه عندما أعطاه اياها : « أنا والله يا بني لألحقنك بالقوم ، وان كـانوا قد شرفوا عليك » .

وكان عبد الدار هذا ولده البكر ،وله ولد آخر هو عبد مناف ، وقـــد شرف في مكة بذاته ، ونبل أمره وقد ذهب كل مذهب ، وأبوه حي .

وقد أراد أبوه باعطائه عبد الدار ما أعطى أن يتعادل الأخوان في الشرف الذى وصـــل اليه الأول بذاته ونبله وتخلف الثاني ، فأعطـاه ما يعـــوض تخلفه .

وعبد مناف هذا هو الجد الرابع للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أعطى الله لعبد مناف أولاداً أربعة هم عبد شمس جد الأمويين ، والمطلب الذى ربى عبد المطلب الذى يعد اسمه الأصلي شيبة الحمد ، ونوفل ، جد جبير بن مطعم .

٦٤ ـ وكان أولئك الأربعة فيهم شرف ذاتي كشرف أبيهم ونبله ، فلم يتركوا لعبد الدار وأولاده ما أعطاه جدهم قصي ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لفضلهم في قومهم ، وقد انقسمت قريش في تمكين بني عبد مناف من نزع ما بأيدى أولاد عمهم ، فرأى بعضهم أنهم أولى لمكان فضلهم ، وليس امرة مكة وزعامتها عطاء يعطى ، من لا يستأهله ، بل يوسد الأمر لمن هو له أهل ، ورأى آخرون أن بني عبد الدار أولى ، لأن قصياً صاحب الحق هو الذى أعطى أباهم ، ولأنه بأيديهم ، ولا ينزع من يد صاحبه لغيره ، ومن قريش طائفة التزمت الحياد .

وقد كان خلف شديد انتهى الى صلح سديد ، لأن المختلفين أزمعوا الحرب ، وحيث بلغ الخلاف أقصاه تنبه المختلفون اذ نبهتهم العاقبة المرتقبة الى أن يكفوا ، أو يكف كل فريق عن غلوائه ، فتداعوا الى الصلح .

اصطلحوا على أن يكون في بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ، والندوة في بني عبد الدار تبقى كما هى .

وكان هاشم أصبح بني عبد مناف ، وأنقبهم صحيفة ، ولذلك كان له الشرف على اخوته ، ونال مما أخذه بنو عبد مناف ، وكان ينفس عليه أخوة عبد شمس ما كان له من شرف ذاتي ، ومكانة عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة ، وقد أعقبه في شرفه مربي النبي عليه الصلاة والسلام عبد المطلب ، وهنا نقف وقفة عند عبد المطلب .

## عبد المطلب :

٦٥ ـ نقف عنده وقفة قصيرة ، لأنه هو الذى حضن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في سن الحضانة ، وعبد المطلب أمه من يثرب مهاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهي من بني النجار بها ، وقد شب في حياته الأولى

فيها ، وقد تربى بينهم في دار الغربة ،حتى أتى به عمه المطلب ، ودخل مكة ، ولزم صحبته ، فقيل له عبد المطلب ٠

وقد أعطته قريش رياستها، واستحق ذلك بقوة نفسه وقوة خلقه ، وشجاعته وسماحته ، فهو لشبابها أب ولكهولها أخ ، في طلعته يمن ، وفي خلقه عزمة قوية ، ولكن في هدوء ، وسمت طيب راض ، وطيب ، ولكن في غير هوان ٠

هو الذى حفر زمزم بعد أن طمرتها جرهم عندما سيطروا على مكة ، وكانت لهم قوة فيها واستمرت مطمورة عبر السنين ، حتى حفرها عبد المطلب ،فسقوا من مائها ، وأثار ذكريات اسماعيل عليه السلام بحفرها ، وملأهم عزة وكرامة باستعادة بئر كانت ببركة أم اسماعيل الذى كان هو وأبوه فخر العرب ، وزاده ذلك شرفا فيهم ، وعلوا وما كان لطيبة نفسه بالذى يستعلي على أحد بمناقبه وما أعطاه الله من حسن النقيبة ويمن الطالع ، بل يحمد الله تعالى على ما وفقه وهداه ٠

ويذكر كتاب السير أنه حفرها برؤيا صادقة مكررة ، وكأنها الهام من الله تعالى ، ألهمه سبحانه وتعالى اياه لصفاء نفسه ، واشراق روحه ٠

يروي على بن أبي طالب عن أبيه عبد المطلب أنه قال : انى لنائم في الحجر ( بجوار الكعبة ) اذ أتاني آت ،فقال : « احفر طيبة ، قلت وما طيبة ، ثم ذهب عني ٠ فلما كان الغد رجعت الى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاء فقال احفر برة ، قلت وما برة ؟ ثم ذهب عني » ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فقال احفر المضمونة قلت : وما المضمونة ، ثم ذهب عني ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ،فنمت فيه فجاءنى فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ؟ فقال : لاتنزف أبدا ،ولا تذم ، وتسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل ، ومعنى بين الفرث والدم،أي عند المذبح الذى كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية أي المكان الذى كان فيه نمل ٠ ووجد الغراب ينقر عندها ، وكأن هذين كانا علامة حد المكان ،والآية التي تدل على صدق الأتي في تبشيره ٠

فلمـا بدأ لعبد المطلب الماء كبّر الله تعالى ، وقد كانت قريش تلاحظ عمله ، وكأنها غير مصدقة لنتائـج ما يحفر ،فلما كبّر علموا أنه أدرك ما يريد ·

ولكنهم جاءوا يشاحنونه في أن تكون العين تحت سلطانهم جميعـا ، لا تحت سلطانه وحده،وقالوا:انها بئر اسماعيل،وان لنا فيها حقاً ، فأشركنا معـك في السلطان عليها ·

ولكنه لم يسلم لهم ، بل رأى أن تكون تحت سلطانه ، لأنه هو الذى حفرها ، وقد نازعوه هذا الحق ، ثم لما رأوا من طيبته ، وراجعوا حسن نقيبته ، تركوا الأمر ، وما هو بمانعهم من مائها ،ولكنه يسقيهم ويسقى الحجاج منها في غـير منة ولا أذى ، ولكن في عدل وحسـن توزيع على أن يكون له حق السقاية فيها·

وان وصف زمزم بأنها لا تنزف ، وفيهـا سقاية الحجيج خبر حقفه الزمن الى اليوم ، فلا يزال الحجـاج يشربون منها ، وهي تفيض عليهم في سخـاء ، وهي عين ثرة ، ومعين لا ينضب ، ولاتزال فيها بركة اسماعيـل ، ونقيبة عبد المطلب · والدلالة على أن بيت الله تحوطه البركة كما قال تعالى في وصفه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

٦٦ ــ ان الناظر في تاريخ عبد المطلب ينتهي بأنه كان متصفا بثـلاث صفات كريمات ·

الأولى ــ الطيبة والسماحة ، فكان مـوطأ الكنف قـريباً من الناس أليفاً محبوباً ، لا يستغلظ على أحـد ، ولا يستكبر ولا يستعلي ، يطمئن أهل مكة اليه ، ويثقون به ، ويرضونه حكمـا ،ولو على نفسه ·

الثانية ــ أنه كان مباركا ، لا يضع يده في عمل الا بارك الله تعالى ، حمل المعول ، فحفر بئر زمزم واذا لم يـكن ذا مال في قومه ، فقد كان موفوراً في كرمه ، ومباركا له في رزقه ، وأكثـر قريش فضلا عليهم وعائـدة بالخـير على جمهورهم ، لا يضن بخير ، ولا يستأثر به ، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه ·

---

(١) آل عمران ·

الثالثة ـ عزمته ، واصراره على مايقوم به من خير مهما يصادف في ذلك من عقبات ، وما يحتاج اليه العمل من خير له وللناس .

فكان قوي الارادة ماضي العزيمة ، متحملا أثر ما يقول .

ذكر علماء السيرة أنه ما كان له عند حفر زمزم الا ولد واحد ، وهو الحارث بن عبد المطلب ، وكان العرب يعتزون بكثرة المال ، وكثرة البنين ، فكان يجرى على ألسنتهم في مقام الفخر .

﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

واذا كان عبد المطلب قد قنع بما أعطاه الله تعالى من مال ، وان لم يكن كثيرا كغيره من أثرياء قريش وثقيف ، فقد قنع به ، لأنه كان يكفى لحفظ مروءته ، وما كان حريصاً على أن يجمع ، بل كان حريصاً على ألا يمنع ، وحسبه ذلك شرفاً .

ولقد كان له شوق الى البنين ليكون أعز نفراً ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا .

ولقد نذر نذرا فيه بقية من بقايا الجاهلية ، وهو أنه اذا عاش له عشرة من البنين ، قدم أحدهم فداء عند الكعبة ، وكأنه يريد أن تكون فيه قوة التقرب الى الكعبة ، كما تقرب جده ابراهيم بولده البكر الى الله تعالى ، ولكنه فعله نذرا من نفسه ، ولم يفعله بأمر ربه ، ولذلك كان استعداد ابراهيم قوة عبادة ، ونذر عبد المطلب لا يخلو من جاهلية ، وهذا فرق ما بين أبي الأنبياء وخليل الله تعالى ، وصفيه ، ومن عاش في جاهلية الوثنية ، غير مستنكر لها ، والله هو الذى يهب من يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء الاناث ، ويهب لمن يشاء الذكور والاناث .

اتجه الرجل القوى في نفسه وعزمته الى الوفاء بنذره ، وقد بلغ ولده عشرة رجال ، ولكن من يختاره لهذا الفداء ، فأراد القرعة ، فجمعهم ، ودخل بهم في جوف الكعبة ، وأمرهم أن يأخذ كل واحد منهم ورقة ، ويكتب

---

(١) الكهف .

فيها اسمه ، وقد أخبرهم من قبل بنذره، فارتضوا طائعين غير منافرين ، وبعد أن كتبوا أسماءهم وضع اسم كل واحدفي قدح ، وأمر خبيراً في القداح أن يسهم بينهم ، فساهم ، فكان القدح على عبد الله ابنه وأبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ومع أن عبد الله كان أحب بنيه اليه، أخذ الشفرة يحدها ليذبح أحب ولده اليه ، ولكن ترامى الخبر في أنديةقريش من أن عبد المطلب يحمل شفرته ليذبح ابنه ، فجاءوا سراعاً اليه ، ورأوه حاملا شفرته ليذبح ولده الحبيب غير وان ولا مقصر ، فصاحوا فيه ماذا تريديا عبد المطلب ، قال : اني أذبحه ، فهال الأمر قريشا ، وفزع اخوته ، وقدأضعفت عزمتهم وطاعتهم الأولى ، ومحبة أخيهم ، ولكن لم تضعف عزمة الشيخ الفادي ، الوفي بنذره وان كان الفداء أحب اليه منهم جميعاً ، ولكنها قوةالارادة والعزيمة · والايمان بما يعتقد ، وان كان باطلا ·

أقسم الأبناء والأقربون وقريش علىألا يذبحه ، وبنوا ذلك على أنه ستكون مغبة سوء على قريش خاصة ، وعلىالعرب عامة ، قالوا له لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزالالرجل يأتي بابنه ليذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقالت ابنة أخته والله لا تذبحه حتىتعذر فيه ( أي تبدي العذر عن النذر ) فان كان فداؤه فديناه بأموالنا ·

ذهبوا الى عرافة في أرض الحجاز ·فأشارت عليهم بأن يقدموا الدية وهى عشرة من الابل ويقرع بينها وبينالذبيح ، فان كانت القرعة عليه زادوا في الابل ، حتى تكونالقرعة عليها ·

أصاخوا الى صوتها ، وأجمعوا الأمر ، ثم قربوا عشرا من الابل وعبد الله الذبيح ، فقرعوا بينها ، فكان السهمعلى عبد الله ، ثم زادوا حتى صارت عشرين ، فكان القدح أيضاً على عبد اللهفزادوا حتى صارت ثلاثين ، ولكن خرج القدح على عبد الله أيضا ، واستمرتالزيادة عشرة بعد عشرة حتى وصل العدد مائة من الابل ، ثم ضربوا القدحفخرج القدح على الابل ·

فقالت قريش قد انتهى الأمر ، ورضي ربك بالفـــداء يا عبد المطلب ٠

ولكن عبد المطلب يريد أن يستوثق من الرضا بالفداء ، فزعم الرواة أنه ضرب مرة ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الابل ، فنحرت الابل ، وتركت للناس لا يصد ولا يمنع انسان ٠

٦٧ ــ وان دل هذا على صفة من صفات عبد المطلب ، فهي تدل على صفة الرجل المريد لما يفعل ، القوي في عزمه الصادق في نفسه واختياره وهـــو يدل على قوته في البلاء ، وتحمل الصبر على ما يكره ، وان تقاضـــاه الصبر ذبح أحب أولاده اليه ، فاختبر ، وابتلي فأحسن البلاء ٠

والرجل القوي ليس هو الذى يخضع ارادته لهواه ، أو عزمته لشفقته ، انما القوي حقاً وصدقاً هو الذي يجعـــل الايمان والارادة يغلب الهوى والمحبة ، وقد كان عبد المطلب القوي ، ولا يمنع ذلك أن يكون شفيقاً محباً ، فاذا آمن بفكرة نفذها بقلب قوي صابر ٠ وبنفس مطمئنة راضية ، ولو كـــان مصـــدر ايمانه باطلا ٠

وكان قوي الجنان ثابت الجأش لايضطرب ، ولا يهن ولا يضعف عنـــد المفاجأة ، ولا تذهب نفســـه شعاعا ، عندما يكون الأمر المخوف ٠

جاءت الحبشة بملكها ، وأفيالها ، وأقبل على مكة جيش لجب قوي مستعـــد بأقوى العدد ، وبأكثر العدد ، فانخلعت القلوب واضطربت الا قلب عبد المطلب كبير قريش ، وسيد البطحاء ، وكـــان يحسن القول ، ويرهب بقوله في هدأة من غير هوادة في الحق ٠

جاء الجيش الحبشي ، واستاق ابلا لأهل مكة ، ومن بينها ابل لعبد المطلب، فذهب الى لقاء أبرهة ملك الحبش وقائد جيشهم ، ومعه الرهبة والطغيان ، فما اضطرب قلب كبير البطحاء ، بـــل ذهب اليه ، وكانت فيه هيبة ، وله سمت كريم ، يهـــابه من يلقاه ، ويطمئن الى سماحته فعند اللقاء وقع في قلب أبرهة هيبته فسأله عما جاء اليه ، فسأله أن يرد الابل ، فقال انه حسبه جاء يســـأل عن الكعبة ، وقـــال مستنكراً « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة »

فاجابه في قوة أوقــع الرعب في قلبه باجابته ، « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » والجواب فيــه ارهاب وتخويف ، اذ أنه يقــول له • لا تظن أنــك منتصر ، أو غالب ، أومقتلع البيت الذى جئت لهدمه ، فــان ذلك فوق قدرتك ، بــل فوق طاقتك ،لأنه بيت الله والله يحمى بيتــه ، ولن تنتصر ، فالله خاذلك ، جواب مــرهب مفزع ، ولكن في هدوء الحكيم ، ورفق الذى يزن القول ، ويعرف موقعه •

ولذلك كلام مفصــل في موضعه ان شاء الله تعالى •

# عَبْـدالله

٦٨ ـ ذلك هو الجد القريب الذي تربى النبى عليه الصلاة والسلام في حضنه ، والذى رأى فيه أول ما رأى عزة الرجال ، وحكمة الشيوخ ، وعطف الأبوة التي عوضه بها عن أبيه الذى لم تكتحل عيناه برؤيته ولابد أن نذكر كلمة عن الرجل الذى افتدته قريش كلها ، وهو عبد الله أعز أولاد أبيه اليه، وأقربهم منه ، لقد كان أحب أولاد عبد المطلب العشرة (١) ، وقد اتسم بالجمال فكان أجمل قريش ، وأحب الشباب اليها ٠

وكان في خلقه طيبة نفس ، واطمئنان قلب ، ورضا بما يجري به القدر مع استعداد للفداء ، ان كان مايقتضيه لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيه ليوفي بنذره ، فاستعد لأن يذبح ، فكان الذبيح الثانى بعد جده العظيم اسماعيل ، واذا كان فداء اسماعيل بذبح عظيم كان من أمر الله تعالى ، لأن الله تعالى اختبر ابراهيم بما رأى في المنام ، وما دام الاختبار ، فالفداء يكون بأمر الله تعالى ونهيه ٠ أما ذبح عبد الله، فكان بنذر من عبد المطلب ، فكان الفداء برأي أهل مكة ، فما كان من البشر يكون منهم ، وما كان من الله تعالى ، فالأمر اليه وكان لجمال وجهه ، ولطيب نفسه ، موضع اجتذاب الناس ، ومحبتهم ، فلم يسلموه لأبيه ، وقد أرادقتله ، ونجوه من يد أبيه الشفيق الحازم المريد القوي فيما يريد ، وان كان شديداً عليه ٠

وكان موضع اجتذاب النساء لوسامته وجاذبيته ، ولكنه كان العفيف الذى لا يريد الا الحلال ، ولا يبتعد عنه ، وكأنه يبتعد عن الحرام مروءة وكرامة نفس ، لا لتنفيذ أوامر الهية ، بل أمر مروءته واحتفاظ كرامته يستجيب لهما ، كأوامر المصادر الدينية ٠

---

(١) العشرة هم الحارث ، والزبير ، وحمزة، وضرار ، وأبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العزى ( عبد الكعبه ) ،والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الله ، والعباس ٠

تعرضت له امرأة ، راقتها وسامته ،وجذبتها طيبته، فأرادته لنفسها، وربما راودته عن نفسه ، ولكنه العيوف الذىلا يشتار الا عسلا يملكه حلالا نكاحا ، ولا يريده نزوة أو سفاحا ، فردهـــا الشـــاب القـــوي الذى لا يستهـــويه الهوى قائلا :

أمـــا الـــحرام فالممـــات دونه والحـــل لا حـــل فأستبينـــه
فكيف بالأمـــر الذي تبغينـــه يحمى الـــكريم عرضـــه ودينه

صان الشاب نفسه ، وصان أمانته ،وصان خلقه وكرامته ، فلم يتدل كمـا تدلى الشباب من قومه ، لأنه أراد أن يعيش طاهراً كريماً محبوباً ، لينقـــل وديعة الله تعالى للانسانية الذى ينقـــل رسالته سبحانه وتعالى الى خلقـــه وذلك بزواج طاهر حلال ٠

## الأمر :

٦٩ ــ كل فتاة في قـــريش كانت تتمنى أن يكون الشـــاب عبد الله بن عبد المطلب شيبة الحمد ــ أن يكـــون لهازوجاً ، وأن يكون لأولادها أباً ، وقـــد قارب العشرين أو يزيد من عمـــره ،عفيفاً ، لم يزن بريبة ، ولم يعرف عنه نزوع الى شر ، بل كان ينزع الى الخيرولا يزيد ، ولأبيه عليه حق الطاعة في غير معصية ، اذ كان له مـــلازما ، ولايستطيع له فراقاً ، ولا خلافاً ، لأنه حب أبيه ، وصفيه المختار ٠

وقد اختار أبوه له زوجاً آمنة بنت وهب بن عبـــد منـــاف بن زهـــرة أخي قصي ، وابن كلاب ، وكان أبوها ســـيد بنى زهرة ، كما كان عبد المطلب سيد بني قصي ، ثم سيد مكة جميعها غـــير منازع ، لأنه محمود النقيبة حكيما بين قريش لا يطيش ، ولا يحين ، ولا يرهق أحداً ، فكان السيد المطاع في غير جبر ، ولا اعنات ، ولا تضييق ولقـــد التقى الشاب مع أبيه في الاصهار الى بني وهب بن زهرة ، اذ أن عبد المطلب كان قـــد تزوج هالة بنت وهب بنت عم آمنـــة ، واختار لابنه آمنة ٠ وهى بنت عـــم لزوجته التي أنجب منها حـــمزة بن عبد المطلب (١) الذي صار في جهاده للاسلام سيد الشهداء ، وصفيـــة أم

(١) ابن كثير الجزء الثانى ص ٢٥٢ ٠

الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك التقت في حمزة بن عبد المطلب ثلاث صلات بالنبى ، أولها أنه عمه ، وثانيها أنه بن بنت عم أمه ، وثالثها أنه أخوه في الرضاعة ، وفوق ذلك أنه ثاني عميه اللذين تصديا للدفاع عن النبى عليه السلام في مواجهة قريش في مكة ، ولكنه الثانى الذي دافع عنه لا بمقتضى حكم القرابة القريبة الوثيقة ، بل بذلك وبحكم الايمان بالرسالة المحمدية ، والجهاد في سبيل الله ، فكان سيد الشهداء .

وكذلك كانت صفية بنت عبد المطلب لها بالرسول قرابتان : قرابة العصب ، وقرابة الرحم ، فهي عمته أخت أبيه ، وهي ابنة هالة بنت عم أمه وكانت معه في الرخاء وفي الكريهة، وفيها شجاعة آل عبد المطلب .

وبنو زهرة مع التقائهم في نسب النبي في جده كلاب كما سماه العرب ، وحكيم كما سماه التاريخ لما فيه من حكمة ، لم يكونوا مع بنى هاشم في خلاف ، ولا منافسة جرت الى عداوة في جاهلية أو اسلام ، بل كانوا لهم معاونين ومناصرين وموادين ، لا بقضاء يسيطر على نفوسهم ، ولكن مودة تربط على قلوبهم .

ولقد قالوا في الأخبار ان كلابا كان ممن يؤمن بأنه سيكون نبي من قريش، وكان يخطب قومه كل جمعة ينبههم بذلك (١) وان صح ذلك الخبر فمؤداه أن كلابا هذا كان من أشد المتمسكين بابراهيم ، ونبي من بني اسماعيل ، ولا يمنعنا ذلك من أن نقول انه تأشب ايمانه بالله تعالى بعض آثاره من الوثنية الجاهلية ، فنحن لا ننفى هذا عن عقلاء العرب ، وذوي الأخلاق والهمة فيهم كعبد المطلب ، ومن بعده ابنه أبو طالب سيد مكة ، وحامي الرسول ، ومانعه من الأذى .

وآمنة تلتقي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة أمها برة بنت عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصي جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص٥٤ .

٧٠ ـ وهنا يثور كلام يجيء في أخبار عن عبد الله أبي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكانت له زوج غير آمنة تزوجها قبلها أو بعدها وان آمنة احدى اثنتين كانتا زوجين لعبد الله ٠

قال ابن اسحق صاحب السيرة « فقد ذكر أن عبد الله انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل في طين له وبه آثار من طين ، فدعاها الى نفسه ، فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين فخرج من عندها فتوضأ ، وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج عامداً الى آمنة فمر بالمرأة ، فدعته الى نفسها ، فأبى عليها ، وعمد الى آمنة فدخل عليها وأصابها ، فحملت بمحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم مر بامرأته تلك ٠ فقال لها هل لك ؟ قالت لا ، مررت بي ، وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت علي ، ودخلت على آمنة ، فذهبت بها » (١) ٠

وانا نرد ذلك الخبر ، ونؤمن بأن عبد الله ما تزوج الا آمنة أم محمد خير الخلق والنور المنبثق في هذا الوجود ، وانا نقرر ذلك ٠

أولا : لأنه خبر انفرد بذكره ابن اسحق ، ولم ينقله ، ولم يأت في كتب السنة الصحاح ، ولو كان عبد الله له زوج أخرى لاشتهر ذلك ، ولذكر في الأخبار ، كما ذكر خبر زواج عبد المطلب المتعدد ، وأولاده من كل زوجة تزوجها ، وبيان نسبها ، ومن تنتمي اليهم ، وما كان عبد الله أبو سيد الخلق بأقل شأنا من أن يعرف زواجه الأول ، والثاني من عبد المطلب ان كان قد عدد الأزواج ، وقد علا شرف عبد الله بأبوته لمحمد ، فليس بأقل من أبيه الكريم ، والسيد العظيم اليه ٠

وثانيا : أن هذه الزوج المزعومة لم تذكر متى كان زواجها منه ، وما أحوال ذلك الزواج لو كان حقا ، وما الذي انتهى اليه ، ولماذا تزوج أخرى في هذه السن المبكرة ؟؟

ان عدم ذكر شيء من هذا في ذلك الخبر يجعله غير قابل للتصديق ، وهو غريب في ذاته ٠

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ١٥٧ طبع الحلبي ٠

وثالثا : أن المذكور في السير أن المرأة المشار اليها في السير كانت قد طلبت أن يصيبها ، ولم تذكر زواجا ،وأنه أجابها بالاستنكار ، وقال البيتين المشهورين عنه اللذين يفيدان أنه لا يقبل الا الحلال الذى يسوغه له عرضه وكرامته ، وشرف أسرته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ٠

ورابعا : أن الخبر يحمل في نفسه دليل بطلانه ، لأنه يذكر أنها طلبته وهو مغبر بطين ، فلم ترض ، وكان المعقول وقد طلبها طلب الرجل لامرأته وأنها مانعته حتى يغتسل ، وأنه اغتسل أن يذهب اليها ، واذا عاد إليها بعد آمنة وهي احدى زوجتيه ، فانه ليس لها أن تمتنع عليه لأنها زوجه ، فكيف يقال من بعد انه رضيت به لغرة نور في جبينه ، ولو كان ذلك هو السبب ، ما منعها عند اجابته وعلى ثيابه طين ،لأن الأساس في نظرها أن تصل الى أن يكون النور في رحمها لا يمنعها غبار طين أو نحوه ٠

فالخبر مضطرب في مبناه متناقض مع العقل في معناه ، فيرد جملة وتفصيلا ٠

## صفات سامية في آمنة :

٧١ ــ اتسمت آمنة كما يبدو من أخبارها ، أنها كانت صبورا ، وكانت تشبه البتول في سموها ، وفي اصطفاء الله تعالى لها في أن تكون أما لسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم كما اصطفى مريم البتول لتكون أما للمسيح عليه السلام ، ولكن آمنة ، ولدت محمدا وحملت به كسائر البشر ٠

وكانت شبهها بالبتول في الصبر ،وفي خلاصها من فتن الزواج ، وكونها حملت صاحب أكبر رسالة في هذا الوجود ٠

انها منحت زوجا مرموقا محبوبا تتمناه كل فتيات عصره ، ولكنه سرعان ما غادرها بعد الزواج بمدة قصيرة ،قدرها بعض الاخباريين بأنها ثلاثة أيام أو ثلاثة أشهر ، سافر ليمتار لأهله من قريش تمرا ، فذهب لأخوال أبيه بنى النجار ، ومات هناك ٠

فهذه الأم الصبور على فراق زوجها الشاب ، ولم تشتر عسل الزواج ورضيت الحرمان في سبيل نفع قومها، اذ ذهب ليجلب لهم رزقا ، والمرأة

الفاضلة ترضى باغتراب من تحب اذا كان الاغتراب لنفع قـــومه ، واصـــلاح حالهم ، وارتضت صـــابرة ، أن يولدولدها الحبيب في غيبة زوجها الحبيب التي لم تلبث أن نالته حتى بعد عنها ،فكان الرضا بالانتســـاب اليه يغنى عن المتعة بقربه ، واكتفت من متعة هـــذاالزواج الطاهر بمتعة قرة عينها ولدها الحبيب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم،وعاشت مطمئنة الى أمل اللقاء ، وأن يجمع الله تعالى الشمل المتفرق كما أرادرب العالمين . ولكن الله جلت قدرته أراد اختبارها فافقدها زوجها في غـــربته ،فكانت الصابرة الكريمة القائمـــة على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها منغير أن يعرف عنهـــا تململ بحياتهـــا وعيشها ٠

ولما استغنى ولدها عن المراضـــع شدت رحالهـــا مـــع وليدها ،.وقطعت الفيافي والقفار في مشقة لا يقـــدرعليها الا الصابرون ، وذهبت الى يثرب لترى قبر زوجها الذي اختيرت له ، وهومـــرمى الأنظار والحبيب في مـــكة ، وأبى القدر الحكيم الا أن ترى بعـــدذلك رمسه المدفون فيه ، وهى في كل هذا الصبور المطمئنة الى قدر الله تعالى العادل :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

ومكثت هناك بجواره مدة لا تقـــلعن ثلاث سنين ، كان فيها متاع حســـن بالنسبة لها ، اذ كانت قريبة من زوجهاالحبيب ، وقد ارتضت ذلك ، واطمأنت نفسها به ، فهي الصـــابرة الأمينة كاسمها ، الشريفة كقومها ، الـــكريمة كمحتدها ٠

ويظهر أنها لم ترد أن يبعد ابنهـــاعن قومه ، وهم أشراف مكة ، ولم تكن التي تضن به على جده ، فهي التي تؤثره على نفسها دائما وقد احتملت المشقة وأخذت تقطع الفيافي والقفار ، وليسمعها الا جارية تعينها علىمشقة الطريق، وتكون لها رفيقة مع بعد الشقة ، وتعاونها في حضانة الغلام النورانى ٠

ولكن هذه المجاهدة في سبيل الوفاء،والاخلاص للولد ولجـــده أجهدتهـــا الرحلة فماتت ، وهي عائدة الى مـــكةودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة ، وهي

---

(١) الأنبياء ٠

اذ أسلمت روحها ، ودعت الدنيا تاركة عزيزها ، كما ودعت أباه من قبله ، ولكن وداعها الأول كان لعزيز الى طريق الأبدية ، أما وداعها من بعد ، فكان لولدها العزيز ، وتركه الى طريق الحياة والجهاد فيها ، ولكنها تركته الى رعاية الله تعالى مع الجارية التي صحبتها ، فرعاه الله تعالى وصنعه تعالى على عينه ، حتى وصل الى جده العظيم في قومه فاحتضنه ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لننظر الى تلك المجاهدة الهادئة الصبور ، فاذا قلنا انها عاشت كالعذراء اذ لم يكن الا أنها حملت سر هذا الوجود . وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحتفظ بها ، وكأنها كالبتول العذراء ، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة ، عزاء من رب العالمين اذ اختارها وتعهدها نبي وآقامها في المحراب وكانت في رعاية ظاهرة ، وأما آمنة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة ، وعلمت بحكم الباعث في نفس طاهرة أنها حملت أمانة ، واستمرت الأمانة معها في رعاية الله تعالى وهي حاملة ما حملت غير وانية ولا مقصرة ، ولا هادي يهديها الا ما انبعث في نفسها من نور الفطرة، والاحساس بعبء الأمانة ٠

٧٢ ـ ان أحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كوني ثابت عند رب العالمين قد أراده الله تعالى بحكمته وتخيره بارادته، وأقامه بقدرته، وليس للمصادفة حكم عند الله ، وانما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس ، لأنهم يربطون الأسباب بمسببات بحكم العادة، ويطبقون عليها نظام قانونهم المحسوس المعلوم ، فاذا خالفه قالوا انه مصادفة ، وهذا نظر الذين يدركون الماديات ، ولا يدركون ما وراءها ،ويحكمون بالمحسوسات ، ولا يحكمون بأن ثمة سلطانا قاهراً لخالق الأسباب والمسببات ، وأنها لا تقيد ارادته ، بل هو الذى يقدرها بحكمته .

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنو واتقوا لأنزل لهم الرزق مدراراً ، فقال تعالت كلماته :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

وصرح سبحانه بأنه أنزل الرجز على الذين ظلموا من آل فرعون ، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم ، فقال تعالت كلماته في قصصهم :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

(١) الأعراف .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وان هذه النصوص الكريمة تدلنادلالة قاطعة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، ان سلكواطريق الوصول الى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الأقوام بالرجز والحرمان والبلايا ان هم طغوا وبغوا في ترتيب محكم سنه الله سبحانه وتعالى وأراده،وان خالف مانعلمْ من الأسباب والمسببات ٠

لسنا نقول مقالة قدماء الصين من أن الكون يضطرب ، وما في السماء يختلف اذا عصى ابن الأرض وأفسد ولم يصلح ، فان ذلك كلام قوم وثنيين يؤمنون بالمحسوس ، ولكنا نقول مقالة المؤمنين ، ان مدبر الكون يجري الأمور على مقاديرها بما قدره سبحانه وأراده،وعلى ما ارتضاه من نظام

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

٧٣ ـ سقنا هذا الكلام لتوضيح أن محمد بن عبد الله قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه الى أن قبضه الله تعالى اليه ، وأن البركة التي آتاه الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به في بطن أمه ، كانت خيراً على الانسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذى كان أول بيت للناس ، وهي كعبة المسلمين ، وهو المكان المقدس الذى قدسته الأديان كلها كما أسلفنا من قبل ٠

وقد كان انقاذ البيت ، وهو في بطن أمه ، اذ أن أبرهة ملك الحبشة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبني بدله في اليمن ليكون ذلك البيت الجديد هو مزار العرب ، ومثابتهم وأمنهم كما كان البيت ، وفي ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ،اذ يقول :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

وقد استعد بخيله ورجله من قبل الحمل بالنبي ، وساور مكة وأمه حامل

(١) الأعراف / (٢) الأنبياء/ (٣) ابراهيم.

به ، وقد ردهم الله مدحورين ببركة الجنين الذى بعثه الله تعالى برسالة تشرف البيت الحرام وتحميه ، ولنعرج على ذلك بكلمة موضحة موجزة ٠

## أصحاب الفيل:

٧٤ ـ آل أمر اليمن الى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ، وصار لها حاكما بأمره ، وبنى بها كنيسة فخمة بصنعاء سماها القليس ، وأراد أن يحج اليها العرب ، وخاصة النصارى منهم ، فلم يؤثروها على البيت الحرام ولم يستبدلوها به ، وبعد بنائها بعث الى النجاشي بالحبشة ، وهو لا يزال يعتبر نفسه تابعا ، وجاء في هذا الكتاب «اني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليك حج العرب » ٠

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد ، فأراد تحقيرها ، وأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية ٠

فلما رأى أبرهة احتقار العرب لها ، واستمرارهم على الذهاب الى البيت الحرام من غير وناء ولا تقصير لم يجد بدأ لتنفيذ ارادته إلا أن يهدم البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عدة ، وخرج بالفيل الذي يستخدمونه في الحرب مع الابل والخيل ٠

أفزع ذلك العرب وأعظموه ، ورأوا مدافعته حقاً عليهم فنفر منهم نفر بقيادة بعضهم وهاجموا أبرهة ، ولكنه هزمهم ، ومضى قاصدا البيت الحرام ، لا يقاومه أحد من العرب الا هزمه ، واستمر سائرا لا يلوي على أحد من العرب الا أخضعه ٠

وصل الى الطائف ، وقد رأوا ما حل بغيرهم فمالئوه ، وخصوصا أنهم كانوا ينفسون على قريش ما كسبوه من شرف لقيامهم على سدانة البيت ، وحاولوا أن يجعلوا مكان تقديسهم بيتا بنوه للات الههم المزعوم ٠

أهم الأمر من بمكة من قريش وكنانة وهذيل ، وسائر من كان بها وعلموا أنه لا قبل لهم بمقاومته لما عنده من قوة ، ولأن الانتصارات المتتالية في

طول طريقه الى مكة زادته قوة ، وزادهم خوفا ، فسكتوا حتى ينكشف المخبوء في قدر الله تعالى ٠

ولعل الفزع قد غلب عليه مما علم من منزلة للبيت في الكتب المقدسة ، ومنها كتب النصارى التي أشارت الى ذلك ، فلم يرد أن يستمكن من البيت عنوة ، بل أراد أن يسلمه له أهله ، لاليزيد بناءه ، بل ليهدمه ، فان فعلوا كان ذلك مبرراً في زعمه ٠

ومهما يكن فانه قد تردد في القتال، أو أراد أخذه بسلام ، فأرسل رسولا الى مكة ، وقال له سل من سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل له « ان الملك يقول لكم اني لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا له بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم فان هو لم يرض الا حربي فأتني به » ٠

ذهب الرسول الى مكة ، وعلم أن سيد البلد وشريف مكة هو عبد المطلب ابن هاشم فبلغه الرسول ، فأجابه عبد المطلب اجابة سلمية ، ولكن في طيها ايمان بالله رب البيت ، وذلك لا يخلو من ارهاب بقوة الله ٠

قال عبد المطلب للرسول : « والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » ٠

كان هذا الكلام السهل اللين يخفي في نفسه انذاراً شديداً لرجل كتابي نصراني ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه الى أنه لا يحارب أحداً من أهل مكة انما يحارب الله ، ويهدم بيتا بناه بأمر الله أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فهو مع هذا اللين يتضمن تهديدا يروع من كان عنده اعتقاد بالله ، وايمان برسالته ٠

وقد كان بلا ريب لذلك الكلام وقعه، ومن الكلام الهادىء ما يفعل في النفوس مالا تفعله المقاومة بالسيوف ،وخصوصا اذا كان الكلام لمن تعود الانتصار في الحروب ، وهزيمة من يدافعه ، اذ في هذا الكلام تهديد بحرب لم يألفها ولم يعرفها ، وهي حرب الله ،وحرب أبي الأنبياء ٠

## رَدّ عبد المطلب على أبرهة

٧٥ ـ استاق جيش أبرهة ابـــلا لعبد المطلب ، وفد طلب هو لقاءه فلقيه ليؤكد ما قاله لرسوله بالقول المتضمن فعلا اذ قرر أن يطالبه برد الابل التي استاقها جيشه بعلمه ، أو بغير علمه ٠

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب بعد أن علم أبرهة قوله

ولقد كان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشـدهم هيبة ، فلمـــا رآه أبرهة أجله وأكرمه ، فنـــزل عن سرير ملكه وجلس بجـواره ، ثم قـال له بلسان الترجمان ٠

قل حاجتك ٠ فقال الترجمان : قـل له : حاجتي أن ترد لي ابلي مائة بعير أصابها ، فقال أبرهة كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ٠ أتكلمني في مائة بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قـــد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ٠

فقال عبد المطلب يضع أبرهة أمـام الله تعـالى وجبروته الذي فوق كـــل جبروت ، أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه ٠ قال أبرهة ، وقـد غلب عليه الفزع : ما كان ليمتنع مني ٠ قال عبد المطلب أنت وذاك ، لا شـــك أن عبد المطلب يهدده بالله ، أولاً بتأكيد أن الله مانع البيت ، وثانياً بأن قال له أنت وذاك ، كان التهديد واضحا ، وان كان هادئا ، ولعل الذي قـــوى وقعـه هدوءه ، فالهدوء يخاطب النفس فتعتبر خصوصا لمن تعود الانتصار المادي الذي يكـون فيه ايمان في الجملة بالغيب ، وأبرهة نصراني ٠

عندئذ تحقق رجاء عبد المطلب في ربه ، وتحقق أمر الله ببركـــة الجنين الذي حل في بطن أمه ، وهو سيد الخلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أرادوا بالفيل أن يسير متجها الى البيت الحرام ، فوقف ولم يسر اليـــه وحبسه الله تعالى عنه ، فوجهـوه الى اليمين ، فاتجه ، فوجهوه الى الشام فاتجه ، ثم أرادوا أن يوجهـــوه الى البيت ، فامتنع (١) ولهذا كـانت ارادة الله أن ينجو البيت ببركة البيت ، بركة الجنين المستكن في الغيب المستور ٠

---

(١) الاكتفاء جـ ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ومن تاريخ البداية والنهاية لابن كثير ٠

ولو أن أبرهة اعتبر واعتزم العودة الى اليمن لرجع من الغنيمة بالاياب ، ولكنه اعتزم تنفيذ نيته ، فلم يبق الا أن يأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، فأرسل الله تعالى طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال سبحانه وتعالى في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ (١)

أتتهم رياح عاصفة ، ومعها طير جاء جماعة بعد جماعة ، ترميهم بحجارة صلبة شديدة قوية تنفذ في الجسم ، لا تبقى في ظاهره ، بل تدخل في باطنه ، وراء جلده ، وقد جعلتهم كعصف مأكول ، أي كبقل أكل لبه ، وبقي قشره ، وقد قال علماء الاخبار ان تلك الحجارة الصلبة التي أرسلها الله تعالى بريح عاصف كانت صغيرة تشبه حب العدس ، وأن الطير كان يحملها في منقاره ، وفي رجليه .

ولقد قال بعض الكتاب انهم أصيبوا بالجدري قرح أجسامهم ، ولعل جرثومة ذلك الداء الوبيل كانت في الأحجار التي رمتها الطيور التي جاءتهم وباء وبلاء ، واهلاكا ، وقد كادوا من الشر كيدهم ، ودبروا بالفساد أمرهم، وتحدوا بيت الله وهو أول بيت وضع للعبادة ، والذى كرمه الله وباركه .

وليس عندي ما يمنع أن يكونوا قدأصيبوا بالجدري بما رماهم الله تعالى به ، فقد قال ابن اسحاق في سيرته( حدثني يعقوب بن عتبة أنه أول مارميت الحصبة والجدري بأرض العرب كان في ذلك العام )

هذا كلام مقبول اذا قلنا ان الحجارة كان تحمل معها جرثومة هذه الأمراض الفتاكة ، ولكن مالا يقبل هو القول بأن الطير هي جراثيم ذلك المرض ، لأن هذا يكون مخالفاً لنص الآية الكريمة ، اذأن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة .

---

(١) الفيل .

٧٦ ـ ان ذلك العذاب الأليم الذي أصابهم في الدنيا ، بعد أن أرسل الله تعالى عليهم الطير الذي جاء جماعـة بعد جماعة ، ورماهم بالحجارة الجامدة التي كانت تنفذ الى جسمهم ، وتضـع فيه جراثيم الأمراض الوبيلة كالحصبة والجدري ، صاروا يتساقطون في الطرق ويهلكون كل مهلك ، وقد وصف حالهم ابن اسحاق فقال : ( خرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكـون بـكل مهـلك على كل منهل ، وأصيب أبرهـة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة بعد أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منها ، مده ( صديد ) تمت قيحاً ودماً ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثـل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون ) .

عاد من حيث خرج ، ولكن فرق ما بين الخروج ، أنه في الخروج كـان قوياً في بدنه مغروراً في نفسه يصحبه جيش لجب، يحسب أن لن يغلبه أحد، وقد غلب من قاومه حتى اذا جاء الى رحـاب الله يتحدى الله تعالى في بيته ، ويريد هدمه ، وقد جعله الله تعالى مباركا ، عاد مذموما مدحوراً ، مقصوص الجناح لا مجازاً ولكن حقيقة ، فقد تقـرح جلده ، وتساقط ، وذهب تدبيره وكيده في ضلال كأنه الهباء .

وقد استجاب الله تعالى لعبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة يقول :

لا هـم ان العبـد يمنـع رحـله فامنـع رحـالك
لا يغلبـن صليبهـم ومحـالهم غـدوا محـالك

كانت واقعة الفيل هذه وآمنة الطاهرة كالبتول حاملة قـد أودعهـا الله تعالى خير الخلق محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم فكان مباركا على العـرب ، وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه .

وما حملت به كرها ، وما كان فصاله كرها ، فما كانت تحس بشـدة في حمله ، وما أحست بشدة في فصـاله ، ولقد قالت آمنة الطاهرة ( لقد علقت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه ) .

# وُلِـدَ الهُـدَى

٧٧ ـ سبقت محمداً في الوجـود بركاته ، فقد ولد كما يقـول أكثر الرواة بعد خمسين يوماً من مغـادرة الفيل وأصحابه مدحورين ، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم ، وقد ابتلعتهم الأرض ، بعد أن غرهم الغرور .

وقبل أن نخوض بالقول في مولده صلى الله عليه وسلم ، نقـول انه ولد وأبوه غائب ، ذلك أننا ألمحنا في القول أنه ترك زوجه وقد ذهب في عير ليمتار لأهله ، وليتجر فيكسب رزقه ، فسافر في عير لقريش ، وكان الوفي الأمـين فانتهز فرصـة ذهابه الى يثرب ، وزار قبر جده هاشم الذى كان يهشم الثريد، الذى يأكل منه الحجيج ، ولكنه لم يعد من غربته ، بل أصابه المرض في بيت بني النجار ، وعاد العير الذي كان معه، وتركوه حزانى على تركه مدنفاً بمرض عضال في بيت بنى النجار أخوال أبيه، وأصهار جده الكريم وعادوا الى مكة ، وأخبروا أباه الذى حدب عليه ، وزوجه الصبور التي صبرت على غيبته ، وجمل لها الصبر لأنها كانت ترجـو لقاءه ، ولكن حرمت من هذا ، ففظع الأمـر عليها ، ولكنهـا الصبور مـع رقة صباها .

وان عبد المطلب أرسـل الى ابنه الحبيب كبير أولاده الحـارث ، فذهب اليه ، وقد رأى فراق نفسه ، وقيل ان الموت سرى اليه ، ولم يجـده أخـوه الا ميتاً .

فاذا كان الأب قد ثكل ابنه الحبيب فتجلد ، فقد فقدت الأم الزوج الحبيب فكان منها الصبر المرير ، ولكنه مع ذلك كان الصـبر الجميـل ، وهو الصبر الحبيس الخالي من الضجر والأنين .

## ولادته بعد وفاة أبيه صلى الله عليه وسلم :

٧٨ ـ أكثر الرواة عـلى أنه ولد صلى الله عليه وسلم بعـد وفاة أبيه عبد الله ، وقد روي أنه توفي قبل أن تضع آمنة حملها ، ومنهم من أقصر المدة

ومنهم من أطالها ، حتى أوصلها الى نحو ثلاث سنين ، فقد قال ابن حزم الظاهري ما نصه :

ولد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة، اذ مات أبوه ، وهو لم يستكمل ثلاث سنين ، وماتت أمه ، وهو لم يستكمل سبع سنين ٠

وان هذا القول يتقارب مع من يقول ان أباه عليه السلام مات بعد ولادته عليه السلام بنحو ثمان وعشرين شهراًولكن كلام ابن حـــزم يومىء الى مدة أطول ، لأن الثمانية والعشرين شهـراهي سنتـان وثلث ، ولا يقـــرب من ثلاث سنين ٠

فقد روي عن عوانة بن الحكم أنه قال « هو وأبوه ان عبد الله توفي بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا » وقد قيل توفي بعـــد ولادته بسبعة أشهر ٠

واننا نستبعد كل الاستبعاد أنه توفي والنبي عنده نحو ثلاث سنين ، كما نستبعد أنه ولد من بعده ، لاجمـــاع الرواة على أنه عليه السلام استرضـع في بني سعد ، وهـو يتيم ، ومن كان أبوه حيا لا يعد يتيما ، واذا كـــانت الرضاعة أقصى مدتها في الغالب حولان كاملان لمن يريد أن يتم الرضاعة ،وقد أرسل الى المراضع في أولها أو بعـــدمضي وقت قصير من الولادة ، فلا يمكن أن يسمى عند أخذه وأبوه حي يتيما ،واجماع الرواة على وصفه باليتم عندما أخذته حليمة التي أرضعته ٠

وان الذى رجحه الرواة ، وعليه الكثرة الكاثرة أن أباه توفي وأمه حامل به ٠ وقد قال ابن كثير في تاريخـــه( والمقصود أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمـــه على المشهور ) ٠

وقد روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ،قال:«خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام في عير من عيرات قريش ، ففرغوا من تجـــارتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدي بن النجـــار ،فأقام عندهم مريضا شهرا ٠٠٠ فبعث

اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ،فوجده قد توفي ، ودفن ... فوجد عليه عبد المطلب واخوته وجداً شديداً ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حمل ، ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة » .

ويؤخذ من هذا الكلام أن رحلة عبدالله الى التجارة كانت فور زواجه أو بعده بقليل كما تومىء عبارة ابن كثير. وأن عمره يوم الوفاة كان خمسا وعشرين ، وكانت رحلته بعد الزواج بقليل ، ويستفاد من هذا أنه كان الزواج بعد العشرين وقرب الخامسة والعشرين .

ولقد قال الواقدي في وفاة عبد الله وكونه قبل ولادة ابنه الكريم : ( هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله عندنا ) وهو المشهور ، كما نقل الحافظ بن كثير رضي الله تبارك وتعالى عنه (١).

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٦٢ .

## ظواهر تعلن مكانته صلى الله عليه وسلم

٧٩ ـ تكريم الله تعالى له ظهر وهو جنين كما رأيت ، وظهر وأمه حامل به ، وكأن وجوده على ظاهر الأرض كان أمراً خارقاً للعادة ، في بركته على قومه برد أصحاب الفيل وكيدهم في تضليل ، وفي الحمل به ، اذ لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة، وكأنه مر في قلبها مرور الماء في الميزاب ، وان طال حتى مدة الحمل ٠

ثم كانت الأمور تسير سيراً يدل على أمور ربانية أكنها الغيب لذلك المولود الجديد ، فأبوه يلقي وديعة الله في آمنة الصبور المطمئنة ، وما كان الزواج الا ليلقي هذه الوديعة ، ويعزب عنها سافرا مغتربا ، وقبضه الله تعالى بعد أن ألقى هذه الوديعة ، وكأنه خلق بما يشبه كلمة الله تعالى « كن فيكون » (١)٠

وينزل من بطن أمه مكتملا ، كأنه تجاوز السنة ، وهو قد نزل في المهد ، لم يتناوله حجر النساء فأمه الصادقة تقول أنه وقع على الأرض معتمداً على يديه كما نقلنا ، وهو فى هذا شبه الساجد ، وقال بعضهم انه نزل جاثياً على ركبتيه ٠

وعند ما ولد أرسلت أمه الكريمة الى جده عبد المطلب تبشره بولد وقد رزقه ، فقالت في رسالتها : ( قد ولدلك غلام فأت فانظر اليه ) ٠ وقد أضافته اليه مسرية له عن حزنه لموت ولده عبد الله الذى وجد عليه وجدا شديدا ، فلما جاءها أخبرته بالولادة ،وبرؤية صادقة تعددت روايتها مما يدل على مكانته ، وبذلك سرت عن نفس حميها ، وهى الحزينة ولكنها الصبور التي تواسي غيرها في مصاب أبيه ،ومصابها ، وان كان أعظم وأشق احتمالا أو وجدما يسهل احتماله أوجدما يعوض ، وهو المولود الذى يسمو على كل الخليقة ، وهو سيدها ، وهو محمود الوجود ، وهو حمد الكون

---

(١) ياسين

وتسبيحه واذا كان الله تعالى قد أعطى به البركة على قومه ، فقد كانت أرهاصات التكريم تبدو وهو جنين أيضا في بطن أمه ، لقد رأت أمه فيما يرى النائم رؤيا صادقة ، والرؤيا الهام من الله تعالى ، أو توجيه منه سبحانه يشعر بها من تصفو نفسه ، وله اتجاه روحي ، ورأت حين حملت به كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، « وقد ورد ذلك في حديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح النسبة » .

قد ذكر ابن اسحاق أن كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها : « انك حملت بسيد هذه الأمة » ، فاذا وقع الى الأرض فقولي :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد (١)

ثم سميه محمدا .

وقد يقول قائل ، وكيف نثبت التكريم بالرؤيا وقد تكون أضغاث أحلام ، وهي لا تثبت شيئاً . فنقول في الاجابة عن هذا السؤال العارض : ان الرؤيا الصادقة تشبه الالهام أو كأنها وحي ، أو هي جزء من الوحي كما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ( الرؤيا الصادقة جزء من أربعة وأربعين جزءاً من النبوة ) وثبت في الصحاح أن أول ما جاءت به ارهاصات الوحي كانت الرؤيا الصادقة ، فما كان يرى رؤية الا جاءت مثل : « فلق الصبح » .

هذا ما تقوله الحقائق الدينية في الرؤيا الصادقة ، ويقول الذين يتكلمون في الارواح في هذا الزمان ان الرؤيا الصادقة سبحات روحية في الملكوت الأعلى .

وانه بلا ريب هناك فرق ثابت بين الرؤيا الصادقة وأخلاط الأحلام التي تكون صورة لحال مادية أو عصبية للنائم ، كتخمة تصيبه من كثرة الطعام ، أو أن يكون مخموراً ، أو أن يكون مضطرب الأعصاب أو مضطرب النفس ، أو مشغولا بأمر من أمور المادة أو الشهوة ، فان هذا يكون أخلاطا لاتخبر عن شيء ، ولا تصدق في شيء ، وهي التي تسمى أضغاث أحلام ، والتي لا يكون لها تأويل ، ولا يعبرها خبير .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٣ .

واذا كان من الناس من ينكر الرؤيا الصادقة ، ويكذب الأحلام باطلاق ، ويقول انها صورة للعقل الباطن فذلك لأنه لا يمكن أن يدرك معنى الرؤيا الصادقة ، اذ لم يجربها ، لأن الله تعالى لم يؤته قوة روحية ولم يؤته طاقة نفسية يستطيع أن يتغلب بها على خواطر اللذات والشهوات ، وهو لا ينام الا مخموراً ، أو مبطوناً ، أو تكون نفسه واقعة في الأهواء والشهوات ، فيكون ليله كنهاره ، ونومه كصحوه ، وحياته كلها صورة للمادة في النوم واليقظة على سواء ٠

## بشارات بمولد محمد صلى الله عليه وسلم

٨٠ ــ وترى من هذا الكلام الذي سقناه من بشارات التكريم في منام أمه البتول الطاهرة الصبور أن تسميته ( محمداً ) صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان بأمر من الآتي التي أتاها في هذه٠

وقد توافقت مع رؤيا أخرى رآها سيد قريش ( عبد المطلب ) الذي كان قد اشتهر بالنسك في قومه ، وان لم يكن نسكا فيه حرمان ، بل كان نسكا فيه ما يجمل بالمروءة ، وقد كان صادق الرؤيا ، قيل ( لعبد المطلب ) لم سميته محمداً فقال شيخ قريش الطيب : ( انه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها ) ٠

وأراد ( عبد المطلب ) أن يعرف مدى هذه الرؤيا التي رآها ، فسأل من يعبر له رؤيا ، فقيل له انه يكون مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض (١) ، اجتمعت رؤياه ، ورؤيا الأم الرؤوم التي قصتها على الجد الكريم عند ما بلغت بالمولود الذي بلغته بأنه مولود فارتضى الاسم الذي أفهمت به رؤيا الأم وهو ( محمد ) ٠

ولم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ولقد ذكر علماء السيرة أنه لم يسم به أحد في الجاهلية الا ثلاثة تسموا بهذا الاسم في عصر ولادة النبي عليه الصلاة والسلام ٠

---

(١) الاكتفاء ص ١٦٨ من الجزء الاول ٠

وقد قال صاحب كتاب الروض الأنف في ذلك : « لا يعـــرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله تعالى عليـــه وسلم الا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله تعالى عليه وســلم وقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجـاز أن يكون ولداً لهم ، ذكرهم ابن فورك في كتاب الفصول ، وهـم ( محمد بن سليمان بن مجاشع ) جد الفرزدق الشاعر ، والآخر ( محمد بن أحيحة الجلاح )، والآخر ( محمد بن حمران بن ربيعة ) ،وكان آباء هؤلاء قـد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الـــكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم ان ولد له ولد سماه محمداً » .

وسقنا هذه القصة لنثبت منها ندرة الذين سموا ولداً لهم محمـداً ، اذ لم يكن معروفاً ذلك الاسم عند العرب ،ونكاد نوافق على حصر العدد في ثلاثة، واذا فرض وكان أكثر فانه لا يتجاوزه بكثير ، سواء أصح السبب الباعث عـلى التسمية أم لم يصح ، فان تلك التسمية لم تعرف الا قرب مولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانا نميل الى صدق هذا الباعث لأن التبشير برسـول اسمه ( أحمد ) ، كان معروفا في أوساط أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وان أنكـر أكثر اليهود رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته لهم :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

وقد اختيرت هذه التسمية من الله تعالى ، ولنذكر اشـــارة الى ما في هـذه التسمية من معنى يفهم بمقتضى قراءة اللغة ، ذلك أن صيغة التفعيل تدل على تجدد الفعل وحدوثه وقتاً بعد آخـــر بشكل مستمر متجدداً آنا بعد آن فيقال اذا تكرر ذلك الفعل . وعلى ذلك يكون محمد ، أي يتجدد حمده آنا بعـــد آن

---

(١) البقرة (٢) النمل .

بشكل مستمر حتى يقبضه الله تعالى اليه ، وذلك لأنه تكون منه فعال الخير المتجددة وقتا بعد آخر ، فهو لا ينبي عن فعل الخير الذى يقتضي ثناء وحمداً ، ولا عن قول الصدق الذى يقتضيه ، ولا عن الجهاد في الحق الذى يستمر عليه الى أن ينشر الحق وهو شرع الله تعالى ، ويخلد الى يوم القيامة ٠

وكان من أسماء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ــ أحمد ــ وهو الاسم الذى بشر به في الانجيل ، وبشر به موسى عليه السلام ، وهو أفعل تفضيل من الحمد والثناء ، فهو كثير الحمد ، وكثير الثناء والذكر لله تعالى ٠

ولعله لم يكن التبشير في الانجيل وعلى لسان موسى عليه السلام الا بأحمد ، الا لأنه اشتهر بذلك في حياته وخصوصاً بعد أن بعث ، وكثرت دعوته ، ولأنه اسم لا يشاركه فيه أحد ، ولو نادراً ، فيكون التبشير متجهاً اليه ٠

## تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم

٨١ ــ الجمهرة العظمى من علماء الرواية على أن مولده عليه الصلاة والسلام في ربيع الأول من عام الفيل في ليلة الثاني عشر منه ، وذلك لأن الفيل وجيشه ساورا مكة في المحرم ، وولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مقدم الفيل بخمسين يوما ، وبذلك أجمع الأكثرون على أنه ولد بعد مساورة جيش أبرهة بخمسين يوما ٠

وقد وافق ميلاده بالسنة الشمسية نيسان ابريل ، فقد ولد فى العشرين منه ، وقد جاء ذلك في الروض الأنف فقد قال : ذكر أن مولده عليه السلام كان في ربيع الأول وهو المعروف ، وقال الزبير كان مولده في رمضان ، وهذا موافق لمن قال ان أمه حملت به في أيام التشريق والله أعلم ، وذكروا أن الفيل جاء مكة في المحرم ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ٠٠ وأهل الحساب يقولون وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان ( أي ابريل ) فكانت لعشرين مضت(١) ٠

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن هناك رواية تقول انه ولد في رمضان ، وانه على مقتضى هذه تكون البعثة في رمضان ، وأول نزول القرآن ، وأول نور الاسلام ظهر على

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١٠٧ طبع المغرب ٠

وجه الأرض فيه بمولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه يوم الفرقان اذ جعل الله تعالى كلمة الشرك السفلى وكلمة التوحيد هي العليا ، وفيه زوال دولة الأوثان ويأس الشيطان من أن يعبد في هذه الأرض بفتح مكة المكرمة ، وطرح الأوثان من فوق ظهرها ، وحطمها ٠

ولولا أن هذه الرواية ليست هي المشهورة لأخذنا بها ، ولكن علم الرواية لا يدخل الترجيح فيه بالعقل ٠

ثانيهما : أن صاحب الروض يذكر فيما نقلنا أن الأشهر أنه ولد بعد خمسين يوما من قدوم جيش أبرهة ، ولكن هناك قول آخر مشهور وهو أنه ولد بعد خمس وخمسين ، كما في رواية أبى جعفر محمد الباقر ، اذ يذكر أن الفيل قدم في النصف من المحرم ، فيكون المناسب لليلة الثانية عشرة هو أن يكون قد مضى ٥٥ ليلة(١)٠

وان ذلك يتفق مع التقدير الشمسي بعشرين من نيسان ، ولذلك نختار هذا اذا كانت روايته وثيقة ، وان ذلك الاختلاف اليسير في ليلة مولده عليه الصلاة والسلام لا يضير ، لأنه عليه الصلاة والسلام وجد وشاهد الوجود الانساني وكان شهيداً على أمته حفيظاً على شرعها يشهد للمؤمنين بشرعه ، ويشهد على العصاة الخارجين وأمته شاهدة على الناس بالحق ، تبين للمنحرفين ، وتهدي السالكين ٠

وروايات الميلاد جاءت على ألسنة من عاصروها ، وما يعتمد على المشاهدة أو المعاصرة قد يختلف فيها العلم ، فيذكر كل انسان ما يعلم ، وان كانت الحقيقة لا تختلف ، والمؤرخ يتعرفها من وراء الاختلاف اليسير ، والله سبحانه وتعالى هو العليم ٠

## إرهاصات النبوة يوم مولده:

٨٢ ــ وضعت آمنة الطاهرة حملها الطاهر الذي لم يثقل فأضاء الوجود ببزوغ شمس هذا الوجود ، وقد ذكرت الروايات في كتب السيرة أمورا كثيرة ظهرت غب ولادته ، أو قارنت الولادة :

( أ ) فقد قالوا انه خرت الأصنام ، وتزايلت عن أماكنها ، وتمايلت على

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٢ ٠

وجوهها ، لأنه جاء هادمها ، وليس ذلك منها بارادة ، ولكنها بارادة القاهر الحاكمة على كل شيء .

( ب ) ظهر النور حتى أضاء قصور الشام .

( جـ ) جاء في سيرة ابن اسحق «كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت كان يهودي قد سكن مكة يتجر فيها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال في مجلس قريش يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ، فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال الله أكبر ، أما اذا أخطأتم فانظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الاخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات » .

روى ابن اسحق عن حسان بن ثابت« قال اني لغلام تبعه ابن سبع سنين أو ثماني سنين ، أعقل ما رأيت وسمعت ، اذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا اليه وأنا أسمع ، قالوا ويلك مالك ، قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد الليلة » .

وحسان بن ثابت قد ولد قبل النبي عليه السلام بسبع سنين فانه كانت سنه عند هجرة النبي عليه السلام الى يثرب ٦٠ سنة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت سنه ثلاثا وخمسين .

وهكذا ، تواردت أخبار من جهات مختلفة عن اليهود بأنهم أدركوا مطلع ولادة النبي عليه الصلاة والسلام ، ونحن نؤمن بأن اليهود كان عندهم من علم التوراة ما يجعلهم يعلمون أن النبي الأمي سيبعث من العرب ، وكانوا يستفتحون به على المشركين الذين كانوا يجاورونهم في المدينة ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين .

( د ) ذكر مخزوم بن هانيء المخزومي أن ايوان كسرى ارتجس ليلة مولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسقطت منه أربع عشرة غرفة ، وخمدت نيران فارس التي يعبدها المجوس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة .

ورأى أحد رجال كسرى في منامه أن ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة والفرات في بلاده فلما قص الرؤيا على كسرى أفزعه ، فتصبر

وان لم يصبر فجمع كبار دولته وقال لهم : اتدرون فيم بعثت اليكم ؟ قالوا : لا الا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك اذ ورد اليهم كتاب بخمود النار ، ثم أخبرهم بما رأى أحد رجاله وبما هاله وقد تأولوا هذه الرؤيا ، وخمود النيران بأن حدثا يكون من بلاد العرب .

٨٣ ـ ونقف وقفة قصيرة أمام هذه الروايات التي تواردت من مزايلة الأصنام عن أماكنها وتمايل وجوهها ،واضاءة الضوء ساعة مولده ، وارتجاس ايوان كسرى ، وخمود نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة ، فنقرر أن العبرة فيها بصدق الرواية لا بكون هذه الأخبار مقبولة في العقل فان حكم مؤرخ بعدم صدق الرواية رددناها .

ونقول في الرواية ان المحققين في علم الرواية لم يجدوا مساغا لتكذيبها فان الحافظ ابن كثير يروي في هذا روايات كثيرة يعلن شكه في صدق بعضها، ويسكت عن سائرها ، وقد نقلنا ما لم يشك فيه ، فحق علينا أن نقبل منها ما قبل ، ونرد منها ما ذكر أن فيه ريبا، وخبر الصادق يقبل ، ما دام لم يعرف عليه كذب ، والأحكام تبنى على أخبار الصادقين ، ولو كان فيها احتمال الكذب لأنه احتمال غير مبني على دليل ، ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون سببا لرد أقوال الصادقين ، والا ما حكم قضاء ،ولا أدين متهم ، ولا ثبت حق ، ولا دفع باطل ، ولذلك لا يسعنا الا أن نقبل مالم يجر فيه طعن .

وأما من ناحية قبول العقل ، فانا قد بينا أن خوارق العادات تجيء بتقدير الله تعالى الذي لا يتقيد بالعادات ولا بما يجري بين الناس من اسباب ومسببات ، فانه خالق الأسباب والمسببات فقد يكون الرجز والمحق والخسف ، والزلزال لفساد قام به بعض الخلق ، وذكرنا الآيات الدالة على أن الله تعالى يلقي بالنعم على من يتقي ويعمل صالحا وقد تلونا من قبل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

(١) الأعراف .

وذكرنا أن الرجز والعذاب قد يكون بسبب فساد ارتكبه بعض الأقوام ، كما أنزل الله تعالى من الرجز على فرعون وملإه ، بما كانوا يفسدون في الأرض .

فالذين يدعون أن هذه الأخبار غير مقبولة في العقل ، انما ينظرون الى الأسباب والمسببات العادية التي تجري في أعمال بني الانسان ، ولو علوا بأنظارهم الى ما في الكون من كسوف وخسوف ، وما في الرياح من مثيرات وما في الأرض من زلازل وخسوف ما وجدوا لذلك تعليلا الا أن تكون ارادة الحكيم العليم القاهر فوق كل شيء الذى لا يسأل عما يفعل ، وأنه يفعل ما يفعل لحكم يريدها ، ومصالح يقدرها ، وقد ربطها بأمور يعلمها ، وهو علام الغيوب ، وتقديره هو تقدير العليم الخبير .

واذا كان الله تعالى قد أراد الكرامة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأراد أن يعلم من يطيفون به من أهل وقوم ما كرمه الله تعالى به ، وهو سينادي بالحق ، فان ذلك هو المعقول ، وغيره هو المردود ، لأنه مخالف لما قدره الله تعالى لهذا الانسان الذى سيعلم الانسانية كلها .

٨٤ ـ ولا يصح لعاقل أن يقول ان هذه أوهام سيطرت ، وخيالات خيلت ، وظنون ظنت ، لمجرد أنها خالفت مجاري العادات ، وما ألف الناس في كل مولود ، فليس ككل مولود .

ومع ذلك فنحن نرجح صدقها ، ولا نلزم الناس بالايمان بها ، فليس من الايمان أن نؤمن بأن ايوان كسرى ارتجس ، ولا النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار عند أن شرف هذا الوجود ، لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الايمان به ، اذ أن ما يجب الايمان به هو ما دعا اليه ، وما تكلم به عن الله ، وما نطق به القرآن ، وحكم به الديان .

ولو رجعنا الى ما كتبته الأناجيل الحاضرة في مولد عيسى عليه السلام وما ألزمت الأناجيل به النصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل التي يزعمون صدقها ـ لوجدنا ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئا كثيرا بالنسبة لما ذكرته الأناجيل وأوجبت الايمان به ، ولنقبض قبضة يسيرة مما جاء في هذه الأناجيل وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام .

( أ ) جاء في انجيل متى في الاصحاح الثاني أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .

( ب ) وجاء في انجيل لوقا في الاصحاح الثاني ، لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة .

( جـ ) وجاء في ولادة المسيح أيضا في أحد الأناجيل ، لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة ، وعيني خطيب أمه يوسف النجار .

( د ) وجاء في انجيل لوقا الاصحاح الثاني « وعرف الرعاة يسوع ، وسجدوا له » .

( هـ ) وجاء في انجيل متى الاصحاح الثاني أيضا « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك ، اذ المجوس من الشرق قد جاؤوا الى أورشليم قائلين : « أين هو المولود من اليهود » .

هذه قبضة مما عند النصارى في أناجيلهم ولا شك أن ما يذكر عند ولادة الرسول من أخبار صادقة هي دون ما يذكره هؤلاء عن مولد عيسى عليه السلام .

وانه من الحق أن نقرر أن الفارق بين ما يقولون في مولد عيسى عليه السلام وما يقوله الرواة الصادقون من ناحيتين :

الاولى : أن ما يذكر في الأناجيل عن حال عيسى عليه السلام أكثر غرابة ، وما يذكر لنبينا عليه السلام أقل غرابة بكثير .

الناحية الثانية : أننا لا يجب علينا دينا وايمانا أن نذعن لهذه الأخبار ، وان كانت صادقة ، ولكن المسيحيين يعتقدون صدق ما في أناجيلهم ، ومن لم يصدقها يكون كافرا بها .

واذا كان ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه ، فليس لأحد من الذين كتبوا في النبي عليه السلام أن يثيروا غبارا حول ما ذكر عند ولادته عليه السلام ، والا فعليهم أن يثيروا عثيراً بل أكواما من التراب ، حول ما قيل عند ولادة السيد المسيح عليه السلام ، ولكن رضي الله عن عبد الله بن عباس ، الذي يقول : ان الانسان يرى الشظية في عين أخيه ، ولا يرى الخشبة في عينه هو ، وما ذلك الا لعدم الانصاف .

## أسباب رضاعته صلى الله عليه وسلم

٨٥ ـ الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة ، والرضاعة تكون من الأم ، لأن لبنها يسير مع نموه سيرا مطردا ، فكلما كبر الغلام في المهد كبرت دسامة اللبن ، حتى يستغنى بالغذاء ، ولذلك كانت الرضاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة ، فقد قال تعالى فيما شرع من أحكام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (١)

فكان بمقتضى الفطرة أن تكون آمنة الأم الرؤوم هي تتولى ارضاعه ، ولكن كان لابد من يعينها بلبنه، فقد أرضعته معها ثويبة وهى جارية لأبي لهب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ناواه العداوة لما بعث رسولا ورحمة للعالمين ، ولكن قد كان محبا لأخيه عبد الله ، ولابنه النبي الكريم محمد ، وكانت ثويبة أول من أعلم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد، فأعتقها لهذه البشرى الكريمة ، وكان هذا له خيراً يحتسب ، ولكن أخفاه كفره ، وانضمامه الى المخالفين المؤذين للنبي عليه الصلاة والسلام ، وضعفاء المؤمنين .

أعانت ثويبة آمنة في ارضاعه ، وقد أرضعت أيضاً حمزة بن عبد المطلب ، وقد كان هذا سبباً من الأسباب التي طلب عبد المطلب ، لمحمد المراضع .

وعلى ذلك نقول ان طلب المرضع للنبي عليه الصلاة والسلام من مراضع البادية له أسباب ثلاثة :

أولها ـ عدم كفاية لبنه لتغذيته ،ولعل من بعض أسباب ذلك ما نالها من حزن دفين عميق صبرت عليه من غير تصبر ، وهو موت زوجها الحبيب الطيب ، ولم يزله ألم قريش كلها لوفاته وألم أبيه ، وألم اخوته ، وان خففته فان المشاركة في الأسى تخففه ولا تزيله .

---

(١) البقرة .

ثانيها ـ أنه كان من عادة أشراف قريش أن يعطوا أولادهم للمراضع في البادية ، ولا ترضع نساؤهم ، كما هو ظاهر الآن في كبراء الحضر أو ذووا اليسار فيهم ، فانه لا ترضع نساؤهم الأولاد ، وان كانوا لا يرسلونهم الى الريف ..

ثالثها ـ أن الغلمان اذا رضعوا في البادية اكتسبوا غذاء طيبا ، وهواء ليس معكرا بما في جو المدن ، فأهل الوبر أقرب الى الهواء النقي النظيف من أهل المدر .

ولقد قال في هذا صاحب الروض الأنف ، وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم الى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه أحدهما تفريغ النساء الى الأزواج .. وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل في الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، واجلد لجسمه ... وقد قال عليه السلام لأبي بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال : وما يمنعني وأنا من قريش ، وأرضعت في بني سعد فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى المراضع الأعرابيات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ، ويتنسموا نسيم البادية ، ويعرفوا عاداتها ، ويخشوشنوا بخشونتها ، ولا ينشؤا في حلية المدينة ، غير متعرضين لما تقتضيه الحياة . من تحمل الأعباء ، وما تفرضه مقتضياتها من شدائد ليكون منها الأشداء .

## إرضاعه صلى الله عليه وسلم :

٨٦ ـ جاءت المراضع الى مكة من بني سعد بن بكر يردن الرضعاء يرضعنهن . وكان من عادة العرب ألا تأخذ المرضع أجراً على الرضاعة ، وان كن يقبلن من آل الطفل الهدايا والرعاية ، فتسد بعض حاجاتهن ، ويرين من العار أن يكون لهن أجر منتظم ، وسرى بينهم المثل السائر تموت الحرة ، ولا تأكل من ثديها .

ومنهم كما جاء في الروض الأنف من كن يقبلن الأجرة ، اذا لحت بهن الحاجة .

ولقد كان محمد يتيما لم يترك أبوه شيئا يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاة ، وأمة اسمها أم أيمن التي حضنته بعد وفاة أمه الكريمة ، فكان يتيما فقيراً .

وقد حضرت المراضع ترجو أن يعهد اليهن بمن يرضعنه راجيات من هذه الرضاعة الهدايا أو رضخاً من المال ،لا أجرة يؤجرن بها أثداءهن ، فاذا كن يرجون ما يرجون ، فانهن لا يرضعن الا أولاد ذوي اليسار ، ولذلك أعرضن عن اليتيم الفقير ، وبذلك خرج كل المرضعات بطفل من ذوي اليسار ، الا حليمة بنت أبي ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن كبشة ، وكان زوجها معها ، واسمه الحارث بن عبد العزى بن رفاعة وكان المرضعات كما قال الواقدي عشراً كلهن عاد بالأولاد الا حليمة فلما رأتهن جميعا أخذن أطفالا ، ولم يبق الا اليتيم الطاهر محمد بن عبد الله ،أخذته راجية الخير ، وان لم ترج العطاء ، ولنتركها تحدثنا كيف قبلته ،فانها تصور لنا طيب نفسها ، وما أفاضه الله تعالى عليها من خير بسبب بركة اليتيم الكريم ، فهي تقول :

٨٧ ـ « في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا خرجت على أتان لي قمراء معها شارف (١) ، كانت والله ما تبض (٢) بقطرة ، ولا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك ، فلقد أذمت(٣) بالركب ، حتى شق ذلك عليهم ·

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما معنا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول ما عسى أن تصنع أمه وجده !!

فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعاً غيري ·

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي · والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ، فلآخذنه ·

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ·

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وماحملني على أخذه الا أني لم أجد غيره ·

---

(١) الأتان القمراء هي التي يميل لونها الى الخضرة والشارف الناقة العجوز ·
(٢) أى ترشح الناقة لنا بقطرة من اللبن نتغذى به لكبر سنها ·
(٣) أى صارت مذمومة فى الركب ·

فلما أخذته رجعت الى رحلي ، فلماوضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، حتى ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ·

وقام زوجي الى شارفنا فاذا أنها لحافل ·

فبتنا بخير ليلة يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت قسمة مباركة ، قلت والله اني لأرجو ذلك ثم خرجنا ، وركبت أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شيء من حميرهم ، حتى ان صواحبي ليقلن يا بنت أبي ذؤيب ويحك ، اربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ،فأقول لهن بلى والله انها لهي ·

قالت ثم قدمنا منازلنا من بني سعد، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت والله ، غنمي تروح على حين قدمنا به معنا ـ شباعا لبنا ـ فنحلب ونشرب منها ·· حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ،فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير·

٨٨ ـ اذا كان محمد قد أقدم باليمن والبركات على أهل مكة ، برد أبرهة وفيله ، وجيش اليمن مدحورين، وعادوا ، فبركته بعد ولادته تسير معه حيث سار ·

لقد رضيت باليتيم ، وصاحبها قبله، وكلاهما طيب النفس مطمئن قانع مستعين بالله تعالى قانع بما يعطيه ،فجزاها الله تعالى جزاء حسناً ، فأطعمهم من جوع ، ودر عليهم الأثداء الجافة ،فأضاف الى لبنها لبناً كفاه هو وصبيها ، وأخصب كلؤهم بعد اجداب ، وامتلأت أضراع غنمها ، فكان الخير العميم والفضل العظيم ·

وقد يسأل سائل لم كان هذا ، ويستغرب ، ولكن لا غرابة لمن يؤمن بالله تعالى فان له تقديراً فوق تقدير العباد ونظاما فوق نظامهم ، وانما يستغرب من لا يؤمن الا بالمحسوس ، ويربط بين الأسباب العادية ومسبباتها ·

وان الذي نقف عنده هو أن هذا الغلام الذي صنعه الله على عينه ولداً يتيما ، ولكن لم يذق قهر اليتامى ،ولا ذل اليتيم ، بل كان بين أحضان من

يحبونه ، فأول حواضنه أم رؤوم لم ترفي الوجود نوراً الا نوره ، وغمرهـا حبه ، وغمرته بعاطفتها ، فكان كـل حبها له ، لم يشركه فيها زوج اذ فقدته، فآل حبه اليه ، فكان له صفواً خالصاً ،لم يرنق بشركه ، والتقى في عاطفتهـا حب لزوج كريم لم تنعم برفقته ، وابن حبيب محبب فيه كل ما فيه ، وكـانت الحاضنة الثانية أم أيمن التي كـانت ميراثه من أبيه أحبته كمـا تحب الأم ولدها ، وكانت له بعـد أمه رفيقة به أضافت اليه من حنانها ما عوضه ، وان لم يكن العوض كالأصـل ، ولا البديل كالبدل ·

ثم كانت الحاضنة الغريبة التي صارت برضاعه أما كأمه ، خلق فيهـا رب العالمين محبته ، وجعله يمناً وبركة لترى في محبته حب الله ، ولترى في عاطفتها عليه رزق الله تعالى ·

والحواضن الطيبات الطاهرات هن اللائي يدر منهن العطف الانسـاني ، فمنهن يتلقى العـواطف الاجتماعيـة والأنس الانساني ، ولذلك نشأ محمـد عليه السـلام انسـاناً محباً يألفه كـل من يعرفه ·

واذا كان فقد الأب ، فقد قيض له الجـد ، واذا كان قـد فقـد الأم في باكورته ، فقد تغذى من عطف أم أيمن، واستقى منها أكرم العواطف ، وهـذا كله فوق ما أودعه الله اياه من خـلق كريم عظيم ·

٨٩ ـ أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين ، وهو في حضنها مع ولدهـا لا يفترقان ، لا تضن عليـه بعطف ولامحبة ، ولا تخص ابنها بفضل منهمـا ، بل هما على سواء ·

فما بلغ الحولين ، حتى استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء حتى كان غلاما جفلا ، أي قويا ممتلئا يستغني بالطعام، ولم يذكر التاريـخ أكانت تلتقي به أمه ، أم تركته الى البادية مطمئنة عليه!! ، ولكن اذا كان التاريخ لم يذكـر أنها رأته ، فلنفرض أنها كانت تراه من وقت بعد آخر ، فاذا كان التاريخ لم يذكر الرؤية ، فان أقصى ذلك أنه لم يثبتها ، ولم ينفها ، فالفطرة والحنان يوجبانها ، وهما أصدق خبرا ، ولذلك نقرر أنها لابد كانت تراه من حـين لآخر (١) ·

---

(١) الاكتفاء ص ١٧١ جـ ١ وسيرة ابن هشام ·

وانه بعد أن استغنى عن الرضاعة ،وبلغ فيها حولين كاملين ، يكون من الحق على المرضع أن ترده الى أهله ،واذا كانوا يرون أن يبقى عندها ، فانه يكون برجاء منها ، ورضا منهم ، وهذا ما فعلته ، فقد قالت :

قدمنا به على أمه ، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه ، قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فاننا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها ، حتى قالت نعم ٠

رأت الخير بين يديه ، فأرادت أن تبقيه ليبقى الخير ، ولأنه قد نال محبتها ، وأصبحت لا تستطيع فراقه كأنها التي حملته ، ولم ترض الأم التي حملت به أن تتركه لشوقها اليه ، ولتضمه أحضانها ، فلم تسلمها ولدها لأول طلب ، بل ما زالت بها حتى قبلت،ولعل قبولها سببه ما ذكرته من أنها تخشى عليه وباء مكة ، وتريده أن يكون مستمتعا بجو الصحراء الصافي من حمل الأسقام والأوباء ، فهي قد رضيت ايثارا ومحبة ٠

## أخبار شق صدره صلى الله عليه وسلم:

٩٠ ــ عادت حليمة فرحة ببقاء الخير والبركة ببقاء محمد في حضانتها، واذا كانت من قبل مرضعا وحاضنة فهي الآن حاضنة ، وان ذلك يحملها عبئاً آخر ، وهو صيانته وحفظه ، اذكان من قبل يلازم حجرها ، أو يكاد ، أما الآن فانه لا يلازم حجرها ، بل يغادره ليلعب ، وليروح ويغدو هنا وهناك ، وان ذلك يحتاج الى صيانة ،وكانت تتبعه ٠

وقد خرجت مرة لتبحث عنه مع أخته من الرضاعة ، وكان الحر شديداً، فتقيل كلاهما ، ( أي استرخى في القيلولة ) فقالت الفتاة ، انه لا يحس بحر ، لأن غمامة تسير حيث يسير ،وتقف حيث لا تتركه ٠

ونقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة في شق صدره عليه السلام ، فقد رويت في ذلك أخبار بعضها في خبر قصير ، وبعضها في خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة في بعض ، ونقص في آخر وان كان المعنى الأصلي متفقاً في الجميع ٠

ولنذكر واحدا منها ، وهو ما روي وثبت في صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه

جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى ظئره ،فقالوا ان محمداً قد قتل ، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون قال أنس ، وقد كنت أرى ذلك الخيط في صدره ، واننا نلاحظ في ذلك الخبر أمرين :

أولهما ـ أن الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ان صحت كانت في البادية في مكان ناء عن زمزم ، واذا كان من ماء مع جبريل ، فمن أين علم أنه من زمزم ٠

ثانيهما ـ أنه ذكر أنه كان يرى أثر المخيط في صدره عليه السلام ، واذا صحت الواقعة فان المعقول أنه عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس ٠

ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب ٠٠

وعلى فرض أنها صحيحة ، لا نقول انها غير مقبولة ، بل انا نقبلها ان صحت ، ولكن الاضطراب في خبرها ،يجعلنا نقف غير رادين ، ولا مصدقين٠

ومهما يكن الأمر في قصة شق البطن ، فان الغلام الطاهر كانت تحوطه أمور خارقة للعادة لم تكن لتحدث للغلمان في سنه عادة ٠

ولقد جاء في الروض الأنف أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عادت به حليمة بعد أن حملت أمه على الرضا ببقائه عندها سنة أخرى أعادته بعد شهر أو ثلاثة خوفا عليه مما يجري، ولقد ذكر الرواة حديث شق البطن ، وأنها لما بلغها خافت على الغلام فردته أمه ٠

وقال ابن اسحاق انها رأت أن بعض النصارى رأوه ٠ ورأوا ما به من علامات النبوة فطلبوا الى حليمة أن يأخذوه عندهم ، فارتابت في ذلك حليمة ، فردته الى أمه خائفة عليه ، ولتخلي نفسها من التبعة ، وسنزيد من بعد الخبر بياناً ٠

٩١ ـ هذا الكلام يدل على أنه آل الى أمه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة الثالثة ، وهو معقول لأنه لا رضاعة من بعد ذلك ، والأحوال كانت توجب هذا ، لما كان يصيب أمه الرضاعية من خوف عليه بسبب الارهاصات التي كانت تحوم حوله مما أفزعها ٠

ولكن جاء في الروض الأنف مانصه :

« وكان رد حليمة اياه الى أمه ، وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمرو ، ثم لم تره بعد ذلك الا مرتين احداهما بعد تزوجه خديجة رضي الله تعالى عنها ، جاءت اليه تشكو السنة، وان قوما قد استنوا ، فكلم لها خديجة، فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات، والمرة الثانية يوم حنين » ٠

وان هذين بلا شك خبران متناقضان : أحدهما يفيد أن أمه تسلمته عند بلوغه سنتين وشهرين أو ثلاثا ،والثاني يقرر أنها تسلمته بعد خمس سنين وأشهر ٠

ولكن التوفيق بينهما ممكن بأن أخذها الأول كان لتضمه اليها ، ويكون في كنفها ، ولا يمنع ذلك من أن تجيء حليمة اليه تأخذه عندها الفينة بعد الفينة ، يستروح بنسيم الصحراء ،وتتيمن به ظئره المخلصة العطوف ، أما حد التسليم بخمس سنين ، فهو عندما أخذته نهائيا أمه ، ولم يذهب بعد الى بني سعد ، ولذلك قرروا أنهالم تره بعد ذلك الا بعد أن اكتملت رجولته بتزوجه ، وبعد أن أبلغ رسالته ، وتذاكرت الركبان بنصرته في يوم حنين ، فقد دامت من بعد اقامته عند أمه ، ورحلت به الى يثرب لتريه قبر أبيه ، ولتزور وهي وفاء لمرجلها الطاهر الأمين ٠

لقد سلمته حليمة الى أهله ، وكان يتردد عليها برغبتها ، وأجازه أهلها ، وقد ذكر ابن اسحق خبرين قد نوهنا الى أحدهما ، ولم نذكر الآخر ، وقد كان السبب في ألا يقيم عندها اقامة ممتدة. ولكن تأخذه الوقت بعد الآخر أولهما ـ أن ابن اسحق قدر أنه زعم الناس فيما يتحدثون أن حليمة ظئره لما قدمت مكة به ضلت وهي مقبلة به نحو أهله ،فالتمسته فلم تجده ، فأمت جده ، فقالت له اني قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلماكنت بأعلى مكة أضلني الناس فوالله

ما أدري أين هو ؟ ، فقـام عبد المطلب يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه ، وهو يطـوف بالكعبة يعوذه ويدعو له ، ثم أرســـل به الى أمه آمنة ٠

وقد ذكر هذا الخبر ابن اسحاق ، وصدره بكلمة زعموا مما يدل على شكه، ولكن لا موضع للشك فيه ، فالخبر في ذاته مقبول ، وهو يدل على عظيم حدب جده عليه ، وحـــرص حليمة ، ومحبة قريش له ٠

ولكن هل هذا كان في تسليمها الأول ، أو في تسليمه في المرات التي كان يتردد عندها ، تيمنا لجواره وقـــربه منها ، وقبول أمه لذلك ليستروح هواء البادية ، وتتقى أسقامه بها ٠

الخبر الثاني ، وهو ما أشرنا اليه من قبل ، ورجحنا أنه السبب في اعادته بعد شهرين من بلوغه حولين كاملين ، وهذا نص كلام ابن اسحاق :

« حدثني بعض أهل العلم : أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها لتأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعلم أمره فزعم الذي حدثني أنها لم تكد تنفلت منهم حتى أتت به الى أمه ٠

## سفر أمه به إلى يثرب :

٩٢ ــ كانت آمنة مثالا للمرأة الكاملة ، وهي بعد لم تتجاوز العشرين الا بقليل ، فقد رأت أن تزور يثرب وهو معها، هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة ، وذلك لأمرين :

أولهما ــ أن تزور مع ولدها قبر أبيه ، وفى ذلك أجل الوفاء ، وأكرمه ، وكأنها ترى زوجهـــا وديعته التي أودعها اياها ٠

وثانيهما ــ أن تعرفه بقرابته من ذوي الارحام ، وهم بنو النجـــار ، اذ تزوج منهم جده هاشم ، تزوج سلمى بنت زيد بن عمرو الذي ينتهي بنسبه الى عدي من بني النجار ، وكان بالمدينة ذا شرف ومال ٠

وقد تحقق لها ما أرادت ، ولعل هناك باعثاً آخر ، وهو أنها كانت تخشى على وليدها العزيز جو مكة ، ووباءه فأرادت أن تخـــرج به من ذلك الجـــو المزدحم الآهل بالسكان ، لقـــد كانت حليمة تأخذه من وقت لآخـــر ، فينقى جسمه من جو مكة المتكاثف ، وينال من جو البادية ما ينعش جسمه ونفســه ، ويكون ارادته ويكون فيه متصلا بالكون لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يحول دونه باب ، بل هو متصل بالسماء وزرقتها، والنجوم ومدارجها ، والقمر وانبلاجه، فيرى الشمس سراج الوجود ، والقمـــر منيره من غير استتار يمنعه ، أو حاجز، يرى الشمس في مشرقها ، وضحاها ،وأصيلها وغروبها ، وشفق القمـــر اذ يضيء ، فيشق نور الظـــلام وينبلج نوره ، ويتغنى به الشعر ، وفي ظله يتسامر المدركون لجمال منظره ، ودلالته على الخلاق العليم ·

سافرت به أمه لتزور قبر أبيه ، وأخواله ، ولتخرج به من مزاحم مـكة ، ومحاجزها ، وهي أحب أرض الله اليها، ولكنه الوفاء ، ورعاية الوليد الطاهـر في جسمه ونفسه ، وأهله ، ولتريه ذوي رحمه كما رأى عصبته ·

والظاهر أنها خرجت بعد أن أخـذته من حاضنته ووضعته بعـد أن بلغ خمس سنين وأشهراً كما ذكرنا من قبل أي أنه كان قد ابتدأ السادسة وســـار فيها أشهراً ·

وقـد زار ، أولئك الصفوة من الأخيار قبر عبـــد الله أبيـــه ، والزوج الحبيب زوج آمنـــة فعبرت العيون وسكنت الأصوات ، وتناجت الأرواح على مشهد من الغلام المحس المدرك ، فعرف أباه ، وقد ارمس في التراب ، ورأى رمسه بنظره وأدرك محبته من عبرات أمه ، فكان منظراً مطبوعاً في نفسه ، وهمساً مس قلبه ومشاعره ، ولعله أول حزن مس قلبه الغض البريء ·

أقام وأمه في أطم بني عدي بن النجار ، وهو قصر بني في أكمة عالية كأنه الحصن ، وقد كانت الأطم معروفة في المدينة ·

ويظهر أن الاقامة لم تكن قصيرة ،وربما كانت طويلة نسبياً ، ومهما يكن فقد رسمت في ذهن الغلام صـــوراً وضحها الخيال ووسعها من غـــير مبالغة ولا اغراق عند ذكرها ·

فيروى أنه قال ، وقد رآها بعد أن حمل أعباء الرسالة : « كنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً يقع عليه ( أي على أطم بني النجار ) وقال في الدار التي نزل بها هو وأمه : « ها هنا نزلت بي أمي ،وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب » .

## موت الطهور آمنة:

٩٣ ـ أقامت آمنة بدار بني النجار ما طابت لها الاقامة ، ولم ترد الاستمرار بعيدة عن بني هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافله ، فكان لابد من العودة ، فأخذت في السير الى مكة ، ولكنها وهي عائدة اليها أدركها الموت بمكان اسمه ( الأبواء ) وهو بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب ، كما يقول صاحب الروض الأنف (١) وبذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتيما من أبويه الذي أدخره الله تعالى للانسانية هادياً بالحق ، داعياً الى الرحمة ، فكان نبي الرحمة ، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التي تعترض في أثناء الحياة ، فانه لا تنبعث الرحمة بالضعفاء الا ممن ذاق مرارة الضعف ، وأي ضعف أشد من اليتم ، وان القسوة في كثير من الأحيان تكون من الذين ينشئون في الحلية فاكهين في نعيم الحياة .

ولقد ماتت الأم الطاهرة ، وهو يدرك الحياة ، وقد ذاق حلاوة حنانها ، ولطف عطفها ، وهي التي كان هو لها كل الوجود ، واستبشرت به ، واتخذت حبه عوضاً عن الحب الزوجي الذي فقدته في باكورة زواجها ، واذا كان قد فقد أباه من قبل فقد كان ذلك ،وهو في غيب الله المكنون ، وقد عوضه جده عطف الأب فلم يحس بألم الفقد ،لأنه لم يعلمه واستقبل الحياة بهذه الحال ، ولم يجعله جده عبد المطلب يحس بالفقد الذي لم يعه ، أما الأم ، فقد فقدها ، وهو في وعي ، وبعد أن ذاق حلاوة حنان الأم ، وانه لا شيء يعوض عطف الأم الرؤوم ، وهو حرمان من شيء موجود شعر به ، وأصابت به لوعة ، علمته الصبر وعوده أخضر .

وزادت اللوعة ، وزاد معها الصبر أن الموت ، وهما غريبان ، وليس لهما الا الصحراء ، وطريق مدعثر ، وشقة بعيدة ، لابد من قطعها ، فاجتمع ألم

(١) يقول فيه صاحب الروض الأنف ، وقيل سمي الأبواء ، لأن السيل كان يبوء فيه .

الغربة ، وألم الفقد ، وألم الانقطاع ،وصار الركب في رعاية الله تعالى الذى صنعه على عينه ، وذلك ليحس مـــع الصبر واحتمـــال الآلام كريم الرعاية الالهية ، والعناية الربانية ، ويكون له من هذا زاد نفسي يذكره عندما يلاقي الشدائد في الدعوة الى الحق ، ومناوأة الشرك وتكـــاثف المشركين عليـــه ، وتعرضـــه للأذى والتجائه الى الله اذا أحس بالضعف ٠

وان الذى حمله ، وحل محل أمه في حضانته جارية حبشية ، واذا كانت لم تعطه حنان الأم ، وعزة العطف ، فقد كلأته وحمته ٠

وان ارتباط حياته الطاهـرة بأمة حبشية تزويد من الله تعـــالى له بزاد انساني ، ليشعره بأن الناس سواسية ،وأن كل الفضل فيمن يحسن في عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وانها لحكمـــة عالية أن تكون الحاضنة التي لا يستغنى عنها محمد صـــلى الله عليه وسلم أمة حبشية ، لأنه تربية ربانية على المساواة الانسانية ، وأنه لا شرف الا بالنفع ،والعاطفة ، لذلك لم يكن غريباً من الذي حضنته جـــارية حبشيـــة أذاقته حب الأمومة ،وان كان دون حبها ، وأوصلته الى جده محوطا بعناية الله وعطفهـــا ـ أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الانساني ، فليس غـــريبا أن يغضب أشد الغضب ، عنـــدما يسمـــع بعض صحابته يعير آخر بقوله «يابن السوداء،ويقول في قوة : لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيـــل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى ، فمحمد ابن البيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا ٠

٩٤ ـ ذاق حب الأم ، وذاق لوعة فراقها ، ولذلك زار قبرها ، بعـــد أن بلغ أشده ، وصار رجلا مكتملا ســـوياورســـولا نبيا ، جاء في الروض الأنف « وفي الحديث أن رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى » ، وهذا حديث صحيح ،وفي الصحيح أيضـــا أنه قال استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي وفي ســـند البزاز من حـــديث بريـــدة أنه صلى الله تعالى عليه وســـلم حـــين أراد أن يستغفر لأمه ضرب جبريـــل عليه السلام في صدره ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، فرجع وهـــو حزين ، وفي حديث آخر ما يصححـــه ، وهو أن رجلا قال له يا رسول الله أين أبي فقال في النار ، فلمـــا ولى الرجـــل قال عليه السلام ان أبي وأباك في النار»وليس لنا أن نقـــول نحن هـــذا في

أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقوله عليه السلام « لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات » وانما قال النبي عليه السلام لذلك الرجل ما قال ، لأنه وجد في نفسه ، وقد قيل انه قال أين أبوك أنت ، فحينئذ قال ، وقد رواه معمر بن راشد بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال ان أبي وأباك في النار ·

ولا شك أن الخبر الذى يقول ان أبا محمد عليه السلام في النار خبر غريب في معناه ، كما هو غريب في سنده ، لأن الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وقد كان أبو محمد عليه السلام ، وأمه على فترة من الرسل ، فكيف يعذبون ؟!! ان هذا مخالف للحقائق الدينية ، لقد مات أحدهما قبل أن يبرز الرسول الى الوجود ، وماتت الأخرى وهو غلام لم يبعث رسولا ، ولذلك كان الخبر الذي يقول انهما في النار مردودا لغرابة سنده ، أولا ، ولبعد معناه عن الحقيقة ثانيا ، ولعل نهي النبي عليه السلام عن الاستغفار ، لأن الاستغفار لا موضع له ، اذ أنه لم يكن خطاب بالتكليف من نبي مبعوث ، وليس كاستغفار ابراهيم لأبيه الذي نهى عنه ، لأن أبا ابراهيم قد خوطب برسالة ابراهيم فعلا ، فهو مكلف أن يؤمن بالله ، ويكفر بالأوثان·

وفي الحق اني ضرست في سمعي وفهمي عندما تصورت أن عبد الله وآمنة يتصور أن يدخلا النار ، لأنه عبد الله الشاب الصبور الذي رضي بأن يذبح لنذر أبيه ، وتقدم راضيا ، ولما افتدته قريش استقبل الفداء راضيا ، وهو الذي كان عيوفا عن اللهو والعبث .وهو الذي برزت اليه المرأة تقول هيت لك ، فيقول لها أما الحرام فالممات دونه ،ولماذا يعاقب بالنار ، وهو لم تبلغه دعوة رسول ، ونفى الله تعالى العذاب الا بعد أن يرسل رسولا ، ولما تكن الرسالة قد وجدت ، ولم يكن الرسول قد بعث ·

وأما الأم الرؤوم الصبور التي لاقت الحرمان من زوجها فصبرت ، ورأت ولدها يتيما فقيرا ، فصبرت ، وحملته صابرة راضية في الذهاب الى أخواله ، أيتصور عاقل أن تدخل هذه النار من غير أن يكون ثمة رسالة الهية تهديها ، ودعوة الى الوحدانية توجهها ·

اني ضرست لا لمحبتي للنبي فقط وان كانت كافية ، ولكن لأن قصة آمنة جعلتني لا أستطيع أن أتصور هذه الصبور معذبة بالنار ، وقد شبهتها بالبتول مريم العذراء لولا أن الملائكة لم تخاطبها ·

٩٥ ـ ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بقبر أمه غلبت عبراته ، ولا عيب في ذلك ، فقد قال عليه السلام البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ، ولقد ذكر الرواة أنه بكى عندما مر بالأبواء ، بكى ، وبكى من معه لتذكر أمه • ولقد قال القرطبي في تذكرته « جزم أبو بكر الخطيب في كتاب السابق واللاحق ،والناسخ والمنسوخ ، وأبو حفص عمر بن شاهين باسناديهما عن عائشة رضي الله عنها ، قالت حج بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع فمر على قبر أمه ، وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم انه نزل ، فقال يا حميراء استمسكي فاستندت الى بيت البعير ، فمكث عني طويلا ، ثم عاد إليّ وهو فرح مبتسم ، فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائك ، ثم عدت وأنت فرح مبتسم ، فيم ذا يا رسول الله ، فقال ذهبت لقبر آمنة أمي ، فسألت أن يحييها الله تعالى ، فأحياها فآمنت بي »•

وروى في احياء أمه وأبيه خبر مثل ذلك بسند فيه مجهولون •

ونحن نرى أن توافر السند الصحيح في هذه الأخبار غير ثابت ، ولكن نقول ما قاله صاحب الروض الأنف « الله قادر على كل شيء ، ولا تعجز رحمته وقدرته عن أي شيء ، ونبيه عليه السلام أهل أن يخصه بما شاء من فضله، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله تعالى ، وسلامه عليه •

ولقد روى الحافظ بن كثير أحاديث كثيرة في هذا الباب ، وذكر أن فيها غرابة ، وذكر الخبر الذى سقناه عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما وآمنا به » ثم قال فيه : « انه حديث منكر جدا ، وان كان ممكنا بالنظر الى قدرة الله تعالى لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه » (١) •

وخلاصة القول وهو ما انتهينا اليه بعد مراجعة الأخبار في هذه المسألة أن أبوي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في فترة، وأنهما كانا قريبين الى الهدى، والى الأخلاق الكريمة التي جاء به شرع ابنهما من بعد ، وأنهما كانا على

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨١ •

فترة من الرسل ، ونعتقد أنه بمراجعة النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يكونا في النار ، فأمه المجاهدة الصبور ، الحفية بولدها ، لاتمسها النار • لأنه لا دليل على استحقاقها ، بل الدليل قام على وجوب الثناء عليها هي وزوجها الذبيح الطاهر •

وما انتهينا الى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كنا نرجوها ونتمناها ، ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقي المستقيم ، والأدلة الشرعية القويمة ،ومقاصد الشريعة وغاياتها •

## في حضن عبد المطلب

٩٦ ـ عادت أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمت الغلام الطاهر الى جده عبد المطلب ، وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العامر بالخير ، وعمل الصالحات ، فأدناه اليه ، وقربه ٠

وفي البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب ، والشباب من الرجال والنساء ، كان فيه حمزة وكان فيه العباس ، وكانت فيه هالة زوج عبد المطلب ، وابنة عم آمه ، فهي ذات رحم ، وما كان يمكن أن تنظر اليه ، كما تنظر أزواج الآباء ، الى ذرية أزواجها ، بل كانت تعد كخالته ، لأنها ابنة عم آمه ، وهي ربة البيت الراعية لبيت زوجها الكريم ، ولذريته الأطهار، فما كانت تنظر اليه شزرا ، بل كانت تحبوه من عطفها ، ما تحبوه لولدها ، فكان وَسَطًا مملوءا بالعطف ،والصلاح فما قهره يتمه ، ولا أرهقه فقد أبويه، وان لم يكن عزه كمثل عزهما ، ولا عطفه كمثل عطفهما ، ولكن من حواليه، لم يبقوا عطفا يستطيعونه الا قدموه ٠

وكان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ، والتقت فيه محبتان من عبد المطلب ، احداهما محبة أبيه الذي اهتصره الموت ، وعوده أخضر ، ومحبة الغلام الطاهر في ذاته ، فكان يدنيه اليه ، واذا كان اليتم بطبيعته يوجد انفرادا نفسيا ، واعتزالا فان الجد العظيم خشي أن يكون لذلك أثره في قلب هذا الغلام الحبيب ، فكان يبالغ في تقريبه منه حتى يأنس به دائما ، جاء في السيرة لابن اسحاق :« كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ،فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم :« دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ،ويسره ما يراه يصنع » ٠

حباه عبد المطلب بالعطف الأبوي ،فكان ينسبه اليه مباشرة · فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابني ، ليأتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ، ولكيلايحس بأنه دونهم ، ويفضله عليهم في المجلس ، ليمنع قهر اليتم ، فألقى الله سبحانه محبة منه عليه ·

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف الكريم يبث روح الائتلاف في هذا اليتيم ·

وكان فطرة عبد المطلب السليمة ،وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك في منامه الذي ارتآه ، ثم في أحواله التي شاهدها ، ثم في الأخبار التي جاءت عنه وهو في البادية عند حليمة وزوجها، ولذلك كان يبدو على لسانه ما يدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، كما جاء في الخبر الذي سقناه ، وقد قال أيضا ابن اسحاق · مرويا بسنده « لما توفيت آمنة قبضه اليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ،وكان يقربه منه ، ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ، وكان يجلس على فراشه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : « دعوا ابنى انه يؤسس ملكا » (١) ·

وكان في ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ، ورأت فيه وجودها ، تحنو عليه كأمه ، وهي التي حضنته كأمه ،وآوت به من غربته وهي أم أيمن،وكان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنه في رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية في العناية به ، فيقول :لها « يا بركة لا تغفلي عن ابني فاني وجدته في غلمان قريب من السدرة ،وان أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة » ·

ولكمال عطفه ، واينا سه ، وتاليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول علي بابني ، فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث ، فقد اختطف الموت أباه ، ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانيا

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٢ ·

بأن اهتصر الموت عود أمه ، وقد أدرك معنى حنو الأمهات ، ورآها كالعـــود الاخضر ، يذبل ، ويذوي • ثم اختبره ثالثة ، وقد رأى جده الكريم يتركـه ، فقـــد فقـــد الأبوة القريبة ، والأبوة البعيدة ، وقد أحس بعظم ما فقد عند سماع المراثي فيه ، وهي تعلن مكانته ،ومحبته وانه قد ابتدأت ، وهو لا يزال حياً ، ولكن الموت يدنو منه •

وكانت الأشعار تجيء بالرثاء من بناته ، ويقـــول ابن اسحق انه لما أحس بذلك الموت أمر بناته أن يرثينه فـكن يرثينه ، وهو يسمع •

وهذا الرثاء هو أبلغ النواح ، وان ذلك الخبر يدل على أنه كان في وعي كامل ، ولم يصبه خرف الشيخوخة •

## في كنف أبي طالب

٩٧ ـ كان اليتيم الكريم يعيش في عزة وعطف ، ورفق في أحضان أمه الطاهرة ، وحاضنته البرة أم أيمن بركة هذا البيت ، وكنف الشريف في قومه السيد في قبيله ، لم يحس بالمهانة أو القهر ، بل أحس بالشرف والكرم والرفق والعطف ، واستمرت هذه حاله الى أن بلغ الثمانية ٠

وقد مات جده ، وتركه في الثامنة من عمره ، ولكنه لم يفقد عطفه وهو يعالج سكرات الموت ، بل استمر قائما بحقه عليه ، ولذلك عندما أحس بالموت يدب في جسمه دبيباً ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحياطته ، وقد اختصه بهذه الوصية ، لأنه كان في قريش له مقام المطلب بعد أبيه ، ولأنه أقرب كل بنيه اليه ، لأنه ابن شقيقه ، اذ أمهما واحدة ، وهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم ٠

وقد قام أبو طالب بحق الوصية ، فكان يرعاه حق الرعاية ، فكان يصاحبه في غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة ٠ لأنه ابتدأ يتعود عادات الشباب ، ولا يغنى عنه في هذا الدور من حياته الا الصحبة الموجهة ، فكان يصحبه لهذا ، ولمحبته الشديدة له ، فكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها ، فكان لا ينام الا بجواره في منامه ، وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ، وكان مثله كمثل حليمة وأولادهم ، اذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ، ودرت عليهم أخلاف ناقتهم بعد أن جفت ٠

كان أبو طالب في بعض الأزمة المادية ، فكان عياله اذا أكلوا لم يشبعوا ، واذا أكل معهم محمد الميمون شبعوا فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم ٠ قال لهم كونوا كما أنتم حتى يجيء ولدي وهو محمد عليه السلام ، فاذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، واذا لم يكن معهم لم يشبعوا ،

فيقول أبو طالب : « انك لبار » هـذا ما قصه ابن اسحاق في سيرته (١) ٠

وليس عندنا ما يسوغ لنا أن ننقض ذلك الكلام فهي قـدرة الله تعالى على كل شيء ، واذا اختص الله بها محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهي ارهاصـات الرسالة ، وقد جـرى على يديه وفي أحواله خوارق عادات أخرى ، أوضح وأظهر وأبين ، فالضوء الذي صـاحب ولادته ، وارتجـاس ايـوان كسرى ، وتهدم غرفاته ، وخمود نيران المجوس ، والبركة التي حلت على حليمة وذريتها بقدومه ، كلها أحوال خارقة للعـادة هذا دونها في الارهاص ٠

ولكن جاء عن الحسن بن عرفة ما قد يومىء بالتعارض الظاهري ، فانه روى عن ابن عباس أنه قال : كان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم ، فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا ينتهب معهم فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة ٠

وهذا قد يوهم التعارض ، وبفحص الخبرين يتبين أنه لا تعـارض ، لأن الأول يتبين منه أن الشبع وفضـول الطعام يكونان اذا كان بينهم ، وليس معنى ذلك أن ينتهب كما ينهبون ، انما معناه أن يأكل وقد عزل له طعام خاص ، حتى لا يتسابق معهم في الالتهام ، اذ نفسه العفوف تأبى عليه أن يزاحم في مد الأيدي الى الطعام ، فذلك من تأديب الله تعالى له ، وما منحه من عفة وابتعاد عن الجشع في الطعام وغيره ، كما يبدو من صفحة حياته ٠

وانه يكفى أن يكون معهم في الطعام لتكون البركة ، ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذي اختصـه به أبو طالب فان الله تعالى قابل ذلك التخصيص من عبده الـكريم بفيض من فيضـه العميم ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٨٢ ٠

## عمله صلى الله عليه وسلم

٩٨ ـ اتجه محمد الى العمل ، وقد شب عن الطوق ، وان كان لم يبلغ سن المراهقة ، واتجه الى العمل الذي يستدعي رفقا منه ورعاية ، وفيه حنو على الضعفاء ، اتجه الى رعي الأغنام ، وهو عمل فيه ثلاث مزايا :

احداها : أن فيه سياسة لحيوان ضعيف يقتضي عطفاً ورفقاً في سياسته .

والثانية : أنه يعاشر فيه الضعفاء من الغلمان الذين ليس فيهم استعلاء أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يستعلون بشرفهم .

والثالثة : أن فيه كسباً مادياً من عمل اليد ، وأفضل الكسب ما كان من عمل اليد .

وانه قد كان يرعى الغنم في بني سعد ، مع اخوته من الرضاعة أولاد حليمة ، فكان يلهو معهم بذلك الرعي في آخر أيام رضاعته ، وأولى سني حضانته ، فكان لهوه مفيدا ، وخير اللهو ما كان فيه مصلحة ، وفائدة ، وكان بلا شك ذلك النوع أجره فيه ، اذ أنه لهو ، وأجرته هو متعة اللهو الحلال المفيد .

وثبت أنه رعي الغنم في مكة ، وقد كان في سن شبّ فيها عن الطوق كما أشرنا ، وقد اتجه اليه غير لاه به ، ولكنه عامل فيه ليكتسب حلالا ، ويأكل طيباً .

ولقد ثبت في الصحاح أنه كان يرعى الغنم في مكة على قراريط ، يأخذها من أهلها ، والقراريط ، هي حصته من اللبن فيما يظهر ، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها يناله ، ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب ، أو يأكل منها ، ويتصدق فينال خيرين : خير الكفاية ، وخير الصدقة أو المودة .

ويظهر أن رعاية الغنم من تربية الله للنبيين ، اذ تعـــودهم على الرفق ، والعطف على الضعفاء ، وحسن قيـادة النافر ، وتأليفه وتقـــريبه ، وادنائه من قطيعه ٠

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره ابن اسحاق بسنده ما من نبي الا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يا رسول ! فقال نبي الرحمة : وأنا ٠

وقد روى في بعض الأخبـار أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « بعث موسى صلى الله تعالى عليه وهو راعي غنم ، وبعث داوود عليه السلام وهو راعي غنـم ، وبعثت وأنا راعي غنم » ٠

وجاء في الروض الأنف في تعليل ذلك : « وانما جعل الله تعالى هـذا في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أمتهم رعايا لهـــم ، وقـد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ينزع عن قليب ، وحوله غنم سود ، وغنم عفر ، قال ثم جاء أبو بكر رضي الله تعالى عنه فنزع نزعا ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا يعني الدلو ، فلم أر عبقريا يفري فريه » فأولها الناس بالخلافة لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولولا ذكـــر الغنم الســـود والعفر لبعـدت الرؤيا عنهما (١) ٠

وان هذه الرؤيا الصادقة أومأت الى الرعيـــة ، بأنهـــا كالغنم العفر ، للاشارة الى أن الرعية يسوسها حاكمها بالرفق والعطف ، والتوجيه من طـلب الغذاء لها من غير اعنات ، ينقلهـا من الخير الى الخير من غير ارهاق ولا اكراه، ولا ايذاء ، كما ينقل الراعي قطيعـه من كـلأ ، ومن ماء الى ماء بالترغيب والتحبيب لا بالايذاء والترهيب ٠

## حماية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم :

٩٩ ـ حمى الله تعـالى محمداً في نشـأته ، فكفله محبوه ، فلم ترهـــق أعصابه ، ولم يرهق في يتمه ، فنبت نبتاً حسناً محبوبا أليفا مألوفا ، وحمى نفســـه من أن تتردى في مهـــاوي الانحراف ٠

---

(١) الروض الأنف ص ١١٢ طبع المغرب ٠

لقد كانت طبيعة العمل الذي اختاره ، الرسول ، لأنه أسهل الأعمال اليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم والعبيد ، فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذي لا يعد من معالى الأعمال بل يعد من صغارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه الى العلا شرف نسبه ، وطيبة محتده ، وما يراه في أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وما يكمن في طبعه الكريم من حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار للضعفاء ، ويجذبه الى التطامن والرضا بالقليل صغر العمل في ذاته من غير نظر الى ثمراته وأثره في تربية النفس على حسن المعاملة ، والرفق بالناس ·

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم أو أولياؤهم في الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البريء وغير البريء ، ومنهم من ينزع الى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد في المجتمع اذا شدا وترعرع وبلغ أشده واذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع الى الحب الخالص البريء ، فهؤلاء يدفعون الى المجون ، والمجون يهدي الى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدي الى الفساد ، والصحبة تجعل السقيم يعدي البريء ، وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب ، كما يقول الشاعر العربى الحكيم ·

فكان أشد ما يخشى على محمد عليه السلام في صباه هو عدوى المجون ، اذ هو محبب الى نفوس الغلمان في سن المراهقة ، ومحمد عليه السلام كان مراهقا في هذه السن ، ولكنه تربية الله فجنبه ذلك ، وأبعده ، ويحكي عن نفسه عليه السلام والمجون يساوره ، فيعصمه الله تعالى ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ما روى البخاري عنه ، أنه قال : « ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » وقد ذكر ابن اسحق أن احدى المرتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش ، فقال لصاحبه اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة ، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقي عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى ·

وفي المرة الأخرى قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم كما ألقى في المرة الأولى ، وترى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال في الهوى ، فهو في الخطوة الأولى سد الطريق ، لا بمجاهدة نفسية ، لأن سنه لم تكن تقوى على المجاهدة النفسية ، بل بأمر خارج عن ارادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت ارادته ، وكانت له عزيمة تمنع ، وقوة ارادة ، وبمقتضى النظام الفكري، أنه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذى منعه ، ربما كان يسترسل في اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر الشهوات، فكانت العصمة المانعة في أول الخطوة ،وأول الدفعة ، وانما الصبر عند الصدمة الأولى كما قال عليه السلام من بعد أن منحه الله تعالى الرسالة .

## إلى التجـــارة

١٠٠ ـ اشتهرت قريش بين العرب بالتجارة ، فكان سراتها تجـاراً ، ذلك أنها لم تكن بلد زرع ، بل كانت بواد غير ذي زرع ولم يكن في العرب صناعة تكون مورداً اقتصادياً ، لأنها كانت مثابة أمن الناس بوجود البيت الحـرام ، فكان حجاج ذلك البيت يجيئون من كل فج عميق ، وكانت الأسواق تقـام في الحج ، كان فيها الاتجار ، وفيها تعقد ندوات الشعر ، والمسابقات البيانية ، فكان مع تبادل البضـــائع تروج بضاعة البيان ٠

وكان كسب أغنياء قريش من التجارة ، وأوساطهم في المال كانوا يتجرون كل على حسب طاقته ، وعلى حسب ما عنده من المال ، وكبار التجار منهـــم كالعباس بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة وأبي بكر كانوا يتجـــرون في الجلب من اليمن والشام ٠

وكانوا ينقلون بضائع الفرس الى الرومان عن طريق اليمن ، وبضـــائع الرومان الى الفرس عن طريق الشام ،فكانت لهـم رحلتان : احـــداهما في الصيف يذهبون فيها الى الشام يجلبون اليها بضائع الفرس ، ويحملون فيهـــا بضائع الرومان والأخرى في الشـتاء يحملون منها بضـائع الفرس ويحملون اليها بضائع الرومان فكانت التجـــارة الخارجية سبيل ثروة كبارهم ،والتجارة الداخلية مرتزق أوساطهم ، وأما فقراؤهم فكان مرتزقهم من النعـــم الابل والبقر والغنم ٠

ولذلك كان من مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه محمد الى التجـارة ، عمل الأغنياء ومرتزق الأوساط ، وماكان من المعقول أن يستمر راعي أغنام، فانها تناسبه وهو صغير السن ، أما اذاكبر ، فانه لابد أن يتجه الى التجـارة الداخلية والخارجية ، وأن يعرف الاسواق التي يكون منها الاستيراد ، ويكون عن طريقها التصـدير ، ولابد حينئـذ من أن يسافر ، وقد ألهمه الله تعالى أن يطلب السفر مع قافلة قـــريش التي تحمل البضائع الى الشام، وتجلب منها٠

## شغفه بالتجارة صلى الله عليه وسلم

١٠١ ـ عندما بلغ سن المراهقة وشب عن الطوق كان لابد أن يتجه الى مرتزق قومه وهو التجارة وكما نوهنا من قبل ، وجد القافلة وفيها كافله ، وولي نفسه ، عمه أبو طالب ، فابتغى أن يكون مع هذه القافلة ، يسير بسيرها ، ويجرب الحياة عن طريقها ، ويدرس شئون التجارة التي يمارسها كبار التجارة بمكة ويتعرف الأحوال ، ويكون على خبرة بالحياة وما يجري فيها ٠

ويظهر أن عمه كان يستصغر سنه ، ويرى أن تلك الرحلة الشاقة فوق طاقته ، فوق أنه لا منفعة له فيها ، اذ ليس في القافلة مال له ، حتى يتعرف حاله ٠

ولكن شدة رغبة النبي عليه السلام في السفر جعلته يستجيب لطلبه ، ولقد عبرت كتب السيرة عن رغبة محمد عليه السلام بقولها « صب به رسول الله تعالى : أي تعلق بالسفر ، وأحب الصحبة ، فرق له أبو طالب وقال لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ، ولا أفارقه أبداً » ٠

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لماذا كان التعلق الشديد بذلك السفر ؟ قد بينا ما فيه الجواب عن ذلك ، وهو تعرفه التجارة وشئونها معرفة عيان لا معرفة أخبار ، وأن يمهد لنفسه ممارستها ، والاتجاه اليها بدل الاقتصار على رعي الغنم

أما امتناع أبي طالب ابتداء كما يوهم القول ، فسببه الخشية عليه من وعثاء الطريق ، ولخشية الضيعة ولذا عند ما نزل على ارادته « لا يفارقني ولا أفارقه » ٠

خرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع عمه للتجارة بالشام ، فحلت القافلة بأرض مدينة بصرى ، وبصرى كانت موطناً لصوامع الرهبان ، يقيمون بها ، منصرفين الى عبادتهم ، وتعرف الانجيل والتوراة ، وما يحتويان ، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب واشارته ، وتبشيراته ·

## إرهاص بالنبوّة في رحلته الأولى:

١٠٢ ـ قامت هذه الرحلة مشتملة على ارهاص كبير معلم بنبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفيها اعلان عن البشارة بهذه النبوة والاعلام بأماراتها·

ولقد كان ببصرى راهب في صومعة ، اسمه بحيرا ، وكان على علم بالكتاب ، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوى علم بالتوراة والانجيل ، يتوارثون ذلك العلم كابراً عن كابر ·

وكان من طبيعة بحيرا كما هو طبيعة كل الرهبان ألا يخرجوا للقاء القوافل ، ولا تعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها، لأن الرهبنة تتقاضاهم العزلة وهم لا يخرجون عن سنتها ، ولا ينحرفون بأنفسهم عن أحكامها ، ويظهر أن قوافل العرب تعودت هذا وتعودوها من هذا الراهب خاصة ألا يلقاهم ، ولا يلقوه ·

ولكنه في هذه المرة خرج من صومعته ، اذ رأى من البينات ما يتفق ما عنده من التبشير برسول يأتي من بعد عيسى اسمه أحمد · فخرج من الصومعة ليلتقى بتلك القبيلة ، ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات ، ويتحقق فيه التبشير · ذلك أنهم نزلوا قريبا من صومعته ، ذلك أنه رأى غمامة تظلهم تسير حيث يسيرون وتقف حيث يقفون، وأنهم اذا آووا الى فيء شجرة رأى أغصانها تتهصر ، وتميل حتى تظل واحدا منهم هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجد هذه العلامات ، ويظهر أنه لم يتبين ذلك الصبي ، أو تبينه ، وأراد أن يعرف أحواله ، وبقية الأمارات الدالة على أنه المذكور في الانجيل ·

ولذلك أراد أن يزيد تعرفه بالقوم ، فاتجه الى اكرامهم ، فأقام لهم وليمة عامة لهم تشمل صغيرهم وكبيرهم ، لا يتخلف منهم أحد وأرسل اليهم يدعوهم،

وقال في رسالته لهم : « اني صـــنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ،وعبيدكم وحرمكم » ٠

لم يكن العجب من الدعوة الى الطعام ، انما كـــان العجب من أنه ترك صومعته وخرج اليهم ، ولذا قال رجل من قريش « والله ان لك يابحيرى لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقـدكنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم » :

قال بحيرا « صدقت قد كان ماتقول،ولكنكـم ضيف ، وأحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكـم ٠ فاجتمع القـــوم اليه ، ولم يتخلف الا محمد بن عبد الله رسول الله لحـــداثة سنه ، وبقى تحت الشجرة يرعى ابلهم ويحرسها ، فلما رآهم لم ير الصفة التي عرف بها الرسول المنتظر في كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلف أحد منهم عن طعامه ، فقالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتي ، الا غلام وهو أحدثنا سناً ، فتخلف في رحالنا قـــال لا تفعلوا ادعـوه ، فليحضر هـــذا الطعام » ٠

فقال رجل من قريش مع القافلة :« واللات والعـزى ان كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعـــام من بيننا » حضر محمـــد الوليمة ، واختصه الرجل بفضـــل من العناية فاحتضنه ، وأجلسه ٠

أخذ بحيرا يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر الى الأشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ٠

حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له يا غلام : أســألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك،وانما قال بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو غلام لم يبعث : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ٠ عـدل بحيرى عن استقسامه بهما ،وقال والله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال عليه السلام سلني عما بدا لك ٠

جعل بحيرا يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ، ورسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم يخبره ٠ ويقول ابن اسحق فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ٠

ثم نظر الى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، في موضعه من صفته التي عنده ٠

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ،فقال ما هذا الغلام منك ، قال : ابني !! قال بحيرا ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال أبو طالب فانه ابن أخي ٠ قال فمافعل أبوه ٠ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر من اليهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً ، فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم، فأسرع به الى بلاده ٠

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً ،حتى أقدمه مكة ، وأنجز تجارته (١)٠

١٠٣ ـ ان هذه رواية من الروايات التي رويت في هذه الرحلة ، والتقاء بحيرا الراهب ، وليس فيما ذكره بحيرى ، ولا في أصل القصة غرابة ، لأن التبشير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت عند أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى ذلك في مقدمة كتابنا ، وليس في القصة أمر يستحيل تصديقه ، أو يتعذر تصديقه ، بل انه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واظلال الغمامة له عليه السلام ، ليس فيه غرابة أو ما يظن أنه غريب في زعم الذين يجحدون ، ومن طبيعتهم جحود ما ليس ماديا ولا محسوسا ، ولكن يرد عليهم جحودهم بأن شواهد الصدق في الخبر قائمة ، فخاتم النبوة كان أمرا ظاهرا في جسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآه الراءون ووصفه الواصفون فاذا كانوا لا يؤمنون الا بالمادي ، فهذا أمر مادي ظاهر ، وقد وجد فيه ، ولم يوجد في أحد من غيره، فكيف يمترون ، وهناك شاهد آخر بالصدق ، وهو وجود هذه الأوصاف المعروفة في التوراة والانجيل حتى بعد أن أصابها التحريف ، واذا كانوا قد نسوا حظا مما ذكروا به ، وأفسدوا الباقي ، فالبشارات تلوح معلنة وجودها ، رغم أنف الجاحدين المستكبرين ، فلا مجال لارتياب مرتاب٠

بقي أن في كلام بحيرا أنه يخوف أبا طالب الكافل الكريم من اليهود ، وفي بعض الروايات أنه يخوفه من الرومان لأنه يعرضه للأذى ، والتخويف

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، السيرة لابن هشام، الاكتفاء ٠

منهما معا جائز ، وذلك لان الرومان كانت الملكانية في الطوائف المسيحية حريصة على معاداة العرب ، وكل مذهب ديني غير الملكانية ، ولذلك كانت العداوة شديدة اللدد بينهم وبين اليعقوبيين بمصر ، وكان بينهما ما بين النصارى واليهود ، بل كانوا أشد ايذاء ، وحينما قربت العقيدة بين طائفتين كانت العداوة ، أحد ، اذ كل حريص على أن يدمج الآخر فيه ٠

وأما اليهود فمع أنهم كانوا في البلاد العربية يستفتحون في يثرب على الذين كفروا بالنبي الذي آن أوانه ، كانوا يكرهون أن يكون من بني اسماعيل، لأن حسدهم يجعلهم يستكثرون أن يكون نبي من غير ذرية اسحق عليه الصلاة والسلام ٠

وخاتم النبوة الذي كان في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو لحم ناتىء بين كتفي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نسق ليس فيه تشويه للمنظر، قيل انه كتفاحة ، وقيل انه كرقبة العنزة ، وان كثرة التشبيهات ممن رأوه في جسم النبي ليست اختلافا في أصله ، ولكنه اختلاف في عبارة الذين رأوا ، والتشبيه من حيث حجمه ، ونظر الذى وصفه ٠ والرواية التي ذكرناها ، هي أقصر الروايات عبارات ٠

وقد روى الترمذي رواية أخرى أطول ، وقد جاء فيها أن بحيرا قال عندما أخذ بيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ٠ فقال أشياخ قريش من أين علمك ؟ قال انكم حين أشرفتم لم يبق شجر ، ولا حجر الا خر ساجداً ، ولا تسجد الا لنبي ، واني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاما »(١) ٠

## ابتداء بشارات النبوة :

١٠٤ ــ عاد محمد مع عمه من تلك الرحلة التي يبدو من ثناياها أن محمداً ( عليه السلام ) أراد فيها أن يعرف الشام وأحواله ٠ والتجارة ، والصفق في الأسواق ، وبدت فيه تلك البشائر النبوية ، وعلم الأشياخ من قريش مكانة ذلك الصبي ، وهو المحبوب بينهم كأبيه، حتى انه لما نبههم بحيرا الى أنه لم

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١١٩ ٠

يكن بينهم ويجب أن يكون بينهـــم ،تنبهوا ، وقال قائلهم ، انه للؤم اذ لم يكن بيننا ، وناداه واحتضنه ، شعوراً بالمحبة الشديدة المخلصة ، واشعـــارا بالندم على ما كان ، رأوا هذه الحال ·

وأخذ عمه أبو طالب بنصيحة الراهب ، وقفل به راجعاً مسرعاً ، خشية عليه ، مما خشي الراهب ، من أن يغتاله اليهود ، أو الرومان ، فعاد به الى قومه·

وانه في هذه الرحلة التجارية التي رغب فيها محمد صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم واستجـــاب له أبو طالب شفقـــة ورقة وملاطفة ، وهو يحسب أنهـــا من رغبات الصبيان ، وأجابه محبة وتدليلا يحسب أنه لا جد فيها ، ولا غاية ولكن الصبي يظهر أنه كان يريد منها الجد ،فيريد منها الاستعداد لعمل يعتمد فيـــه على نفسه ، ولا يكون كلا على عمـــــه المحدود في الرزق ، فهـــو يريد الكسب من عمل يده ·

واذا كان اليتم لم يقهر محمداً في نفسه ، اذ أعزه الله تعالى ، وأكرمه ، ولم يمكن أحداً من قهره فكان اليتيـــم العزيز المحبوب ، فان محمداً استفاد من اليتم ، الجد في طلب الرزق غير معتمد على أحـــــد غير ربه ، فنـــال من اليتم محاسنه ، ولم ينل اليتم منه بمساوئه ·

ذلك أن الثابت أن النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ الاعتمـــــاد على نفسه من بعد وقد رأينا أنه ابتدأ يرعى الغنم صبياً ، فلما تجـــاوز الصبا الى المراهقة اتجه الى صناعة أشراف مكة ،وهي التجارة ولم يذكر التاريخ في أي سن ابتدأ التجارة ، ولكن الأمارات تصور لنا أنه ابتدأ في سن مبكرة ·

أولا ــ لأنه رغب رغبة شديدة في أن يسافر الى قافلة التجارة ، ولا تفرض أنه طلب ذلك لمجرد متعة السفر ، فانه كان صبياً جاداً ، ولم يكن ممن يميلون الى المتع ·

وثانياً ــ لأنه كـــان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ، اذ كان كـــافله الذي كفله ، وهو أبو طالب فقيرا ·

## تجارته صلى الله عليه وسلم

١٠٥ ـ اتجه محمد الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعي ، وقد ثبت في المصادر التاريخية أنه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب ، واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم اليها ، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمح في معاملته، فكان لا يماري الذي لا يجادل في الشراء ، ولا يخفي الخبيث من البضائع ، ويظهر الطيب مماراة في تجارته ٠

وقد التقى به النبي عليه السلام عند فتح مكة ، فرحب به ، ووفى له بحق الرفقة القديمة في الاتجار ، وتلقاه مستبشراً مرحباً ، وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه في حاضره : « مرحباً بأخي وشريكي ، كان لا يشاري ولا يماري » ٠

ولم يذكر في التاريخ ما كان يتجرفيه ٠ لأن كتّاب السيرة لا يعنون في حياة النبي بحياته الانسانية بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة،وارهاصات النبوة ، وخوارق العادة الصادقة التي أحاطت بحياته في حله وترحاله ووجهتهم في ذلك أنهم يجعلون موضع الاهتمام في دراستهم هو ما امتاز به من يدرسون حياته ، ومثلهم في ذلك أن من يكتب في حياة رجل من النبغاء يعني بجهة نبوغه ، وموضع النبوغ ، ولا يعنى بالنواحي الأخرى الا لتصوير شخصه ٠

وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد رسول الله تعالى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله عليه السلام المثل الأعلى للانسانية كانت عناية كتاب سيرته الشريفة ، بما يتصل بالرسالة مما سبقها ولحقها ،وقليل منهم ما يكون اتجاهه الى نواحيه المتصلة به كانسان الا أن يكون لذلك اتصال بموضوع الرسالة ٠

وقد كان محمد في حياته الأولى راعياً للغنم ، أو تاجراً مثالا للأمانة والصدق ، وكان مرموقا من مكة ، وأخص ما امتاز به في حياته كلها الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ولطف العشرة ، وأنه موطأ الكنف يألف ويؤلف ، يفتح قلبه لكل عمل كريم ، ولا يضن على أحد بالمعونة ان لزمت ٠

كذلك كان في كل أعماله في الحياة ، وكذلك كان في تجارته ، حتى سمي الأمين ، وصار هذا اللقب علماً له مع اسمه ، فاذا أطلقت كلمة الأمين لا تنصرف الا اليه ، اذ هي لا تطلق الا عليه ، وان كل من يعمل بأمانة ،ويقول بصدق دونه في الأمانة والصدق ، وكان لذلك في مكان يعلو به على كل من في مكة من غير استعلاء ولا استكبار ٠

ولكن ما الذى كان يتجر فيه ؟ لا زال هذا السؤال يلح علينا ما دمنا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا ، ولكن يصح أن نسد الفراغ في هذا الجزء من تاريخه ، عليه السلام فانه يتجر في البضائع التي تتبادل داخل مكة ، ولا تذهب الى خارجها ، لأنه لم يعرف أنه خرج من مكة مع قافلة التجارة الى اليمن أو الشام ، فكانت تجارته عليه السلام مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق في داخل المدينة ، وما يفد اليها ، وقد كانت فيها أسواق تمتلىء بالتجار في موسم الحج ، وكون الحجيج يفدون من أقصى أرض العرب الى أدناها لابد أن يجعل فيها بضائع ترداليها مع الحجيج ، ويأخذ الحجيج من بضائع في مكة يعودون بها الى ديارهم ٠

واذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التي ينقلون فيها بضائع الروم الى الفرس و بضائع الفرس الى الروم ، فمكة كان فيها الاتجار في داخل البلاد العربية في موسم الحج ، ومنها بضائع الروم والفرس في البلاد العربية ، فكانت فيها الأسواق رائجة ٠

## مشاركته في الأمور الجامعة

١٠٦ ـ لم ينقطع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قومه في أعمالهم الجماعية ، اذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به ، فاذا كانوا على أمر جامع ذهب اليه ، وشارك فيه ما وسعته المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل ، أو لا يبشر بحق ، بل كان دائما مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل ، ينفض رأسه به ، من غير صخب ، ولا شحناء ، فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا المباغضة من خلقه ، بل هو في كل أحواله الودود الحليم ، وصاحب النفس الطيبة وكان يحضر دار الندوة اذا انعقدت،ويستمع الى كبراء العرب،فما يرضيه من قول الحق يستشرف اليه ، ويستبشر به ، وما لا يكون حقاً ، يبدو نفوره منه ، ولا يرتضيه ٠

جاء في كتاب زهر الآداب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صباه حضر ندوة قريش ، وقد حضر من اليمن كبارهم فنظر اليه قيل من أقيالهم ، ورأى فيه نظرات قوية أحيانا ، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى ، فقال :

مالي أرى هذا الغلام تارة ينظر اليكم بعيني لبؤة ، وأخرى بعيني عذراء خفرة ، والله لو أن نظرته الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم ، فؤادا فؤادا، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم ٠

لم يكن منقطعاً عن الحياة الجماعية، اذ أنه رسول الرحمة والمحبة ، وتأليف الجماعات ، فلابد أن يكون بينهم في الكريهة ، والرخاء ، لا يفترق عنهم الا اذا كان الاثم ، فانه يجانبه من غير مباغضة لأهله ، بل يهديهم الى الحق واجتناب الآثام ، فمحمد ليس من طبعه الاعتزال ، بل من طبعه الاتصال بالناس ، ليعرف مواطن الصحة ومواطن المرض ، فاعتزال الحياة والأحياء ليس من الطبع القوي ، بل هو من الضعف العصبي ، الا أن يكون لعبادة ، فانه ان اعتزل الناس استأنس بالله ، فيقدم من بعد ذلك على الناس ، وقد ادخر ٠

# حَرْب الفجّار

١٠٧ ـ الفجار مصدر فاجر ،فمصدر فاعل فعالا أو مفاعلة ، كقتال أو مقاتلة ، ونقاش ومناقشة ، والفجار معناه تبادل الفجور ، أي وقع كل من المتحاربين ، وكان الفجور الذي تبادله الفريقان ، هو أنهما أقدما على القتال في الشهر الحرام ، وابتداء القتال فيه كان حراما في الجاهلية ، ولعله بقية من بقايا ابراهيم عليه السلام ،ولذلك جاء الاسلام بتحريم ابتداء القتال فيه أو السير بالقتال فيه الالضرورة ، ولقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

والاشهر الحرم هي كما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهي ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان وكان القتال فيها حراما ليكون الأمن والاطمئنان في الحج الى البيت ، والعودة منه ، وكان رجب حرم فيه القتال ، لأنه شهر عمرة ٠

وقصة هذه الحرب ، التي انتهك فيها شهر الحرام كما جاءت في كتب السيرة ، أن رجلا من بني هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيراً للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحرير ،ومعنى إجارتها منع أي أحد من أن يعتدي عليها ، ويقال انها في جواره ،وتسمى هذه العير اللطيمة ٠

---

(١) التوبة ٠

فلما كانت هذه الاجارة كبر عـــلى بعض رجال كنانة أن يمنعها من كنانة ، وهو البراض بن قيس ، فقال غاضباً أتجيرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله ٠

فسار الرجلان ، وقد غافل البراض الكناني عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت الى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازن ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبي عليه السـلام رابعهـا ٠ وكان اليوم الذي حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم هو أشدها ٠

وقد توادع الفريقان على أن يستأنف القتال بينهما من العام القادم في عكاظ ٠

فلما توافوا في الميعاد ركب عتبة بن ربيعة جمله ، ونادى :

« يا معشر مضر علام تقاتلون ، فقالت هوازن ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا كيف ؟ قال فدى قتلاكم ( أي ندفع الدية عليها ) ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا ، قالوا ومن لنا بذلك ، قالوا ومن أنت ؟ قال أنا ابن عتبة بن ربيعة ، فدفع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجـلا ، فيهم حكيم بن حزام ، فلما رأوا الرهائن من الرجال بين أيديهم عفوا عن دياتهم ، وانقضت حرب الفجار بصلح كريم » ٠

١٠٨ ـ وهنا نسأل ماذا كانت سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله فيها ؟ وما الذي حمله على الذهاب اليها :

أما من ناحية سنه ، فنقول : ان ابن هشام يقول في سيرته : « ان سنه كانت بين الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، ويقـول ابن اسحـاق : انه كان في العشرين من عمره الكريم ٠

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحـا على الأخرى ، الا أن يـكون سند ابن اسحق أقوى ، فلقد قال الشافعي رضي الله عنه « الناس في السيرة عيال عـلى ابن اسحق » ولعله يكون مما يقوي خبر ابن هشام من السيرة أن أعمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخـذوه في هذا اليوم ، فهذا يدل على أنه لا يزال حدثاً ، ومن بلغ العشرين يكون رجلا ٠

ومهما يكن فاننا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجيء في حلف الفضول ·

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتـــال ، لأنها ليست حرباً عادلة ، وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل في حـرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين : فكلاهمـــا آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهـــر الذي رباه الله تعالى على عينه ، في حرب خالطها الاثم في سببها وفي زمانهـا ، وفي وقائعها ؟

لم يكن للنبي في هذه الحرب الا أنه شهدها بعد أن حمي وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ، ولعله كان يود مشاهـدتها ، لأن له قلباً طاهراً ، لا يسكن والناس في كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقم بعمـل فيه حرب ، ولقد قال عليه السـلام في عمله الدافع للأذى ، وليس فيه أحداث: « كنت أنبل على أعمامي ، أي أمنـع النبل عن أعمامي ، فهو كان درعـــا واقيـــة لأعمامه ، فلم يغمس يده في حرب الا أن يكون واقياً لذوي رحمـه كالئيه الذين رعوه حق الرعاية ·

ومهما يكن الأمر في شهوده تلك الحرب الآثمة ، حتى في نظـــر الذين أشعلوها ، فقد كان من النظّارة ، ولم يشترك الا أن يكون وقاية لذوي رحمه·

## حلف الفضول

١٠٩ ـ عاش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم اذ كان يتجه الى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينغمس فيه، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التي فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذي هداه الله تعالى اليه ، وأدبه بأدبه ٠

ومن ذلك حلف الفضول الذي قال فيه ابن كثير انه كان أكرم حلف وأشرفه في العرب ٠

وقد كان ذلك الحلف ، والنبي عليه السلام قد بلغ العشرين ، وقد أجمع الرواة على ذلك ، وقالوا انه كان بعد حرب الفجار كان حلف الفضول في شهر ذي القعدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أي أن الفجار كان في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان ، والحج قائم ، وشهر رجب ليس من أشهر الحج ، وان كان من الأشهر الحرم ٠

وقالوا ان سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه بني عبد الدار ، ومخزوما وجمحا ، وغيرهم ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان بهم علا جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته منشدا ٠

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع ببطن أرض الله ، وبجوار البيت المقدس الذي لا تخطف فيه الأموال ولا تضيع الحقوق، وأن الظلم بين الحجر ، وبين الحجر الاسود الذى يقدسونه ، ويشير الى أنه محرم للعمرة ٠

كان أول من استجاب لنداء الله ، وتقدم لاغاثته بنو عبد المطلب ، فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال ما لهذا مترك ، أي لا يصح أن يترك .

اجتمعت لهذا بطون بنى هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة في دار عبد الله ابن جدعان ، وكان جوادا ، فصنع لهم طعاما ، وكان ذلك في ذي القعدة الشهر الحرام .

تعاقدوا وتحالفوا ليكونن على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما وعلى التأسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) .

وقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ،فقد مشى المتعاهدون الى العاص بن وائل فانتزعوا من سلعة الزبيدى فدفعوها اليه ، وقد قال الزبير بن عبد المطلب معتزا به :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتوافقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

ولقد سر النبي عليه السلام لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنه ينفذه في الاسلام : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ولو دعي به في الاسلام لأجبت ، تحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها » .

وروي أنه عليه السلام قال : «ولقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ،ولو دعي به في الاسلام لأجبت » .

ولقد نفذ الحلف قبل بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيروى أن رجلا من خثعم قدم حاجا أو معتمرا ومعه ابنته من أوضأ الناس جمالا ، فأخذها عنوة منه نبيه بن الحجاج وغيبها ، فقال الخثعمي : من يعديني

---

(١) قيل انما سمى حلف الفضول لانه أشبه حلفاتحالفته،جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظلمه وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل وهم فضل بن فضاله والفضل بن الحارث والفضل بن وداعه ذكره ابن قتيبة،وقيل سمّي حلف الفضول لان أصحابه دخلوا في فضل من الامر التزموا به وقيل ان الفضول سمناهاالحقوق وتحالفوا على ردها .

على هذا الرجل ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى يا آل حلف الفضول ، فاذا هم يفيضون اليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون جاءك الغوث ، مالك ، فقال ان نبيها ظلمنى في بنتي ، وانتزعها مني قسرا ، فساروا معه ، حتى وقفوا على باب داره فخرج اليهم ، وما زالوا به حتى عادت الفتاة الى أبيها ٠

وان ذلك الحلف كان لازما ، لأن مكة كانت بلد العرب ، وثمرات العرب تجيء اليها ، فلا بد أن يستقر فيها الأمن ، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق ، ولا يكون فيها اعتداء حتى يجيء الناس اليها ٠

ولأنها يحج اليها الناس من كل فج عميق ، فلا بد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا تقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت ، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس ، فلا يكون الأمن للأرواح فقط ، بل يكون للأرواح ، وللأموال ، ولكل ما يحتاج اليه اطمئنان النفس ٠

١١٠ ـ بلغ محمد سن الزواج ،ولكنه لم يتزوج في سن مبكرة ، كغيره من الشباب ، بل استمر لا يتجه الى الزواج أو لا يفكر فيه ، حتى بلغ الخامسة والعشرين ، كما سنبين ٠

ولماذا لم يعرف أنه فكر في الزواج من قبل هذه السن،لقد كان عفا كريما، لم يقع منه في طفولته ما يشين الكرام وقد عصمه الله تعالى يوم هم ، وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما ، ولكن ربما يرى فيه حراما ، فصانه الله تعالى بأن ضربه بالنوم ، فنام الليلة كلها ، حتى أيقظته الشمس في ضحاها ٠

وهو ليس حصورا ، كما دلت على ذلك حياته من بعد ، وما كان خاملا في قومه ، بل هو الذي اذا خطب لا تردخطبته ، وكان فيه خلق قويم يجعل القلوب تهفو اليه ، وفيه جمال يجعل الأنظار تتعلق به ، وتشرئب الأعناق اليه ، وقريش كلها يحبه ٠ ويرضاه صهرا ٠

أكان فقيرا لا يجد ما يبوء به على أهله ؟ نعم انه لم يكن غنياً ، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملا، فرعى الغنم ، ثم اتجر ، واذا كان الاتجار لم يأته بمال موفور يرفعه الى الثراء ، فقد كان فيه الاكتفاء ، فلماذا اذن تأخر في الزواج ٠

ان الذي نلمسه من تاريخ حياته في ابتدائها ، حتى صار شابا ممتلىء الشباب أنه ما كان يعير شهوات البدن اهتماما فليس للنساء موضع في تفكيره ، انما يشغل النساء والطعام ،القلب الفارغ ، وما كان محمد في أي دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ، وشهوات النفس ، لا عن ضعف في النفس ، ولكن عن قوة فيها ،وهمة عالية تتجه الى معالي الأمور ،

وعزيمة صادقة ، وارادة قوية ، لاتجعل للهوى سلطانا عليها ، بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا ، هي التي تجذبها ، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولا تستولي على نفسه غاية يتغياها تتعلق بالبدن ، ولا مطلب من مطالب الجسد ،وان لم يتجه الى الحرمان في ذاته ·

وكأنه لا يعيش الا في حياة روحية من غير حرمان ، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد ، وان شئت تقول انه الملك المريد المكلف الذي لا يعصى الله ، لأنه يريد ألا يعصي ، فهو لا يعصي لامتناع المعصية عليه بل لأنه يكف النفس عنها ، فله في الكف فضل ،وليس كالملك يمتنع عليه العصيان ·

١١١ ـ لم يعرف أن محمداً يتكلم في صغره ، ولا في باكورة شبابه في أمر الزواج الا بعد أن نبه اليه ، وصار مطلوباً ، ولم يكن طالباً · ولنذكر الأخبار كما جاءت في كتب السيرة فيما يتعلق بزواجه من سيدة قريش ، كيف ابتدأت بالمشاركة في التجارة ،ثم بالمشاركة في الحياة ، اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه بالأمانة والخلق الكريم ، وتحدثت بأمانته الجماعات المكية في سمرها وفي مجالسها ، وكان قد مارس التجارة في دائرة محدودة في داخل مكة على قدر طاقته ، وما يملك ،وانه لقليل ·

وكان لخديجة مال كثير ، حتى ان عيرها الذى يحمل بضائعها ، كان يعادل عير قريش كلها في حجمه ، ونفاسة ما اشتمل عليه من بضائع التجار ·

وكانت حكيمة شريفة في قومها ،تحتفظ بجمال ، وشباب ، وكانت أرملة زوجا لرجلين قد ماتا ، وما كانت تتولى تجارتها بنفسها ، لأن ذلك لم يكن شأنا من شئون النساء ، بل السفر والترحال للاتجار كان من شئون الرجال ، لصعوبة السفر في هذا الابان ، وكما وصف السفر عبد الله بن عباس لولا الأثر لقلت ان العذاب قطعة من السفر وليس هو قطعة من العذاب ·

كانت خديجة مع قوة شخصيتها لهذه الاعتبارات لا تذهب بتجارتها الى الشام ، وكانت تسلك احدى طريقتين ـ احداهما ـ أن تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها في التجارة على أجر معلوم تعطيهم اياه ، على مقدار ما يبذلون من

جهد في الرحلة ، يبيعون ويشترون باسمها،ولا شأن لهم في كسب التجارة، وانما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن أو بالعمل أو بهما معا ٠

الثانية : طريقة المضاربة الشرعية، وذلك بأن يتجروا في المال بعقد بينها وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم ، مقسوما بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس ، أو نحو ذلك ،وملكيتها قائمة ، واذا خسرت التجارة تكون الخسارة عليها وحدها ، لأن المال باق على ملكيتها ، ويسمى هذا العقد المضاربة أو القراض ٠

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان الى أمانة كاملة ، فكانت تتحرى في اولئك العاملين لها الأمانة ، لأنهم في عملهم ينوبون عنها ، لا تلقاهم الا في ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قبلها من يكون معهم كميسرة مولاها ٠

ولما كان محمد يعمل في تجارة محدودة، وقد بلغها أمانته، وشرفه ، وعفته واستقامة نفسه اتجهت اليه ، وكان هو في مطارح أنظارها ، والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ، لم ترض غيره بديلا ، لأنه لم يكن له نظير بين العرب، في أمانته وعفته وشرف نفسه،وخلقه الكريم ، وبعده عن التدلي الى مهوى الرذيلة ٠

## تجارة محمد في مال خديجة

١١٢ ـ بينما هي تفكر في اختياره وكيلا عنها في رحلة القافلة التي تحمل عيرها مع غيرها كان أبو طالب عم النبي عليه السلام يفكر في أن يعرض محمدا عليها للعمل في تجارتها وكيلا ، ليبعد عن محمد جهد السنين الشديدة التي كانت في الأسرة ٠

ويظهر أنها كانت تبحث عمن تراه كفئا لحمل العبء ، ويتهافت عليها الطالبون ، فأشار أبو طالب على محمد القوي الأمين ، بأن يعرض نفسه مسارعا الى ذلك خشية أن يسبقه غيره،ولكن محمداً يرى في العرض ذلة لا يرضاها الكريم ، ومثار اتهام لا يرضاه الأمين ، فهو يريد عزة المطلوب ، لا ذلة الطالب ، ولننقل للقارىء الكريم المجاوبة التي كانت بين العم وابن الأخ:

قال أبو طالب : يابن أخى أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك ، يتجرون في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك ، وان كنت أكره أن تأتي الى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد بداً من ذلك ٠

فيقول محمد الأمين لعلها ترسل الي في ذلك ٠

فقال أبو طالب أخاف أن تولي غيرك (١) ٠

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته ، وتكونان محل قبول أو رفض ، لأن الأمين حقا وصدقا لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرا يتجر به ، ولكن الشرف في ذاته مطلوب ،والأمانة سجية ، لا يتخذها سبيلا للكسب ، وليس هو غايتها ، لا تطلب الا له ، ولكن تكون ثمرة طيبة ، كما تثمر الأرض الطيبة ، والشجرة اليانعة ٠

قيل انها بلغتها هذه المحاورة بين العم وابن الأخ ، فطلبته ، وانها كانت تعرف صدقه وأمانته وكرم أخلاقه ٠ وأنها ما كانت تعلم أنه يريد هذا ٠

وعندى أنها كانت تفكر فيه ، وأن رغبتها تلاقت مع رغبة عمه سواء أعلمت بالمحاورة أم لم تعلم ، واذا اراد الله تعالى أمرا تهيأت أسبابه ، وكان التوفيق بنجاحه ٠

أرسلت خديجة الى محمد تطلبه وقالت له :

« دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك » ٠

اننا نلمح من ثنايا السطور أنها كانت راغبة في أن تعهد اليه بتجارتها من ذات نفسها ، وأنها لرغبتها أعطته ضعف ما كانت تعطي غيره ، ولماذا ضاعفت الأجر ؟ الجواب عن ذلك أنها وقع في نفسها أن التجارة ستكون

---

(١) المناقشة فى شرح المواهب اللدنية ٠

رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجعه على الحرص ، وربما تكون رغبة خفية ، جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ،وأخفت مالا تبديه مما جرى من خير بعد ذلك ٠

ولقد سارع محمد عليه السلام ، الى عمه الحبيب يخبره بما جرى ، لأنه طلبته ، فسر عمه ، وقال له « ان هذارزق ساقه الله تعالى اليك » ٠

١١٣ ـ فصلت العير ، وفيها خير خلق الله تعالى ، تكلؤها عنايته سبحانه وتعالى ، ولم تكن سفراً قاصداً بل كان فيها مشقة ، وان لم يكن فيها عنت فوق الطاقة ، وكانت عير خديجة وحدها ، تبلغ عير قريش كما أشرنا حتى بلغت سوق بصرى التي بلغتها القافلة الاولى التي كان فيها محمد ( عليه السلام ) مع عمه أبي طالب ، وهو في الثانية عشرة من عمره ٠

وروى أنه وصل الى سوق « حباشة » وهى أرض بتهامة ، ولكن الرواية الأولى هي المشهورة وهي أقرب الى التصديق ، أو هي الصادقة ، لأن تهامة من أرض العرب ، والرحلة كانت الى الشام ، اذ كانت العير حاملة البضائع الى الشام ، لا الى العرب ٠

وكان معه ميسرة مولى خديجة ، لا ليرقبه ، فما كان يتصور منها ذلك بالنسبة للنبي عليه السلام ، ولكن ليخدمه وليعينه في حله وترحاله ٠

وكان خروج العير أو وصولها لأربع عشرة بقيت من ذى الحجة (١) ، وله عليه السلام خمس وعشرون سنة ٠

وكأن هذه العير خرجت بعد قيام الأسواق التي تقام في مكة أيام الحج ، عكاظ ، وذي المجاز ، ومجنة ، وهذا يومىء الى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق التى تجىء من اليمن ، وسائر نواحي العرب ، قاصيها ودانيها ، وذهبت الى الشام محملة بها ، وكانت البضائع تباع في مكة ، لتنقل من بعد الى الشام ، أو الى اليمن ٠

(١) المواهب اللدنية للعسقلانى وشرحها جـ ١ ص ١٩٨ ٠

ولما وصلت العير الى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد فأوى الى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورا ،وهو غير راهب الرحلة التي كانت مع عمه ، اذ الأول اسمه بحيرا ، وهذا اسمه نسطورا وقد مضى على الأولى نحو ثلاث عشرة سنة ربما يكون الأول قدمات ، أو غير صومعته ٠

التقى الراهب بميسرة غلام خديجة، والذى كان في معونة محمد عليه السلام وخدمته ، وقال له : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ، وكأن هذه الشجرة منذ القدم هي منزل الأنبياء ينزلون في ظلها وغيرهم ينصرفون ، ولا يلوون عليها ٠ وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بين محمد عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ،والشجرة في نظر هؤلاء المستبعدين لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل ، وليس من المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السيارة في الطريق الطويل وفيه الظل والحرور ، اللهم الا أن يقال ان هذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الايواء اليها غيرهم، ويجيء اليها النبيون كأنهم مأمورون بالايواء » ٠

ولهذا الاستبعاد فسر الأكثرون كلام الراهب بأنه ما نزل الآن في هذه الساعة تحت هذه الشجرة الا نبي فهو يخص محمدا بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذي نزل الآن ، لأمارات عنده ٠

وربما نميل الى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل على تخصيص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وانما التخصص في الاكرام الشخصي ٠ والأمارات الظاهرة فيه (١) ٠

وقد قيل في هذه الرحلة انه كان كلما اشتد الحر ، كان يرى ميسرة ملكين يظلانه من الشمس ، وبعيره يحمله ٠

وليس لنا أن ننفى ذلك الخارق للعادة اذا روى بسند صحيح ، لا مجال للريب فيه ، ولكن في رواية ذلك كلام ٠

---

(١) يروى أن الراهب لما رآه دنا اليه وقبل رأسه وقدميه وقال له :آمنت بك واشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة فلما راى الخاتم قبله ، وقال أشهد أنك رسول الله تعالى النبى الأمى الذى بشر بك عيسى الى آخر ما قال ويروى أنه فى أثناء تجارته اختلف على بعض معامليه فقال الرجل احلف باللات والعزى فقال ما حلفت بهما قال القول قولك ٠

أقام محمد عليه السلام في الشام حتى باع أحمال العير الخاص بخديجة ، ثم بثمن ما باع اشترى بضائع من الشام ، وقفل راجعاً بها الى مكة ٠

والربح يتعرف بمقدار الثمن الذى تبيع به لينقله التجار في قافلة تذهب الى اليمن ، وقد باع كل البضائع التي اشتراها في مكة ، فكان الثمن ضعف رأس المال الذى كانت المتاجر التي ذهب بها محمد ( عليه السلام ) فكأن الكسب كان مثل رأس المال ٠

وان ذلك بفضل أمانة محمد عليه السلام ، وحرصه في التجارة ، وبفضل ماهو أعظم من ذلك وهو البركة التي فاضت على محمد ( عليه السلام ) فيما يعمل ٠

الأمـــلاك :

١١٤ ــ ان ميسرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما رأى من طيب نفسه، ومن لطف عشرته ، ومن حسن معاملته ومن سماحته ٠ ومن أنه موطأ الكنف يألف ، ويؤلف ، مع شرف محتده ، ومكارم أخلاقه العامة والخاصة ، ولعله أخبرها أيضا بما كان من لقاء الراهب به ، ومن اكرام الله تعالى في الحر ، وما حسبه ملكين يظلانه في الحرور اذا اشتد ، وغير ذلك من ارهاصات ٠

ثم ما كانت ترى من مكانة له في قريش ، ومحبة غامرة له من كل من يلقاه ، فهو المحبوب المألوف ٠

كل هذا أوجد فيها طموحا لأن تكون زوجا له ، وأن تكون أما لأطهر الاولاد من أطهر الرجال ، ورغبت في ذلك أشد الرغبة ، وهي التي بعد هلاك زوجيها الأولين اللذين كانت لها منهما الولد ــ كثر طلاب يدها من أشراف مكة ، ولكنها العزوف العيوف التي ردت كل طلب مع كثرة من طلب ، وعلو أقدارهم المادية في نظر الناس ، والنسبية في نظر ذوي الأنساب ٠

ولكنها وجدت في الشاب الهاشمي محمد ( عليه السلام ) ما ليس في الرجال شيبا وشبانا ــ فرغبت في الاملاك منه في غير عشق ولا هيام ، ولا رعونة وطيش ، ولكن في ارادة مقدرة ، وتفكير في الماضى والحاضر والقابل ، فقد علت خديجة عن حال العشاق ، ولم يكن سنها ، ولا شرفها ،

ولا مكانتها في قريش لتسمح أن يغريها من الصفات ما يغـــرى الغريرات من النساء ٠

ولكن محمداً ( عليه السلام ) هـل طمع في الزواج منها أو من غيرها ؟ أو هل حدثته نفسه بمعنى من المعانى ،أو هاجسة من هذه الهواجس ؟ انه لم يثبت شيء من ذلك ، لأن محمداً ( عليه السلام ) ما خلب كبده أمر من أمور اللذائذ والشهوات وما يتصـــل بها ،ولـــكنه اذا نبه يتنبـــه ، فكان لابد من منبه ٠

١١٥ ــ أدركت بفطنتها وغريزتها أنه لابد من أن ينبه ، فتولت هي ذلك الأمر ، وللنساء فيه قدرة ، وان كانت من مثل خديجة فيه مواجهة واحتشـام من غير اسفاف ٠

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبه محمداً ( عليه السلام ) ولتجس نبضه ، وقد فعلت ، ولنترك الكلمة لها :

قالت كانت خـــديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بهـــا من الـكرامة والخير ، وهي أوسط قريش نسباً ٠ وأعظمهم شرفا ، وأكثرهـــم مالا ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحهـــا ، لو قدر على ذلك ، طلبوها ، وبذلوا لها الأمـــوال ٠٠ فأرسلتنى دسيسا الى محمد ( صلى الله تعالى عليـه وسلم ) بعد أن رجع في عـــيرها من الشام ، فقلت يا محمد ( عليه السلام) ما يمنعك أن تتزوج ٠٠ قال : « ما بيدى ما أتزوج به ، قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المـــال والجمـــال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ٠ قال فمن هي ؟ قلت خديجـــة قال وكيف لي بذلك ،فذهبت فأخبرتها فأرسلت اليه أن ائت لساعة كذا » ذهب محمد ( عليه السلام) للقائها ، فواجهت الأمر ، وخاطبته بعد أن استوثقت من أنه لا يردها ، فقـــالت« يا بن عم انى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) فى قـــومك ، وأمانتك ،وحسن خلقك ، وصدق حديثك » وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، وان لم يكن ذلك القبول في عقـــد ، بـــل هو خطبة ٠

---

(١) أى بوسطك ، وكونك من أوسط قدرك أى أعلاهم نسبا ٠

والسيدة الكريمة الحازمة لم تترك الأمر بينهما، بل لابد من تلاقي الأسرتين بعد ، وتلاقي الارادتين ، وتوافق الرغبتين • لأن الزواج اتصال أسرتين ، لا مجرد اتصال فردين •

ولذا قالت لمحمد ( عليه السلام ) اذهب الى عمك ، فقل له : « عجل الينا بالغداة » •

جاء اليها أبو طالب ، فقالت له يا أبا طالب اذهب الى عمي ، فقل له يزوجني من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه ، وقال : « هذا صنع الله » •

١١٦ ـ تمت الخطبة ، وتراضت الأسرة ، وكان يوم الزواج ، وكان الصداق اثنتي عشرة أوقية من ذهب و نصف أوقية •

اجتمع رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرافها لاتمام العقد ، وكان وكيل الزوج عمها ، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد ( عليه السلام ) وقف أبو طالب خطيباً ، وقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء معد (١) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخى هذا محمد ابن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا يوزن برجل الا رجح به ، وان كان في المال قلا فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد ( صلى الله عليه وسلم ) من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهبا ونشا (٢) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل ، ويظهر انه كان له ما يسوغ أن يعقد (٣) ، من قبلها وخطب قائلا فقال :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس

---

(١) ضئضىء معناها أصل •
(٢) نشا أى نصف أوقية •
(٣) كان ابن عمها •

فخركم ، ولا شرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم ، وشرفكم فاشهدوا يا معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم ) ٠

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمها بالقبول ، لأنه أقرب اليها من ورقة فقال : « قد أحببت أن يشركك عمها ،فقال عمها : اشهدوا على يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله( صلى الله عليه وسلم ) خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش»ومن هذا كله يتبين أن الذي تولى تزويجها عمها عمرو بن أسد ، وشركه ابن عمها ورقة بن نوفل (١) ٠

والمشهور بين العلماء وأصحاب السير والتاريخ أن سنه عليه السلام في وقت الزواج كانت خمساً وعشرين سنة ،وكانت هي في الأربعين من عمرها ٠

ولقد كانت أقوال أخرى في سنهما عند الزواج ، ولم يبلغ واحد منها مرتبة الشهرة ، فقيل ان سنه عليه السلام كانت الحادية والعشرين ،وقيل كانت التاسعة والعشرين ، وقيل كانت الثلاثين وقال ابن جريح كانت السابعة والثلاثين ٠

---

(١) ننبه هنا الى أمرين ــ أولهما ــ أننا اعتمدنا فى تقدير المهر على ما جاء فى خطبة أبى طالب ، وجاء فى بعض كتب السيرة أنه أمهرها عشرين بكرا ، أى أنه ذكر أن المهر كان بالنوق ، وقد جمعوا بين التقديرين بأن الثانى كان قدزاده النبى عليه السلام ، لان الكرام يزيدون على ما هو مفروض ، وقد يقال ان المذكور من الذهب هو تقدير القيمة ٠

الامر الثانى ــ أن المشهور المعروف أن الذى زوجها هو عمها عمرو ، وهو المشهور ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد ، والاول هو الذى عليه المعول ، ولا التفات لغيره ٠

وما ذكره ابن اسحاق من أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح ، لان خويلدا قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولان الخبر بأن الذى يقول أن الذى زوجها هو أبوها، تضمن ما يدل على كذبه ، فقد قال رواته ان أباها كان سكران من الخمر ، ركله وهو سكران ،فألقت عليه حلة وضمخته بالطيب فلما استفاق ، قال ما هذه الحلة والطيب ، فقالت قد أنكحت منى محمدا ، فأنكر ثم لما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وافق ٠

وان احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو سكران يستنكره العرف والعقل ، ولا يمكن أن يقدم عليه أبو طالب ،وهو كبير ومسن ، ووكيل النبى صلى الله عليه وسلم فى الزواج ٠

وهذه أقوال ليس لها سند ، والمشهور هو المعتمد ، حتى يقوم الدليل على خلافه ، وذلك فوق أن بعضها لا يتلاقى مع النسق التاريخي ، ذلك أن المتفق عليه أن الزواج لم يكن فور حرب الفجار ، بل كان بعده بمدة ، ولو كان في الحادية والعشرين ، لكان فوره ، والتقدير بالسابعة والثلاثين بعيد التصديق اذ مؤداه أن محمداً عليه السلام عاش راهباً الى أن بلغ السابعة والثلاثين ، وان بناته غير فاطمة تزوجن قبل الهجرة ، وبعضهن تزوجت وطلقت، ثم تزوجت، ولو كان زواجه في السابعة والثلاثين ما كن بلغن سن الزواج قبل الهجرة ، وخصوصاً أنه ما كان أول أولاده من أم المؤمنين خديجة أنثى ، بل ولده القاسم الذى كان يكنى به ثم ابنه الطيب ثم الطاهر وهكذا ، نرى أن السياق التاريخي لا يتسق الا مع المشهور ، وهو ذو السند ، ولا سند لغيره .

وأما سنها ، فقد كان المشهور أربعين ، وقيل كانت في الخامسة والثلاثين ، وقيل كانت في الخامسة والعشرين ، ولا سند لهذه الأقوال ، ولكن التاريخ يعتمد دائماً على المشهور الذي له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السير في أن سنها رضي الله تعالى عنها ، وجزاها عن الاسلام خيراً كانت أربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققون .

ولسنا من الذين يتجهون الى الاغراب ، لأن الاغراب ان كان سائغاً في بعض العلوم ، فهو لا يسوغ قط في التاريخ ، لأن تتبع الاغراب في التاريخ انكار لما اشتهر ، وارتضاء بمالم يشتهر من غير سند ، ان الحقائق هي الأمور المشهورة ، ويرد ما عداها، الا اذا قام الدليل المكذب للمشهور بما لا يقل عنه قوة ، والله تعالى أعلم .

## أغناه الله وواساه :

١١٧ ـ ولد محمد يتيما ، وعاش يتيما ، ثم آتاه الله تعالى اليسر الكامل ، وكفاه العيش الكادح ، رعى الغنم ودبر التجارة ، ثم بسط الله تعالى له الرزق ، وآتاه الزوج الوفية الرضية ، فأكمل الله بها انسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا في قطع فيافي هذا الوجود ، وكمل كل منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هي امرأة شريفة ، ذات ثراء ، وهو رجل مكتمل عامل قوي أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجه مالها الى الخير ، بحسن نيته وطيب طويته .

وقد كان يعمل لها في المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالها على يديه أضعاف ماينتج غيره ، وكان عبداً شكوراً ، ولو استمر في هذه الطريق يعمل في مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغي المال وأعراض هذه الدنيا ، لنال الشباب والمال معاً .

ولكنه رأى أن يعمل في مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولده ، لطيب عرفها وشرف نفسها ، وقد تخير لنطفته ، فاختار أكمل امرأة في قريش ، وأعلاها في المكرمات كعباً ، وقد اختارها الله تعالى له لتكون له ردءا في شدائده ، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان ، في وقت قد اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ، فأعنته المخالفون ، وكان عزيزاً عليه أن يعنتهم ، فكان في حاجة الى من يأوي اليه كما هو في حاجة الى من يذود عنه .

واذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين ، فامرأة محمد عليه السلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطوف الولود ، يلقى قريشا وصدودها ، وعداوتها وجفوتها ، فاذا آوى الى بيته وجد برداً وسلاماً .

واذا كان قد فقد عطف الأم الرؤوم في صدر حياته في وقت الحاجة ، فقد عوضه الله تعالى في خديجة زوجا وأما ورفيقة الحياة .

١١٨ ـ أغنى الله اليتيم :

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

فهل طغى واستعلى ، هل عبث وتلهى ، هل اتخذ الحياة لهوا ولعبا ، هل أخذ في التكاثر ، والمكاثرة! لاشيء من ذلك، انما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذه سبيلا للخير وعون الانسان لأخيه الانسان ٠

ومحمد ( عليه السلام ) ما اتخذ المال بغية يبتغيها ، ولا غاية يتطلع اليها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه في أي دور من أدوار حياته ٠

انما اتخذه وسيلة للمكرمات يقوم بها ، وللخير يسديه ، فكان يطعم الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة الى العون الا أعانه ، ولا ذا خصاصة الا سدها ، ولا ذا مسغبة الا أشبعه ، ولا ذا مترية الا رفعه كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فيرأب ثلمتها ٠

تلفت فيمن حوله ، فرأى كافله وحبيبه أبا طالب في ضيق ، وعيلة ، فجاء الى عمه العباس وكان ذا ثراء ،وقال له هلا أخذ بعض ولد أبي طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضا عليه الأمر فقال اتركا لي عقيلا ، وخذا من شئتما فأخذ محمد علياً ، وأخذ العباس جعفراً، فكان على ولده الذي تربى في مهد النبوة ٠

وكل من حول محمد كانوا ممدودين بعونه وفضله ، وخلقه ، فكأنه استولى على مال خديجة ليوزع في الخير ثمراته وليكون خيره عميماً ، وفضله كثيراً ٠

وبينما كانت قريش تكسب بالرباوالبيع الحلال ، وتشبه أحدهما بالآخر، فتقول البيع مثل الربا ، كان محمد يتجر في الحلال ، ولا يكسب من اثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير ٠

---

(١) الضحى ٠

وهنا يسأل سؤال لماذا ابتدأ بالقل، وانتهى بالكثر ! والجواب ان حياة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها قبل البعثة البشرية الكاملة في كل أحوالها في سرائها وضرائها ، في كريهتها ، ومنشطها ، في ضيقها ورخائها، فلم يتربه الفقر ولم يذله القل ، بل صبر عزيزاً ، وقنع كريماً ، وجد ليكسب قوته ، وحاول أن يخرج من ضيق الفقر بقوة العمل ، ومن ضنك العيش ببحبوحة النفس ، وغناها ،فكان الفقير العزيز الكريم العامل المكتسب المتين ، فلم يقل في فقره ربي أهانن ،وعاش مع الضعفاء شاعراً بضعفهم · وباحساسهم ، لا يسير وراء الأماني والأحلام ·

ثم اختبره الله تعالى بالمال ، فكان الشاكر ، الذي يفيض بالخير على غيره ، ويعلم حق المال ، في مورده ، ومصرفه معاً ، فلا يكسب الا من طيب ، ولا ينفقه الا في طيب ، وهو في كسبه وانفاقه لا يكون الا نافعاً ، فكسبه طيب ، وصرفه طيب ·

وثبت من النظر الاجتماعي أن الكسب الطيب هو الذي يكون بطريق فيها نفع عام ، فالزراعة كسب طيب ،لأن فيها تقديم الغذاء والكساء مما تخرج الأرض من زروع وأثمار ،والعمل باليد فيه كسب طيب ، لأن فيه نفعاً عاماً بالصناعات النافعة ، والاتجار كسب طيب ، لأن فيه الجلب للناس من أماكن لا يخرجون اليها وفيه توزيع خيرات الأرض على أهل الأرض لا يحرم منها اقليم ، ولا يستطيل بالقوة المادية فيها طاغ ·

وأخيرا محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) ضرب للناس في بشريته قبل البعثة للناس أعلى مثل للفقير الصابر العامل في فقره ، والغني الشاكر الذي عاش كالضعفاء في غناه ، فكان غني النفس في الحالين ·

١١٩ ـ وان محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن استقامت لديه أسباب الرزق لم يتجه الى اللذات يشتار عسلها ويقرع منها بل كان الزاهد في غير الحلال المعروف الذى لا يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، بل كان زاهدا غير محروما ، وطالباً للطيبات غير مبتغيها ، لأن الابتغاء قد يدفع الى اشتهائها ·

وهناك أمر آخر ، كان يجعل المـال غير ذي شأن الا بالقدر الذى يعين على مكارم الأخلاق ، والنفع لبنى الانسان وهو ابتعاده عن كل أوهام الجاهلية ، وأحقادها ، ومنازعاتها ·

وفي وسط بحبوحة العيش ، ومن غير ترفه ، قد أخـذ يدرس الكـون وما فيه ، ومن فيه ، وما وراء الـكون من أسرار الوجود ، مبتعداً عن الوثنية، وما حولها ، مستنكرا عبادتها ، غـير مستسلم لتوهـم أن فيهـا تأثيراً في الانسان ·

فما سجد لصنم قط ، وما أغواه شرقط ، بل كان الطيب الوادع الأمين ·

وكان قوياً في بدنه ، غير مسترخ في عضله ، فهو يصارع ركانة أقـوى أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء ، ماعرف عنه قبل البعثة أنه اعتدى عـلى انسان ، وما تناول بيده مخلوقا قط ،فما عرف أنه دخل في شحناء ، لأنها لم تكن من شأنه ، وما أشر ، وما تكبر ،وما طغى ·

واذا كان موسى القوي قد أثر أنه وكـز مصرياً اضطهد اسرائيلياً فقتله ، لاعتدائه على أحد من شيعته ، ولم يكن ظالماً ، فما عرف عن محمد أنه تناول انساناً عدواً أو ولياً بأذى قط ، ولكل فضل ، وقـد فضـل الله تعـالى بعض النبيين ، على بعض فما كانت قوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أحد ، بل كانت قوته لله تعالى ، وللانسـانية ثم لقومه من غير اعتداء ·

## إعـادة بنـاء الكعبـة :

١٢٠ ـ ما من أمر جامع فيه خير في ذاته ، وللناس كافة ، الا اشترك فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل ، وان قريشاً ، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا يهي ولا ينقطع ، لأنه يتجدد آنا بعد آن ، وهو يتكون من عنصرين أحدهما الكعبة التي بناها ابراهيم ، وهي بيت وضع للناس ، والحج اليها ، واقامة المناسك فيها .

ثانيهما ـ اعتقادهم أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة ، لا يتركونها ، ولا يقطعونها وخصوصاً قريشاً ، اذ وجدوا فيه عزهم الذي يعتزون ، وشرفهم الذي يتنافرون به أمام العرب جميعاً ، ويجعل لهم سيادة وحكما ، وحسبهم أن العرب يتقاتلون الا في أرضهم ، فاذا جاءوا اليهم كانوا في حرم آمن كما من الله سبحانه وتعالى عليهم ، فقال تعالى كلماته :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

وقد أصاب وهن بناء الكعبة ، فأرادت قريش أن تجدد بناءها ، وكان ذلك بعد عشر سنين من تزوج محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من أم المؤمنين خديجة وكان النبي قد بلغ الخامسة والثلاثين رجلا سويا .

ولم يكن قبل تزوجه كما توهم بعض الرواة من غير سند صحيح .

وبذلك كان بناء الكعبة قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) العنكبوت

بخمس سنين اذ أن البعث كان فى الأربعين وتجديد البناء كان في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف ٠

وكان التجديد ليكون على ما بناه ابراهيم عليه السلام ، وان قريشاً أخذت لهذا البناء أهبته ، واتفقت على ألا يكون البناء الا من مال طيب لا خبث فيه ، وأن يكون العمل بنية طيبة خالصة ٠

وقد قال في ذلك ابن كثير : « كانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس ، وشرفا لهم » لذلك أرادوا بناءها لما خشوا عليها من التهدم ، وقد قال أحد كبراء بني مخزوم ، عندما هموا ببنائها :

« يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس » (١) ٠

١٢١ ـ هذا السياق يدل على مدى تأثرهم بالكعبة وتعظيمهم لها ، ومكانتها عندهم ويدل أيضا على أن الكعبة الشريفة واتصالها بابراهيم جعلت حبلهم موصولا به ، وأوجد ذلك فيهم نوعا من الوجدان الحي ، كان هو النبت الذي صار زرع الايمان والتوحيد من بعد ذلك ٠

وان ذلك يستدعينا أن نرجع الى ابراهيم لنرى كيف كان البناء الأول للبيت ، ثم ننزل من بعد ذلك الى ماكان من بعد ٠

ان ابراهيم أول من بنى البيت ، ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق مايشير الى أنها قد بنيت من قبل ابراهيم عليه السلام ، وقد قال في ذلك ابن كثير رضي الله عنه :

« لم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل ، عليه السلام ، ومن تمسك بهذا بقوله تعالى مكان البيت ، فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر له في علم الله المقرر في قدر المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم » ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٠

ثم يقول عما قيل من أن آدم عندما نزل الى الأرض نصب قبته فيها ، وأن الملائكة قد قالوا طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما : « ولكن كل هذه الأخبار عن بني اسرائيل ، وقد قررنا أنها لا تصدق ، ولا تكذب » وينتهي من هذا ابن كثير الى أن التاريخ الاسلامي لا يعرف بانيا للكعبة قبل ابراهيم عليه السلام ، واننا نقف حيث وقف ولا نسير وراء أوهام أو أساطير لم يوجد من التاريخ الصادق ما يوثقها ، ولا من الكتب الدينية الثابتة الصحيحة ما يؤيدها فلا نهيم في ظنون ، وان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وقد بينا أن البقعة في ذاتها قبل البناء عليها كانت معروفة في التواريخ القديمة ، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير ، فقال ان بقعة البيت الحرام كانت معظمة من قبل بناء ابراهيم ، فقال : « وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرفة في سائر الأعصار والأوقات » .

وان ذلك كلام حق اذ أن نص القرآن الكريم يومىء الى أن البيت كان له مكان مقدر قبل أن يبنيه خليل الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ، وقد قال تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

فكلمة بوأنا تومىء الى أن الله تعالى قدر لهذا البيت مكانا من قبل وهدى اليه ابراهيم عليه السلام .

واننا اذا انتهينا الى ما قرره ابن كثير وغيره من أن مكان البيت كان معتنى به ، وكان معظما ومشرفا ، قبل ابراهيم عليه السلام ، فانا قد نحسب أن تكون بناية قد أقيمت حوله للعناية به ، ولحفظه من أن يضيع في غيره ، ولكن من هم الذين بنوه ، وما مدى ما فعلوا ؟ ان ذلك هو المسكوت عنه ، والبحث عنه من غير وسائل معرفة من كتاب معصوم ، أو تاريخ وثيق رجم بالغيب وتظنن في غير مظنة .

---

(١) الحج .

ولعل فضول العلم تجعلنا نتساءل أيهما بني أولا ، البيت الحرام أم المسجد الأقصى ، فنجيب انه من المؤكـــد أن البيت الحرام الذى بناه هو ابراهيـم ، وقيل ان الذى بنى بيت المقدس هـــو يعقوب حفيد ابراهيم ، وقيل بني من بعد ذلك ، وقد ثبت في الصحيحين عن أبى ذر : قلت يا رسول الله « أي مسجد وضع أول : قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى » .

ولابد أن نتصور أنه بعد أن بناه ابراهيم خليل الله تعالى ، قد جرت فيه اصلاحات كثيرة ، فما كان بناء ابراهيم عليه السلام ليستمر قائماً ، غير قابل للتهدم أكثر من ألفي سنة ، فلم يـكن كالأهرام بناه فرعون الذي اغتصب كل القوى في بنائه ولـكن بناه ابراهيم الخليل هو وابنه الذبيح من غـــير أن يجرى فيه غصب حجر أو مدر أو وبر، أو قوة أي انسان .

## بنـــاء قـــريش :

١٢٢ ـ اتجهت قريش بعزمة ماضية ، وان شئت فقل مخلصة طاهـرة الى بناء البيت بجهود أبنائها ، وأموالهم الطيبة التي لا خبث فيها ، فليس ثمن دم مغصوب ، ولا ربا ، ولا مهر بغي ،ودخلوا غير متنازعين ، ولا متخاصمين ، ولا متخاذلين أعدوا لذلك العمل الخطير في معناه ، وان لم يكن البناء كبيراً في ذاته بين الأبنية التي كانت تجري في ارم ذات العماد ، وفرعون ذي الأوتاد، ولكنها أقدس ما بنى البشر ، وما أقام أهل الحضر والمدر والوبر لأنها الكعبة أول بيت وضع للناس مباركاً ٠

تقدموا للهدم ثم البناء ، ويظهر أن قدم العهد بالبناء والأحجار ، قـــد جعل بعض الهوام يعيش على مقـــربة منه ، فقد زعموا أنهم قد رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبهـا ، فأشفقوا منها اشفاقاً شديداً وخشـوا أن يكونوا قد وقعوا منها في هلكة ،ووقفوا حيارى لا يقـــدمون ، فلما سقط في أيديهم ، والتبس عليهم الأمر ، حسبوا أن يكون ذلك لتأثمهم عند البناء باثم ، أو ليس في مالهم طهر ، أو في العمل الذى أعدوه خبث ، أو أن في النفوس شيئاً ، عندئذ وقف المغيرة المخزومى ،ينصح لهم بعدم التحاسد والتشـاجر ، وأن يقتسموا ، ثم جـددوا العزيمة ،« وقد جاء في تاريخ الحافظ ابن كثير أنهم لما عـزموا ذهبت الحية ، وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل٠

وان خبر الحية ان صح نقول اما أن تكون قد ركنت الى بعض أحجـــار الكعبة ويصح أن المولى جل جلاله سيرها اليهم لا من السماء ، ولكن من مكان آخر ، ليفزعوا ، ولتتطهر قلوبهم من رجس الجاهلية عند بنائها ، فهي بيت الله الذى بناه بأمره نبيه ابراهيم عليه السلام ، فلابد أن يبنى بأطهـــار على الأقل في ساعة بنائه ، وقـد قامـــوا بتطهير أنفسهم ، وتطهير أموالهـــم ، وتولوا بأنفسهم اقامة البناء ٠

اقتسموا البناء أرباعا ، فكان الربع الأول الذى فيه شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وبنو مخزوم لهم ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى ومعهم بطون من قريش انضموا اليهم ، وظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي وبني أسد بن عبد العزى وبني عدي ، وهو الحطيم (١) .

وبعد أن قسموا هذا التقسيم ، وارتضته القلوب كان يجب أن يبتدىء العمل بالهدم أولا ، ثم البناء ثانيا ، ولكن لهيبة الكعبة في نفوسهم ولعجزهم عن أن يعرفوا أهذه ارادة الله رب البيت وحاميه ، أم هي أهواؤهم الدافعة الى أن يفعلوا ـ هابوا أن يهدموا .

عند هذا التردد والتلكؤ تقدم الوليد المخزومي ، وحمل المعول ، وقال اتقدمكم ، وهو يقول : اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم ناحية من الركنين ( الركن الأسود والركن اليماني ) وهما حصة بني مخزوم ، ومع ذلك لم يتقدم كل ذي حصة من حصته ليهدمها .

صبح الوليد معتزما من غداته متمماً ما بدأ بمعوله ، فأخذ يهدم الناس معه ، كل يهدم ما في حصته وأخذوا يهدمون ، حتى رأوا أساس البناء الذى وضعه خليل الله عليه السلام .

ومن مقتضى الفطرة التي لم يأت بها رسول أن تجري أوهام كثيرة ، وأن تروى أخبار حول هذه الأوهام ، وانا نضرب عن كل ذلك صفحا .

١٢٣ ـ وانهم قد أخذوا من بعد ذلك في اقامته ، ويظهر أنه قد عاونهم في الرسم والبناء رجل قبطي اسمه ( باقوم ) ، فهو الذى وضع هندسة البناء ، وكان مولى لبني أمية .

وقد قام كل فريق بحصته في البناء ، وقد اشترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان زميلا في العمل لعمه العباس بن عبد المطلب ، وقد روى الشيخان ( البخارى ومسلم ) في ذلك عن جابر أنه « لما بنيت ذهب النبي

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٠٢ .

صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : اجعل ازارك على رقبتك يقيك من الحجارة ففعل فخر الى الأرض ، وطمحت عينه الى السماء ، ثم أفاق ، فقال ازاري ازاري ، فشد عليه ازاره ، فما رؤي بعد ذلك عريانا » .

هذا حديث صحيح ، روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سقناه لبيان أن محمداً عليه الصلاة والسلام اشترك في أشرف عمل قامت به قريش، وهو في شرخ الشباب ، وحمل الحجارة ، وأنه لم يأخذه الترف قط ، وأنه لم يفكه في نعيم المال ، فكانت حياته حياة الأقوياء وان الخبر يدل على أن الله تعالى كان يرعاه ، وقد رباه على عينه ، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس ، ووضع بعض ثوبه على رقبته ، انكشف بعض عورته، فطمحت عينه الى السماء ، وأصابته غشية اتصال بالملأ الأعلى ، وسترت عورته ، فقد كان في حراسة الله سبحانه وتعالى ، وحياطته .

ولا نرد الخبر لما فيه من غرابة ، فقد رواه الشيخان البخارى ومسلم بسند صحيح ، وما يروى بسند صحيح لا يرد لمجرد غرابته على الحس والأسباب المسببات ، انما يرد لوجود دليل يثبت أن ذلك مستحيل ، والأمر في قدرة الله تعالى خالق الأسباب والمسببات ، ومانح كل من في الوجود نعمة الوجود.

لقد أتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذى بنوه ثمانية عشر ذراعا وأخرجوا منه الحجر ، وهو ستة أذرع ، أو سبعة من ناحية الشام ، لأنهم قد قصرت نفقتهم ، فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم .

وقد يسأل سائل ، ان المفروض أن قريشاً كانوا من أغنياء العرب ، وبجوارهم ثقيف ، وهم أغنياء ، وكان ممكن أن يعلنوا اكتتاباً عاماً يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء .

والجواب عن ذلك أنهم لم يشركوا العرب في بنائهم ليبقى لهم الاختصاص بسدانته وبشرفه ، وبانشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه الا بمال مكسوب من طيب حلال ، وليس بمكسوب مما جرى فيه كسب خبيث أو فيه ، شبهة خبث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيراً ، اذ كثر فيهم الربا والميسر ، ومن الصعب اخراج الطيب ، من بين هذا كله .

ولقد جعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق ، ويقـــول ابن كثير : « جعلوه مرتفعاً لئلا يدخل اليها كل أحد ، فيدخلوا من شاؤوا ، ويمنعـــوا من شاؤوا » .

وان النبي عليه السلام كان يريد أن يعيـد البيت الى ما كـــان على بناء ابراهيم ، لولا أنه يخشى عليه كثرة الهدم والبناء ، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم قال لها : « ألم تري أن قـومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ، وجعلت لها باباً شرقياً ، وباباً غربياً وأدخلت فيها الحجر » .

١٢٤ ـ تم بناء البيت الحرام ، ولم يختلفوا في شيء عند اقامته ، لأن كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ولكن أمرا لا يقبل القسمـــة اختلفوا فيه ، وهو الحجر الأسـود ، اختلفوا فيمن الذى يضعه في موضعـه من هذه البنية .

تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا ، وكان الخلاف شديدا وكادت الدماء تسيل لتلغ فيها السيوف ، أراد بنو عبد الدار أن يضعوه ، بما أعطاهم من قبـــل قصي من سدانة البيت ، وقربوا جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في الدم المملوءة به الجفنة .

ومكثت قريش على تلك الحال التي تأزمت حلقاتها أربع ليال سوياً .

ثم اجتمعوا بعدها في المسجد الحرام ، وتشاوروا في هـــداة ، وأخفيت جفان الدم أو جفان الموت ، وتناصفوا في القول ، وأخفوا نوازع الشر ، أو استلوها من الأضغان ، وان القصـــد الطيب يكف في كثير من الأحيان نوازع الشر ، فيفتح في وسط الخصام ، نورا من نور الوئام ، وقد كانت الجلسة الهادئة سبيل ذلك ، ببركة بيت الله الحرام .

لقد وقف أسن قريش يدعوهم الى السلام وانهاء الخصام ، فقال :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخـــل من باب هذا المسجد يقضي بينكم : فارتضـــوا ذلك ، وعلموا أنه توفيق الله تعـــالى

عندما ظهر أول داخل ، فاذا هو محمدبن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال كبيرهم : هذا الأمين رضينا بهحكما » ٠

وكان محمد صلى الله تعالى عليهوسلم يسمى الأمين ، وقد اختص بهذا الاسم ، بحيث اذا أطلق لا ينصرفالا اليه وقد أشرنا الى ذلك ، وكلما مضى في عمره الكريم زادوا استيثاقامن أمانته وصدقه وحكمته وعدالته ٠

لذلك طابت نفوسهم جميعا عندماعلموا أنه سيكون الحكم بينهم الذي يرد القضب الى أجفانها ٠

انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، فطابت نفسه وقرت عينه ، اذ قرت به القلوب المضطربة وقال : هلم الي ثوبافأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ،حتى اذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده ، ثم بنى عليه » (١) ٠

هذه حكمة بالغة ، انحل بها الخلاف ، وانتهى الى وفاق من أن تمشق السيوف ، ويستمدوا للحتوف ، وهكذاكانت النفحة المباركة من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وقد بدتبوادر النبوة ، وظهرت ارهاصاتها ٠

١٢٥ ـ قامت الكعبة متجهة الى السماء ، واستمرت على ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يود أن يعيدها عليه السلام الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم عليه السلام ، ولكنهقدر أن قريشا قريبو عهد بكفر ، فلم يزعجهم ٠

وبعد عصر الراشدين ، ثم عهد معاوية ، ثم جاء عهد ( يزيد بن معاوية)، وخرج عليه الخارجون من أهل الايمانوكان ممن خرج عليه عبد الله بن الزبير ، وقد قوي أمره بعد أن قتل الامام الحسين بن على ، تلك القتلة الفاجرة ، وقد بايع الكثيرون ابن الزبير ٠

ثم تجرد له عبد الملك بن مروان ،وكانت المغالبة ، وحوصرت مكة التي كان بها بن الزبير ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وتهدمت ، فاتجه ابن الزبير الى اقامتها على قواعد ابراهيم ، فأعادطولها ، وأدخل من الحجر الأذرع التي

---

(١) سيرة بن هشام ٠

كانت قد نقصت منها لضيق المال الحلال الذى كان بيد قريش ، وجعل لها باباً آخر ، وكان قد سمع عن طريق خالته أم المؤمنين التي روت حديث النبي عليه السلام الذي ذكرناه آنفاً ٠

لم يستمر الأمر لابن الزبير ، بل قتل ، واستمكن الأمر للحجاج بن يوسف الثقفى المسلط من قبل عبد الملك ،فشاور عبد الملك في الأمر الذي غيره عبد الله بن الزبير في بناء الكعبة ،واعادتها الى قواعد ابراهيم ، فكتب اليه : « أما ما زاده طولا ، فأقره وأماما زاده في الحجر ، فرده الى بنائه ، وسد بابه الذى فتحه ، ففعل ذلك ،ويروى أن عبد الملك ندم على ما أذن ، ولعن الحجاج » ٠

ولقد فكر المهدي في أن يعيد البناءعلى قواعد ابراهيم ، فناشده الامام مالك ، وقال أخشى أن يصير ملعبة للملوك ، فترك الأمر ٠

الحمس:

١٢٦ ــ ومن هذا ترى أن قريشاكانت حريصة على البيت الحرام ، تعليه ، لأنها ترى فيه علوها وشرفهاوشددت في القيام عليه ، وابتدعوا في ذلك بدعة تخالف ما كان عليه ابراهيمفي قيامه بمناسك الحج ، وعظموا الحرم تعظيما زائداً ، حتى لفرط تحمسهم له التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفة ولذلك سموا الحمس ٠ ٠

كانوا يقولون : نحن أبناء الحرم ،وقطان بيت الله ، فكانوا لا يقفون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعرابراهيم عليه السلام ويقول في ذلك الحافظ ابن كثير في تعليل فعلهم ، وتكميل الكلام فيه :

« حتى انهم لا يخرجون عن نظام ماكانوا قرروه من البدعة الفاسدة ، وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطا ولا سمنا ، ولا يسلون شحما وهم حرم ، ولا يدخلون بيتا من شعر ، ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من أدم ،وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ما داموا محرمين ــ أن يأكلوا الا من طعام قريش ، ولا يطوفون الا في ثياب قريش ، فانلم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش ، وما ولدوا ٠٠ ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ،

ولو كانت امرأة ؟؟ ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها ، وتقول : « اليوم يبدو بعضه أو كله ، وبعد هذا اليوم لا أحله » .

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي، فطاف في ثياب نفسه ، فعليه اذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمي تلك الثياب « اللقى » (١) .

١٢٧ ـ هذا بعض مما كان يجري من قريش تعصباً للبيت ، فهم اعتبروا الحج عندهم هو زيارة البيت الحرام ، وهذا من التعصب له ، حتى نسوا شريعة ابراهيم في الحج ، وهو اعتبار الحج عرفة ، والطواف ركناً من الأركان ، وليس له وقت محدود طول السنة .

وانه لمن ارهاصات النبوة أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث رسولا نبياً ، كان لا يتمسك بتقاليد قريش وأعمالها ، بل كان يقف بعرفة ، وان ذلك بلا ريب توفيق من الله تعالى ، والهام الله تعالى له بأن يقيم الحج على ما كان يقيمه ابراهيم .

ولم يسر على ما سار عليه العرب ، بل كان يطوف بالبيت كما يطوف .

ويلاحظ أن الناحية التجارية في قريش قد بدت واضحة في أمرين :

أحدهما ـ أن الحجيج لا يأكلون من الطعام الا ما يكون من قريش ، فهو ترويج لتجارة قريش ، وكذلك الأمر في الثياب .

وثانيهما ـ ما كان يقام من المتاجر في الأسواق التي كانت تجاور مكة .

وانه بلا ريب كانت تلك التقاليد فيها فحش في العمل ، اذ كان بعض القبائل ، اذا لم يجدوا ثيابا من ثياب الحمس ، يطوفون عراة ، وفيهم النساء ، حتى انهن كن يسترن عوراتهن الغليظة بأيديهن .

وان هذه الأحكام يحسبون أنهم مأمورون بها ، ولقد أنكرها الاسلام ،

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٠٥ .

وقال الله تعالى فيها:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ * يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١)

وأن محمداً عليه الصلاة والسلام من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام ، كان ينفر من كل أرجاس الجاهلية ، ولو كانوا يدعون أن الله تعالى أمر بها ·

لم يسجد لصنم قط ، ولم يرتكب فحشاء ولا لهوا ، ولم يترد فيما كان يتردى فيه شباب الجاهلية · ولم يتناول خمراً قط ولم يلعب ميسراً ·

ولقد يستنكر في صمت المؤمن بالحق ، كل ما كانت تقع فيه قريش ·

وقبل أن تتقدم للمبعث المحمدي ،وقد جاء ابانه ، وحان حينه ، اذ أنه عليه السلام كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ، وقارب البعث ، فقارب الأربعين، وهي السن التي بعث فيها رحمة للعالمين ·

---

(١) الأعراف ·

وقبل أن تتقدم لمقام الرسالة المقدس ، والمبعث النبوي الأقـدس ، يجب أن نتكلم في أمرين :

أولهما ـ تكامل صفات الرسول ، وبيان ما كان عليه من خلق كامل ، هو مثال للأخلاق الانسانية العالية ، فهـو قبل أن يكون رسـولا مبعوثاً من الله سبحـانه وتعالى ، كان كالملائكة في أخلاقه بيد أنه كانت له ارادة ، وكـان مكتمل الجسم الانساني ، والحياة الانسانية وقد رباه الله تعالى ليكـون النبي المختار الذي ولد في الأميين ، وكـان منهم ٠

ثانيهما ـ أحواله في تأملاته ، وعبادته قبل الرسالة ، والله أعـلم حيث يجعل رسالته ٠

# التكامل الإنساني في محمد صلى الله عليه وسلم

# التكامل الانساني في محمد

١٢٨ ـ نتقدم بهذا الباب من القول بين يدى المبعث المحمدي ، لنتعرف من اختاره الله تعالى من بين خلقه رسولا للعالمين ، وكيف قد أدبه الله تعالى بتأديبه الكريم ، وخلقه كاملا ، لأن رسالته دعوة الى الكمال ، فهو الكمال المطلق في التكوين البشري ، ونحن نريد أن نقدم ما كان من خلق فطري ، لم يكسبه من الوحي الالهي ، وان كان متطابقاً مع ما جاء به الوحي ، وما أدبه به القرآن ، حتى كان خلقه المتين وكان كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « خلقه القرآن » ، وما كان خلقياً بمقتضى التكوين كان متفقاً مع ما جاء به الوحي ، وما دعا الى خلقه ، وقاربوا فيه ، ولم يصلوا الى ما وصل اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في أوصاف محمد ابن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ان خصال الجمال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فئتين أيضا ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل .. فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان في جبلته عليه الصلاة والسلام من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته اليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والزهد ، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق ، والمعاشرة وأخواتها ، وهي التي جماعها حسن الخلق .

ونرى من هذا أن القاضي عياض قدقسم الأوصـــاف التي تحلى بها النبي عليه الصلاة والسلام قسمين : أحدهما ـ كان بالفطرة الانسانية وهي كمـال الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسميةصـلى الله تعالى عليـه وسلم وثانيهما ـ ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعيـةوذكر منها التواضع والحلم ، والصبر والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشـــكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق الذي هو جماع الفضائل الانسانية ، ويذكر أنمن هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحي اليه مما تلتقى فيـه الفطرة المستقيمة مع الوحي فالجـــود والتواضـــع والصبر والفصـــاحة ،والتأني ، وحســـن التأني للأمـور ، والرفق في القول والعمل ، ولين الجانبمن غير ضعف ، والقول الحق من غـير عنف ، كل هذه الصفات كانت في محمدبن عبد الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم كانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئةالله تعالى ، قبل الرسالة ، اعداداً لهـذا المنصب الخطير ، وهـو رسالة الله تعالىالى خلقه ٠

وانا لنذكر في هذا الباب من الكتاب ، ما كان فيه بمقتضى الطبع الانساني السامي الذى فطره الله تعالى عليه وماكان من صفات تتعلق بالمعـــاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمـةوالرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهيئة للرسالة ، وتحمل الأعباء ، والقيام بحق هذه الرسالة والدعـوة اليهـــا بما يزكيها وينميها ، واذا كانت قـداستمرت فيه بعد البعثة ، فانها ثمـرة الله في غرسه ، وتناول الناس أكله ،واذا كنا سنشهده على هـذه الصـفات بما جاء من أقوال أصحابه من بعـــدالبعثة ، فليس ذلك لأن البعثة هي التي أوجدتها ، بل لأنها الأقـــوال الناطقةالمؤيدة لذلك ، فقد أوجـدها فيه العلي القدير ٠

وقدمها على الرسالة لأن الله تعالى أعـــدها فيه ليكون كاملا ، وليقـــوم بأعبائها ٠

# ١- وفـــور عقـــله

١٢٩ ـ لم يتوافر العقل في انسان كما توافر في محمد بن عبـــد الله عليه الصلاة والسلام ولو لم ينزل عليه الوحي ويخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيا لأن ينشىء دولة ، ويقيـم مجتمعاً طيباً فاضلا • ولـــكن أتم الله عليـــه نعمته ، فجعله نبياً مرسـلا ،فاجتمع له الكســـب الذاتي بالادراك بالفطـــرة الانسانية العـالية المكتملة بالتكوين الانساني والرســـالة الالهية الهادية المرشدة ، وكانت الأولى مقدمة للثانية ، وما كانت احداهما لتغني عن الأخرى فما كانت الرسالة تجيء لغـير عقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية كريمة اختارها الله تعالى لموضع رسالته وحمل أمانته • وما كانت الـــكفاية العقلية في أسمى علوها بمغنيـــة عن الرسالة ، لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيا في تدبير الحاضر والقابل الى يوم الدين ، انمـــا العقـل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحي لا يفكر الا فيما بين يديه ، ولا يخترق الحجب والأستار الى ما وراء ما لديه ،فلابد من علم الله يمده بعلم القابل ، وهو عالم الغيب والشهادة ، فمهمـــا تكن قوة العقل ، فانه لا يستطيـع أن يصلح غير زمانه ، وكل شيء عند ربك بمقدار •

منذ نشـــأ محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم والعقـل المكتمـل حليته العليا التي سما بها على الغلمـان أترابه ، فمنذ استوى غلاما ، والعقـل يزينه ، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذي أخذه ليعوده أخـلاق الرجـــال المكتملين •

ولما ذهب الى بيت عمه أبي طالب بعد وفاة جده القريب ، كان الغـــلام الرزين المكتمل وسط أولاد أبي طالب، لا يسبق الأيدي الى الطعام ،ولا يدخل في زحمة الاغتراف ، بل يتريث غـير نهم ولا جشع ولا طامع ، بل الهـادىء الرزين الذي قد يكتفي بالقليل أو مادونه ، حتى يتنبه اليه عمـه الشفيق فيقرب اليه ما يبعد ، ويخصـه بمـــا يكفيه مئونة المزاحمة حتى اذا بلـــغ

قدرا يستطيع فيه الاكتساب • عمل على رعي الأغنام ليأكل من عمل يده، ولينال من خير الدنيا بمقدار ما قدم فيهـــا من نفع غير مؤثل ولا مقصر •

وعقله المدرك لمصـيره بقابل حياته في قابل عمره ، فهو يعد نفسه للتجارة عمل قومه ، ومكتسب أرزاقهم ومنشط قواهم ، فالح على عمـه أبي طالب أن يأخذه معه الى الشام في قافلة تجـارة قريش ، ليكون على خبرة بالصفق في الأسواق ، وليتعلم المصـادر والموارد ،وذلك وهو في الثانية عشرة من عمره حتى اذا عاد من هذه الرحلة المباركـة عاد وقد امتلأ عقله تجربة ، فيمارس التجارة صغرت بضاعته أو كبرت ،وهو على بينة من أمرها ، عليم بأسواقهـا ، والرائج منها والكاسد •

ولكمال عقله كان الشـاب التاجر يحضر مجتمعات قريش ، فهـو يحضر ندوتها فاحصا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ، ولا يقـره ، ويحضر حلف الفضول ، ويرى لعقله الكامل المـدرك أنه لا يسره به حمـر النعم ، ولا يرى نصرة للحق أقـوى منه ، ولو دعي به في الاسلام بعد أن عم الحق ، لأجـاب تكريما له واعلاء لقدره •

وهكذا نراه قد أوتي عقلا مدركا ،وعمل على تغذيته بالتجـارب والاتصال بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمـل على علاج أدوائه ، ان واتاه الله تعالى بفضل من عنده •

واننا ونحن نتكلم على قوته العقلية النافذة الى الحقائق ، لا الى المظاهـر نتعرض لنفوره من التقليد من غـير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهليـة التي كانت تحرم وتحلل من غير بينـة ولا علم قائـم على الحقائق المقـررة الثابتة • فلم تره يسجد لصنم قط ،لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتهـا • فيستحلفه الراهب باللات والعزى فيقول الغـلام ما كرهت شيئا كما كرهتهما •

ويختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزى ، فيمتنع ، فيسلم له التاجر وبحقه من غير حلف لأمانته •

وأي عقل أكمل من أن يرى قـومه ينحرفون عن ابراهيم في حجه ،ويذهب فرط حرصهم واعتزازهـم بالبيت ألا يقفوا بعرفات فيجيء الرجل العاقـل

المكتمل محمد بن عبد الله ( عليه السلام) ويتعرف مناسك ابراهيم ، فيقف بعرفات في ميقاته ، ان ذلك كله لا يكون الا من رجل عاقل يعمل عقله في هدأة من غير مجادلة ، لأن المجادلة تحدث المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان الريب ، وتبددت الحقائق بين المتنازعين ٠

لقد علمت قريش كلها بكمال عقله، وقوة ادراكه ، فرضيت به حكما ، ساعة ان احتدم الجدل ، وكادت السيوف أن تمتشق ، والمعارك أن تنصب ، فلما نادته القرعة أن أقدم ، وافصل بين الناس بالحق ، رضوا بحكمه ، لأنه سيكون حكم العقل والحق ، وأي شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدي الى الحكم الذى يرضيهم جميعا ، فيشركهم جميعا في فضل حمل الحجر الأسود الى موضعه من غير مشاحة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم ، ويحمله هو بيده ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه في موضعه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل ٠

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين في العصبية الجاهلية ، فلم ينطق بها ، ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوئام والسلام ، ولا يحب الحرب والخصام ، ولذلك لم يشارك في حرب الفجار ، الا بتفضيل السهام عن أعمامه حماية لهم ورحمة بهم ، بموجب الرحم الوصيلة ، لا بموجب الحرب ، التي أحلت فيها الحرمات والأشهر الحرم ٠

وانه من المؤكد أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كبح جماح هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل مايفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله الشبان في باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلا سويا اكتملت أخلاقه كما اكتمل جسمه ، فكان القوي الذي يسيطر على أهوائه ، فلا ينحرف مع هوى ، ولا تجمح به شهوة ، وانه اذا ضعف سلطان الهوى قوي سلطان الحق، واذا قلت حدة الشهوة ، استقام حكم العقل ، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوى والشهوة ، والعاقل السيد هو الذي يسيطر على أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضل العقول الا اذا داخلت النفوس الأهواء، وعكرت صفاءه ، فمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان أعقل قريش ، لأنه هو الذي لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة ٠

وقد قال القاضي عياض في فضل عقله عليه الصلاة والسلام ، وآثاره في الاسلام :

« وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ،وقوة حواسه، وفصاحة لسانه ،واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة تقدمت ،ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج الى تقريره لتحققه ·· ولقد قال وهب بن منبه ،قرأت في أحد وسبعين كتابا ، فوجدت في جميعها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وفي رواية أخرى ، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » (١) ·

ويقول ابن كثير : ( معلوم لكل ذي لب أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم من أعقل خلق الله تعالى ، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق في نفس الأمر ) (٢) ·

وان مظاهر عقله بدت واضحة بعد البعثة في سياسة رعيته ، فقد كان الله يوحي اليه بالأحكام الشرعية ، ومايجب من الرفق بالرعية ، والأخذ على يد الظالم ، وحماية الحق من الباطل ،ويترك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفذ الحق في رعيته ، بالمسلك الذى يسلكه مختاراً ، مسدداً ، فان تبين خطأ نبهه سبحانه وتعالى عليه اذا كان أمراً متصلا ببيان الشريعة وأحكامها ·

وانه في الأمر الذى تركه سبحانه وتعالى له بدا عقل النبي عليه السلام في احكام التدبير وكياسة الحكيم ·

---

(١) الشفاء الجزء الاول ص ٤٣ طبع الحلبى

(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٦٥ ·

اشتد أمر النفاق والمنافقين ، وكثرت أضرارهم ، فطلب عمر رضي الله تعالى عنه من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقتلهم ، فقال عليه السلام:( لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ) ثم اشتد النفاق ، حتى هم أهل كل بيت فيه منافق أن يقتله ،فقال عليه السلام أين عمر لو قتلتهم حين قتلهم لأرعدت لهم أنوف هي اليوم تريد قتلهم .

فبهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وبهذا العقل الحكيم ، أدار المدنية الفاضلة التي قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه ، ونفذت فيها النظم الاسلامية .

## ٢ ـ بلاغته صلى الله عليه وسلم

١٣٠ ـ كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرشيا قد نشأ في قريش ، وهي أفصح اللهجات العربية ،وكان يحضر أسواق مكة في موسم الحج ، ويتذوق ما ينشد فيها من شعر ،وقد تفصح في بني سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب ، فالتقى في بيانه لغة العقل والحضارة النسبية في مكة ، وسذاجة البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته في لهجة أفصح أهل البادية .

ولذلك كان النبي محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح الناس منطقا ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو اذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر تنثر بين الناس من غير بهرجة،وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب .

واذا تحدث في معاملات الناس وفي سمرهم الذي لا مجون فيه كان كلامه النمير العذب يسرى في النفوس سريان النسيم العليل ، والماء العذب ينعش القلوب ، ويروي ظمأ النفوس .

وقد وصفت حديثه أم معبد بعد البعثة : فقالت : « اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ،حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن » .

هذا وصف لكلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن بعثه الله تعالى ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قبل البعثة ابتداء ، وما بعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله تعالى ليكون موضع رسالته ، ومبلغ وحيه كان يجمع بين الايجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا اعضال ، بل هو السهل الذى لا توعر فيه ، ترى في كلامه عليه السلام جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة اللفظ من غير تحسين ولا تزيين ، فهو الجمال الطبعي الذي لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة .

وكان فيه معاني الالهام ، وجمله الله تعالى بالصفاء ، لأنه خرج من نفس صافية ، وقلب مفعم بالايمان والصدق، فكان صـــافياً كنفســـه ، خالياً من الشوائب خلو نفسه منها ٠

وقد وصفه الجاحظ ، فقال : « الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عـدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر،وهجر الغـريب الوحشي ، ورغب عن الهجين الســـوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسـن الالهام ، وقلة عدد الكلام ، وهـو مـع استغنائه عن اعـــادته ، وقلة حاجـة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة،ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بـل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعـين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطىء ، ولا يعجل ،ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمـع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمـــل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصـح في معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

وانه قد اجتمع له عليه السلام مع سلامة المعـــاني حسن اختيار الألفاظ المناسبة في الحال المناسبة من غـير أن يقرع الأسماع ، بكلام له رنين ، بـل بكلام يدخل على القلوب في أناة ورفق فينســاب فيها انسياب النمير العـــذب ويكون ثمة تناسق بين المعنى الكريم ،واللفظ الجميل من غير اعنات للأفهام ، ولا ارهاق للأسماع ٠

وكان في منطقه حلاوة ، فيخـرج اللفظ من لسان واضح بيّن ، تخـــرج الحروف من مخارجها ، وتقـع في مواضعها ، والسامع مشـــدوه من حلاوة الكلمة ، وحلاوة اللفظ ، والمعاني الأبكار ، في أسلوب مترسل لا توعر فيه، ولا تكلف ، ولقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها في وصف كلامه ( ما كـان

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد الكلام كسردكم هذا (١) • ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه ) •

فكان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون بأناة • غير مندفع في القول، ولا متابع له في استعجال ، حتى ان عائشة رضي الله عنها تروي أن حديثه لو عد السامع حروفه عداً لأحصاها •

وان ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الالقاء ، ذلك لأن الامهال في القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ،ويتأمل المعاني ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه في أفكاره من غير اعنات لنفسه ، ولا ملال ، وان الملال يعترى السامع ، اذا فاته تتبع المعاني ،وادراك المرامي والغايات •

١٣١ ـ ومنطق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان خالياً من الفافاة والتمتمة ، وكل عيوب الكلام ، في صوت هادىء عميق ، يجمله الصدق ويدخله في مداخل النفس ، ويوجه الرشيد الى الحق • ونغمات صوته هادئة قوية في صوت غير أجش ، ولا جفوة ، ولكن التقى فيه عمق النغم الفطري ، بجمال الصوت ، وجهارته في غير ضجيج ،ولا صخب •

ولقد روي أن الحسن بن علي أحد السبطين الكريمين قد سأل هند ابن أبي هالة ربيب النبي عليه السلام من خديجة أم المؤمنين وكان هند رجلا وصافا، سأله حب رسول الله تعالى عليه وسلم فقال : قلت صف لي منطقه • قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » متواصل الأحزان ، دائم الفكر ليس له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (٢) ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلا ، لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه ، اذا تعرض أحد للحق بشيء ، حتى ينتصر له ، اذا أشار أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث

---

(١) السرد هو متابعة الكلام من غير تمهل، بل على الولاء والاستعجال فلا يعطى السامع فرصة تذوق الالفاظ والمعانى •

(٢) أى يستعمل جميع فمه عند الكلام فلايتكلم بطرف اللسان بل يقبل على القول اقبال المهتم به •

اتصل بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكـــه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام» .

وانه مهما يقل الرواة في بلاغـــة كلمه ، وفصـــاحة لفظه وجمال نطقه لا نصل الى حقيقة بلاغته ، فان المأثور الذي نقرؤه ، نجد فيه العلم المجتمع ، والعبارات التي يستطيبها كل مستمع ، يجد فيها نفاذ الالهام، وتناسق الألفاظ، وترى فيه الحكم ، وحسن المأخـــذ ، والجمع بين الأطراف في لين ويسر من لفظ جاف ، ولا معنى مستخف ، بـــل كل الكلام في معناه وخواطره ، ومآخذ، يدخل الى القلوب ، فيجد مساكنه ، وان المستشهد بقوله يردده أمام العـــامة ، فيلقفونه ، وأمام الخاصة فيضمونه ، يفهمه كل انسان مهما تـــكن طاقته ، لا يتخـــير غـــريباً لغرابته ولا لفظالحـــلاوته ، ولـــكن كل ذلك يجيء في رفق ، بل هي السليقة الكاملة تنطق ، والفصاحة الفطرية تتكلم ، وليس ذلك قولنا للمحبة فقط ، ولكن الحقيقة .

وحق علينا أن نقول مقالة الجاحظ بعد وصف كلامه ، وخشي على نفســه أن يقال انه انبعث من المحبة ، فقـــدقال : ( ولعل من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلفنا له من الامتـــداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغـــه قدره ، كلا والذي حرم التزيد عنـــد العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهـــاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعيه ) .

كبرت كلمة من يقول اننا تجاوزنا الحد في وصفنا لبلاغة خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال تحـــديثه ، وبلوغه من البيان الانساني أعلى مراتبه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، بل هو الحق الذي لا امتراء فيه ، أننا لم نتجـــاوز الحد ، ولكن لم نبلغه ولم نصل اليه .

١٣٢ ـ وأنه من الحـــق علينا أن ننقل الى القارىء ما قاله القاضي عياض في وصف فصاحة محمد عليه الســـلام وبلاغته ، فقد قال رضي الله تعالى عنه : ( وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، ســـلامة طبع ، وبراعة منزع ، وايجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي

جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ،وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ·· ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ، ونجد كلامه مع وطيفة الهندى وقطن بن حارثة العليمي والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقيال حمير ، وملوك اليمن ) (١) ·

وان هذا يدل على أنه عليه السلام كان يعلم كل لهجات العرب ، وقد أتاه ذلك من اقامته بمكة التي كان يلتقي فيها بقبائل العرب ، في موسم الحج ، مع حرص على تعرفها ، وذكاء مدرك لها ، وتحصيل واع لكل ما يسمع ، وحفظ لكل ما يجري حوله ·

ولقد ذكر بعض الرواة أنه كان يعرف ألفاظاً كثيرة من الفارسية ، والرومانية ، وان لذلك شاهداً من كتبه للرومان ، فقد جاء في ذلك الكتاب : « وأسلم تسلم ، والا فعليك اثم الأريسين » ، وهذا لفظ روماني استعمل في معناه الدقيق ، وهم العامة والزراع وغيرهم من الدهماء ·

وان تعلمه لهجات العرب وفوارق لغاتهم يدل على أن الله تعالى ، كان يعده لهذه الرسالة الالهية العامة ، ولقد ساق القاضي عياض شواهد من كتبه عليه السلام الى همذان ، ووائل بن حجر ،ووازنها بكلام قريش في الصدقات ·

ثم يقول القاضي عياض في الشفاء :

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة ، وحكمه المأثورة ، فقد ألفت فيها الكتب ، ومنها ما لا يوازى فصاحة ،ولا يبارى بلاغة كقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم » · وقوله : ( الناس كأسنان المشط ) · ( والمرء مع من أحب ) · ( ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له ) ، ( الناس معادن) ( وما هلك امرؤ عرف قدره ) · ( والمستشار مؤتمن ) · ( ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ) وقوله ( أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ) وقوله : ( ان أحبكم الي

---

(١) الشفاء ص ٤٤١ ·

وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ) • وقوله :( ولعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه ، ولا يبخل بما لا يغنيه ) وقوله : ( ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ) ، ( ونهيه عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال ، ومنع هات وهات ، وعقوق الأمهات ووأد البنات )وقوله : ( اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن ) ، (وخير الأمور أوسطها)، وقوله : ( أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ) وقوله : ( الظلم ظلمات يوم القيامة ) ، وقوله في بعض دعائه : ( اللهم اني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها الفتي ، وتعصمني بها من كل سوء ،اللهم اني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ،والنصر على الأعداء ) • هذا ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته، وخطبه ، وأدعيته ، ومخاطباته (١)•

ولقد ذكر من بعد ذلك القاضي عهوده عليه الصلاة والسلام التي كان يعاهد بها القبائل ، والهدنات التي يهادن بها ،فانها بلغت من أحكام المواثيق ، ودقة الشروط مالا يصل اليها تحرير كاتب ،ولا توثيق معاقد ، فانها بلغت مرتبة لا يقاس عليها ، ولا تحاكى ، وسبق فيها سبقاً بعيداً لا يقدر قدره •

وذكر أن لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام عبارات لم يسبق بها ، فقال رضي الله تعالى عنه •

( وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق اليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبة عليها ، كقوله : حمي الوطيس ،ومات حتف أنفه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين • السعيد من وعظ بغيره ) (٢) •

وهكذا يثبت القاضي عياض فصاحة الكلم النبوي ، والبلاغة المحمدية بما ساق من عبارات جامعة ، ومعان رائعة وألفاظ ينبثق منها النور ، وتضبط بها حقائق هذا الوجود •

---

(١) الشفاء ص ٤٦ •
(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦ •

١٣٣ ـ وأننا ان تركنا أقوال الذين شاهدوا وعاينوا من صحابته والذين رووا المنقول في سيرته ، وعمدنا الى الأحاديث المدونة الصادقة النسبة ،والتي رواها العدول طبقة بعدطبقة ، وأردنا أن نتعرف نسق بيانه من عباراتها ، ومحكم معانيها من ألفاظها ، لوجدنا من بعض ما يتبين في ذلك النسق :

( أ ) أن اللفظ يجيء سهلا ، نجدفيه الجمال الطبيعى ، نجد الألفاظ متناسقة يأخذ بعضها بعجز بعض ، معالايجاز ، واحكام المعنى ، والاتجاه الى مقصد القول ، وتصوره ، أحيانا بالحقيقة ، ويكون لها جمال كجمال الطبيعة ، اقرأ ان شئت قوله عليه السلام ، في الدعوة الى القناعة ،والرضا بالقليل ، وعدم اللجاجة التي تؤذي ٠« ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وقوله في الدعوة الى ضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهكذا التعبير السهل العميق في معناه يسري في كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل توجيهاته ، ولذلك سرعان ما تحفظ ،فهو كلام يقال ليحفظ ٠

( ب ) وان من خصائص البلاغة النبوية أنها لا تعلو على العقول الفطرية، فهي تدركها في أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه في النفوس، والخاصة يجدون فيه علم مالم يعلموا ،انظر الى قوله عليه السلام في بيان وحدة الأمة الاسلامية وما ينبغي لتعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » واقرأ قوله عليه السلام في المعاهدات التي تعهد ، والنفوس على أحقادها ولا تستل منها سخائمها : « هدنة على دخن » فان كل انسان يفهم أن القلوب فاسدة ، وأن الصلح الظاهري ، لا يصيب الأحقاد التي طويت عليها القلوب ، ومثل قوله عليه السلام في فضل العمل،وأن يكفى كل انسان مئونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره للاستعانة به « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله في الأمر لا يختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عنزان»وقوله عليه السلام في توزيع خيرات الله تعالى في أرض الله ، كل أرض بحصتها من الرزق « كل أرض بسماتها » وقوله في الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رجالهن بعنف: « رويدك رفقا بالقوارير » ٠

وان هذه التعابير جلها جديد في العربية لم يسبق بها في قول قائل ، وهي واضحة المعنى بينة المقصد، لاتعلو على العامة ، ولا تجفو عنها آذان الخاصة بل كل الناس يجد فيها علما لم يكونوا به عالمين ٠

( جـ ) أن كلامه عليه السلام من جوامع الكلم ، فيه حكمة ، وفيه ألفاظ قليلة ومعان جديدة لم تكن معروفة ٠ انظر الى قوله عليه السلام ، وقد سئل : أنحاسب على ما تنطق به ألسنتنا ٠ فقد قال عليه السلام مجيبا ، « وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم » وقوله في صلة الرحم عند المنابذة والقطيعة : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ومثل قوله : « رحم الله عبداً قال فغنم أو سكت فسلم » ٠

( د ) وانه من الظواهر العامة في كلامه عليه السلام أنه يخاطب العقل والوجدان من غير استكراه للالفاظ أو تكلف في المعاني ، بل كل ذلك يجري سهلا طيبا قيما ، فيه ارشاد وتوجيه ، اقرأ قوله عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين الى أن يكونوا ايجابيين في أقوالهم وأفعالهم ، لا يتبعون من غير تفكير : « لا يكن أحدكم امعة يقول ان أحسن الناس أحسنت وان أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس تحسنوا ، وان أساؤوا فتجنبوا الاساءة » ٠

( هـ ) خلو كلامه عليه السلام من الصناعة البديعية ، فهو بديع في ذاته من غير صناعة ، وقد يجيء أحيانا في كلام الرسول بعض السجع ، ولكنه سجع غير مقصود ، بل هو من احكام القول ، فمثلا قوله عليه السلام : « رحم الله عبداً قال فغنم أو سكت فسلم » لا شك أن فيه سجعاً، أو ما يقرب منه ، ولكن التكلف غير موجود ، وان كل لفظ منه موضوع في معناه ، لو أردت أن تغيره ما طاوعك المعنى ، فهل يمكن تغيير كلمة غنم مع ما فيها من ثروة في المعاني بغيرها يؤدي مؤداها ، ويكون في ايجازها ، ونسقها ، وكذلك الأمر اذا أردت استبدال سلم مع ما يرمى اليه من سلامة العرض واللسان عن لغوه ، وتوفير العقل ، والابتعاد عن لجاجة القول ، فهو عليه السلام ، لا يقول الا حكما ، ولا ينطق الا فضلا ، وتلك غاية قوله ، فان كانت حلية ، فهي الحلية التي لا تكلف فيها ، ولا استكراه في نسقها ،

أو محاولة الصناعة التي تغطي الكلام الفطري ، وتغشاه بغـواش من ضجيج الأوزان ·

وان الجمال الفطري في القول ، والحسن اللفظي من غير تحسين ، بـل السجع الذى يكون كسجع الحمام · يأتى من غير اعمال ولا قصد اليه ، حتى في بيان الحقائق الشرعية ، ودقيـق المعـاني الفقهية ، ففي بيان الشروط الباطلة المقترنة بالعقود ، وأسـاس البطلان فيها يقول عليه السلام : «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله · ما كـان من شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل ، وان كـان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله تعالى أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » ·

ألا ترى أنه كلام جميل جاء في نسق محكم، والحسن فيه باد من غير تحسين، والجمال فيه بارز من غير تجميل ، وهو مع كل هذا فقه عميق ، يدرك مغـزاه الفقهاء ، ويعرف معناه من لم يبلغـوا في الفقه شأوا ·

وانه لواضح كل الوضوح أنه جاء عفو الخاطر ، ولم يكن باجهاد فـكر ، وتجميع ألفاظ ، وتنسيق كلمـات ، انما كان المعنى الجيد القاصد في اللفظ المحكم المصور الواضح ·

( و ) وانه أحيانا يجيء كـلامه القصصي الذي يحكي قصـة في أسلوب تصويري ، تنطق فيه حقائق القصـة وأبواب العبرة في كلام مرسل سهل ، يمكن القارىء أو السامع من أن يصل الى غايتها، ويدرك معاني هدفها الصادق من غير اسراف في اللفظ ، ولا نقص في الأداء ، ولكن وفاء وكمال في غير حشو ، ولا لغو ، واليك قصة أصحاب الغار ، كما روى البخارى ، وغيره «بينما ثلاثة نفر يمشون فأخذهم المطر ،فآووا الى غار في جبـل ، فانحطت على فم غارهم صخـرة من الجبل ، فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظـروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعـوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكـم ، فقال أحدهم · اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران ، وامرأتي ، ولي صبية صغار أرعى عليهم ، فاذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدتى فسقيتها قبـل بني ، وانه نأى بي ذات يوم الشجر ،فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب،فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما

من نومهما ، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ٠

ففرج الله منها فرجة ، فرأوا منها السماء ٠

وقال الآخر اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت فأبت ، حتى آتيتها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار فجئتها بها

فلما وقعت بين رجليها قالت، يا عبدالله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم الا بحقه، فقمت عنها ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم ٠

وقال الثالث : اللهم اني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز (١) ، فلما قضى ٠ قال أعطني حقي ، فعرضت عليه ، فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه ، حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ٠ فقال اتق الله تعالى ، ولا تظلمني حقي ٠ قلت، اذهب الى تلك البقر ورعائها ، فخذها ، فقال : أتهزأ بي ، اتق الله ولا تستهزىء بي ، فقلت اني لا أستهزىء بك خذ لك البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب ٠

فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فرج لنا ما بقي ، ففرج الله ما بقي ٠

واننا نقف عند القصة الصادقة ، فانا نجد العبارات السهلة المستقيمة ، وبجوارها التصوير للأفعال التي تنبعث من القلوب ، ويقصد بها فاعلها وجه الله تعالى ، والحديث واضح فيه مع صدق القصة العبر والمعاني التي ذكرها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ ومنها يبرز :

أولا : أن الأعمال بالنيات ، وأن الله تعالى لا يقبل الا الطيب من الاعمال، ولا يكون العمل طيباً الا اذا قصد به وجه الله ، وابتغاء ما عنده لا يريد جاها،

---

(١) جاء فى القاموس المحيط الفرق بسكون الراء وفتحها وفتح الفاء مكيال بالمدينة ثلاثة أوسق أو ستة عشر رطلا ٠ وجمعه فرقان والخلاصة أنه وعاء لكيل الحب من ارز وغيره ٠

ولا شرفاً ولا مالا ، انما يريد الله تعالى، كما قال عليه السلام : « ولا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء ، لا يحبه الا لله » .

وثانيا : أن قدر الله تعالى يسير على نظام محكم في علمه ، وبحكمة بالغة يقدرها ، وأنه سبحانه ينزل الفرج ، لمن يتجه اليه ، وأنه يجيب دعوة المكروب ، لخير قدمه ، ولاخلاص قلبه، وابتغاء ما عند ربه ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

ويدل ثالثا : على أن الله تعالى يجازي المؤمن الفعال الذي يتجه فيها الى العمل الايجابي الذي ينفع الناس ، وخصوصا الأقربين ، كما رأيت في الخير الذي قدمه الرجل الأول ، من احسان الى أبويه ، وتقديمهما على أولاده الصبية الصغار ، وتركهم يتضاغون ، ولا يزعج أبويه ، وان ذلك هو الايثار ، لأن الأولاد قطعة منه ، فتقديمهما تقديم لنفسه ، فتقديمهم أثرة ، وتقديم أبويه ايثار ، فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

ويدل رابعا : على أن الكف عن الشر بعد أن تتوافر دواعيه وتهجم أسبابه هو من الأعمال الايجابية التي يثاب عليها المرء ، فالفضيلة ايجابية ، وليست سلبية .

ويدل خامسا : على أن الوفاء بالحق فضيلة الاسلام ، وأنه ليس بقريب من الله من أكل حقوق غيره ، وأقرب الناس من أعطى كل ذي حق حقه ، وتدل القصة في ضمن ذلك على أن أجر العامل يجب أن يوفى ، وأن يعطى العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

---

(١) الاعراف .

(٢) الحشر

( ز ) هذا وان احكام القول ليبلغ في الأخلاق والمعاهدات التي عقدها النبي عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة ، فهو يعقد المعاهدات ، لا يترك فيها حقاً له الا سجله في عبارات واضحة مانعة من الجهالة التي تفضي الى نزاع في فهمها ، ولا يترك فيها واجباً عليه الا دونه في عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف فيها ، بل هي صريحة كاملة الشروط ، لأن مقاطع الحقوق عند الشروط .

ولو أن ساسة هذا العصر درسوا مخلصين وثائق المعاهدات التي أملاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا متجهين الى الحق أن يحرروا معاهدات خالصة لوجه الحق ، لا يجدون ثروة يأخذون منها الا معاهدات النبي الأمي ، وسيكون لذلك فضل من الكلام عند التعرض لسياسته ان شاء الله تعالى

# الخُلق الكامل

( أ ) الرفق :

١٣٤ ـ قال الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ٠

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد في مسنده : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولقد قال عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ٠

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول في معناه كثيرا ، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها ، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة ، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد ، ويشمل حب الناس والرفق بهم ، ويشمل التواضع ، وتوطىء الكنف لهم ، ويشمل البشر ، ولقاء الناس به ، ويشمل الأناة والحلم ، ومنع الجفوة ، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف ، ويشمل الجود بما عنده ، والزهد فيما ليس عنده ، ويمنع الفلظ والفظاظة ، ويشمل العفو عن المسيء ، واقالة عثرته ، ويشمل الرد على المسيء بالاحسان ، ويشمل تخليص القلب من الاحن ، ويشمل الاعراض عن الجاهلية ، وترك المهاترة ، والمماراة والمجادلة ، ويشمل التيسير ، وترك التعسير ، والتبشير ، دون التنفير ٠

---

(١) القلم ٠

وفى الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس ، وتربيـــة الوجـــدان ، والتآلف مع الناس ، والقرب اليهـم ،وتوطىء الكنف لهم ، والتواضع والرفق بالضعفاء ، والقرب منهم ، والألم لآلامهم ، والسرور لسرورهم ، والاندماج فيهـم من غـير تأثر ، ولا تجـــانف لاثم ٠

وان الخلق الحسن يؤثر في الدعوةالى الحق ، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة ٠

وانه من أوصاف النبوة ، ولقد قال الله تعالى في ثمرات الخلق المحمدي

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

( ب ) العفو :

١٣٥ ــ ولقد هيأ الله تعالى محمداصـلى الله تعـالى عليـــه وسلم ليكـون الهادي الى الحق ، والى صراط مستقيم،فوهبـه الخلق الكامـــل ، الذي يؤلف القلوب ، ويجمع النفوس ، الا من طغىواستكبر ، وآثر الهوى على الحق ،وكان قبل البعثة يحب العشـير ، ويقـــرب الصديق ، ولا يعنت أحدا بعـداوة ، بل كان الملاك الطاهـر بينهم يعف عنقول الخنا وفعله ، ويبتعد عن الهـوى وجموحه ، لا يعادي ، ولا يصخب ، ولايفحش في قول أو عمل ، وهو الصادق، وهو الأمين ، وهو الذي يعين الـكل ،ويغيث الضعيف ، ويعين عـلى نوائب الدهر ، يعفو عمن ظلمه الا أن يكـونفي ذلك انتهاك لحرمة من حرمات الله ، أو اعتداء على فضيلة ٠

اذا كان المسيح عيسى بن مريم قدكان خلقه السمـــاحة يعفو عن المسىء كذلك خلق النبيين عامة ، وخلق محمدبن عبد الله خاصة ، وكان ذلك ايجابيا،

---

(١) آل عمران ٠

وليس سلبيا ، يفعل الخـــير ويجتنب الشر ، وكان التاجر السمح الصبور ، حتى انه يروي بعض القرشيين أنه بايع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بياعـة قبل البعثة ، وبقي شيء لم يأخـذه من محمد ، فانتظره النبي عليه الســـلام ثلاث ليال ، وكـــان يذهب فيقيم في مكانه الذي غادره فيه ، حتى لا يضـــل فـــلا يهتدي اليه ، فيضـــيع حقـــه الثابت له ٠

ولقد امتدت هذه الأخلاق الى ما بعد النبوة ، فكانت دعامة الدعوة فســـار بسنة العفو عن الاساءة والاعراض عن الجاهلية استجابة لقوله تعالى :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١)

وقـد كان ذلـك الخلق يجذب النـاس الى الايمان من غـير دليل ولا بـرهان، وان كـان الحق واضحا في ذاته، وزاده وضوحا خلق النبي الكـريم، ولنذكـر واقعة كـان العفو فيهـا داعية الاسلام.

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا ، والناس قائلون، فلم ينتبه رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم الا وهو قائم ، والســـيف مصلت على رأسه في يد الرجل ، وهو يقول : من يمنعك مني ؟ ، فقال عليه السلام بقلب مؤمن ولســـان صادق : « الله » ، فسقط السيف من يد الرجل ،فأخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال : « من يمنعـك مني » ، قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه ٠ فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله فقد ذهب الرجل الى قـومه يحببهم في محمد عليـه السلام ودينه ، يقول : « جئتكم من عند خير الله » ،ولقد قال في مجمل أحواله هند بن أبي هالة، وهو ابن أم المـــؤمنين خـــديجة من غير النبي ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يخزن لسانه ٠ الا بمـا يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهـم ، ويحـــذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد منهم شره ، ويتفقـــد أصحابه ،

---

(١) الاعراف ٠

ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يفعل مخافة أن يفقلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجوزه . الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة (١) .

وقال هند هذا في مجلسه : كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ، من جالسه ، أو قاوله في حاجة ، صابره ، حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرد الا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، وصاروا عنده في الحق سواء .

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تفشى فيه فلتاته، متعادلين يتفاضلون بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب (٢) .

ويقول : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا نشتهي ، ولا يوءس منه راجيه ولا يخيب فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار ومالا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث . كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه. اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، حتى ان أصحابه يستحملونه في المنطق (٣) اذا رأيتم طالب حاجة ، فارفدوه . ولا يقبل الثناء الا من مكافيء ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣ .
(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣ .
(٣) الكتاب المذكور وابن الحرم معناها المامه بها ، ولا يفشى فلتاته لا تستر .

او قيام .. ويقول كان سكوته عـــلى أربع : الحلم ، والحذر ، والتقـدير ، والتفكر ، فأما تقديره ، ففي تسـويته للنظر والاستمـــاع بين الناس ، وأما تفكره ، ففيما يبقى ويفني ، وجمع له الحلم والصبر ، فكان لا يغضبـه شيء ولا يستفزه

## ( ج ) أخلاقه خارقة للعادة:

١٣٦ ـ ولنقف وقفة في تجزئة ذلك القول البليغ ، ودلالته على ما وراءه مما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الداعي الى الحق ، وصاحب الرسالة التي حملها الله تعالى ، وأثر هذه في الاجابة .

لقد قال بعض الكتاب معدداً الخوارق التي صاحبت الدعـوى المحمدية ، قال ان من أعظم الخوارق التي كـانت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخلاقه، فكانت في ذاتها أمراً خارقا للعادة بين بني الانسان، فهي أعـلى من أخـــلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخـلاقهم بمقتضى كـونهم :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وليس فيه روحانية عيسى عليـه السلام المجردة .

بل كانت فيه الروحانية الانسانية ، بمافي الانسان من مطالب الجسم ،وتجرد الروح فمحمد بين الناس الانسان الذي تتجلى فيه الانسانية الكاملة ، وفي طبعه روحانية ارادية ، فكل ما فيه من أخلاق للتربية والارادة ، دخـل في تكوينه ، فهو ليس حصوراً ، ولكنه عفيف لم يتدل الى خنـــا قط ، ففضيلته كف للشر ، وتجنب له ، والعفة من حضور ، ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه ، وأهواء تعاوده ، وبمعركة بين القوتين تكـون النصرة للعفة ، والغلب للفضيلة ، وما يكون الوصول اليه بغلاب يكون أعـلى وأنفس ، مما يجيء رخيصاً سهلا .

١ ـ وان من أول صفات محمد بن عبد الله الذي ذكره ربيبه هنـد ، أنه يخزن لسانه ، أي يكون لسانه كأنه في خزانة قد ستر لا يظهر الا لخير يرتجيه، فلا يشجع على نفرة ، بل انه لا ينطق الا فيما يعني الذين يخاطبهم ،ويفيدهم، ويكون فيه تأليف لقلوبهم وتقـــريب لنفوسهم ، وتأنيس غريبهم ، ويأمـر

---

(١) التحريم .

باعطاء ذي الحق ، ولا يتكلم في مراء ،ولا يذم أحداً ولا يكثر في قول ، خشية سقط اللسان ، لا يعيب الحرمات ، ولايقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول ، فاذا تكلم هو كان كلامه فصلا،وكان قوله حكما ٠

وجملة القول في ذلك أنه قد استولى على لسانه ، فلا يتكلم الا اذا لزم الكلام لرفع حق ، أو خفض باطل ، أوتأليف ، أو زرع مودة ، أو اسداء معروف ، فلسانه ليس خارجا على ارادته ، ولكنه مكملها ، ويسير تحت سلطانها ، وارادته للحق ٠

٢ ـ والصفة الثانية من أخلاقه أنه يأتلف مع أصحابه ،ويمتزج احساسه الفاضل باحساسهم لينساب الى نفوسهم،يكرم كريمهم،ويرفع خسيسة صغيرهم، حتى يحس بأنه منه ، ويوزع محبته بينهم ، ويعطي نفسه لكل واحد منهم حتى انه يظن كل واحد منهم أنه موضع الرعاية منه ، واذا رأى أمراً حسناً أعلن حسنه ، وان رأى قبيحاً نبه اليه في رفق الهادي الأمين الذي يؤلف ، ولا ينفر ، ويقرب ،ولا يبعد، لا يسكت عن باطل٠

وهو بينهم اليقظ الذي لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لا يطوي نفسه لأحد على شر ، وينقذهم ، وكان حريصاً يحذر من يتوهم منه شرا ، ويحترس منه من غير تقطيب وجه ، أوغلظة في قول ، بل هو في كل أحواله ، الأليف المألوف ٠ يفتح قلبه لهم ، ليقول خيارهم ما تنطوي عليه نفوسهم ، ويستحي غيرهم من أن يظهر خبيئة نفسه ، بل يبقى حبيساً لا يظهر وربما خبا فيزول ، ويستقيم أمره فان بعد الرذيلة عن النور والماء يذبلها ، بل يذهبها ٠

٣ ـ والصفة الثالثة التواضع الكريم الذي لا ضعة فيه ولا ذلة ، فهو اذا دخل على جماعة جلس حيث ينتهي المجلس وحث أصحابه على ذلك ، ويتطامن لهم في المجلس ، ويمسهم بجناح الرحمة ، ويسوي بينهم ، وبشره مستمر ، يلين جانبه لهم ، ويغض الطرف عما لايحسن،الا أن يكون في السكوت ترك لواجب الارشاد ، وان أرشد ففي رفق يكتفي بالاشارة ٠ فان لم تكف كان التعريض فان لم يكف كان التنبيه في تعميم ، فاذا رأى بعض الناس يسيء ، لا يواجهه بالاساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، ولا شك أنه

اذا كان التوبيخ فيه معنى العموم كان ألطف ، وكان مع ذلك أفعل ، وأبلغ أثرا ٠

ولا يمزح الا قليلا ، وان مزح فبعبارة فيها حكمة ، ولا تخلو من بيان كقوله لعمته صفية : « لا يدخل الجنة عجوز » فبكت ، فقال عليه الصلاة والسلام « تكنّ كواعب أترابا » ألا ترى في هذا مداعبة لطيفة تخبر عن حال من أحوال الآخرة ٠

٤ ـ الصفة الرابعة بعده عن الغلظة والجفوة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا عياب ، ولا متتبع للعورات ولا صخاب ولا فحاش ، فلا يفحش في القول ، وان كان صدقا ، فان النطق بهجر القول ، ولو كان وصفاً صادقاً لمن يرمي به ، فانه لا يصح النطق به الا اذا ترتب عليه ضياع حق أو نصر باطل ، فانه يذكر موضوعه ، ومن غير تخير للفاحش ٠

٥ ـ الصفة الخامسة : الامتناع عن الذم امتناعا مطلقا ، الا أن يضطره الحق اضطرارا ، فانه يتكلم بالكناية ، ولا يرتضي العبارة سترا ، وابعاداً عن الفحش ، فلا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، وما يجلب خيراً للناس ٠

٦ ـ والصفة السادسة : التي يدل عليها هذا الكلام من ذكر أخلاقه ، أنه عليه السلام كان يلتزم السكوت كما أشرنا ، ولكن ليس سكوت العي الحصر ، بل سكوت من يفكر في القول قبل أن ينطق ، ومن يحذر من أن يشيع عنه مالا يليق بمثله ، وهو يقدر ، وقد يكون سكوته حلما وعقلا ، واغضاء ، واعفاء عمن يكون في قوله سوء ٠

٧ ـ والصفة السابعة : أنه لا يغضب لشيء يتصل بذاته ، ولا يستفزه شيء يتعلق به ، بل لا يغضب الا لله أن تنتهك حرماته ، فاذا كان ذلك لا يسكت حتى يقام حد الله ٠

## ما وصفه به الواصفون :

١٣٧ ـ هذا ما وصفه به هند بن أبي هالة ، وقد كان رجلا وصافا للرجال ، لا تفوته اللمحات ، ولا تختفي عليه النظرات ، وتنكشف دخائل النفوس من العبارات ، وقد لخصنا لك بعض ما تنبيء عنه الكلمات ٠

ولننقل بعضا من قول من عاشروه وخالطوه ، لتعرف كيف كان عشيراً وفيا ، وذا خلق هنيء لا جفوة ، ولا جفاء ٠

لقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة ، وهي التي عاشرته، وهو يحمل أعباء الانسانية كلها ويخوض الحروب ويتنقل بين ميادينها ـ أنها قالت في أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ماضرب رسول الله تعالى بيده خادما قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد في سبيل الله ، وما خير بين شيئين الا كان أحبهما اليه أيسرهما الا أن يكون اثما ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه ، حتى تنتهك حرمات الله ، فينتقم لله عز وجل » ٠

ولقد وصف أبو هريرة صاحبه ، فقال :

كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا بأبي وأمي ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق ٠

وان هذا الوصف لذلك الصحابي الجليل ، ينبيء عما كان عليه السلام من معاملة للناس ، وقد وصفه في هذا بثلاث صفات :

أولا : أنه في لقائه يقبل بنفسه كلها على من يلقاه ، فلا يلقاه لقاء جانبيا أو يكلمه بطرف من لسانه ، أو يستقبل استقبال المستهين ، بل هو واضح في اقباله ، كما هو واضح في ادباره ، فان تركه لا يتركه الا بعد أن يتم حديثه ، وعندئذ يتركه ، فلا يبقي حديثاً لم يستمع اليه ، ولم يستمع اليه وهو يولي مدبرا ٠

والصفة الثانية : أنه لم يكن يجبه الناس بفحش ، أو بخروج القول عن جادته ، وقد أشرنا الى هذا في وصف ربيبه هند بن أبي هالة ٠

الصفة الثالثة : أنه لا يصخب ، ولا يغاضب ، ولا يجادل في الأسواق ، بل كان كل شيء فيه على سمت حسن وجلال ٠

وقد أشرنا الى أنه عليه السلام كان كما يستفاد من وصف ربيبه له متواضعا أبلغ ما يكون التواضع ، ولقد خير عليه السلام بين أن يكون نبياً ملكا ، أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ٠

هذا هو النبي الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وقد بعثه في قوم شمس، فيهم عنجهية جاهلية وغطرسة نسبية ،يخير نبيهم المبعوث لهم بين جبروت

الملك ، ورق العبد ، فيختار رق العبد ،لأنه يريد أن يقرب من النفوس ، لا أن يعلو عليها ، فالرشاد يجيء من القريب منهم ، ويبتعد عمن يستعلي عليهم ٠

روى أبو أمامة رضي الله تعالى عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوكئاً على عصا فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، وقال : انما أنا عبد آكل ، كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ٠

وقد جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض : « وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء ، جاءته ، فقالت : ان لي اليك حاجة « قال اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت اجلس اليك ، حتى أقضي حاجتك » (١) ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أهله موطأ الكنف ، يعين أهله في مهنة البيت ، ولا يستنكف ،يفسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته ٠

وكانت الأمة من اماء المدينة اذا احتاجت الى من يعينها من الرجال ، ولقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعانها في حاجتها ، حتى تقضيها، ثم انصرف عنها موفوراً غير منقوص ٠

## هيبته صلى الله عليه وسلم :

١٣٨ ـ ومع هذا التواضع الكريم غير الذليل ، كانت هيبته في القلوب أشد ما تكون هيبة الرجل الذي اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ، وما كان تواضعه الا لما يعلمه من فرط هيبته ،فيلطفها بذلك التواضع ، بل انهما نبعا من هيئة واحدة فهما متآخيتان ، بل انه لا يتواضع هذا التواضع من غير أن

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٧٦ ٠

يتضع ، الا من يكون قوياً في نفسه ، لايحس بأنه بنزل الى المهانة فيما يفعل ، وفيما يدع ٠

ولقـــد وصف الواصفون مجلس النبي عليه السلام بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته ، وقوة وقاره ،وسمته، فقد كان مجلسه عليه السلام يحفـه الوقار لا يتكلمون الا اذا أذن في القول ، فاذا صمت صمتوا ، لا يخرجـون عن قوله ، ولا يبعدون عن ارادته ، ولكن في تواضع ، واطمئنان ٠

وقد كان أحياناً يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ، ويريد هدايتهم ، وأحياناً كان النســاءيسترسلن في القول في مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول ، وهو قادرعلى اســكاتهن بنظـــراته ، ولـكنه لا يرمضهن ، ولا يمنعهن ٠

وقد كان يرشد بعض النسوة يوماً،فكن يتسابقن في سؤاله ، فتصايحن عليه ، فدخل عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه،وهن يتصايحن في تسابق الى السؤال ، فسكتن : فابتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت سنه ، فقـــال عمر رضى الله عنه:أضحك الله سنك يا رسول الله،ما الذي أضحكك؟فقال الرسول الكريم الرءوف الرحيم : هؤلاء النسوةكن يتصايحن علي،فلما رأينك سكتن ، فقال عمر : أي عدوات أنفسهن أتهبننيولا تهبن رسول الله ٠ فقالت احداهن : « ولـــكنك أفظ وأغلظ » فأسكتهـــا الرسول ، وقال القوي المهيب ، نافيـــا الغلظة عن صاحبه : « لا ، ان الشيطانلا يسير في فج يسير فيه عمر » ٠

ولم يكن عمر أشد هيبة من النبي بل النبي المهيب المحبوب ، ولكنه يتطامن ليصل الى القلوب ، وهو لا يترك هيبته ترهب ، ولكنهـــا هيبته ما كـانت الا لترشد ، فالارشاد غايته في حاليه مهيباًومتواضعاً ٠

وان أخبار هيبته في مبدأ البعث لهاصور ووقائع ، ولـــكن ما كان عليه السلام يسلط هذه الهيبة التي تفرض صاحبها الا نادراً ، لتكـون استجـابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذي لا يدخله رهبة ولا ترغيب الا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة ٠

ولكن ان كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجها لوجه ، ورأى فيهم استهزاء مقيتا ، وانفرد بهم ، بين بأس الله تعالى عليهم ، وقوته وما وهبه الله تعالى من هيبة ربانية ، ولنذكر من ذلك واقعتين ·

احداهما ــ أنه يروي عمرو بن العاص أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف بالبيت ، والملأ من قريش جالسون في فنائه ، فكلما مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غمزوا بالقول ، فيبدو ذلك في وجهه ، وكرروا ذلك حتى أتم الطواف سبعا ، ثم التفت اليهم ، ووقف وقال لهم في قوة المؤمن، وعزمة الصادق ، وهيبة القائل : يامعشر قريش شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ، لقد جئتكم بالذبح ،أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فراعهم قوله وأفزعهم ، فما كان منهم أحد الا كان يرفوه بأحسن القول ، ويقول اذهب أبا القاسم موفورا · ماعلمنا عليك شرأ قط ·

ولا شك أن الهيبة الانسانية التي منحها اياه رب العالمين كانت هي الفاصلة في هذا ، وما كان للتهديد الذي ساقه عليه السلام له الأثر النفسي ، الا لصدوره عن مهيب قوي ·

الثانية ــ أن أشد الناس طغيانا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو ابن هشام الذي سماه التاريخ الاسلامي بحق أبا جهل فقد كان فاجراً ، لا شرف في القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعه، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبي عليه السلام يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت في اندفاعه الى الشر وصبره له ، ولقد كان لبعض العرب دين عليه، فماطله ، ثم امتنع عن السداد فأراد أن يستعين ببعض زعماء مكة ممن هم على شاكلته ليستأدوه دينه ، فأحالوه تهكما على محمد بن عبد الله ، فذهب اليه الرجل يستعين به ، فذهب النبي عليه السلام الى بيت أبي جهل الطاغية ، وطرق الباب ، فخرج اليه ، وفرائصه ترتعد ، من هول العزمة المحمدية ، فقال له النبي عليه السلام أد للرجل دينه ، فذل كبرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغراً ،وصار هو أضحوكة الجاهليين أشباهه ·

وكان عليه الصلاة والسلام يخفف من جأش من تناله هيبته عليه السلام،دخل، عليه رجل ، فأصابته من هيبته عليه السلام رعدة فقال عليه السلام : هون عليك ، فاني لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ·

وروى أبو هريرة : دخلت السوق مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وارجح أى ( أوف الميزان ) ، فيثب التاجر الى يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده ، وقال هذا ما يفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل . فذهبت لأحملها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

وقليل من الناس من يلتقي فيه التواضع والهيبة ، وان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد وصل الى أسمى درجات الهيبة ، ونزل من التواضع الى درجة يقرب فيها من كل ذي حاجة وذي ضعف ، يأنس به الضعيف ويرجوه ذو الحاجة في حاجته .

ان أكثر الذين يستكبرون . ممن يحسون بضعف في نفوسهم، ولا يجدون في أنفسهم قدرة شخصية تفرض هيبتهم فيستعينون بالكبرياء وغمط الناس والتسامي عليهم ، ليعوضوا النقص ، ويخفوا الضعف ، او يخلقوا هيبة صناعية : مصدرها مال ، ان ذهب فقد ذهبوا ، أو منصب يتعالون به اذا ألقوا عنه أصيبوا بالصغار والضياع ،أما ذو الشخصية المهيبة بتكوين الله تعالى ، وبما منحها الله تعالى من علم وفضيلة وقوة نفس . فانها لا تحتاج الى المهابة الصناعية والفطرسة والاستعلاء بها على الناس ، والاستهانة بهم ، واستصغار أمورهم .

والمهابة الفطرية التكوينية المستمدة من العلم والخلق والفضيلة هي والتواضع صنوان ينبعان من معين واحد ، فهما لا يفترقان ، لأن المهابة الفطرية ليست في حاجة الى غذاء صناعي ، بل ان المهابة توجب التواضع ليكون التآلف والتكامل الجماعي .

## العفو والتسامح :

١٣٩ ـ ينبعان من قلب سليم وخلق كريم ، ولقد قالت عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها في خلق النبي صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن ، فهو يأخذ بهديه ، ويتبع منهاجه من غير عوج ، ولا التواء ، والله

تعالى يأمره بقوله :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١)

ويستمع الى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢)

وقد هيأه الله تعالى قبل البعثة ،ليكون العفو عن هفوات الناس ، المتجاوز عن أخطائهم ، وان العفو والسماحة لا يسكنان الا قلبا خاليا من الأحقاد والأضغان ، ومن يعمل لبقود الخلق الى الحق لابد أن يكون نظره الى ما هو أمامه ولا ينظر الى الوراء ، والأحقادوالأضغان ، ومحاسبة كل امرىء على ما كان منه ، انما هي تشد صاحبها الى الوراء ، فلا يكون تفكيره الى ما يجب عليه القيام به في المستقبل ، بل يكون تفكيره في شفاء غيظ من أسقامه التي كانت في الماضي ، ومن يأتي برسالة داعيا الى الحق ، لا يكون دبري النفس يشغله الماضي عن الحاضر ، بل يكون عاملا للمستقبل ٠

ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي خلقه ليحمل أقوى رسالة ، وأعظم هداية رباه ربه على الصفح الجميل ، ليكون قلبه متجها دائما الى ما هيأه الله تعالى له ، من حمل الدعوة الى الحق ، متفرغا لها ، فما كان من احن يضعها دبر أذنه ، وما كان من واجب تفرغ له ليبلغ الرسالة على أكمل وجه ،فلا يشغل نفسه حقد ، ولا تملؤها احن، فحسك الصدور يشغل عن العمل ، ويفسد الصلات ، ويغري بالعداوة ونبي الله تعالى فوق أن يشغله ضغن ٠

ولقد كان النبي عليه السلام كذلك قبل أن يبعثه الله تعالى ، فلم يعلم في تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد الجاهلية وما كانت تبثه من عداوات ،

---

(١) الأعراف (٢) فصلت

بل انه في آخر الرسالة يعلن الصفح الكامل ، فيقول في قوة ذي العـزم من الرسل ، ( ألا ان دم الجاهلية موضوع ،واول دم أبدأ به دم عمي الحـارث بن عبد المطلب ) ٠

ولقد كان بعد البعثة حريصا على سد كل مسام الأحقاد والأضغان ،وذلك بمنع النميمة ، ولو كان ما ينقل صدقا ، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال« لا يبلغني أحد ، عن أحد شيئا ، اني أحب أن أخـرج اليكـم وأنا سـليم الصدر » (١) ٠

ولمحبته العفو الكريم والصفح الكريم ما كان يوجه لوما على عمل عُمِـل ما دام يخص نفسه ، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله .صلى الله تعـالى عليه وسلم:«والله ماقال لي لشيء صنعته لم صنعت هكذا ولا لشيء لم أصنعه ، لم لم تصنع » ٠

ويقول ذلك المشير الذى خدمه في السفر والحضر : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن النـاس خلقا ، أرسلني لحاجة ، فقلت : لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان ، وهم يلعبون في السوق : فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قبض بقفاي من ورائي قال : فنظرت اليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس ، ذهبت حيث أمرتك ٠ فقلت نعم أنا أذهب يا رسـول الله ، ومضى أنس خادم رسول الله صلى الله عليـه وسلم الى حيث أمره أو طلب اليه من حاجة (٢) ٠

هذا خبر يبدو صغيرا في مقام أخبار النبوة المحمدية ، ولـكنه كبير في مغزاه ، وفي معناه ، وقد بدت السماحة وسماحة الأخلاق ٠ أولا ـ في أنه عفا وسامح خادمه وهو يعانده ، ويردقوله ظاهراً ، فما لامه ، ولا عتب عليه، ولا احتسبها عليه ، ولكنه تركه لتقديره ، وقبل ألا يذهب الا مختـارا غير مأمور ٠

---

(١) البداية والنهاية ص٦ ، ٣٨ ٠
(٢) الكتاب المذكور ٠

وثانيا : تتبعه ليعرف ماذا أجدى الصفح الجميل ، وعلاج شماس النفوس بالتسامح والتساهل ، والاخاء من غير اعنات ولا استكراه في اغلاق واغضاب، أو مغاضبة ٠

وثالثا : لم يكتف بألا يغضب ، بل أنه يداعبه مع ذلك ، فيقبض عليه من قفاه ، ثم يناديه مداعبا ضاحكا يا أنيس ، يدلله بتصغيره ، وهو الذى عانده ، ورد ارادته ٠

ثم يقول معلنا انتصار السماحة والعفو ، وعدم المؤاخذة على ظواهر الأفعال « ذهبت حيث أمرتك » هذا كمال النبوة وخلق النبي الذى يدعو النفوس الشاردة فيروضها على الحق ،ويؤنسها في عفو وسماحة ، وصفح جميل ، بل ان الاشارة لا تعلو قط ،حتى تكون أمر ٠

وقال أنس هذا « كنت أمشى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذا شديدا ، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال :« يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » ٠

وان هذه السماحة ، وذلك العفو خلقه قبل البعثة ، وكان خلقه عند ما اشتد الأذى ، فهو يعالج عنف قريش بالرفق في القول ويعالج الايذاء بالصفح الجميل ، الذي لا يمن به ، ولكنه يهدي به من شاء الله تعالى ولو لم يكن العفو أساسا ، لطلب من الله تعالى كما قال تعالى عن نبيه نوح :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض،ولكل أمة رسول تكون أخلاقه على ما يكون سبيلا لهدايتها ولارشادها ٠

---

(١) نوح

روى أنه لما كذبت قريش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالغت في الأذي ، ولما لجأ الى ثقيف في الطائف أغروا سفهاءهم • أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « ان الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ـ فناداه ملك الجبال وسلم عليه • وقال مرني بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » « الجبلين اللذين يحيطان بمكة » قال النبي السمح الكريم قال:«اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » •

وذكر ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك ، قال أؤخر عن أمتي • لعل الله تعالى أن يتوب عليهم » •

وان سماحته عليه الصلاة والسلام وعفوه ليبدوان في عفوه عمن عادوه وآذوه وقاتلوه،ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والقتال الا سلكوه ، وما تركوا كيدا الا كادوه له ثم آل الامر الى أن ينتصر عليهم نصراً مؤزراً •

عندما فتح الله تعالى له مكة ، نادى الملأ من قريش ، ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الايمان ان كان لهم النصر ، ولكنه فكر فيما ينبغي لمثله معهم ، وتطبيب قلوبهم ، وازالة الأحقاد من نفوسهم ، فقد قال لهم في ود رآه في موضعه • ما تظنون أني فاعل بكم،قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، ما نظن الا خيراً ، قال أقول لكم ما قاله أخي يوسف لأخوته

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وبذلك أنهى الأحقاد ، ووضعها دبر أذنه ليستقبلوا عهداً جديداً في الاسلام •

ان الداعي بدعاية الحق ، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين :

أحدهما أدران التألم من الناس لأذى سبقوا به ، أو لحسك الصدور ، أو لفحش كان منهم ، فانه جاء لهدايتهم ،لا لمقابلة اساءة بمثلها ، ولا ليشغل

---

(١) يوسف •

نفسه بالنقمة بهم ، وان كانت حقا أو أخذ حق ، ولا علاج لذلك الا بأن يجعل نسيان الماضى ، والتسامح هو السبيل لهذا النسيان ، والعفو عما سلف من سيئات هو الذي يمكن الداعي من الخلاص الا من الحق .

ثانيهما : أن يبعد الأثرة عن نفسه ، فلا يفكر في العمل لنفسه ، وذلك يقتضي الايثار ، والفناء في دعوته التي يدعو اليها ، وان تطهير النفس من الأثرة ، انما يكون بتغليب ترك الحقوق اذا لم يكن في تركها اقامة لباطل ، أو خفض لحق ، أو سكوت عن حق عام ، فالداعي ينسى حقوقه الشخصية ، بل يهملها من غير تهاون ، ولا يترك حقاً عاماً ، ولا أمراً من موجبات دعايته ، فان تساهل في حقوقه ، فلكي يتفرغ بكله للحقوق العامة .

واذا كان ذلك ما ينبغي أن يكون عليه دعاة الحق ، والناصرين له من الناس ، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العالمين ، انه ينسى حقوق نفسه ، فيعفو عنها ، ويذكر حقوق الناس ، فلا يفرط في أي جزء منها .

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لم يكن فاحشاً ، ولا متفحشا ، ولا صخابا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » .

وفي الجملة ما كان يحمل الا الخير ، وينفي عن نفسه كل ما يثيرها على أحد ، فلا يكون منه الا النفع ، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكراهة الا أن يكون لله .

## حَيَاؤُه صَلى اللّه عليه وسَلم :

١٤٠ ـ الحياء صفة نفسية يظهر أثرها في العمل على ألا يفاجىء الشخص الناس بما ينفرهم ، أو بما لا يألفون ، لا يظهر منه ما يخالف الفضيلة ، فلا يعلن رذيلة ، ولا أمرا لا يتلقاه الناس بالقبول ، ويعمل على ارضاء النفس الجماعية ما لم يكن اثما ، وهناك صفات تلتبس مع الحياء ، أو يبدو بادي الرأي أنها تعارضه .

فقد ظن بعض الناس أن الحياء ضعف نفسي ، وأنه قد يكون السكوت فيه نوع من الرياء ، وذلك باطل ، لأن الحياء الحقيقى ليس ضعفا ، ولا ينشأ عن ضعف ، انما ينشأ عن الكمال ، لأن من عنده الحياء لا يحب أن يظهر

منه الا ما هو كامل في ذاته ، وألا يظهر منه ما هو مرذول في ذاته أو يعده الناس مرذولا ، وذلك ليس ضعفا ،ولكنه نقاء وصفاء للمجتمع من أن ترفقه مظاهر الانخلاع من القيود الاجتماعية ، والتحلل من الروابط الانسانية التي تربط الآحاد ربطا نفسيا ٠

والشجاعة والحياء يتلاقيان ، بل ان تلاقيهما هو ذروة الكمال ، فان قول الحق في موضعه ، وفي وقته المناسب يتلاءم مع الحياء ، والسكوت عن النطق بالحق في وقت الحاجة اليه ، لا يعد حياء ، بل انه استخذاء ، والحياء حماية للفضيلة ، وتضييق على الرذيلة من أن تظهر ، واذا كان للحياء أثر في شجاعة قول الحق ، فانه يحمل القائل على الدعوة اليه في رفق من غير عنف فيكون أجدى ، وأشد تثبيتا ، وأهدى سبيلا ،وان اقتضى الحق مجاهرة به تأخذ وصف القوة ، لا يمنعها الحياء ٠

ولا يظن أحد أن في الحياء رياء ،انما الحياء ألا تنطق الا بالحق ، أو لا تغمطه ، أو تغمض العين على الباطل ،انما الحياء يمكن صاحبه من أن يسوس الحق سياسة المستمسك من غير هوادة الا أن تكون رفقاً ٠

ولقد ذكر القاضي عياض في الشفاء في بيان الحياء : وأما الحياء والاغضاء ، فالحياء رقة تعترى وجه الانسان ، عند فعل يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيراً من فعله ، والاغضاء التغافل عما يكره الانسان بطبيعته ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات اغضاء ٠ قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾ (١)

عن أبي سعيد الخدرى رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها » (٢) ٠

وان مظاهر حياء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبدو في عامة أحواله ، نذكر بعضا منها يدل على سائرها ٠

---

(١) الأحزاب (٢)الشفاء جـ ١ ص ٦٨

( أ ) أن بعض أصحابه كانوا لفرط كرمه يتناولون الطعام ، ثم يأخذون في الحديث ، فكان هـذا يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وقـد يكون منه اضطراب في بيته ، واقلاق لراحة أهله ، وضيق في ذات نفسه ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحي من أن يأمرهم بالخروج ، أو يطلبـه اليهم ، أو يشير به بأي نوع من أنواع الاشارة ، حتى تولى الله تعالى ، تعليـم المؤمنين الأدب في هذا المقام ، وأعفى رسوله من أن يخالف قانون حياته ، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

( ب ) ومن مظاهر حياته ، وعدم المجابهة من غير ضياع للحق ، أنه اذا كان قد بلغه عن أحد ما يكرهه ، لا يجابهه بأنه فعل ما يكره في الشرع ، ولا يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يقول : « ما بال أقوام يصنعـون كذا أو يقولون كذا .. فينهى عن العمـل ويستنكره ولا يسمي فاعله .

وان ذلك فوق أنه مظهر من مظاهر الحياء ، فانه أولا يجعـل النهي عاما ، والاستنكار شاملا لكل من يحتمـل أن يقع منه هذا الفعل ، وفوق ذلك ان ذلك التعميم على قبح الفعل في ذاته من غير تعلقه بشخص بعينـه ، فالاستنكـار للفعل من غير نظر الى فاعله ، ومع كل هذا فان ذلك هو الحكمة ، لأن المجابهة للفعل فيه خزيه ، وقد يجر تكـرار اللوم الى المجاهرة والاستمـرار وان تكرار الخزي اعانة للشيطان ، كمـا قال النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) الأحزاب

لقوم قالوا لمحدود في شرب خمر ، أخزاك الله ، فقـــال لهم النبي صـــلى الله تعالى عليه وســلم لا تعينــوا عليـــه الشيطان ٠

( جـ ) ومن مظاهر حياته صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، أن الفعل اذا كـان يندر وقوعه ، فاذا وقع لا يجابه صـــاحبه بالنهي ، بل يحث أصحابه عـلى أن ينبهوه ، دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار مما رأى أنه لا يليق أن يكون لبسة الكاملين ،فلم ينبهه النبي صـــــلى الله تعالى عليه وسلم ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينبهه ، وقد دفع الى ذلك حيـاء النبي عليـــه الســـلام أولا ــ والرفق بالرجل من مرارة الاعلان ثانيا ، ومنعه من أن يقع عليه خزي ثالثا ٠

( د ) ومن مظاهر حياته ، ولطف مودته عليه السلام أنه كان اذا لقي الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه الى جـانب آخر ، حتى يكون محدثه هـــو الذي ينصرف عنه ٠

روى أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كـان اذا استقبل أحدا بوجه لا يصرفه عنه حتى يكـون الرجل ينصرف عنه ٠

وروى أنس أيضا أنه كان اذا صافح الرجل أو صافحه لا ينزع يده منه، حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ،واذا أراد رجل أن يسر اليه حديثا في أذنه ، فيحني رأسه له ، ويستمر حانيا رأســـه ، حتى يكـــون الرجل هـــو الذي ينحيه ٠

وقد يقـــول قائل ما للأحياء ، والشمائل النبوية التي من شأنها أن تسهل دعوة الرســول عليه السلام ، أنه أدب شخصي ليس له صلة بالدعاية أو تبليغ الرسالة ؟!

ونقول ان خلق الداعي يجـذب الى موضـــوع الدعوة ، فلو كان الداعي فحاشا ، أو صخابا أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته لنفر منـه الناس ، وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة ، بمقـدار ما يهمهم لبها ٠

واذا كان الخلق الطيب يجـــذب النفوس، ويوجهها نحو الحق ، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذابا للنفوس ، فان الحياء ، يجعل صاحبه لا يفجأ النـاس

بما لا يسرهم ، بل يجيء اليهم من جانب ما يألفون ، فلا تنفر النفوس ، ولا تنشعب عن الحق ، وان عنف الداعي ،وتفحش قوله يعوق دعوته ، ويكـــون استثقاله مؤديا الى رده ٠

واذا كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف ، وقوة في الحق وصل اليه في مداخل سهلة لينة ، ولقد قال في وصفه على بن أبي طالب كان أوســـع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ،وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ٠

ولقـد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء ، والاستمساك بالحق مزيجاً من أخلاق كريمة ، جعله لا يترك التنبيـــه الى الحق في رفق ، وجعله يصل الى ما يريد من ايغاله في القلوب ٠

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبي عليه الســلام بين لطف العشرة ، والحياء ، والتأديب اللطيف٠

قال ذلك العربي ، وهو ابن جبير !نزلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر الظهر ، فخرجت من جناني ،فاذا نسوة يتحدثن ، فأعجبني ،فرجعت، فأخرجت حلة حبرة فلبستها ، ثم جلست اليهن ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قبته ، فقال يا أبا عبد الله ما يجلسك اليهن ، فهبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت يا رســول الله ، جمــل لي شرود أبتغي له قيداً ، قال فمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعته ، فألقى رداءه ٠٠ ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال يا أبا عبد الله ، ما فعـــل شراد جملك ، ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقني في منزل الا قال لي الســلام عليك يا عبد الله : ما فعل شراد جملك ٠

فتعجلت الى المـــدينة ، فاجتنبت المسجد ، ومجالسة رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد ، فجعلت أصـــلي ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم من بعض حجره ، فجاء صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فصـــلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، فطولت رجاء أن يذهب ، ويدعني ، فقال النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم : طـول يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائـــم حتى تنصرف ٠

فقلت والله لأعتذرن الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولابردن صدره ، قال فانصرفت ، فقال السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت ، فقال عليه السلام رحمك الله مرتين أو ثلاثاً، ثم أمسك عني فلم يعد (١) ٠

أنظر أيها القارىء الكريم للتأديب النبوى لأصحابه من غير أن يكون فحشاً، وفي حياء المؤمن ، وأدب الهدي المحمدي لقد لاحظ رجلا يرى جمعاً من النسوة يعجبنه ، فيلبس أحسن ثيابه ، ويجلس اليهن ، فيسأله فيكذب ، فيراه يخطىء خطأين ــ أولهما ــ أن يخرق حجاب الحياء فيجلس في مجلس النساء ، وذلك خدش لحيائهن ، وتهجم عليهن ،واختراق لحجاب الحياء في ذات نفسه ، ثم يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويلح النبي عليه ، ويلومه على ما كان منه ٠ بل انه يوهمه ابتداء أنه صدقه في كذبه ، ويوميء من طرف خفي الى أنه لم يقبل الحقيقة ٠ فيكرر له ما اعتذر به وقتاً بعد آخر بأناة ، وذلك ليحمله على التوبة ، والاستغفار انه يريده على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب ، فأخذ يكرر السؤال في شبه مداعبة ، وهو يقصد اللوم ، انه ما انتهى من تكرار القول ، وهو يعرف مداه من القلب ، حتى أقر بما ارتكب ، وبأنه قد كذب على الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه، والاقرار بالذنب أول أبواب التوبة ، وقد ندم على ما فعل بدليل تهربه من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

## جـــوده صلى الله عليه وسلم:

١٤١ ــ الجود اذا لم يقصد به التفاخر ، كان بابا من أبواب الخير الذي يكون بالعطاء لذي الحاجة الذي لا يمنن فيه ولا يستكثر ، بل يبذل سداً لحاجة محتاج ، أو لاعانة مستعين أو ليتصدق يرجو ما عند الله تعالى ، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورا ، وهو بهذا خلق جماعي يربط المودة بين آحاد الجماعة ٠ ولقد عد الحكماء أن الفضائل أربعة جعلوا منها الحكمة والشجاعة ، والعفة والسخاء ، فهو فضيلة عامة ،لا تصدر الا عمن يحس بحق الجماعة عليه ٠

---

(١) الوفا باخبار المصطفى لابن الجوزى جـ٢ص ٤٤٩ ٠

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جواد يعطي ما في يده ولو كان في حاجة اليه ، فهو علّم المؤمنين أن يؤثروا على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ٠

ولقد ذكر ابن عباس فقال « كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » ٠

فالجود صفة ملازمة له تعلو ولا تنزل ، تعلو في رمضان ، ويسمو علوها في العشر الأخيرة من رمضان عند ما يذاكره جبريل القرآن ٠

وقد كان الجود خلقه قبل البعث ،كما استمر من بعد البعث ، اذ كل شيء فيه قد ازداد خيراً ، ولقد قالت له( خديجة ) رضي الله تعالى عنها : «انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم » ٠

وقد جاء في كتاب الشفاء رد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف وأعطى اليه العباس من الذهب ما لم يطق حمله ، وحمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها فقسمها ٠

فكان من كرمه صلى الله عليه وسلم أن يوزع كل ما يجيء اليه من غنائم ، ولا يبقي منها لنفسه شيئا ، الا مايكفيه ٠

وما كان يرد طالب حاجة قط ، حتى كان يبلغ به الجود ( أن يجود بالموجود كله ) بل انه اذا لم يكن الموجود حمل عبء الدين ليسد الحاجات ٠ جاءه رجل يسأله حاجة ، فقال ما عندي شيء ،ولكن ابتع علي ، فاذا جاءنا شيء قضيناه ، ولقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد رأى محمد بن عبد الله يتحمل ثمن البياعات ، ليؤديه اذا لم يكن معه قال له : « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبه ووزيره عمر الفاروق ذلك ، لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه ، وبين سجيته التي فطره الله تعالى عليها ، والتي جعلته فوق الكرماء والأجواد » ٠

ولقد لاحظ ذلك أنصاري كان في حضرة الرسول وصاحبه فقال : يارسول الله ، أنفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ كره ، وعرف البشر في وجهه ، وقال بهذا أمرت وذكر الخبر الترمذي ٠

ولقد كان جوده من فرط اعتماده على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب ، ولأنه يؤثر على نفسه ، ولأنه حمل نفسه سد حاجة أي محتاج ، فهو جود من قبيل تحمل الأعباء ، لا من قبيل السخاء المجرد ، لقد قال عليه السلام ، وصدق فعله قوله « من ترك مالا فلورثته ،ومن ترك عيالا فإليّ وعليّ » ٠

فمال الناس لأنفسهم الا ما يفرض من زكوات عليهم ، وأما الذين لا يستطيعون أن يعولوا أنفسهم ، فهم يكونون في عياله ، وعليه وحده تحمل أعبائهم ، ذلك أن الفقراء عيال الله ،ويحملهم رسول الله ٠

يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ « كان رسول الله لا يدخر شيئاً » ٠

وعن أبي هريرة أن رجلا جاء يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مع الرسول مال فاستلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان جود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليزيد ، حتى انه يخلع ثيابه لمن يطلبها فقد روى الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى صاحب بز فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم ، فخرج وهو عليه ، فاذا رجل من الأنصار ، يقول يا رسول الله أكسني قميصاً ، كساك الله تعالى من ثياب الجنة ، فنزع القميص فكساه اياه ، ثم رجع الى صاحب الحانوت ، فاشترى منه قميصاً بأربعة دراهم ، وبقي معه درهمان ، فاذا بجارية في الطريق تبكي ، فقال ما يبكيك فقالت يا رسول الله دفع الي أهلي درهمين أشتري بهما دقيقاً فهلكا ،فدفع اليها رسول الله الدرهمين الباقيين ثم انقلب ، فاذا هي تبكي ، فدعاها ،فقال لها ما يبكيك ، وقد أخذت الدرهمين ٠ فقالت أخاف أن يضربوني فمشى معها الى أهلها ، فسلم فعرفوا صوته ٠٠ ثم قالوا ما أشخصك ، بأبينا وأمنا ، فقال أشفقت هذه الجارية أن تضربوها ، فقال صاحبها هي حرة لوجه الله تعالى لمشاك معها ، فبشرهم رسول الله بالخير والجنة ٠

ولقد كانت عشرة دراهم مباركة ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بركتها فقال : « لقد بارك الله تعالى في العشرة كسا الله نبيه قميصاً ، ورجلا

من الأنصار قميصاً ، وأعتق الله تعالى منهـا رقبـة ، وأحمـد الله هو الذى رزقنا بقدرته » (١) ٠

وكان عليه السـلام ينفق ماله ، ويحرض الناس على الانفاق ، وكان في كرمه كثير الاعتمـاد على الله تعالى في رزقه ، فهو يقول لبلال أنفق بـلالا ، « ولا تخش من ذي العـرش اقلالا » ويقول عليه السلام « ما من يوم يصبح الا وملكان يقول أحـدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » ٠

وان ذلك الكرم لم يكن بعد البعثة المحمدية ، بل كان قبلها ٠ ويقول في ذلك ابن كثير :

« ثم كان قبل البعثة ، وبعدها ، وقبل هجرته ملجأ للفقـراء والأيتام ، والضعفاء والمساكين » ٠

وهنا نقول ان جود محمد بن عبد الله ليس جود من يعرض عن المال فـلا يطلبه ، أو جود من يجرد نفسـه من أسباب الحياة ، فلا يترك المال اذا جاء ، بل يطلبه من أسبابه الحلال ، الطيبـة التي لا خبث فيه قط ، ولكن ليمر على يده مرورا ، ليصل الى الضعفاء واليتامى والأرامل والمساكين ، فهو يعبر من يده الطاهرة الأمينة اليهم ٠

لقد كان تاجراً يكسب من التجارة لنفسه ، ولزوجه الطاهـرة الأمينـة خديجة وتدر عليه الدر الوفير ، وكان يستخـدم كل خبرته التجـارية التي أفادها من بيئة مكة التجارية ، ولـكنه ما كان يفعل ذلك لنفسه ولا لزوجه ، ولكن ليعطي هو وهي الفقراء والضعفاء كسبهما الطيب الذى لا خبث فيه ٠

لقد ذكر عن عيسى عليه السلام الزهادة في المال ، وأنه لم يعمل على كسبه ، بل تجـرد منه ، ومحمد بن عبد الله صـلى الله تعـالى عليه وسلم فقـد كان يعيش ويكسب ويتجر في صدر حياته ليحصل على المال ، وينفق ما حصل عليه على الضعفاء ، فهو قـد سخر نفسه عاملا ٠

---

(١) راجع البداية والنهاية جـ ٦ ص ٦٥ ، وقد ذكر أن في بعض رواته من يضعفه بعض الرواة ٠ الرواة ٠

وفي كل فضل ، ولكن زهادة محمدايجابية ، اذ أنها تكسب المال من الكسب الطيب ، وذلك الكسب فيه نفع عام ،لأنه اما زرع يأكل منه الانسان ، واما عمل وكدح ينمى ثروة الجماعة ، واما نقل خيرات الأرض التي يفيض من اقليم الى اقليم آخر بالتجارة ، وفي ذلك نفع عميم ، ثم ان الكسب لا يبقى في يد الجواد ، بل يفيض به على غيره ،فهي زهادة ايجابية كادحة عاملة ٠

## شفقة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم :

١٤٢ ـ وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه رؤوف رحيم ، والرأفة والشفقة متقاربتان في المؤدى ، وقد قال تعالى في ذلك الوصف :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢)

ونحن فيما كتبنا من بحوث تتصل بهذا المقام قررنا أن الرحمة تكون آثارها عامة ، وقد أشار الى ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من الحث على الرحمة، فقال بعض أصحابه،يا رسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا ٠ فقال عليه السلام « ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ٠

والشفقة وأختها الرأفة تكون في النواحي الخاصة ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان فيه الرحمة بالكافة ،وكان فيه الرأفة للخاصة ما لم تتعارض الرحمة بالكافة ، وذلك يكون في الرأفة بالآثمين الظالمين الذين يرتكبون ما يوجب حدا من حدود الله ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) التوبة (٢) الأنبياء (٣) النور

وانه عليه السلام كان يعالج النفوس الشاردة بالرأفة التي تؤنس هذه النفوس ، فتقرب بعدها ، وتستأنس بعد جفوتها .

ويروى في ذلك أن أعرابياً جاء يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له أأحسنت اليك ، قال الأعرابي ولا أجملت فغضب الحاضرون من المسلمين ، وقاموا اليه ، فأشار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم أن كفوا ، ثم قام عليه السلام ودخل منزله ، وأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرجل ، وزاده شيئاً ثم قال أأحسنت اليك ، قال نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ، فقال عليه السلام : انك قلت ماقلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت . فقل ما قلت بين يدي ، حتى يذهب ما في صدورهم عليك ، قال نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي بذلك » . قال الأعرابي ، نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « مثلي ومثل هذا ، مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها الا نفوراً ، فناداهم صاحبها ، خلوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت اليه ، واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وانى لو تركتكم ، حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار » (١) .

ان ذلك الحديث ، ينبىء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدنيه الى الحق ، ولا يهلكه ، وانه يسوس النفوس ، ويتجه بها الى الجادة من غير عنف .

وفيه الشفقة الكاملة ، وأنها علاج النفوس ، وليس العنف علاجا ، ولكنه قمع في غلظة ، وقد يؤدي الى الاصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته .

وفي ذلك كمال التبليغ للرسالة الالهية ، وتعليم الراعي كيف يسوس الرعية ، ويأخذها الى مواطن الحق ، وحمايته .

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٧٢

وان شفقته الشخصية على المتصلين به لتبدو في معاملته لأهله من أزواج وأقارب سواء أكانوا أقربين أم كانـواغير ذلك ممن لهم رحم موصولة ٠

ولقد امتنع عليه النـوم عندما أسرعمه العباس بن عبد المطلب في غـزوة بدر ، فكان يبكي لأنينه ، وهنا في هذه القضيـة ، يبدو أمـران يظهـران متناقضين ـ أولهما ـ ألمه لأن عمـه وحبيبه العباس قد أسر ، ويذوق مرارة الأسر بشفق عليه ، ويشتد الأسى عليه ـ وثانيهما ـ العدالة المقـررة الثابتة التي تسوى بين الناس في النتائج ، اذا تساووا في الأسباب المـوجبة لهـذه النتائج المؤدية اليها ، وان الجمـع بين دواعي الشفقة ، وموجبات العدل عسير على غير محمد عليه السلام ٠

وان الشفقة ودواعيها ، والحـرص على الواجب والعدل ، ليتجلى في أمـر زوج ابنته ، فانه كان أسيرا في غزوة ، فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك اساره الا بفداء ، فأرسلت زوجه زينب بنت محمد عليه السـلام ، الى أبيها تفدي زوجها بحلية عندها كانت أهدتها اليها في عرسها أمها خديجـة أعز النساء على محمد بن عبد الله عليه السلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر في القلب الشفيق في الرجل العادل ، ففيه الشفقة على ابنته ، وفيه الذكرى، لأوفى النساء له وأبرهن به ، وأحناهن عليه ، وأعزهن عنده ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير ، فهنا التكليف الشاق ، والاحساس القوي، فمحمد القوي يبكي من فرط ما جاش في نفسه من ذكرى، وما يدعوه الواجب فيجمع أصحاب الحق في الفداء ، وهم الغزاة المجاهدون ، ويعرض عليهـم النظر في واجبه ، والرفق باحساسه ، وما هو بالذي يفرض عليهم الرأي ٠

فيكون الرأي من أصحاب الحق فيه أن يعيدوا الحلية الى صاحبتها ٠

وهنا نجد محمداً عليه السلام يجمع بين شفقـة الأبوة ، وذكـرى الزوج البارة ، الحانية العطـوف ، والواجب العادل الذي عليه أن يؤديه ٠

وان شفقته الأبوية التي لا تتعارض مع الواجب ، أو لا يعارضها واجب من العدالة ، والتسوية بين الناس لتبـدو في شفقته ، على ابن زينب ، وهـو يحتضر ، فقد أرسلت الى أبيهـا نبي هذه الامة ، ولكن الرجل الشفيق خشي من ضعف الشفقـة أن يرى حفيـده يحتضر ، فأرسل اليهـا عليه السـلام

يقول لها « ان لله ما أخذ وما أعطى ،وكل شيء عنـــده مسمى ، فلنحتسب لنعتبر » ، ولكنها تصر على أن يحضر ،وتقسم عليه ، فقام اليها النبي ، وقام معه من بحضرته من صحابته ، فوضعه عليه السلام في حجره ، ونفسه تخرج، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليـــه السـلام فقال له سعد بن أبي وقاص : « ما هذا يا رسول الله » ، قال الرسول« هذه رحمة وضعهـا الله في قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » ٠

ولقد كانت الشفقة مع القيـام بالواجب ، تتجلى في موت ولده ابراهيم الذي وهبـــه الله تعالى على الكبر ، ثم استرد الوديعة ، فما رؤي رسـول الله في حزن الأبوة ، كمـــا رؤي في وفاة ابراهيم ، اذ بـكى من عبء ما أصيب به ، وكان ثقيلا ، ولما رأى أسامة بن زيد محمداً يبكي صرخ ، فنهاه صـلى الله عليه وسلم وقال له يا أســـامة :« البكـــاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » ٠

ولقد كان وهو يبكي يقول : « الموت حق ، وان القلب ليحزن ، والعـــين لتدمع ، وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وفي هذا اليوم كسفت الشمس ، فقال المحبون ، ان الشمس كسفت لابراهيم ، ولكن نبي العقيدة الصحيحـة البعيدة عن الأوهام ، نسي حزنه ، أوغلب واجبه على حزنه ، كمـا هو شأنه دائما ، فوقف خطيباً ٠

ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفـان لمـــوت أحـــد ، ولا لحياة أحد ٠

وأم الناس ، وصلى بهم صلاة الكسوف ٠

وهـــكذا كان محمد بن عبد الله الشفيق الرقيق الودود المحب دائمـاً ، ولكن عاطفته الانسانية لا تتغلب عـلى واجبه ، بل الواجب أولى ، وأحرى بأن يؤثره على غيره ٠

وان شفقته تعم ، فتكون رحمة ، لاتختص بالآحاد ، بل هو أحيانا يغضب ولا يغضب الا للحق ، ولكن قلبه التقي الخالي ٠ من كل سوء بالناس ، تغلب عليه الرحمة العامة دائماً ، فيقول في ضراعة لربه الرحيم :

« اللهم اني بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل دعوت عليه ، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهورا ، وقربة تقربه اليك ، يوم القيامة » .

وان مظاهر حياته كلها شفقة ، فامرأة في عقلها شيء يقف معها في جانب من الطريق يستمع الى حاجتها ، ويلقي في قلبها الطمأنينة .

وجارية يضيع منها ثمن دقيق ، فيدفعه لها ، وتبكي خشية أن يضربها مالكوها ، فيسير معها اليهم ليمنعهم من ضربها وأحد السبطين يركب على ظهره ، وهو ساجد ، فيطيل السجود ، حتى لا يزعجه ، ويستمر مرتحلا ظهر جده الرؤوف الرحيم ، حتى يتركه .

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفف في صلاته ، ليكون بجوار الطفل ، من يرحم بكاءه ، وهكذا . وقد يقول قائل : ان شفقة النبي عليه السلام أمر ثابت ، وهل لهذه الشفقة صلة بالرسالة ، وولايته لامر المؤمنين .

ان شفقة المسيح عليه السلام كانت لروحانيته ، وأنه لم يكن منشيء دولة .

ونقول في الاجابة عن ذلك : ان عيسى عليه السلام كان صاحب رسالة ، وكان من مقتضى هذه الرسالة أن يكون بالذين يدعوهم رؤوفا ، فالشفقة من مقتضيات الرسالة والدعوة فان الدعوة من الشفيق الرفيق تكون مستجابة من القلوب الطيبة المؤمنة المطمئنة ان الرحمة هي التي تجذب الناس الى الداعي ، وليست القسوة ، ان النفوس التي تدعى الى الحق منها ما يفتح الله قلبه للحق بقوة ايمان الداعي وشفقته ، واجتذابه اليه بالحق ، ومنهم من يحتاج الى البينات والأدلة وهؤلاء هم أهل البرهان والدليل ، ومع الأنبياء معجزاتهم ، ومنهم من يكون على قلوبهم غشاوة ، وهؤلاء يدعون بالبرهان والحق ، وتكرر الدعوة اليهم فان اعتدوا رد كيدهم في نحرهم .

وان من مقتضى الولاية الشفقة ، ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاة الرفق بالرعية ، ودعا لهم ان رفقوا بها ، وأشفقوا ولم يرمضوهم بقسوة أو ظلم أو استكراه ، أو اضعاف للنفوس ، ولقد قال عليه السلام في ذلك : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فأشقق عليه » .

ولقد أدرك هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واتخاذه له قدوة فكان لا يولي الا من يشعر منه بأنه يكون في ولايته شفيقا رحيما الا اذا وجب حد ، فانه لا شفقة ، والرحمة بالكافة تقتضي اقامته ٠

ولقد دخل على عمر رضى الله عنه رجل ، وكان عمر قد اعتزم أن يوليه ولاية ، فرأى عمر يقبل بعض ولده ،فقال الرجل أو تقبل ولدك يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، وأنت ألا تقبل ولدك ، قال : لا ، فقال الفاروق وأنا لا أوليك من لم يرحم ولده لا يرحم رعيته ٠

## صدقه وأمانته وعفته صلى الله عليه وسلم

١٤٣ ــ ان حديث صدق الرسول عليه السلام يعد من نافلة القول في هذا المقام وكذلك أمانته ، وعفته فهو الصادق الذي عرف بالصدق منذ أن وعى الى أن قبضه الله تعالى اليه ، فما عرفت عليه كذبة قط في حياته كلها صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان الكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب ، فان الحرية التي كانت لهم بمقتضى قيامهم في بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكم في عقولهم ونفوسهم ، وألسنتهم وتفكيرهم ، ولم يكن عندهم الملق الذي يجعلهم يدهنون في القول رجاء خير يبتغونه ، وانه حيث يحكم الملك العضوض ــ وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان ، احداهما النفاق ، وثانيتهما الكذب ، لأن النفاق في ذاته كذب ، والكذب لازمة من لوازمه ، ولذا أثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » ولم يظهر في العرب نفاق أو كذب الا ما كان يصاقب حواضر البلاد التي يحكمها ملوك أو أمراء كالملوك أو حكام مستبدون بشكل عام ، كأراضي العرب التي كانت تجاور النعمان ، أو الغساسنة في الشام ، فانه يجوز أن يكون فيها النفاق والكذب والملق ، ووراءهما خيانة الأمانات ٠

وان التاريخ ليروي أن أبا سفيان ،وقد كان زعيم الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين هرقل ملك الروم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد سأله عن نسبه الكريم ،فقال انه من أوسطنا نسباً ، وعمن

يتبعـــونه ، وعن أسـئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبي عليه السـلام ، أجـــابه بالصدق غير مائن فيما يقول ،ولقدقال،وهو محنق من أثر الحقائق التي ذكرها لهرقل : « لولا أني أخشى أن يحفظ عنيكذبة في العرب لكذبت » ٠

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغا بينهم ٠

وكذلك النفاق ، ولم يعرف النفاقفي أوساط المسلمين الذين استجـابوا الا من اليهود ، ومن يجـــاورونهم منمشركي المدينة ، فقد ظهر فيهم النفاق مقترنه بقوة المسلمين ٠

اذن لم يكن غريباً أن يكون محمـدصادقا بين الصادقين ٠

ولكن صدق محمد صلى الله تعـــالىعليه وسلم ليس كصدق غيره من أهـل مكة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعدهالله تعالى ليكـــون رســـولا للعالمين ، فأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كانتمن ارهاصات النبوة ، فلم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم صادق القول فقط ،بلكان صادقا للقول ، وصـادق الحس ، وصادق النفس ونقصد بصـدق الحس بأن يكون نظره الى الأشياء والأشخاص صادقا في وصفها ، مستبطنا من وراءالظاهر ، ما يعرف حقائق استبطنتها ، ثم صادق في النظر الى نفسه ، فيعرفمواضع الخير ، فيفعلها، ويعرف مواضع الشر فيجتنبها، وهو صادق في مقاصده،وصادق في غاياته ، يخلص في ادراك الحقائق، والاتجاه اليها اتجاها مستقيمالا عوج فيه ، فيستقيم ادراكه ، ويصدق في كل أمر يتصل بالقلب والضمير ٠

ولأن الايمان أساسه الاخلاص فيالعمل والقول والاذعان ، لا يتصـــور ايمان مع كذب ، ولقد سئل من بعـدنبوته ، أيكون المؤمن جبانا ، فقـــال عليه السلام يجوز ، وسئل أيكون بخيلاقال يكون بخيلا ، وسئل أيكون المؤمن كذابا : قال لا يكون المؤمن كذابا ، اذالكذب والاخلاص في الاتجاه والقـول والعمل نقيضان لا يجتمعان ٠

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رأته قريش كلها ، وآمنت به، حتى سمي بالأمين ، كان يعرف بالأمانة،وينادى بالأمين ، وان الأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غـــيرصدق ، والصدق يقتضي كل الفضائل، والكذب عش الرذائل ٠

وعفة محمد بن عبد الله عليه السلام كانت صيانة من الله تعالى صانه عن أن يلهو ، ولا يمكن أن تكون الشهوات وانحرافها، الا ومعها اللهو بكل ضروبه، وقد صانه الله لا عن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقـــدماتها ، وعن أخذ أسبابها ، فصانه عن اللهـــوولو كان بريئا ٠

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام الى الرغبة في أن يحضر عرسا فيه لهو ، فانه عندما ذهب اليه ضرب الله سبحانه وتعالى على ذاته بنعـــاس أصابه من غير غم ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشمس في ضحاها ، وكذلك كان الأمر في ليلة أخرى ، حين استوى عوده ، وكانت له ارادة مسيطرة على نفسه ، كان عزوفه عن اللهو بارادة مهدية مدركة ، ولم يكن بنوم يصيبه الله تعالى به ولذلك استعصم ولم يحـــدث منه قط ما يكـــون انســـياقا وراء هوى جامح ، أو شهوة مسيطرة ٠ حتى كان الزواج ، فكـــان الحـــلال الذي لا مرية فيه ٠

١٤٤ ـ انه يستدل على سجايا الرجل بمقدار رعايته لمن كان لهـم به صلة وممن كانوا معه على عشرة طيبة ، فيوفي بحق هذه العشرة ، يرعاها حـق رعايتها ، يصلها ولا يقطعها ، يذكـرها ولا ينكـــرها ، فالوفاء خلة الرجـــل الكريم ، وبمقدار وفائه يكون مقدار ما آتاه الله تعالى من خلق سمح ، ونفس مؤمنة بالخير ، معترفة به لأهله ٠

وان وفاء النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم لمن مضى من معاشريه يسترعي أنظار من قرؤوا سيرته الطاهرة ٠

( أ ) وأوضح مثل ، وفاؤه لأم المؤمنين خديجة ، يود صديقاتها ، ويصل صلاتها يذكرها بالخـير والاعتراف بالجميل ، حيث جاء ذكرها ، حتى ان أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : « ما غرت على امرأة ما غرت على خـــديجة ، لما كنت أسمعه صلى الله تعالى عليه وسلم يذكرها وان كان ليذبح الشاة ، فيهـــديها الى خلائلها ٠ استأذنت عليه أختها فارتاح اليها ودخلت عليه امرأة ، فبش لهـــا وأحسن السؤال عنها فلما خـرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة » ٠

وان الوفاء لحسن العهد من الايمان، وناهيك بأعظم من في الوجود ، فلابد أنه كان أوفاهم ، ومما يتصل بوفائه لزوجه البارة خديجة أن عائشة من كثرة ثنائه عليها قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها ، فقال عليه السلام : « ألا والله ما أبدلني خيرا منها ·· آمنت بي اذ كفر الناس، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » ·

وكان لفرط وفائه كان اذا رأى أحدا من أولادها من غيره فاض عليه بالعطف والحنان ، اذ قد سمع صوت ابنها هالة قد جاء اليه ، فخرج اليه مناديا في لهفة فرح : هالة ، هالة ·· وأكرمه ، وبالغ في اكرامه ·

( ب ) ومن أوضح وفائه عليه السلام وعرفانه للجميل ما روي عن أبي قتادة أنه لما جاء وفد النجاشي ملك الحبشة الذي آوى أهل الهجرة الى الحبشة وأكرمهم قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نكفيك يا رسول الله خدمتهم فقال محمد الوفي العارف للجميل : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأحب أن أكافئهم » ·

نعم ان محمداً عليه السلام يجازي الاحسان بمثله ، والا ضاع العرف بين الناس ، وهو أسوتهم ·

( جـ ) ومن كريم وفائه ، ولطف مودته وعدم نسيان من ارتبط معهم برباط من مودة وعشرة ، مهما يتباعد زمانها ، فان الكريم لا ينسى عشرة من عاشرهم ، ضعفوا ، أو علوا ، قدم عهدهم ، أو قرب ، وقد وجد أختا له من الرضاع اسمها الشيماء من سبايا هوازن ، فتعرفت له ، فلما عرفها بسط لها رداءه ، وقال لها ان أحببت أقمت عندي مكرمة محببة ، أو متعتك ورجعت الى قومك فاختارت قومها ، فأرسلها ·

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان جالسا يوما ، فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام صلى الله تعالى عليه وسلم فأجلسه بين يديه ·

( د ) وانه ليوفي حتى لمن فرح بولادته ، فقد كانت جارية لأبي لهب قد أرضعت النبي عليه السلام في أول ولادته ، وخرجت فبشرت أبا لهب بالولادة ، وأعتقها أبو لهب ، لهذه البشارة فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يبعث اليها بصلة مستمرة موصولة ما كانت حية ، فلما ماتت سأل عمن بقي من ذوي قرابتها ، فقيل لا أحد .

ولقد كان في جملة أخلاقه أنه يصل رحمه ، ولو لم يكونوا له نصراء وأولياء ، فهو لا يصل رحمه مكافئا ،ولكن يصلهم راحماً ، وقد روي أنه عليه السلام قال عن بعض ذوي رحمه: « ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحما سأبلها ببلالها » (١) .

(١) الشفاء جـ ١٨ ص ٧٤ ، ٧٥

١٤٤ ـ تحير ابراهيم عليه الصلاة والسلام في تعرف ربه الذي يستحق العبادة وحده ، ولا يشركه في العبادة وثن ، ولا شجر ، ولا شيء من المخلوقات، وحكى الله تعالى حيرته في كتابه الكريم ، اذ حكى عنه أنه ابتداء أنكر أن تكون الاصنام آلهة ، واستنكر على أبيه عبادتها وقال تعالى في قصته :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا أن الخليل عليه السلام ابتدأ في الخروج من الضلال الذي كان في قومه ، فبين أن الوثن لا يصلح ربا لأنه لا يضر ولا ينفع ، وقام لديه الدليل بازالة ما يعلق بها من أوهام فحطمها ، وتأكد بتحطيمها أنها لم تضره ، وأنها لا قوة فيها ، لا ظاهرة ،ولا باطنة .

---

(١) الانعام

ثم أخذ يختبر الآلهة التي كانت شائعة بين أقوامه ، فجاء الى النجـــوم ، وكان من سكان العراق الذين عرفهـم ممن كان يعبد النجـــوم ، فاتجـه الى النجوم يعرف سر كنهها عساه يجد قوة فيها تسوغ تألهها ، فوجـــدها تأفل ، فليس لها بقاء ذاتي مستمر ، ومثلهـا لا تصلح للألوهية ، ثم اتجه الى القمر باعتباره كوكبا كبيرا ، فوجـده مثـل سائر الكواكب ، ثم اتجه الى الشمس وكان المصريون يزعمـــون أن فيهـــا آلهتهم ، وقد زار مصر ، ولكن وجـدها لا تصلح للألوهية ، لأنها أفلت ،وهكذا نراه متحيرا ، حتى هداه ربه ، فكان أبا الأنبياء ، فمن ذريته الأنبيـــاء الذين جاءوا بعده ، وذكرهم القرآن الكريم، ثم كانت الهداية بعد الحيرة،والاطمئنان واليقين ، بعد الشك المحير ٠

ونبينا محمد بن عبد الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم خطا خطـــوة ابراهيم الأولى ، وهي انكار عبادة الأوثان فقد أنكرها ابتداء ، ولم يعترف لها بوجود، فما سجد لصنم قط ، وما قدس صنما قط ، واذا استقسمه أحد ، لا يقسـم بها ، ولما أراد بحـــيرى الراهـــب أن يستحلفه باللات رده ، وقال انه يكـره ذكرها ، وما كره ذكر شيء كما كـــره ذكرها ، فأدرك محمد ( عليه الصـــلاة والسلام ) حفيد ابراهيم ما أدركـــه ابراهيم ، وعلم بالعقل السليم ، وفطرة الله تعالى ما علمـــه جـــده الأكبر ابراهيم ٠

ولكن الخطوات الأخرى التي خطاها ابراهيم في معرفة ربه لم يخطها ، فلم يخط خطوة تعرف الله في النجـوم ولا في الشمس ، بل وقف عند عبادة الله ، وادراك عظيم قدرة الله سبحـانه ، واستحقاقه وحده للعبادة ٠

والسبب في أن محمدا صـــلى الله عليـه وسلم لم يخط الخطـــوات التي خطاها خليل الله ابراهيم ، أن ابراهيم رأى فعلا من عبد مع الأوثان الكواكب، وعبد الشمس ، ولم يكن في الأقـوام الذين بعث فيهم من يذكرون الله كثيرا، ولو على انحراف في الاعتقـاد ، أما العرب ، فكانوا يعرفون الله تعالى ببقايا ديانة ابراهيم ، وكانوا يذكرون الله في الحج بغية ابراهيم في العبادة ، فهـــم يعرفون الله على انحراف ، ولم يكـونوا يجهلونه ، بل كانوا في مناسـك الحج يذكرون الله كثيرا، في تلبيتهم ووقوفهم في مناسكه ، والضلال في اشراكهـــم بالله ، بينما الظاهر من تاريخ الكلدان، والمصريين ، أنهم ما كانوا يذكرون الله تعالى في عبادة قط ، فلما نشأ محمـد عليه الصلاة والسـلام في قوم يعرفون

الله ويشركون معه في العبادة أوثانهم ،ترك ما ابتدعوه ، وأنكره ، وبالغ في انكاره ، وأبقى من بقايا ابراهيم الاعتراف بالله ، ثم كان ايمانه بربوبيته وحده ، واستحقاقه وحده للعبادة والألوهية ٠

وقد يقول قائل : « ان الله تعالى وصفه بأنه كان ضالا فهدى ، اذ قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾ (١)

فان هذا يدل على أنه كان ضالا في العبادة،ومن يعرف الله تعالى لايضل في عبادته ونقول في الجواب عن ذلك: ان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كان يعرف الله تعالى ، ويؤمن به ، ويكفر بالأوثان،وينكر أن تكون مستحقة لأى نوع من التقديس لها ، كما رأى جده الأكبر ابراهيم أنها لا تضر ولا تنفع ٠ ولكنه كان حائرا في الطريقة التي يعبد الله تعالى بها ، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه الى الله تعالى ، وعبادته وحده ،ويريد أن يقوم بحق الله ، وكانت ديانة ابراهيم قد جهلت ، ولا يعرف من طريقتها الا قليلا ، فكان لابد من أن تصيبه حيرة ، حتى يهديه الله تعالى الى شيء مما بقي من دين ابراهيم ، وهذا هو مؤدى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾

١٤٥ ــ وان محمدا نشأ عابدا منذ أدرك سن التمييز ، فكان عقله في الله تعالى يفكر كيف يعبده ، ثم يجد في التفكير في خلق الله تعالى عباده ، واذا كان ابراهيم عليه السلام قد أراه الله تعالى ملكوت السموات والأرض ليصل الى ادراك ربه ، فقد كان محمد بن عبد الله منذ كان غلاما زكيا يرى في خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، والنجوم المسخرات بين السماء

(١) الضحى (٢) الشورى

والأرض عبادة ، لا ينظر الى السماء وأبراجها وزينتها ، والشمس وضحاها، والليل اذا يغشاها ، لا ينظر الى كل ذلك على أنها مناظر جميلة ، وزينات باهرة ، بل ينظر في دلالتها على الخالق، ولا ينظر اليها متعرفا سر الاضاءة في الشمس ، وانما يتعرف منها سر الدلالة على المنشيء ، والأرض والماء والزرع ، والشجر والثمار كل ذلك كان يستغرق تفكيره لا ليعلم كيف خلق ، ولكن ليعلم من الذي خلق ، وكلما أمعن بفكره تعرفا للخالق ، واستدلالا عليه ازداد ايمانا به ، وطلبا لرضوانه ، واطمئنانا لنفسه ٠

اتجه الى معرفة الخالق ، وما يرضيه عاكفا على ذلك عكوف العابد في صومعته ، لا يطلب الا ارضاء ربه ،ولكنه لم يعلم ما يرضيه ، ولا ما يكون نسكا له الا ما توارثه العرب من حج البيت ومناسكه التي بقيت من عصر ابراهيم عليه السلام ونزهت نفسه وقلبه ولسانه ، حتى صار ربانيا بفطرته المستقيمة وقلبه السليم ٠

وكانت كل أعماله لارضاء الله تعالى فهو يخالق الناس بخلق حسن ، لايكذب ويتصدق ويقدم للناس الخير ، لأنهم عيال الله ، وقد صار كل شيء فيه لله تعالى ، وقد صار قلبه المعلق بالله تعالى الخاضع الخانع ، لا يرى في الوجود الا الله تعالى ، ولا يحسب أنه الا القانت له ، الخاضع ، ولكنه يجهل الشكل الذي يرتضيه لعبادته ، فصار كله لعبادته ،قلبا ولسانا وعملا وخلقا ٠

وزهده في الاختلاط كان يريه من الناس افكا من عبادة للأوثان ، ومن خمر يعاقرونها ، وميسر يلعبونه ، وخصومات يفجرون فيها ، وشحناء ليست من شأنه ، ومجادلات ليست من غايته ،وشعر يتبعه الغاوون ، والكبر الأثيم الذي لا اثم فوقه ، تقديسهم للأحجار، واتجاههم الى تقديسها بدل تقديس الديان ، كل هذا زهده في الاختلاط ٠

ولذلك كان محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث عزوفا عن أن يغشى مجالس قريش في سمرها ، أو مايزجون به فراغهم ، الا أن يكون جدا يوجب الخلق الكريم مشاركتهم فيه ،كما شاركهم في بناء الكعبة ، وكما كان يحضر في ندوتهم اذا جد الجد ، وكما حضر حلف الفضول ٠

والسبب في عزوفه عنهم أنه يبتعدعن مواضع يعزب فيها عن ذكـــر الله ويبتعد عن التفكير في ذاته تعالت عنالشبيه ، وتنزهت عن المثيـل ، وأنه يريد أن ينصرف الفكر فيه ، والتفكرفي ذاته وارضائه خير من عبادة الحركات والمظاهـر ، فكانت حيـاته كلهـــا لله تعالى ٠

ما كان يخرج من خلوته الا لاسداءمعروف ، أو اطعام مسكين ، أو اغاثة ملهوف ، أو لاقراء ضيف عز عليـــه اقـــراء وان ذلك كله عبـادة ، لأنه ما يقصد الا وجه الله تعالى ، وارضاءالله تعالى وأي عبادة أعلى من ذلك شأنا ٠

كل شيء في الوجود يذكـره بالله ،فكلما رأى الخلق كان منه ما يدل على الخالق ٠ كلما رأى النعم في الوجـودتذكر الخالق ٠

ولقد دعا بعد بعثته الى التفكر فيالله تعالى ، فكان يقول « تفكروا في آلاء الله أى في نعمه » وحكى عن ربه أنه قال : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عـــرفوني » ٠

ولقد كان محمد بن عبد الله عليـه الصـلاة والسـلام يعلن أن التفكر في الله وآلائه وخلقه أساس العبادة ، وأنه لا عبادة من غير معـرفة الله سبحـــانه وتعالى ، ولقد قال علي بن أبي طالب صفي رسـول الله ، وحبيبه المجتبى : « سألت رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم عن سنته ( أي طريقته ) فقـال المعرفة رأس مالي ، والحب أساسي ،والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة بالله كنزي ، والحزن رفيقي ،والعلم سلاحي، والصبر ردائي ،والرضا غنيمتي ، والهجز فخـري ، والزهـــدحـرفتي ، واليقين قوتي ، والصـــدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهـــادخلتي ، وقـــرة عيني في الصـلاة ، ورويت زيادة وهي ثمرة فـــؤادي فيذكره ، وعملي لأجل أمتي ، وشـوقي الى ربي عز وجل » (١) ٠

حبه للاعتـــزال :

١٤٦ ــ قد كان من أحوال محمدبن عبد الله صـلى الله تعالى عليه وسلم الاعتزال الا في مكرمة تؤثر ، أو صلةرحم ، أو اغاثة ملهوف ، أو تحمـــل

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٦

للكل ، فعندئذ يتصل بالناس لينفعهم ،ويتقرب منهم ولا ينقطع حتى وهو في عزلته ، لأنه ما جاء لخيرهم فهي عزلة يسكن فيها الى الله تعالى خالق الناس ٠

وكلما كانت تتقدم به السن تزداد عزلته ، ويزداد تفكيره فى ارضاء الله تعالى ، وتعرف صفاته ، والوصول الى عمل ما يرضيه ، ويرى فيه ما تقربه عينه ، وتطمئن اليه نفسه ، ولا يريد غير الله ٠

وقد صارت العزلة خلوة يخلو فيها للعبادة ، فقد ذكر الرواة أنه كان يتحنث ( أي يتعبد ) في غار حراء ،الليالى ذوات العدد ، واستمر يزداد في الخلوة والعبادة ، وقال الرواة كان يتعبد شهرا كل عام ، حتى كانت البعثة، وهو في خلوته في غار حراء ٠

وكان عليه السلام يتزود لذلك ،ويمكث فيه الشهر للعبادة ، وذكر الله تعالى ٠

وقد تكلم العلماء في المنهاج الذى كان عليه السلام يتبعه في عبادته ، أكان على شريعة من الشرائع السماوية السابقة ٠

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه :

اختلف العلماء في تعبده عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ، وما ذلك الشرع ، فقيل شرع نوح ، وقيل شرع ابراهيم ، وهو الأقوى ، وقيل موسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده أتبعه وعمل به (١) ٠

هذا ما قاله ابن كثير ، وقبل أن نأخذه مأخذ التسليم مع تردد الأقوال بين نوح وابراهيم وموسى ننبه الى أمرين من الضرورى التنبيه اليهما في هذا المقام :

أولهما ــ أن الثابت من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومن تقرير القرآن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه لم يكن على علم بكتب الديانات القديمة ، فلم يعرف التوراة ، ولا الانجيل ، وان كانت فيهما بشارات برسول يأتي من بعدهما اسمه أحمد ، ولم يكن بمكة التي كانت محل اقامته مدارس للاهوت الموسوي أو المسيحي ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦

ولما ذكر القرآن أخبار اليهود والأنبياء السابقين قالوا يعلمه بشر هو شخص رومي ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

وبذلك يثبت أنه عليه السلام لم يكن على علم بالشرائع السابقة ، وذلك هو الحق ، وهو يتفق مع اعجاز القرآن في أنه أتى بالصادق من أخبار السابقين بوحي من الله تعالى ، اذ لم يكن عنده علم بها ٠

ثانيهما ـ أنه كان بمكة نفر قليل أنكروا عبادة الأوثان ، ولم يعبدوها ، وسموا حنفاء ، وقالوا انهم كانوا يتعبدون على بقايا من ديانة ابراهيم عليه السلام ، ولذلك سموا حنفاء ٠ وروى أن النبي كان يتحنف في غار حراء ـ بدل يتحنث ـ وانا نسوق ذلك ، لبيان أنه كانت هناك بقايا من ديانة ابراهيم عليه السلام ، فقد بقي منها بيقين بقية في الحج وبقاء جزء ، قد ينبىء عن امكان تعرف ما جهل ٠

وانا لذلك نقرر أنه عرفت عقيدة ابراهيم عليه السلام ، وربما تعرفت بعض الشرائع التفصيلية عنده من أركان الصلاة ونحوها ٠ وانا مع تقديرنا لهذا نرجح أن عبادة النبي عليه السلام كانت بالهام من الله تعالى من غير وحي ، وقد كان دائم التفكير دائم الخشوع دائم التأمل في الكون ، فهو ابتدأ بالعبادة الفكرية ، وربما عرف بعضا من صلاة ابراهيم ، كما عرفت بعض مناسكه ٠

هذا وان محمدا عليه السلام كانت رؤياه صادقة كل الصدق ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ان أول الوحي كان بالرؤيا الصادقة ، فكان اذا رأى رؤيا جاءت مثل فلق الصبح ، أي أنها تكون واضحة ، فلعله في وسط تعرفه لصلاة ابراهيم جاءته رؤيا بها مثل فلق الصبح ٠

---

(١) النحل

ومهما يكن من الروايات ، فان الثابت المؤكد ، أنه كان يتحنث في غـــار حراء الليالي ذوات العدد ، وكان يتزود بالزاد لخلوته ، هذه ، وكانت الالهامات تفيض عليه في المدة التي كانت قبـل البعثة ، وأنه كان يرى الرؤيا مثل فلق الصبح ، وأنه منذ بلغ سن ادراك المعانى الدينية كان دائم التفكـير والتدبر لمعرفة الله تعالى ومحاولة رضائه ، ونرجح بهذا أنه كـــان يتعبد عـلى ديانة ابراهيم ، وأنه وصل الى بعض أجزائها بالالهام وبالرؤيا الصادقة وبالتعـرف ، وانا نستبعد كل الاستبعاد أنه أخذ من التـــوراة والانجيـــل ، فما كـان له علم بهما ٠

## عبادته بعد البعثة:

١٤٧ ــ هذه صورة صادقة أو مقربة من عبادته عليه السلام قبل البعثة ، وهي تدل على أنه كان قواما لله تعـالى طالبا مرضاته ، واذا كان لم يعـــرف شريعة ابراهيم على وجه الكمال ، فقد عرف ما يكفيه لان يكون عابدا يطلب رضا الله تعالى ، وقـــد صفت نفسـه فأدركت ، وخلص قلبه فألهم ، وعلم أن ملة ابراهيم كانت الفطرة المستقيمـة والحنيفية السمحة ، فاختارها ، وسلك سبيلها ٠

فالعبادة المتجهة الى الله تعالى كانت في قلبه ونفسه ، وكيانه وخلقه ، قبل أن ينزل عليه كتاب هاد ، قد أذهـــب حيرته ، ووجد الكتاب ينير له السبيل ، ويفصل الأحكام ، ولا شك أنها تكـون أهدى بعد هذا التنزيل ، وأن العبـادة في الجاهلية قبل البعثة كانت في قلبه بذرة صالحة نمت لأنها كانت في أرض طاهرة خصبة ، ولم يكن لها سقي ولا رعي ، ومع ذلك آتت أكلها ، فبعـــد البعثة المحمدية جاءهـا السقي والرعي فأربت ونمت ، وازدهـــرت في قلب مخلص مدرك ، وصار قـــريبا من الله تعالى بقلبه الطيب المخلص ، وبمعرفة شرعه تعالى ، وباتصال الوحي به دوما من غير انقطاع ، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى ، وكلمـــا ازداد علمـــا بالله وشرعه ، ازداد عبادة ، وخوفا من الله وارضاء له ، ولقـــد روى أبو ذر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: اني أرى مالا ترون وأسمع مالاتسمعون ، أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضـــع جبهته ساجـدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ،ولبكيتم كثيرا ٠ رواه الترمذى ٠

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها عن عبادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقالت الصديقة بنت الصديق « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم ، حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وكان لا تشاء تراه من الليل نائما الا رأيته ، ولا تشاء تراه قائماً الا رأيته ، وقد روي في الصحيحين البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له : أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟قال عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبدا شكورا • ولقد ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء أنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،في شهر رمضان في حر شديد ، وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعبد الله بن رواحة ، وفي الصحيحين أيضا عن علقمة قال : سألت عائشة هل كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخص شيئا من الأيام ،قالت: لا ، وكان عمله ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستطيعه •

ومعنى الديمة في الحديث أنه يحب الدوام على العبادة ، ولا يحب الانقطاع عنها ، وكان هو يستديم العبادة ، ولوكان فيها ما يشق ، ولكنه لا يطلب من المؤمنين الا الاستدامة في العبادة ، وان قلت ، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام: « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل»•

وذلك لأن استدامة العبادة ولو قليلة يجعل المؤمن في ذكر دائم لله تعالى ، لا يغيب عنه سبحانه ، فهو في قلبه دائما ، ويتحقق فيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه ،فان لم تكن تراه فانه يراك » ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله تعالى يحب الديمة من الأعمال » •

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعو المؤمنين الى التخفيف من الصلاة ، والقراءة ، وأن يصلوا بصلاة أضعفهم ، حتى لا يكون في الصلاة ارهاق ، ورأى بعض أصحابه يصلي بالناس فأطال للقراءة ، مما شق على الناس ، فقال : « فتان أنت » لأن التطويل يؤدي الى فتنة من لا طاقة لهم على الاطالة •

ولكنه عليه الصلاة والسلام في قيامه الليل كان يختار لنفسه الأشق لأنه عليه الصلاة والسلام يطيق مالا يطيقه عامة المؤمنين ، فيختار لهم ما لا يشق

عليهم ، ولقد قال عوف بن مالك : «كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلي ، فقمت معه ، فاستفتح بالبقرة ، فلا يمر بآية رحمة ، الا وقف فتبسمل، ولا يمر بآية عذاب الا وقف فتعوذ ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول : سبحان ذي الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك » (١) .

وهكذا نرى عبادته عليه الصلاة والسلام فيها ذكر دائم ، وتلاوة للقرآن دائمة ، وكان يحرض أصحابه على أن يقرؤوا وهو يسمع ، فاذا ذكروه بأن القرآن نزل على قلبه ، قال لهم انه يحب أن يسمعه من غيره .

ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن ، ودعا اليها ، وبينها عليه الصلاة والسلام ، كان اذا سكت عن القيام بصلاة ، أو ارشاد عام ، دائم التفكير في آلاء الله ، والتأمل في خلقه، ليدرك عظمته ، وكمال سلطانه ، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يوحى اليه ، ولقد قال هند بن أبي هالة ابن خديجة : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة » وكان كثير الاستغفار ، لأن الاستغفار عبادة في ذاته ، لأنه احساس بوجوب الالتجاء الى الله ، وفيه احساس بقصور ما يؤدي العابد من العبادة ، واستصغار العمل احساس بالحاجة الى الله والقرب منه ، وعظمته ، وجلاله ، وشعور بأن عمله مهما يكن كبيرا صغير بالنسبة لله تعالى ، ومن يستكثر حسناته ، كأنه يمن على الله تعالى في هذه العبادة ، وان الشعور بالاستغفار والالتجاء اليه بعد عن المن ، وان الصوفية يمقتون الاستكثار ولو من الطائعين ، ومنهم من يفضل المعصية التي تحدث ذلا وطلبا للاستغفار على الطاعة التي يصحبها الاستكثار ، ويقول حكيمهم : « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ويقول أيضا في هذا المعنى : « ان معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت دلا وافتخارا » .

ولقد كان سيد العابدين يحصن عبادته بالاستغفار ، حتى لا يكون منه من الاستكثار ، صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٥

١٤٨ ـ نشأ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يتيما فقيرا،واجه الحياة بيتمه وفقره ، ماتت أمه بالأبواء ، بعدأن ولد يتيما من أبيه فأودع جده عبد المطلب فكفله بالرعاية ، ولم يكنفي سن من يتحمل التبعة ، ويقدر لمستقبله وان كان يحس بالفقر ، واذاكان جده قد كلأه ، وكفاه حاجته ، وأغدق عليه بما يستطيع من خير ،وأفاض عليه بمحبته التي تغذي عاطفته ، ويجعله يعيش موادا غيرمباغض ، ولكنه عاش معه أمدا قصيرا ، اذ توفي بعد سنتين منكفالته ٠

وبعد ذلك أخذ يواجه الحياة معضعف الصغر ، ومع الفقر المعجز ، ذلك أن عمه أبا طالب الذي آلت اليهكفالته كان ذا عيال ، وكان مقترا عليه في رزقه ، وان هذا الغلام الذي يعلوعقله على سنه ، واحساسه قوي يدرك ما حوله قد أدرك ما عليه حال عمهكافله ورفيقه وحبيبه ، الذي أفاض عليه بمحبة غذت نفسه ، فكان لا بد أنيعمل عملا ان لم يغنه عن عمه ، فانه يعينه الى حد ٠

اتجه ابتداء الى رعى الغنم الذى تعوده ورآه وهو في بني سعد ، فرعى الغنم لبعض أهل مكة على أجرة يأخذها منلبنها ، قراريط معلومة كخمس ما قدر أو نحو ذلك ، وبها يستعين ويعين ٠

ثم كان من بعد ذلك يتجر في قليلمن المال ، أو في مال غيره حتى اشتهرت أمانته ، ثم اتجر في مال خديجة ،وضاعفت له الاجر لما اشتهر به من أمانة وصدق ، ولان الربح تضاعفعلى يديه ٠

ثم كان الزواج ، وكان المال الوفير،ولكنه لم يكن جماعا للمال كانزا له ، فلم يعرف أنه تكونت له ثروة قطتقدر رأس مال ، بل كان ينفق ما يدخر

في أوجه الخير ، من صلة رحم ،واعانةمحتاج ، واغاثة ملهوف ، ومشـــاركة لذوي الحاجات في شدائدهم ومعاونتهم على نوائب الدهر ٠

وبذلك يضرب محمـــد بن عبد الله عليه الســـلام الأمثـال في الزهـــد الايجابي ، وليس الزهد السلبي الذي هو زهد المحرومين بل زهده هو زهـد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون في ادخار المال الا لحاجة بعد جمعه ، وبذلك سار قبـــل البعثة ، على ما بعثه الله تعالى من بعـد ذلك بالنسبة للمال ٠

وبذلك نرى محمـد بن عبد الله صلى الله تعـــالى عليـــه وســـلم لا ينسى العمل الصالح في طلب الرزق الحـلال وفيرا ، ولكنه لا يلهو به ولا يلعب ، ولا يكنز الذهب والفضة ، ولا يتفاخـــر بالخيل المسومة والأنعام والحـــرث ، ولكنه ينفقها في مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر ٠

واذا قيل انه لم تعرف له أبواب النفقات في حياته قبـل البعثة نجيب عن ذلك بأن الكريم ينفق سرا ، ولا ينفق علنا ، وان ذلك القدر المجمل عرف من ناحيتين : ــ احداهما ــ قول خـديجة أم المؤمنين في خطابها له مطمئنـة : « انك تحمل الكل وتقري الضـيف ،وتعـين على نوائب الدهـــر ، وتغيث الملهوف ، وحسبنا ذلك لبيـان هـــذا الاجمال ٠

الثانية ــ أنه لم يعرف له مدخـر قط مع الاستقامـــة ، والبعـــد عن الزخارف ، مع كثرة الكسب ، وما يدر عليـــه من مال خديجة أجـــرا له على استغلاله في التجارة ٠

وانه بهذا يتبين أن زهـــده قبل البعثة هو زهده من بعدها ، طلب الكسب الحلال ، لا ليدخر ويستكثر ، بل لينفق منه فى مكارم الأخـــلاق ، واعـــانة الضعفاء ، فهو يصب ليعطى ، ويكثـر ليطعم غيره ، وهـو لا ينفق على نفسه وعلى أهله الا القليل بالمعروف من غير خصاصة واضحة ، ولا حرمان ظاهـر ، بل يتناول الحلال ويكتفي بأقله ، ولا يحرم مما هو طيب حلال ، وكـــذلك كانت الحـال بعـــد أن بعثه الله تعالى نبيا ٠

١٤٩ ـ ان زهد محمد بن عبد الله عليه السلام الذي وصل اليه بفطرته السليمة في وسط الجاهلية هو أعلى درجات الزهد ، ولنستعرض بعض كلام الصوفية في الزهد الصوفي لنتعرف مقام زهد الصوفيين من زهد محمد بن عبد الله عليه السلام قبل أن ينزل كتاب يرشده ويهديه ، لقد قال ابن عطاء الله السكندرى في حكمه: « للزاهد في الدنيا علامتان علامة في فقدها ( أى أسباب الشهوات ) وعلامة في وجودها ، فالعلامة التي في وجودها الانصراف عنها والعلامة التي في فقدها وجود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان » .

وزهد محمد قبل البعثة ، كان أعلى من ايثار غيره بها عند وجودها ، والراحة من فقدها ، لأنه كان زهد العامل للحصول على أسباب اللذائذ ، فاذا حصل عليها لا يختص بها ، بل يؤثر غيره بها ، ولا يتأتى زهد فقدانها ، لأنه لا ينتظرها وجودا وفقدا ، ولكن يعمل لوجودها لينفق على الفقراء وليمتع غيره ، فهو زهد ايجابي عامل . كما نوهنا ، فليس زهد الحرمان الذى جاء من فلسفة الهنود ، ولكنه زهد الكاسب الذي يكسب لغيره ، ويبقى لنفسه القليل الذي يقيم أوده ، ويمكنه من استمرار الكسب لغيره .

ولقد رتب الامام أحمد رضي الله تبارك وتعالى عنه مراتب الزهد أدنى مراتبه ترك الحرام ، والمرتبة الثانية ترك فضول الحلال ، بل يفطم نفسه عن بعضه ، فهو يمنع عن نفسه بعض الحلال من غير تحريم ، ولكن ليعودها احتمال الحرمان ان لم يجد بعض الحلال ، فهو تهذيب وتربية . والمرتبة الثالثة وهي العليا ألا يشغل نفسه عن ذكر الله تعالى بالاشتغال بالدنيا ، واستغراقها لنفسه ، وهو زهد العارفين .

ومحمد بن عبد الله عليه السلام قبل البعثة كان زهده أعلى من ذلك ، لأنه كان مشغولا بذكره دائما في كل عمل يعمله ، وكل عبادة يؤديها ، وكل فكرة يتفكر بها ، وما كان يعمل لتعود ثمرة عمله على نفسه ، بل لتعود على نفع غيره ، فهو العابد في كل حياته ، ولا يعمل الا لله ، واذا كان شغل النفس بذكر الله تعالى هو زهد العارفين ، فزهد محمد أعلى منه .

١٥٠ ـ كان زهد محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم امتدادا لزهده قبل البعثة ، ولكنه بعد البعثة أخذ صورة أجل وأعظم ، لأنه حمل أعباء الرسالة ، فكان زهدا في الاستعلاء بالسلطان ، وزهدا معروفا عند كافة المؤمنين ، ليكون أسوة حسنة فيما يطيقونه من زهده عليه السلام ، وكان زهد العامل الذي يعمل في كل ميادين الحياة ، لا زهد من يعكف في الصوامع ، وكان يبث ذلك في المؤمنين ويدعو اليه .

ولعل أظهر مظهر للزهد رفضه أن يكون ملكا كداود وسليمان وبعض الأنبياء ، فقد روى ابن عباس أن الله تعالى أرسل الى نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل ، فقال الملك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فقال رسول الله عليه السلام ، بل أكون عبدا نبيا (رواه البخاري ) .

وكانت أوامر القرآن تدعوه الى الزهد في الحرام ومنعه عن أمته ، كلها ، ولكن الخطاب كان موجها ابتداء اليه عليه الصلاة والسلام ولقد جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير :

« قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

---

(١) طه (٢) الكهف

وقـال تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

والآيات كثيرة (٣) .

وان هذه النصـوص كلها الخطاب فيها للنبي صلى الله تعالى عليه وسـلم ، ولكنه موجه الى كل المؤمنين ، ولا يختص به وحده ، وهـو يدل عـلى أمرين : أولهما ـ الامتناع عن الحرام ، وهذا زهد العوام ولذلك طولب به النـاس جميعا . وثانيهمـا ـ أن الامتناع عن الحرام لا يكون بمجرد الامتناع المادي الواقعي ، بل انه لابد من البعد النفسي وتجنب أسبابه ، ولذلك كـان النهى متجها الى الاسباب النفسيـة ، فقـال تعالت كلماته ،

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ (٤)

وكأن الدعوة الى ملازمة الذين ينصرفون عن الشهوات الى الله سبحانه وتعالى والاتجاه اليه ، وألا يخـالط الذين يجترعون الشهوات فقال تعالى :

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ (٥)

(١) النجم (٢) الحجر (٣) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٤٨ (٤) طه (٥) الكهف

فعشرة الذين يتجهون الى الله تعالى في غدوهم ورواحهم ، وفي غدوتهم وعشيتهم تربى في النفس معنى الاستبعاد عن الحرام والاتجاه اليه سبحانه وتعالى ·

واننا نجد زهد محمد عليه السلام يشتد كلما تمكن من المال ، وكلما اتسع سلطانه ـ وكلما كثرت تكليفاته، وكلما أقدم على الشدائد ، لأنه يرى أن تحمل مصائب الحرب وشدائدها ، انما يكون ابتداء بتربية للنفس وحملها على ترك اللذائذ ، أو القدرة على تركها ، وما كان يدعو أمته بذلك بلسان القول، بل كان يدعو بلسان الفعل ولسان الفعل في هذه الحال أجدى فانه لا يصح أن تكون الدعوة الى التقشف آتية ممن يرفل في الدمقس والحرير ، اذ تكون حاله مناقضة لمقاله ، فلا يسمع له قول، ولا يقبل منه كلام ·

١٥١ ـ ان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة كان يحمل كل ضعفاء المؤمنين ، فما يكون له من كسب من تجارته في مال أم المؤمنين خديجة ، ينفقه على الضعفاء من المؤمنين ، وهم أول من اتبع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد امتنع المشركون عن اطعام الضعفاء ، وخصوصا الذين يؤمنون ، بل أرهقوهم عذابا وعسفا وهوانا ، وكان يواسيهم بالعطاء وطلب الصبر ، والفرج القريب ان شاء الله تعالى لا يألو جهدا الا بذله ، وهو يكتفي بالقليل من العيش الذى يقيم أوده ، ليتحمل عبء الدعوة ، والقيام بحقها ·

ولما هاجر الى المدينة ، وانشغل بالاسلام عن التجارة التي كانت المرتزق له ، ويظهر من مجرى التاريخ أنه قد أنهاها قبل الهجرة ، وربما يكون قد صفاها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله تبارك وتعالى عنها ، وصار رزقه من بيت المال الذي يعمل فيه ، اذ هو العامل الاول ، وله الاستيلاء على خمس الغنائم بمقتضى الولاية العامة الاسلامية كما قال تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

(١) الأنفال

عندما صارت نفقته من بيت المال ،أو من الغنائم ، وانها لتكون بأشق جهد يبذله وأعظمه علا زهده عليه السلام في المال والعيش الرغيد ، ولولا قيام الأود وأنه لابد من لقيمات يقمن صلبه، لزهد حتى في اللقمة القفار ٠

كان عليه السلام ينام على الحصير، حتى يؤثر في بدنه الكريم ، ويروى عن ابن مسعود انه قال : « انه عليه السلام نام على حصير ، فأثر الحصير بجلده فجعلت أمسحه ، وأقول ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك تنام عليه، فقال عليه السلام : « مالي والدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت ظل شجرة ، ثم راح وتركها » ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسد بحشية من ليف ، ورآه عمر بن الخطاب ، وهو على مثل هذه الحال ، فبكى فقال له النبي الزاهد ، وما يبكيك ؟ فقال عمر : ومالي لا أبكي ، وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التي أرى ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : يا عمر ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟ قال بلى ، قال هو كذلك ٠

## قوت الزاهد :

١٥٢ ــ في الصحيحين البخاري ومسلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» هذه دعوة محمد عليه السلام الى ربه ، ولا ندرى أهي دعوة الاستجابة لها توفير القوت لآل محمد عليه السلام ، أم هي دعوة للاقتصار على القوت الضروري ،وتحمل آل محمد عليه السلام ذلك ، والصبر عليه والرضا به ، والقناعة الراضية الكافية التي لا يطلب معها غيرها ؟ أجيب أن الاستجابة تكون بهما، أي بتوفير القوت الضروري وأن يلقى الله تعالى في قلوب آل محمد عليه السلام من الأزواج الطاهرات ، ومن يلوذ به من أسرته الرضا به ، والصبر عليه وأن تكون الأسرة كلها في زهد ربها ، تحتمل ما يحتمل ، وتصبر على ما يصبر ،لتكون أسوة لغيرها ، ولكيلا يكون من بعضهن من يطمع في المال الذى يساق ، ويكون تصرف رب هذه الأسرة الزاهد كذلك ٠

ولقد كان كذلك ، فقد روى الامام أحمد أن أبا هريرة يقول : « ما شبع نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى

فارق الدنيا » أى أن محمداً كان يرى أن من التنعم أن يأكل من خبز القمح ثلاثة أيام متتابعة ، بل كان الشعير غالب طعامه عليه السلام ، وقد يكون معه التمر ٠

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة :« ما شبع آل محمد من خبز،حتى قبض، وما رفع من مائدته كسرة قط ٠٠ ومن هذا الخبز يستفاد أنه ما كان يقدم له على مائدته الا ما يكفى بلا زيادة تفضل عنه ٠

ولقد كان لا ينفي عن الخبز نخالته ، بل كان يأكله من غير نخل ، فقد قالت الصديقة بنت الصديق : « والذى بعث محمدا بالحق : ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزا منخولا قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل ، الى أن قبضه»٠

وما كانوا يأدمون الطعام دائما ،بل كانوا يأكلون في كثير من الأحيان الخبز قفارا غير مأدوم ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة : فيما رواه الصحيحان البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير أنها قالت : ان كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد نارا ، انما هما الأسودان التمر والماء الا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون الى رسول الله بلبن منائحهم ، فيشرب ، ويسقينا من ذلك اللبن ٠

وهكذا نجد استجابة الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل رزقه وآله قوتا ، ولكنه من أدنى القوت ليكون قدوة المسلمين ، وليكون غذاء لفقرائهم ، ولكيلا ترمض نفس بحرمان ، ولكيلا يأسوا على ما يفوتهم من وفرة الرزق ، وأسباب النعيم والعيش الرافغ ، في هذه الحياة٠

ولكن يلاحظ أنه لم يحرم على نفسه صنفا من فاكهة ، أو طعاما من أطعمة أهل الترفه والنعيم ، بل يقبل كل الحلال ، ولكنه يكتفي بالأدنى دائما فاطماً النفس عن أهوائها وملاذها ،تقوية لها ، ولتكون الارادة الحاكمة بسلطان العقل هي المسيطرة ، ولا تكون النفس أمة ذلولا للأهواء والشهوات بل تكون سيدة مطاعة ، حاكمة عليها غير محكومة بها ٠

ومع هذه الزهادة التي التزمها ، وأخذ نفسه بها ما كان يدعو الناس اليها ، لأنهم لا يطيقونها ، ولأنه الذى أمر المؤمنين بألا يفعلوا الا ما يطيقون غير مسرفين على أنفسهم ،اذ يقول : « ان هذا الدين لن يشاده أحد

الا غلبه ولكن سددوا وقاربوا » فهو عليه السلام يأخذ نفسه بزهد لا يأخذ به غيره لكيلا يرمض فقير بفقر ، ولاذو قل بقله ٠

ولقد روى أبو داوود في سننه أن سائلا سأل بلالا مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا حدثني كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ما كان له شيء من ذلك الا أنا الذي كنت ألي ذلك منه منذ بعثة الله تعالى الى أن توفي ، فكان اذا أتاه المسلم فرآه عائلا يأمرني فانطلق ، فأشتري له البردة ، والشي فأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضني رجل من المشركين ، فقال لي : « ان عندي سعة ، فلا تقترض الا مني ففعلت ، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فاذا المشرك في عصابة من التجار ، فلما رآني قال لي : « يا حبشي » قلت يا لبيه ، فتجهمني ، وقال قولا عظيما غليظا ، وقال أتدري كم بينك وبين الشهر ! قلت قريب ٠ قال ان بينك وبينه أربع ليال ،فآخذك بالذي لي عليك ، فاني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وانما أعطيتك لتصير لي عبدا ، فأذرك ترعى في الغنم كما كنت قبل ذلك ٠ قال بلال فأخذني في نفسي ما يأخذ أنفس الناس ، فانطلقت ،فناديت بالصلاة حتى اذا صليت العتمة، ورجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله ، فاستأذنت عليه فأذن لي فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ان المشرك الذي ذكرت لك أني كنت أتدين منه قال كذا وكذا ، وليس ما يقضي عني ولا عندي وهو فاضحي فأذن لي أن آتي بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضي به عني ، فخرجت حتى أتيت منزلي ، فجعلت سيفي وحرابي ورمحي ونعلي عند رأسي ، فاستقبلت وجهي الأفق ، فكلما نمت انتبهت ، فاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فاردت أن أنطلق ، فاذا انسان يدعوني ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلقت حتى آتيه ، فاذا أربع ركائب عليهن أحمالهن، فأتيت رسول الله عليه السلام فاستأذنت، فقال لي رسول الله : أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك فحمدت الله وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع قلت بلى ، قال : قل ، فان لك رقابهن وما عليهن فاذا عليها كسوة وطعام أهداهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليك ، ثم اقض دينك ، ففعلت فحططت أحمالهن ،

ثم علقتهن ثم عمدت الى تأدية صلاة الصبح ، حتى اذا صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرجت الى البقيع ،فجعلت أصبعي في أذني فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه السلام دينا ،فليحضر فما زلت أبيع وأقضي،وأعرض حتى لم يبق على رسول الله تعالى دين في الأرض حتى فضل عندي أوقيتان،أو اوقية ونصف ، ثم انطلقت الى المسجد ، وقدذهب عامة النهار ، فاذا رسول الله عليه السلام قاعد في المسجد وحده ، فسلمت عليه فقال لي : ما فعل الله قبلك : قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله عليه السلام ، فلم يبق شيء • قال فضل شيء قلت نعم ديناران ، قال : انظر أن تريحني منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل في المسجد حتى اليوم التالي، حتى اذا كان آخر النهار جاء راكبان ،فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما• حتى اذا صلى العتمة دعاني ، فقال :ما فعل الله تعالى قبلك ، قلت قد أراحك الله تعالى منهما ـ فكبر وحمد الله تعالى شفقا من أن يدركه الموت • وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته » (١) •

١٥٣ ـ سقنا هذا الخبر مع طوله،لأنه يدل أولا : على زهادة محمد بن عبد الله المطلقة التي لا يدخر فيها في بيته • ويدل ثانيا : على أن محمدا عليه السلام كان يحمل أعباء العائلين من صحابته ، يعينهم حتى يبعد عنهم ذل الحاجة ، ويحميهم من رق الدين ، ويدل ثالثا على أنه اذا لم يستطع أن يعطي أمرهم بأن يستدينوا عليه •

ويروي في ذلك الترمذي بسنده أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأله أن يعطيه • فقال :ما عندي ما أعطيك ، ولكن اذهب فابتع علي شيئا ، فاذا جاءني شيء قضيته ،فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ما كلفك الله تعالى مالا تقدر عليه فكره النبي عليه السلام قول عمر •فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ،ولا تخش من ذي العرش إقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرف التبسم في وجهه لقول الأنصاري •

---

(١) تاريخ الحافظ لابن كثير نقلا عن الشمائل لأبي داود ج ٦ ص ٥٦

١٥٤ ـ ولقد كان ما يجري على النبي عليه السلام يجري على نسائه ، فيتحملن راضيات في أكثر الاحيان ٠

ويروى أن امرأة من الأنصار دخلت على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ فرأت على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عباءة ، فانطلقت ، لتبعث الي بفراش حشوه الصوف،فدخل عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما هذا يا عائشة قلت يا رسول الله فلانة الانصارية دخلت علي فرأت فراشك ، فذهبت ، وبعثت بهذا ، فقال ردیه ، فلم أرده ، وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت فقال ردیه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ٠

ولم يكن عليه السلام يدخر لغده شيئا يسارع اليه الفساد ، وقد روى الامام أحمد أنه أهديت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هدية فأطعم خادمه طائرا ، والظاهر أنه أكل هو طائرا ،وبقي طائر فلما جاء الغد أتى به ، فقال لأنس خادمه : « ألم أنهك أن تبقي شيئا لغد » ٠

ولما أفاء الله على رسوله نخيل بني النضير ، كان يدخر لأهله منها فكان يعزل لأهله من تمرها ، ما يكفي سنة ،ثم يكون الباقي مما ينفق في الخيل والجمال مما يعد للحرب ، وفي السلاح الباقي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان عليه السلام لا يدخر ذهبا ولا فضة ، حتى انه كان وهو مريض مرض الموت عنده سبعة دنانير أو ستة ،فما زال بأهله حتى تخلص منها ٠وروى أنه كان له في مرض موته قطعة ذهب صغيرة عبروا عنها بأنها ذهبية فتصدق بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،حتى يخرج من الدنيا ، وليس له شيء، ولا عليه شيء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » ٠

١٥٥ ـ كان آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أزواجه يحملهن ما يحتمل ، لأنهن آله ، والسعة عليهن قد تعود بالسعة عليه ، فسدا للذريعة كن يتحملن ما يتحمل ٠

ولكن يظهر أنهن طالبنه مرة بمـــاليس عنده ، وضـــاق بهن ذرعا ، فآلى عليهن بأن حلف ألا يدخل عليهن شهرا واعتزل عنهن ، وسكن علية من داره ، فدخل عليه عمر ، واذا هو مضطجع على حصير ، قد أثر في جسمه عليه الصلاة والسلام ، فهملت عينا عمر ، فقـــال عليه الصلاة والسلام مالك ، فقـــال أنت صفوة الله تعالى من خلقه وكسرى وقيصر فيما هما عليه ، فجلس عليـــه الصلاة والسلام محمرا وجهه فقـــال : « أو في شك أنت ، يا ابن الخطـــاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، أما ترضى أن تكـــون لهـــم الدنيا ، ولنا الآخرة » .

وقد عتب الله تعالى على نبيه أن حرم عليه أزواجه شهرا ، فقـــال تعـــالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ (١)

ولقد كانت شكواهن من أن محمدا رسول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم قد أخذهن بما أخذ به نفسه ، وان كان أخف ولكنه في كلتا الحالتين دعا ربه أن يكون رزق آل محمد قوتا ، لا يتجاوزه الى رافغ الحياة وفاكهها ، ولذلك حلف بما حلف تاديبا وتجربة ، ومحبة أيضا ، وبعد أن مضى الشهـــر الذي حلف ألا يقربهن فيه ، لم يعد اليهن الا بعـــد تخيير صريح يقبلن فيه أن يكون رزقهن

---

(١) التحريم

قوتا لا نعيم فيه ، الا بالحلال ، وبين أن يسرحهن بالمعروف ، وذلك بأمر صريح من الله سبحانه وتعالى اذ قال سبحانه :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ * يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۟ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١)

نفذ محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر ربه بالتخيير ليخترن ، وابتدأ بأحب نسائه اليه ابنة صديقه وصفيه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عائشة ، فقال لها اني ذاكر أمرا ، فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك ، وتلا عليها هذه الآيات ، فقالت أفي هذا أستأمر أبوي ، فاني أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وبذلك اخترن عيشة النبي عليه الصلاة والسلام الزاهدة ، فكن جديرات بمحمد خاتم النبيين ، وسيد الزاهدين .

(١) الأحزاب

# الصابر المصابر

١٥٦ ـ ان نشأة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الأولى من شانها أن تربي فيه خصلة الصبر ، وحاله في شبابه الباكر تربي فيه الصبر ، واستمساكه بالفضائل في وسط الرذائل التي كانت تكثر فى قومه لا يقوى عليه الا بالصبر وضبط النفس ، واجتنابه للأهواء والشهوات التي كانت تسيطر في مكة . لا يقوى عليه الا الصابر الذي يقمع دواعي الشهوات بين جنبيه ، ويقدعها عن متابعة الاهواء ومنازع الشيطان ، ان ضبط النفس أقوى مظاهر الصبر والناظر الى حياة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يراه منذ نشأته الى بلوغه سن الشباب ، الى اكتمال رجولته يرى فيه اصرارا على خلق واحد ، وعقيدة واحدة ، يتزلزل كل شيء حوله ، ولا يتزلزل ، ولا يكون ذلك الا من صبور .

لا تغريه جدة ، ولا يجزعه فقر ، لا يدفعه التكاثر حول تقديس الأوثان الى الميل نحوها ، ولا يحرضه التقليد للأقوياء على أن يخضع لصنم أو يقرله بسلطان ، بل يدافع الاعتقاد في الأصنام ، يدافعه في نفسه ، ويدافعه في مجتمعه ويدافعه في كل مظاهر حياته ، غير متجانف لاثم ، ولا راض عمن يخضعون به .

ان كل ذلك يحتاج الى ضبط نفس ، وضبط فكر ، واستقامة نظر ، وصبر عميق يتغلغل في أطواء النفس ، وثنايا الفؤاد وكل هذا لا يكون الا من صابر مصابر ، يغالب الاحداث بالصبر ، ويغالب الأعداء بعدم الفزع ، أن الصبر أقسام يختلف كل قسم باختلاف موضوعه ، والصدمات التي يلقاها الصبور .

أولها ـ الصبر على النوازل تنزل به ، ومن نوازله نازلة الفقر ، لاترمض نفسه به ، ولا يذل ، ولا يخنع لذل الحاجة ، بل يرضى بالقليل صابرا

ساعيا جادا في جلد ، ودأب • حتى يمنعه الفقر من أن يتسرب لنفسه بالاحساس بالذل ، أو بأن تذهب قوى النفس شعاعا من الاحتياج ، وان ذلك النوع من الصبر كان في النبي ، فما ظهر منه ذل الاحتياج ، بل كان حتى عندما تمد موائد الطعام ، لا يكون أول من يمد ولا أكثر الغلمان تزاحما فيه ، ولا تسابقا اليه ، بل كان حريصا على ألا يفعل ، ولو فاته الطعام •

القسم الثاني الصبر على الحرمان من الأهواء والشهوات وقمعها ، وعلى دفع الخواطر الفاسدة ، وعلى مقاومة ما تدعو اليه أحوال عبدة الأوثان لتحريم أمور حلال كتحريم السائبة والوصيلة والحام وكاستباحة المنخنقة والموقودة والنطيحة ، وما كان منه شرب للخمر ،وملاعبة بالميسر ، واستقسام بالأزلام ، فكل ذلك امتنع عنه محمد بن عبد الله عليه السلام ، قبل أن يبعثه الله تعالى ، وذلك من تحصين نفسه بالصبر،وما منحه الله تعالى من قوة احتمال •

القسم الثالث من الصبر هو على ما ينزل من نوازل ، وقد جاء محمد في الحياة ليكون صبورا وشكورا •

أول ما أدرك الحياة مميزا ماتت أمه وحملته حاضنته الحبشية الى جده ، ثم لم يلبث أن فقد الجد ، وقد بلغ سن التمييز الذى يعرف الحامي ، وانتقل الى بيت عمه ، وكان محدود الرزق كثير العيال ، فتعلم كيف يكون الصبر حيث التزاحم ، فما كان يمد يده في زحمة الغلمان على الطعام •

ثم كان الصابر في رعي الغنم ، ثم كان الصابر في كسب القوت ، وهكذا كان الصبر عدته التي يعدها لنوائب الدهر ، وملمات الزمان ، وأخذ يحمل وحده أعباء حياته جلدا صبورا •

واذا كان قد صابر النوازل والقل، واحتمل فقد احتمل نعمة الكثر من المال كما احتمل القل ، فلم يطغ اذ جاءه المال الموفور عندما اتجر في مال خديجة التي صارت من بعد زوجه وأم المؤمنين،فاحتمل النعمة كما احتمل النقمة ، وضبط نفسه في نعمته ، كما ضبطها في نقمته ، فلم يكن في الاولى جازعا ، ولم يكن في الثانية فرحا فخورا ، وقد بين الله تعالى في كتابه أن الذي لا ييئس

في الحرمان ، ولا يطغى غند الجدة هو المؤمن الصابر ، فقد قال سبحـــانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

والصبر في هذا المقام أجل أنواع الصبر ، لأنه هو الذي يكون في أعاظم الرجال الذين أوتوا القدرة على تحمـــل الأعباء،لا يأشرون ويبطرون في سرائهم فيكونوا صابرين ، ولا يجزعون ويهلعون في شدائدهم فيذلوا .

وكذلك كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعثه الله تعالى نبيا ، فكان مهيئا لأعظم رسالة في الوجود .

١٥٧ ـ بهذا الخلق الصابر يختار الله تعالى محمـــد بن عبد الله عليـــه الســـلام ليكون رســـوله الذي يدعو الناس الى التوحيد في وسط قوم صـــلاب شداد غلاظ ، فالدعوة فيهم تحتاج الى عزم الأمور ، والصبر من عزم الأمور، بل ان عزم الأمور يحتاج الى صبر شاق مرير ، لا يتحمله الا أولو العـــزم من الرجال ، وأولو العزم من الرســـل ،كما قال تعالى مخاطبا محمداً الصبور ، والمكاره تحيط به احاطة الدائرة بقطر

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

كان لابد بعد البعثة من أن يكون علاج الأمور كلها بالصبر ، صـــبر على المشركين في أوهامهم ، وصبر عليهـــم في دعوتهم منه الى الحق ، وقد أصروا على الباطل ، وصبر على سفهائهم ، وصبر على أذاهم المستمر ، الذى أقـــدم

---

(١) هود (٢) الأحقاف

عليه ذوو الحقد والعصبية، ولم يستنكره كبراؤهم ، وصبر في الدعـــوة الى الاسلام ، وما يكاد طريقها ، ويعـــرقل سيرها ، ولذلك جعل الله تعالى أقـــوى أوصاف المؤمنين الصبر ، فقال تعالى :

(1)
﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ولقد كان النبي عليه السلام الصـــابر حقا وصدقا ودعا الى الصبر ، فقـــد أثر عنه أنه قال « ما من أحد تصيبه مصيبة، فيقول انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة،وأولئك هم المهتدون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا أجـــاره الله تعالى في مصـــــيبته وأخلف له خـــيرا منها » .

وان فضيلة الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير تململ بل في ثبات جاش واطمئنان قلب وتحمل ، هي قوة لصاحبه فوق أن فيها تفويضا لله تعالى مع العمل من غير تخاذل ، فالمفوض الصابر يؤمن بقدرة الله تعالى حق الايمـــان ، وأنه المغير ، ولذلك طلب الرسول الصابر صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يصاب أن يدعو الله تعالى ، ويفوض اليه أمره فان ذلك يعطيه جلدا واحتمالا ، ولقد قال ابن القيم في علاج النفس يحملها على الصبر بالتفويض .

«وهذه الكلمة أي التي قالها محمد عليه الصلاة والســـلام في العلاج بالصبر ، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه في عاجلته وآجلته فانها تتضمن أمـــرين عظيمين اذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته ( أحدهما ) أن العبد وأهله وماله ملك لله عـــز وجـــل حقيقة وقد جعله عند العبد عارية ، فاذا أخذه منه ، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضـــا فانه محفـــوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعـــده ،وملك العبد له منحـــة معارة في زمن يســـير ، وأيضـــا فانه أليس أوجده عن عدمه حتى يكون ملكه حقيقة ، وألا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجـــوده ،وألا يبقى عليه وجوده ، أفليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقي ، وأيضا فانه متصرف فيـــه بالأمـــر تصرف العبـــد

---

(1) البقرة

المأمور المنهي ، وتصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيـــه الا ما وافق أمر مالكه الحقيقي » .

والثاني أن مصير العبد ومرجعه الى الله تعالى مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجيء ربه فردا ، كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولـكن بالحسنات والسيئات ، فاذا كانت هذه بداية العبد وما خـوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود ، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

## الصَّابِرُ فِى الدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ

١٥٨ ـ كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام صبورا ، أبلغ ما يكون الصبور ، فقـــد كان قبل البعثة الصابر في المنشط والمكره ، والصـــابر في الفقر والغنى ، والصابر في العجز والمقدرة ، ثم كان بعد البعثة الصابر في أداء الرسالة ، وتبليغها والدعوة اليها ، صابر المشركين عند الدعوة ، صـــابر قومه الذين جفوه ، ونكروه وهم يعرفونه ، وكذبوه ، وهـــو الصـــادق الأمين ورموه بالسحر كذبا ، والجنون افتراء ، وقالوا ما قالوا فيه وفي رسالته ، وقد وسع صبره كل افترائهم ، فمـــا وهن في دعوته ، ولا يئس من اجابته ، وكان يرضى في أن يصدع بأمر ربه وهـــو يصبر على انكارهم من غير أن ييئس من ايمانهم ، ويدعو عليهم ، فلم يقل كما قـــال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا بل قال: « ان قومي لا يعلمون » « وقـــال اني أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبـد الله ، ولكل نبي من أنبياء الله تعـــالى فضل وقد فضل بعض النبيين على بعض»

---

(١) الحديد

ولقد آذوه ، وآذوا أصحابه ، وهو القادر على أن يقمعهم ، أو يدعو عليهم، بالمقت ويسخط عليهم ، وانزال غضب الله تعالى عليهم ، بل انه كان يتلقى كل ذلك بالرجاء والاطمئنان الى أنه مبلغ رسالة ربه ، غير وان ولا مقصر مدركا أن الله تعالى بالغ أمره ، وأن العاقبة للمتقين ٠

كان طاغيتهم يلقى عليه فرث الجزور ، وهو يصلي ، فما يغضب ، ولا يثور، لأن الغضب يفقد الحق قوته والثورة تطيش حولها أحلام من يدعوهم ، وهو حريص على أن يترك لهم حرية الاختيار، وتقدير الأمر في أناة ، وهدأة مدركة والغضب يدفع الى الملاحاة والمنازعة ، وهو يريد أن ينزع من قلوبهم سخيمة الحقد الملاحى ، بل يضع في قلوبهم قوة الحقيقة تسري في قلوبهم ، وتنساب في نفوسهم ، وهم مطمئنون من جانبه غير منزعجين ٠

يصبر عليه السلام صبر الطبيب يعالج المريض ، وقد هاج هياجه ، وأرغى زبده ، فيأخذ في حكمة ، عالما أن المقاومة من المرض ذاته ، وان غايته معافاة المريض ، فليصبر ، حتى يصل الى هذه الغاية غير منزعج ، ولا مخاصم ولا معاند ٠

ولقد صبر عليه السلام على استهزائهم وعلى سخريتهم ، وهو آخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منه زادت عنايته بالدعوة ، وزادت قوته في الاحتمال ورغبته في المصابرة ، غير متحمل ولا يائس ، فان الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء ، ويهدى للتي هي أقوم ، ويوقظ الضمائر ان كانت فيها قوة الحياة، وان الصبر للذي تشمس نفسه، يكون كالسقي والرعي يحيي ولا يميت، والملاحاة تشغل النفس عن الحق ، وتوجب انحياز كل الى جانبه ، فلا يرى ، الا ما عنده ، ويعمى عما في الجانب الآخر، فتكون النظرة الجانبية ، والنظرة الجانبية لا يصيب صاحبها ٠

وصبر عليه الصلاة والسلام على الأذى ينزل بجسمه، وبأهله، ألم تره صبر على الحرمان هو وبنو هاشم عند ما قاطعتهم قريش ثلاث سنين دأبا ٠ لاقوا فيها العنف من قومهم ، فما أسلموا محمدا عليه السلام لأعدائه ٠

فكان صبر محمد عليه السلام صبرين ، صبر الداعي الى الحق يحمل في أثنائه ما يلاقى من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وصبرا على

أذى القريب الواصل الذي يرى أنه كان سببا في أنه ذاق آله وأحبابه مرارة الحرمان والقطيعة ٠

وصبر عليه السلام يوم ذهب الى ثقيف يطلب منهم الايمان ، فآذوه ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم يقذفونه بالحجارة حتى أسالوا دمه الكريم ، وكان الصابر الكريم عندما عرض عليه جبريل أو ملك الجبال أن يطبق الأخشبين عليهم فطلب من ربه أن يستأنى بهم ،ويقرر في اطمئنان الصابر أنه لا يبغى الا رضاه ، فيقول لربه : ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ٠

١٥٩ ـ ولما رأى الأذى الشديد ينزل ببعض من أسلموا ، أذن لهم في الهجرة الى الحبشة ، وهو المقيم الصابر،لا يتخلى عن دعوته ، ولا يفر ممن يدعوهم ، بل يصابرهم ، ويلقاهم بالرفق ، ولطف المعاملة ، وان لم يقابلوه بمثلها ، بل يجافونه ويعادونه ٠

واذا كان قد خرج من مكة مهاجرا ،فليس ذلك لأجل الخوف ، أو نفاد، الصبر ، بل لان الدعوة استوجبت الهجرة بعد أن استمكن لها في يثرب وهو اذ يخرج كان صابرا ، اذ أنه يخرج من مكة ، وهى أحب أرض الله اليه ، ولولا ان أهلها لم يستجيبوا وآذوه ما خرج منها ، فكان الصابر في خروجه ، ولم يكن خروجه جزعا وفرارا ٠

ولما هاجر كان المجاهد الصبور ، ولقد صابر وصبر في ثلاثة ميادين من الجهاد ٠

صابر في محاربة الأهواء والشهوات ، وسمى ذلك الجهاد الأكبر ، ودعا المؤمنين الى متابعته فيه ٠

وصابر في ميدان الحرب ، فكان المجاهد الثابت الذي لا تزلزله قوة ، ولا يذهب تفكيره شعاعا ولو تألب عليه العرب جميعا ، كما في غزوة الاحزاب، وقد جاء المشركون من الخارج واليهود من الداخل ،

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ (١)

(١) الأحزاب

ونجـــد النبي عليه السلام كان في هذه المعركة ، الصابر ، المصابر الذي لم يذهب ساعة من نهار الرجاء منه ، وان كانت الشديدة قـد بلغت أقصاها ٠

وصابر صلى الله تعالى عليه وسلم في الداخل طـــوائف ثلاثا فأخـذ بالرفق الضعفاء ، فكان يبث فيهم روح الايمان ، وكان الضعف يبدو أحيانا منهـم في وقت يحتاج فيه الى الجلد وقوة العزيمة ، والثبـــات في البأســـاء والضراء ، وحين البأس ٠

وصابر المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ، ويبطنون الكفر ، ويلقون باليأس والهزيمة ، ويدعون الى الترددفي صفوف المؤمنين ، ويستجيب لهـــم بعض الضعفاء من المؤمنين ، ويصـــبر عليه السلام على ما يثيرونه حول شخصه وآله ، كما خبوا ووضعوا في الحـديث الذي أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة ٠ ويشير عمر بقتل كبيرهم ، فيرده محمد عليه السلام بأنه لا يريد أن يتحـــدث الناس أن محمدا يقتـــل أصحـــابه ، ويستمر صابرا حتى ينهي الشر نفسه ، كما تموت بعض الحشرات بسمها ٠

وكان اليهود في المدينة ، فكان يصابرهـم حتى ينكشف فســـادهم ، فاذا انكشف أخذهم ببعض ذنوبهم صـــابرامصابرا ، وان الصبر في الشدائد ، هو صبر العافي المدرك بأن غايات الأمور لا تدرك الا بالصبر المرير ، وكان اذا أدلهـــم الأمر لا يجزع ، ولا يفـــزع بـــل يتأنى للأمـــور ويصطبر لهـــا معالجا أمرها في أناة وحكمة ، ويقـول عليه الصلاة والسلام: «انما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فاذا دهمه الأمر لاينزعج ولا يضطـرب ، ولا يذهب لبه وتفكيره ، بل يسيطر على نفسه ، ويدبر الأمر من غير هلع ولا جزع وكـان يرى أن الصبر من الايمان ٠

وان الشدائد النفسية تحتاج الى الصبر أكثر من الشدائد المادية ، وانظر الى موقفه الصابر ، عندما أشـــاعواقالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة ، فقد تلقى الخبر ، وساوره الظن ، وبدافي بعض عمله ، وفي ملامح وجهـه ، ولكنه كان المثل الكامل في الثبـــات ، وتقدير الأمر ، ودعا بعض خـــاصته للاستشارة في هذا الافك ، وليتعـرف مقـــدار الحق فيه ، فمنهـم من نفى الوقوع وأكـد النفي كعمر رضي الله عنه ، ومنهم من دعا الى التحري بسؤال

جاريتها ، وهو علي ، وقد رأى النبي في هدأة الصابر أن ذلك هو الأسلم والأحزم ، فسلكه ، فانتهى الى البراءة، وما كان ذلك ليكون الا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر في وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد رسول الله تسيطر عليها الحكمة دائما.

وان صبر النبي في البأساء والضراء وحين البأس ، كان صبر من يتوقع البلاء قبل أن يقع ، فيعد نفسه لقوة الاحتمال ، وقد أخبره الله تعالى بما سينزل به وبالمؤمنين ليصبروا فقال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١)

ولقد قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (٣)

وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (٤)

فكان الصبر الاختياري من غير شكوى ولا أنين عدته في تبليغ رسالة ربه ، وقد تربى عليها قبل البعثة ، وكان قوته بعدها .

---

(١) ، (٢) البقرة

(٣) ، (٤) آل عمران

# العـــادل الأمـــين

١٦٠ ـ الأمانة والعدل صنـــوان متلازمان ، فلا يمكن أن يكون الأمين غير عادل ، ولا أن يكون العادل غـــير أمين ، لأن الأمانة مراعاة الانسان لحق غيره ، لا ينكره ولا يجحده ، والعدالة، تبتدىء من انتصاف الانسان من نفسه، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى طلب أداء الأمانات بالعدالة في الحكم ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

ولقد اشتهر محمد بن عبد الله بالأمانة ، حتى صار اسمه « الأمين » ولما حكّموا أول من يدخل البيت في أمـــر الحجر الاسود ، وكان هو الداخل الأول ارتضوه حكما ، وفرحوا به ، وقالوا انه الأمين ، وكان في معاملاته كلهـــا عدلا ، لا يغبن ، ولا يخدع ، وكـــــان ينتصف من نفسه في كل ما يتعلق به ، كان ذلك قبل البعثة .

أهدت اليه أم المؤمنين خديجة قبل البعثة زيد بن حارثة ، فكان مولى له ، ولما عرفه أهله ، وجاؤوا اليه يريدون أن يفتدوه بثمنه ، أعطاهـــم الرجل العدل ، الحق في أخذه ، ولم يمارهم في حقهـــم ، بل انه زاد في العـــدل الاحسان ، فقال خذوه من غير ثمن اذا أراد الذهاب معكم ، ولكن زيدا رفض أن يترك محمد بن عبد الله ، وقبـــل أن يبقى في قربه مولى ، ولم يقبل الذهاب مع أسرته ، وهنا يتحرك العدل مـــرة أخرى في قلب محمد بن عبد الله صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فيتخـــذه له ولدا ، وقد كان ذلك سائغا عند العرب، كما كان سائغا عند الرومان ، ويلحـــق المتبنى بنسب من تبناه ، فكان يقال له

---

(١) النساء

زيد بن محمد ، وكان مقتضى هـذا الالحاق قرشيا ، وتزوج على أنه قرشي، حتى نزل من بعد البعثة تحريم التبني، وعدم الحاق الدعي بنسب من تبناه وكأن أراد محمد بن عبد الله العادل عليه السلام أن يعوضه عن ترك أسرته بذلك التعويض الكريم ·

ولقد كان الخصماء يتحاكمون اليه عليه السلام قبل بعثته ، فقد روي أن الربيع بن خيثم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الجاهلية قبل الاسلام ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة والاستقامة وكونه لا ينطق الا بالحق ، ولا يتجه الى غيره ، ولا يرضى بالباطل أبدا ·

## من عدله بعد البعثة

١٦١ ـ لقد كان عليه السلام يوزع الغنائم ، فيعطي كل ذي حق حقه ، لا يلتفت الى ما وراء ذلك ، فلا غاية يطلبها الا تحقيق العدل وارادته ، يعطي الرجل من الغنيمة بمقدار جهاده، وقد يعطي من يريد تأليف قلبه ، وقد أسلم على حرف ، فهو يعطي لما معه من المال لمن يريد أن يتألفه ،، كما كان يعطي بعض القرشيين الذين أسلموا عند الفتح تأليفا لقلوبهم وليستمروا على دينهم الذين دخلوه طوعا من غير اكراه ، ولكن لكثرة معاندتهم من قبل تألفهم النبي ببعض من الصدقات ·

ولقد حدث أن قال بعض الذين في قلوبهم ضعف ايمان للرسول عليه السلام : اعدل ، فرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ، ولنذكر الخبر ، كما في كتب الحديث ، فقد روى قتادة أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بالاسلام أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقسم الغنائم ، فقال : « يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل ما عدلت ، فقال النبي عليه السلام ويلك ، فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ، ثم قال نبي الله احذروا هذا وأشباهه ، فان في أمتي أشباه هذا يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، فان خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم » وروي مثل هذا في الصحيحين مسلم والبخاري ·

وان هذا الكلام يدل على عدالة النبي عليه الصلاة والسلام المطلقة، فقد سمع القول من المعترض من غير أن يمنعه من الاعتراض، ولكن بين له أنه العادل، وأنه سيكون ارهاق من بعده ، فمن عدل كعدله نجا ، ومن لم يعدل فقد انحرف الى الهاوية ٠

ويدل ثانيا على أن أمثال هذا ممن يرون العدل غير عدل ويحكمون بهوائهم ، أو بنظرهم بادي الرأي سيكونون شوكة في جنب الحكم الاسلامي ، وأن سلامة الحكم في ردعهم ولو بالقتل وتكراره ، وذلك عقابهم اذا خرجوا على الحاكم العدل والا لا يقتلوا ، كما قال علي « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه » ٠

ثم ان النبي عليه السلام أردف في هذه الواقعة ما يؤكد عدله المطلق القائم على أمانته ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئا ، ولا أمنعكم ، انما أنا خازن » ٠

وان النبي العادل كان ينفذ الحق في نفسه ، ان ظن أنه اعتدى ، كان يقسم الغنائم مرة ، وبعض أعراب المسلمين يلاحيه ، فرده بعود في يده ، فشكا الألم ، فأعطاه الرسول الأمين العادل ، ليقتص منه ، فعفا الرجل ، واستحيا ، أن يفعل ٠

ولقد كان يخشى لفرط احساسه بالعدالة ، وألا يلقى الله خالصا من حقوق العباد ، فقام ، وهو مريض مرض الموت ، وقد بلغ به الاعياء أشده وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فانها ليست من شأني ، ألا وان أحبكم الي من أخذ مني حقا ، ان كان له ، أو حللني ، فلقيت ربي وأنا طيب النفس ٠

ولقد كان محمد عليه السلام ينهى عن الظلم بكل ضروبه ، وأكل أموال الناس ، وينهى عن معاونة الظالمين بكل أسباب المعاونة وانه يشدد في ذلك ، فهو يقول :« اتقوا دعوة المظلوم، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » وقال عليه السلام من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار، أو كما قال عليه السلام،

ونهى المحكومين عن أن يسكتوا عن ظلم الحاكمين ، لانه معاونة فقال عليه السلام:«لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة الا اذا رأوا ولم ينكروا»وأوجب حمل الظالم على العدل ، وحث على ذلك في قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

وان هذه الأحاديث تدل على أمرين عظيمين : ـ أولهما ـ شدة تمسك النبي عليه السلام بالعدل والدعوة اليه والتشدد فيه ، والاستمساك به ، لأنه كمال في ذاته ، ويدل على استقامة النفس ، حاكما كان أو محكوما ، فهو الكمال المطلق ان كان ـ وثانيهما ـ أنه يدعو الى العدل الجماعي ، لأنه هو الذي يستقيم به أمر الجماعة ، فلا يظلم الرجل أهله ، ولا يظلم الزوج زوجه ، ولا القريب قريبه ، ولا الرئيس مرؤوسه ، ولا الحاكم محكومه ، ولا المولى مولاه ، وانه عليه السلام يقول في حديث قدسي عن ربه : « يا عبادي اني كتبت العدل على نفسي فلا تظالموا » .

## المساواة في العدالة

١٦٢ ـ ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى الفصل في خصومات المسلمين في خاصها وعامها ، ويأتي في فصله بحكم الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكانت اقضيته تقصد القضاء بحكم الله تعالى ، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به من أمر وما نهى عنه ، وكانت أحكامه عادلة ، لا يحابي قويا ، ولا يهضم حق ضعيف .

ولما سرقت فاطمة المخزومية ، وأهم قريشا أن يقطع محمد يدها ، ذهب اليه حبه أسامة بن زيد فتشفع له في الا يقيم الحد عليها بقطع يدها ، فنهره عليه الصلاة والسلام قائلا له مستنكرا :أتشفع في حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا يقول :

« ما بال أناس يشفعون في حد من حدود الله ، انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه ،واذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

فكان العدل الذي لا يماري ولا يحابي في حكم من أحكام الله تعالى ·

وكان عليه السلام ينظر في الأمر عند الاختصام الى لب القضية ، فيتعرف المعتدي ، فيحكم عليه ، ولا ينظر فقط الى المظهر « ويروى في الصحيحين « البخاري ومسلم » أن رجلا عض يد رجل آخر ، فنزع المعضوض يده من فم الآخر ، فوقعت ثنایاه ، فاختصموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن الذي رفع الأمر مَنَّ عض أخاه ، فقال النبي عليه السلام » منحيا باللائمة على العاض مهدرا دية أسنانه : « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » ·

وهو بهذا ينظر نظر الأريب الى موضوع القضية ، ليتعرف موضوع الاعتداء ، ومن الذي كان السبب ، ثم فيه اشارة الى من دفع عن نفسه الظلم ، وتمين عليه ألا يدفع الظلم الا بأذى ينزل بالآخر ، فهو بريء مما يترتب على فعله ، والمتسبب هو الذي يبوء بالاثم ولو كان هو الذي نزل به الأذى·

وكان عليه الصلاة والسلام يلاحظ في قضائه ثلاثة أمور :

أولها ــ العدل بين الناس والمساواة بينهم في تنفيذ أحكام الله تعالى لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ، بل الجميع أمام القانون سواء وفي المأثور « الناس سواسية كأسنان المشط » ·

ثانيها ــ أنه يلاحظ الأثر الاجتماعي لحكمه ، فهو يغلظ العقاب على من يكثر فساده ، حماية للجماعة المسلمة من شره ·

ثالثها ــ أنه لفرط ايمانه بالعدل يخشى أن يقع منه ظلم لأحد ، بسبب من يدلون بالحجة في فصاحة منهم وعجز غيرهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام، وهو العدل الأمين « انكم تختصمون اليّ ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بحق أخيه ،فانما اقتطع له قطعة من النار » ·

وفي الحق ان النبي عليه الصلاة والسلام كان عدلا في ذات نفسه،و عدلا في كل ما يقوم به ، وعدلا في أحكامه ،ويغلب المساواة في كل شيء حتى في الهدايا تُهدى اليه باعتباره كبير المؤمنين ، ويقول في ذلك ابن القيم في زاد المعاد

في هدي خير العباد،وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام أهديت اليه أقبيـــة من ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها في ناس من أصحابه، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفـل ،فجاء ومعه المسـور ابنه ، فاستقبله ، وقال يا أبا المسور خبأت لك هذا ٠

وهكذا نرى العدل يعم ولا يخص ،وانه كما ثبت من تاريخه قبل البعثـة وبعدها لم يظلم ، ولم يضيع حقا لأحد، بـــل كان الحـريص على حق غـــيره الحفيظ عليه ٠

وكان يعوض من يهدي من أصحابه ان تمكن من التعويض ، ويهـادي من يهاديه،لأن الهدية محبة،وهو عليه الصلاة والسلام يبادل المحبة بالمحبة فهو عـادل حتى فيما تبعثه العاطفة ، ويدعو اليه الود ٠

# المثل الكامل في الشجاعة

١٦٣ ـ يذكر بعض العلماء الشجاعة بأنها منبعثة من القوة الغضبية، ولكنها خاضعة لحكم العقل ، وللحكمة ،وللمعرفة ، وهي السبيل الى دفع الأذى والنفع للجماعة ، وليست مرادفة للتهور ، وان كان منبعثهما واحدا ، وهي القوة الغضبية الدافعة عن النفس في موقف التعرض للأذى ، بيد أن التهور اندفاع غير محكوم بالعقل والحكمة ،ولا خاضع للمعرفة ، أما الشجاعة فانها لا تصدر الا عن تفكير سليم ، ودواعي الحكمة المستقيمة .

وليست الشجاعة منافية للحذر ،بل انه مسيطر عليها ، فهو يدفعها ، وهو يحكمها ، وقد يكون الخوف مع الشجاعة ، لأن الشجاع يتردد قبل أن يقدم فيوازن بين العمل ونتائجه ،والاقدام وغاياته ، وهل يتعين الضرب بالسيف ، وان ذلك كله قد يصحبه ،فليس الشجاع هو الذي لا يخاف قط ، انما الشجاع من يتغلب على بواعث ،ويتقدم في تدبير محكم ، وصبر وقوة احتمال ، ولا تتصور الشجاعة الا مع التدبير والصبر والاحكام وتعرف الغايات والمقاصد .

والشجاعة قد تكون معنوية ، وليس لها مظهر حسي ، وقد تكون حسية بدافع معنوي ، ورغبة في رفع حق ،وخفض باطل والنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان المثل الكامل للشجاعة المعنوية ،التي لاتهاب المخالفة في الحق ، فقريش كلها كانت تسجد للصنم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يسجد لصنم قط ، وكان يجابه بذلك قريشا ، ولايبالي ، وكانوا يحلفون باللات والعزى ومناة الثالثة الى آخر الاسماء التي سموها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وكان هو يرد من يطلب منه الحلف بها ، فيقول انه يكرهها ، وما يكون ذلك الا من شجاع قوي الايمان بما يعتقد ويؤمن ، فيختلف مع بائع في الثمن ، فيطلب منه الحلف باللات والعزى ، فيرد محمد بن عبد الله عليه

الصلاة والسلام ردا قويا، بأنه يكره هذه الأسماء ، فيقبل الرجل قوله من غير يمين لروعة ايمانه وشجاعته في هذا الايمان ٠

وانه في رحلته الى الشام وهو في الخامسة والعشرين كان شجاعا في نفسه وفكره وقلبه عندما منع رجال القافلة التي أعطته زمامها من أن يسابقوا رجال قافلة أخرى ، واجه من معه بذلك المنع غير هياب ولا وجل ، ثم خالف طريق الاخرى ، وسار في طريق أخرى ليمر بقبر أمه بالأبواء ، ويستعبر عليه العبرات ، اذ كان لأول مرة زاره ، وكان في وعي عند موتها ، اذ كان في السادسة من عمره ، ومع ذلك وصل قبل القافلة ، وكان قد اختار الطريق الذي ظنه من معه وعرا ، وظنه هو مسلوكا ، وكان مستقيما ، لأنه وصل قبل القافلة المسرعة من غير مسابقة ٠

وان هذا الخبر في ذاته يدل على قدرة تدبير للأمور ، وتعرف لأقرب الوصول الى الهدف ، ويدل على رفق بمن معه ، والابتعاد عن المسابقات غير المثمرة الا التعب ، وعلى كمال الرفق بمن في صحبته ، كما يدل على شجاعة نادرة ، وقوة احتمال كاملة ٠

ولقد كان شجاعا في أقصى درجات الشجاعة عند ما قبل أن يكون الحكم بين قبائل العرب في وضع الحجر الأسود ، فقد تقدم وهو يعلم أن الحاكم لا يرضي كل من يحكمونه ، ولكنه بتوفيق الله تعالى أرضاهم جميعا ٠

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا قبل البعثة يقول الحق، ولا يخشى لومة لائم ، يجاهر به غير مستهين بمن يقاومه ، بل راض بأن ينطق بالحق ، وحسبه ذلك وكفى ٠

## شجاعته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة

١٦٤ ـ بعد أن بعثه الله تعالى بدت شجاعته كاملة ، والبعثة من أول أدوارها ، وفي أثنائها ، وفي نهايتها تحتاج الى شجاعة ، وعندما التقى عليه السلام بورقة بن نوفل ابن عم خديجة، قال له : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به الى عودي » ولقاء أعداء الفكرة يحتاج الى شجاعة وثبات جأش ، وقوة احتمال ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فما يختار رسولا خوارا ، ولا رسولا

ضجرا ، ولا رسولا يعتريه اليأس في أول الصدمة ، بل يستمر صابرا مستعدا للصدمات ، واحدة بعد أخرى، وأحيانا تجيء متكاثفة غير متفرقة ،بل مجتمعة صلبة غير متكسرة ، فكان لايتلقاها الا شجاع النفس ذو العزمة الصادقة في هداة المؤمن والقلب ٠

لقد كان أبو جهل يرعد ويبرق ، ويعمل في ايذاء مستمر ، عسى أن يجبن محمد وأصحابه عن دعوة الحق المستمرة غير الوانية ، بل كلما اشتدت وسائل الايذاء وتعددت وتجمعت ، ازداد عليه السلام عملا ، ما هاب وما مل ، بل كان يصدع بالحق في اطمئنان وشجاعة ٠

ولقد كان من أعدائه ذو البطش الشديد فما هابه ولا خافه ، وان رفق اليه في القول ، فذلك شأنه والواجب عليه ، ليقرب من القلوب ولكيلا يكون فظا غليظ القلب ، فينفض الناس من حوله ٠

وعندما أقبل على المسلمين عمر بن الخطاب وكان جبارا مرهوبا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهو لا يزال على الشرك فزع المسلمون الا رجلين ــ أحدهما ــ حمل سيفه ليقتله به ان أراد شرا وهو أسد الله تعالى وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ومحمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما فزع ، بل رجا ، وما اضطرب بل اطمأن ، فقال أدخلوه ، فدخل والنبي الأمين ثابت مطمئن هادىء ، هدوء المؤمن الشجاع ، فلبب عمر، بقوة ، حتى استكان ثم دعاه الى الاسلام ، فأسلم ٠

ومحمد بن عبد الله كان شجاعا يستمر في دعوته ، وهو يعلم أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فما وهن لائتمارهم والأذى ينزل به ، وبضعفاء صحابته ٠

وكان الشجاع الثبت ، وهو مهاجر، وقد أوى الى غار ثور ، والقوم قد أحاطوا به حاملين سيوفهم ، بل كان الشجاع الثبت ، وهو يقول لصاحبه الخائف على النبي لما عساه يصيبه :«لاتحزن ان الله معنا » ٠

وعندما لاقى اليهود في يثرب ، وهو يعلم مكايد اليهود وايذاءهم ، ومكرهم الخبيث الذي لا يمتنعون فيه عن الغدر ، وقد هموا به ، وأرادوا

قتله غيلة برمي حجر عليه من عل ،وبدس السم في طعامه ، وما جبن ، ولا سكت عن الدعوة ، بل استمر يدعوهم الى الحق ،

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١)

وان الشجاعة المعنوية بين المنافقين كانت سياسته ، فهو يصدع بالحق بينهم ، كما صدع به بين أصحابه ، فهوفي معاملة المنافقين يسوسهم يريد عمر أن يقتل عبد الله بن أبي ، فيمنعه في قوة غير آبه لاعتراضه ومكانة عمر في أهل الايمان ، ويقول له مرشدا ، لاأقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه • وكان أبعد نظرا من عمر ، لأنه بعد ذلك برم أهل كل منافق به واستأذنوا النبي في قتل من فيه من أهل النفاق ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبي من النبي عليه السلام أن يأذن له بقتله ، فلم يأذن ، وقال : « وأين عمر، لو قتلتهم يوم طلب عمر أن اقتلهم ،لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم »•

وكان عليه السلام شجاعا كريما ،عندما قبل أن يكتب صلح الحديبية ، كما أملى المشركون ، وقد اشتد الأمر على المؤمنين ، لما قالوا من يخرج من المشركين مسلما بغير رضا وليه ردوه ،ومن خرج من عند محمد مرتدا الى مكة لا يردوه ، وغضب عمر وكثرة من المؤمنين ، وقال قائلهم ، لماذا نقبل الدنية فى ديننا،واشتد غضبهم عندما جاء أحدالمسلمين من قريش مكبلابالحديد فرده•

كان شجاعا وهو يعلم أنهم على خطى المخلصين ، وردهم ، ثم تبين بعد ذلك ما كان عليه النبي عليه السلام من حكمة ، عندما طلبوا هم عدم التمسك بهذا الشرط ، والغاءه لأنه لم يرتد أحد من المسلمين ، ومن خرجوا مسلمين من قريش ، ولم يقبلهم، ترصدوا المشركين في متاجرهم ، فأذاقوهم الويل والثبور ، وقتلوا منهم ، واستولوا على غنائم كثيرة من أموالهم على ما سنبين ان شاء الله تعالى •

## شجاعته صلى الله عليه وسلم في ميدان القتال

١٦٥ ـ كتب القتال على محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه،وهو كره لهم، لأن الدعوة الاسلامية لا بد أن تأخذ طريقها ، وأن ترد الاعتداء حتى يكون

(١) آل عمران

الدين لله ، وتستقيم القلوب ، ولا تكون الفتنة ، والاكراه على ترك الهداية، والوقوع في الغواية ، بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالحق ، والايمان ، وما كان أهل الايمان ليستخذوا ويستكينوا ويهنوا عن نصرته ، ولذلك أذن لهم في القتال ، كما قال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

كان لابد من القتال جهادا في سبيل الله ، ولنصرة الحق ، وكان لابد أن يكون محمد عليه السلام الموجه له في كل ميادينه ، والموجه له في كل نواحيه وضروبه ، وما كان محمد عليه السلام القائد الذي يحارب بغيره ، فيوجه الى الميدان ، ولا يتوجه هو اليه ، بل كان يتجه هو اليه ليكون القدوة الحسنة في كل أمر يدعو اليه ، لا يضن بنفسه ، ولا يستأثر بالراحة ، ويترك غيره يعمل ، بل يكون في أول العاملين المتقين .

وكان على رأس المجاهدين ، جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض ما نصه :

« قد حضر عليه السلام المواقف الصعبة ، وفر الكماة الأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لايدبر ، ولا يتزحزح ، وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه عليه الصلاة والسلام » (٢) .

ولقد فهم بعض الناس من قوله تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الحج ٣٩/٤٠ (٢) الشفاء جـ ١ ص ٦٦ (٣) من الآية ٨٤ سورة النساء

أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بأن يقاتل المشركين اذا واجهوه ولو كان وحده ، وذلك الأمر الخاص به الذى كلفه وقد فهمه أولئك المفسرون من قوله تعالى : « لا تكلف الا نفسك » .

ومهما تكن دلالة ذلك النص فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمل عبء الجهاد ودخول الميدان بنفسه من غير ضن بها وكان أصبر أصحابه في الجهاد ، فما فر قط من صفوف القتال ، وما يختاره في موضع أمن ، ولو تولى عنه كل من حوله .

ولقد روي عن فارس الاسلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : « انا كنا اذا حمي البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » .

فكان عليه الصلاة والسلام هو العلم الذي يهتدى به في الميدان أشجع المجاهدين وأصبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول عبد الله بن عمر الذي شاهد الحرب ، ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الشجاع الرضي الكريم الصبور ، الذي يقف في الهيجاء ، ويحمل سيفه ، ليجيب كل هيعة .

وانه عليه الصلاة والسلام كان قوي الاحتمال مع شجاعة ، ورباطة جاشه ، لقد جرح في يوم أحد ، واشتدت جراحه ، وأنزفت دمه ومع ذلك داوم على الحرب ، ولم يهن ولم يستكن .

ولقد أريد قتله عليه الصلاة والسلام في هيجاء أحد ، واضطرابها ، فجاء أبي ابن خلف يريد قتله ، وقد أعد لذلك عدته منذ بدر الكبرى ، اذ كان في الأسرى ، فلما كان يوم أحد ، ولم يكن للمسلمين جاء وقد ادرع بالحديد ، لا يرى منه الا عينه ، حتى لا يصيبه سيف أو رمح ، وهو يقول أين محمد ، لا نجوت ان نجا محمد ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال محمد الجريح

الذي أنزف من دمه ما أنزف ، خلوا طريقه وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، وحملها، وانتفض بها انتفاضة تطايروا تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، فطعنه عليه السلام في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا ، وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه ،فرجع الى قريش يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون لا بأس عليك • فقال لو كان يجمع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ، والله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات في سرف في قفولهم الى مكة (١) • وانه في حرب هوازن ثبت وحده ، وذلك كاف لبيان مدى شجاعته وصبره •

## الشجاع في كل أحواله

١٦٦ ـ هذه شجاعته عليه الصلاة والسلام في الجهاد بالسيف ، وقد ذكرنا شجاعته المعنوية في السلم،وكيف كان لايخشي في الحق لومة لائم،ولا يلاحظ في أفعاله البيئة وتقاليدها ، ولو كانت مستنكرة ، ولو كان منشأ هذه التقاليد أنهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون ، بل ما يكون معروفا يعرفه ، وما يكون نكرا ينكره ، وهو في ذلك قبل البعثة وبعدها على حال واحدة ، ولا يهاب الرجال ، بل يهاب الله تعالى وحده ،ويرفق بالرجال ما كان الرفق سبيلا للهداية ، فهو الهادي المرشد الداعي الى الحق في كل أحواله •

وهو يستجيب لداعي النجدة ، حيث تكون الاستجابة واجبة، والنجدة لازمة، وحيث يكون ملهوف يغاث ، لقد فزع أهل المدينة ، وتصايحوا لمخوف ألم ، فانطلق ناس قبل الصوت • يتعرفون مكان الاستغاثة ، وكل يعتقد أنه الذي سبق ، ولكنهم وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم الى الصوت ، ولقوه قافلا وقد سبقهم ، وقد سارع الى الصوت على فرس لأبي طلحة ركبه النبي الشجاع القوي الأمين ، والفرس عار ، لا سرج عليه ، وقد سبق عليه السلام والسيف في عنقه ، وقال لهم ،وهو راجع : « لن تراعوا » •

وهكذا كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملة في كل ضروب الشجاعة •

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٦٨

واذا كان الحق يتكلم ، ولا يجمجم ،وفي الميدان يتقدم كل الصفوف ، ولا يحجم ، وفي النجدة هـــو السباق الى مواطن الاغاثة فهو في كل أحـــواله الشجاع ، ولكن في غـــير خيلاء ، ولامفاخرة ، ولا استعـــلاء ، بل هـو في هـــذه الداعي الى الحق ، والى صراط مستقيم ٠

وقد روي عن أنس بن مالك خـادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم أنه قال : « فضلت الناس بشدة البطش» والمراد البطش بالظالم ، وأخـــذه بالقوة بعد ألا تجدي الموعظة ، ويخرج من طور الجاحد المجرد الى طور المعتدي الاثيم ، الذي يحاول أن يفتن النـاس في دينهم والفتنة أشد من القتل ٠

١٦٧ ـ ان سمات الرجال الخلقيةوالعقلية ينبيء عنها أو تومىء اليهـا صفاتهم الجسمية ، فاولئك الشواذ فيتكـوينهم النفسي أو العقلي يبـوء شذوذهم في أجسامهم بضمور واضـح مثلا في عضلات الوجوه ، أو اعـوجاج في بعض أجزاء جسومهم ، أو اضطراب في عيونهم ، أو انحـراف في بعض الملامح ، وان ذلك يتضح كاملا ، لأهل العلم ولاعصاب ، والنفوس والمتتبعـين من الشواذ .

وان اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل في الجملة على استقامة العقول والنفوس ، وان المزاج النفسي يصحبه غالبا مزاج جسمي كامل ، متناسـق في تركيبه الظاهر والداخل ، فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاما لا شذوذ فيه ، ويكون معه ، انسجـام نفسي كامل وعقل كامل وخلق كامل.

ولقد وصف النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم النبيين في حـديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمي ، وهـو كمال فيه جمال ، لا يكون ما يسـوغ النفرة منهم أبدا . فقد روى سعيد بن المسيب . أن رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم وصف لأصحابه ابراهيـم وموسى . وعيسى . فقال: « أما ابراهيم فلم أر رجلا قط أشبه بصاحبكم . ولا صاحبكـم أشبه به منه ، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال وشنوءه (١) ، وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر . كثير خيلان الوجـه . كأنه خرج من ديماس . تخال رأسـه نقطة ماء . وليس به ماء أشبه رجالكم به عروة بن مسعود » .

وان هذه الأوصاف لأولئك الانبياء الثلاثة . وهـم من أولي العـزم من الرسل ، تدل على كمال التناسق الجسمي فيهم مع اختلاف في الأوصاف الجزئية.

---

(١) المضرب الخفيف اللحم ، والجعد المنكسر الشعر ، والأقنى المرتفع قصبة الأنف وشنوءه قبيلة من الأزد والآدم ذو الحمرة المشرب بسمرة .

واتفاقهم في أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطني من حديث أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ما بعث الله تعالى نبيا الا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا صلى الله تعالى عليه وسلم » .

لم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد من الخلق والتكوين مسترعيا للأنظار ، هو جميل في جسمه، كما هو جميل في خلقه ، وانه عندما تحدى قريشا بالقرآن الكريم ، وعاب آلهتهم ، وبين بطلان عبادتها ورأوا أبا طالب عمه فكلموه ، وهو يحميه دونهم، أتوا بفتى نهد هو أجمل قريش في زعمهم ، ليكون ولدا لأبي طالب ،ويسلم لهم محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ليقتلوه فرفض تلك المساومة على ابن أخيه ، وقال في تهكم لاذع « تعطوني ولدكم أغذوه لكم ،وأعطيكم ولدى تقتلونه » وهذا الخبر يدل على أن محمد بن عبد الله قد بلغ الكمال الجسمي ، اذ سواه الله تعالى فاحسن خلقه .

ولا شك أن ذلك التناسق الجسمي له أثره في الدعوة ، والاستجابة لها اذا كان مصحوبا باشراق روحي ، وانه مما يروى في ذلك أنه بعد أن تجاوبت الدعوة المحمدية في الاصداء ، وعرفت في أرجاء الجزيرة العربية ، وشاع خبر المكذبين وهم الكثرة ، كالشأن في كل دعوة جديدة تجيء على لسان رجل يأتيهم بجديد لم يألفوه ، في هذه الاثناء قابل أعرابي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فراعه منظره، واشراق وجهه، وتلألؤ النور في جبينه ،فسأله من أنت ؟ فقال محمد بن عبد الله ،فقال الرجل في ايمان مدرك : أأنت الذي تقول عنه قريش انه كذاب !! فقال الرسول الكريم : نعم فقال الرجل ليس هذا بوجه كذاب ، ما الذى تدعو اليه ؟ فذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فأعلن الأعرابي ايمانه .

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء من طرق أنه كان فيه جمال يتلألأ وجهه اشراقا ، ونختار من هذه الروايات وصفين جامعين : أحدهما وصف هند بن خديجة رضي الله تعالى عنه ، وكان رجلا وصافا فيه دقة ملاحظة ، وادراك للصفات ، ـ وثانيهما ـ لأم معبد ، ولنختر هذين الخبرين ففيهما الغناء .

١٦٨ ـ حديث هند بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رواه الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فقد قال الحسن أول سيدي شباب أهل الجنة .

سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لي شيئا منه أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من الربوع(١) وأقصر من الشذب (٢) ، عظيم الهامة ، رجل (٣) الشعر ، ان انفرقت عقيصته(٤) فرق ، والا لا يجاوز شعره شحمة أذنه ، ذا وفرة ، أزهر (٥) اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى (٦) العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ضليع (٧) الفم أشنب ، مفلج الاسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة معتدل الخلق باديا متماسكا ، سواء البطن ، والصدر ، فسيح الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراويس أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة شثن الكفين (٨) والقدمين ، سائل الاطراف سبط العضب خمصان(٩) الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، اذا زال زال تقلعا(١٠) ، ويخطو تكفؤا ، ويمشي هونا ذريع المشية ، اذا مشى كأنما ينحط من صبب ، واذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره

---

(١) أى أنه ربعة من الرجال أقرب الى الطويل منه الى القصير .

(٢) الشذب الباثن الطول (٣) الشعر الرجل المرسل أنه مشط

(٤) العقيصة : شعر مقدمة الرأس (٥) الازهر النير (٦) الأقنى السائل الأنف (٧) الضليع الواسع والشنب روق الأسنان ، والمسربة ، خيط الشعر بين الصدر والسرة ، وسواء معناه سوى .

(٨) شثن الكفين والقدمين ، أى أنهما ذواتا لحم ، فليسا معروقين . والزندان عظما الذراعين ، سائل الأطراف ، أي أن أطرافه عليه الصلاة والسلام فخمة لا تعرج ، بل انها مستقيمة ورحب الراحة أى واسع اليد .

(٩) خمصان الأخمصين ، الأخمص وسط القدم الذى ينزل الى الأرض ، ولا تمسه ، وخمصانهما أنه طويل ، أى أنهما متباعدان .

(١٠) التقلع ، رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ ، التزام طريقة الشيء ، والقصد فيه ، والهون والرفق .

الى الأرض أطول من نظره الى السماء ،جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام » .

وان هذا يدل على الجمال والكمال،جمال الرجولة ، وكمال الانسان ، فكل ما فيه يسترعي الانظار ، ولا تنصرف عنه ولذلك من لقيه ممن هـــو خالي الذهن ، لا يتجه اليه بحقد أو حسد ،أو ضغن يلتفت اليه ، ويجـد فيه مثلا كاملا للرجل ، ومكانة عالية في الخلق،والاشعار بالمودة ، فهو لا يتقدم مباهيا، ولا يسبق معتزا ، ولكن يسـير وراءه متواضعا ، متطامنا ، ويلقي السلام على كل من يلقاه اشعارا له بالمودة والمحبة،حتى لا تسبق الجهامة ، والمنافرة ، فهو جميل التكوين والتنسيق في جسمـــه مرضي اللقاء ، بـل محبـوب اللقاء في خلقه ، وما قام بينه وبين أحـــد في الجاهلية عداء ، ولا كانت شحناء بينه وبين أحد منهم ، ولا ملاحاة في عصبية أو ما يشبهها من المشادات الجاهلية ، بل كان الأليف المألوف ، القـريب الى النفوس خصوصا النفوس المستقيمـــة التي لا التواء فيها ، ولا منافرة .

وذلك فوق ما خصه الله تعالى به من جاذبية شديدة تعلن الطيبة ، وتكشف عن خبيئة نفسه الطاهرة المسالمة التي لا تنافر ولا تغاضـــب ، ولا تصخب ، ولنقرأ وصفا ، لامرأة مر عليها عابرا في هجرته من مكة الى المدينة ، فقـد قالت واصفة له وقـــد سئلت عنه أم معبد :

لقد مر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهـــم عبـد الله بن أريقط الديلمي ، فسألوها هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها ، فلم يجدوا عنـدها شيئا ، وقالت : « لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وكانوا ممحلين ، فنظر عليه السلام الى شاة في كســـر خيمتها ، فقال ما هذه الشاة يا أم معبد، فقالت : نحلها (١) الجهد ، فقال عليه السلام أتأذنين لي أن أحلبها ، فقالت ان كان بها حلب فاحلبهـا فدعا بالشـــاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، فكـــان في حلبة منها ما كفاهم أجمعين ، ثم حلبها،وترك عندها اناءها ملآن .. فلما جاء بعلها استنكر اللبن ، وقال : من أين لك هـــذا يا أم معبد ، ولا حلوبة في البيت والشاة عازب !

(١) اضعفها المحل أى الجدب

فقالت : لا والله ، مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، فقال صفيه ، فوالله اني لأراه صاحب قريش الذى تطلبه !!

فقالت : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاءة (١) حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه نجله ، ولم تزربه صعله ،قسيم وسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن في عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة اذا صمت فعليه الوقار ،واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة لا تشنوه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر،غصن بين غصنين (٢) ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تباروا الى أمره محفود، محشود ، لا عابس ولا مفند (٣) ٠

١٦٩ ــ هذا وصف من رآوه ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولهما : جمال تكوينه الجثماني ، وكمال التنسيق بين أعضائه ، حتى انه لو أراد مصور أن يضع صورة لرجل مكتمل الجسم ، منسق الخلق ، ما وجد خيرا من هذه الصورة التي يصورها من رأوها ، وكان لها روعة عند كل من رأوها ، يستوى في ذلك من خالفه وعانده ، ومن أطاعه وصدقه ، فهي صفات لها أثرها عند الناظر اليه ،وهي تزيد الموافق تصديقا ، وتثير الحقد والحسد ، ومحبة الأذى عند من يعانده استكبارا ، فان المكابر يزداد اعناتا ، كلما رأى عوامل التأييد لنقيض رأيه تزداد وضوحا واعلاما ، وخصوصا اذا كان صدقا ثابتا بالمعاينة ،وليست خبرا يقبل الانكار ٠

وان قريشا كانت تعلم فيه ذلك التكوين ، ولذلك لما أرادت أن تعوض أبا طالب عن ابن أخيه قدمت له أنهدفتى في قريش ، ولكن أنى يكون من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور الانسانية ورسولها ٠

---

(١) الوضاءة الجمال ، وأبلج الوجه معناه مشرق ، والنجلة كبر البطن ، والصعلة صغر الرأس ، والقسيم والوسيم من سلامة التكوين والدعج شدة سواد حبة العين ، والوطف طول رمش العينين ، والصحل بحة يسيرة تجعل للصوت تأثيرا ٠

(٢) الغصنان هما الاثنان اللذان يحيطان به أبو بكر ، والدليل ٠

(٣) محفود أى مخدوم ، ومحشود معناه أن من معه يحيطون به ، ومعنى غير مفند لايجابه غيره بالتخطئة أو المخالفة ٠

الأمر الثاني ـ أن قلبه الطاهر كان يشع على وجهه بالنور ، فهو اذ يمشي يحف به النور الذي أضفاه الله تعالى عليه بتطهير قلبه، وتنوير نفسه بالخير، فكان كما قالت أم معبد وضاء الجبين متلألئا بالنور ، من غير استكبار ولا استعلاء ، بل كان بين الناس متطامن النفس، وان اليهم، وهو فيهم كأحدهم، لولا فضل الرسالة ، وما جعله الله تعالى له من مكان ليصل القول الطيب الى أمته .

الأمر الثالث ـ شدة جاذبيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع الهيبة التي تفرض قولها على الناس ، ومع كمال المحبة واستشراف النفس المحبة اليه ، أو النفس الخالية من ضغن أو حقد ،أو اعنات في المخالفة ، فان النفس التي تكون على هذ الشاكلة توجد فيها مقاومة التأثير النفسي الذي يتجه الى البراءة ، وانها تكون مدنسة بالشرقد سكنها الشيطان وغلبت عليها وساوسه ، فالقلب لا يصدق ، ويكون ممن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم، ولقد كان المشركون يعرفون قوة تأثيره بشخصه ، فوق ما معه من حق وبينات تثبت صدق ما يأتي ، ولذلك كانوا يسبقون الى قبائل العرب ينفرونهم ، لكيلا يؤثر فيهم بشخصه وقوله ،وبينات الله تعالى التي أجراها على يديه ، ونزل بها الوحي الالهي .

ومع كبر ما صنعوا ، لم ينفر الناس من الاستماع اليه ، والانعطاف ، لأن الحق بَيِّن ، والحجة قائمة ، والداعي تنجذب اليه النفوس ، وتصغي اليه أفئدة طلاب الحق الذي لا يمتارون فيه ان وجه اليهم ودعوا اليه .

١٧٠ ـ وكان كل شيء في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلن قوته وجماله وكماله ، فكان في شكله الشاب وقد تجاوز الستين من عمره .لم يكن فيه شيب . بل كان أسود الشعر ،حتى عد الذين خالطوه من صحب ، وخدم شعرات شيبه فذكروا أنه لم يشب في لحيته ورأسه الا عشرون شعرة وعدها خادمه أنس رضي الله عنه بأنها احدى عشرة ، حتى انه كان يوصف بالشاب ، وقد تجاوز الستين في أصح الروايات عن سنه ، واذا كان تغير في بعض شعره ظن خضابا فانه لم يكن خضابا ، وانما كان من كثرة ما يضمخ به شعره من مسك ، فقد كان يحب الطيب ، وقد روي عنه عليه الصلاة

والسلام أنه قال : « حبب الي من دنياكم ثلاثة (١) : النســـاء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ٠

ونرى أنه عليه السلام جعل الصلاة من الدنيا ، اذ وصفها مما حبب اليه من شئون الدنيا ، لأن الصلاة مع جانبها الروحاني ، ومع أن فيها ذكر الله تعالى ، هي تصلح الدنيا ، لأن الصلاة تربي الضمير وترهف الوجدان ، فتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك تصـــلح شئون الدنيا والآخرة معا ٠

وانه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على الطيب يتطيب به دائمـــا ، حتى انه كان ينبعث عرف الطيب في مجلسه ، ولقائه ، وفي مظاهـــر حسه ، وكان اذا مس رأس طفل استمر العرف الطيب في رأسه ، وأنه ليعـــرف أن الرسول مر فلمس طفلا بالريح الطيب٠

ولا شك أن العرف الطيب تستروح به النفس ، ويقبل معهـــا الجليس ، وتنجذب اليها النفوس ، وان الرائحـــة الكريهة تنفر ، وتبعد ٠

وكان عليه السلام يعنى بالنظـــافة في المظهر ، كما عني بتطهير المخبر ، كان يعنى بنظافة الحس ، كمـــا عني بنظافة النفس ، ولنترك الكلمة للقاضى عياض يبين ذلك ٠٠ فقد قال :

« وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ، ونزاهته عن الأقذار ، وعورات الجسد ، فقد خصه الله تعالى بخصائص لم توجد في غيره ، ثم تممها بنظافة البشرة وخصال الفطرة وقال : « بني الدين على النظافة ٠٠ عن أنس (خادم رسول الله ) ما شممت عنبرا قط ، ولامسكا ولا شيئا أطيب من ريح رســـول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده قال فوجدت ليده بردا وريحا ، كأنما أخرجها من جونة عطار قال غيره مسها بطيب ، أو لم يمسها ٠٠ يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي ، فيعـــرف من بين الصبيان بريحها ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار أنس ،فعرق ، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه ، فسألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقالت نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب ، وذكر البخارى في تاريخه الكبير عن جابر :

---

(١) الصحيح عدم ذكر ثلاث فى الروايات الواردة

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يمرفي طريق ، فيتبعه أحد ، الا عرف أنه سلكه من طيبه ، وذكر اسحق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى المزني عن جابر : أردفني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفه ،فالتقمت خاتم النبوة بفمي ، فكان ينم علي مسكا » (١) .

وهنا ننظر نظرة فيما رواه اسحق بن راهويه ، أو ذكره من غير رواية ، وهو أن رائحته عليه الصلاة والسلام التي كانت طيبة كانت من غير تطييب، وان ذلك بلا ريب جائز وممكن ،فليست أمرا مستحيلا في العقل ولا في الشرع، فقد اختصه الله تعالى بخواص ليست في كل الناس ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ولكن ثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتضمخ بالطيب ، وليس ذلك مما يعيبه ، بل هو من المستحسن ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنه فيما حبب اليه من شئون الدنيا الطيب .

ومهما يكن فان محمدا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يكون ريحه طيبا ، لكيلا يكون منه ما ينفر جليسه ، بل يجذبه ويحببه .

١٧١ ـ هذه الصفات الجسدية كلها صفات كمال وجمال ، وقد يشاركه بعض الناس في بعضها ، ولكن لا يشاركونه في كلها ، فلديه صلى الله تعالى عليه وسلم صفة جسمية لا يشاركه فيها أحد ، وهو جزء بارز بين كتفيه ، وهو من نوع جسمه ، وان كان بارزا فيه ، ويظهر من مجموع الروايات أنه كان صغيرا بحيث لا يظهر من وراء الثوب ناتئا نتوءا واضحا ، فقيل انه كبيضة الحمام ، وقيل انه كالتفاحة ،ولابد أن يكون كالتفاحة الصغيرة وقد قال سلمان الفارسي ، أتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة ، وقد تكاثرت الروايات في ذلك ، حتى بلغ الخبر في ذلك حد المشهور المستفيض ، وكأنه وصف جسدي معلم للرسالة ، لا يماري فيه من رآه ، ولله تعالى آيات في خلقه .

(١) الشفاء جـ ١ ص ٤٠

١٧٢ ـ المنهـــاج الذي يسلكه الكتاب في السيرة العطرة ، سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتبـوا صفاته صلى الله تعالى عليـه وسلم في آخر سيرته الطاهرة ، فلا يكتبوها قبل البعثة المباركة ، ولكن يكتبونها بعـد أن بلغ الرســـالة ، ومضى الى لقائه الكريم ٠

ونحن قد اخترنا أن نكتب تـلك الصفات قبل تكليفه أداء الرسالة ، لأنا رأينا ـ ونرجو من الله التوفيق ـ أن نكتبها قبل البعثة ، ليعلم القـــارىء من الذي كلفه الله أداء الرسالة ، ومن الذي اختاره ليكـــون بشـيرا ونذيرا للناس كافة عربهم وعجمهم ، وليعـــلم الناس أنه لم يكن في مجموع صـفاته وكمالاته كسائر الناس ، وان كان من الناس ، وانه ليس ككل واحد من البشر مجموع أخـــلاقه وتكوينه ، وان كان منهم ، فهو من الناس ، ولكنه فى أعلى كمال الناس ، واذا كان ليس من الملائكة ، فهو أعلى من المـــلائكة ، واليق بالرســالة ، وأجـدر بهـا من الخلق أجمعين ٠

وانه بعد معرفة هذه الصفات وتعرفها ، وانفراده بها من بين جيله ، بل من بين الأجيال كلها ، لا يستطيع أحد أن يقول : لماذا اختاره ربه دون عمرو بن هشام ( أبى جهل ) أو دون عمر بن الخطاب وهـــو من الأبرار ، أو دون الصديق ، وهو من الأطهار ، أو دون علي ، وهـو من الأشـــداء الأبذال ، لا يستطيع أحد أن يسأل لم اختير دون هؤلاء أو غيرهم ، لأن هذه الصـــفات الخلقية والجسمية لم تكن لأحـــد من هؤلاء ، ولا من غيرهم ، ولم يكن ذلك الاشراق المتلألىء الوضاء في واحـــد منهم ولا من غيرهم ، ولم يعرف لأحـد من الناس الا لأكمل الأخلاق محمد بن عبد الله صـــلى الله تعالى عليـه وسلم ٠

واذا كانت تلك الصفات ، وما آتاه الله تعالى من فضل ، وما اختصـــه من رحمة هي التي جعلته مستأهـــلا لأن يحمل أمانة الرسالة دون غيره ، فانها تكون مقدمة للرسالة ، ولا تكون نتيجة لها ، والمقدمة بمقتضى المنطق والعقل

تسبق النتيجة ، وتمهد لها ، والتمهيدلا يكون بعد المقصد ، بل انه يرشح له ، وينيره ، ويهدي اليه .

وقد يقول قائل : انك في سبيل بيان صفاته الكريمة قد أتيت بأخبار عنها من بعد بعثه ، واستشهدت له بعدارساله رحمة للعالمين ، وبذلك تقع فيما خالفته ، وهو أنك ذكرت الصفات بعد البعثة،وموضعها قبلها على ماذكرت من منطق !!

ونقول في الاجابة عن ذلك : « اننا استعنّا بالأخبار التي وردت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرسالة،لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة ولأنها ذكرها من شاهد وعاين من بعدالرسالة ، وهذه الصفات التي عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ،صفات ذاتية،لم تجيء بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فما وصفه الجسدي حادثا بعد الرسالة ، ولكنه كان من قبلها ، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الأمانة والصدق ، والعفة ، والحلم ، والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وان أخبار النبي عليه السلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته،ويدونون خليقته ، ويهتمون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجايا الا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة لربه ،ويلتقي بالقبائل ، ويقرب المرافقين ويدنيهم ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، ولا يلاحيهم ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، ويوطيء أكنافه لهم ،وهو ليس فظا ولا غليظ القلب ، فالأخبار التي استشهدنا بها لاثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتي، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة الغطاء عنها معرفة لها ، وهي ذاتية قد هيأته لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين :

﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

(١) البقرة

١٧٣ ـ كان العالم يموج بفتن مادية ، فالحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والرومان ، ومن قبل عصر نبوة عيسى انسابت الجيوش اليونانية بقيادة الاسكندر المقدوني وراء فارس ، حتى وصلت الى الصين ، وقد كان العصر من بعد عيسى عصر الاضطهاد الديني ، اضطهد النصارى ابتداء ، ومكث اضطهادهم زهاء ثلاثةقرون لقوا فيها من الرومان واليهود أشد ما يلاقى ذو اعتقاد في اعتقاده ،وذو ايمان في ايمانه ، حتى ان نيرون أحد أباطرة الرومان كان يطليهم بالقار ، ويشعل النار فيهم ، ويسير في موكبه تحيط به تلك المشاعل الانسانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين في ايمانهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وقبلواالعذاب الهون ، وتوقعوه ، ورفضوا أن يغيروا في سبيل دنيا يصيبونها ، أو دفع عذاب ليتقوه ٠

وكانت مصر من أول البلاد التي دخلت في النصرانية الأولى ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ولذلك كانوا أشد البلادتعرضا لأذى الرومان الذي كان سلطانهم مفروضا عليها وعلى الشام ،وجاء اليهم العذاب الشديد في عهد دقلدياتوس امبراطور ، وذبحت فيهممذابح سجلها التاريخ ٠ وأرخ بها التاريخ القبطي مسجلا تلك المذابح ،يذكر الرومان بما يعود عليهم بالخزي والعار ، ويذكر المصريين الأولين بالافتخار ، ويذكر المتأخرين من الأقباط بالاعتبار ٠

ولما دخل قسطنطين امبراطور رومافي النصرانية في الثلث الأول من القرن الرابع كان ذلك سبيلا لسيطرةالانحراف فيها ، وانتقل الاضطهاد من النصارى الى اليهود ، فأذيقوا من العذاب أكؤسا ، وشربوا منه ثم جاء من بعد ذلك لون آخر من الاضطهاد ، ذلكأن كنيسة روما خالفت كنيسة مصر في بعض جزئيات عقائد النصرانيةبعد أن انحرفت من الوحدانية الى التثليث انقلب الاضطهاد الى داخلالنصارى أنفسهم، فكان منهم الملكانيون

الذين تتمثل فيهم عقيدة روما ،واليعقوبيون الذين تتمثل فيهم عقيدة المصريين ٠

وكان ذلك الاضطراب في العقيدةالنصرانية التي حُرفّت ، ثم انتهاؤه الى أمر غير معقول في ذاته ، من قبلان المسيح ابن الله ، وأنه نزل الى السموات العلى حيث الله أبوه ، وتجسدالى الأرض لتغفر خطيئة آدم لعصيانه ربه وأكله من الشجرة ، فكان غريبا أنيكون تكفيرا لمعصيته الأولى بالأكل بمعصية أشد وأوغل ، وهو قتلهم ولد الله في زعمهم ، والعقل لا يعلم ولا يدرك أن معصية أشد في حق الله تكون تكفيرا لمعصية أقل، بل لخطأ جاء تضليلا من عدو أثيم ٠

ومن غرائب تلك العقيدة أنها تحاول الجمع بين الوحدانية والتثليث فيصعب التصوير ، ولكن مع ذلك يصدقون على ريب من مفكريهم ، وتسليم من عوامهم ٠

١٧٤ ـ والعرب كانوا في حيرة أشد ، وان كانت حياتهم لا تمكنهم من التأملات في العقائد ، ولعلهم لو تأملوا، ولم يغلب الاتباع وقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » لكانوا قادرين على الوصول الى الصواب أو على الأقل منهم من يصل،كما فعل الحنفاء ، وانهم كانوا قبل البعث عددا محدودا ٠

لقد كانت حياتهم مضطربة بين توحيد جزئي ، ووثنية جانبية ، لقد كانوا يتبعون ابراهيم ، ويعتقدون أنالله وحده هو خالق الكون ومنشئه ومدبره فاعترفوا بذلك بوحدانية الخلق والتكون ، ولكن مع ذلك أشركوا معه في العبادة أحجارا لا تنفع ولاتضر ، يزعمون أن العبادة لها تجعل منها شفعاء يشفعون ٠

ثم كانت البشائر بأن نبيا سيبعثكان يتردد في البلاد العربية ، كان يجري على ألسنة بعض العرب ، كمايروى عن قس بن ساعدة الايادي أنه ذكر في احدى خطبه أن نبيا قد أدركهمزمانه ، وآن أوانه ٠

وان البلاد العربية ، وخصوصا الحجاز كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال رسول مبعوث ، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات ، مثل ما جاء

على لسان قس بن ساعدة الآنف الذكر ،ولعله يوميء الى أن له صلة بالنصرانية وخصوصا أنه ثبت في القـــرآن ، أن التبشير بالنبي محمد الأمي عليه السلام مذكور في التوراة ، والانجيل ، كمـــا قال الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٣)

وقال تعالى : في بشارة عيسى عليه السلام بمحمد النبي الأمين :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٤)

وهكذا نجد النصوص القـــرآنية الكثيرة التي جاء فيها أن محمدا عليـــه السلام ذكر في التوراة والانجيل ، وقد اشرنا الى ذكره في كل الديانات القديمة قبل تحريفها ، البراهمة والزرادشيـــة قبل التغيير والتبديل فيها ·

---

(١) الأعراف (٢) الفتح (٣) آل عمران (٤) الصف

ويهمنا أن نعرف ذكر التوراة لمحمد عليه السلام ·

١٧٥ ـ وقد وجدنا النصوص في التوراة حتى بعد تحريفها ، وبعد أن نسوا حظا مما ذكروا به تومىء أو تشير باشارة واضحة تكاد تكون عبارة لا اشارة ـ مبشرة بنبي الله تعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،واليك ذلك النص الذي يكاد يكون صريحا ،ولكنه نص في دلالته ، سواء أكان بالاشارة أم العبارة :

« جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران ( أي مكة ) وقد فسر ابن ظفر من كتاب المسلمين في السيرة الطاهرة ، معنى النص فقال مجيئه من سينا تكليمه لموسى ، واشراقه من ساعير ـ وهى جبال فلسطين انزاله الانجيل على عيسى ، وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ، حيث ولد عيسى عليه السلام ، واستعلن من جبال فاران وهي جبال مكة ، انزال القرآن »(١)·

ونرى من هذا أن الرموز كانت للأماكن ، وبتبيين الأماكن يتبين الرسل الذين بعثوا فيها ، ومجيء الرب بالبداهة هو مجيء رسالاته ، فان الله تعالى لا ينزل بذاته انما تنزل هدايته ،ويجيء أمره ونهيه على ألسنة رسله ، وقد ذكرت أماكن ثلاثة هي سينا ، وقدجاء من طريقها كليم الله تعالى موسى عليه السلام ، ومجيء رسالة الله تعالى الى فلسطين حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام بالناصرة ، ومن فلسطين انبعث نور رسالته عليه السلام، ومجيء رسالة الله من فاران حيث مكة المكرمة زاد الله تعالى نبيها تشريفا وتعظيما ، كانت هي ما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ويقول صاحب كتاب خير البشر في بيان تبشيره التوراة بالنبي محمد عليه السلام :

قرأت في ترجمة للتوراة لموسى عليه السلام ، جاء فيه ، والله ربك مقيم نبيا من أخوتك ، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريب يوم الاجتماع حين قلت : « لا أعود أسمع صوت الله ربي لئلا أموت ، فقال الله تعالى لي ·

---

(١) خير البشر لابن ظفر ٩

نعم ما قالوا ، وسألتم لهم نبيا من أخوتهم ، واجعل كلامي في فمه ، فيقول لكم كل شيء ، آمره به وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فاني أنتقم منه »·

ونلاحظ هنا أنه ذكر أن الرسول سيكون من أخوة بني اسرائيل ، لا منهم ، ولا تكون هذه الأخوة الا من بني اسماعيل ، أخي اسحاق الأكبر ، فان هؤلاء هم الذين يقال لهم أخوة .وعيسى ومن قبله داود ، وسليمان وغيرهما ، لا يقال لهم أخوة بني اسرائيل انما يقال عنهم أبناء اسرائيل ، لأنهم من يعقوب بن اسحاق ، ويقول صاحب كتاب ، خير البشر « قوله اجعل كلامي في فمه ، واضح في أن المقصود به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن معناه أن الله تعالى يوحي اليه بكلامه ( أي الله ) فينطق به . أي يوحي اليه بالقرآن فينطق به » ·

## إثبات الرسالة المحمدية بالإنجيل :

١٧٦ ـ واذا كانت هذه الاشارات الواضحة في التوراة ، فان في الانجيل مثلها ، بل هو أكثر وضوحا منها . فقدورد التبشير ، البار قليط في الانجيل، وان الترجمة الحرفية لهذه الكلمة العبرية هي أحمد ، فهو مطابقة من حيث المعنى التبشير بأحمد ، وقد جاء القرآن الكريم بالذي بشر به عيسى عليه السلام اسمه أحمد ، اذ قال سبحانه ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (١)

وقد جاء في الأناجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ان أحببتموني فاحفظوا وصيتي ، وأنا أطلب الى أبي فيعطيكم بارقليط آخر يكون معكم الدهر كله »·

فهذا النص يبين أن الله تعالى سيبعث من بعده رسولا هو أحمد ، يقوم بتبليغ رسالة ربه ، كما يقوم عيسى عليه السلام ، وأن شريعته باقية مع الدهر، أي أنها خالدة لا شريعة بعدها ، وأن صاحبها هو خاتم النبيين ·

والتعبير بالأب من تحريف النصارى لمعنى الله بعد أن غيروا وبدلوا فهو مأخوذ من الانجيل بعد أن حرفت الديانة عن موضعها ، ومع ذلك فان كثيرين كانوا يفسرون البنوة بأنها بنوة النعمة والمحبة ، كما يقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ·

وقد جاء في الأناجيل بعد تحريف الديانة النصرانية « ان هذا القول

(١) الصف / ٦

الذي سمعتموه ليس هـو لي بل للآب الذي أرسلني لكم بهذا ، وأنا معكـم ، فاما البارقليط روح القدس الذي يرسل أبي باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم جميع ما أقول لكم .

ولعل الغرابة في أن تسمى رسـالة محمد بن عبد الله عليه السـلام أنهـا باسم المسيح ، وأنها محرفة بلا ريب ، ومهما يكن فليس المـراد بالاسمية أن تكون دعوة محمد صورة كاملة لدعوة المسيح ، انما المراد الموافقة فيما يكون دعوة المسيح بالوحدانية ، وأن دعـوة محمد عليه السلام ، هي ما كان يدعو اليه وما يتفق مع قوله ، كما قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وروى أن عيسى عليه السـلام قال في الانجيل اذا قال البارقليط الذي أرسل اليكم من عند أبي روح الحـق الذي يخرج من الأب فهو يشهد لي ، وأنتم تشهدون لي أيضا لكينونتكم معي من أول أمري ، وهذا صريح في أن محمدا عليه السلام يشهد الكتاب الذي أنزل عليه وهو القرآن بأنه مصـدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وقد سمي القرآن بحق روح الحق ، وقـد سمي كذلك (٢) كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ (٣)

وجاء في الأناجيل أيضا: «البارقليط لا يجيئكم مالم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه يسمع ما يكلمهـم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب » (٤) .

---

(١) و (٣) الشورى (٢) راجع السيرة العطرة ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ١١٠ وخير البشر
(٤) نهاية الأرب والسيرة العطرة

وان في هـــذا النص وصفا للنبي عليه السلام بعينه من بين الرســـل ، وذلك الوصف هو قوله : « ويسوسهـــم بالحق ، ولا شك أن رسالة محمد عليه السلام ، لم تقتصر على بيان الحقـــائق الالهية التى بعث بها عليه السلام ، بل ساس الناس لتطبيقها ، فأنشأوا دولة ،وطبق النظم القرآنية تطبيقا دقيقـــا سليما ، وان هذه صفة كاملة لرســـالة محمد عليه السلام ، وعمله ٠

وان كلمة البارقليط التي جاءت في هذه النصـــوص قال علماء العبرية ان ترجمتها الحرفية كما أسلفنا أحمد ،وهي في معناها الذي يعـــرف السر ، والحكمة ، وهو قد بلغ أقصى الحمـــد لهذا ٠

## ماجاء في الكتب السابقة :

١٧٧ ــ ولقد نقل بعض الكتاب الفضلاء (١) عبارات من كتب العهـــد القـــديم ، عن الزبور ، الذي جاء به داوود عليـــه الســـلام ، وأشعياء ، وشمعون ، وحزقيل ٠

ومما جاء في مزامير داوود « اللهم اجعل جاعل السنة يحيا » ٠

وجاء فيه ، « انه اذا جاءت الرحمة على شفتيك من أجل ذلك أبارك عليك الى الابد ، فتقلد السيف ، فان بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فان شرائعك مقرونة بهيبة يمينـــك ،والأمم يخرون تحتك » ٠

ولا شك أن دلالة هذه النصوص على التبشير بمحمد عليه السلام وليســـت هذه الاشارة بينة ، كبيانها في النقول السابقة عن توراة موسى، وانجيل عيسى عليهما السلام ، ولكنها قـــد تدل بالاقتضاء ، لا بالاشارة المجردة ، لأن الذي أحيا السنة وهي عبادة الله تعالى وحده، اذ هي الطريقة القويمة هو محمد عليه الصلاة والسلام ، بعـــد أن حـــرفت النصرانية ، الى انحراف التثليث ٠

وفي النص كانت الدلالة بالتضمين أيضا ، اذ وصـــف فيه من يباركه الله تعالى بأن شريعته تقرن بهيبة يمينه ،وان شريعة محمد عليه السلام تأمر بدفع الباطل بما تحمله اليمين وهو السيف ،ولم تكن شريعة عيسى عليـــه الســـلام كذلك انما كان يغلب التســـامح ، ولم يحمل سيفا ، ولم يدع الحـــواريين الى حمل السيف ، بل الذي حمـــل السيف نبي الله داوود ، ووضع الباطـــل تحت

---

(١) هو ابن ظفر فى كتابه خير البشر ص١٤ ، ٩٦

الأقدام ، وخر الجبابرة تحت الشريعة الاسلامية في عهده ، وعهد الحواريين من أصحابه هو محمد عليه الصلاة والسلام ٠

ولقد جاء في الزبور عبارة لعلها أصرح من هذه العبارة في سلطان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا نصها « فاذا جاز من البحر الى البحر ، ومن عند الأنهار الى منقطع البر ، وخر أهل الجزائر على وجوههم كبهم ولحس أعداؤه التراب ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنه يخلص الضعيف المغلوب البائس ، ويقوي الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرحم المساكين ، ويصلي ،ويبارك عليه في كل وقت ويدوم ذكره الى الأبد » ٠

وقد كان ذلك الكلام عن رجل يجيء في المستقبل ولا شك أن هذه الأعمال لم يعملها داوود وسليمان الا محمد سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، فهو ذكر هنا عليه الصلاة والسلام بالوصف ، لا بالاسم كما جاء في الانجيل ٠

## من البشائر بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السالفة :

١٧٨ ــ وجاء في كتاب أشعياء عليه السلام قوله : « عبدي الذي سرت به في نفسي أنزل عليه وحي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي أحدا مشقح (١) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوي الصديقين ، وهو نور الله الذي لا يطفأ على كتفيه علامة النبوة » ٠

ويلاحظ على هذه البشارة أن الوصف فيها يكاد يكون عينيا ، لا في شريعته فقط بل في أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام ، فهو يذكر أعمال النبي عليه السلام ، وسجاياه ، كأنه رآها ،ثم يصف جسمه فيذكر علامة النبوة بين كتفيه ، وهو خاتم النبوة الذي ذكرناه آنفا ٠

ثم هو يذكر الاسم النبوي بما يقرب من البارقليط ، فهو يقول مشقح ، ومعناها محمد، كما أن معنى البارقليط أحمد وكلاهما من أسمائه عليه الصلاة والسلام ٠

---

(١) المشقح فى بنية العبرانيين الحمد

وجاء في كتاب شمعون « جاء الله تعالى بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » ٠

وهنا تعيين له بالمكان فجبال فاران هي جبال مكة ، ولم يكن بعد ابراهيم في مكة المكرمة وبين جبالها سوى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو تعريف ليس بالاسم ولا بالوصف ،ولكن بتعريف المكان ٠ « ما كان يروج بين العرب من أخبار نبي يرسل » ٠

١٧٩ ـ راجت في البلاد العربية ،وخصوصا حول مكة والمدينة أقوال تذكر أن نبيا يبعث في هذا الزمان ،وروج ذلك النصارى الذين كانوا منبثين في الجزيرة العربية ، ويقيم كثيرون منها في أطرافها ، وكانوا يتناقلونها من الشام في رحلتهم اليها تجارا ، اذ يرون الرهبان منبثين في الأديرة ، ويلتقون بهم الفينة بعد الفينة ٠

واليهود في المدينة كانوا يذكرون ذلك متحدين به الوثنيين الذين يجاورونهم ، وكانوا يستفتحون به المشركين ، زاعمين أنه سينصره عليهم ، ويؤيد دينهم الذي يذكرون ذلك آخذيه من اشارات كتبهم ، التي كانت مفسرة عندهم ، حتى صارت علما توارثوه عن أسلافهم ، وهو في مطوى التركة التي أخذوها عنهم ، ومع أن اليهود عرفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تعالى عليهم، ليكون العلم حكرا عليهم ، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه ، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيا من أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام سيبعث ٠

واذا كانت الأثرة هي التي حملتهم على كتمان ما أنزل الله تعالى عن غيرهم، فالأثرة أيضا هي التي حملتهم على التحدث بخبر النبي المنتظر المكتوب عندهم في التوراة ، لأنهم كانوا في حرب مع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم فكانوا يذكرون أمر النبي لهم ، لا ليعلنوا الحقائق ، ولكن ليتغلبوا عليهم بما يسمى في عصرنا الحرب النفسية التي تقارن الحرب المادية ، لينالوا الفوز والغلب ، وليتم لهم التعالي عليهم،واعلان الاستهانة بهم ولانذارهم بأن المستقبل معهم ، وفي ذلك ابقاء بالرعب ٠

وقد حكى القرآن عنهم ذكرهم لمن كانوا يجاورونهم أمر النبي المنتظر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى ، ويظهر أنهم لم يكونوا كنصارى أوربا في الماضي أو الحاضر ، بل كانت فيهم بقية من نصرانية المسيح ، ولقد كانوا بعد البعث المحمدي أقرب الى المسلمين من اليهود والمشركين ، فقد قال تعالى فيهم :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٢)

كان ينبعث من بين هؤلاء صوت قوي يخبر بأن نبيا قد آن أوانه ، والناس يعيشون في زمانه ، ويظهر أنهم كانوا من بقايا الموحدين الذين لم يثلثوا ، فانه على تعاقب الأزمان كان ثمة موحدون ، وان كانوا قرنا بعد قرن ، ان عبارات القرآن الكريم تنبيء عن ذلك في قصة النصارى الذين حكم سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجوار العداوة المستحكمة التي أعلنها المشركون ، واليهود الذين كانوا أعداء للناس جميعا .

---

(١) البقرة (٢) المائدة

وانه ليروى التاريخ في أخباره المتضافرة ، والسيرة الطيبة الطاهرة ، أنه لما كان اضطهاد المشركين للمؤمنين عقب مجاهرة النبي عليه السلام بدعوة الحق كانت الهجرة الى الحبشة ، وقد لقي المسلمون ترحابا ، واكراما من ملكهم .

ولقد ثبت أن النجاشي ملكهم كان موحدا ، وأنه يرى في عيسى ابن مريم وأمه ، ما نص عليه القرآن الكريم : « وأنهما لم يكونا الهين من دون الله » .

## الحائر يرجع إلى الحق :

١٨٠ ـ ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه الى قريش وما حول مكة ، ولقد وجد أربعة من قريش أنكروا تأثير الأوثان بالنفع والضرر ، واستنكروا عبادتها وثبت أن هؤلاء الأربعة ، منهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نوفل .

وقد خلصوا نجيا من عبادة الأوثان ، وقد قال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ، ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين ابراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فانكم والله ما أنتم على شيء .

وقد دخل المسيحية اثنان منهم هما ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وقد قصد الى قيصر فتنصر ، وكانت له منزلة حسنة عنده .

وأما عبد الله بن جحش ، فقد بقي محيرا ملتبسا عليه ، حتى جاء الاسلام .

وزيد بن عمرو بن نفيل برم بمكة وأهلها ، وأخذ يتنقل في بلاد العرب متعرفا دين ابراهيم ، وأخيرا أخذ ينتظر النبي كما أخبره بعض النصارى ، وفي سيرة ابن هشام ما نصه :

خرج ( أي زيد بن عمرو ) يطلب دين ابراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى الى راهب بميفعة من أرض البلقاء (١) كان ينتهى اليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأل عن الحنيفية ، دين ابراهيم ، فقال انك

---

(١) الميفعة المرتفع من الأرض ، والبلقاء كورة بجوار دمشق

لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين ابراهيم الحنيفية ، فالحق بها ، فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئا منهما ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال يريد مكة ، حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه .

وقد رثاه رفيقه ورقة بن نوفل (١) بقصيدة جاء فيها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو انما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
يدنيك ربا ليس ربا كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وادراكك الدين طلبت ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا

هذا بعض رثاء ورقة بن نوفل في القصيدة المنسوبة اليه في أصح الروايات وهي تدل على أن ورقة وصاحبه كانا مع انكارهما للوثنية يؤمنان بالبعث ويوم القيامة .

## علم ورقة بن نوفل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١٨١ ـ وان ورقة بعد أن دخل في النصرانية ، وعلم علمها ، وأسرار كتبها ، ودرس الأديان ، ووازن بين حقائقها كان يعرف أن الزمان الذي كان يعيش فيه هو زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه حكم بأن محمدا هو النبي المنتظر ، واستبطأ ظهوره .

وقد روى في ذلك ابن اسحاق أن خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل الذي كان نصرانيا وكان قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطور الذى ذكر أن أوصاف النبي عليه السلام تبين أنه النبي المنتظر ، فقال لها ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا لنبي هذه الأمة ، قد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه ، فجعل ورقة يستبطيء الأمر ، ويقول : حتى متى .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٢ .

وقد قال في ذلك قصيدة جاءفيها :

لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما ما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتني اذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا (١)

هذا كلام ورقة عندما خبرته ابنةعمه خديجة عن حال محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم،وكان ذلكعقب أخبار ميسرة غلامها عندما صاحبه في رحلته الى الشام في التجارة في مالخديجة ، وكان ذلك قبل أن يتم الزواج بينهما ، بل كان والزواج يساورفكرتها ، ولم يمتد الى تفكيره هو الا من بعد ذلك .

## عِلم النبوّة عند سَلمان الفارسيّ :

١٨٢ ـ وان ما تضافرت الصحاح عليه في قصة اسلام سلمان الفارسي ، وكيف علم بأمر بعث النبي عليه السلام قبل أن يلقاه ، وكان أن لقيه لا غاية له الا أن يعرفه بالأوصاف التي ذكرت له قبل أن يلقاه ، بل قبل أن يبعث صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخلاصة القصة كما جاءت في الصحاح أن سلمان رضي الله تبارك وتعالى عنه كان فارسيا من أهالي أصبهان ، وكان أبوه دهقان القرية ، وكان أثيرا عند أبيه حريصا عليه ، وقد درس المجوسية حتى كان خادم نارها الذي يوقدها ، ولا يتركها،وكان أبوه ذا ضيعة عظيمة .. ويقول رضي الله عنه : « فخرجت أريد ضيعته التي بعثني اليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم،وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي فلم ،

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧

أذهب اليها ثم قلت لهم أين أصل هذاالدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت الى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال أي بني أين كنت فقلت له يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس . قال . يا بني ، ليس في ذلك الدين خير ، ودينك ودين آبائك خير منه ، قلت له كلا والله انه لخير من ديننا . قال فخافني فجعل في رجلي قيدا . ثم حبسني في بيته ، ويظهر أن سلمان استطاع أن يخلص نجيا من قيده، فقد قال : « بعثت الى النصارى ، فقلت لهم اذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم اذا قضوا حوائجهم ،وأرادوا الرجعة الى بلادهم فآذنوني بهم ، فلما أرادوا الرجعة ألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل الدين علماً ؟ قالوا الأسقف في الكنيسة . فجئت اليه فقلت له اني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك ، أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك فدخلت ويذكر سلمان أنه كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، ثم يكتنز ما يجمعه لنفسه ولا يعطيه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من الذهب ، وأنه يبغضه بغضا شديدا لصنعه ، ولما مات واجتمع النصارى ليدفنوه ذكر لهم سلمان ما صنع ،ودلهم على مكان كنزه ، فصلبوه ، ورموه بالحجارة .

انتقل من بعد ذلك سلمان الى خدمة أسقف صالح ، كان يدأب على العبادة ليلا ونهارا ، فأقام معه زمنا طويلا ، ولما حضرته الوفاة استوصاه سلمان وقال له : « الى من توصي بي ، وبم تأمرني ؟قال بني والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل فالحق به .

لحق سلمان بصاحبه بالموصل ، فوجده على خير عظيم ، ولما حضرته الوفاة قال له :« الى من توصي بي وبم تأمرني: قال : يا بني والله ما أعلم رجلا على ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين » (١) .

---

(١) مدينة في طريق القوافل من الموصل الى الشام

ولما ذهب الى رجل نصيبين وحضرته الوفاة دله على رجل بعمورية سافر اليه، ووجده خير رجل وأقام عنده خير اقامة، واتجه الى الاكتساب فاكتسب بقرات وغنما ، ولما حضرته الوفاة قال له بمن توصي بي وبم تأمرني • « فقال أي بني ، والله ما أعلم أحدا أصلح على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأمنه ولكنه أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجر الى أرض بين حرتين (١) بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل»

وقد شد سلمان رحيله الى وادي القرى ، ثم الى المدينة ، اذ مر به نفر من تجار كلب ، فقال لهم احملوني الى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتي وغنيمتي هذه ، فرضوا بهذه الصفقة ، ولكنهم مكروا به وغدروا فما ان بلغوا به وادي القرى حتى ظلموه ، وباعوه على أنه عبد من رجل يهودي ، ولكنه أسلم نفسه لربه الذي طوف في الآفاق يبتغي الدين الحق الذي يريد أن يعبد الله تعالى على مقتضى شريعته ، وترك العيش الواقع في ظل أبيه ، وسار في المهامه والقفار طالبا الهداية •

رأى النخلات التي وصفها له أسقف عمورية ، وفرح اذ بيع من اليهودي الذي اشتراه الى عم له من بني قريظة ، فحمله الى المدينة •

وفي هذه الأثناء حيث كان يقيم هو بالمدينة كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه الله تعالى نبيا ، وما كان يعلم سلمان رضي الله تعالى عنه من أمر ذلك شيئا ، لأنه شغله الرق عن أن يتتبع أخبار من بشرت به الكتب ، ونقله الأساقفة ، وتحدث به الرهبان •

وقد هاجر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينا هو في رأس عذق (٢) لمالكه يعمل به بعض العمل ، اذ أقبل ابن عم لهذا المالك ، فوقف عليه يسب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، ويقول : « والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبي » (٣) •

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركاني

(٢) العذق هو النخلة (٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٩

ويستمر سلمان في قصته ، فيذكر أنه أصابته رعدة حماسة للذهاب الى قباء حيث سمع أن المجتمعين بقباء فيهم من يقول انه نبي ، وقد بين له أسقف عمورية أن مهاجر النبي المنتظر سيكون بهذه الأرض ، فأخذ الأهبة ، وذهب الى قباء ومعه مال قليل وهنا يلتقي العيان بالخبر ، لقد أخبر في غيبة محمد بن عبد الله عليه السلام أنه نبي وسلك الفيافي والقفار ليلقاه وهو يعلم بنبئه ، وجرى الحديث بينهما يختبر به حاله ، لقد رأى المكان ، كما أخبر الاسقف ، ولم يبق الا أن يختبر، لقد قيل انه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وان بين كتفيه خاتما ·

عند اللقاء قال سلمان : « انه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق بها من غيركم » ·

لم يأكل منها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه كلوا وأمسك يده « وبهذا تبين الوصف الذي علمه من قبل ، وقال سلمان في نفسه : هذه واحدة » فأراد أن يختبر أيقبل الهدية ليتكامل الوصف ·

جمع شيئا مما يهدى ، وتحول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وجاءه ، وقال له : « اني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها » فأكل منها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأكل معه أصحابه ·

قال سلمان في نفسه هذه الثانية :

وسلمان علم من وصف أسقف عمورية ، أن بين كتفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبوة ، فأراد أن يعرفه ولم يبق الا ذلك ليستوثق من تحقق الخبر من الخبر ·

يقول رضي الله عنه : « سلمت عليه ( أي على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم استدرت أنظر الى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله عليه السلام استدبرته عرف أني أستثبت من شيء، وصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره · فنظرت الى الخاتم فعرفته فأقبلت عليه

أقبله ، وأبكي ، فقال رسول الله صلى تعالى عليه وسلم : تحول ، فتحولت ، فجلست بين يديه » (١) .

كان سلمان في الرق ، فشغله عن أن يلازم النبي عليه السلام ، حتى انه لم يستطع أن يحضر غزوة بدر ، وأشار عليه النبي من بعد بأن يعقد عقد مكاتبة مع مالك رقبته ، أي يتعهد له بمال أو منفعة يقدمها في نظير عتقه ، ففعل ، وعاونه الصحابة في تنفيذ عقده ، وصار من بعد حرا .

١٨٣ ـ سقنا ذلك الخبر بعد اختصاره ، وهو مع الاختصار طويل ، سقناه لأمرين :

أولهما ـ كيف يرضى طالب الحق بالتعب في سبيل طلبه ، هذا شاب صغير يكاد يكون غلاما ، يعيش في ظل أبيه في عيش رافغ ، وهناءة من الرزق يرى كنيسة فيها عباد لا يعبدون النار الذى كان سادنا لها ، فتستهويه عبادتهم ، فيتقدم لأبيه برغبته في أن يكون نصرانياً فيكبله أبوه بالحديد ، فلا ينثني ، ويجتهد في أن يفك أغلاله ، ويلحق بهم فيكون له ما يريد ، ثم يحمل نفسه عناء الانتقال من اقليم الى اقليم حتى يصل الى الحق الذي يريده ويصاب بالرق فيصبر ، ولا ينثني عن غايته ، ويقبل أن يعيش مظلوما في قيد الرق صابرا محتسبا ، حتى يصل الى غايته ، وهو التقاؤه بمن يطلبه حتى وجده ، وكان العون من الله في فك رقبته ، انه العابد الصابر حقا ، من يوم فك قيود أبيه ، فقد فك معها قيود عقله ، ونفسه ، وصار ديانا لله سبحانه وتعالى ، لا يبغي الا رضاه ، واذا كان غادر أباه فقد انتهى الى حضن رسول الحق ، فأحتضنه هو ، وقال عليه السلام : سلمان منا آل البيت .

الامر الثانى : وهو الجوهري في القضية أن أمر نبي منتظر كان معروفا بين العرب في عصر النبي عليه السلام، وهو المقصد الأصلي من سوق القصة مع طولها ، فالعرب كانت أسباب العلم برسالة النبي معلومة عندهم علمها طلابها ، والذين صفت نفوسهم وجهلها الأكثرون لعدم الاتجاه الى تعرفها ،ولم يكن عندهم الاتجاه الديني ليعرفوا مالم يعرفوا من شئون الدين في قابل

---

(١) الكتاب المذكور ص ٢٢٠

حياتهم ، حتى جاءهم البشير النـــذير يقرع بالحجة القـــاطعة مسامعهـــم ، ليكون من بعد ذلك العقاب أو الثواب ،

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

## يهود تخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم :

١٨٤ ـ قد ذكرنا فيما مضى اشارة الى أن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا من الوثنيين بنبي مرسل يكون لهم ، ويكون على الوثنيين ، ينصر اليهود ، ذكرنا بالاشارة ، ولـــكن في هذا المقام لا تغني الاشارة عن العبارة ، فلا بد من أن نذكر بعض الايضـــاح ليتبين الباحثون من معـــرفة أن العصر كانت فيه البيانات الكافية التي تبين أن رســـولا من قبل الله تعالى وشيك أن يظهره الله تعالى بينهم مصحوبا بحجته ، مبينا بآياته ودعوته .

ولم يكن ذكر النبي عليه الســـلام لمن عاصروه من الأوس والخزرج فقط ، بل كان من قبل أن تقع الحروب بين اليهود وبينهم .

فقد ثبت في التاريخ أن تبعا أبا كريب اليمني جاء الى يثرب وأحنقـــه أن بعض أهلها قتل رجلا من رجاله ، فقاتلهم وبينا تبع على ذلك من قتالهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة ، وهما عالمان بأصـــول الديانة اليهودية ومصادرها ، والمخبوء من وثائقها ، وقالوا له :

« أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبيت الا ما تريد ، حيل بينك وبينها ، ولم تأمن عليك العقوبة » فقال لهما : ولم ذلك : قالا : « هي مهاجر نبي يخـــرج من هذا الحرم من قريش تكـــون داره وقراره » (٢) .

ولقد كانت أخبار اليهود بنبي يجيء يشيع في يثرب ، وينتقل الى أهلهـــا طبقة بعد طبقة ، وكان من أسباب مسارعة الأنصار للاستجابة للنبي عليـــه الصلاة والسلام ، وكان لهم بذلك علم بالكتاب أتى اليهم من اليهود ، وقـــد ذكر قتادة عن رجال قـــومه ، والسبب في مسارعتهم الى اجابة النبي عليـــه السلام الى النصرة والايمان فقال :

---

(١) فاطر

(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٤

« ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله ، وهداه لنا لما كنا نسمع عن رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأوثان، وما كان عندهم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض مايكرهون ، قالوا لنا انه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عـادوارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صـلى الله تعالى عليه وسلم أجبناه حـين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا مما كانوا يتوعـدوننا به ، فبادرناهـم اليـه ، فآمنـا به وكفروا » (١) ٠

ولم يكن اليهود يذكرون خبر النبي عليه السلام مقتصرين على الخبر ، بل يذكر مع ذلك الايمان باليوم الآخر ، والجـزاء بالنعيم المقيم ، أو بالجحيم ، ويظهر أنهم لم يكونوا من الذين ينكرون البعث ، ففيهم من يصدقه ، ومنهم من يكفر به ٠

ولقد ذكر ذلك بعض من الأنصار ، وهو سلمة بن سلام ، فقال :

كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، فخـرج علينا من بيته ، حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان ٠ والجنة والنار ، فقالوا له ويحك ، أو ترى هذا كائنا : أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيهـا بأعمالهم !! قال نعم ، والذي يحلف به فقالوا له : ويحك ، فما آية ذلك ! قال نبي مبعوث نحو هذه البلاد ، وأشـار بيده الى مكة واليمن ، فقالوا ومتى نراه قال سلمة فنظر الي وأنا من أحـدثهم سنا فقال : « ان يستنفد هذا الغـلام عمره يدركه » ٠

قال سلمة : « فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله محمدا رسول الله وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفروا به بغيا وحسدا » ٠

ولقد عرف بعض اليهـود وصف النبي عليه السلام وفيه انه يسبق حلمه جهله ، فهو لا يحمق ٠

ولقد روي عن عبد الله بن سلام الصحابي أنه قال : لما أراد الله تعـالى بى زيد بن سمية ، قال لم يبق شيء من علامات النبوة الا عرفتها في وجهه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١١

صلى الله تعالى عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين ، لم أخبرهما منه ،يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له ،لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة اسلافه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا في ثمرة . قال فلما حل الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، وهو في جنازة مع أصحابه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت يا محمد :ألا تقضيني حقي ، فوالله علمتكم يا بني عبد المطلب لمطل ، فنظر الى عمر،وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ،ثم قال : يا عدو الله أتقول لرسول الله عليه السلام ما أسمع ، وتفعل ما أرى،فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينظر الى عمر في سكون وتؤدة ، وتبسم ثم قال أناوهو كنا أحوج الى غير هذا منك ياعمر: أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر ، فأسلم » .

## تواتر الأدلة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم :

١٨٥ ـ هذه نقول تاريخية ثابتة تبين أن العصر الذى بعث فيه عليه السلام كان عصرا يدور فيه حول نبي يرسل ، وقد كان لهذا الكلام مصدران :

أولهما ـ ما كان يحاوله الذين أرادوا احياء دين ابراهيم عليه السلام ، فقد كان بعض من أهل مكة يؤمنون بضرورة احياء ملة ابراهيم الحنيفية السمحة ، وقد وجدوا بفطرتهم أن الله لا يدع ذرية ابراهيم بورا لا هادي يهديهم ، ولا مرشد يرشدهم ، وقد رأيت من خرجوا على أقوامهم ،واطمأن بعضهم الى النصرانية فدخلوها ،وبعضهم أخذ يطوف في الأرض حيث يبحث عن عقائد سليمة لا تدخلها الوثنية،ومات شهيدا في طلب الحقيقة، وذكر محمد من بعد بعثته أن الله تعالى سيبعثه أمة وحده ، فرضي الله تعالى عنه .

ثانيهما ـ الكتب السابقة ، وأقوال الأحبار والرهبان ، وعلماء الأخبار من اليهود والنصارى ، فبحيرا الراهب كان قد لقي محمدا غلاما ، وطبق الأوصاف التي لديه ، ونسطورا الراهب قد لقيه وهو شاب ، وكانت أخبار اللقاءين تذيع وتشيع عند العرب ، وفوق ذلك كان نصارى نجران وغيرهم يذكرون الناس ترقبهم لنبي منتظر ، كانت أوصافه لديهم وكان أكثر ذكرا ،

لا لأنهم يريدون اعـــلان حقيقة ، أوابتغاء هداية ، بل شفاء غيظهم ،واطفاء نار حقدهم أو التمادي فيه ، فقد كانوايعلنون ذلك عندما تحز في أجسامهـــم سيوف الوثنيين ، فيذكـــرون خبره ،ويقـــولون سنقتلكـم معـــه ، كما قتل عاد وارم ٠

بهذا انتشر خبر مجيء النبي عليه السـلام ، وتوقع المفكرون مجيئه وان زمانه قد كان ، فجاء مصدقا لما بين يديه من الكتب التي لم تحرف ، ورحمـــة للعالمين ، وهاديا للحق ، ونصيرا له ،وقد أيده الله تعالى بالحجة الباهـرة ٠

## مـا جاء من أخبار الكهـان :

١٨٦ ــ تذكر كتب السيرة أن الكهان قد بشروا بالنبي صلى الله تعالى ، عليه وسلم وقد كان في نيتنا أن نعرض عن ذلك الكلام ، لأنه فتح لبـــاب الأوهام في ســـيرة سيد الأنام ، نبي الحق والعقل وبعث المـــدارك نحـــو الحقيقة ، من غير أن يسيطر عليها وهم ، أو يتغلغل فيها خرافة ليست قائمـة على حكم العقل ، أو الخبر الصـــادق المنقول بأسناد صحيحة ٠

ولأن هذه الأخبار عن الكهان ليست ثابتة بسند صحيح يطمأن اليه ، ولأنه لم يثبت أن النبي عليه السـلام قبل البعثة كان يلجأ الى الكهان ، أو يطمئن الى أقوالهم ، ولأنه اذا كان الكهان قدقالوا شيئا في البشارة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صادقة ، فان ذلك قد يكونون علمـوه من الـــكتب السابقة أو أصحابها ، وقد كانوا قبل البعثة علماء العرب ، وربمـا يكونون قد أخذوا يبثون ما عندهم في شـكل الكهانة ، وفي سجع الكهان الذى نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم بعد بعثته ٠

كنا نوبنا ترك الكلام في الكهـانة ، لأن الضرر في ذكرها أكبر من نفعها ٠

ولكنا حملنا على الكتابة فيها ٠٠ أولا ــ لأن بعض كتـاب الســـيرة من المحدثين تعرضوا لها مصدقين ، وأن المستشرقين قد اتخـذوها ذريعة لربط الدعوة المحمدية بالكهان ، والربط بين القرآن المنزل رحمة للعالمين وسجعهـم ، ولأن بعض الكاتبين توهم تبعا لهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كـان يديم السماع للكهان قبل البعثة فوجب التصدي ٠

١٨٧ ـ ونبتدىء من الكلام في أخبار الكهان بخبر نسب الى سيف بن ذى يزن الحميري ، وقيل انه من هواتف الجان فقد جاء في كتاب هواتف الجان ، واليها تنسب كهانة الكهان ،جاء في هذا الكتاب ما نصه بعد أن التقى بعبد المطلب : « أيهم المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم (١) ؟ قال نعم : قال ادنُ مني ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم : قال « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناما سهلا ، وملكامرتجلا » يعطي عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم ، وعرَف قرابتكم ، قبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم » .

بعد هذا مكثوا شهرا لا يصلون اليه، ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه ، فأرسل الى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : « يا عبد الله اني مفض اليك من سر علي ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكني رأيتك معدنه، فأطلعتك طليعه ، فليكن عندك مطويا ،حتى يأذن الله تعالى فيه ، فان الله تعالى بالغ أمره اني أجد في الكتاب المكنون،والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجناه ، دون غيرنا خبرا عظيما ،وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ورهطك كافة ولك خاصة » .

فقال عبد المطلب مثلك سروبر ،فما هو فداؤك أهل الوبر زمرا بعد زمر .

قال سيف بن ذي يزن ساجما سجع الكهان : « اذا ولد بتهامة غلام به علامة بين كتفيه شامه ، كانت له الامامة وله به الزعامة الى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب ـ أبيت اللعن ـ لقد أتيت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته اياي ما ازداد به سرورا .

قال ابن ذي يزن : هذا حينه الذي يولد فيه ، أو قد ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ،وقد تاه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل منا أنصارا يعزيهم أولياءه ،ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ويخمد النيران ،

(١) لأن أم عبد المطلب من بني النجار وأصلهم من اليمن ـ المرتجل كثير العطاء .

يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله ٠

قال عبد المطلب عز جدك وعـــلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمـــرك ، فهذا إنجاري ، فهل الملك سار لي بافصاح ، فقد أوضـــح لي بعض الايضاح ٠

قال ابن ذي يزن والبيت ذي الحجب ، والعـــلامات عـلى النقب ، انـــك يا عبد المطلب لجده غير كذب ٠

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعـلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ٠

قال عبد المطلب : كان لي ابن ، وكنت به معجبا ، وعليه رفيقا ،فزوجته كـــريمة من كرائم قـــومه ، آمنـــة بنت وهب ٠

فجاءت بغلام سميته محمدا ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ٠

قال ابن ذي يزن : « ان الذي قلت لك كمـــا قلت ، فاحتفظ بابنـــك ، واحذر عليه اليهود ، فانهم له أعداء ،ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فاني لست آمن أن تدخل عليهم النفاسة من أن تكون لكم الرياســـة ،فيطلبون الغـــوائل ، وينصبـــون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم ، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبـل مبعثـــه ، لسرت بخيلي ورجلي ، حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فاني أجـد في الكتاب الناطق ، والعلم الســـابق أن يثرب استحكـــام أمره ، وأهـــل نصرته ، وموضـــع قبره ، ولولا أني أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهـــات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكني صـــارف ذلك اليـــك عن غـــير تقصـــير لمن معك » (١) ٠

## تحقيق البشارة برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم :

١٨٨ ــ هذا كتاب ما فيه بلا ريب حق من حيث البشارة بالنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ولعله ان صـــدقت النسبة الى سيف بن ذي يزن يكـــون مصدره ما وصل اليه من علم ، فقـــد كان نصرانيا متعرفا ، ولم يكن وثنيا

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٠

أميا ولا يمكننا أن نقـول ان ابن ذي يزن من الكهان ، وان وجـد الموضوع في كتاب هواتف الجان ، ويقـال ان الكهان كانوا يخاطبون بهواتف الجـان ، ونقول ان فيه سجع الكهـان ، وان لم يستغرقه ، بل كان فيه بعضه ، ولعل هذا من صنيع الكهان ، وقد أرادوا أن يجعلوه من الكهان بعبارات السجع فيه أولا ، وجعله في كتاب هـواتف الجان ثانيا ٠

وفي الواقع ان الحديث كمـا ذكر ممن له علم بالكتاب وكان مستفيضـا مشهورا ٠

ومن ذلك ما روي بالأسانيد الصحيحة عن بعض المضريين قال :

شارفنا الشام ، ونزلنا على غدير به شجرات ، فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : « ان هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد ، فقلنا نعم : نحن قـوم من مضر ، قال من أي مضر ؟ قلنا من خندف ٠ قال أما انه سيبعث وشيكـا نبي خاتم النبيين فسارعوا اليه ، وخـذوا بحظكم منه ترشدوا ، فقلنا ما اسمه ؟ قال اسمه محمد (١) » ٠

وانه بلا ريب نرى هذا الخبر الذي سقناه يتلاقى مع خبر ابن ذي يزن ، بيد انه لا سجع فيه ، ولا ينسب الى هواتف الجان بل ينسب لراهب من الرهبان نسبه الى ما عندهم من كتب ، لا الى هواتف من الجان ٠

## جاء الحق وزهق الباطل :

١٨٩ ــ فنحن اذا وجدنا في عبارات الـكهان ما يومىء الى ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس ذلك من هواتف الجان ، أو من عـلم الكهان وليس مصدره الكهانة ، ولكنهم علموه مما يجري على ألسنة الرهبـان ، وما تنطق به كتبهم ؟ « وما عرف من علم» ٠

ومن ذلك مثلا قول سطيح الكاهن :« اذا كثرت التلاوة ، وغاضت بحـيرة سـاوة ، وجاء صـاحب الهـراوة »مع غيره ٠

وقال ابن كثير انه يعني النبي عليه السلام ، ونرى أولا ــ أن النبي ما جاء بالهراوة بل جاء يرد اعتداء الباطـل على الحق بالسيف لا بالهراوة، وثانيا ــ

(١) الكتاب المذكور ص ٣٣١

أنه على فرض أن المراد النبي عليه السلام فذلك مما شاع بين العرب من أنه سيكون نبي منتظر ، وأن أهل الكتاب يذكرونه بينهم خاصة ، ويعلنونه عند الاقتضاء للعامة ؟ سواء في ذلك اليهود والنصارى وان كان اعلان النصر أوضح وأبين ، واليهود يعلنونه عند الشديدة تنزل بهم في حروبهم مع الوثنيين ، يعلنون مجيء النبي عليه السلام كما جاء في كتبهم تثبيتا لأنفسهم وتخذيلا لخصومهم وتعلقا بالرجاء ، وتشفيا من الأعداء بالمستقبل فكان السبق لأعدائهم ، والتخلف ، لهم فكان به المآل لغيرهم والحال عليهم ، وهم الأخسرون دائما ان شاء الله ٠

## موطنه صلى الله عليه وسلم مكة الأمية :

١٩٠ ـ ان محمدا عليه السلام كان يعيش في مكة وهي مدينة أمية لا تقرأ كتابا ، ولا تتدارس علما ، وكان كأهلها ، لا يجلس الى درس ولا الى معلم ، واذا كان بعض أهله يعلم القراءة والكتابة ، فما كان محمد يعلمها ، وما يمتاز به على أهل مكة هو خلقه وقوة ادراكه وابتعاده عن عبادة الأوثان واستنكارها ، وكراهية الأوثان والحلف بها ، من غير أن يكاره قومه ، ويعلن بغضهم ، بل ما كان يبغض غير قومه ، بل كان الودود الألوف ، وان كان لا يسايرهم فيما يفعلون ، بل كان ينكر ويستنكر ، ولا يلاحي ولا يغاضب ، ولا ينافر ٠

وان أقصى ما كان يريد معرفته من الديانات هو ديانة ابراهيم ، لأن آثاره قائمة بينة ، وبعض الديانة كان يتبع مع انحراف في بعضها ، وهو الحج ، وكانوا يتفاخرون بانتسابهم الى ابراهيم ، وهو يعلم أنه جدهم ونبي مرسل ، ويريد محمد مع تركه الأوثان أن يعرف ما كان يأمر به ابراهيم عن ربه ، وقد علم هو أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس بوالد ، ولا ولد ٠

أما غيره من الأنبياء كموسى وعيسى وداوود وسليمان ، وخصوصا ما كان من دقائق علمهم كالنص على رسول يجيء من بعد موسى وعيسى ، وكونه من جبال فاران أي جبال مكة ، كما تعبر كتبهم ، أو تشير اليه من غير ايضاح واضح ، وخصوصا عندما عراها التحريف ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ٠

وان النبي عليه السلام كان يتحدث عنه ، ولا يتحـــدث هو معهم ، وانه عندما التقى ببحيرا الراهب صغـــيرا كان قومه يتحدثون عنه ، ولم يعـــرف التاريـــخ أنهـــم ذكروا له ما حدث به الراهب ٠

وكذلك الأمـــــر في رحلته الثانية بعد أن سار شابا سويا ، كان الحـــديث عنه ، ولم يثبت أن الحـــديث كان معه ٠

وهكذا اذا كـــان يتلقى الكلام في نبي منتظر ، فانه يتلقـــاه كما يتلقى قومه ، ولم يعرف أنه كانت له عناية خاصة بتاريخ النصـــارى ، ولا بأخبار اليهود ، ولا بشيء من ذلك ، بل عنايته في مطلع حياته بكســـب الرزق ، وفي شبابه الأول بالتجارة ، ثم بعد أن توافر له الرزق انصرف الى العبادة والتحنث الليالي والشهور ، وفي كل أحواله كان كثير التأمل ، يدرس الخالق من خلقه ، والمنشيء مما أنشأ ٠

ولكن كتاب الفرنجة يدعـــون أن محمدا عليه السلام كان قبـــل البعثة يتتبع أخبار اليهود ، ويستمع الى ما يتحـــدث به أحبار اليهـــود ، ورهبان النصـــــارى ، وانهم يرمون بهـــذا الى أمرين :

ـ أحدهما ـ اثبات أن محمدا عليه الســـلام ما وصل الى ترك الأوثان الا بتعاليم اليهود والنصارى ، وانه ما وصل اليها بمنطقه وفطرته ، وبقـــايا ديانة ابراهيم عليه السلام ، وكأنهـــم يريدون أن يصوروا ما كان دون زيد ابن نفيل وورقة بن نوفل ، وقد ثبت أنه كان يكره اللات والعزى وهـــو في الثانية عشرة من عمره ، وقد ثبت ذلك في أخبار بحيرا الراهب ٠

ـ وثانيهما ـ ادعاء أن القرآن أخذ أخبار النبيين وقصصهـــم من التوراة والانجيل ، وأن العلم بهذا علم تلق ، وليس بوحي من الله تعالى ، مع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء في القـــرآن هو الصادق الذي لا يمترى فيه ، وغيره فيه الفساد والضلال كخبر سكر لوط ، ومواقعته ابنتيه وكزنى داوود بامرأة قائد جيشه فهي أكاذيب ليست في القرآن ٠

وقد تبعهم بعض المغترين بهم من الكتاب عن نية حسنة ، ولم يدركـــوا خبيثة نفوسهم ، وخبث تفكيرهم ٠

الا فليتركوهم ، واستنباطهم ، وليتتبعوا أخبار النبي عليه السلام من كتب السيرة الدقيقة البعيدة عن الأوهام ، وليتركوا أتباع الاستنباط الفاسد، من غير خبر تاريخي يؤيده ، ولا سند صادق يزكيه ٠

وليعلموا أن النبي عليه السلام كان بعيدا عن الأحبار والرهبان ، وما كان يصدق كهانة الكهان ، ونهى بعد البعثة عن الاستماع الى الكهان ، وكان يستنكر سجع الكهان ، ويستنكر تصرف من يحاكيهم ٠

# البَعْثة المحَمّديّة

# التجـــلّي الأعظـــم

١٩١ ــ كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين ملتزما أمرين :

أولهما ــ أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث ، كان كذلك غلاما ، ثم شاديا ، ثم من بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس الا ما يوجبه حق المجتمـــع عليه ، من عطاء يقـــدمه لمحتاج ، أو معاونة لمستعين ، أو اغاثة لملهوف ، أو حمل لكل ، أو قرى للضيف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك • فـكان المحتمـــل للواجبات ، المعتزل ، الذي يؤثر العزلة عن الاندماج في غمار النـــاس ، حتى لا يصيبه شيء مما يخبثون به ، لأنه الطاهر الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى مرشحـــة لحيـاته الثانية ، وآية على أنه ذلك الرجل الذي يستنكر المنكر ، ولا يفاحش أو يخاصم أو يجادل آية على أنه الرسول المنتظر ، والنبي المرتقب ، وهو في أحـواله في اختلائه واجتماعه ــ الأليف المحبوب ، الذي قدرته قريش كلها حق قدره •

الأمر الثاني ــ أنه قد اتخذ منسكا ينسك فيه وهو غار حراء ، بـــد أن أكثر من العبادة ، والعكوف على عبادة الله ، وقد رأى قريشا يعكفـون عـلى أصنام لهم •

وان الظاهر من حال قريش الذين استمرءوا عبادة الأوثان أنه لم يـــكن فيهم غير الحنفاء ــ من يتفكـرون في عبادة ، أو يختلون ليعبدوا أوثانهـم ، فان ذلك لم يثبت تاريخيا ، ولم تذكر واقعة له تنبيء عن ذلك ، وان ما يحيط بهم ، وما يثبت من حالهم يدل على أنهم لم يعملوا التفكير في أمر عبادة ، بـل كانوا يتبعون ما وجدوا عليه آباءهـم من غير تفكير ولا تدبر ، ولو أن بعضهم كان يعمد الى الاختلاء والاعتزال لكان كثيرون منهم يخرجون عن عبادة الأوثان الى عبادة الديان ، اذ أن تأملا يسـيرا كان يخرجهم من الظلمات الى النور ومن

ضـــلال الوثنية الى هـداية الوحدانية ولكنهم قوم ماديون ، يقولون « ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »، ويقولون : « ما يهلكنا الا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » .

واذا كان قد جرى على بعض الأقلام أن الاختلاء للعبادة كان نسكا عندهم يعبدون فيه الأوثان وينفردون لذلك ، فانمـا هو كلام من قـــوم لا يريدون بالاسلام الا خبالا ، ولا يريدون بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم علوا ، ولا يذكرون فيه قول الحق خالصا ، بـــل يموهون فيه ويلبسون الحق بالباطل .

نسكه وخلوته صلى الله عليه وسلم :

١٩٢ ـ كان محمد بن عبـــد الله يجتهد في العبادة ، ومن وقت أن اطمأن الى رزقه ، ونظم تجارته في مال خديجة بأن يعمل غيره تحت اشرافه ، ولم يكن ثمة حاجة الى خروجه بنفسه للتجارة ، فلم يذكر أنه خرج بنفســه ، بعـــد خروجه وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

وكلما تقدمت به سن الشباب ازداد نسكـــا واختلاء وانصرافا عن الملاذ والشهوات في غير تحريم الحلال ، أو ابعاد لطيب من طيبات ، بل كان يأكل ويشرب في غير سرف ولا مخيلة ، كما بين في شريعته التي أرسل بها رحمـة للعالمين .

وقد اتخذ لنفسه شهرا من أشهر السنة يختلي فيه بغار حراء ، وكان حراء نسكا للعرب في جاهليتهم ، كما جـاء في البداية والنهاية لابن كثير ، فقـد قال : « وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى حراء في كل عام شهرا ينسك فيه ، وكان من نســك قريش في الجاهلية (١) أي أنه كان من الأماكن التي تعتبرها قريش من النسك في الجاهلية ، ولعلهم كانوا يضيفونهـا الى نسك الحج ، وقد رأى محمد أن هذا خير مكان لعبادته ، لأنه لا يطرق طول العام ، ولم يكن كالبيت الحرام ، اذ يطاف بالكعبة فيه كل يوم ، ويظهر أنه بمضي الزمان قد هجر اتخاذه نسكا ، ولعله كان مما أضيف الى مناســك من غير شريعة ابراهيم عليه الســـلام ، وليس بحث هذا ذا جداء في موضوعنا .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٥

جاءت الصحاح بأنه كان عليه السلام يتحنث ( أي يتعبد على الحنيفية السمحة ) الليالى ذوات العدد ، وكان يتخذ دائما شهر رمضان من كل عام يتزود لذلك ، ويبتدىء بالذهاب الى البيت الحرام يطوف به ، ويتصدق بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام ، ثم يذهب الى غار في جبل حراء ، لم يكن في سفحه ، بل كان أعلى من ذلك ، ولا يصل اليه قاصده الا بمرتقى صعب ، وليس بالسهل ، والناظر اليه الآن لا يجد الوصول اليه بغير شق النفس مما يدل على أن الله تعالى قد أعطى محمد بن عبد الله عليه السلام بسطة في الجسم ، وقوة احتمال ، ورغبة صادقة في العبادة لا يقوى عليها الا أولو العزم من العباد .

حتى اذا أتم الشهر وهو رمضان عاد الى بيته ، وقبل أن يأوى اليه يمر بالبيت الحرام ، فيطوف ، ويتصدق بما بقى معه من زاد ويطعم للطعام مما بقي له ثم يأوي الى خديجة زوجته الطاهرة .

وان السياق في كل الصحاح من أخبار السيرة يستفاد منها أنه كان يتزود بالزاد ، ويذهب منفردا ليتم له الاعتكاف بعيدا عن الأهل والصحاب، ولا يكون الا في حضرة الحبيب الذي لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى .

هذا هو المستفاد من معنى الاختلاء والاعتكاف ، ولأنه كان يصرح بأنه يغدو صادرا عن أهله في الشهر ،ويعود دائما الى أهله بعد أن ينقضي الشهر .

ولكن روي عن ابن اسحاق في سيرته عبارة تفيد أنه كان يذهب الى الغار بأهله ، واليك عبارة ابن اسحاق «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره

ومعه أهله (١) ، وان هذا الكلام يدل على أن الايحاء ، وهو أن الليلة التي كانت فيها البعثة النبوية لم يكن أهله معه، وفيما قبل ذلك كان يكون أهله معه ، اذ أنه يصرح بأنه كان يخرج لجواره • ومعه أهله ، ولكن لا تجد هذه العبارة في غير ما نقله ابن اسحاق بل أن معنى الاختلاء والاعتكاف ربما لا يكون متناسقا مع وجود أهله معه ، اذ أن الاعتكاف للعبادة يقتضي الابتعاد عن الأهل ، والاتجاه الى الله تعالى وحده •

ولهذا نحن نميل الى رد ما قاله ابن اسحاق ، وان لم يكن ثمة ما يسوغ لنا أن نقول انه ربما كان يذهب مع أهله ولا يبقون معه ، بل يذهبون في صحبته ، ثم يتركونه من بعد في وحدته وعبادته •

## روايات في خلوته صلى الله عليه وسلم :

١٩٣ ـ والآن نسوق الخبر ، كما جاء في صحيح البخاري وغيره من صحاح السنة •

يروي البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يُرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق ، وهو في غار حراء » (١) •

وهذه الرواية التي ساقها البخاري عن حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرب الروايات ، وهي أرجحها وأصدقها ، وهي تدل على أمور ثلاثة :

أولها ـ أن الوحي جاء اليه وهو في حراء ، ولم يكن معه أهله ، وأنه كان يتزود ، ولم تذكر أنه كان يصاحبه أهله •

وثانيها ـ أنه كانت تصفو نفسه وروحه ، وتخلص لله •

وثالثها ـ أن صفاء النفس أدى الى صدق رؤياه •

---

(١) سيرة ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق جـ١ ص ٢٣٦
البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢

وهنا يثار أمران :

أولهما ـ من أي وقت ابتدأت ملازمة الخلوة شهرا من كل عام ·

ثانيهما ـ بأي شيء ابتدأ الوحي ،ونزول الروح القدس عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكانت مواجهته له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرؤيا الصادقة أم المشاهدة في الصحو ، لا في المنام ، لذلك موضع من البيان ،نوجزه ولا نفصله · أما أولهما ـ وهو من أي وقت ابتدأت خلوته صلى الله تعالى عليه وسلم · فانا نقول في ذلك انه من المتفق عليه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ وهو متجه الى ربه لا يعبد سواه ، وأنه التزم أن يكون عابدا من وقت أن بلغ سنا يدرك فيها معنى العبادة ، ويعرف فيها حق الخالق على المخلوق ، وقد كان يعبد الله تعالى بالتأمل في خلقه ،والتدبر في ملكوته واهتدى اليه ،وان لم يهتد ابتداء الى طريق عبادته ، فان ذلك فوق طاقة العقول ، ولابد فيه من المنقول ، وقد أشرنا الى أنه كان يحاول معرفة ديانة ابراهيم التي كانت بقاياها في البلاد العربية ، وخصوصا في مكة،حيث بيت الله الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس ، وبناه ابراهيم:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (١)

ورجعنا في صدر كلامنا أن يكون قد وصل بالصفاء النفسي ، وربما بالرؤيا الصادقة الى صلاة ابراهيم ، فلا عبادة من غير صلاة ، فما دامت هناك عبادة لمحمد عليه السلام ، صارت رتيبة له ، فلابد أن يكون قد اهتدى لصلاة ابراهيم ·

وانه اذا كان قد سار في طريق التأمل والعبادة ، وفي وسط ذلك الديجور المظلم من عبادة الأوثان ، لابد أن يختلي محمد عنهم لينصرف الى ربه ، ولكيلا يكون في قلبه غيره ، ولكي يعبده ،كأنه يراه ، وقد وصل بقلبه المشرق الى درجة الاحسان ، فالاختلاء اذن كان أمرا لابد منه ، ليكون لله وحده ·

---

(١) آل عمران

ولكن ذلك النظام الرتيب الذي التزمه ، بأن يعبد الله منفردا بعبادته طول العام ، ثم يختلي خلوة العابد شهـــرا من كل عام ، هو شهر رمضـــان ، في أي وقت ابتدأ ؟ الظاهر من عبارات الصحاح من الاخبار أن ذلك لم يكن فقط عام البعث المحمدي ، بل ذلك العام اختتم بأن الحق نزل عليـــه ، وجاءه روح القدس رسولا من عند ربه ، فلا بد أن يكـــون قبل ذلك النظـــام ، الرتيب، ونحسب أنه قبله بأعوام ، لا نستطيع أن نحدس بها ، وان كـــان يتســـابق الى عقولنا ، أنها مدة لا تقل عن خمس سنين ، من وقت تمام بناء البيت الحرام، ووضعه الحجـــر الأســـود بيده الكريمة ، « وان نظـــن الا ظنـــا وما نحـــن بمستيقنين » .

ابتداء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم :

١٩٤ ــ بقي أن ننظر في الأمر الثاني ، وهو بأي شيء ابتدأ الوحي ، لقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنهـــا « ان الوحي ابتدأ بالرؤيا الصادقة ، فكـــان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، وان ذلك لا يدل على أن ابتداء انباء الله تعـــالى لمحمد صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم كان بالرؤيا الصادقة ، ولكنه يدل عـــلى أن ابتداء الاشراق الالهي ، والاتصـــال الرباني كان بالرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصـــادقة وان كانت جزءا من الالهـــام الالهي ، ليست هي الوحي الذي يقـــام عليه التكليف بالنسبة للنبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال عليه السلام: « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحي » فليست هي بالنسبة للنبي عليه الســـلام هي الوحي ، وان كانت بالنسبة لابراهيم عليه الســـلام كانت وحيا كاملا ، وبالبناء عليها هـــم بأن يذبح ولده اسماعيل عليه السلام ، حتى فداه رب العالمين ، كما قال تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » فكانت الرؤيا انباء .

ان المقرر لدى المؤرخين للسيرة الطاهـــرة أن الوحي ابتدأ بخطاب روح القدس جبريل عليه السلام ، ولكن جاء في سيرة ابن اســـحـــاق أن أول خطاب لجبريل لمحمد عليه الســـلام كان برؤيا صادقة في المنام ، ثم صحا يحفظهـــا عليه السلام . فقد جاء في سيرة ابن هشام « وجاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعـــالى : قال رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، فجاءني وأنا نائم بنمط (١) من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ . قلت ما أقرأ . قال : ففتنى به،

(١) النمط وعاء

حتى ظننت أنه المـــوت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ قلت ماذا أقرأ ، ففتني به ، حتى ظننت أنه المـوت ، ثم أرسلني ، فقال اقرأ قال فقلت ماذا أقرأ ما أقول ذلك الا افتداء لي أن يعـود لي بمثل ما صنع بي . فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (١)

قال فقـرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي ، فكأنمـــا كتبت في قلبي كتابا ، فخرجت حتى اذا كنت في وسط الجبل ، سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقـول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه ، وما أتقدم وما أتأخـــر ، وجعلت أصرف عنـــه وجهي في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية فيهـــا الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ، وما أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعـلى مكان ، ورجعوا اليها وأنا في مـكاني ذلك ، ثم انصرف عني » .

وانه لا شك ثمة فرق جوهري في الخبرين :

١٩٥ ـ فالخبر الذي جاءت به الصحاح يفيد بأن الالتقاء بالأمين جبريل عليه السلام كان في صحو لا في منام، والثاني يفيد أن الالتقاء كان في المنام، لا في الصحو ، وان كانت رؤيا كأنهـا الصحو ، لأنه بعد أن استفاق من نومه تذكر كل ما قال، لم ينس منه حـــرفا واحدا، فكان وحيا بلا ريب ، والاختلاف بين الخبرين في الرواية لا في أصـل المعنى ، فهما متلاقيان غير متخالفين .

ومع هذا التلاقي في المعنى فان هناك ثمة اختلافا في الواقعة ، أكانت في نوم ، أم كانت في يقظة ، وان الكثيرين من العلماء قالوا ما دام المعنى واحدا في الروايتين وليستا متعارضتين ، فان التوفيق يكون بتكرار الواقعة ، وقعت في النوم ، ووقعت في اليقظـة ، فهي قد ابتدأت اللقاءات بين محمد وروح

---

(١) العلق

القدس في المنام ، ثم كانت في اليقظة، والمنـــام كان تمهيداً للمجـــاهرة في اليقظة ٠

وقد وفق ذلك التوفيق ابن كثير في البداية والنهاية وبناه على أن قول أم المؤمنين في رواية البخـــاري أول مابُدىء به الوحي الرؤيا الصـــادقة ، فقد قال :

فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بُدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فكـان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، يقوي ما ذكره ابن اسحاق بن يسـار عن عبيد بن عمر الليثي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « فجـاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، فقلت ما أقـرأ ، ففتني حتى ظننت أنه الموت،ثم أرسلني وذكر ، نحو حديث عائشة سواء فـكان هذا كالتوطئة ، لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرحا بهذا في مغـــازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ، ثم جاءه الملك في اليقظة ٠

وقد جاء في كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني أن ذلك شـأن الأنبياء جميعا يأتيهم الوحي ابتداء في المنام ،حتى اذا تهيؤوا للقاء الوحي عيانا ،جاء اليهم ٠ فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قال : ان أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام ، حتى تهدأ قلوبهـم ، ثم ينزل الوحي (١) ٠

وهكذا ننتهي الى حقيقة ثابتة متفقة مع مجمـوع النقـول ، وتتلاقى مـع العقول ، وهـو أن الالتقـاء بالروح القدس ابتداء في المنام، ثم لما ألف محمد عليه الســـلام الرؤيا المنامية الصادقة، ويظهر أنها في وضوحها وجلائهـــا تشبه رؤية اليقظة اذ كانت تجيء مثل فلق الصبح كما أخبرت أم المـــؤمنين عائشـــة ، حتى اذا كان الأنس بروح القدس ، وامتلاء النفس بالروحانيـة كانت المشاهدة في اليقظة ، لأن ذلك مقام خطير عظيم ، لا تقوى عليه النفوس الا بعد أن تصقل صقلا روحيا ٠

وقد يقول قائل ان كلام أم المؤمنين عائشة يستفاد منه أن الميل الى الاختلاء للعبادة كان بعد الرؤيا الصادقة ، وقد يوهـــم ما قلنا ، بأن الصفاء النفسي بالعبادة قد سبق الرؤيا الصادقة ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٨

ونقـول في الاجابة عن ذلك بأن الصفاء الروحي كان في قلب النبي عليه السلام من يوم مولده ، وهو في المهـد صبي ، فاذا كان عيسى عليه السـلام تكلم في المهد صبيا ، فان محمدا عليـه السلام قد أدرك في المهد صبيا ، وان الصفاء الروحي قد لازمه طول حياته ،فقد كان في صفاء ولابد أن يستمر الى شبابه الباكر ، ثم الى ما بعده ، فالرؤيا الصادقة كانت من ارهاصات الرسـالة ، وكانت من الوحي ، ثم كانت في المرحلة الاخيرة منها ، وحيا بما يراه من خطاب الوحي بالأمين جبريل ، وهي ما ذكره ابن اسحق ٠

واذا كان لنا أن نستفيد من تقديم الرؤيا الصادقة على الخلاء اليه ، فكان تحبيب الخلاء له ثمرة لرؤيا صادقة تكررت حتى كان منه الاختلاء بنفسه ٠

ولقد قلنا من قبل انه كان يتعرف البقية من ديانة ابراهيم ليصلي ،ونحن في هذا الموضع من بحثنا عشرنا عـلى الضوء الذي نهتدي به في تعرفه للصلاة على ديانة ابراهيم ، وظننا من قبـل احتمال أن يكون ذلك بالرؤيا الصادقة، وظننا ذلك ظنا ، والآن ندركه الآن راجحا رجحانا يقرب من اليقين ، فصـلى الله تعالى على محمد العابد صبيا وكهلا،ومن الصالحين ٠

تأييده صلى الله عليه وسلم بروح القدس :

١٩٦ ـ روح القدس هو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : وأيدناه بروح القدس ، وكما قال تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١)

لقد جاء اليه عليه السلام ، وهـوفي غار حراء (٢) يتعبد الله تعـالى ،

---

(١) الشعراء

(٢) غار حراء كهف صغير بأعلى حراء ، وحراء جبل صغير فى الشمال الشرقى من مكة، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس اليه ، ولا يستأنسون به ،يمشى الماشى فى طريق مدعثر ، لا يصل اليه الا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير معبد الى نحـو الساعتين ، فاذا وصل الى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع الى الغار الا فيما يقرب من ساعة ، واذاارتفع اليه وجده موحشا يحس فيه الداخل برهبة، وهو أعلى الجبل ، فيزداد المقبل عليه عـزلة عن الناس ، بل عن الأرض وما فيها ، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله ، قد ضيق الله ما بينهما ، واذا تجاوزهما ، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولا عن العالم عزلة كاملة ٠

وان اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان ،لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس ، والوحشة من كل شيء الا الأنس بالله وحـده ، وكان اختياره بالهام الله تعالى ليكون مقدمة جهاده ، ويعيش فيه حياتين ، أولاهما ـ رهبة ، والثانية صعبة ، وان كانت نهايتهما سعيدة ٠

حيث علا قلبه الى المقام القدسي ، فارتفع من الأرض ، الى ملكوت الله تعالى ، فصارت نفسه صالحة لتلقي نور السماء، فنزل رسول أمين من رب العالمين ، الى رسول الخلق أجمعين ليحمل رسالةربه ، ويبلغها للعالمين ، من رب غفور ، وقد توالى النزول .

ولكن متى ابتدأ قالوا انه ابتدأ في الأربعين من عمر محمد بن عبد الله ، وهي أشد العمر ، وهي سن النضج في الروح ، وفي البدن ، وفي العقل ، فهى سن القدرة على الاحتمال ، وقدقال تعالى في هذه السن

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ ﴾ (١)

واذ قد بلغ محمد بن عبد الله هذه السن، فقد أوزعه الله سبحانه وتعالى اليه ، وجعله له خالصا ، وقد تهيأ لذلك ،وأنشأ صفوة خلقه ، وجعله نبيا رسولا، صلى الله عليه وسلم ـ كان الالتقاء بالروح القدس على مرتين أولاهما تمهيد لأخراهما ، كانت الاولى ، وهي كاملة ، وان كانت في منام هو كالصحو، اذ لا يقل عنه وضوحاً ، وقد تلقى فيه أول القرآن فوعى ما وعى ، وحفظ آيات ربه الاولى ولما ذهب عنه النوم الصافي كان يحفظ كل ما حفظ ، لا ينسى منه شيئا .

ولما رأى الوجود ببصره ، كما كان فيه ببصيرته التقى بالذي رآه في منامه، رآه وهو شهيد ، وقد استأنس بالرؤيا التي صدقها ، وخاطبه مرة أخرى في عالم الشهادة ، ولولا أنه قد استأنس به ابتداء في الرؤيا الصادقة ، لعظمت المشقة عليه ، وهنا في المرة أدرك أنه ينادي بالرسالة من قبل الله ، وانه شرفه بها ، وكان عليه السلام في هذين اللقاءين محفوفاً بالنور القدسي ، وان كان شديدا على النفس البشرية التي عاشت في الأرض ، ولو كانت بصفائها متطلعة الى النور الرباني الذي يملأ أطوارها ويحيط بثناياها .

---

(١) الأحقاف

وفي هذا اللقاء النوراني نزل أول القرآن ، وكانت ليلته ليلة القدر الذي فرق فيها الأمر وأبرم برسالة محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (١)

على كلام في ذلك سنتصدى لبيانه ·

ويقول الرواة ان ذلك كان في الليلة السابعة والعشرين من رمضان بعد أربعين سنة من عام الفيل ، وقيل انها كانت الرابعة والعشرين من ذلك الشهر المبارك ومهما يكن اختلاف الرواة في تعيينها فانها كانت في رمضان كما قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (٢)

على كلام في ذلك أيضا ·

## خلق الزوجة الصالحة

١٩٧ ـ بالهام المرأة الصالحة الذكية القلب ، الطاهرة النفس أحست خديجة زوج محمد بن عبد الله بما فيه زوجها من مشقة ، فانزعجت عليه على غير عادة ، وقد ألفت منه الغيبة في شهر رمضان ، وكانت هي التي تزوده بزاد المادة ، والله تعالى يزوده بزاد التقوى ، انزعجت ، فأخذت تسأل عنه ، وهي تعلم أنه في غار حراء ، لأنها أحست أنه في جهاد روحي ، جهاد من ينزع من الأرض ، ليتصل بالسماء ·

---

(١) القدر (٢) البقرة

وبينا هي قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة اذ هو مقبل قد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فزال قلقها ، وان استغربت حاله ـ وقالت :

يا أبا القاسم ، أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ، ورجعوا لي .

وقد حدثها بما رأى في رؤياه ، وما شاهد في عيانه ، وفؤاده يرجف وهو يقول : « زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب منه الروع ، وهو يقول خشيت على نفسي » .

وعندئذ جاء دور الزوجة الرفيقة الصالحة في القول ، فقالت بمنطق الفطرة ، وهو أن من أحسن لا يجازى الا احسانا ، كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتقري الضيف ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ، رأت في زوجها الأمين الطاهر كل هذا ، وباحساس الفطرة ، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب الا طيبا. ويقول ابن اسحاق ، انها قالت بعد أن علمت الخبر ، وقالت ما قالت : أبشر يابن عم ، واثبت فوالذي نفس خديجة بيده ، اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة وما قالت ذلك الا وقد تواردت الأخبار بأن نبيا سيبعث في هذا الزمان.

## إلى وَرَقَة بْن نَوْفَل :

١٩٨ ـ لا أدرى أهي فرحة بما توقعته من خير عظيم يجيء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيتها ، أم هي فرحة اللقاء دائما يدفع الى الحركة ، ومهما يكن فقد وجدت منها رغبة الى العمل في الموضوع الذي طرأ ، وتوقعت منه أن يغير مجرى حياتها ، قامت فجمعت ثيابها ، ثم انطلقت مع محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام الى ورقة بن نوفل ، وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله .

واختار النصرانية ، اذ كان يعرف العبرانية ، فدرسها منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية ، ويظهر أنه علمها ديانة وحدانية لا ديانة تثليث لأنه دخيل عليها ، ولأن نصرانية الشرق التي كانت في العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع نسطورس الذي

أنكر أن يكون المسيح الها أو ابن الله ،اذ كان يعتقـــد أن عبـارة الابن التي وردت في بعض كتبهم أضلتهـم ، وان ماضي حيـــاته ما كانت تسمح لنا أن نقول انه مثلث ، لأنه ترك عبادة أحجارلا تضر ولا تنفع ، فكيف يعتنق تثليثا غير متصور في العقل ٠

لقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التي جاءت في التوراةوالانجيل بالنبي عليه السـلام ، وهي تبشر برسول اسمه أحمد ٠

وقد بلغ الشيخوخة فنضج فكره ، وقد جاءت اليه ابنة عمه خـــديجة بنت خويلد ، وكان بصره قد كف قـــالت خديجة في هذا اللقاء يابن عم اسمـع من ابن أخيك فأخبر النبي عليه السلام ورقة بما رأى وعاين : قال ورقة : هذا الناموس الذي كان ينزل عـلى موسى ،يا ليتني كنت فيها جذعا ، ليتني أكون حيا ، اذ يخرجك قومك ، قال محمد بن عبد الله متعجبا ، كيف ينطق بالحق ، ويخرجوه ؟ قال : « أو مخرجي هم »وتلك هي براءة الفطرة ، قبـــل أن يمرسه الله تعالى بشدائد الدعوة ، وقبل أن يلقى الباطل في طغوائه بالحق في نوره ٠

قال ورقة الذي علم أخبار النبيين ،وما لقوا من بأساء وضراء وشـدائد : « نعم ( أي هم مخرجوك ) لم يأت أحـد بمثـــل ما جئت به الا عـودي ، وان يدركني يومك هـذا أنصرك نصرا مؤزرا » ٠

ان هذه كلمة ورقة ، وهي ثمرة الدراسة المبينة لتجارب الأنبياء ٠

وهنا قد يسأل سائل لماذا ذكرنا مانزل على موسى عليه السلام،وهو التوراة ، ولم يذكر الانجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ، والجـــواب عن ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بهاالنبيون من بعـد موسى عليه السـلام ، وجاء عيسى لاحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ رقابهم، فجاء عيسى لاعلان حقائقها ، وروي عنه أنه قال : « جئت لاحياء الناموس ،ولقد جاء النص في كتب النصارى أنه يؤخذ بشريعة التوراة ، ما لم يجيء نص في الانجيل يخالفها » ٠

وقد جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله « سمعت رسول الله يقـــول : بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري ، فاذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئيت منه فرقا حتى هـــويت الى الأرض ، فجئت أهلي فقلت زملوني »فأنزل الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (١)

ثم حمي الوحي وتتابع (٢) ٠

وان هذا يدل على أن الفترة التي انقطع فيها جبريل عن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام شوقا لأن يعود الوحي،وان شوقه الى تلقي الوحي بعد هذه الفترة جعله محبوبا مرهـــوبا ، أو على الأقل لا يكون فزعه منه ، كفزعه الاول الذي كان عقب الرؤيا بالمعاينة لجبريل عليه السلام ٠

٢٠٠ ــ لقد اختلفت الروايات في مدة الفترة التي انقطع فيهـــا ، ما بين رواية تذكرها طويلة ، وأخرى تذكرها قصيرة ٠ فقد جاء في المواهب اللدنية بلغت ثلاث سنين ، ولا شك أن هذه مدة طويلة نستبعدها ، وان كانت قد ذكرت في كتب من كتب السيرة ، والسبب في استبعادنا لها ــ أنها لا تتفق مع كـــون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في مشقة شديدة من تلك الغيبة حتى انه كان يرتفع الى شواهق الجبال ليتردى من أعلاها ، وكان يتكرر ذلك ، وان الله تعالى أجل من أن يلقي بمن اختاره رحمة للعالمـــين يعيش في ذلـــك القلـــق والاضطراب تلك المدة الطويلة من غير أن يعرف له غاية ينتهي عندها ، وفوق ذلك فان الاستعـــداد لأمـــر خطـــير لا يستمر تلك المدة الطويلة ، بل هي قد تحمل على النسيان بين اللقاءين ،وان المصادر الأصلية ، والأحـــاديث لم تذكرها ، فلم يذكرها ابن اسحاق ، ولم يروها البخاري ٠

---

(١) المدثر (٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٦

ولقد قال السهيلي ان المدة سنتان و نصف ، وقيل انها سنتان ، وقيل فيها مدد مختلفة أقلها ثلاثة أيام وأكثرهـا أربعون ، وقد روي أن ابن اسحـاق جزم بأن الذين قالوا ثـلاث سنين أو سنتين قولهم وهم ·

وان الذين قالوا انها ثلاث سنين استندوا الى ما جاء في تاريـخ الامام أحمد ، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي أنه قال : « الفترة وهو ابن أربعـين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين، وكان يعلمه الكلمة » ·

وهذه رواية لا نحسـب أنها عاليةمما يوجب الريب ، فأولا أنهـا تذكر أن اسرافيل هو الذي كان يعلمه في مدة ثلاث السنين ، ولم يثبت ذلك ، بـل الثابت أنه من أول تلقي نور السماءاتصل به جبريل الأمـين روح القدس ، وثانيا أن الشعبي تابعي ولم يذكر من الذي نقل له هذا من الصحابة ، وقـد أنكره كثير من الرواة ، فقد قال الواقدي انه لم يكن من الملائـكة من قـام بالاتصال بالنبي عليه السلام الا جبريل عليه السلام ·

وفي الجملة أنه بعد ذلك البيان نرى أن تقدير مدة الفترة بالسنين أيا كان مقدارها غير معقول ولا مقبول ، وليس له سند صحيح حتى يكون منقـولا ، حجته النقل · وانما الذي نعتقد أن المدة لا بد أن تكون في دائرة الأشهـر ، ولعلها خمسة أشهر وبعض ، عـلى مانشير من بعد ·

٢٠١ ـ الى هنا ذكرنا اللقاء الأول للوحي النبوي ، الذي أفاض الله به تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا ننتهي من هـذا الجزء ، وننتقل الى ابتداء التبليغ ، والقيام بعبء الدعـوة ، والجهـاد في سبيلها ، من وقت أن صـدع بأمرها ،قبل أن نحقق الأمر في ثلاثة أمـور تحدث العلماء في أمرها ·

أولها ـ الشهر الذي نزل فيه الوحي، أهو رمضان ، وهو ما ذكـرته كتب السيرة وما رجحنـاه وانتهينا اليه ، وسقنا سيرة الرسول الطاهرة عليه، وكان يصح ألا نذكر سواه ، ولكن لم نرد أن نترك أمرا اختلف فيه العلماء من غير تمحيص ، وبيان الصادق منها ، وقـدقيل انه ربيع الأول ، وقيل انه رجب ، فلابد من ازالة الشبه من حول الحق الصريح ·

ثانيها ـ أول نزول القرآن، أهي آية :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾ (١)

أم هي قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾ (٢)

وسننتهي ان شاء الله تعالى بالتوفيق ·

ثالثها ـ أنواع الوحي الذي خوطب به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

الشهر الذي نزل فيه الوحي :

٢٠٢ ـ جاء في كتاب ( زاد المعادفي هدي خير العباد ) للامام ابن القيم ما نصه :

« لما كمل له أربعون أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه الى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوم الاثنين ، واختلف في شهر المبعث ، فقيل لثمان مضين من ربيع الاول سنة احدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك في رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٣)

قالوا أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته وأنزل عليه القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر الى بيت العزة ، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة » ·

---

(١) العلق (٢) المدثر (٣) البقرة

وان هذا الكلام يستفاد منه بصريح اللفظ أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث في سنة(٤١)من عام الفيل عند الأكثرين ، واذا كان النبي عليه السلام قد ولد باتفاق المؤرخين في عام الفيل ،فيكون النبي عليه السلام قد بعث بعد أن بلغ الأربعين وتجاوزها بسنة ، ولكن يظهر أن أنوار النبوة كما قال ابن القيم أشرقت عليه قبل أن يبلغ الحادية والأربعين ، وتكون أنوار النبوة سابقة على البعث ، ببضعة أشهر ، اذ أن كلامه يفيد بصريحة أن أنوار النبوة جاءت في الأربعين ، لا بعد مرور سنة الأربعين كاملة ٠

والمشهور الذي عليه الجمهور هو أنه بعث في سنة الأربعين في رمضان في اليوم السابع والعشرين من رمضان ،وهذا هو المشهور ، وهو الراجح ، وقيل في السابع ، وقيل في الرابعة والعشرين ٠

واننا نستطيع التوفيق بين هذه الروايات ، فنقول :

ان أول مجيء الوحي كان في السابعة والعشرين من رمضان سنة(٤٠) ، ولكن التكليف بالتبليغ كان في شهر ربيع في الثامن من ربيع ، ويكون الفارق الزمني بين الأمرين هو خمسة أشهر ( شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وسبعة أيام من ربيع ، أي خمسة أشهر وبعض الشهر ، وان ذلك يهدينا الى مدة الفترة التي انقطع فيها الوحي النبوي ، والتي كانت شاقة ، وقد جاء هذا بالاشارة لا بالعبارة في شرح المواهب اللدنية ، فقد جاء فيها ما نصه: « وجمع بين النقلين ( أي النقل بأنه بعث في رمضان ) ، والنقل الذي يقول انه في ربيع ، بما مافي ذلك حديث عائشة أول ما بديء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فيكون نبيء في الربيع بالرؤيا الصادقة ، ثم أتاه جبريل في رمضان » (١) ٠

ونرى أن صاحب المواهب نقل عن ابن حجر في فتح الباري ذلك التوفيق ، ولكنا نوافقه في أصل التوفيق ، ونخالفه في استنباطه أن النزول بالرؤيا الصادقة كان في ربيع سنة(٤١)ونزول جبريل كان في رمضان سنة(٤١)أيضا ، وذلك لان الذين قالوا ان النزول كان في رمضان ، قالوا وقد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأربعين لا الحادية والأربعين ، وللتوفيق الكامل نقول انه

---

(١) شرح اللدنية جـ ١ ص٢٠٧ م

كان في رمضان سنة (٤٠) كانت الرؤيا الصادقة ، التي أعقبها لقاء جبريل ، وقد ذكره بما رأى وكان تصديقه بالمعاينة فتر الوحي من بعد ذلك فترة شقت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان نزول القرآن وتتابعه ،وهذا يعطينا بيان مدة الفترة الذي ذكرناه ظنا ، ونراه الآن رواية صادقة ، وأنه ملتقى الروايات التي يبدو فيها تضارب، ولكنه يتكشف بهذا أنه لا تضارب ، بل تلاق بين النصوص ٠

## أول ما نزل من القرآن :

٢٠٣ ـ ان السياق الذي ذكرناه آنفا وهو الذي أجمع عليه رواة السيرة أن جبريل روح القدس عليه السلام خاطب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد رؤياه الصادقة بما جاء في وحي الرؤية تماما ، فقال له اقرأ ، فقال لا أقرأ الى آخر المذاكرة الروحية بينهما ، التي انتهت بأن نقل عن ربه قوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (١)

واذا كانت هذه من القرآن ، ومن ينكر ذلك فعليه أن يتوب ، فانها بلا ريب أول القرآن نزولا ، واذا كنا قد انتهينا الى أن أول القرآن نزولا كان في رمضان ، وأن أول الوحي كان في رمضان ، فرمضان شهر القرآن ، كما هو شهر الوحي ، وكما قال الله تعالى

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (٢)

هذه حقائق سائغة ، لا ريب فيها ،ولا اختلاف ، ولا تثير ريبا ولا خلافا ٠

ولكن الروايات تجيء بما يفيد ظاهرها المعارضة بينها وبين ذلك الحق الصادق الذي لا ريب فيه ، ولا مجال للريب فيه ولنذكر بعض هذه الروايات لنبين أنه لا تعارض في حقيقة الأمر ٠

---

(١) العلق .　　(٢) البقرة .

لقد ثبت في الصحيحين البخاري ومسلم عن يحي بن أبي كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن أي القرآن أنزل قبل غيره فقال : « يا أيها المدثر » فقلت : و « اقرأ باسم ربك » ، فقال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اني جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جواري نزلت ، فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت من بين يدي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فلم أر شيئا، ثم نظرت الى السماء ، فاذا هو على العرش في الهواء ، فأخذتني رعدة ، او قال وحشة ، فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثروني فأنزل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ (١)

وفى رواية أخرى ما يشير بأن هذه الآية ليست الاولى ، وليس ما فيها أن رؤية جبريل روح القدس الاولى ، فقد قالت: فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض (٢) فجئيت منه فرقا .. الخ ، وهو ذكر لما تضمنه الضمير في الرواية الاولى التي تقول : « فاذا هو على العرش في الهواء » .

وان هذا يفيد بلا ريب أن الوحي جاء ابتداء في غار حراء ، وفيها نزل :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ (٣)

ثم جاء ثانيا وليس أولا كما توهم أبو سلمة ، في نزول الوحي «يأيها المدثر».

وان نظرة فاحصة تبين لنا أن أول القرآن نزولا هو اقرأ ، كما هو الأصل الذي لا مراء فيه ، ولكن فتر الوحي فترة هي خمسة أشهر وبعض الشهر ، ثم جاء فيها الوحي :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ (٤)

وقد انتهينا الى أن الفترة ابتدأت بعد ان نزل قوله تعالى « اقرأ » في رمضان من سنة ٤٠ هـ ، وانتهت الفترة في ربيع سنة (٤١ هـ) من عام الفيل

---

(١) المدثر (٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧ (٣) العلق (٤) المدثر

والحق أن الروايات غير متضاربة للمتأمل البصير ، فان أول ما نزل بالقرآن لم يكن فيه الأمر بالتبليغ ،بل كان فيه اللقاء بروح القدس ، والاعلام بالقرآن ، وبمغزاه الأول ، وهو تعليم الخلق ، وبيان الحق ، وأنه كتاب الله تعالى يقرأ باسمه ويعرف به ذكره ،أما تكليف القيام بالتبليغ ، فقد جاء في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ (١)

والى هذا أشار ابن كثير ، فقال في الرواية التي جاءت في البخاري عن عبد الرحمن بن أبي سلمة : « لا ينفي هذا تقدم ايحاء جبريل اليه أولا : « اقرأ باسم ربك الذي خلق »ثم التقى به جبريل بعد نزول قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (٢)

ثم حمي الوحي وتتابع ـ أي تدارك شيئا بعد شيء ـ وقام حينئذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أداء الرسالة أتم القيام ، وشمر عن ساق العزم ، ودعا الى الله القريب والبعيد ،والأحرار والعبيد ، فآمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد ، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد .

## مراتب الوحي وشكله :

٢٠٤ ـ نتكلم في هذا الجزء عن البحث عن الوحي الذي كان ينزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،والذي ابتدأ بالرؤيا الصادقة وتتابع ، وجاء شيئا فشيئا ، حتى تم القرآن الكريم نزولا ، في مدى ثلاث وعشرين سنة كاملة .

لقد جاء النص القرآني بطرق خطاب الله تعالى لأنبيائه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) المدثر

(٣) الشورى

ولا شك أن هذه طرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقه لخطابه ، فمن أي كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونجيب في هذا المكان ، لأننا في مقام أول نزول الوحي ، فلنسر في مداه الى نهايته • يذكر ابن القيم في كتابه زاد المعاد أن للوحي سبع مراتب ، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة في ايجاز، وربما نجد المقسم لا يشمل ذلك العدد، لأن بعضها يدخل في بعضه ، فالحدود في الأقسام غير فاصلة •

المرتبة الأولى الرؤيا الصادقة : وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان البعث المحمدي كانت الرؤيا الصادقة هي أول ما نزل به القرآن ، كما جاء في سيرة ابن اسحاق ، ثم تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه السلام ، فكانت مصدقة بالخطاب •

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانا ، كما جاء في قصة خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام في قصة الفداء ، اذ قال تعالى حكاية عن قول ابراهيم :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام ، فهم من هذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه ، فقبل التكليف صابرا ، محتملا وهو ابنه البكر ، واستجابة دعوته عليه السلام ، وكان ذلك البلاء المبين حقا ، فقد استجاب للطلب ابراهيم ، وقبل الاستجابة اسماعيل صابرا ، فكانا من المحسنين ، ونعم الصابرون •

---

(١) الصافات

والمرتبة الثانية : عبر عنها ابن القيم بأنها ( ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه ، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هو الوسط بين الله ورسوله ، فهو ينفث في روح الرسول ، بأمر الله تعالى، فكان بذلك وحيا ، وكان بطريق الملك، ولقد مثل له ابن القيم بقوله عليه السلام : « ان روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »، والفرق بين الوحي بهذا المعنى والوحي بلقاء جبريل روح القدس ، أن لقاء جبريل عيانا في حال المخاطبة ، انما في هذه الحال فاللقاء في النفس وفي القلب والعقل ، وربما نعد حينئذ أن يكون هذا من ارسال رسول ، ولو كان بالهام الله تعالى المجرد ، وهو ما نميل اليه اذا استيقن الرسول أن ذلك الهام من الله تعالى، فانه كلام الله تعالى بالوحي المجرد من غير توسط رسول ٠

المرتبة الثالثة : مخاطبة الملك ، حتى كان يتمثل رجلا ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه متمثلا في رجل يظنه النبي من الانس لا من الملائكة فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي ، كما روى ذلك النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر ، ولقد قيل ان مجيء جبريل على صورة لدحية الكلبي كان بعد بدر ، ويقول ابن القيم وكان دحية رجلا وسيما ، اذا قدم لتجارة خرجت الظعن (١) لتراه وان مجيء جبريل في صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته ، أو ذهبت الروحانية ، انما هو لا يزال روحا ، والذى ظهر به ، هو ظهور الروح في صورة جسدية، ومعاني الملك لا تزال ثابتة قائمة ، ولا يوجد ما يمنع عقلا أن تظهر الروح في صورة انسان له جسد ٠

ودحية لا شأن له في هذا التغير الصوري ، بل هو حي في جسده يأكل ويشرب ، ويمارس الحياة الانسانية كاملة ٠

وكون روح القدس جبريل يظهر في جسد لا يقتضى أن يتحول الجسد الى ملك ، ولا أن يتحول الملك اليه ، وهي روح ليست حيوانية ، ولا ثمرة للحيوية الانسانية ، حتى اذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة ، لأنها ليست أمرا

---

(١) الظعن بضم الظاء والعين جمع ظعينة وهى المرأة الجميلة ٠

عضويا ولكنهـــا روح ملك تفيض في جسم يخلقه ، أو تظهر في جسم يخلقه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب الملك غاب معه الجسد الانساني ٠

المرتبة الرابعة : أنه كان روح القدس جبريل يأتيه مخاطبا له مثل صلصلة الجرس ويقول ابن القيم كان أشـــده عليه ، ويقول في وصفه ابن القيم : « فيلتبس به الملك ، حتى ان جبينـــه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد ، وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ، اذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه ، حتى كادت ترضها » ٠

وقد روى البخاري عن زيد : أرسل الله على رسوله ، وفخذه على فخـذي ، فثقلت علي ، حتى خفت أن ترض فخذي ، وقد جاء في الصحيحين والموطأ عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ، قال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدها على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجـــلا ، ليكلمني ، فأعـــي ما يقول ٠ قالت عائشة : ولقـــد رأيته ينزل عليـــه الملك في اليوم الشـــديد البرد ، فسيفصـــم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا (١) ٠

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة ، فان تلك مراتب روحية لا تسمو الى ادراك حقيقتها ، ولكن نحـــاول أن نتصورها فقط ، من غير تعرفها كاملا ، فلا يعرفها الا من عالجها ، ولم يعالجها الا المصطفون الأخيار الأبرار ٠

ان الذي فهمناه من ذكر في هذه الحال أن روح القـــدس الطاهر يختلط بالنبي عليه الصلاة والسلام ويمـــازج روحه وجسده ، ويخاطبه بصوت قـــوي صارخ ، فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه عليه السلام ، ولا يسمعه غيره ، ويحس في نفسه ، ولا يحس غيره ، يكلمه بكلام مفهـــوم ، وان كـــان في صوت قوي ، وكل ما فيه من خطاب قوي ، ويكون باختلاطه بروح النبي ، وبممازجته جسمه محدثا ثقلا جسميـــا ضاغطا على ما يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالســـا عليه ، وان الرســـول ليعرف ما يقول ، ويحفظه ويعيه ولا يجهله ، حتى ان انفصل عنه لا ينفصل الا وقد وعى كل ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قـــدرته ، وعظمت منته ٠

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩

وقد روى العسقلاني في المواهب أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة من الوحي ·

ومنها روى الطبراني عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان اذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة ، وعرق عرقا شديدا مثل الجمان ، (١) ثم سرى عنه وكنت أكتب ، وهو يملي علي وربما وضع فخذه على فخذي حال الكتابة ،فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر ، حتى أقول لا أمشي على رجلي ، ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته (٢) ·

وذكرت الناقة هنا لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة الوداع في عرفة وهو واقف ، ونزلت آية :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٣)

في هذا اليوم،وكان راكبا على الناقة ·

المرتبة الخامسة : قال فيها ابن القيم« أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي اليه ما شاء أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى في سورة النجم ·

يشير الى قوله تعالى :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ (٤)

فيفسر ابن القيم تلك الرؤية الروحية بأنها رؤية جبريل بحقيقته ، وهي فيما أحسب رؤية بنور البصيرة ،وبقوة الروح ، لا بنور البصر ، ولا

(١) الجمان : صغار اللؤلؤ والبرحاء : الحمى
(٢) كان الكلام فى نزول آية : اليوم أكملت لكم دينكم لا فى سورة المائدة كلها
(٣) المائدة (٤) النجم

بشكل جسمي ، لأن جبريل روح فكيف يراه الا أن يكون محسوسا ، وبذلك لا تفترق هذه الحال عن الرؤية المشخصة مع أنها غيرها .

ولقد قال عبد الله بن مسعود أنه قال : لم ير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل على صورته التي خلق عليها الا مرتين ، أما واحدة فأنه سأله أن يريه نفسه ، فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الاسراء عند سدرة المنتهى.

المرتبة السادسة : ما أوحاه الله تعالى اليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها . ومؤدى كلام ابن القيم أن هذه المرتبة من الوحي هي التلقي عن الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا بطريق الرؤيا الصادقة في المنام ، ولا بطريق ملك على أي حال من الاحوال كان الملك ، بل عن الله تعالى ، ولا يقتضي ذلك رؤية ، لانه قد يكون الله يكلم العبد المختار للرسالة من عباده من وراء حجاب ، ليكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤية لذاته العلية ، فقد سئل عليه السلام : هل رأيت ربك فقال : انه نور ، فأنى أراه ، وان هذا التفسير الذي اخترناه يتلاقى مع المرتبة السابعة التي سنذكرها ، واذا أردنا التمييز فاننا نقول ان هذه هي من الله مباشرة من غير توسط ، وهو ما كان ليلة المعراج ، فالذي نتصور على مقدار ما يقرر ابن القيم ، أنه ليس بكلام تكلمه رب العالمين ، ولكن وحي مباشر.

المرتبة السابعة : هي الكلام من وراء حجاب ، وقد قال فيها ابن القيم : « كلام الله اليه ( أي الى الرسول ) بلا واسطة ملك ، فكلم الله تعالى موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث الاسراء ، وبهذا التفسير يتبين أن السابعة داخلة في السادسة ، وليست كل واحدة منهما مرتبة قائمة بذاتها (١) .

وفي الحق ان هذه المراتب متداخلة ، والمراتب كلها مذكورة في القرآن في قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)

(١) المراتب مذكورة فى زاد المعاد جـ ١ ص٢٥ ، وفى المواهب اللدنية وشرحها جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) الشورى

٢٠٥ ـ بعد أن فتر الوحي نحو ستة أشهر أو دون ذلك ، قليلا جاء التكليف بالتبليغ ، وتحمل عبء الرسالة الالهية الى الخلق أجمعين ناداه ربه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر، ولا يكتفي بالتعبد في غار حراء وان كان ذلك كافيا لتهذيب نفسه ، وتصفية روحه ، وأن يكون متصلا بربه خيفة وتضرعا ، فانه لا يكفي لرسول أمين ، بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين ، وتكون معه العبادتان • العبادة الفردية بتهذيب ذاته وتقوية روحه ، وتوجيه نفسه الى الله وحده الذي لا يغيب عنه شيء في السماء ولا في الارض ، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعوة الحق ، ودعوة الناس الى الانصراف لعبادة الله وحده ، واصلاح الخلق ، والسير بهم في المحجة الواضحة التي ليلها كنهارها ، وهذه غاية الرسالة الكبرى التي حملها خاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام •

أمره الله بعد أن ناداه النداء المؤكد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ (١)

تضمنت هذه الآيات الكريمات ، الانذار بالعذاب الشديد ان استمروا ، وبالدعوة الى عبادة الله تعالى ، وتطهير الثياب ظاهرا وباطنا ، وبترك الفساد ، وهجر الشر ، وعبادة الله تعالى هي السبيل لدفع الشر ، ومنع الأذى ، وفي الجملة هذه الآيات التي تعد أول طلب لتبليغ الدعوة تشتمل على ثلاثة أمور هي خلاصة الدعوة المحمدية ، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية أولها ـ الايمان بالعقاب والحساب ، وقد أشار اليه سبحانه وتعالى بالأمر بالانذار ففيه

(١) المدثر

اشارة الى اليوم الآخر وما يكون فيـه من حساب وجزاء ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

والامر الثانى تربية النفس الانسانية بالعبادة والصبر ، وتطهـير القلوب بالخلوص لله سبحـانه وتعالى ،وتكبيره وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى :( وربك فكبر ، وثيابك فطهر ).

والامر الثالث ـ اماطة الأذى عن الجماعة التي يعيش فيها ، ونفعها ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر » .

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمات رمزت الى خلاصة الحقائق الاسلامية التي يقام عليها الاسلام ، وهي الوحـدانية والايمان باليوم الآخر وتطهير النفوس ودفع الفساد ، وجلب النفع .

مراتب الدعوة :

٢٠٦ ـ ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب : الاولى النبوة : فلا يدعو الى الحق الذي نزل من عند الله تعالى الا نبي ، وقـد اعتبرها ابن القيم المرتبة الاولى ،ونحن لا نعتبرها كذلك ، انما نعتبرها كيـان الدعوة ، فلا دعوة الى الايمان برسـالة الا من نبي مرسل ، فهي دعامة ،وليست مرتبة يبتدأ بها ، بل هي الاصل ولب الدعوة .

المرتبة الثانية : انذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقـال سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (١)

وقد بدأ النبي عليه السـلام دعـوة عشيرته ، فدعا بني عبد مناف وقال لهم، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قـالوا ما علمنا منك كذبا ، فقال عليه السلام:« اني رسول الله اليكم بين يدي عـذاب شديد،وانها للجنة أبدا أو النار أبدا أوكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم » .

---

(١) الشعراء

والمرتبة الثالثة : انذار قومه ، وقدسلك محمد عليه السلام ، ذلك المنهاج الذي انتقل فيه من الحيز الضيق الى ماهو أوسع ، ثم الى ما هو أعم ، فانتقل من انذار عشيرته الأقربين الى قومه من قريش قريبهم وبعيدهم .

وقد أنذر عليه الصلاة والسلام في هذه المرتبة سكان مكة وما حولها .

المرتبة الرابعة : عبر عنها ابن القيم بقوله ، انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله الا كانوا به مؤمنين ، وهؤلاء هم العرب في الجزيرة العربية قاصيهم ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر ، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية ، من غير تفرقة بين قريب و بعيد .

والمرتبة الخامسة : تبليغ الدعوة الى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم وبكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التي تدافع من هجموا أو حاولوا الهجوم ، أو حاجزوا بين الاسلام ودعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته ، فكان الجهاد ليثبت الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ومن بعد ذلك يختارون عن بينة ، فقد قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

وقد سلك النبي عليه الصلاة والسلام تلك المراتب ، وان كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة اذ لاتكادان تنفصلان ، والمرتبة الأولى لاتعد مرتبة للدعوة ، ولكنها مرتبة التهيئة لها ، ولعله يريد منها ما كان من نزول قوله تعالى : اقرأ باسم ربك الذي خلق الى آخر الآيات الكريمات ، التي نزلت في أول لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بروح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، الى نهاية الفترة التي قدرناها بما دون ستة أشهر وتنتهي عند نزول قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

(١) البقرة (٢) المدثر

٢٠٧ ـ وقد كانت الدعوة من بعد ذلك خفية ، يلتقي بالأولياء والأصدقاء المقربين ، والصفوة المختارة من الصحب الأبرار ، وهذه هي المرتبة الثانية ·

وانما كانت الدعوة ابتداء خفية لتتكون خلية الاسلام ، وان الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان لأن الجهر يبددها قبل أن تتكون حتى ينمو عودها ويتكون سوقها ·

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقي حولها قلوب مؤمنة بها ويتولى من بعد ذلك اعلانها والمجاهرة بها ، ثم لابد من تكوين من يتقدمون للدعوة ، ومثل الدعوة الخفية ، كمثل تكون الجنين في بطن أمه ، فانه لا يظهر للوجود حيا حياة كاملة، صالحا لان يقاوم دواعي الفناء، والاخذ من عناصر البقاء والتغذي بكل أسباب القوة ، فكذلك الدعوة الى كل فكرة ، تقتضي التدبير الخفي ، ثم الاعلان الجلي ·

ولذلك كانت الدعوة الأولى ، ثم كانت المراتب التي تليها ·

ولقد يقول الرواة ان الاستخفاء كان نحو ثلاث ، كانوا يستخفون بها في العبادة ، والمذاكرة ، وقالوا انها كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم ·

ولكن يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة ، فقد كان النبي يعلن ما جاء به من نذير ، وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي يستخفي به هو اقامة العبادة التي دعا اليها رب العالمين ، ولذلك كان اضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبي عليه السلام قبل أن يسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفا معلنين الاسلام مجابهين المشركين متحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق ، والصبر المستعذب وان كان مريرا ·

ثم بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التي تشق الصفوف المشركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، اذ أمر الله تعالى أمرا جازما قاطعا اذ قال تعالت كلماته :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

---

(١) الحجر

وقد أخذ عليه السلام من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين ،ويجادلهم بالقرآن ، ويصابرهم في اطمئنان المؤمن بالحق فيما يدعو اليه ، يجادلهم بالقرآن يتلوه عليهم ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم يتهددون وينذرونه وأهله ، ويقاطعون بني هاشم ، الى آخر ما سنقرر من بعد ٠

وبنو هاشم ما عدا أبا لهب ومعهم بنو المطلب يسيرون معه صفا واحدا ابتداء للقرابة عند الأكثرين منهم ولأجل الحق عند غيرهم ٠

حتى اذا مات أبو طالب الذي كان عالي الصوت باسم القرابة والمحبة ، أخذ محمد يدعو القبائل في مواسم الحج ،وفي وفودها ، حتى اذا صار للاسلام الكلمة العليا في الجزيرة العربية فاضت الوحدانية بالنور على من وراء البلاد العربية الى الأقاليم التي تصاقبها اقليما بعد اقليم ٠

# أول من أسلم

٢٠٨ ـ اتجه محمد الى تكوين الخلية الاولى للاسلام ، فاتجه الى الذين يعاشرونه ابتداء ، وكان يعاشره ثلاثة أولهم أم المؤمنين خديجة ، السكن ، والمواسية ، والحانية ، والرقيقة ، وأم أولاده ، والرفيقة الرؤوم ، والثاني علي بن أبي طالب ، وقد كان في كلاءة النبي عليه وكفالته ، وهو له المؤدب والمربي ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، وعند ابن أخيه محمد عليه السلام فضل يسار ومال من عمله في التجارة في مال خديجة ، وعند العباس عمه مال وفير ، اذ كان من أثرياء قريش .

ولقوة احساس محمد صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه وما عنده من مودة في القربى ذكر حال عمه للعباس واقترح أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبي طالب يكفله ، فكان من نصيب محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي كرم الله وجهه ، وعندما جاءت الدعوة الاسلامية ، ونزل الوحي الالهي كان علي في العاشرة .

وثالث الثلاثة زيد بن حارثة بن شر حبيل ، وكان عربيا من بني كلب .

كان الرق قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، اذ قد أخذته جماعة من الفرسان وهو ابن ثماني سنوات ، وباعوه في سوق من الاسواق ، وآل أمره الى خديجة أم المؤمنين ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عبدا له على مقتضى ما كان عليه الناس ابان ذاك .

وقد جزع أبوه عليه جزعا شديدا ، وبكى لفقده ، وقد قال في ذلك شعرا جاء فيه :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري واني لسائل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

وياليت شعـــري هـل لك الدهر أوبة
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بحل (١)
تذكرنيه الشمس عنـــد طلوعهـــا
وتعـــرض ذكـراه اذا غـــربها أفل
وان هبـت الأرواح هيجـــن ذكـــره
فياطـول ما حزني عليه وما وجل (٢)
سأعمـل نص العيش في الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الابل (٣)
حيـــاتي أو تـــأتي عـــلي منيتي
فكل امرىء فانٍ وإن غـره الأمل (٤)

أخذ يبحث عنه في طول بلاد العرب ، حتى عثر عليه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة ،ومحمد بن عبد الله عدو الرق بفطرته لم يرد أن يحتجنه عنده غير مختار ، فخيره بين أبيه والمقام عنده ، وقـــال : ان شئت فأقم عندي ، وان شئت فانطلق مع أبيك ٠

ولكن الشاب قد اختار له ، فاختار أن يقيم مع محمد وهو يلمح نور النبوة عن الحرية مع أبيه وآله ، ولكن أباه أخذ يلومه ، فقال له : « يا زيد تختـار العبودية على أبيك وأمك وقومك » ،فقال ابن الكريم : « اني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذي أفارقه أبدا » ٠

عند ذلك الوفاء أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، وقام الى الملأ من قريش ، فقال : اشهدوا أن هـــذا ابني وارثا ومورثا ٠

رأى أبوه ذلك فطابت نفسه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، الى أن اختفى التبني بقوله تعالى في المتبنين :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ (٥)

---

(١) بحل بمعنى حسم أى حسم الشعر وانهاء
(٢) الأرواح جمع ريح والوجل الخوف
(٣) النص السير الكثير الشديد
(٤) الشعر فى سيرة بن هشام جـ ١ ص ٢٤٨
(٥) الأحزاب

٢٠٩ ـ كان أول الاسلام في بيت النبوة ، وأول الدعوة كانت في بيت محمد عليه السلام ، وقد كان الذين يكونونه ، وبلغوا حد الادراك المميز للحقائق الدينية في الجملة ، هم هؤلاء الثلاثة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة الوفية الامينة الحانية على زوجها وثانيهم على بن أبي طالب الذي كان غلاما ، وهو الذي رباه النبي عليه السلام ، وثالثهم المولى المخلص الذى أزال محمد بن عبد الله عنه الرق ، ورفعه الى شرفه من ذؤابة قريش ، حتى كان يقال زيد بن محمد حتى ألغى الله تعالى التبني ، ولكنه ألغاه وزيد شريف بالاسلام والايمان ، وشريف بحريته واحترام نسبه الأصلي ، الذي لم يرنق برق ٠

لقد آمنت خديجة منذ أن التقى محمد بن عبد الله بروح القدس ، جبريل عليه السلام ، وعاد اليها يرجف فؤاده ، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد عليه السلام ، وأنه رسول هذا الزمان ، وأنه لا نبي بعده ٠

آمنت به منذ الابتداء ، وكان ايمانها أمنا وسلاما ، فقد كانت هي السكن الذي يأوي الى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة ، وشدة المقاومة ، وكما قال ابن هشام في سيرته : « وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله تعالى بذلك عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله تعالى عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، رضي الله تبارك وتعالى عنها » ٠

وانها بذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين ، بل صارت لها منزلة في الذروة بين نساء العالمين حتى صارت ثالثة بين فضليات النساء في الخليقة ، وهن مريم العذراء التي خاطبتها الملائكة من السماء ، وبضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضعتها ، فاطمة الزهراء ٠

وقد أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر الله تعالى نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأن الله تعالى يقرئها السلام ، وروى عبد الله

ابن جعفر بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يبشر خديجة ببيت من قصب ( والقصب هو اللؤلؤ المجوف ) لا صخب فيها ولا نصب.

انها أقامت بيتا للنبي عليه السلام فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقى في خارجه غبار الصخب ، وعناء النصب ، فكتب الله تعالى لها بيتا فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق ، وفيه الجمال ، فيلتقي فيه جمال المنظر ، بلطف الهدوء بعد اللغوب .

ولقد أحست بمنزلتها عند الله تعالى ، وخصوصا عندما أقرأها السلام بذاته الكريمة فقد ردت التحية فقالت مقالة المؤمنة : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » فالتقى الايمان الصادق ، بالتنزيه لله ، فجعلت الرد على جبريل ، أما الله فهو السلام ، وهو واهب السلام ، فتعالت ذاته ، ويقول في التعليق على ردها شارح المواهب اللدنية « هذا من وفور فقهها ، حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق ، وما لا يليق ومع كون هذا ادراكا سليما أقول انه احساس عميق وايمان صادق بالله .

إسلام علي كرم الله وجهه .

٢١٠ ـ كان علي رضي الله تعالى عنه في العاشرة من عمره ، وقد تجاوز سن التمييز الاولى ، وصار له ادراك في المعاني الدينية ، وذلك هو نظر علماء الاسلام من بعد ، اذ أنهم اتفقوا على صحة اسلام الصبي المميز ، واعتبار اسلامه وان اختلفوا في اعتبار ردته اذا تقرر اسلامه ابتداء ، أو بوراثته للاسلام .

كان علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه في سن التمييز عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه ذكاء يسبق به أقرانه ومن في سنه ، وهو فوق ذلك في مهبط الوحي ، ومنزل النبوة ، وما لا يصل اليه بالادراك يصل اليه بالمحاكاة والقدوة الصالحة ، وقبس النبوة يهديه ، ونورها يسطع فيما حوله.

ولقد قالوا انه ابتدأ نور الهداية باتخاذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة يقلدها ويحاكيها ، ويتبع آثارها ، ويتقفى مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال ابن اسحق : « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه علي ابن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب ،ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله تعالى أن يمكثا ·

ولكن عين أبي طالب كانت تتلفت حول ابنه وابن أخيه وحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك رمقتهما ـ وهما يصليان ، فاتجه الى محمد عليه السلام ، فقال له : يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به، فقال : أي عم هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله ، ودين أبينا ابراهيم بعثني الله به رسولا الى العباد ، وأنت أي عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه ·

دعاه محمد عليه السلام الى أمرين الايمان بهذا الدين · وثانيهما اعانة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم · وقد أجابه في الثانية ولم يجبه في الاولى فقد قال له :«أي ابن أخي · اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي ، وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شيء نكرهه»·

هذا ما كان بينه وبين ابن أخيه ·وهو ينبىء عن نخوة كريمة · وتعصب لما كان عليه آباؤه تعصبا غير حسن في ذاته · ولا من مثله في كبر عقله ، وقوة نفسه · ولكن ذلك ما أراد الله تعالى لحكمة ، ليرى الناس مثلا من أقوياء الرجال ، يكون عظيما في ذاته ، ويكون مع ذلك مشركا ، فهو عال في نفسه ، ليس كبيرا في اعتقاده ·

أما ما كان من أمره مع ابنه ، فقد اتجه اليه يقول له : « أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه · فقال له يا أبت،آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته » ·

وهنا نجد أبا طالب الحر الكبير في نفسه في معاملة ابنه ، كما رأيناه مع ابن أخيه ، فقد قال غير مضيق ولا متزمت ، ولا ضائق الصدر ، أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه ·

وروى ابن اسحاق مع ما ذكر روايةفيها زيادة اذ قال :

« ان علي بن أبي طالب رضي الله تبارك وتعالى عنه جاء بعد ذلك بيوم أو يومين وهما يصليان أي خديجة والرسول فقال أيا محمد ما هذا ! قال النبي عليه الصلاة والسلام دين الله تعالى الذي اصطفى لنفسه بعث به رسله، فأدعوك الى الله تعالى وحده لا شريك له ،والى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى، فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاصد أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره،فقال عليه الصلاةوالسلام له : « يا علي اذا لم تسلم ، فاكتم » ٠ فمكث على تلك الليلة ، ثم ان الله أوقعفي قلب علي الاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،حتى جاءه ، فقال : ماذا عرضت عليّ يا محمد فقال رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم « تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزىوتبرأ من الأنداد»ففعل علي ذلك وأسلم، ويروى أنه كتم ايمانه عن أبي طالب ،ولكنه لما علم قال له : « وآزر ابن عمك وانصره » ٠

هذه زيادة ذكرها ابن اسحاق في رواية أخرى ، وهي لا تتعارض مع الرواية الأولى ، ولكن تزيد عليها ،فمؤداها أن على بن أبي طالب ، كشأن من يكون في سنه رأى أن يعرض الأمرعلى أبيه كالشأن في كل أمر ذي شأن يعرضه الصبي على أبويه قبل أن يقدمعليه ، ثم وقع في قلبه الايمان بما جاء به ابن عمه ، طيب النفس رضيا ،وكان أن تبعه في صلاته في شعاب مكة٠

## أول أسرة في الإسلام

٢١١ ـ أسلم من بعد ذلك أو مقارنا لذلك مقارنة زمنية«زيد بن حارثة» وهو اختار محمد بن عبد الله عليه السلام على أبيه واختار أن يعيش فى كنف محمد رقيقا ، على أن يعيش في أسرته حراطليقا ، فلا بد أن يكون من أول الناس اسلاما ، فانضم الى الاسرة النبوية غيرمتلكىء ، ولا متلعثم ، ولا مضطرب ، بل دخل مسرعا ، غير متلوم ٠

اجتمع شمل الاسرة الكريمة على الايمان ، ولازم محمدا في صلاته أم المؤمنين خديجة ، وصفيه المجتبى علي بن أبي طالب ، ولقد جاء تاجر زائرا مكة ، ولنترك له الكلمة يقص ما رأى :

عن يحي بن عفيف قال : « جئت زمن الجاهلية الى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب • فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر الى الكعبة، أقبل شاب ، فرمى ببصره الى السماء ،ثم استقبل الكعبة • فقام يستقبلها • فلم يلبث حتى جاءغلام فقام عن يمينه• فلم يلبث حتى جاءت امرأة • فقامت خلفهما • فركع الشاب • وركع الغلام والمرأة • فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا • فسجدامعه • فقلت • يا عباس • أمر عظيم • فقال أتدري من هذا ! فقلت لا • فقال هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي • أتدرى من هذا الغلام ؟قلت:لا• قال هذا علي بن أبي طالب •أتدري من هذه المرأة التي خلفهما ؟ قلت لاأدرى ! قال هذه خديجة زوج ابن أخي• وهذا حدثني أن ربك رب السموات والارض أمر بهذا الذي تراهم عليه • وايم الله • ما أعلم على ظهر الارض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة » وكانوا الثلاثة المطهرين السابقين الى الاسلام • ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع •

ويلاحظ في هذه الاخبار الصادقة أن أولئك أسلموا من غير أن يطالبوا بدليل ، بل كانوا المصدقين لما عرفوا من الحق في ذاته • فأي قلب خال من شوائب الهوى والغرض • يسوي بين الايمان بحجر لا ينفع ولا يضر • والايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد ،الذي ليس بوالد ولا ولد ، ثم مع ذلك الحق الذي يدرك بأدنى تأمل من قلب سليم ـ ما عرف به الداعى من خلق صادق • وفضل كبير ، وعقل مدرك سليم ، ثم لا يكون في كلامه ارتياب مرتاب •

فالذي دفع الى ايمان تلك الاسرة الطيبة ادراك للحق في ذاته ، وايمان بصدق ربها ، ومن بعد ذلك صفاء في نفوس أهلها ، وأنىّ يكون قلب أصفى من قلب أم المؤمنين خديجة ، وعلي بن أبي طالب •

٢١٢ ـ فاض النور من بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانبثق البثق الكبير خارج البيت ، ولكنه لم يكن بعيدا عن محمد عليه السلام ، فقد ذهب يضيء قلوب أصدقائه ، والذين وصلت نفوسهم بنفسه وان لم يكونوا له أقرباء قرابة بعيدة أو قريبة،ولكنهم كانوا من قبيله وقومه ، ثم كانت آية الله الكبرى أن عارضه أقرباؤه الأدنون ،كأبي لهب ، ولم يتبع دينه أو لم يظهره حتى أحباؤه من ذوي قرباه كأبي طالب الذي رباه ، وكان حبيبا الى نفسه ، وعمه العباس وغيره ٠

وكانت تلك آية كبيرة تدل على نزاهة الاسلام من أن تقيمه عصبية ، أو يتبع العصبية ، انما هو دين الله جاء لمحو العصبية الجاهلية ، ولم تكن عموم دعوته فيها أي استجابة لعصبية ، أو موالاة قبلية كما سيتبين ذلك في القصص النبوي ، فلا يقال ان أسرة كانت تطمع في السلطان ٠ فاستعانت بسلطانها لنبوة كانت فيها ٠ وخصوصا أن بني هاشم كانت فيهم رياسات بالكعبة توارثوها كابرا عن كابر ، وكان آخرهم أبو طالب الذي عاصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

واذا كان بنو هاشم لم يكونوا أول الناس اسلاما ، فقد كانوا بلا ريب أولهم نصرة ، وكانوا نصراء النبي عليه السلام عصبية لا اسلاما ، اذ كان ذلك عادة العرب يعيش كل شخص في حماية عصبية٠ لا يسلمونه ، ويعدون تسليمه ذلا ، والتهاون في نصرته قهرا وهوانا ،وخصوصا أن محمدا عليه السلام كان معتدى عليه ٠ وليس معتديا ٠والايذاء ينصب عليه انصبابا ٠

ومن أجل ثبوت أن معاونتهم له في شدته كانت عصبية ، أنهم لم يؤازروه بعد أن صار قويا ، بل ان العباس عمه ،وهو الذي كان يعد كبير بني هاشم بعد أبي طالب خرج مقاتلا في جيش المشركين في بدر لجيش محمد عليه السلام ابن أخيه ، وأسر من بين من أسر من المشركين ، ولم يخرجه محمد عليه السلام ، الا بفدية افتدى بها نفسه ٠

٢١٣ ـ لا نريد أن نخوض في أوليته ، وسبقه في الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو سبق علي عليه. فتلك مسألة طائفية يثيرها الطائفيون في الإسلام . فالشيعة يعدون عليا أسبق والأمويون والناصبيون(١) يخالفون وما لنا أن نخوض في ذلك . وكل فريق يذكر أن معه من الصحابة فريقا .

وانما الذي نقرره أن كليهما أسبق الذكور إلى الإسلام . أبو بكر وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين . وعلي في العاشرة من عمره . لم يبلغ حد المراهقة ، ولكنه كان مميزا فاهما ، أسلم متنكرا متدبرا مدركا ، وقد ذكرنا أن فقهاء المسلمين يعتبرون إسلام الصبي المميز صحيحا وإن اختلفوا في اعتبار ردته مستحقة العقاب .

بادر أبو بكر بالإسلام عندما علم بالبعثة المحمدية ، واسمه عتيق ، أو عبد الكعبة ، وسماه النبي عليه السلام عبد الله . وقالوا إن أمه كان لا يعيش لها أولاد ذكور ، فلما رزقته وعاش سمته عتيقا لأنه عتق من الموت ، وقيل سمته عبد الكعبة لأنها نذرت أن تسميه عبد الكعبة . ثم أختار له صديقه محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون عبد الله.

وكان يمتاز من بين قريش ، بأنه عالم بالأنساب ، فكان نسابة العرب ، وكان له علم بأخبار الأولين ، وكان تاجرا معروفا بالأمانة والصدق ، وإن لم يكن كمعرفة محمد عليه الصلاة والسلام بذلك ولعل الأمانة قد سرت من صديقه محمد عليه السلام فقد كانا صديقين وتربين لتوافق مشاربهما في الجملة ، وإن كان أبو بكر لم تكن عنده نزاهة محمد حبيبه وخليله في البعد عن الأوثان فالفرق بينهما كالفرق بين من يصنعه الله تعالى على عينه ليكون رسولا نبيا ، وبين من خلقه الله تعالى صاحبا برا تقيا .

كانت الصحبة تجعلهما كالمتعاشرين في كمال الخلق ، حتى إنه عندما بدت إرهاصات النبوة ، وابتدأ البعث ، كانت تسأله خديجة عن صاحبه اذا غاب وهو يحضر إليها عندما تقلق عليه ،وتقول له : « يا عتيق أين ذهب » .

---

(١) الناصبية والناصبيون : الذين يناصبون عليا وأولاده العداوة

يقول الرواة ان أبا بكر أسلم قبل أن يطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه قد كان يتوقع ظهور نبوة صديقه محمد عليه السلام ، لأنه قد سمع كلام ورقة ، وعلم من خديجة حديثه لها ، وكان يوما عند حكيم ابن حزام ، إذ جاءت مولاة له ، فقالت إن عمتك خديجة تقول في هذا اليوم إن زوجها نبي مرسل مثل موسى ، عندئذ أدرك أبو بكر أن ما توقعه قد وقع ؛ وأن النور أشع، ولم يبق إلا أن يستضيء به ويمشو اليه ، فانسل إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأسلم اذ طلب إليه النبي عليه السلام ، وما كان طلبا لجاهل • بل كان طلبا ممن عرف ولم ينكر واستسلم وأذعن لله تعالى (١) •

ولذلك روى ابن إسحق في سيرته أنه بلغه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما دعوت أحدا الى الإسلام ، الا كانت عنده كبوة ، ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ماعكم (٢) عنه حين ذكرت •

فنفس أبي بكر كانت سائغة إلى الإسلام قبل دعوته ، لما رأى من إرهاصات النبوة ، ولما علم من كلام ورقة ، ولأنه كان الصديق الوفي والحبيب الولي لمحمد عليه السلام •

ولقد كان لإشراق نفسه ، ولصفو فؤاده إلى الحق ، والاتجاه إليه أنه كان يرى الرؤى التي يكون تأويلها تبشيره بالإيمان •

جاء في الروض الأنف « من أسباب توفيق الله له ( أي لأبي بكر ) أنه رأى القمر نزل مكة ، ثم تفرق على جميع منازلها وبيوتها ، فدخل في كل بيت منه شعبة ، ثم كان جمعه في حجره ، فقصها على بعض الكتابيين ، فعبرها له بأن النبي المنتظر الذي قد أظل زمانه يتبعه فيكون أسعد الناس به ، فلما دعاه صلى الله تعالى عليه وسلم أجاب » •

دخل أبو بكر في الإسلام فاستأنس به النبي عليه السلام بأبلغ مما كان واشتدت بينهما الصحبة ، فبعد أن كانت الصحبة مبنية على مجرد الاستئناس النفسي ، والخلقي صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده ، وبالمؤازرة في شدائد الحياة ، واتخذ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأنس الناس ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق يدعو بها ، فوق ما كان له هو عليه السلام من قوة نفس ، ومكانة عند الله وعند الناس •

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٣٤٠ (٢) عكم عنه : أى تردد وفكر وانتظر •

تتابع المخلصين :

٢١٤ ـ بإسلام أبي بكر تجاوز الإسلام حجرات بيته ، لقد كان فيها مقصورا على إسلام الثلاثة الذين يعاشرون النبي عليه السلام وهم زوجه الكريمة ، وربيبه الأمين على ، وعشيره الوفي زيد ، ولسنا نذكر في ذلك ترتيبا ، وإن كنا نؤكد في غير تلبث ولا مواربة أن أولهم باجماع المسلمين الطاهرة التي آزرت النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، ووقت انبلاج فجر البعثة ، وبعد الأمر بالتبليغ ، وكان فضلها عند الله عظيما .

بعد إسلام أبي بكر تتابع الإسلام في نفر ممن لهم بالنبي عليه السلام مودة سابقة ، أولهم بالصديق صداقة ، وكان فيهم استعداد ، كان أول من أسلم بعد بيت النبوة ، وأبي بكر ، عثمان بن عفان ، وقد كانت له بالصديق صداقة ، وله بالنبي محبة ، ويريد أن يتصل به بسبب ، كان يريد أن يكون له صهر ، فانه عندما بلغه أن محمدا أنكح ابنته رقية عتبة أصابته حسرة ، ولنترك له الكلمة . فهو يقول :

كنت بفناء الكعبة فقيل إن محمدا أنكح عتبة ابنته رقية فدخلتني حسرة ألا أكون قد سبقته إليها فانصرفت إلى منزلي ، لأجد سعدى بنت كريز ، فأخبرتني أن الله أرسل محمدا .. وقال انها حثته على إتباعه ، وإن لم تكن قد ذكرت لمحمد اسلامها . ثم قال : « وكان لي مجلس من الصديق ، فأصبته فيه وحده » ( فحثه الصديق على الإيمان) قال ومر النبي عليه الصلاة والسلام ومعه علي ، فقام أبو بكر فسار ، فقعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . ثم أقبل علي ، فقال أجب الله تعالى إلى جنته ، فإني رسول الله تعالى إليك وإلى جميع خلقه ، فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية .

وكان زواجه برقية الأمنية التي كان يتمناها من قبل ، وأصابته حسرة لسبق عتبة بن أبي لهب إليها ، وذلك لأن أبا لهب بلغت به الجاهلية العمياء أن حمل ابنه على تطليق رقية عندما دعا محمد عشيرته للاسلام فوجد عثمان طلبته قد هيأها الله تعالى له ، فاجتمع عنده الخير العظيم بالإسلام ، ثم بالصهر ، ثم برقية فكان ذلك خيرا عظيما .

ثم أسلم من بعد ذلك الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله بدعوة أبي بكر • إذ كان ذا قرابة به ، ويظهر أن أولئك جميعا كانوا بدعاء أبي بكر ، لأنه كان محببا في قومه ، وقد ذهبوا جميعا إلى النبي عليه السلام ، وأعلنوا اسلامهم ومؤازرتهم •

وأسلم من بعد هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، وهو زوج أم سلمة التي تزوجها النبي عليه السلام بعد موته والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامه وعبد الله ، وعبيد ابن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذى كان أبوه من الحنفيين الذين نفروا من عبادة الأوثان ، وزوجه فاطمة ابنة الخطاب ،وهكذا أخذ الجمع يكثر واحدا بعد آخر •

وكانوا يستخفون في صلاتهم ، وقبل أن نسير في بقية درجات الدعوة والاستجابة نسارع إلى الصلاة نبين وقت فرضيتها •

## فرضية الصلاة

٢١٥ ـ عندما نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (١)

كان التكليف لتبليغ الرسالة والدعوة الى أمر الله ودينه ، ولا دين بغير صلاة ، بل لابد لكل دين من صلاة ، لأنه لا بدلكل دين من عبادة ، ولا عبادة من غير الصلاة ، فهي عمود الدين ، وركنه الركين .

ولذلك اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقترانا زمنيا ، لأن الصلاة مقترنة بكل دين اقترانا عمليا .

ولقد قال الرواة أن الصلاة فرضت ركعتين بمجرد البعثة المحمدية ، وكانت تصلى مرتين ، أولاهما في الصباح ، والثانية في المساء ، وفرضت ركعتين في كل منهما ، ولقد قال في ذلك المزني من أصحاب الشافعي رضي الله عنه ، ان الصلاة كانت مفروضة قبل الاسراء، كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا قول الله تعالى :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥ ﴾ (٢)

ولقد قالت عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها فيما رواه ابن أختها عروة بن الزبير ، فرضت الصلاة ركعتين ، ركعتين ، ثم أيد الله تعالى أنها في الحضر أربعا واقرها على فرضها في السفر ركعتين ، وبهذا يتبين أن الصلاة كانت مفروضة من أول الاسلام ، وظاهر المروي أنها فرضت ركعتين ، وفي وقتين اثنين وهما في العشي والابكار ، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها .

---

(١) المدثر (٢) غافر

هذا هو المفروض على الكافة ممن يسلمون ، أما التطوع فبابه مفتوح والنبي مأمور بكثرة الصلاة ، وقد قال تعالى مشيرا الى طلب الصلاة الكثيرة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾ (١)

وذكر الرواة أن جبريل روح القدس هو الذي علم النبي عليه السلام الوضوء ، فقد ذكروا أن جبريل عليه السلام نزل عليه ، وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فنبع الماء ، فتوضأ جبريل ، وعلم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الوضوء قبل الصلاة ·

وقد روى كتّاب السيرة ذلك الخبر بسند غير متصل ، ولكن روي متصلا عن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ·

وبهذا يتبين أن الوضوء فرض لكل صلاة ، وكانت فرضيته وهو عليه السلام في مكة ، وقد استمر من بعد ذلك ، وكان والصلاة ركعتان مرتين واستمر وقد صارت أربعا في الظهر والعصر والعشاء ، وثلاثا في المغرب وركعتان في الصبح ، وذلك غير السنن على ما هو مبين في فقه العبادات ·

ولكن ذكر العلماء أمرا لا جدوى فيه من حيث العمل ، وهو أن فرضية الصلوات المكتوبة والتي فرضت في المعراج قبل الهجرة بسنة على ما سنحقق ان شاء الله تعالى ، فقالوا أن الصلوات المكتوبة قد نسخت الاكتفاء بصلاتين ، وأن ذلك ثابت بعمل النبي عليه السلام عملا متواترا ، وانعقد عليه الاجماع ، وصار معلوما من الدين بالضرورة بحيث من ينكره يكون كافرا ·

---

(١) المزمل

وقد أشار القرآن الكريم الى مواقيت هذه الصلوات الخمس ، فقد قال تعالى :

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ (١)

وقد قالوا ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، ولا يمنع أن يراد الصلاة المثلى .

وقال تعالى مشيرا الى أوقات الصلوات كلها :

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

فقد اتى بصلاة الصبح مشيرا بقوله تعالى : « حين تصبحون » وبصلاة العصر مشيرا بقوله تعالى : « وحين تمسون » وبصلاة المغرب والعشاء مشيرا بقوله تعالى : « وعشيا » فهما العشاءان ، حتى قال بعض الفقهاء ان وقت المغرب والعشاء واحد ، يصلى أسبقهما أولا ، وثانيهما آخرا ، وأتى بصلاة الظهر بعبارة تكاد تكون صريحة وهى قوله تعالى : « وحين تظهرون » .

---

(١) البقرة (٢) الروم

٢١٦ ـ دخل عدد من كبار قريش، وان كان قليلا ، ولكن تسامع الناس بالدعوة المحمدية التي جاءت برسالة الهية ، حتى كان علمها قد سرى سريان النور الى داخل البيوت ، حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش الا علم بالاسلام ودعوة محمد وأنه يخاطب من السماء ،فالاخبار في خفاء وقد تعلم ، وان لم يكن ، دعا اليها ، ولم يحرك ذلك عنادا،ولا خصاما ونزالا ، لأنها ما أصابت اهتماما الا ممن كان لهم صفاء نفسي لم يعكره تعصب ، أو لجاجة في عناد ، فكان الأمر بين متبع وان كان عدده قليلا ، وغير مهتم ، وان كان كانوا الأكثرين ٠

وفي هذه الاثناء دخل الضعفاء ، وهم دائما نفوسهم أصفى واكثر انصافا، وادراكا ، لانهم يحسون بالظلم ، ويرجون التغيير ، فاذا جاء نور يكونون أول من يعشو اليه ، ويذهب في استجابة ضارعة ، مع رجاء الانقاذ ولو في المال ، فما كانت حالهم صالحة لأن تبقى، ولا يمكن أن يرضي الحق بقاؤها ، لان حالهم شقاء ولا يزيدهم شقاء ايذاءاذا كان الخير مرجوا ، وتغيير الباطل مأمولا ، فصادق بفتح باب الامل ويغلق باب اليأس ، يكون في رجاء التغيير سلوان وان كانت الحال مؤلمة أسيفة ٠

لذلك دخل الضعفاء والعبيد فى الاسلام أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه وخباب بن الأرت ، وبلال الحبشي وغيرهم كثير ، والدعوة بينهم ، يستطيبون سماعها ، ويصدقون الاستجابة لها ويستعذبون كل عذاب في سبيلها ٠

وكانت الاستجابة للدعوة لا تعتمد على معجزة ولا دليل يتحدى به ، بل يرون الحق سائغا ، وهو يدعو الى نفسه وما نزل من القرآن يستجيبون له ، لانهم

---

(١) الشعراء

يرونه الحق الواضح ، وفي الداعي وهو محمد الصادق الامين ، وانما يقدم الدليل للمرتاب ، ويوضح اذا كان الحق يحتاج الى مقدمات ونتائج ، فان النبي هو الأمين ، وان الذى يسمعون هو القرآن ، وان الذين استجابوا من الكبراء هم فضلاء الجماعة وأمناؤها .

والدعوة تسري سريان الماء العذب في خفاء العشب الأخضر ، والزهر الأنضر ، ولكن لابد أن تستعلن ليعلمها القريب ، وتكشف في وضح النهار المشرق ، ويسري علمها ، فالخفاء مهما يكن لا يخلو من ابهام .

ولذلك لما سرت الدعوة المختفية المتربية في خلية نمائها ، طلب الله تعالى الى رسوله أن يعلنها ، فقال لنبيه آمرا له :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (١)

تقدم النبي محمد عليه الصلاة والسلام وجمع بني هاشم وبني عبد مناف، وغيرهم من بطون قريش ، جمعهم في الصفاء ، وقال لهم : « أرأيتم لو أخبركم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا » ، ثم ساق لهم ما يدعوهم اليه ، ولنترك الكلمة لرواية البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فقد قال لما نزلت الآيات وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين — صعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي ، يا بنى فهر ، يا بني عدي لبطون قريش — حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا ماجربنا عليك كذبا ، قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فنزل قوله تعالى « تبت يدا أبي لهب » ، وهذا يدل على أن كبير المعارضة فى تلك الدعوة المباركة هو أبو لهب عم النبي

---

(١) الشعراء

عليه السلام ، لكيلا يعلم الناس أنهـــا عصبية أسرة أو بطن من قبيلة ، انمـا هي رسالة الله تعالى الى خلقه ٠

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الآيات وقف وقال يا معشـــر قريش ، اشتروا أنفسكـــم ، لا أغني عنكـم من الله شيئا يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا صفيـــة عمة رسول الله لا أغني عنـك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال ، لا أغني عنك من الله شيئا ٠ وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري ، وروى مثله الامام أحمـــد في مسنده ٠

دعوته صلى الله عليه وسلم الأقربين .

٢١٧ ــ ولقد جاء في التاريـخ الكبير لابن الأثير : « لما أنزل الله تعـالى على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقربين »اشتد ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضاق ذرعا ، فجلس في بيتـه كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ٠ فقـال ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ٠ فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم ، فانه غير مجيبك ٠

فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين ٠

فبادرهم أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصبأة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبـة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسـك ، وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسـر عليهم من أن يثب بك بطـــون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به ٠

فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يتكلم في هذا المجلس ، وان هذا من حكمة البيان ، فقد بادر أبو لهب بخلق جو عنيف من الاعتراض الشديد ، والانذار والوعيد ، وبذلك يشجع كل معارض ، ولو كان في الاصل مترددا ، فزال التردد الى حال معترضة ، ولذا أجل قوله الى مجلس آخر ، حتى يزول غبار الاعتراض الذي أثاره أبو لهب ٠

ويقول ابن الأثير دعاهم مرة ثانية ،ووقف فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأثق به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له »، ثم قال : « ان الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة ،والى الناس كافة والله لتموتن ، كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ،ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا ، أو النار أبدا » .

وفي هذه المرة لم يبادر أبو لهب ،بل بادر أبو طالب حبيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يتبع ، فقال غير موافق ، ولكن يعاون ، وغير متبع ولكن من غير معاداة .

قال أبو طالب : « ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك !! ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وانما أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لاأزال أحوطك وأنفعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب » .

ولم يسكت أبو لهب والباطل لجوج دائما بل قال هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم .

فقال أبو طالب ( مصرا ) والله لنمنعنه ما بقينا .

## بين أبي طالب وأبي لهب :

٢١٨ ـ ان موقف أبي طالب لايحتاج الى تعليل : لأنه موقف الشفيق على من كفله ومن رباه ، فقد كان كافله بعد جده عبد المطلب واختاره عبدالمطلب دون بقية بنيه ، ولم يكن أسنهم ، فكان يمنع النبي مستجيبا لداعي الشفقة والمحبة ، ومستجيبا لوصية أبيه بأن يحفظه ويحوطه ، فقام بحقها ، حتى بعد أن صار محمد شابا سويا قويا ، ووجدأن الحياطة تكبر بكبر الموصى به فتكون معاونة بعد أن كانت وصاية ، وتكون مدافعة بعد أن كانت رعاية .

انما الذى يحتاج الى تعليل هو موقف أبي لهب فما أعلن ما توجبه القرابة بل ما توجبه العصبية التي تجعله مع محمد عصبته وقريبه القريب ، وان

عليه أن يحميه ، لم يفعل ذلك ، ولم يسكت مفوضا الأمر الى أبي طالب أخيه ، كما سكت حمزة والعباس ، ولم يكونا قد دخلا في الاسلام ، لم يفعل ذلك أبو لهب ٠

ولعلنا لو أشرنا قليلا الى طبيعته ،وما أحيط به لسهل علينا تفسير موقفه، أو أدركنا تعلة لهذا الموقف الذي عادى محمدا عليه السلام وخالف قرابته مسلمهم وكافرهم على سواء ٠

لقد كان عبد العزى ( أبو لهب ) طبيعة غير طبيعة اخوته، فاخوته يطلبون السيادة والشرف والعزة بالخلق العربي الصميم ، وهو يطلب المال والدنيا ،وفيه أثرة ، وحب الذات ، ومن يكون كذلك يميل دائما الى الابتعاد عما يثير المتاعب، ويؤثر في المال ويوجد اضطرابا ،وبذكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد عليه السلام تقدمة لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها، فقاومها، وشدد في المقاومة، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر في أي أمر معنوي ، ولا في رجاء لنصرتها ، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر في احساس غيره ، ولا في معاونته من يحتاج الى معاونة طويلة مديدة من أسرته ٠

وتلك الطبيعة التي لا تريد الا استقرارا لأجل المال ، وما يتصل به من منع تكره تغيير ما كان عليه الآباء ، بل ترغب في أن تسير الحياة نمطية ،لاتغيير فيها ولا اضطراب ٠

ولعل هذه الطبيعة هي التي جعلته لايخرج مع قريش في غزوة بدر الكبرى، وخرج العباس وان كان كارها محرجا ،وهناك عامل ثان ، فوق ذلك العامل النفسي ، وهو زوجه أم جميل الأموية أخت أبي سفيان ، فقد كانت عاملا مذكيا لتلك الطبيعة المعاندة ، كانت تكره رسول الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة ، والتقى كرههما في قرن واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر ، ولا ندرى أكان الزواج هو السبب أم كان غيره ٠

وبهذه الكراهة كانت تحرضه ، وتؤججه اذا تصورت أن نيران العداوة قد تطفئها القرابة ، وعلو شأن محمد في دعوته وجهاده ، وذكر اسمه في كل بلدان العرب ، وتجاوز ذلك الى البلدان المصاقبة ، كالرومان والشام ومصر ٠

ولقد كانت لا تتردد أخت أبي سفيان في أن تقرض الشعر ذما للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتسميه مذمما ولا تسميه محمدا ، فقد قالت في ذلك :

مذمما قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

ولقد تلقى شعرها هذا بالاستضحاك، وعد ذلك ليس شتما له ، لأنها لم تذكر اسمه في شتمها ، فقال عليه السلام : « انظروا كيف يصرف الله تعالى عني شتمهم ولعنهم يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد » ، وكان فيها مع ذلك صفة السفيهات من النساء، انها كانت تمشي بالنميمة ، فتوقد نيران العداوة ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ (١)

هذا هو أبو لهب ، وهذا هو السر في عداوته للحق ، ولمحمد عليه السلام مع قرب رحمه ومع أنه سر لولادته وقت أن ولد .

أبو لهب وموقفه من الدعوة والدعاية :

٢١٩ ـ هذا أبو لهب ، وذلك موقفه من دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي كرهته فيه بعد ود أو ان شئت فقل محبته له في صباه حتى بدا ما يتخالف فيه الطبعان طبع العم المادي ،وطبع ابن أخيه الروحي الذي لايحرص على المال .

أما أبو طالب ، فلم يكن عدوا لدعوة محمد عليه السلام ، وعباراته تومىء بأنه لا يعاندها ، وما عند أبي لهب من صفات تناقضها ، صفات أبي طالب توافقها في أصلها ، فأبو طالب لم يكن أثرا يحب المال ، بل كان فيما يبدو من خلق يجعله يميل الى الايثار بالمحبة ،فآثر التعب على الراحة في مناصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما أبو لهب يؤثر الدعة والاستقرار على أي صورة كانت ، كان أبو طالب شيخ البطحاء لا يؤثر الدعة والاستقرار مع الضيم ، بل يقاوم الضيم راضيا بملاقاة أسباب الارغام بقلب صابر قوي .

---

(١) المسد

وبينما كان أبو لهب محبا للمال مؤثرا له على كل شيء من أسباب الحياة الكريمة كان أبو طالب يكتفي من المال بالقليل من غير أن يبذل مروءته في سبيل طلبه ، فالمروءة عنده أولى بالطلب من الاستكثار من المال ، ولذلك كان محدودا ، ولم يكن مجدودا ، لكل هذا قبل أبو طالب أن يكون لمحمد نصيرا ، لان الشفقة والمروءة، والمناصرة العربية الكريمة تقاضته ، فاستجاب لسجيته له، وما وهن ولا استكان ، ولا ولى ، بل استمر مناصرا في كل الشدائد ، حتى قبضه الله تعالى ٠

وليست الغرابة في نصرته للنبي عليه السلام ، انما الغرابة في أنه لم يدخل فيما يدعو اليه !! ذلك تقدير العزيز العليم ، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك دفع لوهم يقوله بعض الواهمين ،أن دعوة محمد كانت عصبية جاهلية ٠

ولقد ذكر ابن كثير أنه لو أسلم كماكان يظهر من لحن قوله أنه يميل الى الاسلام ، اذ يقول :

لولا الملامة أو حذار سبة  لوجدتني سمحا بذاك مبينا

لو أسلم لكان المشركون له أعداءكما عادوا محمدا ، وقد كان عندهم من قبل ذلك الأمين المحبوب الذي يسمع قوله ويطمأن الى حكمه ، ولكن أراد الله تعالى أن يبقى على دين قومه ، لكي يكون ردءا للنبي وعضدا في وسط المدلهمات ، وقال ابن كثير في ذلك :« وكان رسول الله تعالى أحب خلق الله تعالى اليه » ( أي الى أبي طالب ) ،وكان يحنو عليه ، ويحسن اليه ، ويدافع عنه ، ويحامي ، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم ، وعلى خلتهم ، الا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبيعيا لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، اذ لو أسلم أبو طالب ، لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ، ولا كلمه ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولاجترؤوا عليه ، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء اليه ، «وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا » (١) ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤١

٢٢٠ ـ كانت دعوة محمد ابتداءسرية يدعو اليها من يعرف من أصدقائه وأوليائه الذين كانوا كنفسه ، ثم يدعوكل من ذاق بشاشة الاسلام وخالطت نفسه من أصدقائه وأحبابه ، فكانت تصغي اليه الأفئدة طالبة الحق ، بقوة المحبة للخل الوفي ، وللحق البدي ، من دعوة علنية ، ولكن الامر النوراني لا يخفى طويلا ، فعلم وان كان في أضيق دائرة ٠

## دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين :

٢٢١ ـ وكان لابد أن يتولى النبي عليه الصلاة والسلام الاعلان ،والجهر، وكما بدأ بدعوة أهل بيت النبوة ، الذين أشرق الوحي عليهم ،وهو بينهم ، فقد أخذ بأمر الله تعالى يعلنه بين ذوي قرابته يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر ٠

ولعله يبدو بادي الرأي واضحا جليا أن أكثرهم قد رد من عشيرته ، ولم يستجب الا بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية ، وفاطمة امرأة أبي طالب ، وكان من هذه العشيرة أول من جاهر بالعداوة ، وهو قريبه القريب عمه أبو لهب ، وفي هذا دليل مادي على أن الدعوة ما كانت من انبعاث قبلي ، بل كانت استجابة لدعاء رباني ٠

كان اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، اعلانا للعرب أجمعين ، فقد كانت بأعلى الصفا ، وتسامع بها الناس ، واذا كان الخطاب للعشيرة خاصة ، فقد كان الاعلام لقريش ، ثم اظهارا لنبي بعث رحمة للعالمين ، تسامعت به الركبان ، وتذاكر في دعوته الذين يغشون مكة من غير أهلها ، وبذلك انتشرت الدعوة المحمدية بتبليغ رسالة ربه الذي كلف رسالة ربه في غير معاندة للمشركين ، ولا مجابهة لهم ولا تحد لملتهم ٠

ولقد كانت تسير في استخفاء ، كما يسري الماء العذب في أرض مغطاة بالأعشاب ، ولكنه يثمر ، وينبت ، وينمي ولو كان مستخفيا ، وكان الذين ارتضوا الاسلام دينا يستخفون بعبادتهم ولا يظهرونها ، ويذهبون الى شعاب مكة يصلون فيها ، وما عرف أنهم كانوا يذهبون الى الكعبة مجاهرين متحدين ، ولكن كانوا يستخفون بهذه العبادة ٠

ولقد روي اسلام كثيرين في ذلك وهم غلبة الصحابة الذين بنيت دعوة الاسلام عليهم ، وكانوا الدعامة الاولى في قواعد البلاغ المحمدي ٠

# فاصدع بما تؤمر

٢٢٢ ـ نزل في تدرج الدعوة قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

فكانت هذه الآيات الكريمة دعوة الى أن تبلغ الدعوة أقصى مراتبها ، وأبعد تكليفاتها أثرا في التكليف ، وتأثيرا في النفوس .

ومن كتّاب السيرة من يرى أن التكليف الكامل بدعوة الناس أجمعين قد ابتدأ من نزول قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ومن هؤلاء ابن كثير، فقد قال في نزول هذه الآيات الكريمات ما نصه : « بعنوان أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بابلاغ الرسالة . قال الله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الحجر (٢) الشعراء (٣) الزخرف

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

أي ان الـــذي فـــرض عليـك ،وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك الى دار الآخرة ليســـألك عن ذلك ،كمـاقال تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٢)

والآيات والأحـــاديث في هـذا كثيرة جدا (٣) .

ونرى من هذا التقرير ان الامام الحافظ ابن كثير لا يرى أن ثمة تدرجا في الدعوة ، وأنه من وقت أن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين كانت الدعوة عامة ، وأن الاقتصار في الآية على ذكـــر العشيرة الأقربين لا يفيد قصر الدعوة في هـذه الآية عليهم ، بل يفيد الابتداء بهم ، أو مواجهتهم ، مع مخاطبة غـيرهم ، ولايفيد قصر الدعوة عليهم ، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بهـا الأحمر والأبيض والأسود والعبيد والأحرار .

ونحن نوافق على عموم الرسـالة المحمدية ، وأنها ليست بمقصورة عـلى قرابة قريبة أو بعيدة ، ولكن هذا تدرج في الدعـــوة والخطاب ، وان ذلك يتضمن دعوة غيره من المكلفين ، بـــلافرق بين قريب وبعيد ، فالجميع مكلفون بالاستجابة من غير تفريق ، ونحسب أن قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك » الخطاب فيها مقصور على العشـيرة ، ولذلك لم يدع محمد عليه الصلاة والسـلام الى الاجتماع بهم الذي كـان في الصفـــا غيرهم ، وليس من المعقـــول أن يكلف العامة بخطاب طائفة من الخاصة ، بل لابد من توجيه الخطاب اليه ، فجاء في قوله تعالى :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤)

الى آخر الآيات .

---

(١) القصص (٢) الحجر (٣) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٨
(٤) الحجر

ويزكى هذا ما جاء عن ابن اسحاق، فقد جاء ما نصه : ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة أن يصدع بما أمر ، وأن يصبر على أذى المشركين ،وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا في الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون في شعاب مكة ، اذ ظهر عليهم بعض المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه ، فكان أول دم أريق في الاسلام (١) .

وقد قال ابن اسحاق في موضع قبل هذا :

دخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة ، وتحدث به ، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصدع بما جاء به ، وأن يبادي الناس بأمره ، وكانت المدة بين ما اخفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ــ ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه ، ثم قال تعالى :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢)

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان الدعوة المحمدية في مدة ثلاث السنين تدرجت في ثلاث مراحل ، أشار اليها من قبل الامام ابن القيم في زاد المعاد اذ ابتدأت الدعوة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن بيت النبوة سرت الى من يتصل بهم من أصدقاء وخلان ، فكان من النبي عليه السلام الى صديقه الاول أبي بكر عتيق بن أبي قحافة ومن عتيق سرت الى أصدقائه كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن بيت النبوة سرت الى صفية والزبير ، وغيرهم من

---

(١) سيرة ابن هشام طبع الحلبي جـ ١ ص ٢٦٣ (٢) الحجر

عشيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأقربائه الأدنين ، وهذه هي مرتبة الدعوة الاولى التي أشار اليها ابن القيم في ترتيب مراتب الدعوة ٠

ثم كانت المرتبة الثالثة من بعد ذلك ، وهي مرتبة الدعوة العامة في قريش ومجابهتهم بدعوة الحق ، من غير أن تكون مقصورة على بيت النبوة ، أو على أقرباء النبي عليه السلام ٠

وهي في كل مرتبة لا تقف عند الحدود التي ابتدأت فيها ، بل تسرى الى غيرها ، سريان النور الى الظلام ، وفي مرتبة العشيرة الاقربين خرجت الى قريش كلها ، فما كان يدعو عشيرته من آل عبد المطلب وبني هاشم في كن مستور من الارض ، بل كان يدعوهم جهرة في غير مواربة ٠

فضل القرآن :

٢٢٣ ـ وقد يسأل سائل ، ما الدليل الذي كان يسوقه النبي في هذه الدعوة ، فقد كان الذي نزل من القرآن قليلا ، وتوالى نزوله بعد ذلك ، ولم يذكر أن أحدا جادل حول القرآن ، أو طلب دليلا واستدل به ، فما الذي كان يهديهم الى الاتباع من غير أن يتعرفوا دليلا قدم ، وبرهانا أقيم ٠

والجواب عن ذلك أن الاستجابة كانت للحق في ذاته ، ولما عرف من تاريخ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ كان الصادق الذي لم يعرف كذبه قط ، والأمين الذي لم يقترن عمل له بريبة قط ، والصفي في نفسه ، والمحبوب لمكارمه ، والعاقل الذي لم يعرف فيه انحراف فكري ، بل هو المدرك المستقيم الادراك في كل معاملاته ، وكل ما اتصل به من أعماله ٠

ثم كان هذا القرآن الذي ابتدأ يتلوه عليهم ببيانه الذي فاق كل بيان ، وعلا عن أن يتسامى اليه أي انسان ، وان اشراق نفوس هؤلاء ، وحيرتهم في الأوثان ، اذ يرون الأوثان تفقد قوتها في نفوسهم ، وتنهار مكانتها في قلوبهم ، وبقايا الأديان السماوية تتورد على عقولهم ، وبعض سنن ابراهيم ومآثره يزاولونها في حجهم ، وبنسبته اليهم يعتزون ويفاخرون ولم تسبق الى نفوسهم نزعة حسد ، أو حقد ، أو منافسة مقيتة ، مما عوق غيرهم ٠

كانت نفوس الذين اتبعوا الرسول والذين آمنوا معه نفوسا صافية ، وما علاها من غبار الوثنية زال وشيكا ،فكان الحق وحده هو الذي لمع نوره وجذبه اليهم ، فوق ما كان ، مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من بينات ، ولقد قسم الباحثون في أخلاق الناس القلوب عند تلقي الحق ، الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول:القريب الى الهداية وهو من يقتنع بالحق بمجرد بيانه ، فبيانه وحده يهديهم الى سواء الصراط ، ولايحتاجون الى دليل غير سراج الحق المزهر ، وأولئك هم الذين ينظرون الى الحق ، وقد خلت قلوبهم من هوى اللذات والشهوات ، فأشرقت بالحكمة وصفت ، فدخل نور الهدى فنطقوا به ، وعملوا به ، وساروا على منهاجه ،وأولئك لا يطالبون حامل الحق الداعي اليه ببرهان يقدمه ، فالحق وحده يحمل في نفسه دليل صدقه ، اذ اشرأبت اليه النفوس ، ومن هذا القسم أولئك الذين اتبعوا محمدا في أول الدعوة ·

القسم الثاني : قوم امتلأت عقولهم بمعلومات سابقة ، أو اختلطت في نفوسهم نوازع الحق ، ونوازع الباطل ، وفيهم ادراك يميزون به بين الحق والباطل ، وأولئك يحتاجون الى دليل ،لينفوا به خبث الفكر الذي خالط قلوبهم ، وأثر في نفوسهم ، فالبرهان يعينهم ، وينير السبيل لهم ، وذات الحق لا يكفي بيانه لكي يستولي عليهم ، ويسيرهم الى الهدى ، فلا بد من دليل يرجح نوازع الهداية على غيره ·

والقسم الثالث : قسم غلبت عليه الضلالة ، وغلبت عليه شقوته ، فلا يتبع الحق لذات الحق ، ولا يزهر في قلبه ،وليس له بصيرة مخلصة في طلب الحق، وفي الوقت ذاته قد طمس على بصيرته،فختم على قلبه ، وكان على ادراكه غشاوة ، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين جعلهم الله أعداء للحق ،وهؤلاء يكون موقفهم معاداة أصحابه ، وموقف أصحابه مدافعته ، فلا تكون العلاقة الا ممانعة ، يمنعون الحق من أن ينتشر ،ويمانعهم هؤلاء ليدفعوا الاذى ،ولذلك لا يكون بينهم الا السيف ·

ولقد قال الغزالي ان قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وكان المؤمنون الأولون خديجة وأبو بكر وعلي وزيد ، وعثمان والزبير ومن معهم من السابقين الأولين من الصنف الأول ، ثم جاء من بعدهم ، من خاطبهم القرآن بالاعجاز وتحداهم فمنهم من اهتدى ، وأبصر ، ومنهم من ضل وغوى فكان المعتدي الأثيم ، وكان الجهاد ، فكانوا أهل السيف ، وما كان لصاحب دعوة خالدة أن يترك الشريسيطر ، والحق يستخذي *

(١) الحديد

## استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٢٢٤ ـ استجاب محمد لأمر ربه ،وبعد أن كان يدعو من يدعوه في مناجاة ، ثم اقتصرت الدعوة الملنية على عشيرته الأقربين بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشى الأسواق التي حول مكة يدعو الى دينه ، وتبليغ رسالة ربه ، غير مدخر جهدا في الدعوة الى الحق والوحدانية بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، ويقول في ذلك ابن كثير :

« المقصود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استمر يدعو الى الله تعالى ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس في أنديتهم ، ومجامعهم ومحافلهم ، وفي المواسم ومواقف الحج ، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوي ، وغني وفقير ، جميع الخلق في ذلك شرع سواء ، وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء » (١) .

وكان أشدهم اغلاظا عليه عمه عبدالعزى أبو لهب ، وثانيهم عمرو بن هشام الذي لقبه التاريخ الاسلامى بحق بلقب أبي جهل ، أما الأول فلم يكن منه أذى بدني أو قولي للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن مبالغة في مقاومة دعوته ، ولا يكتفي بالقعود عن حمايته،وأما ثانيهما فقد كان فاجرا فكانت معاندته للنبي عليه الصلاة والسلام فجورا في القول والعمل ، وللضعفاء اعناتا وبغيا ، وسنخصه بالقول في حركة الاضطهاد ، والبواعث التي دفعته الى هذا الموقف الذي جره الى ذلك البغي المرذول الذي لا يقع من كريم .

وأبو لهب كان موقفه موقف محاربة الدعوة ، فكان يتبع محمدا عليه الصلاة والسلام في التقائه بالقبائل العربية في موسم الحج ، فكلما ذهب الى محفل أو نادي يدعو فيه ناكره ،ودعا السامعين الى ألا يستجيبوا .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٠

روى الامام أحمد عن أبي الزناد عن أبيه ، قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال : « رأيت رسول الله في سوق ذي المجاز ، وهو يقول : « يأيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحـــوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه يقول : انه صابيء كاذب يتبعـه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا هـذا عمه أبو لهب » .

وروى البيهقي مثل ذلك مـع بعض الزيادة عن ربيعة هذا الذي ذكـرناه انه قال : « رأيت رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم بذي المجاز وهـو يتبع الناس في منازلهم يدعـوهم الى الله ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه ، وهو يقول : « أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم ، قلت من هذا قيل أبو لهب عمه » .

ونرى من هذا أن أبا لهب قبل أن يكون هـو المثبط ، ولعله اختار ذلك لنفسه أو اختاره المعارضون للدعـوة المحمدية ، فيكون ادعى الى تصـديقه ، اذ هو قريبه القريب ، فمع أنه أقـرب رحما كذبه ، فهذا ترشيح لصـدقه عليه السلام ، وأنساه الحقد ، والضـلال أن الحق ذاته له نور ساطع ، لا يحاجـز دونه هذا وأشباهه ، ولكنه الأفن يتولد من ضيق المطن ، وغلبة الهوى ، وسيطرة المآرب المادية .

ومهما يكن فقد حمل محمد عليه الصلاة والسلام عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

وتقـدم بمن هـداهم الله تعالى به من صحـب كـرام اشـتروا الهـدى بالضلال ، والحق بالباطـل ، واشترى منهم أنفسهم ، فكانوا السابقين ولنشر بكلمة الى من سبقـوا ، وان كانوا عددا قليلا .

---

(١) الحجر

# السّابقون السّابقون

٢٢٥ ـ أشرنا الى سبق الأربعة الكرام خديجة أم المؤمنين ، سكن الرسول التي جعلت بيته روضة الاطمئنان ، ويسكن اليها بعد معاناة عداوة الأعداء، والمناضلة في سبيل الله تعالى ، فيجد المواساة ، ويجد القلب الحبيب الودود ، وما أكرم الوداد ، اذ يذهب ببرحاء العداء ، ويجعل الروح والريحان ، بعد ملاقاة الكذب والبهتان .

ثم ذكرنا أبا بكر الصديق الولي الوفي ، والصديق الذي خلص قلبه لله تعالى ، واذا كان ابراهيم أبو الأنبياء خليل الله ، فالصديق كبير المصدقين خليل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أشرنا الى أنه ما علم أن أسلم ، بل انه سعى الى الايمان بمحمد عندما علم من حكيم بن حزام بأمر ما جرى بين النبي عليه السلام وورقة بن نوفل وزوجه خديجة من مذاكرة في أمر الرسالة المحمدية .

وذكرنا اسلام علي بن أبي طالب الذي صدق ابن عمه بعد تفكير وهو ابن عشر سنين ، وكان قد هم باستشارة أبيه ، ولكنه فكر وقدر وحده ، فعاد الى ابن عمه يعلمه بايمانه ، فكان المؤمن باقتناع مع الصغر وغضاضة الاهاب .

وذكرنا ايمان زيد بن حارثة الذي آثر جوار محمد عليه السلام قبل أن يبعث على أن يعود الى أبيه وأمه حرا ، فاختار الرق مع محمد بن عبد الله على الحرية مع أبويه ، فجعله محمد الكريم ابنا له وحرا ، فكان وارثا ومورثا .

ثم ان اسلام أبي بكر جعل بعض أصدقائه ومن يالفونه يستأنسون بالاسلام ، فقد كان ألوفا محبوبا ، قال فيه محمد بن اسحاق : « كان أبو بكر مالفا لقومه ، محبا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر . لعلمه وتجارته وحسن مجالسته،

فجعل يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يفشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير بن العوام ،وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم أجمعين»(١)·

وقد قدم هؤلاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخذ أبو بكر يبث الدعوة لاصدقائه وخلانه ، وعارفيه ، ثم ذهب بطائفة أخرى الى النبي عليه الصلاة والسلام منهم عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلم بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الارقم ·

أخذ العدد ينمو بفضل الله ، واخلاص صفوة مختارة ممن صفت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم حتى بلغ العدد ثمانية وثلاثين ، ومنهم نساء دخل الاسلام قلوبهن ، ومنهن أم جميل أخت عمر بن الخطاب ، وزوجها زيد بن نفيل كان من السابقين الأولين ·

وقد أراد أبو بكر أن يخرج المسلمون مجاهدين بالدعوة الى الاسلام قبل أن يتكاثر الجمع ، ولكن محمدا عليه السلام صاحب الدعوة والتبليغ رأى التريث ، حتى يكون الجمع أوفر وأكثر عددا ،لانه مع العدد عزة الكثرة النسبية ،وان كانوا في الحقيقة عددا قليلا ، ولكن الصديق ما زال بمحمد عليه السلام حتى قبل أن يخرجوا من الاستخفاء الى الاعلان ، ويظهر أن الدعوة قد أعلنت بانذار العشيرة الأقربين ، وتذاكر الناس أمرها ، ولكن يندر فيهم من يتقبلها ، ويكثر فيهم من يعارضها ، ومنهم من لم يعرف لهم موافقة ولا مناوأة ·

ومهما يكن فقد خرج أبو بكر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام قام بعمل جليل قبل ذلك الخروج فقد انبعث كل رجل الى عشيرته يدعو الى الاسلام فيها ، وخرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الى المسجد الحرام ، ثم قام أبو بكر خطيبا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس · وقال ابن كثير في روايته ما نصه : كان أول خطيب دعا الى الله والى رسوله ( أي بعد النبي ) ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوه في نواحي المسجد ضربا شديدا ، ووطىء أبو بكر، وضرب ضربا شديدا (٢) ·

---

(١) سيرة ابن هشام والبداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٠١

٢٢٦ ـ بعد ذلك ، وخصوصا بعد اعلان الاسلام في مخاطبة بني هاشم وبني عبد المطلب عند الصفا ، أخذ الاسلام ينتشر انتشارا الضوء في الظلام ، فأسلم بنو مظعون من أولاد كعب بن لؤي ، وأسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن نوفل ، وامرأته فاطمة ، أخت عمر بن الخطاب، وعمير بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود الهذلي وأسماء بنت أبي بكر ، وهكذا غيرهم من أهل مكة الاحرار ، وان لم يكونوا ذوي مال وذوي رياسة .

ومن الضعفاء ، وقد كانوا أسبق الى الاسلام عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ، وهو مولد الأسد اشتراه أبو بكر رضي الله عنه .

ومنهم صهيب بن سنان ، ويقال انه مولى عبد الله بن جدعان ، ويقال انه رومي ، ونسب الى الروم ، لانه كان أسيرا في أرض الروم .

ومنهم بلال الحبشي ، وكان مولى لبعض المشركين عذبوه ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

ومنهم ياسر وعمار ابنه ، وأمه ، وقد كان ياسر من عرب قحطان من مذحج ، وعمار ابنه كان مولى لبني مخزوم ، لان أمه سمية كانت مولاة لهم، فولدته على الرق ، والمولود على الرق يتبع أمه في رقها ، ولا يتبع أباه في حريته ، وكذلك كان نظام الرومان في الرق الذي سرى الى العرب .

ومنهم خباب بن الأرت ، وغيره من الضعفاء الذين سارعوا الى الاسلام .

وقد سارعوا الى خير الدنيا وخير الآخرة ، واذا كانوا قد أوذوا ابتداء ، فقد نالوا الخير انتهاء ، وكما قال تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ (١)

وقد دخل الاسلام بيوتا كثيرة فما من بيت الا علم بأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان العدد قليلا في ذاته ، فانه ما خلا بيت من بيوت مكة من مسلم ، أو من قلب مال اليه ، وأحس أهل الشرك بأن دولة الأوثان تؤتى من

(١) القصص

قواعدها ، وأن الاحجار أخذت تفقد سيطرتها ، ومن استمر متمسكا فمن أرب يريده باسمها ، لا عن ايمان بها فانه كان يكفي أن يدعو محمد الى الحي القيوم الذي لا شريك له ، حتى تزايلت الأوثان عن مكانتها ، وما هو الا تفكير يسير حتى زالت الأوهام ، وصارت أحجارا لا تتجاوز أنها أحجار ، ومن تمسك بها فهو غير مؤمن أو سادر في غلوائه .

## الإسلام يخرج إلى القبائل :

٢٢٧ ـ من وقت أن أمر الله نبيه بأن يصدع بأمر ربه ، وقد أخذ يلتقي بالجموع ، فيغشى الاسواق داعيا ، ويدخل النوادي صادعا ، بأمر ربه ، ويقف في مناسك الحج داعيا القبائل عندما يجد سميعا ، والآحاد يذاكرهم ، يسألونه فيجيبهم بما يوحي به الله تعالى في سماحة صاحب الدعوة ، وباشراق نور النبوة حتى أصبح حديث القبائل التي تفد الى بيت الله تعالى حجيجا أو معتمرين ، أو تجارا مضاربين ، ووجد من بين القبائل من صغت أفئدتهم الى الاسلام ، يستمعون دعوته ، ويؤمنون بوحدانيته مذعنين ولعل من أدلة وصول الدعوة الى القبائل اسلام أبي ذر الغفاري ، واسلام ضماد من أزدشنوءة .

روى البيهقي في اسلام أبي ذر الغفاري أنه قال ( أي أبو ذر أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله ) فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن ذلك نتيجة لوقائع سابقة من مقتضاها أن خبر الاسلام سرى الى بني غفار ، وأن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قومه قد وصلت اليهم فبعثت أباذر على البحث عنها ، حتى عرف صدق النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يجيء اليه .

قد روى البخاري باسناده عن ابن عباس قال : « لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأخيه اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم آتني ، فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه ، ثم رجع الى أبي ذر ، فقال رأيته

يأمر بمكارم الاخلاق ، وكلاما ما هـو بالشعر ، فقال ما شفيتني فأتى المسجد، والتمس رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركـه بعض الليـل ،فاضطجع فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحدا منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظـل ذلك اليوم ،ولا يراه النبي حتى أمسى ، فعـاد الى مضجعه ، فمر به علي فقـال : أما آن للرجل أن يعلم منزله فأقامه فذهب به معه لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء،حتى اذا كان اليوم الثالث ، فعاد عـلى مثل ذلك فأقام معه ، فقال ألا تحدثني بالذي أقدمك ، قال ان أعطيتني عهـدا وميثاقا لترشدني قلت فأخبره .. قال فانه حق ، وأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا أصبحت فاتبعني ،فاني ان رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، وان مضيت فاتبعني،حتى تدخـل مـدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل معه ، وسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » فقـال والذي بعثك بالحق لأصرخن بهـا بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتي المسجـد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . فضربوه ،حتى أضجعوه (١) .

فأتى العباس ، فأكب عليه ، فقال :ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفـار ، وأنها طريق تجارتكم الى الشام ، فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه ، وأثاروا عليه فأكب العباس ثانيا .

ومن هذا نرى أن الاسلام قد أخـذ يذيع نبأه خارج مكة ، ويقول الرواة ان غفارا أسلمت تابعة أبا ذر ، ولم يكن أمر الاسلام ليصل فقط الى من هم على مقربة من مكة ، بل وصـل خبره الى أزدشنوءة فأسلم رجل منهم اسمه ضماد كما أشرنا .

وضماد هذا كان رجلا يقول للعرب أنه يرقي من به مس من جنون أو سحر ، فيشفى ، فأراد سفهاء مكة أن يحسنوا النكاية بمحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاءه سفهاء من مـكة ،ودعوه ليعرضوا عليه النبي صـلى الله تعالى عليـه وسـلم ، وقالوا له انه مجنون .

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص٣٤

جاء ضماد فقال أين هذا الرجل الذي تقولون عنه انه مجنون لعل الله تعالى ان يشفيه على يدي ·

لقي محمدا فقال له اني أرقي من هذه الرياح ، وان الله يشفي على يدي من شاء فهلم الي ·

فقال محمد : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات»·

قال ضماد متأثرا وقد فتح الله قلبه للايمان « والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هذه الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الاسلام فبايعه على الاسلام »ويروى أنه عندما سمع كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال له أعد علي كلماتك هذه فقد بلغن السحر ·

تلك كانت أحوال من يدخلون في الاسلام كانوا فرادى ولم يكونوا جماعات الا ما قيل عن بني غفار ، وكانوا قليلا ولكنهم كانوا يزيدون ولا ينقصون ، وكانوا من بيوت مختلفة ، وشعب متفرقة ، وتجاوزوا حجزات مكة فماذا تصنع قريش ؟

# المنـــــاوأة

٢٢٨ ــ توقع ورقة بن نوفل معركة تقوم بين محمد بن عبد الله وقـومه بسبب ما أوحى الله تعالى والقيام بأداء الرسالة التي كلفه ربه أن يقوم بها ، لانه ما من أحد جاء قومه بمثل ما جاء الا عودي ، وقد كان محمد كريما عنـد قومه ، حبيبا اليهم يألفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة مخالفين ، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لهـا ابتداء ، ومقاومين ومعادين ، ومضطهدين في الجملة لمن اتبعوه .

وذلك لانهم فوجئوا بهذه الدعوة الى الحق ، ولم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والمفاجأة بتغيير أمـــر مألوف تولد الانكار ما لم يكن ثمـــة أمـر متوقع يقع .

وان أمر رسول الله يجيء في بني ابراهيم وكان ذكره خارج مكة ، ولم يكن يتردد كثيرا بين أهلها ، وأهلها قـــوم ماديون ، لا يعنيهم الا أمر التجـارة ، وأمر الحج ، ولعل الحج لا يعنيهم الا لما يعلون به من شرف بين العرب ، واستعلاء عليهم ، وشعور بأن العرب لهم تبع ، وهم السادة في بلاد تصعب السـيادة فيها ، وبين أقوام لا يعترفون برياسة الا ما يكون من قبل ذلك البيت المعظم ، الذي كرمه الله تعالى ، وجعله حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شيء .

ولا يهمهم من جوار البيت الا ذلك الشرف الذي يكتسبونه من الجوار وأنه محل تجارة العرب ، كمـــا هو محـــل نسكهم ، وأمنهم ، اذ الناس في خـوف وتقاتل ، فكانوا بالاقامـة في البيت آمنين من ناحية المال اذ هـــو ســبيل تجارتهم ، وهو مأمنهم ، كما قال تعالى :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ (١)

(١) قريش

واذا كانت المفاجأة التي لم يكونوا متوقعين لها قد دفعتهم الى المبادرة بالانكار ، فقد ساروا في طريقه ، وانتقلوا من الانكار الى الاستنكار ، وهو مرتبة أعلى من الانكار المجرد ، لأن الانكار المجرد أمر سلبي ، وقد يجيء من بعده الايمان اذا جاء الدليل ، أما الاستنكار فهو عمل ايجابي معناه أنه ينكر الحق ، ويستنكر الدعوة اليه ، ثم اندفعوا من بعد الاستنكار الى المناوأة ، وكل ذلك من المفاجأة ، وقد تدفع المناوأة الى الجحود ، ويدفع الجحود الى الكفر ثم الايذاء .

٢٢٩ ـ والدعوة المحمدية التي فوجئوا بها هي تغيير لما هم عليه ، ألفوا عبادة الأوثان من غير ايمان قوي بها ، ولكن كانت عباراتهم تتلوى بتقديسها يتوهمون فيها أوهاما ، وبسيطرة هذه الاوهام يشركونها في عبادة الله تعالى ، وهم يعلمون أن الله تعالى خالق السموات والأرض .

والذين يميلون الى المال ، ومجرد الاستعلاء بين الناس لا يحبون التغيير بل يحبون الحياة الرتيبة السهلة التي لا تبديل فيها ، ولا انقلاب ولا تقلب في المذاهب والأفكار ، وليس فيهم شاغل بهذا ، ولذلك كان جوابهم عندما يدعوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (١)

ويحكي سبحانه وتعالى عنهم فيقول تعالت كلماته :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

ألفوا الشرك، ولم يألفوا التوحيد ، ولو كان الحق ساطعا ، والبرهان قائما، واستمسكوا بالاصنام ، وهم لا يؤمنون بها ، يحطمونها ويعبدونها ، ويغيرون

---

(١) البقرة (٢) لقمان

حجرا بحجر ، وان كانت الأسمـــاء لاتتغير ، ولكنهم لا يتركونها الى غـــير ما يالفون ، ولقد توقعوا ما عـــرفوامن أخلاق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ومن معاملاته أنه سيدعوهم الى تحريم الخمر ، وهم يعاقـرونها ، لانه لم يذقها في الجاهلية ، وقـد جاءالقرآن الكريم بأنها ليست رزقا حسنا

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فجعل الرزق الحسن مقابلا للسكر ، فكانت اشـارة الى قبحه ، والربا كان جزءا من تجارتهم، وعلموا من تجارة محمد أنه لا يزاوله ولا يرتضيه ، والقرآن الكريم يتلى بينهم بالاشارة الى تحريمه ، اذ يقول سبحانه:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢)

فدل هذا بصريح العبارة أن هـذا الدين الجديد الذي جاء به محمد عليـه السلام عليهم سيزعـج الربويين الذين يستغلون أموالهم بالربا ، يدفعونه دينا ويأكلون من ثمرات تجارة غيرهم ربا ،وكان فيهم كبراء أثروا من هذا الباب، وحسبوه كالبيع ، وقالوا :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (٣)

وهكذا حسبوا أن ذلك الدين سيقلب عامة أمورهم ، فعاجلوه بالانكار ،ولقد صور هذا الحال جعفر بن أبي طالب في حديثه مع النجاشي ، واليك القصـة ، كما جاءت في الصحاح في المجاوبة بين مهاجرة الحبشة،ولسانهم الناطق جعفر. قال النجاشي :

« ما دينكم ؟ أنصارى أنتم ؟ قالوا :لا . قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا لا ، فعلى دين قومكم ؟ قالوا : لا ، قال : فمـــادينكم ؟ قالوا الاسلام . قال . فمـــا

(١) النحل (٢) ، (٣) البقرة

الاسلام ؟ قالوا : نعبد الله لا نشرك به شيئا • قال من جاءكم بهذا ؟ قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا ، قد عرفنا وجهه ونسبه ، بعثه الله تعالى الينا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة ، ونهانا أن نعبد الأوثان ، وأمرنا بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، فصدقناه وعرفنا كلام الله تعالى ، وعلمنا أن الذي جاء به هو من عند الله ، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ، وعادوا النبي الصادق وكذبوه ، وأرادوا قتله ، وأرادونا على عبادات الاوثان ، ففررنا اليك بديننا ودمائنا من قومنا » •

هذا الكلام يصور بعض التصوير التغيير الذي رأوه في عاداتهم ، فتجردوا لمناوأته ، وأخذ الطريق عليه ان استطاعوا •

## إنكار المشركين لليوم الآخر :

٢٣٠ ـ ومما دفع الى مبادرتهم بالانكار غرابة الامر في ذاته عليهم ، ما كانوا يؤمنون بأن هناك يوما آخر يحاسب فيه المحسن على احسانه والمسيء على اساءته ، وأنها الجنة أبدا أو النار أبدا ، ولقد أكد ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وقف لينذر قومه بعد أن أمره ربه ، فقد جاء في تلك الخطبة تأكيداً لليوم الآخر ، لانه عليه السلام يعلم أنهم عنه غافلون « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالشر شراً وانها للجنة أبداً أو النار أبداً وانكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » •

ان المشركين من العرب كانوا قوما ماديين لا يؤمنون الا بالحس يعرفون الله ، ولكن يصورون حجارة ليعبدوها فلا يعبدونه سبحانه ، وهو غيب عنهم ، فكان كل هذا غريبا ، ومن يستغرب من غير دليل ، ينكر ثم يستنكر من غير دليل أيضا ، ولقد حكى الله تعالى عنهم في انكار اليوم الآخر وما يكون :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) الرعد

ويقول سبحانه وتعالى في استغرابهم الخلق من جديد :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

ولجهلهم بالنبوات آثار عجبهم ، والغرابة في نفوسهم أن جاءهم بالرسالة عن الله تعالى رجل منهم يدعو الى الله سبحانه ، ولو كانوا يعلمون أن الرسول لا يكون الا رجلا يمشي بين الناس ما ثار عجبهم لكونه رجلا ، ولقد قال قائلهم في الدعوى الى التمسك بالحجارة :

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كانت من أسباب غرابتهم بشرية الرسول ، لانهم أميون لم يعرفوا الرسالة ، ولم يدركوها من قبل .

ولقد قال الله عنهم :

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

فجهلهم بالنبوات والرسائل ، وعدم وجود أنبياء بينهم علموا منهم رسالات الله تعالى الى خلقه ، وأن الرسل قوم من البشر ، جعلهم يستغربون أن يكون الرسول بشرا سويا يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، واذا كان الامر غريبا عليهم ، فقد كان حقا عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ،

---

(١) يس (٢) ص (٣) الفرقان

ويستانســـوا بنور النبوة ، ولكنهم عاندوا فلج بهـم العناد ، فكان منهـــم الجحود والكفران ٠

## أثر دعوته صلى الله عليه وسلم:

٢٣١ ــ وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الدعوة التي تسـوي بين الغني والفقير ، وتوجب حقا للفقير في مال الغني ــ قـــد مس كبرياءهم وهز مراكزهم هزا عنيفا ، وأحســـوا بالارض تميد من تحتهـم اذ أن ذوي الانساب منهم يستعلون بأنسابهم ، ويحسبون أنهم الأشراف وحدهم، والناس دونهـــم وهم الأعلون وغيرهم الأدنى ، فكان لابد أن يقـــاوموا ذلك الداعي الجديد الذي يقول بلسان المقال وبلسان الفعال لا فضل لعـربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع ، ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصى ، ولو كان شريفا قرشيا ٠ فهو يأخـــذ بنواصي الأقوياء ليضعها بجوار رؤوس الضعفاء، وقد لمحوا ذلك في أتباعه فقد رأوا أبابكر نسابة العرب ، ومألف قريش يكون بجوار بلال وعبيد أبي بكر نفســه ، لا يفرق بينهما الا فضل الايمان ، فهو مقياس الشرف والضعف ، والاكبـــار والاصغار ٠

بلا شك هذه مبادىء اجتماعيـــة لايقبلها شرفاء مكة ورؤساؤها ، ومحمد عليه السلام لابد منفذها ، لانه كـــان ينفذها قبل أن يكون نبيا رســـولا ، فكيف لا ينفذها ، وقد نزل الوحي عليه، وجعلها هو نظاما واجب الاتباع ، من لم ينفذه ان لم يعاقب اليوم ، فالنار الموقـدة تلقاه يوم القيامة ، ويلقى به في السعير ٠

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو اليه محمد غير نافرين منـه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجـابة ، وابتدأ الاقـــوياء الذين دخلـــوا في الاسلام يعاملون الرقيق ، كما يعاملون الاحرار ٠

اذن لابد من مقاومة ذلك التيار الذي جاء مع الدعوة ، ولا يتركـــونه ، حتى ينمو ، ويستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدي قـريش من شرف وهمي وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن في بنيانه ٠

ثم انهم كانوا الرؤساء الأعلون ، ولهم شبه سلطـــان ، وانه اذا ذاع دين محمد عليه السلام ، وصـــار السلطان للحق وحده ، وحكمت المساواة ، وذهبت

المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان، ويسلب كل ما لهم من سلطان ، وما بنوه من مجـــد طـــريف وتالد ينهدم بين أيديهم ، لانهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية اسماعيل وضئضىء ابراهيم وهاهو ذا يدعو الى ديانة ابراهيم ، ويقول في غير عوجاء ولا لوجاء ، هـذه مـلة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين، فأنى يكون لهم من بعد ذلك ، لابد اذن من اقتلاع دعوة محمد من جذورها ، والقضاء عليها في مهدها .

ثم ان بعض الكبراء منهـــم كانوا ينفسون على محمد بن عبد الله عليـه الصلاة والسلام ، ويتساءلون لماذا كانت له تـــلك المنزلة علينـا ، ونحن أولى بها منه .

وقد ذكر ذلك الوليد بن المغيرة ، وادعى أنه أولى بالنبوة وأنه أكثر مـالا وأعز نفرا ، ومثل ذلك عروة بن مسعود الثقفي ونزل فيهما قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ * وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

منافسة العرب لقصي :

٢٣٢ ـ وفوق ما ذكرنا كله ـ العصبية العربية الجاهلية التي كـــانت مستمكنة في النفس العـــربية يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فالعـرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس عـلى بني قصي ما لهم من مكانة . وبنو قصي وغيرهم ينفسون على بني عبد منـــاف وبنو أمية ينفســـون على بني هاشـم رياستهم للعرب ، وكونهم في المكـــانة العليا من سدانة البيت والقيام عليـه ،

(١) الزخرف

فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ،وعبد المطلب أخذها عن هاشم وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب ٠

فالدعوة الاسلامية تعرضت لعداوةمن عادوا قصيا ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبني هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام الذي اشتهر في الاسلام باسم أبي جهل ، وهو به جدير ٠ فقد كان فرعون هذه الامة ، وان لم يكن فرعون في مثل سفههوحنقه ورعونته ٠

لمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا جهل فناداه بكنيته أبا الحكم قائلا له : « هلم الى الله والى رسوله أدعوك الي ، فقال أبو جهل : يا محمد ، هل انت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أني أعلم أنما تقوله حق لاتبعتك » ٠

مناقشة هادئة ، كلها حكمة من محمدعليه السلام ، اذ أنه يناديه بكنيته يا أبا الحكم ، وهي عجرفة من جانب عمرو بن هشام ( أبي جهل ) فبينما النبي عليه السلام يناديه بكنيته ، لا يناديه بمثلها، بل يقول في جفوة يا محمد ٠

وليس هذا هو المهم ، انما المهم أنه قال لمحدثه بعد انصراف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« والله انى لأعلم أن ما يقول حق ،ولكن يمنعني شيء ، ان بني قصي قالوا: فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا :فينا السقاية : فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينااللواء ،فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبي ،والله لا أقبل » (١) ٠

كانت قبائل قريش تأخذ على بنيقصي أنهم جمعوا في أيديهم الحجابة للبيت الحرام ، وللقيام على شئونه ، وذلك شرف ليس فوقه شرف ، وسقاية الحجيج ، وذلك يذيع ذكرهم ويعلناسمهم ، والندوة ، وهي شورى العرب ، فكانوا بذلك رؤساءهم وهم الذين يحملون لواء قريش ، وهذا كله اثارة العرب

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٦٥

عليهم ، ثم انحدرت هذه المنافسة الى معاداة الحق الذي يأتي به أولاد قصي ، وبنو هاشم على رأسهم ، وقد ورثوا عنه بعض ما أخذه من قريش .

واذا كانت قريش كلها تنفس على بني قصي ما أخذوا أو يحسدونهم فبنو عبد مناف ، كانوا من بينهم يختصمون بالحقد عليهم لانهم الذين ورثوا شرف قصي ، وما كان معه ، ولقد ظهر ذلك على لسان فرعون هذه الامة أبي جهل .

لقد سمعوا القرآن الكريم سرا ، وكانوا هم الأعداء الذين قد أصيبوا بلدد الخصومة ، ثم تذاكروا بعد السماع وقد تأثروا ، وقد قال أحدهم لأبي جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال حانقا : « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » (١) .

واذا كان أبو جهل يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو في معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التي تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه ، بل تدركه ، ولا تذعن له ، وترضى بالرديء الوبيء عن الحق الصادق المريء .

٢٣٣ ـ نسوق هذه الامور ، لالنبرر بها ذلك الموقف الجاهلي الذي وقفه أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،أو ان شئت فقل خصومه الذين حاربوه وأعنتوه في الخصومة والمعاندة ، ثم عادوه ، وكانوا شياطين الانس الذين ذكروا في القرآن الكريم على أن الله تعالى له ثواب الجهاد والمصابرة .

ولكن سقناه لنعلل الوقائع بأقرب اسبابها ، ولكي تزول كل غرابة في معاداتهم للحق وقد بدا وضحه ، وليعرف الباحث البواعث الحقيقية لتلك اللجاجة في العداوة التي ذهبت بهم الى الايذاء ، وأسرفوا بها في القول ، وأثاروا نيران البغضاء ، والواقع أن البغضاء للدين كانت مستكنة في نفوسهم ، واستيقظت بقوة دعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٦ طبعة الحلبي

وان اسناد الأمور لأسبابها لا يعـدتبريرا لها ، ولكن يكون تبينا للوقائع ، وان الأسباب في ذاتها اثم ، والاثم لايولد الا اثما ، واللجـاجة لا تولد الا فجورا وآثاما *

لقد يعجب الناس كيف يمـاري أولئك وفيهـم عقـل في الوحـدانية ، ويجادلون في الله تعالى وهم يعلمونه ،وهو شديد المحال ، كيف يقف أمثـال الوليد بن المغيرة وهو من أذكياء العرب،والنضير بن الحارث موقف المعارضة ، وفيهم ادراك سليم ولكن عميت عليهـم الأمور بسبب ما ذكرنا فكانوا في حيرة بين ماض ألفوه ، وألفوا معه الدعـة والمال والجاه والسيطرة ، وحـاضر قد أدركوه ، ورأوا نور الحق الذي ساروافيه ، ولـكن ما ان يبرق عليهم نوره ويمشوا فيه ، حتى تكون غاشية المال ،وغاشية الجاه ، وغاشية الاستعـلاء ، وغاشية التعصب القبلى المردي *

ومنهم من كان يرد النور الى قلبه رويدا رويدا ، فـكان في وسط ذلك الأتون من العداوة نور يهدي الى التيهي أحسن والله عليم بذات الصدور *

## تلقّي النّاس للدّعوة

٢٣٤ ـ تلقى الناس في مكة دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلنها على الصفا ، مخاطبا عشيرته الأقربين أولا ، ثم مخاطبا العرب أجمعين ثانيا ، حين صدع بأمر ربه ، تلقوها مشدوهين لغرابة الجديد ، فقسم صغى قلبه اليها ، وأولئك السابقون الأولون الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل دعوته ، ومعاونة النبي عليه الصلاة والسلام في تبليغ رسالته ، ونشرها في الأرض ومجاوزتها الاقطار من بعده .

وكان من هؤلاء الضعفاء الذين حرموا السلطان ومتعة الحياة ، ورأوا في دعوة محمد أملا مرجى في الآخرة واذ لم يكونوا في حال مرضية البقاء ، بل هي مرجوة الانهاء ، فأوجد فيها الاسلام الامل في انهائها ، فسارعوا اليها ، وذاقوا العذاب في سبيلها ، فصبروا من غير انزعاج أو ارتداد ، بل مضوا في الطريق حاملين البؤس واليأس ، في جلد وصبر وايمان ، وقد مكن الله تعالى لهم ، ووفاهم جزاء صبرهم :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

والقسم الثاني: أعلن العداوة للنبي منذ ابتدائها ، وشنوا غارة على الذين يؤمنون وعلى رأس هؤلاء أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء من ذهبت غلواؤهم في العداوة ، ولجاجتهم في الخصومة الى ايذاء المؤمنين ، وتعذيب الضعفاء من العبيد والفقراء ، ومن لا حول لهم ولا طول من عشيرة تحميهم ، وعزة من النفر يدافعون عنهم ، وكثير ممن دخلوا في الاسلام كانوا على ذلك النحو ، اذا لم يجدوا جوارا من أحد يدفع عنهم الأذى وعلى رأس المؤذين أبو جهل .

---

(١) الزمر

والقسم الثالث:وسط بين هـؤلاء ،فلم يعتنق الاسـلام ، ولم يـكن من السابقين الأولين ، بل وقف وقفة المنتظر، أو وقفة من رد الدعوة من غير معاداة، ولا مناواة ، وكان من هؤلاء أكثر بني هاشـم ، وبعض بني أميـة ، وبعض القرشيين وكان في كل عشيرة بعض من هؤلاء ، كما كان في كل عشـيرة بعض ممن أسلم ٠

ومن هذا القسم من كان يشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فيدخل في صفوف المسلمين مجاهدا صابرا متحملا الأذى ،وأقله السخرية والاستهزاء ، فقـد كان الاسلام ينمو من هؤلاء ، بل انه كـان ينمو أيضا من المعذبين المؤذين ،وحسبنا عمر بن الخطاب ، كان من المؤذين ، حتى همّ فيما يقول الرواة بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن تداركتـه رحمة الله تعالى ، فشرح الله تعالى صدره للاسلام فكان له عزا ، وكتب الله تعـالى الحق على قلبه ولسانه ٠

أخذ النبي عليه السلام يدعو ، ولا يني عن دعوته ، ولا يلين ولا يخفف من دعوته الاعراض مهما يكن مقدار المعرضـين ولا الأذى ينزل به وبـكبراء صحابته ، ولا الاضطهـاد يشتد عـلى ضعفاء أتباعه ، ولكنه يأسى ويحزن على ما ينزل بهم ويواسيهم ويدعوهم الى الصبر ، ويصبر هو ليتأسوا به ، ويعينهم بالمال ان احتاجوا ، ويعينهم كبار الذين آمنوا على فك رقابهم ٠

وكلما ازداد عدد المؤمنين ، ازداد الأذى وازدادت المعارضة ، فانه كلمـا قوى الحق ونما أهله ، يئس المخـالفون من أن يطفئوا نور الله تعالى الذي انبثق في مكة ، ولكن بوادر اليأس كانت تزيده حجة ولجاجة في الباطل ، وكل يسـير في طريق التمسك بالباطل ، ففـريق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون سوط عذاب يستمرون في غيهـم يعمهـون والذين ارتضوا المعارضة من غير ايذاء، والمقاومة من غير اعنات لمن جاءوا بالدين الجديد ، ساروا في طريقهم ومنهاجهم ، يدعون النبي عليه السلام لأن يكف عن دعوته ، ويجادلونه ، ويعرضون عليـه ما يرونه مغريا بالاعراض عن دعوته ،على حسب تفكيرهـم ، وعـلى مقتضى ما يسول لهم شيطان المادة ٠

موقف قومه صلى الله عليه وسلم من الدعوة :

٢٣٥ ـ ويذكـر الأكثرون من الرواة أن النبي عليـه الصـلاة والسـلام كـان يلقى منهـم مسالمة ،ودفاعـا عن عقائدهـم بالتي هي

أحسن، أو عدم اهتمام بعضهم بمقاومته عندما كان يدعو من غير أن يذكر آلهتهم بسوء ، أو يسفه أحلامهم ، وأحـــلام آبائهم ، فلما أخذ يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، انتقلوا الى مقاومة عنيفة ، أخـــذت صورة الايذاء في بعضهـــم والاستنكار المرير من بعض آخر ، ثم تطورت الأمور الى العـــداوة والاغراء بالبغضاء وقطع الأرحام الموصولة .

وفي الحق اننا لا نرى فارقا زمنيا ، بل نجد أن دعوة التوحيد ، وتحـــريم عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ابتدأت منذ جاء عليه السلام ومنذ أعلن عشيرته باستنكار عبادة الأصنام ، فقال عقب الانذار بالبراءة منهم إن عصوا ، فقـــال تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (١)

وجاء مثل ذلك عند الامر بالجهر بالدعوة ، واعلان قريش خاصة والعرب عامة ، اذ قال :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

واذا كنا لا نجد فارقا زمنيا يحد ما بين الدعوتين ، واذا كانت الآيات التي نزلت في أول الدعوة بمكة تتشابه في معانيها من ناحيـــة الأوثان مع الآيات التي نزلت في آخر مقامه عليه السلام بمكة ، فان من الحق علينا أن نقـــول اننا لا نجد تفريقا بين حال لم تذكر فيها أوثانهم بسوء ، وحال قـــد ذكرت فيها بسوء .

وان الذي نجده أو نظنه ظنا أن مقاومتهم ابتدأت بحال دهشة مما فوجئوا به ، وتساؤل فيما بينهم ، ما شأن هذا الذي جاء به محمد عليـــه الصـــلاة والسلام ، وهم بين من علم أن محمدا عليه الصلاة والسـلام دعاه الى هـــذه الدعوة ، وبين متشكك في نسبة القول اليه ، وبينما هم يتساءلون كانت الدعوة تسري في الأوساط ، وتجد لها من بينهم مصدقين ما بين سادة وعبيد ، وأشراف وضعاف ، فتنبهوا حينئذ للمقـــاومة ، لامر وجدوه جدا لا هزل فيه ، وقـــويا

(١) الشعراء (٢) الحجر

لا ضعف يعتريه ، واذا كان الذين يتبعونه قليلا ، فهم يزيدون وسيكونون كثيرا ، ولابد أن يأخذوا الأهبة لمدافعة هذا الواقع ، وهو لا يزال نبتا ، قبل أن يستفلظ سوقه ٠

## صُوَر اعتراضهم على الدَّعْوة :

٢٣٦ ــ وعلى ذلك نقرر أن المقاومة كانت تتزايد في الشدة كلما تزايدت الدعوة عموما ، وتكاثر المستجيبون لها ، فهم كلما رأوها تنمي ولو قليلا يحسون بالخطر شديدا ، وكلما أحسوا بالخطر ازدادوا لجاجة وعنفا ، لانهم يرون الخطر على سيادتهم ، ونظمهم الاجتماعية ، والارض تنهار من تحتهم شيئا فشيئا ، فتزداد المقاومة بصورها المختلفة ، وكل يعمل على شاكلته ، وعلى الطريقة التي يرضاها خلقه ، ففريق بالايذاء ، وفريق بالاستهزاء ، وفريق بالشكوى لأبي طالب حاميه ، ويتلاقى الجميع على أمر يكون متلاقيا مع كل طبائعهم ٠٠ وهكذا ٠

وان اعتراضهم أخذ ثلاث صور ، الصورة الاولى : محاولة حمل النبي عليه الصلاة والسلام على ترك الدعوة التي يقوم بها ، وينشر الاسلام عن طريقها ويحارب الوثنية بكل ضروبها ٠

الصورة الثانية : المجادلة ومحاولة احراج النبي عليه الصلاة والسلام بمطالب هي غير معقولة في ذاتها ، بقصد تعجيزه ، واظهار عجزه أمام الناس أجمعين عسى أن يكون في ذلك صد الناس عنه ٠

الصورة الثالثة : الايذاء في صوره المختلفة ، بالايذاء الفعلي الآحادي للنبي عليه السلام خاصة ، وللذين يؤمنون من الناس ، ولم يخلص منهم كبراؤهم ، ووقع شديد على ضعفائهم ، ثم كان من ذلك ايذاء جماعي ، أنزل من قريش كلها على بني هاشم كلهم واخوانهم بني المطلب ، وقد تلقوا جميعا مقاطعة قريش لهم ، ولم يقبل دنية الافتراق عن أسرته الا أبو لهب ، أما الباقون فتحملوه صابرين مشاركين معاونين ، واستوى في ذلك مؤمنو بني هاشم وبني المطلب على سواء ٠

وقد لوحظ أن الايذاء كان يجمل الايمان يذيع وينمو ، لان الناس تنفطر نفوسهم لالم المتألمين ، ويدفع حمية الذين لهم صلة بمن يؤذون ، فتدفع

المروءة الى مشاركتهم في سبب الايذاءتحديا ومقاومة ذلك الشر ، فقد دفع الايذاء للنبي عليه السلام حمـــزة بن عبد المطلب لان يعلن اسلامه ، ثم يعلن ايمانه ، كما سنبين ان شاء الله تعالى في اسلام حمزة ٠

وقد يكون اندفاع المؤذي في ايذائه مفرطا فيه دافعا لأن ينفطر قلبه ، فيجد سبيلا للايمان ، كما كان الشـــأن في ايمان عمر بن الخطاب ، فقد كان الدم الذي انبثق من شـــج أخته ايذاء لهـــا على ايمانها سببا في أن فتح الله قلبـــه لأنه استمع الى الآيات التي تتلى ، فرحمه الله تعالت كلمـــــاته بأن فتح صـــــدره للايمان فآمن ٠

وكان الايذاء سببا في الهجرة الى الحبشة ، وفي الهجرة اليها شـــاع اســـم الاسلام في ربوعها وان لم يتبعـــــه الاملكها ٠ وسنذكر بعون الله تعالى تـــلك الصور المختلفة للمقاومة بعد أن نتكلم في درجات الدعوة ، والجهر بها ٠

# الـــذين اســتجــابوا لله وللرّســُول

٢٣٧ ـ سرى الاسلام الى النفوس من أول نزوله ،واذا كان الذين سارعوا الى الدخول فيه عددا قليلا ، فذلك شأن كل دعوة تعتمد على الحق المجرد ، فانها تدخل في قلوب الجماعات في ريث من غير تعجل ، ولا انسياق من غير تفكر وتدبر،ولكنها ان كانت صارت كالجبال.

وقد يقول قائل ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت ثورة فكرية واعتقادية واجتماعية واقتصادية وانسانية بشكل عام ، ومن شأن الثورات أن تجتذب الجماهير فتندفع في نصرتها والاخذ بها ، ونقول في الاجابة عن ذلك ان ما أتي محمد عليه الصلاة والسلام كان في نتيجته وغايته أعظم ثورة انسانية رآها التاريخ الانساني ، في نتيجتها وثمراتها وغاياتها ، لا في وقائعها وأشكالها ، فان الثورات الجامحة انفعالات للجماهير ، تكون كانفعال الاشخاص لا تلبث أن تنطفىء ، اذ ذلك شأن الانفعالات دائما ، لا فرق بين أن تكون في الآحاد وأن تكون في الجماعات،واعتبر ذلك بالثورات الاوربية ،فأعظمها مظهر الثورة الفرنسية ، انفعلت بها فرنسا انفعالة شديدة ، ثم لم تلبث حتى أخذت تأكل نفسها ، وكثرت ثورات زعمائها على أنفسهم جماعة بعد جماعة حتى رسبت في آخر الامر في حكم يشبه حكم القياصرة ، كما كان في عهد نابليون الذي نال الكمثرى فيها بعد أن نضجت .

أما دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت نابعة من أحكام المنطق وأحكام العقل ، والامداد الالهي بروح القدس ، وما كانت انفعالة ، بل كانت نفوسا مطمئنة راضية مرضية آمنت بالحق وأخذت به ، دخلها الايمان ولم يخرج منها . وهكذا يكون من شأنه الدوام والاستقرار في النفوس التي يدخلها ، فاذا أشرق فيها فهو اشراق لاينطفىء ، فلا يشبه نار الهش من الاحطاب الذي ينطفىء بأقل الرياح ،بل يشبه الماء العميق البعيد الغور الذي لا تهزه الرياح ، فلا تعبث به الاهواء .

لذلك كان الذين يدخلون قليلا قليلامن غير طفرة ، وانتقال انفعالي ٠

## المؤمنون والجهر بالدعوة:

٢٣٨ ـ ولقد اختبرت قلوبهم منأول دخولهم ـ لقد ابتدأ الاسلام يسري كالنور في الظلام ، فأشرقت به قلوبمؤمنة ، فدخلها واستقر بها في وسط لجاجة الشرك وعوجاء أهله ، أسلم قوممؤمنون ، ولكن منعوا من أن يقيموا شعائر دينهم ، فكانوا ابتداء لا يصلونفي المسجد الحرام ، بل كانوا يذهبون للصلاة في شعاب مكة مستخفين بدينهم،لا يجهرون بقراءة القرآن بين ظهرانيهم، ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلميفعل ذلك ، ومكانته بين قريش مكانته، وجاء أبو جهل الذي اشتهر بذلك الاسمفي الاسلام واستحقه بعمله ، وقال في تبجح ظاهر للنبي عليه السلام : « ألمأنهك يا محمد عن الصلاة هنا ، فلم يلتفت اليه النبي عليه الصلاة والسلام،لانه يعلم أن أدب الاسلام أنه اذا مر باللغو مر كريما ، ولم يلتفت ٠

وكان المسلمون الأولون لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من الرسول دينهم ، بل كانوا يجتمعون خفية فيدار الأرقم بن أبي الأرقم ، قالو انه يجتمع في هذا البيت الطاهر نحوتسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر رضي الله تبارك وتعالى عليهوليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط ، فقد كان ثمة عبيدآمنوا ، وكانوا في مهنة مالكي رقابهم ، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليملفتن عن دينه ، ويكره على الخروج منه ٠

ومن المؤمنين من كان يؤمن ، ويخفيايمانه عن أهله : أبيه وأمه وأخيه فرارا بدينه من أن يفتن بملام أو تعذيب فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل في الاسلام ، يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر ، ثم ينتقل الامر من اللوم الى التعذيب ، ان استرسلوافي غوايتهم ، ولم يكن ما يمنعهم من رحم شفيقة ، أو قوة عزيمة ممن منحهالله تعالى الايمان ، واعتصم ببرد اليقين٠

ولم يكن المسلمون يجهرون بقراءةالقرآن خوف الأذى الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت دعوتهوتبليغ رسالة ربه توجبان عليه أن يجهر مهما يكن الأذى الذي ينزل به ٠ فان اللهتعالى عاصمه من الناس ، وما كانت قريش تستطيع دفعه ، بل انهم كانوايتناهون فيما بينهم ألا يسمعوه ،ولكنهم

يذهبون خفية ليسمعوه ، يذهب كـــل واحد مختفيا عن جماعته ، ثم يلتقـون في الاستماع اليه ، وقد تناهوا ، ولكن كل واحد خالف ما اتفق عليه معهـم ، ويحسب أنه المخالف وحده ، واذا هـــم جميعا مختلفون ، واذا هـــم جميعـا ناقضون لما اتفقوا .

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن بعد النبي عليه الصلاة والسلام، فيما يروي ابن اسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن بعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعونه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا أسمعهم ، قالوا انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجـلا له عشـــيرة يمنعونه من العدم اذا أرادوه . فقـال دعوني ، فان الله تعالى سيمنعني ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها ، حتى قام عنـــد المقام ثم قرأ رافعا صوته :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾(١)

ثم استقبلها يقـــرؤها . قال فتاملوه فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد ، ثم قالوا انه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليـه ، فجعلوا يضربونه في وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منهـــا ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له هذا الذي خشينا عليك ، فقال ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأعودنهم بمثلها غدا ، قـــالوا حسبك حسبك قد أسمعتهم ما يكـــرهون .

خـــلاصـــة القـــول :

٢٣٩ ـ وان هـذا كله يدل على ثلاثة أمور :

أولها : الاستخفاء بالعبادة الا ما كان من أمر النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فقد كان حريصا على أن يجهـر بصلاته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وأن

(١) الرحمن

يجهر بالقرآن ما وسعه ذلك ، غـــير ممتنع ، ولا متردد ، لان الامر جاء اليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهـــر أن المشركين ، وان كانوا يتضايقـــون من ذلك ، لم يكونوا يمنعونه ، وان حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعـــون ، فكانوا يمدون الى الاستهـــزاء به آناوايذائه آنا ، والاعراض عنه دائمـــا ، وفي كل وقت ، لانهـــم قـــد جعلوا في قلوبهم وقرا ، فلا يستمعون وقد كـــان المشركون يشتدون فى أذاهم ٠

الامر الثانى : أن الاذى الذي كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينهنه من عزمهم ، ولم يضعف أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر في قراءته، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ماشاء الله تعالى أن يبلغه ، غير ملق اهتماما الى ضربهم ٠

وان حال الايذاء في أثناء قراءته يصور حال المؤمنين مع ايذاء الكافرين، ومع الايمان استمـــروا في الايذاء ،واستمر الاسلام في ازدياد ٠

الامر الثالث:أن المشركين كانوا يسمعون القرآن من النبي ويتميز غيظهـــم ، وان كان الغيظ ثابتا ، اذ يتبعه ايذاء أحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عنـــدما يسمعونه من غيره ، لأنهم بذلك يعلمون سريان الدعوة ، وزيادة الأتباع حينـــا بعد حين ، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن ، بل انه منه ، ومن نمـــو عدد المستجيبين ، فالأمر اذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية، وينذر أعداءه بالعاقبة المريرة ٠

# إسلام حمزة

٢٤٠ ـ ويلاحظ أن الأذى لم يمنع الاستجابة للدعوة ، بل زيادتها ، ومن المؤمنين الذي كان لهم في الاسلام قدم ثابتة من كان الايذاء هو السبب الواضح في اسلامهم .

ولنذكر في هذا المقام اسلام حمزة بن عبد المطلب ، ولنذكر قصته كاملة كما رواها ابن اسحاق :

قال ابن اسحاق : « حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أباجهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك .. فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالبيت ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الاوقف ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ( التي سمعت سب أبي جهل ) قالت له يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالسا ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة . فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد عامدا لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك علي ان استطعت ، فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أباجهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فاني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٢

وفيما ذكره ابن اسحاق هنا ما يوهم بأنه أعلن اسلامه،وكان ذلك الاعلان هو دخوله في الايمان ، ولكن ذكر في البداية عن ابن اسحاق أيضا أن حمزة اذا أعلن ذلك أنه اتبع محمد بن عبد الله عليه السلام ما كان ينطق بها الا عن حمية العصبية ، ولكنه فكر بعد ذلك في مخرج منها ، أو سير في طـــريق الايمان ، ولننقل لك حديثه في نفسه كما جاء على لسانه ، وكمـــا نقل ابن اسحاق :

« أقبل حمزة على نفسه ، وقال ماصنعت ، اللهم ان كان خيرا ، فاجعـل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لي مماوقعت فيه مخرجا • فبات بليلة لم يبت بمثلها من وســوسة الشيطان ، حتى أصبح ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا ابن أخي ، اني قـــدوقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلي على مالا أدري ما هـــو !!أرشد أم هو غي شديد ، فحـــدثني حديثا ، فقـــد اشتهيت يا بن أخي أن تحدثني ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره ووعظه ، وخوفه وبشره،فألقى الله تعالى في قلبه الايمان بمـا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال : أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخي دينك ، فوالك ما أحب أن لي ماأظلته السماء واني على ديني الاول ، فكان حمزة ممن أعز به الدين • وروى البيهقي مثل ذلك » (١) •

ويظهر من هذا الكلام ، وما قبله أن حمزة رضي الله تبارك وتعالى عنه كانت له نزعة دينية كانت على الباطـــل ، ثم كانت على الحق • كان في الجاهلية ، اذا جاء من صيده وقنصه لا يغشى ناديا الااذا طاف بالبيت ، والمتدين في طبعـــه اذ رأى وضح الحق سار فيه ولصـــدق ادراكه عندما أعلن الاسلام في غضبة عنيفة قوية ، أراد أن يمعن النظر فيماعرض له من حال ؟ أيخـــرج منهـــا ، وما السبيل أم يمضي ، فاعترته حيرة،كانت هادية موجهة ، اذ هـــداه الله تعالى الى الاسلام •

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣٣

# إسلام عمر

٢٤١ ـ كان الاسلام ينمو ويزيد، واذا كان قد ابتدأ بالضعفاء ، وقل فيه الكبراء فقد أخذ عدد الأقوياء يكبر، وان كان العدد في ذاته ، لا يزال قليلا ، قد دخل أقوياء ، يرفعون العبءقليلا عن الضعفاء ٠

دخل أولا حمزة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام يضرب أبو جهل فوق رأسه حتى يشج ، ويثور له بعض قبيله ،فيتصدى لهم رجل قوي الشكيمة عزيز الجانب ، حتى يتعلم أبو جهل الحكمة ساعة من زمان ، فيدعوهم الى أن يتركوا حمزة ، ولعله دعاهم الى أن يقواأنفسهم شر ضربات حمزة ٠

لم يذكر كتّاب السيرة تاريخ اسلام حمزة ، وان ادعى بعضهم أنه كان قريبا من اسلام عمر أي أن اسلام عمركان بعده بقليل ، واسلام عمر كان في السنة السادسة من البعثة لانه كان بعد الهجرة الى الحبشة ٠ وان كتّاب السيرة كانوا يعنون بذكر الوقائع بروايات صحيحة ، وان كانوا لا يذكرون تاريخها الا اذا اقترنت بواقعة مشهورة،كما اقترنت واقعة خروج المؤمنين هاربين بدينهم الى الحبشة بايمان عمر بن الخطاب ٠

كان عمر فاروق الاسلام شديدا على المسلمين قبل اسلامه ، لا يجد سبيلا لايذائهم الا سلكه ، ولكنه في طبيعته ادراك صحيح ان ضل يرشده ، وفيه طبع رحيم ، ان قسا فظهر الالم يؤذيه ذلك كما يؤذي من نزل به ٠

ولعل أقوى حادثة هزته ، أنه رأى المؤمنين يهاجرون فرارا بدينهم من ايذائه هو وأشباهه ، فلفتته هذه الهجرة عما كان فيه من غي ، وما عليه المؤمنون من رشاد ٠

روى ابن اسحاق عن بعض اللاتي أخذن الأهبة للهجرة وهي أم عبد الله ابن خثمة أنه رآها عمر بن الخطاب ،فسألها عن مخرجها ٠ فقال آسفا : « انه للانطلاق يا أم عبد الله ٠ قالت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا ،

وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا · فقال صحبكم الله » قالت ورأيت والله فيه رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أخذنا فيما رأى خروجنا ، فجاء عامر ابنها ، فقالت له : لو رأيت عمرا آنفاورقته ، وحزنه علينا ، قال أطمعت في اسلامه قلت نعم ، قال لا يسلم الا اذاأسلم حمار الخطاب ، وما قال ذلك الا يأسا لما كان يرى من غلظته ·

ومن هذا يستفاد أن عمر رضي الله عنه كلما رأى فريقا من قومه يخرج فارا بدينه من ظلمهم يناله ألم ، والعدالةفي طبعه ، وان كان التعصب لما عليه آباؤه وأجداده في جنب منه ·

ويظهر أن ذلك الألم من خروج بعضقومه مقهورين لم يمنعه من انزال بعض الأذى لمن يعلم اسلامه من أهل بيتهوذوي قرابته ، ولقد هزته أخرى ففتحت قلبه للاسلام ؟

وخلاصته أن فاطمة بنت الخطاب أخته قد أسلمت هي وزوجها ، وأخفيا اسلامهما خشية بطشه ، وبطش ذويقرباهما ، وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله ، وكان ثلاثتهم يستخفون ،ويتلون القرآن في منزل سعيد بن زيد زوج فاطمة ، وكان خباب بن الأرتيجيء اليها ويقرئها القرآن ، فخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه ، وهم قريب من أربعين ما بين رجالونساء ، فلقيه بعض قريش ، فقال له أين تريد يا عمر ، فقال له : أريدمحمدا هذا الصابيء الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ،وسب آلهتها فأقتله ، فقال له والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترىبني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم · قال وأي أهل بيتي ، ختنك وابن عمك سعيد بن زيدبن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله تابعا محمدا على دينه ،فعليك بهما ·

ولا تناقض بين هذين خبر أم عبد الله ، لانه عندما رق للذين يهاجرون لم يكن رقه رغبة للاسلام ، ولكن كان المالفراق قومه ، وسولت له نفسه غير المؤمنة ، بأن محمدا سبب ذلك الفراق ،وكان يتنازعه حال من الايمان ، ووسوسة من الكفر ·

ذهب عمر الى أخته ، وكان يستخفي في بيتها ثلاثة صاحبها الذي آمن زوجها ، وخباب يعلم الجميع القرآن ،ومعه صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التي سمعت ؟ قالا له ما سمعت شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها • فضربها ، فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك ،فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لاخته أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان عمر كاتبا • فلما قال ذلك قالت له أخته : انا نخشاك عليها !! قال لا تخافي ، وحلف بآلهته ليردنها اذا قرأها • فلما قال ذلك طمعت أخته في اسلامه ، فقالت له يا أخي انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا الطاهر ،فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له يا عمر،والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام،أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر• فقال عمر عند ذلك : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم • فقال له خباب هو في بيت عند الصفا في نفر من أصحابه •

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم ذهب عمر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه معه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحا سيفه ، فرجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع • فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف •

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا بن الخطاب، فوالله ما أرى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله . فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

وانك لترى أن عمر بن الخطاب جاء اسلامه من نبع قلب يؤمن بالعدل ، ويؤمن بالرحم ، وان كان قد غشاهما غشاء من مألوف الجاهلية وما كان عليه قومه ، دفعته عصبيته قبل أن يدرك الاسلام لان يناوىء محمد بن عبد الله ، اذ أنه توهم أن ذلك يفرق كلمتهم ، ويذهب بمكانتهم عند العرب ، وهو في هذا مخطىء ، فتفرق يسبب نور الحق بين مؤمن وكافر خير من اجماع على باطل ، وذلك ما خفي على عمر ابتداء ، وأشفق على الذين يخرجون من أرضهم من قومه ، ثم كان التنبيه للقارع عندما رأى الدم يسيل من أخته ، فزالت عنه الغشاوة ، فكان عمر الشفيق العادل المدرك اذ أزال الله تعالى عنه غشاوة الباطل .

# بين عهدين

٢٤٢ ـ كان اسلام حمزة ، ومن بعده عمر ابتداء عهد جديد للاسلام كان المسلمون في الاول مستضعفين يرامون بالسوء ، ولا يدفعون للسيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ،ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما ، ولا مراعاة لحسن جوار ، أو لمودة ، أو لقربى ، بل يسومونهم العذاب ، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا ،وذووا المروءات من المشركين ان تابوا عن الأذى فلأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة في ايذاء عبد أو ضعيف ، أو من لا يملك ردا ٠

ولما أسلم حمزة ابتدأ كبير الأنذال فيهم أبو جهل يحس بالضربات تقمع رأسه ، وبالدم يسيل منه ، فان تخفف له نصراء من قومه خشي من المعركة ، وأن يكون ابتداؤها هذا وهو يخاف نهايتها ، كشأن كل من يكون ناقص المروءة ، يستعدي على الضعفاء ، ويخاف الاقوياء ٠

فلما أسلم عمر ، كانت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالاسلام ٠ واستعلانه بعد استخفائه ، ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين ، بعد أن كانوا فرادى متفرقين ٠

التقى عمر عند اسلامه في بيت الأرقم بن أبي الأرقم في الصفا ، وعدة المسلمين تقارب الأربعين ، فقام عمر رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله علام تخفي ديننا ونحن على الحق ، ويظهرون دينهم ، وهم على الباطل ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انّا قليل قد رأيت ما لقينا ٠

قال عمر ، والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه أنادي بالكفر، الا أظهرت فيه الايمان ، ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم مر بقريش ، وهي تنتظره، وقد تسامعوا باسلامه ، فقال أبو جهل: يزعم فلان أنك صبوت ، فقال جاهرا ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فوثب

المشركون اليه يريدون أن يصرعوه ،وكان على رأسهم عتبة بن ربيعة الذي كان ألباً على المسلمين ، وكان قد صرع أبا بكر وضربه ، حتى أثخنه ، فكانه كان طلبة عمر ، فوثب عمر عليه ،وصرعه ، وبرك عليه كما يبرك البكر الراغي ، وجعل يضربه ، وأدخل اصبعه في عينيه ، فجعل عتبة يصيح ، فتنحى الناس ، فقام عمر عنه ، فاشتفى للمسلمين عامة ولأبي بكر خاصة ·

وكان عمر رضي الله تعالى عنه حفيا بألا يضرب الا أشراف قريش ليعرفوا حرارة الضربات فصك وجوههم صك الجندل ، فما كان في هذه المعركة التي أثارها يدنو منه شريف الا أخذه بالضرب الشديد حتى أعجز الناس ، ثم أتبع المجالس التي كان يجلس فيها ، فيظهر الايمان (١) ، فيلاقونه ، ويذيقهم من اساءاتهم كؤوسا ·

عاد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المسلمون يدعوهم الى أن يظهروا مجتمعين ، وألا يبقوا متفرقين، فتجمعوا وخرجوا ليصلوا في الكعبة مجتمعين ، وساروا على صفين على رأس أحدهما حمزة أسد الله وسيد الشهداء ، وعلى الثاني عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهم ·

وتحدوا بجموعهم قريشا أن تمنعهم ،ولم يجدوا جوابا لهذا التحدي العملي، لأن أبا جهل داعية الشر تذكر قوس حمزة تقمع رأسه ، وتذكر عتبة بن ربيعة صرع عمر ، ووضع أصابعه في عينيه ·

ظهر الاسلام ، فظهر النور ، وسارت الركبان ، بما اعتز به الاسلام ، وانخذل الشرك ، وتحول الاضطهاد من الآحاد الى الجماعات على ما سنبين في الاضطهاد ، الذي نؤجل الكلام فيه ،لانه استمر طول الدعوة في مكة ، وانتهى بالهجرة ·

وأخذ المشركون أن يسلكوا ثلاثة مسالك مع الاضطهاد :

أولها : محاولة استمالة النبي ليمنعوه من الجهر بدعوته ·

وثانيها : مجادلته لاعجازه أو اظهار ضعفه في زعمه ·

وثالثها : الشكوى منه لعمه أبي طالب ·

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣١ ، ٧٩

# محاولة كفه عنهم لاستمالته

٢٤٣ ـ يئس الكفار من النبي عليه السلام ، آذوا أنصاره فثبتوا ، وآذوه وتهكموا به فما نالوا ، وكلما زادوا ايذاءه سرى الايمان في القلوب، فبايذائهم للنبي هدى الله حمزة للايمان فكان ألباً عليهم ، وبسبب ايذاء عمر لختنه ولاخته ، ولرؤيته المؤمنين يهاجرون رق قلبه ، فآمن ، وكان ايمانه كارثة كرث الله تعالى بها الشرك وأهله، فكان القوة الفارقة بين استخفاء المسلمين ، واعلان الاسلام ، والمجاهرة بالعبادة ، واظهار صوت الحق يرن في جوف المسجد الحرام .

واذا كانوا هم يؤذون فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسالم ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يقطع ،ولا يكف عن الدعوة ، بل انه يألم لالمهم، ويواسيهم في أزماتهم .

حتى انه نزل بأهل مكة قحط ، فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بانزال المطر ، فنزل ويظهر أن ذلك كان في الفترة التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام بين أهل مكة بعد وفاة أبي طالب الى أن هاجر ، ولذلك روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن استجابت دعوته ود لو كان أبو طالب حيا ، رجاء ايمانه ، ورجاء أن يعلم أن دينه أي محمدا خير لقومه ، ويروى أن هذا الاستسقاء كان ومحمد عليه السلام بالمدينة ، فقال لو أدرك أبو طالب هذا الاستسقاء ونصره (١) .

ولقد كان من المشركين من يعتريهم ما يفيد قبول ما جاء به محمد ، أو على

---

(١) المذكور في رؤية أبي طالب لاستسقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رآه في حياة عبد المطلب ، روى أن رقية بنت أبي أصفى بن هاشم قالت : « تتابعت على قريش سنون جدب، قد أفحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينا أنا راقدة لِلْهَمّ .. اذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل : يا معشر قريش ان هذا النبي المبعوث منكم ، هذا ابان نجومه فجهلا بالحيا والخصب ، الا فانظروا منكم رجلا طويلا أبيض أشم العرنين .. الا فليحضر هو وولده ، وليدلف اليه من كل بطن رجل .. وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ، وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، فليدع الرجل وليؤمن القوم .. قالت فأضحت مذعورة قد قف جلدي وولهت عقلي واقتصصت رؤياي .. فقالوا =

الاقل عدم المبادرة بتكذيبه والتريث في ذلك ، حتى ينظر أتم دعوته ، وتستجاب ، أم تضعف وترد ·

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ـ أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم · وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ما هو بمجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»(١)·

## لقاء أهل مكة به صلى الله عليه وسلم لاستمالته :

٢٤٤ ـ عن جابر بن عبد الله فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا فيما بينهم ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فندبوه لذلك ، وقالوا له أنت يا أبا الوليد ، وكان بينهم سيدا حليما، ويروى أنه هو الذي عرض عليهم أن يذهب للقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لهم : يا معشر قريش : ألا أقوم الى هذا الرجل ، فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، ويكف عنا :

قالوا : بلى يا أبا الوليد ·

وسواء أكان هو الذي انتدب لهذا أم ندبوه فقد ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعرض عليه ما يظنه كافلا له عن متابعة الدعوة الى الحق ·

---

= هو شيبه الحمد : وعبد المطلب ، فتتابعت عنده قريش ، وانفض اليه الناس من كل بطن رجل فمسوا واستلموا وطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدقون حوله ما ان يدرك سعيهم · مهلة ، حتى قروا بذروة الجبل ، واستكفوا جنابيه فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ، ثم قال : « اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسؤول غير مبخل وهذه عبادك وإماؤك ·· يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن عليهم غيثا مغدقا ، فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى بشجيجه ، هذا ما جاء فى الروض والأنف ، والله أعلم بصدق الرواية ·

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٩

قال عتبة : يا بن أخي ، انك منـاحيث قد علمت من الشطر في العشيرة، والمكان في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت جماعتهـم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ·

قال ربيعة :يا بن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ·

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا، حتى لانقطع أمرا دونك ·

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ·

وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يتداوى منه ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن فرغ عتبة : « أفرغت يا أبا الوليد ، قال نعم » ·

قال رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم «اسمع مني » · قال أفعل ، فتـلا رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ (١)

ومضى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم يقرؤها مرتلا تاليا ·

لما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليها ليسمـع منها ، حتى انتهى رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم الى آية السجـدة في السورة ، فسجدها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت · قال الرسول فأنت وذاك ·

ثم قام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغـير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلسوا اليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ·

---

(١) فصلت

قال عتبة : ورائي أني والله قـــد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله : ما هو بالشعر ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها لي : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه ،فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ،وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا غير مجيبين نصيحته : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه •

قال الناصح ، وكان في ذلك الوقت أمينا في نصحه : « هذا رأيي ، فاصنعوا ما بدالكم » (١) •

## محـــاولاتهـــم مع رسـول الله صـــلى الله عليـه وسـلم :

٢٤٥ ــ أعجزهم الايذاء المستمر عن أن يحولوا محمدا وأصحـــابه عن الايمان ، بل ان التعذيب الشديد ، والايلام المستمر كان يزيد المؤمنين ايمانا، واستمساكا بما يعتقدون ، وترتب على الايذاء أن آمن مثل حمزة وعمر كمـا ذكرنا ، وأخذ المؤمنون يردون الايذاء بمثله ، فعرف أبو جهل كيف يكون شج الرأس من القوي العادل لمثله الفاجر ،وأعلمهم عمر رضي الله عنه القـوي ، كيف يكون الضرب للشرير العصي •

أخذوا يجربون من ذلك طريق العلاج باللين ، وعـــرض ما يحسبون أنه يقرب النبي اليهم من غير أن يتقـربوا هم من الايمان عـرضوا عليهم ما يلين أمثالهم ، وما هو منطقهم ، عرّضوا عليه الشرف فيهـــم ليكون السيد المطاع ، وعرضـــوا عليه الملك ليكون ملكهم ،وعرضوا عليه الاموال ليكون أكثرهـم مالا ، فلما رفض كل هذا ، ولا يحسبون أن يرفضه الا من يكون قد انف عقله ، وذلك بمنطقهم المادي الذي لا يحسبون العلو فيه الا بالمال والسيادة والملك ، عرضوا عليه أن يعرضـــوه على نطس الاطباء ليعالجوه ولكنه بدل أن يجيب بلا أو نعم ، تلا عليهم القرآن ليعلموا أن ما عنده خير مما يقدمون ، بل لا يعد ما يقدمونه شيئا مذكورا بجوار ماعنده وهو خير أبقى •

ضاقوا ذرعا بمحمد وأتباعه ، وزيادتهم آنا بعد آن ، عالجوه بالاضطهـاد فما أجدى ، وعالجـوه برشـوة المال والسيادة فما أجدى فماذا هم صانعون ، لم يبق الا أن يدخلوا معه في جدل ليبين عجزه أمام الناس ، فلا يزيد أتباعه •

(١) البداية والنهاية ابن كثير جـ ٣ ص ٦٤

# جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٤٦ ـ أعادوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عرض ما عرضه عتبة، ولكنهم في هذه المرة يعرضونه مجتمعين توثيقا لارادتهم ، ورغبة فى الاعذار ثم يجادلونه بعض الرفض ٠

اجتمع الملأ من المعاندين له عليه السلام من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ٠

فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ٠

فجاءهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ٠

قالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الاحلام ، وشتمت الآلهة ،وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت،انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاوان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وان كنت تريد ملكاملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن ، فربما كان ذلك،بذلنا أموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « مابي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئت أطلب أموالكم ، والشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله اليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ،وأمرني أن أكون لكم بشيرا ، ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ،فان تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو

حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوا علي،أصبر لامر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم ٠

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا ، فأسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ،فان فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا ، كما تقول ٠

مؤدى هذا الكلام أنهم يطلبون آيات أخرى ، والله عليم بالقلوب فقد جاء عيسى لأمثالهم بما هو أشد من ذلك ، من احياء الموتى وابراء الأكمه ، والله سبحانه هو الذي يختار بيناته وهو أعلم بما يؤيد رسالته ٠

قال لهم رسول الله رادا عليهم قولهم، وما بهذا بعثت ، انما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم ٠

قالوا فان لم تفعل هذا فخذ لنفسك ،فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي، فانك تقوم في الاسواق ، وتلتمس المعايش ، كما نلتمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم ٠

قال لهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ،ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ما جئتكم فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيننا ٠

قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء ، كما زعمت أن ربك ان شاء فعل ، فانا لا نؤمن بك الا أن تفعل ٠

قال لهم الرسول الصادق الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك الى ربي أن شاء فعل بكم ذلك ٠

قالوا يا محمد ما علم ربك أننا سنجلس معك ونسالك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم اليك ،ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذا لم نقبل ما جئتنا به ، فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، واناوالله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا ، حتى نهلكك أو تهلكنا ٠

وقال قائل منهم نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله ، وقال قائل منهم : « لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا » ٠

تقاولوا طالبين آيات حسية ، ومستعجلين العذاب ، ثم قال عبد الله بن ابي أمية بن المغيرة بن عمة عاتكة بنت عبد المطلب « يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله ، ثم سألوك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب ، فوالله لا أؤمن لك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى منه وأنا أنظر ، حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك » (١) ٠

## خلاصة مطالبهم منه صلى الله عليه وسلم :

٢٤٧ ــ طلبوا ما طلبوا لا ليؤمنوا ، ولكن ليحرجوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليعلنوا قوة جدالهم ، وهم قوم خصمون كما قال الله تعالى ولعل الذي يفضح حقيقة نياتهم قول الهاشمي ابن عاتكة بنت عبد المطلب : « وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك» فكأنه يصرح بأن التكذيب سابق للدليل، وانه راكز في النفوس لا يخرج منها ،حتى بعد تلك الآيات التي طلبوها ،فلو

---

(١) راجع ابن جرير فى تفسير سورة الاسراء وابن كثير كذلك وراجع سيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير

استجيبت ما زادوا الا اعناتا ، وكانواكما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

ومطالبهم التي قدمت كانت للتعنت لا طلبا للدليل ، فان ما جاء به محمد حق واضح في ذاته ، تبعه مؤمنون لما فيه من الحق ، وقد صحبه الدليل الذي يثبت أنه من عند الله قرآنا غير ذي عوج يهدي الضال ، ويرشد الساري في الظلام ، وهو المصباح المزهر ، الذي يعجز العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثله :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

وخلاصة هذه المطالب أنهم :

١ ــ يطلبون أدلة مادية ، طلبوا منه أن يوسع عليهم أرضهم ، وأن يبعث أمواتهم .

٢ ــ وطلبوا أن يبعث لهم ملكا يشهد لنبوته .

٣ ــ وطلبوا منه أن يجعل أرضهم القاحلة جنات ، وفيها كنوز ، وفيها قصور من ذهب وفضة ، واتهموه كذبا بأنه يعلمه رجل من اليمامة .

٤ ــ وطلبوا أن يسقط عليهم من السماء كسفا .

٥ ــ وطلبوا منه أن يحضر سلما يرقى فيه الى السماء ، وأن ينزل ومعه كتاب في قرطاس .

طلبوا ذلك لا ليؤمنوا ولكن ليحرجوه عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا طلاب ايمان ما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء ، لان ذلك يبيدهم ، ولا ايمان بعد هذا الانزال .

---

(١) الانعام (٢) الاسراء

ولقد كان صادقا عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بعد أن طلب ما طلب أنه لم يعد بالايمان ان جاء بما طلب ، بل ختم القول بأنه لا يظن أنه سيصدق ان جاء .

وان النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلب الى الله تعالى أن يجيبهم فيما طلبوا ، بل رد طلبهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم ان أجيبوا ولم يؤمنوا ، فالهلاك كما هلكت عاد وثمود ، والنبي عليه الصلاة والسلام يعلم أن شريعته باقية خالدة ، وأن لها معجزة خالدة باقية بخلودها ، فلا تناسبها معجزة تحدث ثم تنتهي .

وقد حدثوا أنهم لما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام تلك الاسئلة وطلبوا تلك المطالب أوحي « ان شئت أن تستأني بهم وان شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فان كذبوا هلكوا كما أهلكنا من قبلهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :«بل أستأني بهم » .

ولقد روي أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن لك ، قال عليه الصلاة والسلام وتفعلون ذلك ، قالوا نعم ، فدعا ، فأتى جبريل فقال :« ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهبا ،فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة قال الرؤوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه بل التوبة والرحمة » .

وان مطالبهم والرد عليها قد سجلها القرآن الكريم فقد قال تعالى وهو أصدق القائلين :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

(١) الاسراء

وقد أشار سبحانه وتعالى الى هـذه المطالب في آيات اخر ، وبين انهـم لو جاءتهم لا يؤمنون ، فقال تعالت كلماته:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ * وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (١)

طلبوا كل هذا لا ليؤمنوا ، فقد سبق القول بالكفر ، واذا سبق الاعتقـاد الباطل في أمر ، فان كل الاتجاهـات لاثبات هذا البطلان ، بالسلب اذا لم يات لهم الدليل الذي يريدونه ، وبالايجاب بالانكار وعدم الاقـرار ، فان التمنت لا تزيده قوة الدليل الا اصرارا ،وكثرة الأدلة الا لجاجة في الانكار .

وان الله تعالى قد اختار لهم القرآن دليلا ، ليعطيهم فرصة للتفكير ، وهـو يخاطبهم في آن الدعوة ، وقـد تتولد التوبة والغفران . أما الأدلة الحسيـة ، فانها تجيء دفعة ، فاما العقـاب واما الايمان ، وفي الماضي عبرة فما جاءت آية من نوع ما يطلبون الا كانت النتيجة هلاكا ولم تكن اذعانا ، لانهـم ما كانوا ليذعنوا بالحق ، بل قد سبق الـكذب ،وقد قال تعالى يشير الى ذلك :

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (٢)

---

(١) الأنعام (٢) الاسراء

بغيتهم وفشلهم :

٢٤٨ ـ ما كانت هذه الاسئلة ، الا لاظهار النبي عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، واذا ظهر عجزه في زعمهم اتخذوا من ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه ، وللوقوف ضد ينبوع الايمان الذي يسري ، ولا ينقطع ، ولكن هل تحقق ما أرادوا ، لقد ثبت بذلك صدقه ،وأنه لا يريد الا الحق ،والاتباع يزيدون ولا ينقصون ولا يرتد أحد ،بل يزدادون ايمانا ، وانهم يحيلون موضع الجدل آيات ، والقضية توحيد أو تعدد ، فهل يجادلون في الله ، وهو شديد المحال ٠

# الاستعانة بأهل الكتاب

٢٤٩ ـ سبق المشركون الى الانكار ، فكذبوا بالحق لما جاءهم ، وسدوا مداخل الايمان الى قلوبهم ، والناس رجلان رجل يدرك الحق بعقله وقلبه فيدركه بمجرد سماعه ، وهذا يطلب الدليل ليطمئن قلبه ، وليزداد ايمانا ، فالدليل لا ينشيء الايمان في قلبه ولكنه يزيده تثبيتا « هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

وآخر يسارع الى الكفر ، ويسابق بالانكار ، فيكون قلبه أغلف قد سدت مداخل الايمان ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

وأولئك لا يطلبون الدليل ليسيروافي نوره ، بل يطلبونه ليعجزوا من يخاصمهم ، وينحرف بهم القول ، وانظرما قاله تعالى في شأن عناة المشركين الذين كانوا يقاومون النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو يقول تعالت كلماته :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

أحس المشركون بعد المطالب التي قدموها أن أحدا لم يفقد الثقة بمحمد ، بل كانت دليلا على حمقهم ، وانهوائهم في هاوية من التفكير ليس معها رشاد اذ كيف الدليل الذي لو نفذ لماتوا قبل أن يستجيبوا ، كانزال مطر من حجارة أو عذاب أليم .

(١) التوبة (٢) البقرة (٣) الانفال

عجزوا عن الاستدلال الذي كشف جهالتهم ، تعمدوا الى الاستدلال الاضافي بالاستعانة بأهل الكتاب عساهم أن يعينوهم ، على وقف التيار العذب الذي يدخل به الناس في الايمان .

## بعث قريش لأحبار اليهود :

٢٥٠ ـ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة فقالوا سلوهم عن محمد ، بعد ان وصفا لهم صفته ، واخبراهم بقوله : انهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

خرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول . فروا فيه رأيكم :

( أ ) سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب .

( ب ) وسلوه عن رجل طواف : طاف مشارق الارض ومغاربها ما كان نبؤه .

( جـ ) وسلوه عن الروح ما هي .

فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، وان لم يخبركم ، فانه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فاقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا :

يامعشر قريش قد جئناكم بما يفصل ما بينكم وبين محمد : قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها فجاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألوه عما أمر أحبار يهود .

ويظهر أنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيردهم بتكرار دعوة الحق لهم كما فعل أول الامر . ولكن خاب ظنهم . فقد أمهلهم ، ولم يردهم ، لان ذلك مما يمكن أن تشمل معجزته الكبرى ، وهي القرآن ، ولذا

وعدهم بالاجابة ان أجلوه ، لانه يتكلم من عند الله ، فلا علم له الا من عند الله العلي القدير • فقال لهم : أخبركم غدا بما سألتم عنه ، ولم يستثن أي لم يعلق الاجابة على مشيئة الله تعالى •

انصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لا يحدث له في ذلك وحي ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا فيها بشيء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة • ثم جاء جبريل •

لماذا تأخر الوحي هذه المدة ، ونجيب عن ذلك بجوابين :

أولهما ـ أنه لم يستثن عندما قرر أنه سيجيب غدا ، فلم يقل ان شاء الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (١)

وثانيهما ـ أن مجيء الاجابة بعد طول انتظارها ، وارجافهم نحوها ، واشاعتهم عجز محمد عليه الصلاة والسلام عن الاجابة ، تكون للاجابة فائدة أنها تكون أوقع ، اذ تكون في وقت الحاجة اليها ، فيكون فيها فضل تمكين في النفس ، ويكون التحدي أشد تثبيتا في النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم في نحرهم ، اذ يكونون قد تقاولوا في ذلك ، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا بين يديه عجز محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيكون دعوة لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام •

وفوق ما تقدم في الامرين ان التأخير يدل على أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يأتي بهذا الكتاب من عنده ، انما يأتيه عن الله تعالى علام الغيوب الذي يعلم ما خلق وهو السميع البصير •

٢٥١ ـ أجيبوا عن الاسئلة الثلاثة ـ أجيبوا عن السؤال الاول بأن أولئك الفتية هم أهل الكهف الذين ذكروا في السورة التي سميت بأسمائهم ـ

---

(١) الكهف

ولنقل جزءا من هذه السورة ، فقـــد قال تعالت كلماته :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

هذه اجابة السؤال الاول ، وهـــو شطر من سورة الكهف ، وتلاوته تسمعهم القرآن ، واسماعهم القرآن في ذاته دعوة الى الحق ، والى صراط مستقيم ، وبتلاوته يدركون معنى الاعجاز .

---

(١) ، (٢) الكهف

وأما الاجابة عن السؤال الثاني ، وهو الرجل الطواف ، فقد جاءت في آخر سورة الكهف ، اذ يقول تعالت كلماته :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (١)

الى آخر القصة التي تختم بقوله تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢)

وكانت الاجابة عن السؤال الثالث في سورة الاسراء بقوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣)

جاءت الردود آيات تتلى ويسمعها كل الذين أرجفوا بعجز محمد في تحديهم ، فقرؤوها ، أو سمعوها ، فكانت تتلى فيهم في ضمن ما يتلوه النبي عليهم ، ولا شك أن لذلك أثرا قويا فيهم . وفيمن علم أمر المحاجة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي مقدمه ما سرى فيهم من روح القرآن ودلائل اعجازه ، فهل آمنوا ؟ من المؤكد أن المؤمنين زادوا ايمانا من بعد ذلك .

---

(١) ، (٢) الكهف (٣) الاسراء

# إستماعهم القرآن

٢٥٢ ـ عندما ذهب عتبة بن ربيعة يتودد للنبي باسم قريش ، وعرض عليه السيادة فيهم ، أو الملك ، أو المال الوفير ، أو أن يحضروا له طبيبا يعالجه من الرئي ان كان عنده رئي ، فقرأعليه النبي عليه السلام بعد مجاوبة ترد ما يعرضون قوله تعالى :

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ (١)

الى آخر الآيات ، فأتى أصحابه ،فقال لهم « يا قوم أطيعون في هذا الامر اليوم ، واعصوني فيما بعد،فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما، ما سمعت أذناي كلاما مثله ، وما دريت ما أرد عليه » .

كان المشركون حريصين على أن يستمعوا للقرآن بعد أن عرفوا تأثيره ، لا ليؤمنوا ، ولكن ليعرفوه ، وليعدوا العدة ، ولان بعضهم مع عناده ،وجحوده واصراره كان يخاف تهديده وانذاره ،بل كان يخاف مجرد تهديد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبي جهل ( يا أبا الحكم ) « فوالله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيرا » فأخذ التهديد قلبه المتحجر وألانه لحظة من الزمان ، فقال متلطفا مع النبي صلى الله عليه وسلم : « بئسما تعدني يابن أخي من نبوتك » .

ونراه أحسن الخطاب بذكر رابطة وثيقة من القرب في القبيلة ، وذلك مالم يؤلف من قبل .

كان كبراء قريش يجذبهم القرآن لاستماعه ، وان لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة ، فقال « لقريش في وصفه ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر . وان أسفله لمغدق ،وانه ليعلو ، ولا يعلى عليه ما يقول هذا

---

(١) فصلت

بشر » ، ولقد نفى أن يكون شعـــرا ، ودفعته لجاجته في الانكار الى أن يقول انه سحر ، وان لم يرض بذلك الوصف للقرآن ابتداء ·

واذا كان المؤمنون قد جذبهم القرآن ومحبة النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، واخلاصهم ، واشراق قلوبهـم بالايمان ، فالمشركون لعلمهـــم ببليغ القول ، وشغفهم به ، قد شغفهم القرآن، ولكن حالت بينهم وبين الايمان ظلمات اعترت قلوبهم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

ولقد شغفوا بسماع القرآن ، لا فرق بين صغير وكبير ، والصغـــير يؤمن والمتعنت لا يزيده السماع الا كفرا واعناتا ، فان قوة الدليل تملأ قلب المخلص ايمانا ، وقلب الحقود الحسود كفرانا ، ولجاجة ، وكلما لج في عناده زاد بغضا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وســـلم ودعوته ، والمستجيبين لها ·

## استماع المشركين للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٢٥٣ ــ ولقد روى ابن اسحـــاق عن ابن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهـل عمرو بن هشـــام والاخنس بن شريق ابن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجـوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صـــاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكـــم بعض سفهائكم ، لاوقعتم في نفســـه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طـــلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقـال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا كان الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهـــم لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ·

---

(١) البقرة

وقد تعاهدوا على ذلك ، وقد قال الله فيهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

وكانوا بعد سماع القرآن يتذاكرون فيما بينهم ما سمعوا ، فقد سأل الأخنس ابن شريق الثقفي أبا سفيان عن رأيه فيما سمع ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يرادبها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها • وقال الأخنس ، وأناكذلك وذهب الأخنس من عند أبي سفيان، وأتى أبا جهل فقال يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال ماذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمن ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن أبدا ، ولا نصدقه وقد نقلناذلك الجزء من قول أبي جهل •

٢٥٤ ـ والمقصود من ذلك الخبرأنهم كانوا ينجذبون نحو سماع القرآن، كما يتجه الى السماع والتلاوة المؤمنون بيد أن الفرق بينهما ، كالفرق بين من يستمع طالبا الحق مذعنا له ، ومن يطلب غير الحق ، ولكن يجذبه اليه حلاوته وطلاوته •

ولذلك ما كانوا يؤمنون ، وكان الله تعالى مقلب القلوب جذبهم اليه ليعرفوا البينات ، والأدلة القائمة ، ليهتدوا فان كفروا من بعد ذلك فمن بينة وسماع ، ومعرفة بالدليل ، ثم الاعراض •

وقد كان الاعراض شأن من كتب عليهم الضلال ، ولا معذرة لهم لانهم اشتروا الضلالة • ورغبوا عن الهداية، ومع أنهم كانوا يتهافتون على سماعه في جنح الليل البهيم ، وكلما تواعدوا ألا يفعلوا نكثوا في عهودهم كان النبي عليه الصلاة والسلام اذا تلا عليهم القرآن جهارا ، نهارا ، استهزؤوا ، ولم ينصتوا خشية أن يكثر أتباع النبي عليه الصلاة والسلام ، وكانت دعوته شجا في عيونهم ، وغصة في حلوقهم •

---

(١) فصلت

قال ابن اسحاق كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا تلا عليهم القرآن ودعاهم اليه ، قالوا : يهزؤون قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون .

فحكى الله تعالى عنهم قولهم :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

وهذه الآيات الكريمة مع ما ذكر من حرص عتاة الكفار على سماع القرآن تدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن القرآن كان يجذبهم الى الاستماع اليه ، لما فيه من بلاغة تجذب أهل البيان لاستماعه وتعرف منزلته ، وبهذا يدركون الفرق بين كلامهم وكلامه ، ويذكرون الفرق بين البيان البشري ، وكلام رب العالمين حجة الله تعالى البالغة الى يوم الدين ، واذا كانت الآيات الحسية تبهرهم وتقرع أسماعهم، فيراها أكثرهم بينة ، فكذلك تلك الآية المعنوية تجذب قلوبهم وتسترعي أسماعهم ، فيعلم بها الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، وبذلك تقوم الحجة ، وتقوم البينة ، ولا حجة لهم في الجهل ، ولا في الاعتذار .

---

(١) الاسراء

ثانيها : أنهم مع عدم المطالبة بأن يأتوا بمثله قد أحسوا بالعجز عن أن يأتوا بمثله ، كما رأوا فيه من بيان لا يصلون اليه ، وروعة بلاغة لم يستمعوا اليها ، حتى يقول قائلهم ،وقد استمر على كفره وضلاله : « انه يعلو ولا يعلو عليه ، ما يقول هذا بشر،فهم أذعنوا لبلاغته ، ولم يذعنوا لدعوته ، فاستحبوا الكفر على الايمان،مع قيام الدلائل » .

ثالثها : أن انكارهم سبق الرغبة في طلب الحقيقة ، ومن كان كذلك لايهديه دليل ، ولا تقنعه حجة ، لانه حينئذ لا يطلب حقا ، فلا يحاول أن يتعرف الطريق الذي يتأدى به الى الايمان ،لان من سلك طريقا معوجا غير موصل الى المطلوب للحق ، لا يصل اليه ، وكلما أمعن فيه بعد عن الهداية وكلما أوغل ازداد نكرا ، ومهما يناده رائد الحق لا يستمع اليه ، لانه بعيد عنه ، وان يسمع لا يكون جواب من قلبه .

ومن سلك الطريق المستقيم وصل الى الحق ، لان الامارات والظواهر هادية قائمة ، والطريق المستقيم هو الاخلاص في طلب الحق غير مربد قلبه بهوى أو شهوة ، أو أثرة ماحقة للخير مغلقة على النفس أبوابه .

# الإيـــذاء والفتـــنة

٢٥٥ ـ منذ جاءت الدعوة المحمدية ، وقد حاول أهل العصبية الجاهليـة الذين ينفسون على البيت الهاشمي مكانته ، والذين من دأبهم أن يحســـدوا الناس على ما آتاهم الله ، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات ، وتحـريم الطيبات من الرزق ، وقد حاول كل أولئك مجتمعـــين ومنفردين الوقوف في وجهها،وهي تنمو وتزيد،تسمى قدما ،ولا تتأخر • واذا كان السير بطيئا ، فهو متواصل من غير وناء ولا قصور ،وكلماانبلج نوره واتسعت دائرته ، ظنـــوا أنها دعوة قابلة للانطفاء ، فحـــاولوااطفاءها ، بالحيلة والعرض الذي يشبه الرشوة ، فما أجدى ذلك فتيلا ،وحاولواالاعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهـــم خاسئين وقامت الحجة عليهم ، حـــاولواأن يهوشوا على القـــرآن وهـــو يتلى ، وتعاهدوا أن يلغوا في القرآن والنبي يتلو •

حاولوا كل هذا ، ولم يُجد شيء منه، والاسلام سائر في طـــريقه ، وان كانت العقبات ، فهي لا تعوق السـير ،وان أبطأته ، ولم يجدوا سبيلا الا الى أمرين :

أحدهما : الايذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة ، ولمن آثر السلام والعافية، وهذب قلبه الايمان فاعتقد أن الايمان يوجب عليه الصبر على البـــلاء ، وألا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليهـا ،وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه صديقه أبو بكر ، ومع هؤلاء العبيـــد والفقراء الذين لا يملكون سطـــوة ولاعشيرة لهم •

ثانيهما : الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليـــه الصلاة والسلام وهو أبو طالب ، لانه عمه الذي كفله صغيرا وهو رأس بني هاشم وهو الذي يحميه كبيرا •

فلما لم يُجد واحد من الامرين زادوا في الايذاء وجعلوه جمـاعيا ، ولم يجعلوه آحاديا فقط ، ووجدوا بني هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد عليـــه

السلام يحميه بأنفة العشيرة ، الا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لهبا في جهنم وهو أبو لهب ، فقد كفر بالله ،وكفر بالقرابة ، وكفر بالحمية حمية العشيرة والنصرة ، وأسلم ابن أخيه ،فضل ضلالا بعيدا ٠

## إيذاء الضعفاء :

٢٥٦ ــ قال ابن اسحاق : انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، ممن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يثبت ويعصمه الله تعالى منهم ٠

وقد كان المؤمنون الصادقون يعينون العبيد من المؤمنين الذين سارعوا الى الايمان في أول الدعوة،ويعينون الفقراء ليصابروا الذين يؤذونهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل كل ما كان يملكه من مال هو وزوجه خديجة لهؤلاء الضعفاء ، وابتدأ محمد عليه السلام يخرج من المال والنشب ، لكيلا يحاجزه عن الدعوة حاجز ، وليكون ما عنده عون لأهل الايمان المستضعفين منهم ٠

اذن لقي العبيد أشد المحنة عندما اعتنقوا دين الحرية ٠

## بلال وإخوانه :

٢٥٧ ــ كان من أول الناس اسلاما بلال بن رباح ، كان رقيقا عند أمية بن خلف ، كان يخرجه عند الظهيرة في الحر الشديدة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ٠ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لاتزال على ذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ،وتعبد اللات والعزى ، فيحتمل البلاء على أن يكفر بمحمد ، وأن يعود الى الشرك ، فيقول ملهوفا : أحد ــ أحد ، وتاويلها الله أحد ٠ يلفظها في عجلة لشدة البلاء ، وللمسارعة باثبات الصبر ، وعدم الاستجابة لما يطلبونه ،ولو لاقى أشق البلاء ٠

ولكن ذا المروءة المؤمن مر عليه وهو في هذا العذاب ، فكان له غوثا وهو أبو بكر الصديق ، عتيق النار وممتق أهل الايمان ٠ فقال لأمية : ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين ، حتى متى ؟

قال أمية : أنت الذي أفسدته فانقذه مما ترى ٠

قال الرجل الكريم أبو بكر : أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به ٠

قال أمية : قد قبلت ، وحسب أن صفقته رابحة ، لانه أخذ عبدا قويا هو أملك لعنانه ٠

وأخذ أبو بكر بلالا فرحا بما أعطاه الله تعالى وأعتقه ، وكان مؤذن الاسلام من بعد ٠

وقد أعتق أبو بكر مع بلال ستة آخرين ٠ فكانت المدة سبعة ٠

وهؤلاء الذين مَنَّ الله تعالى عليهم بالحرية فداء لهم من العذاب على يد أبي بكر صديق هذه الأمة ٠

عامر بن فهيرة الذي كان في الجهاد في غزوة بدر وغزوة أحد ، وأم عبيس ، وزنيره والنهدية وبنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لهما وهي تقول : والله لا أعتقكما أبدا ٠ فقال أبو بكر رضي الله عنه حلي ( أي تحللي من يمينك ) ٠

فقالت له حل أنت ، أفسدتهما فأعتقهما ٠

قال : فبكم هما ؟

قالت بكذا وكذا ٠ قال أبو بكر قد أخذتهما ، وهما حرتان ارجعا اليها طحينها ٠

قالتا رضي الله عنهما : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده اليها ؟ قال الصديق : وذلك لكما ان شئتما ٠

ومر بجارية وكان عمر في أيام شركه يعذبها لتترك الاسلام ، فيضربها حتى يمل ٠ فيتركها ملالة لا شفقة ٠ فابتاعها أبو بكر وأعتقها (١) ٠

---

(١) أخبار عتق هؤلاء بعمل الصديق أخذناه من سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

ولما كثر عتقاؤه ومعاونته للضعفاء. قال له أبو قحافة أبوه،وكان لايزال على الشرك يا بني : اني أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ، ويقومون دونك .

قال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت انما أريد ما أريد لله عز وجل .

ويروى انه نزلت فيه هذه الآيات :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾ (١)

## آل ياسر وغيرهم :

٢٥٨ ـ هو بيت أسلم كله ، وآمن بالله تعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق . فرأس الأسرة ياسر، وهو أبو عمار عُذِّب ، وأمه سمية عُذِّبت ، وذهب الفجور بأبي جهل الى أن يضربها برمح في بطنها فماتت . فكانت أول شهيد في الاسلام مات فداء لدينه .

وحمل عمار أشد العذاب ، وقلبه طيبا راضيا ، ولقد مر به النبي عليه الصلاة والسلام وهو يعذب ، فقال صبرا أبا اليقطان . ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بن ياسر .

وكان آل مخزوم يعذبونهم اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، وقد مر النبي عليه السلام بهم ، وهم يعذبون . فقال عليه السلام صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة .

---

(١) الليل

ولقد كانوا أحيانا ينالون منهم حتى يفتنوهم عن دينهم ، فينطقون بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب ، ولقد شددوا العذاب على عمار ، وما تركوه حتى نال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبين له عليه أن لامؤاخذة على من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .

ولقد ذكر سعيد بن جبير أنه سأل عبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعذرون به في ترك دينهم قال : نعم انهم كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . وحتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله . فيقول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم .

ويقول ابن كثير : وفي مثل هذا أنزل الله تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (١) ﴾

فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ ، أجارنا الله تعالى من ذلك بحوله وقوته (٢) .

## التهديد بالتشنيع :

٢٥٩ ـ تفننوا في الايذاء ، فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذونه بالتعذيب ، والضرب الشديد ، ولقد بلغت النذالة بأبي جهل اللعين

(١) النحل (٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩

ان يضرب امرأة بالرمح في موضـــع عفتها ، حتى ماتت ، من غير أي تحرج من أدب انساني ، أو عروبة نبيلة ، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه ، أو تمنعه ٠

ومن كان له عشيرة أخذوه بالتشنيع عليـــه ، وكان يتولى ذلك أبو جهـــل سفيههم ، وشيخ أراذلهم ، وقـد حكى ابن اسحاق في سيرته ذلك ، فقال :«كان أبو جهل الفاسق الذي يغـري بهم في رجال قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال له تركت دين أبيك ، وهـــو خير منك ، لنسفهن حلمـــك ، ولنفلين رأيـك ،ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال ، والله لتكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ،وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به »(١)٠

ولقد كان الكافرون من كبرائهم اذا أسلم واحد منهم ، لم يمنعوا أمثال أبي جهل من لومهم ٠ وان كانوا يمنعونه وأشباهه من قتلهم ، حتى لا تأخذهم معرة عصبية جاهلية ٠

لقد أسلم رجال ، فأراد بنو مخزوم قبيل أبي جهل ، أن يلومهم على الطريقة التي أشرنا اليها من تسفيه أحـــلامهم ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهـــم وأذنوا ، قالوا انا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحـــدثوا ، فانا نأمن بذلك غيرهم ٠

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حـين أسلم أخوه في النفر الذين أشرنا اليهم ، فقال لهم : هذا لكم فعليكم به فعاتبوه ،واياكم ونفسا ، احذروا على نفســه ، فاقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجلا ، فقالوا في أنفسهم اللهـــم اللعنة ٠ فوالله لو أصـــيب فى أيدينا لقتل أشرفنـــا رجـــلا ، فتركـوه ، ونزعوا عنه (٢) ٠

ومن كان له دين لا يعطـونه ، ويمطلونه اذا أسلم ، بل لا يؤدون الدَّين ومن هؤلاء خباب بن الأرت ، كانـــوا يعذبونه ، وينزلون به الأذى لانه لم يكن ذا عشيرة تحميه ، ومع ذلك كانوا يحاربونه في صناعته ، فـلا يعطـونه أجر ما صنع ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢١
(٢) الكتاب المذكور

روى البخاري عن خباب بن الأرت قال : « كنت رجـــلا قينا (١) فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه ، فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفـــر بمحمد ، حتى تموت ثم تبعث قـــال فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مـــال وولد ٠ فأعطيك ، فأنزل الله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ * وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

## مصـــابرة النـبيّ صَلى الله عليـه وسَـلم :

٢٦٠ ـ كان النبي عليه السلام يلقي في قلوبهـم ببيان أن الايمـــان يوجب تحمل المشاق ، وأن ثواب الآخرة ثمنه من تحمل ما يقتضـيه الحـــق في الدنيا ، وببيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعـد أن يبلو ايمـانهم ويظهر صبرهم ٠

روى البخاري عن خباب بن الأرت أنه قال : « أتيت النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وهو متوسد ببردة وهـوفي ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ٠ فقال » : « قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مـادون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفـرق رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الامـر ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله عز وجل ٠٠ ولكنكـــم تستعجلون » ٠

شكا المؤمنون الى النبي عليه السلام من حر الرمضاء ، واستنصروا فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فلا ايمان من غير صبر ، وكأنه ينبئهم بما

(١) القين الحداد (٢) مريم

أنبأ القرآن من بعد ، وهو أن الجنـــة جزاء الصبر ، وأنه لابد من الابتـــلاء

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١)

هذا ولان النبي لو دعا عليهـــم لاجتثهم الله تعالى من فوق الارض ، وما وجدت للاسلام أحد تحمل دعوة الرسول من بعدهم ، ولذلك كانت اجابة النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبره بأن الله يطبق عليهم الأخشبين ( جبلى مكة ) قال خاتم النبيين عليه الصلاة والســـلام :« اني لارجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى » وقد حقق الله تعالى رجاءه ، فكان منهم من يعبد الله تعـالى بل كان منهم من حمل السيف مجاهدا في سبيل الله ، وكان من أصـــلابهم من حملوا النـــور ، الى مشـــارق الارض ومغاربها •

## الأذى يـنزل بشخص النبيّ صلى الله عليه وسلم :

٢٦١ ــ لقد كان لاذى الضعفاء أنين ، وشكوى ، وسمع النبي عليـــه السلام أنينهم ، فكان له ألما ممضـــا ،وشكـوا اليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة ، وما كان ليكون نبي الرحمـــة اذا لم يذق من الكاس الدهاق من الآلام التي يتجـرعونها ، وما كان ليدعـــو الى المساواة في السراء والضراء ، اذا لم يشاركهم فيهما •

كان بنو هاشم يمنعونه من أن يقتل، ولكنهم ما كانوا ليمنعوه من أن يسفه ويستهزأ به ويؤذى بغير القتل ، بـل كان يتجرأ على ذلك سفهاؤهم من أمثال أبي جهل ، بل من أمثال عمه أبي لهب الذي سلط ابنه اللعين ابن اللعين من أن يتفل في وجه النبي عليه السلام في حضرة كبير البطحاء أبي طالب الـكريم ابن الكريم •

وانه يروي البخاري بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العـاص ، قال : بينما النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم يصلى في حجر الكعبة ، اذ أقبـل

---

(١) البقرة

عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه ، حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ٠

بل ان أبا جهل لعنه الله ليرمي فرث الجذور عليه ، وهو يصلي صلوات الله تعالى وسلامه عليه، والنبي ساجد فتجيء فاطمة الزهراء وهي صغيرة ، فتلقيه عن ظهر أبيها وهي تلمنهم ٠

وان الفجر ليصل بأبي جهل اللعين الى أن يهم بقتل النبي عليه السلام غير عابيء بأن يتحرك بنو هاشم للاخذ بثاره ، وأنه لن ينجو من يد أبي طالب وسيف الله حمزة ، فيجتمعوا في ثاره ، وان تفرقوا في اتباعه في دينه ، ولكنه الحقد الدفين يعمي ويصم ، فلا يفكر الاحمق في مغبة عمله ، ولكن يفكر فقط في شفاء غيظ نفسه الذي لايكظمه ٠

حدث ابن اسحاق بسنده أن أبا جهل شيخ السفهاء من قريش وقف بينهم يقول :

يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم ابائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، واني أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ، فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠ فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ٠ فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل أبو جهل الحبر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ٠٠ وقام اليه رجال من قريش فقالوا ما بك يا أبا الحكم قال : قمت لافعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم أن يأكلني(١) ٠

---

(١) الهامة الرأس والقصرة الرقبة ـ راجع الخبر فى البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٣

وقد روى مثل ذلك البيهقي والامام أحمد ، وان كان ما روي عن أحمد موجزا عن ذلك .

## مهابة محمد عليه الصلاة والسلام :

٢٦٢ ـ هذا بعض ايذاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من المشركين دع استهزاءهم اذا سار أو تكلم ، ودع رميهم له بأنه ساحر ومجنون ، ودع معاندتهم له ، وهو يدعو القبائل الى الاسلام ، فهل كان كل ذلك سببه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن المهيب ، وانه كان الهزيل الذي يجترأ عليه ؟

والجواب عن ذلك أن محمدا عليه السلام كان المهيب في شخصه ، والقوي في ذات نفسه ، والذي آتاه الله تعالى القوة الانسانية الكاملة ، فهو المهوب المحبوب الذي لم يرد أن يكون مرهوبا ، وان أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغرون بالكرماء ، وكان محمد كريما ، ولم يرد أن يكون مخوفا مفزعا ، بل أراد أن يكون أليفا قريبا دانيا ، ليستطيع أن يتالف الناس ولا يرهبهم .

وقد كان عليه السلام يفرض الرهبة في قلوب المشركين ان كان لذلك موضع ، ولنذكر موضعين كانت فيهما مهابة الرسول فاصلة ، قاطعة حاسمة :

أولهما ـ ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : « رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم في ذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاقبل يمشي ، حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها في وجهه ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها فقال لهم : أتسمعون ، معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح ، فاخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنما على

رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرقوه ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول .

ان هذا الذي أفزعهم عزمة محمد ،وقد أخذتهم الدهشة ، وأرعبتهم الهيبة، واذا كانوا بعد ذلك تكاتفوا واعتزموا أن يؤذوه في مكانه هذا ، فان هذا لا يمنع تأثير مهابته فيهم ، وما استطاعوالها ردا الا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، واصرار على مقاومة الهيبة ، ولو أرادها في الثانية لكان أفزع لهم ، وأروع ، ولكنه كان يميل الى اللين دائما .

الثاني ــ ما كان في قصة الاراشي، فقد قدم رجل من اراش بابل له الى مكة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشي ، حتى وقف ينادي في قريش ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس في ناحية المسجد ، فقال الاراشي : « يا معشر قريش من رجل يعديني على أبي الحكم ابن هشام ، فاني غريب وابن سبيل ،وقد غلبني على حقي » .

فقال من بالمجلس من قريش مستهزئين بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ترى ذلك الجالس مشيرين الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما يعلمون من عداوة أبي جهل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذهب اليه فهو يعديك عليه » .

أقبل الاراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فذكر له ذلك ، فقام محمد العظيم معتزما انصاف الغريب ، ولا سلطان معه الا شخصه ، وعون الله تعالى .

فلما رأى المجلس القرشي المشرك قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ماذا يصنع .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاء الى دار أبي جهل ،فطرق الباب طرقة من اعتزم أن يملي ارادته على هذا الطاغوت الفاجر .

قال من هذا ؟ قال محمد ، فاخرج .

خرج اليه وما في وجهه قطرة دم ،وقد انتقع لونه .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعزمة مرهبة لمثل أبي جهل : أعط هذا الرجل حقه .

قال الطاغوت المتخاذل : لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه .

انصرف رسول الله ، وقد أحق الله الحق ، بهيبة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال للاراشي الحق لشانك ، أقبل الاراشي على المجلس الذي وقف يدعو ناديه لينصروه ، فقال عن النبي عليه السلام جزاه الله خيرا فقد أخذت الذي لي .

وقال الرجل الذي أرسلوه مراقبا للواقعة : « رأيت عجبا ، والله ما هو الا ان ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه » .

جاء أبو جهل فقالوا له : « ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال ويحكم ، والله ما ان طرق على بابي ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته وأنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلني .

## لماذا لم يرهبهم بهيبته صلى الله عليه وسلم :

٢٦٣ ـ لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون مقاومة كأبي بكر وعثمان وجعفر ابن أبي طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينالون الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يقاومون بها .

ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة بطش ، ويذيقهم الكأس أكؤسا ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ، لانهم يتوقعون منه المقاومة ، ولا يأمنون مغبتها ، فقد علم ذلك أبو جهل اللئيم بموضعها من رأسه ، ولم ينالوا بالاذى عمر بن الخطاب الذي شوه وجوههم ، وأرغم معاطسهم ، وطاح بهم مجتمعين ، ولم ينالوه بالاذى لذلك ، فقد كانوا يخافونه ويرهبونه .

وما كان محمد عليه السلام دون عمر مهابة ، بل أعلى من ذلك كثيرا ، ولا دون حمزة قوة نفس ، ولا قوة بدن ولكنهم نالوا منه ، فلماذا لم يستخدم مهابته وقوة نفسه وشخصه ، مثل ما أجازه لعمر وعمه حمزة ، اذن لا رعوى مثل أبي جهل في نذالته ، ولكنه لم يفعل ، وتحمل الاذى في سبيل الدعوة ولم يرهب ولم يفزع ، بل رضي بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء .

وان ذلك هو عمل النبوة ، انه عليه السلام ما جاء مسيطرا ، ولكن جاء مبلغا ، وما جاء متحكما • ولكن جاء داعيا مقنعا ، فلو استخدم هيبته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ، ولبدا النفاق في الذين يجيبون دعوته ، وليس الدين بقائم على المنافقين غير المؤمنين •

ان الرسول الامين يريد مؤمنين يدخلون في الاسلام رغبا لا رهبا ، ولا يكون عن خوف أيا كانت صورة الخوف، ان الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاء ليحمله الذين شاهدوا وعاينوا الى الاخلاف من بعده ، لانه دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ، فلا بد أن يحمله مؤمنون لا مجرد تابعين ، ولا يكون ذلك الا اذا كان الايمان القوي الذي يصبر صاحبه ويصابر في حضرة النبي عليه السلام ، وينزل به البلاء في حضرته فيحس عليه السلام بقوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة في مشارق الارض ومغاربها •

ان الذين يدخلون في الاسلام بهيبة النبي عليه الصلاة والسلام سرعان ما يتركونه اذا غاب عنهم ، واعتبر ذلك بحال المؤمنين في المدينة فانه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لاهل الايمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا في الاسلام تابعين غير مؤمنين ايمان الصابر المصابرين •

وكان من المسلمين بالاتباع بالايمان المجاهد الصابر ، وكان منهم الاعراب الذين ساروا مع القوي ، وقال فيهم الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد ، ان الله تعالى أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) النحل

وان ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعا في دعوته متطامنا لمن يخاطبهم ، ليس فظا ولا غليظ القلب ، ولا مرهبا ولا مفزعا .

وان تطامن النبي عليه السلام كما جرأ عليه الاقوياء الذين يؤذون الحق اذا بدا وضحه المبين ، قد قرب اليه الضعفاء وبهم كانت الدعوة الاولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم .

وان تطامن النبي عليه السلام والاعتداء عليه قرب بعض الاقوياء ولم يبعدهم . ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لانهم يرون أن محمدا بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان ليسمح لاحد أن يؤذيه الا لطيب نفسه ، فيكون الايذاء جاذبا للانظار مسترعيا الذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الاحرار ، فيدعوهم ذلك الى التفكير في الذي يدعوا اليه من غير تمييز لهم ، ويكفي ذلك للدخول في الاسلام مناصرا غير محارب ولا مجامل .

من أجل ذلك ولان الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه عليه السلام أن يتأنى للامور بيسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف .

# الهجـــرة إلى الحـبشـة

٢٦٤ ـ عدد الذين اتبعوا محمدا ،وتابعـــوه في الصبر على الاذى يزيد ويكثر ، ولم يقتصر على الضعفاء • بل دخل فيهم أشراف من مـكة ، وبتزايد العدد يتزايد الاضطهاد ويكثر ويتنوع• فمـن ايذاء بالايدى والسيـــاط ، والالقاء في الرمضاء في الحرور ، ومن أفعال لا تصدر الا عن السفهاء الانذال• كما فعل أبو جهل مع النبي عليه السلام وغيره ، ومن استهزاء وسخرية ، ومن منع من العبادة • ويجـــدون في ذوي الكرامات مرتعـــا خصيبا للنيـــل من كراماتهم •

أصبح الايذاء عاما ولا مناص من التخلص منه ، وهم بمكة وما حولها فلابد من الهجرة :

﴿ ﴿ ﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (١)

والى أي أرض يهاجرون •

لابد من أرض تتوافر فيها الحرية ،وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيهـا من قريش ، ولهم مكانة في القبائل ،وتكون تحت سلطان حاكم فيه طيبـــة لا يؤذي ولا يمكن أحدا من الايذاء •حتى يكونوا في بعـد عن الاضطهـــاد واحتماله •

وذلك في أرض الحبشة • فهي بعيدة عن سطـــوة قريش ، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من قبائل ، وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهـر فأشار النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة اليه ، وقال عليه الســلام لاصحـابه وقد رأى البلاء ينزل بهم ، وهو لا يقدر على منعه عنهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » •

---

(١) النساء

كانت أول زمرة من الهجـرة الى الحبشة في السنة الخامسـة من مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولا شك أن الهجرة لها ثمرة أخرىغير دفع الاذى ، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أرهقوا بها عسرا ، وهـذه الثمرة هي التعريف بالاسلام ،وبالمبادىء الاسلامية ، فقد وقف جعفـر بن أبي طالب المتحدث باسـم المهاجـرين أمام النجاشي يبين الحقائق الاسلامية ، ومايدعو اليه دين الوحدانية من صـلة الارحام ، والحث على مكارم الاخـلاق ،وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المفرقة ، وقد نقلنا ذلك من قبل ٠

وهناك ثمرة أخرى أن الهجرة الى الحبشة تعرف النصارى بالاسلام ، وما قاله في عيسى عليه السلام ٠ فهي تزرع الاسلام في أرض غير أرض مـكة وتباينها ، كما أن الهجرة من بعد ذلك الى المدينة كان فيها تعـريف اليهـود بالاسلام ودعوتهم اليه ٠ فأسلم من أسلم وكفر وقاوم وعاند من كفر :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ (١)

وقد هاجروا زمرا ، وكان في أول زمرة عثمان بن عفان ومعه رقيـة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،والتي تزوجها ذو النورين عثمان بن عفـان بعـد أن تركها وأختها ابنا أبي لهب اللعين ، وكانت عدة الزمرة الاولى نحو عشرة من الرجال والنساء ، ثم توالت الهجرة بعد ذلك ٠

ويقول ابن اسحاق « كان جميـع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليهـا من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين »٠

وقد ناقش هذا الرقم ابن كثير ، وانتهى الى أن الشك في كون الزائـد عن الثمانين ثلاثة ، وروي عن الامام أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نبلغ نحوا من ثمانين » (٢) ٠

---

(١) الاسراء

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦٩

٢٦٥ ـ وأبو بكر لم يكن من الذين هاجروا ، ولكن قدر الله تعالى شرف الهجرة في صحبة أكرم خلق الله محمد بن عبد الله ، وذلك أنه كما روى ابن اسحاق والبخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت « حين ضاقت عليه (أبي بكر ) مكة ، وأصابه فيها الاذى ، ورأى تظاهر قريش على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فخرج رضي الله تعالى عنه مهاجرا الى الحبشة ، حتى اذا سار من مكة يوما ـ أو يومين ـ لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث بن أبي بكر ، وهو سيد الاحابيش ، فقال الى أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجني قومي، وآذوني وضيقوا علي • قال ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ،أرجع فانك في جواري • فرجع معه ، حتى اذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش اني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرض له أحد الا بخير ،فكفوا عنه •

أقام أبو بكر في منزله ، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه وكان رقيقا اذا قرأ القرآن استبكى ،فيقف عليه الصبيان ، والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فيمشي رجال قريش الى ابن الدغنة ، فقالوا يابن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، وله هيئة ، ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع ما شاء •

فمشى ابن الدغنة اليه ، فقال يا أبابكر اني لم أجرك لتؤذي قومك ، وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت • قال أبو بكر أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله • قال فاردد علي جواري • قال : قد رددته عليك • فقام ابن الدغنة • فقال يا معشر قريش: « ان ابن أبي قحافة قد رد علي جواري ،فشأنكم بصاحبكم » (١) •

رضي أبو بكر بالبقاء في العذاب أو الايذاء ، وهو يصلي مجاهرا بصلاته أمام داره ، أو في فنائها غير معتمد الا على الله تعالى ، ورضي بأن يكون قريبا من النبي متعرضا لما يتعرض له عليه السلام ، مطمئنا الى الاذى راضيا بذلك الجوار الكريم •

---

(١) روى هذا الخبر البخارى فى صحيحه

## متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء :

٢٦٦ ـ سافر أولئك المهاجرون الى أرض الحبشة فرارا بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والاستهزاء والسخرية ، فوجدوا حاكما طيبا ، أكرم مثواهم ، وتركهم في أرضه أحرارا مطمئنين ، ولقد رق أبو طالب لفراق ابنه جعفر ، وما نزل بالمسلمين من أبناء مكة حتى فروا ، فأرسل الى النجاشي يوصيه بهم .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل اليه كتابا يشير فيه الى البر بهم ويأمر بالاسلام معا ، وهذا نص كتابه عليه السلام كما جاء في رواية البيهقي:

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة » :

سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح (١) الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه .

واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني ، فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاؤوك فأقرهم ، ودع التجبر ، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

هذا كتاب فيه متابعة لامرين :

أولهما ـ أنه يدعو الى الاسلام ،فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والرجل المناسب ، وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق مزدلفا ، لان العادل يستمع الى الحق ، وهو يكون ممن يستمعون الى الحق فيتبعون أحسنه ، وقد استجاب لدعائه ، وآمن بمحمد ورسالته ، وقد أجاب دعوة النبي عليه السلام الى الاسلام وكتب اليه عليه السلام يقول :

---

(١) كان خلقه بنفخة من روح القدس جبريل وولد بكلمته

« بسم الله الرحمن الرحيم الى محمدرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النجاشي الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته، لا اله الا هو الذي هداني الى الاسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فورب السماء والارض ان عيسى ( عليه السلام ) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ،وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين وارسلت اليك بأريحا بن الأصحم بن أبجر ، فاني لا أملك الا نفسي ، وان شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ،فاني أشهد أن ما تقول حق » .

ونرى من هذا أنه أرسل ابنه في وفد من الحبشة للالتقاء بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله .

الامر الثاني ـ هو متابعته العطف على الذين هاجروا ، فقد دعاه عليه الصلاة والسلام الى الاحسان اليهم في اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوي السلطان .

وانه لفرط محبته عليه الصلاة والسلام للذين هاجروا ، ولاحساسه بوجوب الوفاء ، وشكر من يستحق الثناء ، ولمقابلة الحسنة بمثلها على الاقل فان النبي عليه السلام عندما جاء الوفد الذي بعثه ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته بنفسه ، فقدروى البيهقي بسنده عن أبي أمامة قال: « قدم وفد النجاشي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال انهم كانوا لاصحابي مكرمين ، واني أحب أن أكافئهم » .

## رُسُل قريش للنجاشيّ في المهاجرين :

٢٦٧ ـ هذه متابعة لاصحابه الذين هاجروا الى النجاشي ، وهي متابعة الرحيم الحاني الذي يريد الاطمئنان على أصحابه الذين هاجروا الى تلك الارض النائية ، وما زال بملكهم حتى صار في صفهم ، وطابت اقامتهم ، وكرمهم تكريم الاخوة ، لا تكريم العادل فقط .

هذه متابعة الاولياء ، أما متابعة الاعداء ، فقد كانت على النقيض من ذلك ، لم يكتفوا بأن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، بل أرادوا النكاية بهم ،

وأن يجعلوا المهجر يلفظهم ، كما لفظوهم لانهم رأوهم ينشرون الاسلام ويمدون ظلاله الوارفة ، فدفعتهم العصبية الجاهلية لان يفسدوا عليهم طيب الاقامة ، والقرار ، واستقامة أمورهم ، فأرسلوا من يحاول افساد النجاشي عليهم

قال ابن اسحاق : لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين الى النجاشي فيردهم عليهم ، ليفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من الارض التي اطمأنوا بها ، وآمنوا فيها ، فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، (١) وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشي ليغروه بها .

ولقد أزعج ذلك المهاجرين الابرار . روي عن أم سلمة أنها قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ،وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة .. فجمعوا أدما كثيرا ،ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم .. فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار » (٢) .

لقد نفذ الرسولان ما أوصاهما به قومهم ، وقدموا لكل بطريق هديته وذكروا عند اعطاء كل واحد هديته ،أنه جاء اليهم غلمان من سفهائهم في زعمهم ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم ، فاذا تكلم الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم، فوعدهم البطارقة بما طلبوا .

مهدوا للقاء الملك ذلك التمهيد القائم على رشوة البطارقة ، ثم التقوا بالنجاشي ، وقدموا هداياهم قبل أن يتكلموا ، ثم تكلموا في غيبة المهاجرين، فقالوا :

---

(١) ، (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٤

« أيها الملك انه قد ضوى (١) الى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى (٢) بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ·

عندئذ تكلم البطارقة ، وحركت الهدايا لهواتهم ، فقالوا : صدقا ، أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، ليرداهم الى بلادهم ·

أحس النجاشي بالحملة الباطلة ، فرد الكيد ردا حاسما : لا أسلمهم اليهم ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا في أمرهم ، فان كانوا كما يقولون أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني ·

ذلك هو القول الحق من حاكم عادل ، أرسل الى أصحاب رسول الله ليواجههم الرجلان جاءوا ، ودعا الاساقفة ·

قال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم به فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ( وكان لا يزال نصرانيا ) ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ·· فعدد عليه أمور الاسلام · ثم قال : فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا

---

(١) لها معنى ضوى (٢) أى ابصرهم

وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبـــادة الاوثان ·· وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمـــونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بـــلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك ·

قال النجاشي ـ متعرفا دارسا ـ : هل معك مما جاء به عن الله شيء (١)·

قال له جعفر نعم · فقال له النجاشي· فقرأ عليه صدرا من كهيعص ·

تأثر النجاشي من وضوح الحقائق بين يديه ، وكان فيما قرأه خبر زكريا وما وهبه الله تعالى من يحيى ، ثم جاء في حمل مريم اذ جاء الملك ، وقال لها اني رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ·· ثم ولادة عيسى عليه السلام ·· ان النجاشي كان مؤمنا يدرك الحق اذا ألقي عليه ،وكان عدلا ، وكان صادق النظر لايمانه وعدله · فبكى من فرط تأثره ،وادراكه الحق حتى اخضلت لحيته ، وقالوا ان أساقفته وافقته ابتداء حين سمعـــوا ما تلي عليهم ·

قال النجاشي : انه والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ·

ثم قال للاثنين اللذين بعثهما القرشيون ، أنطلقا ، فوالله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون ·

## متابعة الكيد بالمهاجرين :

٢٦٨ ـ هذه هي الجولة الاولى في الكيد الذي يكيده الباطل لاهل الحق ، وقد كانت النتيجة احقاق الحق ، ولكن عمرو بن العاص لا يقف عند الهـزيمة الاولى في الكيد ، فهو واسع الباع فيه ،فكانت المجاوبة بينه وبين صاحبه الذي هو أنقى نفسا ·

قال عمرو لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ·

فقال له صاحبه : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا ·

قال عمرو الماكر : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد · جاء الغد ، والتقى عمرو بالنجاشي ، ومعه صاحبه عبد الله بن ربيعة ·

---

(١) الخبر بطوله رواه أم المؤمنين أم سلمة، وقد تصرفنا في بعض الكلمات تصرفا لا يخرج الخبر عن الفاظه ·

قال عمرو : أيها الملك ، انهم يقولون في عيسى بن مريم قـــولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه - فأرسل اليهم وقد وقعوا في حيرة وخوف، فقال بعضهم ما تقولون في عيسى بن مريم ، ولكن الذين تحملوا أذى قومهم على استعداد لان يتحملوا غيره ، ولذا قالوا مصممين : نقول والله ما قال نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا على النجاشي قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يقـــول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمتـه ألقاها الى مريم العذراء البتول .

النجاشي عندما سمع هذا ضرب بيده على الارض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

والبطارقة حاضرون فتنافروا حوله حين قال ما قال : فقال وان نخرتم والله.

ثم التفت الى المسلمين من أصحـاب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليـه وسلم فقـــال ما معناه : اذهبوا فأنتم الآمنون، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم ، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأني آذيت رجلا منكم .

انتصر النجاشي الهمام للحق وأهله ـ ودخل في الاسلام ـ كما تدل على ذلك مكاتبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي نقلناها من قبل ، وقـــد رد على قريش هديتها ، كمـــا رد مكيدتها في قومها وعشيرتها .

ولكن الهدية فعلت فعلها في البطارقة ، ويظهر أنهم بعد اسلامه تآمروا مع بعض رجال الحبشة ، فخرج عليه رجل منهم فكان المسلمون في فزع ، وتقول السيدة أم المؤمنين أم سلمة : « فوالله ما علمنا حزنا أحزننا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجـــاشي يعرفه » .

وقد أخرجت أم سلمة والزبير بن العوام الذي كان من المهاجرين ، وقد عاد الزبير يحمل البشرى بانتصار النجاشي على خصمه ، ففرح المهاجـــرون فرحة ما فرحوا مثلها .

## هدوء المهاجرين في الحبشة :

٢٦٩ ـ استقام الامر للمهاجرين في الحبشة ، ولم يذكر التاريخ أكانوا يتولون عملا فيها أم كانوا في ضيافة النجاشي ، لم يذكر التاريخ شيئا من ذلك ، لان مؤرخي السيرة النبوية الطاهرة ما كانوا يعنون الا بحال المسلمين وحال الاسلام ، وتحمل المسلمين للاذى في سبيل عقيدتهم ، يفصلون في ذلك ما يشاء طالب الحقيقة أن يعرفه .ولكنهم ما كانوا يعنون بالاعمال المادية من صناعة ومكاسب ! ولكن أردنا أن نعرف ما طواه التاريخ ولم يذكره نتعرفه من صور الرجال الذين هاجروا،فلابد أن نتصور من صورهم أحوالهم .

لقد كان من بينهم ذو النورين عثمان التقي الطاهر ، وهو مع ذلك التاجر الماهر ، وقد خرج ومعه بعض ماله غالبا، وما كان ليترك عمله في التجارة حتى تأكل النفقة ماله . ولم يثبت في التاريخ أنهم كانوا في ضيافة النجاشي ، لانهم كانوا يتزايدون في الهجرة ولا ينقصون، واذا كان لابد من فرض في هذا ، فهو أننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسبة التي تدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير اسراف ، ولا تقتير .

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا :

أولهما ـ أن يكونوا قد قاموا بما يكسبهم القوت ، ولا يعيشون كلاًّ على غيرهم فليس ذلك من مكارم الاخلاق في الاسلام .

ثانيهما ـ أن نفرض التعاون الكامل بينهم ، يعين غنيهم فقيرهم والقادر منهم العاجز ، واذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والانصار، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فان التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها في أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا ، وبحكم الحاجة اليه ثانيا ، وبحكم الخلق الاسلامي الذي يوجب التراحم والتعاطف ثالثا ، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان في مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم ، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين واعتاقهم من غير مَنٍّ ولا أذى .

## خديعة

٢٧٠ ـ خديعة أو انخداع على حسب تقدير الاسباب .

لقد فشل الرسولان اللذان ذهبا الى النجاشي ليحرضاه بالهدية الراشية ،

وبالقول المعسول ، وبالايقاع المفسدفي أن يحملاه على اخراج من حلوا في داره ، واستظلوا بعدالته ، وخرجامذمومين مدحورين .

ولكن أحدهما عمرو بن العاص داهيةقريش وماكرها ، فأشاع الشائعات بأن قريشا آمنت بمحمد صلى الله تعالى عليهوسلم ، وأن هذه الشائعات تجاوبت أصداؤها ، حتى وصلت الى المؤمنينفي هجرتهم بالحبشة ، فاطمأن الى صدقها بعض المهاجرين ، وطاهر القلبينخدع ، وقد خدع ابليس من قبل أبانا آدم الطاهر .

عاد من عاد منهم حاسبين صدق الاشاعة ،وكانت عدتهم نحو ثلاثة وثلاثين، ولكنهم ما ان شارفوا مكة حتى وجدواالاذى والاستهزاء والسخرية تستقبلهم فمنهم من دخل في جوار بعض كبراءالمشركين ، ومنهم من استقبل الاذى صابرا ، ومنهم من حبسه ذوو قرابته .

واستطاع الماكرون بذلك أن يعيدوابعض المهاجرين اليهم ليتحكموا فيهم ، ولكن لم تتم بغيتهم ، لانه بقيت الكثرةفي أرض الحبشة لم تغتر بهذه الاشاعة الكاذبة التي دفعتها فرية خبيثة ما كرة .

وقد يقول قائل : هل لك من سنديؤيد فرض الاشاعة ، وخصوصا أنه تذكر أسباب لهذه الاشاعة غير ما ذكرتوبينت ، وهي قصة المشركين مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما مَجَّداللات والعزى كما يزعمون وكما جاء في صحيح البخاري .

ونحن نجيب عن ذلك بما تقتضيه الفروض التاريخية من تعليل لاسباب الوقائع باقترانها بالوقائع الزمنية التي قارنتها، لقد كانت تلك الشائعة الغريبة وكانت في اعقاب واقعة حقيقية ثبتت، وهي طرد النجاشي الرسولين اللذين جاءا ليحملاه على الايقاع بالمؤمنين ليخرجهم، ويستمكنوا من رقابهم، وحرياتهم، وليفتنوهم عن دينهم «ويفسدوا رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والعقل بلا ريب يربط بروابط منطقية بين الامرين، كما اقترنا في الزمن.

ولا يمكننا أن نفرض السبب الذيذكره مؤرخو السيرة ، وهو سجود النبي عليه الصلاة والسلام للات والعزىومناة الثالثة الاخرى ، ولابد أن نحرج عليه بالقول ، ولو كانت الرواية فيكتب الحديث ، ونبين استحالة قبوله .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه في بيان سبب الاشاعة :

« كان له سبب ، وهو ما ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جلس يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ (١)

يقرؤها عليهم ، حتى ختمها وسجد ،وسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والانس ، وكان لذلك سبب ذكره المفسرون عند قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ ﴾ (٢)

وذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحا ، لئلا يسمعها من لا يضعها في مواضعها . الا أن أصل القصة في الصحيح . قال البخاري : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس » . انفرد به البخاري دون مسلم ، وقال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر . حدثنا شعبه عن أبي اسحاق سمعت الاسود عن عبد الله قال : قرأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قرأ والنجم بمكة، فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته، وقال يكفيني هذا .. ورواه مسلم ،وأبو داود ، والنسائي ، وروى مثله أحمد في سنده » (٣) .

اننا نقرر أن تلك القصة مكذوبة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك لما يأتي :

أولا : أن مقتضاه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ ﴾ (٤)

---

(١) ، (٤) النجم (٢) الحج (٣) البداية والنهاية ، جـ ٣ ص ٩٠

زاد بتأثير الشيطان تلك الغرانيق العلى ،وان شفاعتهن لترتجى ، فلما أتم السورة تلاوة ووصل الى قوله تعالى :

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

سجد سجدة التلاوة فسجدوا معه .

وذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لان الشيطان لا يتسلط على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفي شأن التنزيل والقرآن الكريم ، والا جاء الشك الباطل في شأن القرآن الكريم ،وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل ،والزيادة ، وتجويز أن يكون النبي وهو مبلغ الرسالة قد اعتراه خوف ، وابتعادعن مؤداه ، وذلك باطل فما يؤدى اليه باطل بلا ريب .

وثانيا : أن هذه الاخبار لم يسند فيها القول الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن كلها مرسلات ، فلا يلتفت اليها .

وثالثا : أن الذين يقولون هذا القول يسندونه الى تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

فزعموا أنه ألقى في أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم زيادة تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى ، ثم نسخت تلك الزيادة التي ألقاها الشيطان في أمنيته وأحكم الآيات ، وذلك من شانه أن يشكك في أصل القرآن ، ويبني عليه المفترون قولهم ان في القرآن زيادة ونقصا ، وذلك قول قائله كافر ، لانه ينكر ما جاء به القرآن من أنه محفوظ الى يوم القيامة تصديقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النجم (٢) الحج (٣) الحجر

وقد يقول قائل ، وكيف نفسر قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾(١)

نقول ان التمني هو ما يتعلق بما يتمناه الانسان بمقتضى غريزته ، فالانبياء ليسوا معصومين بمجرد غريزتهم من التمني ، ولكن الشيطان يجيء من جهة الاماني ، ويزين الاهواء ويحسنها ، فينسخ الله تعالى أى يزيله من قلب النبي عليه السلام ويحكم سبحانه وتعالى آياته الظاهرة والباطنة على النبوة والرسالة والحق ، وبذلك تنز قلوبهم ·

وقد يقال وماذا نصنع في الروايات التي قد رويت عن البخاري كما ذكر ابن الاثير ، ونحن نقول انها رواية أمر يستحيل على الله وعلى رسوله الامين ، ومثل هذه الرواية ترد مهما يكن الراوي ، أنقول ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سحر ، وزاد فى القرآن ما يكون شركا ، والرواية مهما تكن رواية آحاد، ولو طبقنا قاعدة الشافعي الذى يقرر فيها أن من ينكر حديث خبر الآحاد ، أو خبر الخاصة لا يقال له تب أيلا يكفر ، فكان المؤدى أن نكون بين أمرين أحدهما أن ننكره ولا نكفر ،والثاني أن نقول ما يشكك في الرسالة والقرآن فنكفر ! ان الاحتياط لديننا ،ولقرآن ربنا ، وعصمة نبينا أن ننكر نسبة تلك الاخبار لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحتها ، ونؤمن بالقرآن والنبي عليه السلام بل أن نؤمن بالله تعالى ·

واننا ننتهي من هذا الى أن نقرر أن سبب اشاعة اسلام أهل مكة ، ليس هو تلك الرواية غير الصادقة التي تفتن الناس عن دينهم ، وتشككهم في القرآن والنبي ·

انما السبب مما استنبطناه من سياق التاريخ وارتباط وقائعه واقترانها ، وهو اشاعة اسلام أهل مكة ليعود الذين فروا بدينهم ، فينالهم المشركون بأيديهم والسنتهم ·

---

(١) الحج

# النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر في مكة

٢٧١ ـ نعود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرى جهاده بالمصابرة ولنرى ما تفعله قريش معه ، ومع بني هاشم الذين أبت مروءتهم أن يسلموا محمدا لقريش يؤذونه أو يقتلونه أو يحبسونه ، وأبو طالب كبيرهم واقف كالطود يحمي محمدا ، ويأبى أن يتركه، وخديجة في البيت تواسيه ، فيعود اليها مكدودا من قومه ، ويخرج من عندها مجددا عزمه ، وقد خلع وعثاء النضال ليجدد النضال ، ويتقدم ثابت القدم قوي الارادة ، وقد تزود منها ومن عمه بزاد الايناس بالتأييد ، ومن الله تعالى بالنصرة .

وقريش قد بالغت في الايذاء ولكنها تحس بأن الارض تميد من تحتها وقد ازداد عنادها وازدادت لجاجتها وعنفوانها كلما رأوا دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تجد مستجيبا ، وخصوصا أن بعض الاقوياء ذوي الشكيمة قد دخلوا في الدين الجديد ، فقد دخل عمر في السنة التي كانت فيها الهجرة الى الحبشة .

وهم في هذه الشديدة التي وضعوا أنفسهم فيها عدوانا وظلما أرادوا أن يسكتوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن طريق عمه الذي لا يزال على دينهم وهو شيخ البطحاء ، ولهم عليه حق الرعاية ، كما لابن أخيه عليه حق الحماية .

## لقاؤهم بأبي طالب :

٢٧٢ ـ دبروا أمرهم ، وجمعوا ممن لهم مكانة فيهم وفدا ذهب الى أبي طالب بعد أن رأوا أنه لا يجيبهم فرادى فارادوا أن يذهبوا اليه جماعة ، والرسول سائر في طريقه ، لا يعوقه عائق من أذى أو استهزاء أو سفاهة حمقاهم ، فهو ماض في الطريق الذي رسمه الله تعالى له يدعو بالتي هي أحسن، من غير أن ينكص على عقبيه ، لذلك تركوه مليا فلم يجادلوه ، وان كان الاذى مستمرا ؟

ذهب وفدهم الى أبي طالب ، فقال قائلهم :

يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه وضـــلل أحـــلامنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلي بيننا وبينه ، فانك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فنكفيكه ٠

فقال لهم أبو طالب الكيس قـــولارقيقـــا ، وردهـــم ردا جميـــلا ، فانصرفوا عنه ٠

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماض على ما هو عليه ، يظهر دين الله تعالى من غـــير موانـاة ولا تقصـــير ،والمسلمون يزيدون ، ولا يقلون والامر قد خرج الى القبائل والى الحبشة ٠

ازداد غيظهم ، واشتد الامر عليهـم بسبب حقدهم ، وتضاغنوا فيما بينهم ، وتذامروا ، وتحاضـــوا على وجـــوب ايذائهم ، ورأى أهل الروية منهـم أن يذهبوا الى أبي طالب مرة أخرى ،ولكن بوجه أعنف ، وبلسان أجف ٠

اجتمعوا فقال قائلهم : « يا أبا طالب ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استأنيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هـــذا من شتم آبائنا وتسفيه أحـــلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ٠

في هذه المرة كان التهديد لابي طالب باعلان عداوتهم ، وقد أزالوا كـــل المحجز في القول ، ولم يراعوا سنا ولا شيخوخة ، ولا شرف منزلة كما ذكروا في الاولى ، ولا شك أن تغير لهجة القول كان له أثر في نفس أبي طالب ،وأحس بضيق في الامـــر ، وان لم يتبرم من حماية حبيبه ابن أخيه محمد صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يعرض عليه ما أصابه من ضيق ، ويشركه في أمر قومه الذي تفاقم ، فقال له :

يابن أخي ان قومك قـــد جاؤوني ،فقالوا كـــذا وكذا فأبق علي وعـــلى نفسك ، ولا تحملني من الامـــر مالا أطيق ٠

لم تضعف عزيمة محمد المؤيد من الله والذي لا يرجو النصرة الا منه ،وان كان يرغب في أن يشعر بأنه في عـــزة من أهله ، تألم ، لا خـــوفا من الاذى ،

ولكن لظنه تخلف عمه الحبيب عن نصرته ، وهو في ميدان الجهاد والمناضلة اذ ظن أنه خاذله ومسلمه ، وعلم أنه ضعف عن نصرته .

عندئذ قال مقالة أولي العزم من الرسل : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر فبكى ثم قام ، وما كان استعباره ضعفا، ولكن لانه يرجو من عمه وحبيبه ألا يسلمه ولا يخذله .

أدرك أبو طالب الكريم أنه أسرف على ابن أخيه في ذكر ما كان من قول وفد قريش ، وأنه كرثه بذلك . فلما ولى ناداه : أقبل يابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال أبو طالب العظيم«اذهب يابن أخي، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا » .

تواردت الاخبار على قريش ، وعلموا أنه لا سبيل لان يصلوا الى محمد عليه السلام ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه وأبو طالب مانعه ، ولكن حيلهم لم تنته ، والرغبة ولو آثمة لا تسكت عند الصدام ، ففكروا ، وانتهوا الى أمر غريب ، وان لم يكن ظاهر الغرابة عند العرب في جاهليتهم .

ذلك أن التبني بكل ضروبه كان أمرا معروفا عند العرب ، أخذوه من جيرانهم الرومان ، فكان من الممكن تبادل الابناء ، ويمكن تبادل الاخوة ، وابناء الاخوة في نظرهم .

ذهبوا الى أبي طالب يعرضون عليه أن يسلمهم ابن أخيه في نظير أن يعطوه فتى من قريش يكون ابن أخيه بدل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن المحبة سلعة تقبل المبادلة ، والانتقال من شخص ليحل محله شخص آخر .

قال قائلهم لابي طالب الجليل : يا أباطالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش ، وأجمله ، فخذه ، فلك عقله ونصره (١) ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامنا ، ونقتله ،فانما هو رجل برجل .

لا شك أنها فكرة سخيفة يعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويأخذ ولدهم ليحميه ، ولقد سارع اليهم الرجل العظيم ليبدي سخفها .

---

(١) العقل دفع الدية أى يدفع عنك الدية ،وتدفع عنه ، وينصرك وتنصره .

قال لهم أبو طالب : والله لبئس ماتسومونني • أتعطون ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخي لتقتلوه ، هذاوالله مالا يكون أبدا •

قال المطعم بن عدي من بني عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص • فقال أبو طالب للمطعم لائما أو عاتبا : يامطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قدأجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدالك •

وان القوم قد اشتدوا في ذلك ، وكما قال ابن كثير : حقب الامر ،وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، ونادى بعضهم بعضا (١) •

## حماية شيخ مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

٢٧٣ ـ لقد صار أبو طالب في أمر مرير ، وشدة من قومه ، وهو لا يريد أن يتخلى عن ابن أخيه مهما تكن الاحوال ، ومهما تكن الشديدة ، فشيخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شيء في سبيل مروءته وهمته ، وعزمته الهاشمية ، ولقد أدنى ذلك مؤقتا أبا لهب الى أخيه رحمة به وشفقة عليه ، فغضب على قريش لانها أحرجت شيخها ، وجعلته من الامر في عسر ، وخصوصا أنه أراد أن يجعل ابن أخته أبا سلمة في جواره ، كما أن محمدا في حمايته ، فقالوا يا ابا طالب : أنت منعت ابن أخيك محمدا عليه السلام فما لك ولصاحبك ( أي أبي سلمة ) تمنعه ، فقال : انه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وان أنا ان لم أمنع ابن أختي لا أمنع ابن أخي •

أخذت الحمية أبا لهب من طول المضايقة لاخيه فقال مهددا :

يا معشر قريش ، أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أولنقومن معه في كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد •

كان أبو لهب في صفهم ، وخشوا أن ينحاز الى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كما انحاز أخ له من قبل فدخل في الاسلام وهو حمزة بسبب ما فعله أبو جهل مع محمد عليه الصلاة والسلام •

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٨

ولذا سارعوا الى ارضائه فقـالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ،وكان لهم وليا وناصرا ٠

بهذه الوقفة القوية طمع أبو طالب أن يكون معه في نصرته لمحمد ،لتكون الاسرة كلها في حماية أفضلها وأكرمها،ولكن هذه الوثبة كانت ومضة برق لم تزل أن انطفأت ، أو كانت كقـدر من الماء لا يكفي لانطفاء الحقد والغيظ ، واستمر أبو لهب في لهب ، فقد استمرفي عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام، وموالاته لاعدائه يشترك في فتنهـــم وايذائهم ، لا تحـــركه مـــروءة ، ولا شفقة على ابن أخيه ، ولا أخيه الشيخ ٠

# المقـــاطعـــة

٢٧٤ ـ برمت قريش بالنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وبرمت ببني هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصـــوصا أبا طالب الذي ضاعت عنده الحيل والتهديدات ، وهو مرتفع شامخ كالطـــود تتسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور في عزمته .

ولما وصل بهم الامر الى هذا الحد ،اعتزموا الشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبي صلى الله تعـالى عليـه وسلم ، ولا يبالون أبا طالب ، وبني هاشم معه .

علم أبو طالب بما بيتوا وما دبروافنادى بني عبد مناف أن يناصروه في منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولم يجبه من بني عبد مناف الا بنـو المطلب ، الذين كانوا مع بني هاشـم جاهلية واسلاما ، وبنو هاشم مع أبي طالب الا أبا لهب الذي أبى الا أن يكون مع قريش في غلوائها وفيمـا أرادت بابن أخيه ، ولنترك الكلمة لما روي عن الزهري :

« ان المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قـريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم علانية . فلمـــا رأى أبو طالب جمع بني المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شعبهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله . فاجتمـع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله ايمانا ويقينا . فلمـا عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجمعـوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش . فأجمعوا ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ،ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ..وكتبوا في مكرهم صحيفة ، وعهودا ومواثيق،

ألا يقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا ،ولا يأخـــذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » ٠

« فلبث بنو هاشم في شعبهـم ثلاث سنين واشتد عليهـم البلاء والجهـد ، وقطعوا عنهم الاسواق ، فلا يتركـــوالهم طعاما يقدم مكة ، ولا بيعـــا الا بادروهم اليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

« وكان أبو طالب اذا أخـذ الناس مضاجعهم ــ أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاضطجع على فراشه . حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا له» ٠

« وكان أحيانا يأمر أحد بنيه أو اخوته أو بني عمه ، فاضطجعوا عـــلى فراش رســول الله صــلى الله تعـــالى عليـه وسلم أن يأتي بعض فرشهـــم فينام عليه » ٠

وهـــكذا كان العم العظيم يحتاط للفيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فينيمه في منـامته ،متعرضا للفيلة بدله وهو الشيخ الفاني، ويغير مكان الرسول من وقت لآخـر ،فيجعل مكانه بعض بنيه هو أو اخوته أو بني عمه من بني المطلب أو غيره ،وبدون ذلك كان يفي للعصبية ،ولكنها الشفقة والمحبة والرأفة التي ألقاها الله تعالى في قلب أبي طالب العظيم ٠

اشتد البلاء على المؤمنين ، وبني هاشم وبني المطلب ، حتى كان الاطفـال يتضاغون من شدة الجوع ، وقد كانت المقاطعة كما روى ابن اسحاق كاملة ، فقد كانت تشمل المناكحة ، لا ينكحونهم، ولا ينكحون منهم ٠

## الأرَضَـة تمنـع اسم الله من مَواثيقهم

٢٧٥ ــ مكث بنو هاشـم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب ، والنبي عليه الصلاة والسلام معهم في هـــذه القطيعة ثلاث سنين دأبا ، وهـم يرون صبيانهم يعضهم الجوع ، ولكن الـكبار لا يذهب بهـــم الفزع ، فيستجيروا لانفسهم أو أن يسلموا محمدا ليقتلوه فألقى الله تعـالى بالصبر في قلب المؤمن والكافر معا ٠

ولقـــد أظهـر الله تعالى آياته في أمرين :

أولهما : أن الارضة جاءت وأكلت كل كلمة فيها اسم الله تعالى أو صفاته التي عاهدوا الله تعالى عليه أن تكـون القطيعة دائمة ، وكان الله تعـــالى ألهم الارضة أن تعلمهم أن اسم الله تعالى لايصح أن يكون في وثيقة ظلم وفسق عن أمر ربهم ، وقد أطلع الله تعالى صلى الله عليه وسلم الصادق المصـــدق على ما فعلته الارضة بالهام من رب العالمين ، تعالت قدرته ، وعظمت منته ٠

الامر الثاني : أنه تشققت الرحمة من قلوب هؤلاء الذين تعاهـدوا عـلى الظلم والعدوان ، كما تتفجر الانهـار من بعض الاحجـــار ، فانه عـلى رأس السنين الثلاث التي مرت ببني هاشم تلاوم رجال من بطون قريش ، من بني عبد مناف ، وقصي ، ورجال من قريش ، قد ولدوا من نساء من بني هاشم ، رأوا أنهم قد قطعوا الرحـم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهـــم عـــلى نقض الصحيفة ، والبراءة مما جاء فيهـا ، وقيل انها كانت معلقة بسقف البيت ٠

بينا هذا التفكير قد سيطر على الملأ من قريش قد ذهب أبو طالب اليهـــم يخبرهم بأن الارضة أخلت من صحيفتهم اسم الله ، وأبقت فيها الظلم والفسـق الذي دونوه ، وتعاهدوا عليه ٠

انطلق الرجل العظيم أبو طالب ، ومعه العصبة من بني عبد المطلب ، فقال في جمع حافل من قريش :

قد حدثت أمور بينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها ، فعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ٠

فطمعوا أن يسلم بنو هاشم محمدا صلى الله تعـالى عليـــه وسلم ، فأتوا بالصحيفة معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيدفع اليهم ، فوضعوها بين أيديهـــم ، وقال قائلهم ٠

قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا الى أمر يجمع قومكم ، فانمـــا قطـع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطـر الهلكة قومكم ٠

فقال أبو طالب انما أتيتكم لاعطيكم أمرا لكـــم فيه نصف ، ان ابن أخي أخبرني ، ولم يكذبني أن الله بريء من هذه الصحيفة ، ومحا كل اسم هـو له

فيها ، وترك غدركم ، وقطيعتكم ايانا ،وتظاهركم علينا بالظلم ، فان كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال ،فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبدا ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، وان كان الذيقاله باطلا رفعناه اليكم ، فقتلتموه أو استحييتم ٠

قالوا رضينا بالذي تقول ، وكأنهمفهموا أن النتيجة أن يسلمهم لوثوقهم من صحيفتهم ٠

فتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال الصادق المصدق،وسنبين بعض الصحيفة من البيان ، ومن دعا اليه ولم يذعنواللحق اذ جاءتهم بيناته ، بل أصروا على الكفر والعناد ، وقالوا مقالة الكفر ،وقالوا ان هذا الا سحر من صاحبكم وارتكسوا ، وعادوا بِشَرِّ مما كانواعليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فزادتهم الآية كفرا ٠

فقال قائل النفر من بني عبد المطلب الذين كانوا في صحبة أبي طالب : ان غيرنا أولى بالكذب والسحر ، فكيف ترون ، فانا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى الجبت والسحر ،ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم ، وهي في أيديكم ، طمس ما كان فيها من الحنث ، وما كان فيها من اسم الله ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟

كانت كلمات أبي طالب ومن معه من أسرته ان لم تكن قد شقت قلوبهم لقبول الحق ، فقد شقت صفوفهم التي كانت مجمعة على الباطل ٠ فظهر النفر من بني قصي وبني عبد مناف ، وغيرهماوكانوا قد تلاوموا من قبل على الصحيفة وأمرها ، وفيهم من كانت الصحيفة عنده، وجاهروا بما في نفوسهم ، وقالوا حاسمين قاطعين ، غير مترددين ، ولا ناكصين ٠ قالوا في حزم ، نحن براء مما في هذه الصحيفة ٠

وقال أبو جهل الخبيث في ذات نفسه، والضلل في فكره وعقله ، وهذا أمر قضى بليل (١) ٠

---

(١) أخذ ملخص القصة من كتاب سيرة ابن هشام ، جـ ١ ومن كتاب البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ وما فيها ٠

## نتيجة المقاطعة :

٢٧٦ ـ وان النتيجة التي تستخلص من هذه القصة أن قريشا بلغت بهم لجاجة الكفر أن يحاولوا قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يندفعوا في ذلك ، لا ينظرون فيه الى عاقبة من تصدي بني هاشم لهم ، للاخذ بثاره منهم ، ولعله كان قد ابتدأ التفكير عندهم في تفرق دمه في القبائل ، بحيث يضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يكون لبني هاشم قبل بالثأر فيقبلوا وتتم الراحة لهم في زعمهم ، اذ يستأصلون الدعوة من جذورها ، اذ يقتلون صاحبها ، ومحمد يستقبل ذلك التدبير اللئيم استقبال من يستعين بالله ، ولا يستعين بغيره .

ولكن عمه العظيم يحمل العبء ، ويتحمل الاذى ، ويحاول وقاء محمد بكل الاسباب ، حتى انه ينيمه في مضجعه متحملا ما وراء ذلك ويستعد لفدائه بنفسه ، وهو لا يزال على دينهم . ولم يخرج الى الدين الجديد ، وان كان يظهر أنه في دخيلة نفسه كان يعتقد صحته وقد بدا ذلك في بعض شعره .

وانه يبدو من نهاية القصة أنه كان في قريش من تألم من الامر الذي نزل باخوانهم ، ولعله كان فيهم ميل لتصديق محمد ، ولذلك دخل الاكثرون منهم من بعد في الاسلام .

وان نهاية الخبر تدل على أن بعض قريش ، وان دخلوا في الحلف طائعين كانوا لنتائجه كارهين ، فلم يستطيعوا تحمل نتائج ما عقدوا عليه حلفهم بعد أن رأوه واقعا ، وأنهم كانوا يرونه تهديدا ، ولا يرونه أمرا ، صالحا للنفاذ ، وقد عظم عليهم عندما رأوه نافذا .

ولقد كان منهم من يرسل الطعام سرا ، ومن يعلم ذلك من ذوي الصلة منهم لا يستنكره .

يروى في ذلك أن حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخي خديجة ذهب ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الشعب ، فتعلق به أبو جهل ، وقال أتذهب الى بني هاشم ، والله لا تذهب أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة .

عند ما قال أبو جهل ذلك تعرض له أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد وقال له مالك وله فقال يحمل الطعام الى بني هاشم . فقال له أبو البختري منكرا عليه فعله : طعام كان لعمته عنده بعثت به اليه أتمنعه رجل يأتيها بطعامها ، خل سبيل الرجل .

أبى أبو جهل أن يخلي سبيل حكيم بن حزام ، وتلاعنا ، ونال كل من صاحبه .

لم يكن لابي جهل أن يعامل الا بالضرب فأخذ أبو البختري لحى بعير ، فضربه وشجه ، ووطئه وطئا شديدا .

وحمزة بن عبد المطلب يرى ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبني هاشم فيشمتون بهم وهكذا كانت الاطعمة تذهب اليهم وكان من كتاب الصحيفة من لم يرض بتنفيذها وكان يرجو انهاءها ، ولكن ذلك لم يمنع المشقة الشديدة التي لقيها بنو هاشم وبنو المطلب من قومهم ، والرسول أشدهم مشقة واحتمالا .

## الرسول مستمر في دعوته

٢٧٧ ـ اذا كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول وأسرته أسباب العيش السهل ، وضيقت عليهم السبل في الرزق ، فانها لم تمنعه من دعوته ، فهو قائم بالليل والاقامة في ضيق الرزق ، ولكنه ليس برما ولا متململا ، مادام يستجيب لامر الله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

فأعرض عنهم واستمر في دعايته ، والله تعالى يمده بالعون والتأييد بنصره ، فهو في أنس من ربه ، وان كان في وحشة من قومه ، ولكن شعاره دائما : « اللهم اغفر لقومي ، فانهم لا يعلمون » واني أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، والجدل مستمر بينه وبين آحادهم يدعوهم الى الحق ، فيصدون بالباطل .

ولقد وصل التهافت بأبي جهل أن يكفر بملته كلها ، فيسب الله ، وفي ديانتهم أن الله هو خالق السموات والارض وان كانوا يشركون الانداد معه لقد قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن الهك » ولان أبا جهل ومن على شاكلته لا دين لهم الا العصبية الجاهلية ، ولا يؤمنون بشيء لا يتوقع منه أن يسب الله تعالى ولكنه سبه فنزل النهي عن سب الاحجار والاوثان ، وتكون الدعوة الى التوحيد المجرد ، وبطلان عبادة الاوثان ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٢)

ولقد كان منهم من يحسب أنه يحاكي القرآن ، فيأتي بقصص من أخبار الفرس وحروبهم يسلي الناس عن القرآن ويبعدهم ، ثم يقول النبي صلى الله

---

(١) الحجر (٢) الأنعام

تعالى عليه وسلم : يا قوم والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، وما حديثه الا أساطير الأولين أكتبها ، كما اكتتبها فيحكي عنهم رب العالمين قولهم ، ويرده عليهم بالقرآن يتلى ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ (١)

هم يكذبون القرآن ، ويعبثون بحقائقه ، وهم الذين يفرون من سماعه ، فاذا تهكموا عليه انتظروا ما يقال في تهكمهم فيهجم القرآن على مسامعهم ، ولا يستطيعون منه فرارا ، ولا ينفكون عن سماعه .

ومنهم من كان يحسب أنه يناقض معاني القرآن بحقائق من الاديان السابقة أو بما حسبه كذلك . ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس بينهم ، ويتلقى مجادلتهم ، ويدعوهم بالتي هي أحسن ، غير مدخر بابا من أبواب الاقناع بالحق الا سلكه ، يروي ابن اسحاق في السيرة ما يأتي :

جلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغنا يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ ﴾ (٢)

ثم قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال

---

(١) الفرقان (٢) الأنبياء

عبد الله بن الزبعري : أما والله لو وجدته فخصمته ، فسئلوا محمدا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ،فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري ، ورأوا أنه قداحتج وخصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال النبي الحكيم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده في النار .. فنزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

أى عيسى وعزير ومن عبد من الاحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى ، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة . وأنها بنات الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى في اعجاب المشركين بقول ابن الزبعري :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣)

٢٧٨ ـ ان هذه الاخبار التي كان في القرآن الكريم رد عليها ، تدل على أمور ثلاثة :

اولها : أن هؤلاء كانوا يجادلون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم كانوا يستعينون بما عند غيرهم من علوم ، كانوا يذهبون الى اليهود يستعينون

(١) ، (٢) الأنبياء (٣) الزخرف

بهم يسألونهم أن يدلوا بشيء يحتجون به على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد لقنوهم الاسئلة عن أهل الكهف وعن الروح ، وعن ذي القرنين ، ونزل القرآن بما فيه اشباع النفوس طالبة الحق المريدة له ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل أصروا اصرارا ، وانغضوا رؤوسهم علوا واستكبارا .

وهاهم أولاء الآن يدرسون أخبارا من الديانات ، مع أنهم أميون ، لم يكن لهم كتاب يقرؤونه ، ولا علم دونوه ، ومع ذلك حاولوا أن يعرفوا شيئا مما عند اليهود والنصارى ، لا ليؤمنوا به ، أو ليستعينوا به لمعرفة الحق والوصول اليه ، بل ليجادلوا ويختصموا النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كشف الله تعالى حالهم ، يقول تعالت كلماته مبينا أنهم لا يريدون ايمانا بل يريدون اعناتا فقال تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

أي يريدون أن يلتمسوا الحجة من أي ناحية .

ثانيها : أنهم كانوا يعتقدون في ذات أنفسهم أن محمدا على الحق ، وأن القرآن هو الذي لا يحاكى ، ولكنهم يمارون في الحق بعد ظهوره ، ولذلك ما كانوا يسكتون ، عند افحامهم ، أو افحام بعضهم ، بل انهم اذا أفحموا بحثوا عما هو أشد لجاجة ، وأقوى محاجة في الظاهر ، ولذلك لما أفحم النضر بن الحارث بين أيديهم لم يسلموا بالحق ، وقد بَدت بيناته ، بل قالوا معاندين وما قام وما قعد ، حتى جاء ابن الزبعري ، فأتى بما يظنه مفحما لمحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان سبيلا لمعرفة الحق ، ان أرادوا رشادا ، ولكن ما أرادوه .

ثالثها : أنه في أثناء الحصار والمقاطعة والقطيعة ، ما ونى محمد عن دعوته حتى يئسوا هم ، ولم ييئس هو ومن معه من المؤمنين الاشداء الاقوياء ، ولو كانوا المعذبين المضطهدين .

وانه في أثناء ذلك ما ونى ، وما ضعف ، ولا استكان ، ولا وهنت نفسه .

---

(١) الزخرف

وان ابن اسحق قد أتى بأخبار كثيرة عن النبي عليه الصلاة والسلام مع قومه ، وقد أفرغوا من الاذى كل ما في جعبتهم من سهام مريشة، ممزقة جارحة، ولقد قال ابن كثير في تاريخه بعد ذكر أخبار المجادلة :

كل هذه القصص ذكرها ابن اسحاق معترضا بها بين تعاقد قريش على بني هاشم • وبني المطلب ، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة ، وحصرهم اياهم في الشعب ، وبين نقض الصحيفة ،وماكان من أمرها وهي أمور مناسبة لهذا الوقت ، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى : « من أراد المغازي فهو عيال على ابن اسحاق » •

اذن ، فالنبي مواصل دعوته ، صادع بأمر ربه لا يني ولا يقصر ، فما نهنهت من عزمته المقاطعة ، ولا ارادة الجوع ، والعري ، بل استمر ، وهو يقول في قوة وعزم : « أنا النذير العريان » •

واذا كانت قريش قد بلغت أقصى الايذاء ، وانتقلت من الايذاء الآحادي الى الايذاء الجماعي ، ومن ايذاء المؤمنين وحدهم ، الى ايذائهم مع من يوالونهم من أقارب ، وأولياء ونصراء ، اذا كانت قد بلغت ذلك ، فمحمد لم يعبأ ، لانه مؤيد من رب العالمين •

## سعي في نقض الصحيفة

٢٧٩ ـ أقصى درجات الشدة قد يفضي الى نوع من الشفقة ، فان المظلوم الصابر الداعي الى الحق الذي لا يوجد سبب لانزال الظلم الصارخ به قد يفتح ينابيع من الشفقة ، وقد تنفتح هذه الينابيع من نفس الظالم أو من باشر الظلم .

لقد ظلمت قريش أبناء عمومتها من بني هاشم وبني المطلب الذين ارتضوا أن يقاسموا بني عمومتهم من ذرية هاشم ضراءهم ، لانه كان ينالهم شرفهم ، فالزموا أنفسهم بمقاسمتهم الضر ، كما انتفعوا من شرف هذه العمومة .

واننا لا نفرض أن قريشا كلها قد أجمعت على القطيعة من مداخل شعورها، فما انقطعت كل المودات ، وما زالت كل الصلات ، واذا كان قد دعا داع في وقت المباغضة ، والمخالفة والحفاظ المخطىء على ما كان عليه الآباء ، فاستجابوا أو جلهم تحت تأثير الحمية الوثنية حمية الجاهلية ، فليس معنى ذلك أنهم صغت قلوبهم جميعا الى الداعي الاثيم ، بل ربما أجاب من أجاب بظاهر من القول ، أو تحت تأثير فورة قد تتبدد ، ويبقى الصافي بعدها أو في حال نسيان الاصل المودة الموصولة ،والمحبة الرابطة ، وان اختلفت النحلة ، وتباعد الاعتقاد ، فالصلات تقرب البعيد ، وتمنع الجفوة المستمرة .

وان تلك القطيعة فطرت قلوبا مشفقة نحو الاسلام ، وأوضحت ظلم الباطل لاهل الحق ، وأنهم اذا أعياهم البرهان ، بالغوا في الاعنات ، وان الناس في البلاد العربية اذ يتسامعون بهذه القطيعة سيتعرفون سببها ، ويتذاكرون أمرها ، ويحكمون بالشطط على مرتكبيها ، فتشيع حقيقة الاسلام ، ويفشو بين الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يني عن بيان ، وتلاوة القرآن المشرق بنوره وحججه ، وشرف نسبته الى الله تعالى الذي يخاطب به الخليقة وينادي به الفطرة المستقيمة .

لذلك لابد من نقض الصحيفة ، لانها لم تؤد الى غرض مقصود ، ولو كان مثل غرض أبي جهل ، ولم تمنع الدعوةمن أن تذيع بين العرب الادنين منهم والبعيدين عنهم ، فكلما كانت محاولةكتم الدعوة ، كان بزوغها وظهورها ، وانبثاق معينها ، واشراق نورها ٠

٢٨٠ ـ أشرنا الى أنه يبدو من حقائق الامور ، ودخائل النفوس ، وبعض مظاهرها أنه لم تكن الموافقة على القطيعةالجماعية كاملة ، واذا كانت بظاهر من العمل ، فالقلوب لا تؤيدها ، ولا تعاضدها ٠

وقد قصصنا عليك أيها القارىء الكريم قصة حكيم بن حزام الذي كان يذهب بالبر الى عمته خديجة وزوجهاالطاهر ومن معه من بني هاشم ، واعتراض أبي جهل عليه ، وتصدي أبيالبختري ، لابي جهل يلومه على أن منع حكيما من أن يوصل القمح لعمته ،فتلاحيا ، وأخذ أبو البختري لحا بعير وأعمله في رأس أبي جهل حتى شجه ٠

ويظهر أنه كان يقع ذلك من القرشيين ، انعطافا على المظلومين ، واكراما للقرابة ، ويقول في ذلك ابن اسحاق :ولم يبل أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث ٠٠ وكان ذا شرف فيقومه ، فكان فيما بلغني يأتي بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ـ ليلا قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضربه على جنبيه فدخل الشعب ، ثم يأتي به قد أوقره ، فيفعل مثل ذلك ٠

وهكذا يتكرر منه العمل ، ويتكررمنه التزويد ، وهذا لا يدل على خيانة عهد ، فليس للآثمين عهد يراعى ،ولكنه كان استجابة لصلة القرابة ، واحساسا بظلم تلك الفعلة التي فعلهاقومه ٠

واذا كان لهشام هذا ذلك الشرف الذي كان يعاون به المحاصرين من قومه ، فانه صاحب الفضل الاول في ترتيب نقض الصحيفة ، من جانب المشركين ، وقد ذكرنا من قبل كيف أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن الارضة أكلت ما فيه اسم الله وعهده ، وأبقتلهم اثمهم البغيض ، وكيف انتهت بنقضها ، ولكن الآن نبين كيف ابتدأالانتقاض في جموعهم ٠

تولى هذا العمل ابتداء هشـــام بن عمرو بن الحـــارث ، ولنذكر ترتيبه الحكيم ، كمـــا جاء في البداية والنهاية .

مشى هشام الى زهير بن أمية بن المغيرة ،وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له : أقد رضيت أن تأكل الطعام ،وتلبس الثياب، وتنكح النساء، واخوالك حيث علمت لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ،ولا ينكحون ولا ينكح اليهـم ، اما اني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ( أي أبي جهل ) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه ، منهم ما أجابك اليه أبدا .

قال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها .

قال هشام : لقد وجدت رجلا . قال من هـــو ؟ قال أنا ، قال هشـــام : ابغنا ثالثا .

ذهب هشام الكريم الى المطعم بن عدي ، فقال يامطعم أقد رضيت، أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنهم اليهامنكم سراعا . قال : ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد . قال قد وجـدت ثانيا ، قال فمن هو ؟ قال أنا ، قال ابغنا ثالثا . قال قد فعلت . قال من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية ، قال ابغنا رابعا . فذهب هشام الى أبي البختري ( صاحب اللحا التي ضرب بها أبا جهـــل ) ابن هشام ، فقال نحـــو ما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل تجد أحدا يعين عـــلى هذا ؟ قال نعم . قال من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي وأنا معك . قال ابغنا خامسا .

ذهب هشام الى زمعة بن الاســود ،فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الامر الذي تدعو اليه من أحد . قال نعم .

اجتمع أولئك الخمسة الكرام ، واتعدوا بأعلى مكة . وتعاقدوا على الدعوة لنقض الصحيفة ، ووقف زهير ، فـكان أول المتكلمين كما كان أول الداعين .

طاف بالبيت سبعا ثم قال وقد أقبل على الناس : يأهل مكة أنأكل الطعـــام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل : والله لا تشق ٠

قال زمعة بن الاسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها ، حين كتبت ٠

قال أبو البختري : صدق زمعة ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ٠

قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ، ومما كتب فيها ٠

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضي بليل تشاوروا فيه بغير هذا المكان ٠

٢٨١ ـ من هذا الكلام يستفاد أن كبار الذين لا ضغن عندهم على بني هاشم ، وان لم يذعنوا لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا راضين بهذه القطيعة ، التي لم يكن لها جدوى الا اثارة العطف على محمد وعشيرته ودعوته وانما كانوا مورطين ٠

ولقد جرت هذه المناقشة وأبو طالب العظيم مستمع وجالس في ناحية من المسجد ، كأن القول لا يهمه ، وكأنه المعني بالاذى هو وعشير من أمثال اللئيم أبي جهل ، والمعني بالمودة من كرام قومه ٠

ولكنه عندما وجد القوم قد اعتزم خيارهم الامر ، وأرادوا قطعها ، قال لهم مقالة الحق التي أخبره بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يا معشر قريش ان ابن أخي قد أخبرني بأن الارضة أكلت الظلم والقطيعة والبهتان ، ولم تدع فيها اسما لله الا أثبتته فهلم الى صحيفتكم ، فان كانت كما قال ، فانتهوا عن قطيعتنا ،وانزلوا عندها ، وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخي ٠

عندئذ نقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبي جهل وأشباهه ٠

# نقض الصحيفة فعلاً

٢٨٢ ـ نقضت الصحيفة المشؤومة، ولا شك أنه في وسط الجاهلية العمياء، وجد ذوو بصر رجح عندهم داعي المروءة ، وصلة الرحم ، وأكثرهم كانوا ذوي نسب أو صهر بني هاشم أو قرب نسب من البطون ، أو سبب الانكحة ، ومنهم من حركتهم المروءة والنخوة ، واحترام الاروماة ، وترجيح الشرف مع اختلاف الدين على الضعف بسببه، وقاوموا نذالة أبي جهل ، ودقوا أنفه ، وقال قائلهم لو كان فيهم ذو رحم بأبي جهل ما ارتضى تلك القطيعة ٠

وقد قدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذوي المروءات مروءتهم ، وأكثرهم دخل في الاسلام وحسن اسلامه ، وكان خيرا في جاهليته وخيرا في اسلامه فاجتمعت له الحسنيان ، ونال الشرفين شرف الهمة والمروءة وشرف الايمان ٠

ومنهم من لم يدخل في الاسلام ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف له مروءته ، وقدرها له ، حق قدرها ٠

ومن هؤلاء أبو البختري فهو الذي ضرب أبا جهل بلحا البعير ووطئه وطأ شديدا عندما منع حكيم بن حزم من توصيل القمح لخديجة وزوجها خاصة وبني هاشم عامة ٠

وأبو البختري هذا كان أحد الخمسة الذين نادوا حول الكعبة بوجوب خرق الصحيفة ونقض ما فيها ، وأصر على ذلك اصرارا جعل أبا جهل وأشباهه يخرجون مذمومين مدحورين ٠

عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلك السابقة المكرمة ، ومحمد عليه السلام لا ينسى السابقات المكرمات ، واعتزم أن يجزيه على موقفه الجزاء الموفور ، فالوفاء خلق محمد عليه السلام، وخلق الاسلام ٠

ولقد كان يتمنى عليه السلام أن يسلم ، ليكون كاخوانه الذين أسلموا ، ونالوا الحسنيين ولكنه لم يسلم ، بل استمر على شركه ، وبلغه عليه السلام

أنه خرج مقاتلا في صفوف المشركين في غزوة بدر الكبرى ، فأوصى المسلمين ألا يقتله أحد منهم اذا لقيه وتمكن منه. فلقيه أحد المجاهدين ومعه صاحب له من المشركين ، فذكر له وصية النبي عليه الصلاة والسلام ، فدفعته مروءته أيضا الى ألا ينفرد بالنجاة ، ويقتل صاحبه ،فقال اما ان نقتل معا ، واما أن ننجو معا ، فالمجاهد قتلهما معا ، وليته لم يفعل .

انى أحسب أنه خالف وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أمر ألا يتعرض له وألا يقتله وما كان ثمة من مانع من أن ينجيهما ، بل اني أحسب أنه كان من المستحسن أن ينجيهما ، لان الاسلام ينهى عن القتل الا للضرورة وقد كانت مندوحة ، ونحسب أنه لو عاش لكان من المؤمنين ، فخيار قريش في الجاهلية خيارهم في الاسلام ان آمنوا وان في نفسي حسكة تشك قلبي اذا تذكرت أن أبا البختري قتلته السيوف الاسلامية بغير ارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

## انطلاق الدعوة الإسلامية :

٢٨٣ ـ كانت تلك القطيعة التي أحدثتها النفس الوثنية الحانقة سببا في ذيوع الاسلام ، وأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقد رأى العرب مقاطعة قريش لذؤابتها من بني هاشم ، وهم يجيئون الى مكة حاجين ومعتمرين ومتجرين يغشون الاسواق ويجدون سادة العرب ممنوعين من غشيانها ، والدعوة الى مقاطعتهم قائمة على قدم وساق ، فلا بد أن يسألوا لم كان هذا ، وأن يتعرفوا دعوة الحق ،وما ينادي به محمد عليه السلام ، فتصل الى أسماعهم ، فمنهم من يؤمن ، ومنهم من يستمر في ضلاله .

ولذلك كانت هذه المقاطعة سببا في أن تسامع العرب بالاسلام ودعوته وأن تصل الدعوة المحمدية الى القبائل في أماكنهم ، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه، ودعا غيره بالهداية ، ومن لم يؤمن تحدث مع غيره بما كفر به ، فتكون الدعوة قد علم بها من ارتضاها ، ومن لم يرتضها ، لقد حملها جميعهم ، ورب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه .

جاء الناس الى مكة يستمعون الى النبي ممن صفت قلوبهم للايمان ،

وقريش لهم بالمرصاد يحاولون أن يصدوهم عن سبيل الله تعالى ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ·

وأولئك الذين وضع الله في قلوبهم الميل الى الاسلام يسيرون الى الحق لا يعوقهم عائق ، ولا يردهم راد ،ولنذكر لك قصة رجل حاول أن يدخل في الاسلام بناء على ما سمع في القبائل من أخبار محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته الى الوحدانية ، وما معه من كتاب أوحي به يتلوه عليهم ، ويرونه عجبا لم يكونوا قد سمعوا مثله ، ولاقريبا منه ، وقريش تترصد الرجل وأمثاله الذين يجيئون الى الرسول يستمعون اليه ، وتحاول تنفيرهم منه ، فلا ينفرون ، بل يزيدون رغبة وامعانا في الطلب ·

وهذا الرجل الطفيل بن عمرو الدوسي ، وكان سيدا مطاعا شريفا في قبيلة دوس ، وكان قدم مكة ، فاجتمع به كبراء المشركين من قريش ، وحذروه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهوه أن يجتمع به ويستمع اليه ··

وما زالوا به حتى اقتنع بألا يستمع، وحشا أذنه قطنا لكيلا يسمع ، ولكنه غدا الى الكعبة ، فرأى على البغتة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاول لما أوصاه رجال قريش ألا يسمع ،ولكنه بما وهب الله تعالى رسوله الامين من طيبة طاهرة تجذب اليه القلوب الصافية أبى الا أن يسمع بعض ما يقرأ به عليه الصلاة والسلام ، ولنترك الكلمة للرجل ليخبر عن نفسه،فالقول قوله في شأنها، والاخبار عنها قال رضي الله عنه : قال :قلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فدخلت عليه، فقلت يا محمد ان قومك قالوا لي كذا وكذا · فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سدوا أذني بكرسف ( قطن ) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعني قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض علي أمرك · فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا علي القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا أحسن منه ، ولا أمرا أعدل ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ·

وكان الطفيل هذا رجلا مسموع الكلمة في قومه شريفا بينهم لم يعرف بقول الزور ولا الباطل فدعاهم الى الاسلام ، فأسلموا طائعين ، وكانت دوس

على الاسلام الى أن جاء عصر الجهـــادبالسيف ، فجاهدت مع المجاهدين حاربت المشركين في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاربت المـــرتدين من بعده ، وكان لهـا قـــدم ثابتة في الاسلام ٠

ولم يجد منع قريش ، فالنور لا يقع في قبضة أحد ، بل انه يسري شعاعا مضيئا هاديا مهما تكن الظلمات المتكاثفة هذا الرجل الاول الذي جعلناه مثلا لشيوع أمر الرســـالة المحمدية بعـد القطيعة وفي أثنائها ، فكان كل ما عمل ضد محمد عليه الســلام ، وما قام به يكون في نتيجته خيرا لدعوة التوحيد ، ونداء الحق المبين ٠

ومن هذه القصة وأشباهها ، وانها لكثيرة تجد أن الاسلام أخـذ يسري الى الجزيرة العربية قاصيهـا ودانيها ، والنبي عليه السلام قطب دعوة التوحيـد مقيم في مكة مثوى العرب أجمعين ، لايسكت ، ولا يني بل يستمر في دعـوة الحق ، يستمع اليه الضعفاء ، وبعض الاقوياء ويقوم بينهم بصلواته يجهر بها ولا يخافت ، والمشركون يستهزئون ظاهرا ، وهم مأخوذون بهـا باطنا ، يقدر حملتها على الشرك الذي يستمسكون به ويلاحون عنه بظاهر من عصبية ،وحقدا وحسدا ، لا ايمانا ويقينا ، ولكنهـم قـــوم في ذات أنفسهـــم مترددون ، والمترددون يثـير حنقهـــم وغضبهـــم المستيقنون المؤمنون ، وكـذلك كانت المعركة بين حق لائح مبين ، وباطـــل متردد في ذاته ٠

# عـــام الحـــزن

٢٨٤ ــ هذه تسمية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للعام الذي توفي فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبـد المطلب ، وأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وقد كانت أبر زوج لاكرم زوج ، فسمى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك العام عام الحزن ، لانه فقـد فيه حبيبين ، ولم ير بعـد موتهما من يعوضـــه عنهمـا من ذوي قـرابته وصهره ٠

فقد كانا يواسيانه ، ويشدان أزره ، ويمنعـــان عنـه الاذى أن يؤثر في نفسه ، ويرى فيهما المثابة الى الاطمئنان والسكن ، فأبو طالب ينصره ، ويذود عنه ، ويتحمل الاذى في سبيل مرضاته ، ويعمل على أن تقـــر عينه دائمـا ، وقريش تضـــايق العم الشيخ فيتحمل ضيق قومه على أن لا يكون منه ما يجعل ابن أخيه في ضيق ، ويتحمل الملامة هو على أن لا توجه ملامة لابن أخيه ، وأشهـد ويشهـــد كل قارىء لسـيرة الرسول صلى الله تعالى عليـه وسلم أنه ما وجد أب أحنى عـــلى ولده من أبي طالب على ابن أخيه ، وهو يخالفه فيمـا يدعو اليه ، ولا يستجيب لما ينادي به ، كما يقولون خشية سبة قـريش ، وان ذلك لامر يعلمه الله تعالى ، وهـــو في جملته يتعلق بالدعوة المحمدية الموحدة ، وتخفيف الاذى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن آمن معه ٠

ونحسب أن أبا طالب لو آمن بالدعوة المحمدية كمـــا آمن حمـزة ، وعلي وعثمان ، وغيرهم من بني عبد منـاف ما استطاع أن يذود عن محمد وصحبه ، كما ذاد عنهم ، ولا أن يصد قريشا كما صدهم ، اذ أنهم يدخلونه في ضمن من يناوئون ، وحينئذ يفقد سلطانه الكامل على البطحاء ، اذ ينكرون سيادته ، فلا يستطيع أن يكفكف حـــدتهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان الامر في ذلك ، وهو على دينهـــم ظاهـرا ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى ٠

ولو أن لنا أن ناخذ بالقرائن أو بالامارات عـــلى ما يستكن في القلوب ، لقلنا انه مؤمن ، وليس بكافر ، ولـكن يعارض هـذه الظواهـــر أنه دعي الى

الايمان بالقول فلم يستجب ، ومهما يكن فهو في الحالين عظيم حتى في شركه ٠

هذه اشارات الى ما كان من أبي طالب في حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى انه عليه السلام ليقول : ان قريشا ما نالت مني في حياة أبي طالب ما نالته من بعده ٠

وأما خديجة أم المؤمنين ، والزوجة الحانية كالأم أو أشد ، فقد كانت السكن اذا ادلهمت الامور ، ولقي من مناواة قومه أشد ما يلاقي داع الى الحق، يشتد الكفر وتشتد العداوة ، ثم يعود الى بيته مجهودا مشنوءا ، فيلاقي الزوج البرة ، ولسان حالها يقول له ، كما قالت أولا : « والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ، فيطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، وتقر نفسه الجائشة ٠

وان عاطفة الزوج المخلصة تلهمها بأطيب القول وأحكمه ، في أشد الاوقات التي تتضافر فيها أسباب الضيق النفسي والقلق ، وهي بحق التي تسمى السكن ، وكما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

هذا العام كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، كما يحقق الرواة ، وهو قبل فرض الصلوات الخمس ، كما يقول المحققون ، وهو بناء على ذلك قبل الاسراء والمعراج ، ولذلك ذكرنا عام الحزن قبلهما ، للترتيب الزمني أولا — ولان الاسراء والمعراج ، كانا لمواساة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأنسه بربه ، ولانهما فيما يظهر لنا فيهما اذهاب الوحشة التي نالت قلب الرسول الكريم بفقد حبيبين ٠ فبين الله تعالى بهذا الاسراء أن الله هو الحبيب الاعظم ، وهو الحامي وحده ولا حماية لاحد تقارب أو تداني حمايته ٠

---

(١) الروم

وان الاكثرين ممن كتبوا في السيرة يقدسون الكلام في الاسراء والمعراج ، لان فيهما تكميلا لبيان الفرائض الاسلامية التي تتعلق بالتوحيد وهي الصلاة.

ويقول في ذلك ابن كثير في تاريخه الكبير : « قال البيهقي ، وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة : وروي عن الزهري أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل قبل أن تفرض الصلاة قلت مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وكان الانسب أن تذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الاسراء كما ذكر البيهقي وغير واحد .

# أبو طالب وإيمانه

٢٨٥ ـ مما لا شك فيه ، ولا يماري فيه مؤمن أن أبا طالب كان له موقف في الدعوة الاسلامية ، وهو موقف من يحمي الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الضيق في سبيله ، وقد رضي أن يعيش ممنوعا ، هو وبنو هاشم وبنو المطلب ، مضيقا عليهم في الرزق ، وكل أسباب الحياة ، وذلك عندما قاطعه قومه هو وبنو هاشم ، ومن انضم اليهم من بني عبد مناف ، واستوى في ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وعلى رأسهم كبيرهم أبو طالب ، وقد كان المحرك لهم ٠

وكما كان منه هذا الموقف المشرف الرافع للحق لم يدخل في دين الله ، أو على الاقل لم يدخل في دين الله ظاهرا ، واستمر على ذلك ، لا يدخل فيما يدعو اليه محمد ، ولا يمتنع عن الدفاع ٠

والقارىء لسيرته أن يعتقد أن ذلك لمجرد العصبية الجاهلية ، ولفرط محبته لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن المحبة كانت هي الدافع لا العصبية وحدها ٠

فما كان ليرضى أن يغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أن يكون منه ما لا تقر به عين حبيبه وابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وهنا يرد سؤال ، وهو أمات أبو طالب بعد هذا البلاء في حماية الدعوة الاسلامية على الشرك ، ولم يخالط الايمان بشاشة قلبه ؟

يقول اخواننا الشيعة انه مات مؤمنا ، وأن الله تعالى أجرى على لسانه كلمة الحق ، لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠ ولهم في ذلك روايات أسندت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول جماعة أهل السنة ، ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقه والحديث انه مات على الشرك ، وأنه من أهل النار ، وأن الله تعالى يخفف عنه عذاب جهنم ، فيكون في ضحضاح من النار ٠

ويردون كلام الاولين بأنه من فرط التشيع لعلي ، فقد جرهم هذا التشيع لعلي الى أن يحكموا بايمان أبيه أبي طالب ، ثم يذكرون ضعفا في اسناد الاخبار التي روت اسلامه ، ونطقه بالشهادتين ، ويذكرون أن الاخبار الصحاح ذكرت أنه ما نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويذكرون أنه في الخبر الذي صح عندهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أنه يكون في ضحضاح من النار ، وأن ذلك استجابة لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالتخفيف عنه لما كان له من مناصرة له عليه السلام .

وانه من الحق علينا أن نذكر أمره عندما حضرته الوفاة .

٢٨٦ ـ ونقول ان كتب الصحاح من السنة كما تذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في خوف من نتيجة مرضه ، كان مشركو قريش في فزع من موته ، لانه كما كان حاميا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان كهفا لقريش يشكون أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، ليرجو أن يخفف عنهم ، ولنترك كلمة للمؤرخ المحدث الحافظ بن كثير في كتابه البداية والنهاية (١) .

« قال ابن اسحاق : ولما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله قالت قريش بعضها لبعض : ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في القبائل فانطلقوا بنا الى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه ، فانا والله لا نأمن أن يبتزونا أمرنا . قال ابن اسحاق ، وحدثنا العباس عبد الله ابن معبد ، عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبي طالب وكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعمرو بن هشام ( أبو جهل ) وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم فقالوا » :

يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ لنا ، وخذ له منا ، ليكف عنا ، ولنكف عنه ، وليدعنا ودیننا ، ولندعه ودينه .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٧ ـ بتصرف قليل فيه تقديم وتأخير مناسب ليتسق المنقول .

فبعث اليه أبو طالب فجاءه ، فقال يابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا اليك ، ليعطوك وليأخذوا • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم • فقال عمرو بن هشام ( أبوجهل ) : نعم وأبيك وعشر كلمات • ثم قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة الها واحدا • • ان أمرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض ، انه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا •

فقال أبو طالب : والله يابن أخي مارأيتك سألتهم شططا ، فطمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فجعل يقول له : « أي عم ، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » فلما رأى حرص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يابن أخي ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها الا لاسرك بها ، فلما تقارب من أبي طالب الموت • نظر العباس اليه يحرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه •

قال العباس : يابن أخي ، لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم أسمع » (١) •

هذا الخبر ، يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن قريشا ترى في بقاء أبي طالب ضمانا لامنهم ، واتصالهم بالنبي للتأثير فيه بعمه شيخ مكة •

ثانيها : عظم محبة أبي طالب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه ينطق بها محبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثالثها : أن الرواية تدل على أنه يصدق دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك من ناحيتين :

أولاهما : أنه قال : « ما رأيتك سألتهم شططا » أي أنه سألهم معقولا ،وهو: لا اله الا الله •

---

(١) حـ ٣ ص ١٢٣

والثانية : أنها تدل على أن أبا طالب نطق بكلمة الايمان ، كما قال العباس ، وقد رد الذين أنكروا ايمان أبي طالب:

أولا : بأن السند فيه تجهيل ، لانه قال عن بعض أهله ، فلم يعرف من الراوي ، وما حاله .

وثانيا : بأن الامام أحمد روى هذا السياق ، ولم يذكر كلمة العباس ، وكذلك الترمذي والنسائي وابن جرير .

وروى البخاري في سياق هذا الخبر أن عمرو بن هشام ( أبا جهل ) وعبد الله بن أمية ، عندما سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أن يقول لا اله الا الله ، قالا له : يا أبا طالب أترغب عن ملة :عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر ما تكلم به : « على ملة عبد المطلب » .

وهكذا غيرها من روايات الصحاح تدل على أنه لم يقبلها ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لاستغفرن لك مالم أنه عنك » .

٢٨٧ ـ وان الذي ننتهي اليه أن هناك أمورا ثلاثة تحققت منها اثنتان ، والثالثة موضع نظر :

الاولى : أن أبا طالب حامى على الاسلام ، بالدفاع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالدفاع عن المسلمين ،وما قاله من المدح لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم والثناء عليها ، وما أظهره له ولاصحابه من المودة والمحبة والشفقة في أشعاره ، وما تضمنه كلامه من العيب والتنقيص لمن خالف وكذبه بتلك العبارات الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التي لا تدانى ولا تسامى ، ولا يمكن عربيا مقاربتها ولا معارضتها ،وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد »(١).

الثانية ـ أنه ثبت أنه عندما حضرته الوفاة كان يزكي مطالب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ما عرف عنه بعد الدعوة المحمدية أن زكى الاوثان قط ، ولا فضل تقديسهم عن دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه تحمل الاذى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٦

ويضاف الى ذلك هذه المحبة الظاهرة ، والشفقة الظاهرة التي كانت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

الثالثة ـ النطق بكلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقد جاءت رواية بأنه نطق بها ، وقالها ، وهذه رويت عن العباس ، وتطاول بعضهم على مقامه، فقال انه قالها قبل أن يسلم ، وكأن القائل يرمي العباس بالكذب ، قبل الاسلام ، ومعاذ الله أن يكذب العباس بن عبد المطلب ، ولو قبل اسلامه ، لانه من ذؤابة قريش وأشرافهم ، والعربي لا يكذب وانظر الى ما رواه البخاري عن محادثة هرقل ملك الروم مع أبي سفيان ، فقد صدقه القول عن النبي وبينهما عداوة قال : « لولا أني أخشى أن تحفظ عني كذبة في العرب لكذبت، فهل يعد العباس أقل من أبي سفيان شرفا وهمة ؟ كلا انه القرشي الهاشمي، وعم النبي قبل الاسلام وبعده » .

٢٨٨ ـ واننا ننتهي من هذا العرض الذي تحرينا فيه صدق التلخيص أن أبا طالب لم يكن مكذبا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مقاوما معاندا ، فهل كان من المسلمين ؟ .

ويقول ابن كثير في هذا : « وهو في هذا كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه » (١) .

وكأنه بهذا يشبهه بعلم اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم اذ كانوا كما قال الله تبارك وتعالى عنهم :

﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٢)

ولكنهم لم يذعنوا لما يقتضي علمهم فهم يعلمون ولا يذعنون

وأني أسمح لنفسي أن أخالف الحافظ بن كثير في قوله هذا ، أو انطباقه على أبي طالب ، وأحسبه هو قد وجد فارقا بين معرفته لله ولدعوة الرسول واليهود ، وأقول ان علم أبي طالب قد صحبه ما يدل على التصديق والاذعان ،

(١) الكتاب المذكور

(٢) البقرة

فهو علم مقترن باليقين والاذعان ، كمادلت عباراته ، وكما دافع عن الاسلام فاذا كان ثمة نقص بالنسبة لابي طالب، فهو أنه لم ينطق بموجب التصـــديق والاذعان ، واني لذلك أقول انه لايمكن أن يكون مشركا قط .

أولا : لانه استنكر أقوال قريش وأيد دعوة التوحيد .

وثانيا : لانه دافع عن التوحيد وأهله ، وتلقى الاذى كما تلقى المؤمنون الصادقون .

وثالثا : لانه صرح بأن محمدا صادق راشد .

وان وجد من يتردد في ادخاله في زمرة المسلمين ، ولو كانوا ضعافا ، فاننا لا نتردد في اخراجه من زمرة المشركين، واذا كان قد نسب اليه ، أنه قـــال وهو في سكرات الموت : على ملة عبد المطلب استجابة لاحد الاشياخ من قريش، فانا لا نحسب أن هذه الكلمة تعارض كل ما كان منه من دفاع عن الاسلام ، وتصريحات كثيرة له بأن دعـــوة محمد صادقة راشدة ، قالها وهو صحيح معافى. ونختم كلامنا في هذا بما قاله الحافظ بن كثير في أبي طالب فقـــد قال رضي الله عنه :

« أبو طالب كان يصد الناس عن أذية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن أصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقدر الله تعالى له الايمـــان ، لما له تعالى فى ذلك من الحكمـــة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغة الدافعـــة التي يجب الايمان بها والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله تعالى عنـــه من الاستغفار للمشركـــين ، لاستغفرنا لابي طـــالب وترحمنا عليه » (١) .

ونحن نقول فيمـــا استنبطنا ، انه ليس بمشرك قط ، لان المشرك من يعبد الاصنام ، ويشركها مع الله تعالى ، وأفعاله وأقواله ، ومواقفه تدل على أنه يرى عبادة الاصنام ويراها أمرا باطلا ،ولذلك أميل الى أن أستغفر له ، ان كنت مع أهـــل هذا المقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلا ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصـــدور ، وما تخفى الانفس .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٦ ـ الكتاب المذكور ص ١٢٧

# خديجة

٢٨٩ ـ كانت خديجة هي الفقيدة الثانية التي أدخل موتها الحزن في قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قطعة من نفسها ، وهي التي أذهبت عنه الرعب يوم جاءها يرجف فؤاده من أول لقاء بالوحي الالهي ، وهي التي كانت تأسو جراح قلبه ، كلما لقي من قومه صدودا وأذى ، وهي التي شاركته في حمل ضرائه ، وكانت لها المنزلة الاولى بين نسائه ٠

ولمكانتها في نفسه لم يتزوج في حياتها غيرها قط معها ، ولكن تزوج من بعدها ، وعدد الازواج ، وكان الحل لمقاصد ، ليس منها الشهوة ، بل ليؤلف بينه وبين قبائل العرب وليولي أصحابه المحبة ويدنيهم منه وليؤوي أزواج من يموتون من أصحابه ، أو يقتلون ، ويتركون أزواجهم من غير عائل يعولهم ، ليتحقق بالعمل قوله عليه السلام : «من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا ، فالي وعلي » ٠

وانها لعظم منزلتها من النبي ، وفي الاسلام ، بشرت ببيت في الجنة من قصب :

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال « أتى جبريل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت باناء ، فيه ادام ـ أو طعام أو شراب ـ فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب والقصب المراد به اللؤلؤ ٠

وقد قال السهيلي « انما بشرها ببيت في الجنة من قصب يعني قصب اللؤلؤ ، لانها حازت قصب السبق الى الايمان ، ولا صخب فيه ولا نصب ، لانها لم ترفع صوتها على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم تتعبه في الدهر ، فلم تصخب عليه يوما ، ولا آذته أبدا » ٠

ولقد كان يذكرها دائما بالخير ، يحب من كانت تحبه ، ويواد من كانت توده ، حتى كان ذكرها الدائم يثير غيرة بعض نسائه ، حتى لقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما غرت من امرأة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما غرت من خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله تعالى أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، وان كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن » (١) .

وكان مع ذكرها يكرم ذكراها ، ومن يذكره بها ، ولقد استأذنت عليه هالة بنت خويلد أختها ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح ، فقال : «اللهم هالة» .

وروى الامام أحمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء فغرت يوما ، فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيرا منها ، قال ما أبدلني خيرا منها ، وقد آمنت بي اذ كفر بي الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وآستني بمالها ، اذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها اذ حرمني أولاد النساء » .

وواضح أن ذلك قبل أن يهب الله تعالى له ابراهيم من مارية القبطية .

واننا نرى من هذا الكلام كله مكانة أم المؤمنين خديجة في نفس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف كانت المواسي ، اذا ادلهمت الامور ، واشتد البلاء ، وكيف كانت المؤنس اذا استوحش من الناس ، وكيف كانت الهدأة والسكن اذا ارتاع من هول ما يفعل الناس ، فكان حقا عليه أن يسمي عام وفاتها ووفاة عمه الكريم عام الحزن ، وقد فقد فيه الحبيبين ، الحامي ، المكافح والمؤنس المواسي .

وقد مات أبو طالب قبل خديجة على أصح الروايات ، وقيل كانت وفاته قبلها بثلاث ليال ، ويذكر بعض الرواة أن وفاتها كانت قبل وفاته بنحو من خمس وثلاثين ليلة ، وان الراجح أن وفاته كانت قبل وفاتها ومهما يكن الامر في المقدم والمؤخر ، فان وفاتهما معا أورثت حزنا شديدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) البخاري البداية والنهاية ص ١٨ جـ ٣

# مَا كَانَ بَعْدَ موت أبي طَالب

٢٩٠ ـ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ما نالت مني قريش ، شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » ولقد لزم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيته بعد موت عمه الشفيق ، وأقل الخروج .

ثم لما خرج ، وباشر الدعوة وبلغ رسالة ربه كلبت عليه قريش حتى كانوا يؤذونه في بيته فكان جيرانه جيران سوء ، ومنهم أبو جهل ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن معيط وعدي بن الحمراء وابن الاصداء الهزلي ، وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي .

وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال : « بينما رسول الله يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالامس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم الى سلا (١) جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد اذا سجد، فانبعث أشقى للقوم . فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا نائم أنظر والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه .. حتى ذهب انسان فأخبر فاطمة ، فجاءت ، وهي جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، رفع رأسه ، ثم دعا عليهم ، وكان اذا دعا ، دعا ثلاثا واذا سأل ، سأل ثلاثا ، ثم قال . اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام ،وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، فوالذي بعث محمدا بالحق ، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر» .

اشتد أذى قريش للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن أكثر الاذى الذي نال شخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعد وفاة أبي طالب .

---

(١) السلا : الغشاء الذى يحيط بمولود الناقة بعد خلاصها.

ولقد قال ابن كثير في ذلك :

« وعندي أن غالب ما روي مما تقدم من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه ، وهو يصلي كما رواه ابن مسعـــود ·· وكذلك ما أخبر به عبد الله ابن عمرو بن العاص من خنقهم له صلى الله تعالى عليه وسلم خنقا شديدا ، وكذلك عزم أبي جهل ·· لعنه الله على أن يطأ عنقه ،وهو يصلي فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك ــ ذلك كله كان بعد وفاة أبي طالب والله أعلم ، فذكـــره هاهنا أشبه وأنسب » ·

وان هذا الكلام له وجاهته ، وعلى ذلك نذكر أن أذى المشركين أخذ دورين:

الدور الاول : « ما كان قبل وفاة أبي طالب ، وقد كان أذى النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم كان بالاستهـــزاء والسخرية والسب ، ولا ينالون منه بغـير السنتهم ، ويقوم بذلك سفهاؤهم كأبي الحكم بن هشام ( أبي جهل ) وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهما من سفهاء القـــوم ·

وكان مع ذلك التعذيب والايذاء البدني للضعفاء ، وغير النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى الى الهجـــرة الى الحبشة مرتين ، وكان فيهـــم كبراء كجعفر بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، ولعل هجرتهم كانت لاذى القـــول والسخرية والاستهزاء ·

الدور الثاني كان بعد وفاة أبي طالب ، وهنا اشتد الاذى ، وكان الاعتداء بالقول والفعل حتى اضطر النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم الى أن يطلب الجوار ليدخل مكة ، فأجاره مطعم بن عدي ·

واذا كان قد فقد حماية أبي طالب ،فقد عوضه الله تعالى بحمايته ·

## حماية الله للنبي ﷺ

٢٩١ ـ روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، قال : مر أبو جهل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلي ، فقال ألم أنهك أن تصلي يا محمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني ، فانتهره النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : « فليدع ناديه سندع الزبانية » ، والله لو دعا ناديه لاخذته زبانية العذاب .

وروى ابن جرير الطبري بسنده عن أبي هريرة : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم : قال فواللات والعزى عندما رأيته يصلي كذلك لاطأن على رقبته ، ولاعفرن وجهه بالتراب . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته . فما فجئهم منه الا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه فقيل له : مالك !! قال ان بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنامني لا ختطفته الملائكة » .

ولقد حدث عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة ، والرسول عليه السلام يدعوهم الى الله ، ويبين لهم أن الاحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها لا تغني عن الله تعالى شيئا ، ثم غادر مكانهم . فقام أبو جهل بن هشام فقال :

يا معشر قريش ، ان قد أبى الا ماترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، واني أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر ، فاذا سجد في صلاته ، فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت قبلته للشام ، فكان اذا صلى ، صلى بين الركنين الاسود واليماني ، فجعل الكعبة بينه وبين الشام فقام يصلي .

وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا له ، مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه .

رأى رجال قريش الذين غدوا ليروا ما يفعل وما كان به ، فقالوا له ما بك يا أبا الحكم !! فقال : قمت اليه لافعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلني .

هذه أخبار رواة ثقات بأسناد صحيحة قوية ، واذا كان في بعض أسنادها ضعف فالقوي يرفع الضعيف وحسبنا رواية القوي .

ونحن نرجع ما رآه ابن كثير من أن ذلك بعد وفاة أبي طالب ، وان كتب السيرة ، والاحاديث التي رويت بأسناد صحيحة لا تذكر زمان الوقائع ولكن تعنى بصدق الوقائع بروايتها عن ثقات اثبات . واذا كان الزمان غير ثابت ، فمن حق المؤرخ الفاحص أن يذكر الأحداث مرتبطة مما يناسبها ، وهو الوقت الذي خلا فيه النبي صلى الله عليه وسلم من نصرة النسيب القريب الذي ألهمه الله تعالى المحبة والذود عن نبيه ، ولو كان في أكثر حياته لم يعلن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا قبضه الله تعالى اليه ، كانت النصرة لله تعالى وحده الذي لم يضيع عبده ورسوله ساعة من زمان .

# المهابة مع المحبة

٢٩٢ ـ كانت حماية الله تعالى لرسالته التي بلغها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر في أوقاتها حيث كان الاذى يشتد ، والاستهزاء يكثر ، فيذكرهم الله تعالى بأنه لم يترك نبيه لسخريتهم واستهزائهم ، فتظهر المهابة الرادعة القاطعة في وسط سخريتهم ، وتطاولهم على مقام النبوة .

ولنذكر في ذلك واقعتين تبينت فيهما مهابة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي ألقاها الله تعالى عليه مع محبته ورحمته .

الاولى : قصة الاراشي ، وخلاصتها كما روى محمد بن اسحاق بسنده عن عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي قال : قدم رجل من اراش بابل له الى مكة ، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فاقبل الاراشي حتى وقف على نادي قريش ، ورسول الله جالس في ناحية المسجد فقال :

يا معشر قريش من رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام ، فاني غريب وابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ؟

فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون الى رسول الله ، يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة ، اذهب اليه فهو يعديك عليه .

فاقبل الاراشي ، حتى وقف على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر ذلك له . فقام معه ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع . فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه . فقال من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج اليه ، وما في وجهه قطرة دم ، وقد امتقع لونه ، فقال له عليه السلام : اعط الرجل حقه . قال لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال للرجل : ارحل لشانك ، فاقبل الاراشي حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، قد أخذت الذي لي .

جاؤوا الى الرجل الذي بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت ؟ قال عجبا من العجب ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ، فقال اعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه ، فدخل فأخرج اليه حقه .

لم يلبث أن جاء أبو جهل الى المجلس، فقالوا : ويلك ، والله ما راينا مثل ما صنعت . فقال ويحكم ، والله ما هو أن ضرب على بابي ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، فخرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ،فوالله لئن أبيت لاكلني .

وان هذه الواقعة تدل أولا على هيبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعين بها اذا أراد في اقامة حق وخفض باطل،ولا يستعين بها في الدعوة الى الله تعالى دائما ، حتى يكون دائما رؤوفا رحيما ،والرأفة تلين القلوب ، والهيبة اذا استخدمت باستمرار أرهقتها ،وأرهبتها،والرسالة تستدعي تاليف القلوب دائما واللين دائما ، ولقد قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

وتدل ثانيا على أن أشد الناس سفها، وتهجما على الناس ، واستهانة بحقوقهم ، وهو في وسط الجموع هو أشدهم خوفا ، وهلعا وفزعا اذا انفرد فهو جبان رعديد ، اذا لاقى خصمه وجها لوجه ، وانك لترى الذين يبالغون في الايذاء من الحكام وغيرهم أشدهم فزعا،اذا أحسوا بأنهم مرام مقصود ، وانفردوا . فالتهجم من فرط الاندفاع،وهو لا يتنافى مع الجبن ، بل انه يلازمه اذا لاقى الاقوياء .

هذه هى الواقعة الاولى التي أردناها. أما الواقعة الثانية : فهى ما رواه البيهقي بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت من قريش قريشا أصابت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوة ؟ فقال رأيتهم، وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر،

---

(١)آل عمران

فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصبرنا معه على أمر عظيم .

قال : فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقبل يمشي حتى استلم الركن . ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها في وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها . فقال: « أتستمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح » .

فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنه على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه ، حتى انه ليقول : « انصرف أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول » .

انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا في الحجر ، وأنا معهم ( أي عبد الله بن عمرو ) قال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا بدأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول : كذا ، وكذا ، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم أنا الذي أقول ذلك » ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ويقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول « ربي الله » ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لاكبر ما رأيت قريشا بلغت منه قط (١) .

وان هذه الواقعة تدل أيضا على هيبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطاقته النفسية ، ولا ينافي هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من اثم ، فان الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ، ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها ، فقد لقوه في المرة الاولى ، وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء ، ويلقي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص٤٦

في قلوبهم الرعب فاثمر ذلك في نفوسهم ،ولما استرجعوا أنفاسهم، واستردوا تفكيرهم الآثم بعد الصدمة التي أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ، ثم كانت تلك الحركة التي أخذ فيها بعضهم بمجامع ردائه ، وان ذلك لا ينافي الهيبة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم عندما يعتزم القول والقاء المجابهة في القلب.

ولننزل عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم الى من دونه .

فقد كان عمر رضي الله عنه من ذوي الهيبة ، ولم تمنع هيبته تدبير اغتياله ، وعلي كان على قدر من الهيبة عظيم ، بل كان المهوب المرهوب ،ولذلك لما دبروا قتله . انتدب له اثنان أنفسهما، وغذي السيف بالسم شهرا ومع ذلك لم تمنع هذه الهيبة ، وتلك الرهبة ،التدبير والاقدام .

وهكذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما منع به شر الاشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس ، وعزم صدق .

## محمد عليه الصلاة والسلام في الطائف

٢٩٣ ـ ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وايذاء له ولاصحابه ، وقد بلغ الدعوة فيهم ، وكلبوا عليه ، ولكن دعوته عامة ، وليست لقريش وحدهم بل هي للناس أجمعين ، وقد علمها أهل مكة ، وقاوموها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولله في ذلك حكمة ، ولو كانوا أول من يطيعه لقيل انهم يريدون بذلك السلطان على الناس .

لقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل توسيع نطاق الدعوة الى الطائف التي تقرب من مكة ، ولها من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة ما لمكة ، وربما يرى فيهم نصرة لم يرها من قريش .

وله في الطائف نوع رحم ، لانه رضع في بني سعد ، وهم قريبون من الطائف ، ففيهم مراضعه ، وحواضنه ، وذلك فوق القرب النسبي ، فقد كان بينها وبين مكة نحو ١٢٠ ( عشرين ومائة ) ، ميل ، وذلك ليس ببعيد في الشقة في عرف أهل البلاد الصحراوية .

ذهب الى الطائف في أخريات شوال من السنة العاشرة ، ذهب الى الطائف ليس لمجرد اشتداد قربه منه كما تذكر كتب السيرة . ولكن ذلك قد يكون بعض الاسباب ، وليس أقواها ، وانما لذلك ، ولانه اعتراه ما يشبه اليأس من ايمان قريش ، أو من بقي منهم ، وما كان له أن يضرب في حديد بارد ، أو أن يقصر دعوته عليهم ، وقد غلب عليهم الجدل بالباطل من غير أن يتجهوا الى الاقتناع ، فلا يشغل نفسه بهم ، واتجه الى بلد غير بعيد ، وهو الطائف ، يرجو منهم الاتباع ، ومن وراء الاتباع النصرة .

ذهب صلى الله عليه وسلم الى الطائف سعيا على قدميه مع أن المسافة كما قلنا تبلغ نحو عشرين ومائة ميل ، ولم يكن معه الا مولاه زيد بن حارثة الذى أعتقه

من قبل ، وقد صار له حبيبا ودودا ،فلم يكن له خادما ، بل كان معينا ، وقد ذهب راجلا كما ذكر قيل لانه لم يردأن يعلم أحد بذهابه ، وقد يكون ذلك بعض السبب ، ولكن نقـــول انه كان يجاهد في سبيل الدعوة ، ويبلغ به الجهد والجهاد أقصاهما .

قال ابن اسحاق في سيرته بسنده لماانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم أخوة ثلاثة . عبد ياليل بن عمرو بن عمير ،ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير ، وابن عوف بن عقـدة بن عوف بن ثقيف (١) .

التقى بهؤلاء الذين كانوا يعـدون من أشرافهم ، لمكانة أبيهم في ثقيف .

وقد كانت هذه الرحلة النبوية الى ثقيف غير محققة الاستجابة ، ولكنهـا كانت جهادا في سبيل الدعوة من صاحبها .. ولنذكر لك المجاوبة التي كانت بين النبي ومن تحدث عليهم من أولادعمرو بن عمير ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أولاد عمرو بن عمير، فدعاهم الى الله ، وبما جاءهم له ، من نصرته عليه السلام ، والقيام معه على من خالفه من قـومه ، فأجابوه بنكـــر من القول .

قال أحدهم : وهـو يمرط ثياب الكعبة ، ( أي انه ينزع كساء الكعبة ) ان كان الله تعالى أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينزع ثياب الكعبـــة وكأنه يسخر بالرسول ، ويعلق على ارسال النبي صلى الله عليه وسلم من الله أن ينزع هـــو ثياب الكعبـــة ، وذلك مستحيل لقدسيتها .

وقال الثاني : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !! وكأنه يستنكر أن يكـون هو الرسول .

وقال ثالثهم : لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك ، وان كنت تكذب على الله ماينبغي لي أن أكلمك .

كان الرد كله تهكما واستهزاء ، فرأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا استجابة منهم ، ويئس منهم وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤١٩

واذا كانوا غير مستجيبين لدعوة الله ، فانه قد يكون فيهم مروءة ، فرأى عليه السلام أن يخفوا مجيئه اليهم ، وكره أن يبلغ قومه فيدثرهم أى يثيرهم ، ولكنهم للؤمهم لم يخفوا أمـــره ، بل أعلنوه ، بل أغروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونه ويتصيحـــون به ، حتى اجتمـــع الناس عليه ٠

وقد روى موسى بن عقبة أنه قعد لهأهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الارضخوهما بالحجارة ، حتى أدمـــوه ، فمضى ، وهما يسيلان دما (١) ٠

عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلممن تلك الرحلة الشاقة لقوم لئام ، لم يذوقوا معنى المروءة ، ولم يعرفوا الكرامة الانسانية في أي صـــورة من الصور الآدمية ٠

أشد البلاء ما يثير عطف العدو اللدود ، وقد أثار ما فعـــل أولئك اللئام عطف ابني ربيعة عتبة وشيبة اللذين اشتركا من قبل في ايذاء النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فقد كان لهمـــا بستان قريب من الطائف ، قـــد آوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى ظل شجرة من أشجاره ٠

لقد تحركت الرحم في ابني ربيعة ،فبعثا غلاما لهما يقال له عداس بقطف من العنب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتبلغ به ، وذلك من الكـــرم القرشي ٠

## عَدَّاس والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

٢٩٤ ــ كان عداس نصرانيا ، فذهب بالقطف الذي كان في طبق ، وقدمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فابتدأصلى الله تعالى عليه وسلم أكله بقوله : « باسم الله » فنظر اليه عداس ، وتفحصفي وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ٠ فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ومن أي البلاد أنت عداس وما دينك ؟ قـــال نصراني ، ومن أهل نينوى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ٠ فقال

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٦

عداس : وما يدريك ما يونس بن متى!؟فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك أخي ، كان نبيا وأنا نبي .

أكب عداس بن مالك على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

رأى ابنا ربيعة ما كان من الفتى النصراني . فلم يلن ذلك قلبهما للاسلام، فقال أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك .

لما عاد اليهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

قال : يا سيدي ، ما في الارض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر لايعلمه الا نبي .

قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فدينك خير من دينه .

كانت العاطفة الكريمة ، ومعها ذلك الضلال المبين ، وان كان الحق واضحا ، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فكان الطغيان ، وكان الكفران وكان الضلال.

## دعاء، وعفو، واجارة:

٢٩٥ ـ أحس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالجفوة ، ومرارة الاذى من هؤلاء اللؤماء ، وبما أرادوا له من مهانة ، فلم يجد مثابة الا في أن يلجا الى ربه ضارعا ، فقال دعاءه لربه وكان بعد أن غادر ابني ربيعة ، ورأى ما رأى من عداس بن مالك ، واطمأن قال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ، الى بعيد يتجهمني ، أم الى عدو ملكته أمري ، ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك، لك المتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة الا بك » .

دعاء منبعث من نفس مكلومة ولكنها راضية ، لانها تقوم بأعظم دعوة في الوجود ، فيهون في سبيلها كل أمر مهما يكن عنيفا ، وكل شديدة مهما

تكن بالغة ، فهو يقبل ما قدره الله وما يرضاه ، ولا يهمه الا غضب الله عليه وما دونه يهون ٠

استجاب الله تعالى لدعائه عليه السلام ، وبين له أنه معه ، وقد ثبت في الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال ما لقيت من قومك ٠٠ اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ٠٠ فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت ، فاذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال ٠ « ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم ناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ ، ثم قال يا محمد ، قد بعثني الله ، ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثني اليك ربك لتأمرني ما شئت ، ان شئت فأطبق عليهم الاخشبين ( جبلين بمكة ) فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) ٠

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه ، وقد ذكر في دعائه ضعف قوته ، فبين الله تعالى بأنه يضع في يده كل القوى ، وأنه لا يمكن أن يهون عند الناس ، والله تعالى معه ، وانه لم يتركه لعدو ، ولاولي ، بل ان أمره عليه السلام الى الله سبحانه ، وهو القاهر فوق عباده ، فمن كان مع الله تعالى لا يهون أبدا ٠

## سماع الحق له :

٢٩٦ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حفيا بأن يتبع الناس دعوة الحق ، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الاوثان ، وكما قال الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

شكا أن قومه لا يتبعون ، وأن غيرهم كمثلهم ، فبين الله تعالى أنه اذا كان

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٧ (٢) الشعراء

الذين اتبعوه من قومه عددا قليلا ، فان له أتباعا من الحق ، فبين الله تعالى أن بعض الجن قد استمعوا ، واستجابوا ولم يكفروا فقال تعالى مخبرا عن سماعهم، وكان سماعهم فيما يروى الرواة بعد خروجه من الطائف ، وما نزل به ، قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى في سورة الجن :

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

والجن كما تدل ظواهر القرآن الكريم وما روي من أخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جنس يقابل الانسان ،فليس الجن من الاناسي ، ولا يتفق مع القرآن قول من يقول انهم طائفة من الناس غيبوا في الارض ، أو بعدوا فيها . ولقد أخطأ وجانب الصواب من يقول انهم الانصار ، فذلك كلام باطل بالبداهة ، ولكن تبع الغربيين بعض الذين ليس لهم استقلال فكري أمام ما يقوله الغربيون ، وليست عندهم طاقة يستطيعون بها تمييز ما هو حق وما هو باطل ، وما هو خطأ وما هو صواب .

---

(١) الاحقاف (٢) الجن

ان كل عبارات القرآن تصرح بأنهم جنس مقابل للانس ، وآيات الكتاب لكريم في ذلك كثيرة ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (١)

وان هذه الآيات الكريمات تدل بصريحها على أن الجن جنس ، والانس جنس آخر .

ويقول تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

وأننا نأخذ من صريح هذه النصوص اختلاف الجنسين ، فليس الانس من الجن ، ولا الجن من الانس ، وان الواجب أن نأخذ بظواهر الالفاظ الا اذا قام الدليل على أن الكلام على ظاهره مناقض لحقيقة شرعية قد علمت من الدين بالضرورة ، أو أمر عقلي مستحيل مخالفته .

---

(١) الانعام (٢) الاسراء (٣) الرحمن

وأولئك الذين يريدون أن يخرجوالفظ الجن عن ظاهره ، في القـرآن هم من أولئك الذين لا يفكرون في غـير المحسوس ، فلا يؤمنون الا بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، وهو الركن الاول للايمان ، ولذلك كان أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب ، اذ يقول سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

وفيصل للتفرقة بين الايمـان والزندقة الايمان بالغيب .

وبعد ذلك نتساءل ما حقيقة الجن ؟والجواب عن ذلك أننا نميل الى ما يقرره العلماء المسلمون . وهو أن الجن من نار ، واعتمـدوا في ذلك عـلى نص القرآن ، لا على الاوهام ، وذلك لان الله تعـالى قـال عن ابليس اللعـين

﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢)

ولما أبى واستكبر ولم يسجـد لآدم ،قال فيما حكى الله سبحـانه وتعالى عنه :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣)

وبالتقاء النصـين الكريمين يثبت أنابليس بصريح اللفظ كان من الجن ، وأن الجن خلق من نار .

هذا ما يدل عليه صريح القرآن .

وان سماع الجن وايمـان بعضهـم تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه بيان أنه اذا كان قد بطؤت الاجابة في الانس فقد سـارعت الجن الى الاجابة:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤)

---

(١) البقرة (٢) الكهف (٣) ص (٤) المائدة

## في جوار المطعم بن عدي

٢٩٧ ـ كان لابد أن يعود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة مهبط الوحي ، ومجتمع العرب في موسم الحج ، لان الخطة التى رسمها وابتدأ بها في الطائف تقتضي العودة الى مكة ، وتلك الخطة أن يتصل بالقبائل العربية في أثناء اجتماع وفود القبائل في الحج الى بيت الله الحرام .

همّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرجوع الى مكة ، وهو عند حراء ، وكان معه زيد بن حارثة الذي صحبه في هذه السفرة فخشي على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب بألا يرجع الا في جوار أحد من سادة مكة المشركين ، حتى لا يضار .

فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند مشورته ، فأرسل الى الاخنس بن شريق أن يجيره بمكة . فقال انه حليف قريش لا يجير على صحيحها .

ثم بعث الرسول الى سهيل بن عمرو ليجيره ، فقال : ان بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي .

ثم بعث الرسول الى المطعم بن عدي ليجيره ، فقال للرسول نعم ، قل له فليأت ، فذهب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبات عنده تلك الليلة .

ثم لما أصبح الصبح خرج معه وبنوه ستة ـ أو سبعة ـ على اختلاف الرواية ـ متقلدو السيوف جميعا ، فدخلوا المسجد فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : طف . واحتبى هو وأولاده بحبائل سيوفهم في المطاف .

كان ذلك اعلانا قويا بهذا الجوار الكريم ، فجاء أبو سفيان بن أمية بن عبد مناف ، وأقبل على مطعم بن عدي فقال أمجير أم تابع ؟ قال : بل مجير ، فقال اذن لا تخف .

وكأن أبا سفيان بهذا السؤال يشير الى أنه ان كان تابعا فهو حرب مع النبي يناله ما ينال أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كان مجيرا فانه تحفظ ذمته ، لانه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة .

ومن هذا تعرف حكمة الله تعالى في أن أبا طالب لم يعلن اسلامه مع حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه لو أعلن الاسلام لحاربوه مع من آذوا من أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يرعوا فيهم الّاً ولا ذمة .

# انشقاق القمر

٢٩٨ ـ قلنا ان الامور التي كانت بعد الدعاء المحمدي كانت استجابة لهذا الدعاء وابعادا للوحشة عن قلبه الطاهر ، فمجيء تلك الجبال كان لاشعاره عليه السلام بالقوة ، وقد شكا ضعف قوته ، وسماع الجن للقرآن وايمان بعضهم كان لا يناسبه عليه السلام بكثرة الاتباع ، ثم كان تسهيل الجوار ليدخل الى مكة ويكمل دعوته ، فيه اثبات سعة الحيلة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، هداه الله تعالى اليها لكي يذهب بقلة حيلته التي شكاها رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام ٠

وكانت من بعد ذلك الآيات الحسية ،التي كان منها انشقاق القمر ، والاسراء والمعراج ٠ لبيان أن الله تعالى لم يتركه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١)

وقد ذكرنا أن كتّاب السيرة لم يذكروا الاخبار مرتبة بترتيب الوقائع وقد ذكروا انشقاق القمر بعد الاسراء والمعراج ، ونحن قد رجحنا كما رجح ابن كثير أن الاسراء كان بعد وفاة أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، اذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، والصلوات لم تفرض خمسا الا في المعراج ٠

وقد ذكر بعد المعراج انشقاق القمر ، وان المناسبة تزكي ذلك الترتيب فان ذلك تقوية للاستدلال على صحة الرسالة ، وان كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعده عليه السلام المعجزة ٠

ولندخل من بعد للموضوع ، وهو انشقاق القمر ٠ لقد قال تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (٢)

---

(١) الضحى (٢) القمر

ويقول في ذلك ابن كثير : وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت بذلك الاحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر ان شاء الله تعالى • وبه الثقة وعليه التكلان ويذكر من بعد ذلك الحافظ الحجة ابن كثير الاخبار الصحاح الواردة في ذلك •

وقبل أن نختار من هذه الصحاح ما نراه أوضح من غيره دلالة ، نقول ان انشقاق القمر ثبت بلفظ الماضي مما يدل على حكاية الواقع ، لا ذكر المتوقع، فان اللفظ القرآني يؤخذ بظاهره مالم توجد قرينة من حقيقة ثبتت بالاجماع والعلم الضروري ، أو من قضايا العقل المبثوثة التى لا مجال للريب فيها ، أما تأويل القرآن ، واخراجه عن ظاهره باستبعاد بعض ذوي العقول المأفونة أو المتأثرة بالمألوف بين الناس ، وتنكر ما عداه ، ولا تعلم أن هناك قوة مغيرة محدثة منشئة هي قدرة الله تعالى وارادته التي توجب الايمان بأن الله تعالى فعال لما يريد ، مختار فيما يفعل ، وأنه وحده خالق كل شيء ، خلق الاسباب والمسببات لا توجب ارادته أسبابا عادية :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

وعلى ذلك نقرر أنه وقع في الماضي في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لان قوله تعالى :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

وقد عبر عن انشقاق القمر بلفظ الماضي الدال على الوقوع في زمن مضى ، وتخريجها على أن الماضي أريد به المضارع ، وأنه سينشق ، تخريج للفظ بغير ظاهره الذي دل عليه القرآن بظاهره لابد له من مسوغ يوجب ذلك التخريج، ويكون قرينة دالة على أن اللفظ أريد به غير ظاهره •

٢٩٩ ــ هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن ، وهو في ذاته حجة دالة على الوقوع لا يحتاج الى حجة أخرى تؤيده فهو يؤيد غيره ، ولا يستمد التأييد من

---

(١) (الأنبياء ) (٢) القمر

غيره ، ولكن السنة تبين لنا كيف وقعلا أصل الوقوع ، فنحن نرجع الى السنة لبيان شكل الوقوع ٠

لقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الوقوع ، أو شكل الوقوع يثبت بعدة طرق عن كثيرين من الصحـــابة ، فروي عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجبير بن مطعم ،وحذيفة ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين ٠

روى البخاري ومسلم أن أهل مـكة سألوا النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم آية ، فانشق القمر فانشق القمر بمكة مرتين ، وفي رواية لمسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، رواه البخاري ، وزادت روايته حتى رأوا حـراء بينهما ٠

وبذلك تفسر كلمة مرتين بأنه صار فرقتين ٠

وروى الامام أحمـــد عن جبير بن مطعم : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصـارفرقتين فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد ،وقالوا ان كان سحـرنا ، فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ٠

وروى البخاري عن ابن عباس ، قال ان القمر انشق في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال البخاري قدمضى ذلك كان قبل الهجرة ، انشـــق القمر ، حتى رأوا شقيه ٠

ويقول ابن عباس فيما روى عنه أبو نعيم بسنده ، « اجتمع المشركـون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ،ونظراؤهم فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان كنت صـــادقا فشق لنا القمر فرقتين ، نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قيقعان ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا وكانت ليلة بدر ، فأمسى القمر قـــد شق نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قيقعان » ٠

وهكذا تضافرت الروايات ، وهـذا بعضها يدل على أن القمر شق ، وكان شقـين ، وكان القمر بدرا ، وعينت بعض الروايات أنه كـان في الليلة الرابعة عشرة ، وليس لاحد أن يشك في هذه الروايات التي يسند بعضها بعضا ، حتى ادعى ابن كثير أن أخبار انشقاق القمر في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت حد التواتر ، وانه لم يعد ثمة مساغ لمستريب ، ولا مجال للتكذيب ، وخصوصا أن الاصل ثابت بظاهر القرآن ، والاحاديث مبينة لشكل الوقوع ، لا لاصل الانشقاق ، فانه ثابت بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولـكن الذين ينكرون يستغربون ثم يؤولون ، ان كان للايمان بالقرآن بقية في قلوبهم .

٣٠٠ ـ ان الذين يستغربون ، ثم ينكرون ، ويؤولون ان كانوا مسلمين يردون أن ذلك لو حصل وهو أمر كوني لكان مرئيا في كل بقاع العالم . ولم يختص العـرب برؤيته ، بل تعم ولا تخص ، وقد ردد ذلك النصارى من كتّاب المشرقيات ونقله عنهم الذين يتعرفون أمور الاسلام من هؤلاء .

ونقول لعلماء الغرب الذين يشككون في القرآن . لقد صدقتم ما هو أشد من ذلك غرابة ، فان الاناجيل التي يصدقونها ، ويؤمنون بكل ما فيها يقولون في ميلاد المسيح عليه السلام انه علم ميلاده عند المجوس بنجم أعلمه ، وأنهم جاءوا من بلادهم ، والنجم يسير أمامهم ، حتى علموا مكانه عن طريق النجوم ، فهل كان الناس قدروا ذلك . كما تطالبون المسلمين بأن يثبتوا أن الناس جميعا قد رأوا انشقاق القمر ، والا فهم في حل من أن يكذبوا القرآن الكريم :

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ (١)

ومع ذلك فاننا نقبل الاعتراض ، وان كانوا غير مخلصين ، ولا مؤمنين بما يقولون ، ونقول في رده أن العـرب المشركين عندما رأوا القمر قد انشق ،

---

(١) الكهف

لم يؤمنوا وقالوا سحرنا محمد ــ وحكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقد قال تعالى في واقعة انشقاق القمر :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ ﴾ (١)

وبعضهم أراد أن يتعرف ، وانتهى تعرفه بأن الناس الذين علموا أمره من غير المقيمين قد رأوه منشقا • فقدروى الامام أحمد ، والشيخان البخاري ومسلم عن ابن مسعود : « قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحرابن أبي كبشة ، فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فان محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البيهقي مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضا ، فقد قال : انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش لاهل مكة : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفار ، ان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وان كانوا لم يروا مثل ما رأيتم، فهو سحر سحركم به قال فسئل السفار ومن قدموا من كل وجهة ، فقالوا رأينا•

من هذه الصحاح يتبين أن الرؤية كانت عامة ، ولم تكن مختصة باقليم ولا ببلد ، وقد تحرى أهل الفحص والنظر فرأوا أن قد رؤي في كل الاماكن التي كانت تجاورهم ، أو أتى فيهم السفر بخبره ، فدل هذا على أن الرؤية كانت عامة ، والقرآن صادق وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صادقة من كل الوجوه ولا سبيل لانكارهم بتوهمتوهم ، أو استغراب مستغرب ، فأمارات الصدق قائمة بينة ، ولا يرد الامر البين بتوهم واهم ، أو استغراب مستغرب ، أو انكار كافر جحود •

وفوق ذلك ، فانه جاءت الاخبار بأن انشقاق القمر قد رؤي في الهند ، قال المؤرخ ابن كثير :

« ومع ذلك فقد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض • ويقال : انه أرخ بذلك في بعض بلاد الهند • وبني بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر » (٢) •

---

(١) القمر (٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٠

# الإسـراء والمعـراج

٣٠١ ـ كان الاسراء في السنة التي كانت قبل الهجرة ، وروى البيهقي عن ابن شهاب الزهري أنه كان في السنة التي قبل الهجرة ، وروى الحاكم أن الاسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا .

واختلف على ذلك في الشهر الذي أسرى به فيه ، فالسدي قال انه في ذي القعدة ، والزهري قال في ربيع الاول .

وروي عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الاثنين للثاني عشر من شهر ربيع الاول ، وفيه بعث ، وفيه عرج الى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وفي رواية أن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب ، ويقول ابن كثير : « وقد اختاره الحافظ بن سرور المقدسي ، وقد أورد حديثا لا يصح سنده كما ذكرناه في فضائل شهر رجب ، وأن الاسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم، ومن الناس من يزعم أن الاسراء كان في أول ليلة جمعة من شهر رجب ، وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة ، ولا أصل لذلك ، والله أعلم .

وقد جاء في نهاية الأرب أن الاسراء كان في ليلة السبت ، ليلة سبع عشرة من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أسري صلى الله عليه وسلم به وسنه احدى وخمسون سنة وتسعة أشهر !!

ونتهي من هذا الى أن علماء السيرة النبوية مختلفون في تعيين اليوم الذي كان فيه الاسراء ، ولكن الواقعة ثابتة ، وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الطائف ، وردهم له الرد المنكر ، وأن كونها في ليلة السابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصح سنده في نظر الحافظ المحدث ابن كثير ، وقال من بعد ذكره : والله سبحانه وتعالى أعلم

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ ، أو تلقوه بالقبول ، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده ، بل نقبله ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين ·

واتفقت الروايات أيضا على أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة على الاقل ، ويظهر أنها كانت في السنة التي قبل الهجرة في ثلثها الاول أو الاخير والله سبحانه وتعالى أعلم ·

ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الاسراء كان بعد انشقاق القمر ·

٣٠٢ ـ وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الاسراء والمعراج ، وتعيين الله تعالى لزمانها ، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، يضع الأمور بموازينها وفي أوقاتها ، وأجلها المعلوم ، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى ، فهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة في السماء أو في الأرض ·

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم في ضراعته بالدعاء الذي دعا ربه غب خروجه من الطائف ، شكا ضعف قوته فأمده الله تعالى بالقوة ، وقلة الحيلة فأمده بحسن التدبير لدخول مكة آمنا مطمئنا ، وأيده بآية حسية من نوع ما يطلبون ، واذا كانوا لم يستجيبوا لداعي الله تعالى ، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل ، ولو كان حسيا ، فقالوا سحرنا ، مع أن انشقاق القمر رأته الركبان في أسفارها ، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى في المعراج ، سواء أقلنا ان لقاءه بالله تعالى ، كان بالروح في الرؤيا ، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (١) ؟

لقد أحس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين ، خديجة العطوف ، وأبو طالب الشفيق · فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، وحياطته أكرم ، وان عنايته بك وبرسالتك هي التي ستبلغك

---

(١) السيرة المطهرة للاستاذ عبد العزيز خير الدين ، ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

أمرك ، وتحقق لك شاوك ، وتصل بك الى غايتك ، وهـــو المهيمـــن الرؤوف الرحيم ، لذلك كان الاسراء ، ومن بعده عروجه الى السماء .

٣٠٣ ـ والآن ننتقل الى الآيات الـــكريمات التي صرحت بالاسراء ، ثم كانت الاشارة الواضحة الى المعراج قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (١)

ففي هذا النص الاسراء صريحا ، وكانت الاشارة الى المعراج بقوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣)

فقـــد ذكـــر المفسرون أن الرؤيا هي المعراج .

وقال تعالى في سورة النجم :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤)

(١) الاسراء (٢) الاسراء (٣) الإسراء (٤) النجم

ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في المعراج ، وان ذلك لواضح ، واذا كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج الى السموات العلا فان الاشارات واضحة تكاد تكون تصريحا ، والاشارات الواضحة في قوة الدلالة تكون كالالفاظ الصريحة .

وقد قال بعض علماء السيرة ان الاسراء بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ من شعب أبي طالب ، وان كان السند في ذلك صحيحا ، فانه يشير الى أن أبا طالب قد مات ، وأن مهمته قد انتهت ، وأن الله تعالى وهو الباقي الدائم . الاول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة في الشدائد ـ ولكن الثابت في البخاري أنه ابتدأ من الحطيم بالمسجد الحرام .

## الإسراء بالجسم :

٣٠٤ ـ ان ظاهر الآية القرآنية التي أثبتت الاسراء وهي قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (١)

أن الاسراء كان بالجسد والروح ، وذلك لانه سبحانه وتعالى قال أسرى بعبده ، والعبد هو الروح والجسد ، وما دام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل ، فانه يجب الاخذ به ، فانه من المقررات أن الالفاظ تفسر بظاهرها الا اذا لم يمكن حملها على الظاهر لمعارض ، ولامعارض .

وفوق ذلك فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الاسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد ، ويقول في ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة « انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة ، فأصبح يخبر قريشا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد اسلامها ، وبادر الصديق الى التصديق ، وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس ، وقال اني لاصدقه في خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه في بيت المقدس ، فيومئذ سمي أبو بكر الصديق .

---

(١) الاسراء

وانه روي أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على عير لقريش فند بعير لهم نافرا ، فأرشدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانه ، وقد أخبروا أهل مكة بذلك (١) .

وانه روى أن أهل مكة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في اخبارهم ، والاستدلال على صدقه : « وآية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرهم حسن الدابة (٢) فند لهم بعير،فدللتهم عليه،وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت ،حتى اذا كنت بصحنان مررت بعير بني فلان . فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشيء،فكشفت غطاءه ،وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (٣) البيضاء يقدمهم جمل أورق عليه غرارتان ، احداهما سوداء والاخرى برقاء ، فابتدر القوم الثنية .. وسألوهم عن الاناء وعن العير فأخبروهم كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان هذا كله يدل على أن الاسراء كان بالروح والجسد ، فانه تلاقى مع المارين بين مكة والشام وأخبر عن التلاقي ، وصدق خبره عليه السلام ، واذا كانت بعض هذه الروايات في اسنادها كلام ، فان بعضها يقوي الآخر، ونص القرآن ظاهر في تأييد الدعوى ، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل .

ولو كان الاسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق ، ولبادر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باخبارهم الى أن ذلك رؤيا في المنام ، أو هذا وحي أوحي به اليه .

ولقد كان بجوار هذا القول الذي تنطق به الآية الكريمة قول آخر ، روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق ،وروي أيضا عن معاوية بن أبي سفيان ، وقد كان ابان ذلك هو وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة ، ولكن لعله نقل عن غيره ممن شاهدوا ، وعاينوا ، كما نقلت عائشة عن غيرها ، وما كانت في ذلك الابان قد زفت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٤٤

(٢) هي البراق الذى سنذكر الروايات عنه من بعد

(٣) هو مكان

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضيَ الله عنها وعن أبيها الصديق ، واحتج بقول عائشة هذا ،وقدأثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة ٠

ولكن الخبر عنها يحمل في نفسه مايوهم عدم صدقه عنها ، ففيه : أنهـــا قالت : « لم تفقد بدنه » وان ذلك يوهم أنها كانت معه في مبيت واحد ، مـــع اجماع المؤرخين والمحـدثين على أنه لم يبن بها الا في المدينة ٠

وقد استدل أصحاب هذا القول بماروى الحسن البصري عن أن قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

وقالوا ان الرؤيا هي ما كان في ليلـة المعراج ، والرؤيا هي ما يكون في المنام، كما حكي عن سيدنا يعقوب : أنه قـال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه في المنـــام : « لا تقصص رؤياك عـلى اخوتك » ٠

وجاء في كتاب البصائر للفيروزبادي : « الرؤيا ما رأيته في منامـــك ، والجمع رؤى كهدى ، وقد تخفف الهمزة من الرؤيا ، فيقال بالواو » (٢) وهـذا وغيره نصـــوص صريحة في أن الرؤيا منامية ٠

ولكن أهي كانت في الاسراء أم كانت في المعراج ؟ ان رواية الحسن رضي الله عنه تقول : هي ما كان في ليلة المعراج ، نعم ان الليلة كانت واحدة ، لكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه في المعـــراج لا في الاسراء ٠

ويستدل أصحاب هذا القول ، وهو أن الاسراء كان بالروح بحديث البخاري عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثـــلاثة نفر قبل أن يوحى اليه ، وهو نائم في المسجد الحرام ،فقال أولهم أيهم هو ، قال أوسطهم هذا ،وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ٠٠

---

(١) الاسراء

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٣ ص ١٧٧

فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الانبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ،ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند زمزم ، فتولاه منهم جبريل ·· والحديث طويل وقال في آخره واستيقظ وهو في المسجد الحرام ، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا اشكال فيه ·

ونرى أن فيه اشكالا ، لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى اليه ، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الاسراء والمعراج ،ولعلهـــا كانت اذا صحت الرواية في موضوع آخر ·

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للاسراء ،وأنه يوفق بينها بأن الاسراء كان مـرتين :احداهما بالروح والاخـــرى بالجســـد والروح ·

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعـــارض، بل الأدلة على أن الاسراء كان بالجسد والروح هي التي لا ريب فيهـــا ، ولايمكن أن يعارض الضعيف القوي ·

ولذا نرى أن الاسراء كان بالجسد والروح ، ولا نجد فيما استدل به ما يدل على أنه كان بالروح فقط ، وان الآية :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (١)

لا نرى أن موضوعها هو الاسراء ، بل ان موضوعها هو المعراج ·

ولا غرابة في أن ينقل الله تعالى نبيه من مكة الى بيت المقدس وأن يعود به في ليلة واحدة ، فان هذا ليس ببعيد على الله تعـالى ، لان المســـافات في الزمان والمكان ، انما هي بالنسبة للعبيد ، ولاتكون قط بالنسبة لله سبحانه وهو القادر على كل شيء ، وهـــو خـالق الاماكن والازمان ·

## المعـــراج بالـــروح :

٣٠٥ ــ ان الاكثرين من العلماء على أن المعراج كالاسراء كان بالجســـد والروح ، وأخذوا ذلك من ظواهر الاحاديث الصحيحة التي روتها السـنة ،

---

(١) الاسراء

ففيها التصريح بأنه لقي آدم في سماء ،وابراهيم في مثلها وادريس ، وعيسى ويحى وموسى ، وهذه الظواهر آثروا الاخذ بها ٠

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله تعالى ، فقال فريق منهم انه رأى ربه وخاطبه ، وكان ذلك تكـــريما له لمخاطبة الله تعالى اختص به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقـــريباله ، وهو فوق المذكور في قوله تعـالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

وليس من هذه الثلاثة رؤية الله تعالى ،وتلقي الرسول منه مباشرة من غـــير حجاب ٠

وقد رأى ذلك الرأي الامام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الاشعري وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبي ذر رضي الله تبـــارك وتعالى عنه : « قلت يا رسول الله هـــل رأيت ربك فقال عليه الصلاة والسلام انه نور أنى أراه ، وفي رواية رأيت نورا ٠

والذين قالوا ان الاسراء كان بالروح وفي رؤيا صـــادقة قـالوا ذلك في المعراج ، بل هو أولى ، فالرحلة كلهـا كانت رؤيا صادقة ، وقد بينا القـول في أدلة هذا الرأي بالنسبة للاسراء من قول ٠

وقد انضم اليهم غيرهم ممن يرون أن الاسراء كان بالجسد والروح ، فمنهم من قال ان المعراج كان بالروح وليس في الموضوع نص قرآني يدل بظاهـره على أنه كان بالجسد والروح ، حتى لا يكون مناص من أتباعه أو تأويله ، بل نجد الالفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح ، وبالظاهر المتبادر ، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا ٠

ولننظر في الآيات الكريمات الدالة على المعراج :

دلالة آية الاسراء على المعراج بالاشارة لا بالعبارة ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الشورى (٢) الاسراء

فتلك الآيات التي أراها الله عبده هي المعراج ، واسامة الانبياء السابقين .

والآيات الاخرى التي دلت على المعراج ، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج الا بالاشارات البيانية ، ولننظر فيها عبارة عبارة ، وكلها من السمو البياني في المكان الاعز الذي لا يصل اليه بيان قط .

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾ (١)

فقد قالوا انه جبريل عليه السلام ،واذا كان الله تعالى ، فتعليمه لا يكون بالتلقين بل يكون بالارشاد والايحاء .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ (٢)

« وهو بالافق الأعلى » يراد جبريل عليه السلام ، « ثم دنا فتدلى » أي نزل وقرب من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، «فأوحى الى عبده ما أوحى» عن طريق جبريل ،«ولقد رآه نزلة أخرى»وهو جبريل أيضا وقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » تومىء الى أن الآيات الكبرى التي رآها كانت بفؤاده لا ببصره ، وقوله تعالى : « مازاغ البصر وما طغى » أي ما كلّ وما تجاوز حده ، والنفي فيه ما قد يكون لانه لم تكن رؤية بالبصر . حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده ، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطغى ، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه ، ويزيغ بأن يكل ويمل ، ويلقي في النفس ما لم ير .

واننا عند هذا النظر الفاحص ننتهي الى أن الاسراء اذا كان بالجسد والروح، فان المعراج كان بالروح فقط ، وانه كان رؤيا صادقة ، وقد اتجهنا الى ترجيح ذلك لما يأتي :

---

(١) ، (٢) النجم

( أ ) أنه ذكر في المعراج أنه التقى بالانبياء آدم وابراهيم وموسى ويحي ، وغيرهم ، والباقي منهم هو أرواحهم ،وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور ، وفرض أنه بعثها ثم أفناهافرض بعيد لم يذكر في حديث من الاحاديث ، ولا خبر من الاخبار ، ولوضعيفا ، وكل فرض في أمر غيبي لادليل عليه من المنقول فهو رد على قائله الا أن يكون أمرا يؤدي اليه البرهان العقلي ، ولا يوجد شيء لا من المنقول ولا المعقول يقرر اعادة أجسام الانبياء الكرام أحياء ، ثم اعادتها الى الفناء .

( ب ) ان العبارات القرآنية الواردة في المعراج تومىء بل تصرح بأن الأمر في هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الادراك لم يكن بالحس ، بل كان بالقلب والفؤاد ، فالله تعالى يقول :

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

فالحديث القرآني كله كان في اثبات رؤية الفؤاد ، وأنه لا تجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذي لا يكذب ، وذلك لا يتحقق الا بأن تكون الرؤية روحية ، لان رؤية القلب لا تكون الا روحية ،وانه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفي ، لا بالايجاب ، وقد بينا مؤدى النفي في هذا .

( جـ ) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه ، والرؤية القلبية ممكنة باستحضار عظمته ، وبالسبحات الروحية المتجهة الى الله سبحانه وتعالى وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه في حديث أبي ذر الغفاري ، فقد قال عليه الصلاة والسلام في اجابة سؤال الصحابي الجليل أبي ذر : « انه نور ، فأنى أراه » .

واننا لا نتعرض في ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة ، أو غير ممكنة ، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور ، وذهاب أهل الجنة اليها ، وابقاء أهل النار فيها ، فان الكلام فيها غير الكلام في الدنيا ، ونحن نحس ونرى ، فان كانت رؤية الله الآن فهي بالعين الفانية ، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية ، والله أعلم كيف يرى .

---

(١) النجم

وننتهي من هذا الى تقـرير حقيقتين نراهما :

الاولى : أن الاسراء كان بالجسد والروح بظـواهر النصـوص المثبتة ، ولا معارض لها ·

الثانية : أن المعـراج كان بالروح فقط لعدم وجود الادلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن ، ولوجود المعارض من النقل والفعل ·

والآن نعود الى قصة الاسراء والمعراج كما هي في الصحاح على أن نفسـر الالفاظ على ضـوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما ·

# الإسراء والمعراج في صحاح السنة

٣٠٦ ـ كان من الممكن أن نقف بالنسبة للاسراء والمعراج عند هذا الذي قررناه ، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر في المعراج أنه بالروح ٠

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الاسراء ثم العروج ، نختار منها رواية البخاري ٠

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به قال :

« بينا أنا في الحطيم ، وربما قال في الحجر ـ مضجعا اذ أتاني آت ، وسمعته يقول : فشق ما بين هذه الى هذه ، فقلت ( أي الراوي ) للجارود وهو الى جنبي ماذا يعني به ، قال من نقرة شعره الى شعرته ، وسمعته يقول من قصه الى شعرته فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء ايمانا ففسل قلبي ، ثم حشي ، ثم أعيد ٠٠ ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود ، وهو البراق :قال أنس نعم ٠ يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بي جبرائيل ، حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ! قال محمد قيل وقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به ،فنعم المجيء جاء ٠ ففتح ، فلما خلصت فاذا ، آدم ، فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال مرحبا بالابن الصالح ، والنبي الصالح،ثم صعد بي الى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل من هذا قال جبرائيل ،قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح ، فلما خلصت ، اذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال هذا بيحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهم فردا ثم قالا : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ٠

ثم صعد بي الى السماء الثالثة · فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل · قال ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف · قال هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ·

ثم صعد بي الى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ؟ قال محمد ،قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا ادريس ، قيل فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ·

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ،قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا بهارون ، قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ·

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد · قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال ابكي ،لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتي ·

ثم صعد بي الى السماء السابعة ،فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل · قال ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد بعث اليه ؟ قال نعم · قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت، اذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ·

ثم رفعت الى سدرة المنتهى ، واذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت ما هذا يا جبرائيل ؟قال أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران ، فالنيل والفرات ، ثم رفع لي البيت المعمور ، يدخله كل يوم

سبعـون ألف ملك ، ثم أتيت باناء من خمر ، واناء من لبن ، واناء من عسل ، فأخذت اللبن قال هي الفطرة التي أتيت عليها وأمتك ·

ثم فرض علي الصلوات خمسـون صلاة كل يوم ، فرجعت فمـررت على موسى ، فقال بم أمرت ؟ قلت أمـرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتـك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ،واني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك ، فسله التخفيف لامتك فرجعت ، فوضـع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى ، فقال مثله ، فرجعت، فوضـع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله،فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فامـرت بخمس صـلوات كل يوم ، وبعث الى موسى ، فقال بم أمرت ، فقلت بخمس صلوات كل يوم · قال أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، واني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فسله التخفيف لامتك ، قال سألت ربي حتى أستحييت ،ولكني أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فرضيت وخففت عن عبادي ·

وفي رواية البخاري في كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع ربه بمشـورة موسى عليه السلام ، وجاء في مراجعـة الخامسة أنه قال لربه : « يا رب ان أمتي ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهـم وأبصارهم وأذانهم ، فخفف عنا ،فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قـال لبيك وسعديك · قال انه لا يبدل القول لدي ، كما فرضت عليك في أم الكتاب قال لكل حسنـة بعشر أمثالها · فهي خمسـون في أم الـكتاب هي خمس عليك (١) ·

وانه من المتفق عليه بين العلماء أن النبي صلى الله تعـالى عليـه وسلم أم الانبياء أجمعين ، وعـلى مقتضى الذين قالوا ان الاسراء كان بالروح تكـون الامامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة ،وكذلك يرى الذين قالوا ان المعـراج كان روحيا ·

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم بالانبياء اما ما كان عند مقـدمه الى المسجد الاقصى ، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الامامة كانت وهو يعرج الى السموات العلى ·

(١) البداية والنهاية جـ ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الاسراء

واختار ابن كثير في تاريخه أن امامته للانبياء كانت بعد أن نزل من العروج ، ويقول في ذلك :

« وهبط رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت المقدس ، والظاهر أن الانبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما ، عند رجوعه من الحضرة الالهية العظيمة ، كما هي عادة الوافدين ، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه اليه ، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل : هذا فلان فسلم عليه ، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج الى تعرفه بهم مرة ثانية ، ومما يدل على ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام « فلما حانت الصلاة أممتهم ، ولم يجيء وقت اذ ذاك الا صلاة الفجر ، فتقدمهم اماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل » (١) .

وان هذا الكلام يدل على أن امامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للانبياء كانت بعد أن تنزل من الافق الاعلى ، وان المعراج كما انتهينا كان بالروح ، وكانا رؤيا صادقة .

هذه قصة الاسراء والمعراج ، كما نص عليها في القرآن ، وكما جاءت بها السنة الصحيحة ، وقد ذكرناها بشيء من الاطناب ، لكثرة الكلام حولها ، ولاختلاف الروايات ، فكان لابد من أن نصفي القول فيها . وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق العادات الحسية التي كانت في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما تحدى بما يتناسب خلود شريعته ، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الاجيال كلها الى يوم الدين ، وهو القرآن الكريم .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣

# انتشار الإسلام في البلاد العربية

٣٠٧ ـ اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة مهبط الوحي ، ومنزل الدعوة الاسلامية الاولى ، لانها مطمع أنظار العرب ، ولانها مثابة الناس وأمنهم ، فهي تعد مصدر المعرفة العربية على قدر ما عند العرب ، وبها حج بيت الله الحرام ، وبها ملتقى العرب في موسمه ، وبها أسواق الادب ، والمتاع ، ففي موسم الحج يلتقي العرب من كل فج عميق ، وفي الاسواق التي تقام في الموسم يتبارى الشعراء والخطباء في عكاظ ، وذي مجاز ومجنة ٠

واذا كانت مكة لها تلك المكانة في بلاد العرب ، فان كل ما يكون فيها من أحداث تنتقل أخباره الى بلاد العرب فاذا كانت الاحداث منها ، رسالة رسول يدعو الى هدم الاوثان وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، فانه لابد أن يسير بخبرها الركبان ٠

ومن العرب من لا يعيرها اهتماما ، ومنهم من يلتفت اليها ، ويهتم لها ، معاندا مع المعاندين أو طالبا للحق ، فيبتغيه ٠

وكذلك كان الامر ، فان أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته الى الحق ، والى صراط مستقيم كانت تتجاوب أصداؤها في البلاد العربية ، ومن العرب من كان يجيء الى مكة متعرفا أمر ذلك الرسول الكريم ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته ، ويدرسها ، كما فعل أكثم بن صيفي حكيم العرب ، اذ أرسل بنيه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما يدعو اليه ، فلما حضروا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

---

(١) النحل

فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم • قال : انه ان لم يكن دينا فهو خلق الناس وأمر حسن ،يابني كونوا في هذا الامر أولا ، ولا تكونوا آخرا •

وقد أسلم سيدنا أبو ذر الغفاري بهذا العلم العام الذي شهرت به دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكذلك أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو ، فقد أسلم اذ جاءه الخبر بدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكان رجلا شريفا شاكرا ، وقد حضر الى مكة ليتعرف خبره وما يدعو اليه ،ولنتركه يقص علينا قصة ايمانه ، اذ يحدث أنه قدم مكة ، فمشي اليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا ( أي ظلمنا ) وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله سحر، يفرق بين الرجل وبين بنيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجه ، وانما يخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا •

ويقول طفيل : « فوالله ما زالوا حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كرسفا خوفا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ،فغدوت الى المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريبا ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعني بعض قوله،فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله انى لرجل لبيب شاعر ،ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته •

لما انصرف النبي من صلاته الى بيته تبعه الطفيل ، وقد مال الى الاسلام فدخل على النبي وقال له :

« يا محمد ، ان قومك قد قالوا كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولا حسنا فأعرض علي أمرك • قال فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن

مته ، ولا أمرا أعـــدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رســول الله : اني امرؤ مطاع في قومي ، وأناراجع اليهم داعيهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهــم فيما أدعوهم اليه ٠

عاد طفيل الى قومه يدعوهم الى الاسلام الذي انبعث نوره من مكة المكرمة ، وزاد الله البيت الحـــرام تكـــريما وتعظيما ٠

## وفد نصـــارى نجـــران :

٣٠٨ ــ وممن أسلموا عندما علموا دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنجران عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك من النصـــارى ، عندما بلغهم أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الحبشة ، ولنترك الكلمة لأبن اسحـاق فهو يقول :

قدم على رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصـــارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجـدوه في المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ،ورجال من قريش في أنديتهم حـــول الكعبة ٠ فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم الى الله عز وجل ، وتـلا عليهـم القرآن ، فلما سمعوا القـــرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجـــابوا لله وآمنوا به وصدقوه ،وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ٠

ولما قاموا عنه مؤمنين اعترضهم أبوجهل في نفر من قـــريش فقالوا قولا مفترى ،قالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكـم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبـــا أحمق منكم ، أو كما قالوا « فقـــالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولـــكم ما أنتم عليه ، لم نأل نفسنا خيرا » ٠

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خبر هؤلاء في القرآن مبينا له بالاشـــارة في

وصف عام لبعض أهـــل الـــكتاب ،فقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

وقد رجح الاكثرون أن هذه الآيات نزلت في نصارى نجران الذين ذكـرنا لك الخبر عنهـــم ، ولم تـــكن الآيات في النجاشي وأتباعه ، ويقـــول ابن اسحاق ان الذى نزل في النجـاشي وأصحابه من النصـــارى هو ما جاء في سورة المائدة ، اذ يقول الله سبحـــانه وتعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

(١) القصص (٢) المائدة

# عرض الرسول نفسه على القبائل

٣٠٩ ـ يئس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يؤمن قومه في هذا الوقت ، ورحمة الله تعالى قد تحملهم على الايمان ، ولكن بعد أدوار من الزمان والاحوال ، فاذا كان قد يئس من ايمانهم في ذلك الايمان ، فهو لم ييأس من ايمانهم بعد تعاقب الاحداث ، لان الله تعالى لم يقل له ، كما قال لنوح عليه السلام :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

واذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد من قومه الا الاذى في هذه الجولة ، فانه وجد في بعض الذين يفدون الى الحج ، أو يفدون اليه ، من يجد قول الحق الى قلوبهم سبيلا ، وقد رأينا كيف كان نور الاسلام ينبعث خارج مكة فيجيء آحاد من القبائل العربية ، ويستمعون القرآن ، وهم ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاذا تلي عليهم القرآن خروا لله ساجدين ، ثم يدعون من بعد أقوامهم .

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتقدم الى القبائل في موسم الحج يدعوهم في منازلهم التي ينزلونها في منى يذهب اليهم ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الحق ، ويتلو عليهم القرآن ، وقد أحست قريش بذلك ، فانبرى الذين يلجون في عداوة الحق ليصدوا عن سبيل الله ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأبو لهب ، فكانا يتحريان أن يتبعاها ، واذ يدعو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله تعالى بقوله : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

يتصدى أبو جهل أو أبو لهب ، وهما يتناوبان ، فيقول : « يابني فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، الى ما جاء من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » .

---

(١) هود

وهكذا كانت الدعوة المحمدية تأخذ طريقها ، والذين يصدون عن سبيل الله يدعثرونها ، ولكن نور الحق لا تطفئه الضلالة ، ولا تعمى عنه الابصـــار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائب على الدعوة ، اتبعوه أو فارقوه ، وربما وجد غفلة عن أتباعه ، فانتهزها ،ومهما يكن مقدار الاستجابة ، فان اعلام الناس بعقيدة التوحيد ينبه الاذهان الى التفكير في الاوثان ، ومجـــرد التفكير فيهـــا يحبطها .

ولقد روي عن ابن شهاب الزهري أنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على قبائـل العرب في كل موسم، ويخاطب ،أشرافهم، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مـع ذلك الا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقـول « لا أكره أحدا على شيء من رضي منكم بالذي أدعو اليه ، فذلك ، ومن كره ، لم أكرهه ، انما أريد أن تحـــرزوني ( أي تمنعوني ) فيما يراد لي من القتل، حتى أبلغ رسالة ربي ، وحتى يقضي الله تعالى لي ، ولمن صحبني بما شاء » .

ونرى من هذا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعـــوهم بالحكمة ، فهو يأتيهم من قبل ما شهر عن العـــرب بحبهم للنجدة،ولا يأتيهم ابتداء بمحاربة تدينهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

وكان أكثر الجماعات لا يحبون دعوة الحق ، ومنهم من يحسن الرد ، ومنهـم من كان يقول : الحق بقومك ولكن بعض الآحاد كانت تصغي أفئدتهم ، وان لم يستطع الكثيرون أن يخرجوا من ربقـة ما هم عليه دفعة واحدة .

## جماعات تقبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :

٣١٠ ــ ومع الصدود من الجماعات، والصد من بعض الآحاد ، والميـــل من آخر ، كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا في الاتجاه الى القبائل في موسم

(١) النحل

الحج ، وهو يتوسم الناس ، ويتعرف الوجوه والاشراف ومعه أبو بكر الصديق ، وهو من أعلم الناس بأحوال العرب .

وكان بجوار القبائل التي أعرضت ،كانت جماعات قد أقبلت على الاستماع ، وبدت منها الاستجابة ، حتى كانت قبيلتا الاوس والخزرج ، على ما سنبين، ولنذكر لك خبرا عن بعض الجماعات التي مالت ابتداء ، قبل اللقاء : بأهل يثرب ، وسنجد في كلامهم مجاوبة تدل على قدرتهم على المتعة ، وقوة تفكيرهم .

روى أبو نعيم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صحب في احدى مرات عرضه نفسه الكريمة على القبائل علي بن أبي طالب وأبا بكر رضي الله تعالى عنهما ، وكان بين أبي بكر ، وبين قبيلة من شيبان بن ثعلبة صلة ومودة ثم جرى بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حديث طويل :

قال أبو بكر مخاطبا القوم : ممن القوم : قالوا من بني شيبان بن ثعلبة .

فالتفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم ، وهؤلاء غرر في قومهم ، وغرر الناس ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانيء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ،والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس الى أبي بكر مجلسا مفروق بن عمرو وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا فقال له أبو بكر كيف العدد فيكم .

فقال له مفروق بن عمرو ، انا لنزيد على ألف ، ولن نغلب من قلة .

فقال له أبو بكر : فكيف المنعة فيكم .

فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم .

فقال مفروق : انا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الاولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا ، لعلك أخو قريش ( أي النبي ) مخاطبا له .

فقال أبو بكر ان كان قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهاهو ذا .

فقال مفروق بلغنا أنه يقول ذلك ،ثم التفت الى رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدي في الله تعالى الذي أمرني به ، فان قريشا تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ،واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال مفروق : والى ما تدعو أيضا ياأخا قريش .

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (١)

فقال مفروق : والى من تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الارض ، ولو كان كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٢)

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الاخلاق ، ومحاسن الاعمال ، ولقد أساء قوم كذبوك ،وظاهروا عليك وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانيء بن قبيصة ، فقال :وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

---

(١) الانعام (٢) النحل

فقال هانيء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدقت قولك ، واني أرى أن تركنا ديننا ، وأتبعناك على دينك لمجلس جلسته الينا ·· لم نتفكر في أمرك ، وننظر في عاقبة ما تدعو اليه ـ زلة في الرأي ، وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة ، وانما تكون الذلة في العجلة ، وان من ورائنا قوما نكره ، أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع،وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة ، فقال :وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا ·

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك ،واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانيء بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلسته الينا ، واناانما نزلنا بين حيزين:أحدهما اليمامة، والآخر السماوة ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هذان الحيزان ·

فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف للبر ، وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وانما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : لا تحدث صوتا ولا تؤوي محدثا ،ولعل الامر الذي تدعونا اليه مما يكرهه الملوك · فأما ما كان مما يلي العرب ،فذنب صاحبه ، مغفور ، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، فان أردت أن تنصرف ونمنعك مما يلي العرب فعلنا ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أسأتم الرد ، اذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه ·

ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مخاطبا لهم : « أرأيتم ، ان لم تلبثوا ، الا يسيرا ، حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، ويغريكم بنابهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك : « اللهم ان ذلك لك يا أخا قريش » ·

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

(١) الأحزاب

ثم نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابضا على يدي أبي بكر .

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر ، هذا حديث غريب جدا ، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ،ومحاسن الاخلاق ومكارم الشيم ، وفصاحة العرب (١) .

وفي الخبر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنبأ لهم أنهم سينتصرون على فارس قريبا ، وقد انتصروا فعلا ،وأعلن ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال لاصحابه : « احمدوا الله كثيرا ، فقد ظفر أبناء ربيعة بأهل فارس » وان هذا الخبر الطويل يدل على أمور :

( أ ) منها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان دائبا على بث الدعوة بين القبائل في موسم الحج ، سواء أكانوا من القبائل المتاخمة لفارس ، أم المتاخمة للروم في الشام ، وأنه كان يلقى تأييدا على حسب البعد .

( ب ) ومنها ـ أنه كما كان يلقى صدودا ، كان يلقى أيضا حسن تفهم ، وان كان ثمة تمرد ، ومنشؤه أنهم لايريدون أن يتركوا ما هم عليه ليغيروا بمجرد مجلس .

ومنها ـ أن المنافسة ، وحب السيطرة بالشرف هي التي أضلت قريشا وحيث لا تكون منافسة يكون التدبر والتفكر .

ومنها تنبؤ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون باذن الله تعالى وعلمه .

## ما بين الروم والفرس:

٣١١ ـ ولمناسبة ما تنبأ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هزيمة الفرس في جوار البلاد العربية ،ووقوع الامر كالنبأ، تذكر تنبأ القرآن الكريم المنزل من رب العالمين من غلبة الفرس للروم ، وأن الفرس سيغلبون من بعد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

في قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ (١)

ولقد ذكر علماء السيرة والمؤرخون أن كسرى قاد الفرس الى قتال الروم ، فانتصروا عليهم ، وهم من عبدة النار ،فهم كعبدة الأوثان ، ويصدران عن ضلال واحد ، فكان المشركون يعتزون بهذا النصر ، أنهم لا محالة سينتصرون على المسلمين ، لانهم أميون ، وليسوا أهل كتاب ، والمسلمون أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب فكانت المفاخرة ممن يقاربونهم ، ويستطيلون بهم للايهام بأنهم سينتصرون على المسلمين ،فنزل قوله تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض » ، وهم من بعد غلبهم .. الى آخر الآيات الكريمات » .

وقد قال بعض المشركين ان الروم لن يغلبوا ، وقال له أبو بكر الصديق سيغلبون في بضع سنين فتراهنا على عدد من الابل ، في تسع سنين ، ان انتصر الروم فيها خسر الشرك الرهان ، وان لم ينتصر الروم فيما كان أبو بكر عليه أن يدفع ما تراهنا عليه .

وقد انتصر الروم في هذه المدة ،فكان الرهان لابي بكر ، ويظهر أن ذلك النصر كان بعد أن هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة .

والحافظ ابن كثير يذكر في هذه ذلك الخبر ، فيقول :

« المشهور أن كسرى غزاه ( أى هرقل ) بنفسه في بلاده ، فنهره ، وكسره، حتى لم يبق معه ( أي هرقل الا مدينة القسطنطينية ، فحاصرها كسرى مدة طويلة ، حتى ضاقت عليه .. ولم يقدر على فتح البلد . لحصانتها ، لان نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم أي الروم الميرة من هنالك .. فلما طال الامر ، دبر قيصر مكيدة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده ، على مال يصالحه عليه ،ويشترط ما شاء فأجابه الى ذلك وطلب

---

(١) الروم

منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ، وجواهر ، وأقمشة ، وجوار ، وخدام ، وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، ووهمه أن عنده جميع ما طلب ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج الى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله .

فخرج من القسطنطينية في جيش متوسط ، وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فذهب قيصر من فوره وسار مسرعا ، حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فيها فسادا وقتلا في رجالها ، ومن كان بها من المقاتلة وقد كان أكثرهم مع كسرى ، ولم يزل يقتل ، حتى انتهى الى المدائن ، وفيها كرسي مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه ، وحلق رأس ولده ، وأركبه على حمار ، وبعث من الاساورة من قومه في غاية الهوان ، والذلة وكتب الى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذه .

أصاب العمى كسرى ، واشتد حنقه على البلد ( القسطنطينية ) فجد في حصارها فلم يقدر على شيء .

عاد كسرى الى بلده بعد أن حزب بمكيدة قيصر مكيدة بعد مكيدة ، وبذلك غلب الفرس في أدنى الارض كما غلبوا الروم من قبل ، ولله الامر من قبل ومن بعد (١) .

وقد ذكر ذلك الخبر في هذا المقام ، لان ذكره امتداد لما انتصر به بنو شيبان على كسرى ، كما تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسنا مقحمين له في غير موضعه ، لان وقائعه كانت قبل الهجرة ، وامتدت الى ما بعدها ، ولانه ايذان بنصر الاسلام في فارس من بعد .

ولنعد بعد ذلك الى التقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان قبل الهجرة من تمهيد لها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

# عرض الإسلام على القبائل

٣١٢ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل كما أسلفنا من القول ، وما علم في موسم الحج أن ملأ من قبيل قد جاء الى مكة الا عرض عليه الدعوة الاسلامية الى التوحيد ، والايمان بالله ، وبأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما علم بوجود كبير في قومه يقول فيتبع الا عرض الاسلام عليه ·

وقد التقى بكثيرين من شمال البلاد العربية وجنوبها ممن جاوروا الروم ، وممن جاوروا الفرس، وعقب أن لقي من ربيعة التي تجاور فارس من رأى فيهم من أشراف العرب من كان فيهم نخوة ، ومعرفة وادراك للواجب التقى ببعض رجال من يثرب ، التقى أولا بجماعات منهم ، ثم كان الاتفاق على التأييد والنصرة بعد الاتباع على الايمان ، وهدى من الله ·

وكانت يثرب بأحوالها ، وما فيها الارض التى تقبل الدعوة المحمدية ، ذلك لان أهلها كان اليهود يحاربونهم ولم يكونوا معهم على وفاق ، كشأن اليهود ، حيثما كانوا ، وأينما ثقفوا ، وكان أهل المدينة وثنيين ، واليهود أهل كتاب ، فكانوا يذكرون لهم أنه الآن نبي مبعوث بنصر اليهود على الوثنيين ، وكما قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وبذلك كانت بين أيديهم معرفة النبوة ، وادراك للبعثة المحمدية ·

وفوق ذلك كان أهل يثرب ينتمون الى قبيلة الاوس والخزرج ، وكان الخلاف بينهم شديدا وكانوا يتقاتلون ، وربما كان خلافهم بعمل يهودي ، كشأنهم في

---

(١) البقرة

تفريق الجماعات ، والقاء بذور الفتن في أي مجتمع يعيشون في ظله • فكان التنافر بين الأوس والخـــزرج قبيلتي يثرب مستمرة ، والحرب تقع من وقت لآخر ، وفيهم من يهم بالاستنصار بقريش على الآخرين ، فكانوا في حاجة أو نصرة من الخارج ، ولتوالي التناحـــر ،وكانوا يرحبون بمن يؤلف بينهم ، فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هـــو الجامـــع بينهم ، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

## ابتداء الاتصال بأهل يثرب :

٣١٣ ــ ابتدأ الاتصال بأهل يثرب من الاوس والخزرج بالآحاد ، ثم سار في طريق النمو ، حتى صار الاتصـــال بالجماعات ، ثم كانت البيعة ، وتكررت مرتين •

يروي ابن اسحاق أنه قدم سويد بن الصامت وهو من بني عوف مكة حاجا ، وكان رجلا شريفا ، ونسبه رفيعا يسمى في قومه الكامل لجلده ، وشرفه ، وكان شاعرا وله صوت مسموع في قومه •

فتصدى له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع به ، فالتقى به ودعاه الى الاسلام • فكانت بينهما مجاوبة لانه لم يكن أعرابيا ليس على علم ، بل كان على علم يمهد له العلم بالنبوءات •

دعاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي • فقال رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال مجلة لقمان ــ يعني حكمة لقمان ــ فقـــال رسول الله صلى الله تعالى عليه وســـلم :

---

(١) آل عمران

اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الكلام حسن : والذي معي أفضل منه ، هذا قرآن أنزله الله تعالى علي هدى ونور » ثم تلا صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن ، ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه وقال : ان هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه الى المدينة ، وقدم على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج . وكان قتله قبل واقعة بعاث التي كانت بين الاوس والخزرج .

ولقد كان رجال من قومه يقولون انا لنراه قتل مسلما ، وان مقدمات الاسلام كانت منه في لقائه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال في القرآن: « ان هذا القول حسن » وهذا يدل على أن قلبه قد فتح للايمان ، وان كان وصف القرآن أعلى من ذلك ، ولقد جاء من بعد ذلك جماعات من الاوس على رأسهم أنس بن رافع ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، أي ليعقدوا حلفا مع قريش لينصروهم من الخزرج .

سمع بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاهم ، فجلس اليهم ، فقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟ فقال لهم : « أنا رسول الله تعالى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علي الكتاب » ثم ذكر لهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن .

وكان فيهم شاب حدث مدرك وهو اياس بن معاذ ، فقال لهم : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له . فنهره رئيس الجماعة وقال له : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا . فصمت اياس بن معاذ ، وعادوا الى المدينة ، ثم مات اياس، وقد قال من حضر موته من قومه انهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويسبحه ويحمده ، فما كانوا يشكون في أنه مات مسلما ، وان الله تعالى قد أنار بصيرته ، وأعطاه الله نفسا طيبة تدرك الحق عند أول سماعه ، وتؤمن به اذ خلصت لله تعالى :

## يوم بُعاث :

٣١٤ ـ بعاث موضع بالمدينة ،تقاتل فيه الأوس والخزرج ، وكانت بينهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج ، وكبرائهم ، ولم يبق كما يقول ابن كثير من شيوخهم الا القليل ، فمضتهم الحرب عضا شديدا

بنابها ، وكان ذلك غب عودة الأوس من مكة ، وعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه عليهم ، واجابه شاب منهم ، ونفره رئيس الوفد ٠

وان الشدة في كثير من الاحيان توجد في القلب نورا ، وكأن الاحياء في تناحرهم يحدث من التحامهم نور يضيء كالنور الذي يحدث من احتكاك شيئين أحدهما موجب والآخر سالب ٠

فقد كانت واقعة بعاث هذه بعد دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعية أهل يثرب للتفكير فيما جاء به عليـــه السلام ، وعندهم معرفة عارضة بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم، فانه كان ابتداء لدخول الناس من يثرب فيه جماعات، بعد أن كانوا يدخلون آحادا ٠

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يوم بعـــاث يوما قدمه الله تعالى لرسوله ٠ قدم رسول الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، وقدافترق ملؤهم ، وقتل سراتهم ٠

لقد اكتووا بنار الحرب ، ومن اكتوى بها ، طلب برد السلام والاطمئنان ، وفتح قلبه لنعمة الله تعالى ٠

# بدء إسلام الأنصار

٣١٥ ـ قلنا ان دخول الاسلام يثرب بالآحاد ، يدخلون فيه فرادى ثم جاء من بعد ذلك من يدخلون في دين الله تعالى أفواجا أفواجا ٠

وان أولئك الآحاد كانوا يذكرون نعمة الاسلام في عشائرهم ،فيستأنسون به ، ولم تكن لهم بأسرة النبي عداوة ،حجبتها المنافسة ، أو الحسد ، أو أثارها الحقد على بيته الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدت بينهم معرفة الحق، وموجبات أتباعه ، من غير أن تكون المواقع التي تصد عن سبيل الله تعالى ، والتي تغلف القلوب بغلاف من العداوة والبغضاء ، فتمنع نور الحق من أن يدخل اليها ، فينيرها ٠

في الموسم الذي كان عقب بعاث والنبي يعرض الاسلام على القبائل بمنى، يذهب الى منازلهم بها ، في هذا الموسم التقى برهط من الخزرج ، قال ابن اسحاق في سيرته : فقال لهم من أنتم ٠ قالوا نفر من الخزرج ٠ قال أمن موالي يهود ؟ قالوا لا قال أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله تعالى، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم ،القرآن ، وكان مما صنع الله تعالى بهم في الاسلام أن يهود كانت معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان ،وكانوا غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا ان نبينا مبعوثا الآن ،قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم مثل قتل عاد ، وارم وكان عندهم علم بذلك كما قرر القرآن الكريم ٠

وان النفر الذين جاؤوا من قبل ، وذاقوا بشاشة الاسلام ، قد أوجدوا بينهم الفكرة الاسلامية ، فلما كلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرهط ودعاهم الى الله ، تذاكروا فيما بينهم كلام اليهود ٠

قال بعضهم لبعض : « يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه » ٠

لذلك أجابوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دعاهم اليه ، وصدقوا به ، وأرادوا أن يسود الاسلام بينهم ،وأن يستبن الحق قومهم ، وأن يكون الاسلام طريق الخير لهم ، فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

« انا تركنا قومنا ، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، لعل أن يجمعهم الله تعالى عليك ، فلا رجل أعز منك ، وهكذا أجابوا داعي الله ، وقد ذكرت كتب السيرة أسماء هذا الرهط من الخزرج » (١) .

واختلفت الروايات أكانوا ستة أم كانوا ثمانية ، وكلهم من الخزرج ، ولكن من الروايات ما ذكر فيها أنه كان من الاوس أبو الهيثم .

ومهما يكن ، فقد كان أولئك وفد الخير والحق ، والصدق ، فما ان انصرفوا عائدين الى يثرب ، حتى أخذوا يذكرون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعون بدعوته ، حتى عمت وفشت ،وتذاكر بها أهل يثرب ، ومنهم من استجاب لدعوة الحق ، لمجرد ذكرها ،ولم يطلبوا برهانا ، لانها دعوة الى التوحيد ، وهي في ذاتها صادقة ، وكانوا يعلمون بها ، اذ يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والارض وحده ،وما كانوا جاهلين بالله تعالى بل كان فيهم بقية من ملة ابراهيم ، واليهود بينهم يذكرون لهم أن رسولا في مكة قد بعث ، فكانت الدعوة الى الله تعالى مستجابة لا مراء فيها .

فشا الاسلام في المدينة ، قبل أن يقدم اليها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقبل أن يرسل مبعوثا ، يعلمهم الاسلام ، ويتلو عليهم القرآن ، حتى ان ابن اسحق يقول بسنده المتصل ، لم يبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلموه جميعا ، وعلموا دعوته اجمالا ، وتهيئوا البيعة .

---

(١) راجع هذا السياق التاريخي في السيرة لابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير والسهيلي وابن نعيم وصحاح السنة .

# العقبة الأولى والبيعة الأولى

٣١٦ ـ تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب، وتذاكروها مذاكرة من لا يتنازعون في شرف تمسه أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صفت أفئدتهم اليه ، ومن يرجون من الاستجابة زوال الفرقة التي تقسمهم ، وتجعلهم في حرب مستمر ، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذي كانوا يستفتحون عليهم بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون اليه ، لانهم يسارعون في الحق ، ولا يبغون سواه .

فلما كان موسم الحج الذي أعقب موسم اللقاء الاول للتفاهم الذي رجوا فيه الخير والأمن والسلام في حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الموسم جاء اثنا عشر نقيبا من الاوس والخزرج ، لا لاداء الحج فقط بل لهذا، وللقاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، مستجيبين له ، لما قد عاقدوا العهد على لقائه ، واعطائه به المواثيق ، عن أنفسهم ومن وراءهم ممن بعثوهم نقباء ، يتحدثون باسمهم ، ويقدمون العهود والمواثيق عنهم .

وقد روي عن عبادة بن الصامت أنه قال : « كنت فيمن حضر العقبة الاولى ، وكنا اثني عشر رجلا ليبايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

وكانت هذه البيعة بيانا للشرع الاسلامي في العلاقات الاجتماعية ،والاسرية، وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها ،وهي جزء من الاسلام على عقيدة التوحيد ، والعبادات على أساس هذه العقيدة .

وقد ذكر عبادة بن الصامت نص هذه المبايعة ، فقال : بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الاولى ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فان وفيتم فلكم

الجنة ، وان غشيتم شيئا فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمركم الى الله تعالى ، ان شاء عذب وان شاء غفر ولقد قال الحافظ ابن كثير ، ان هذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن شهاب الزهري ونرى أن هـذه المبايعـة كانت لبيان بعض التكليفات الاسلامية التي لا اختلاف فيهـا ، وماكانت للايواء والنصرة ، لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد قـرر الهجرة اليهم ، ولم يكن قد جاءه الامر بذلك ، أو الايحاء به ، ولانه لا يأخـذ بعهد النصرة ، قبل عهد الايمان ، فما كان عهدهم عهد جوار ولكن عهد تأييد، ومحاربة دون الاسلام ، ولا تكون الا بعد توثيق كلمة الايمان ، وحقها .

وقد سمى كثيرون من كتّاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء ، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب في وقت البيعة ، انما كانت بعد ذلك لمشابهتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء في أحكامهـا ، وان اختلف وقتها ، واختلف موضوعها، فتلك كانت مع النساء أما هذه فكانت مع الرجال ، وهي للرجال والنساء على سواء . وهذا نص بيعة النساء كما جاء بها القرآن الكريم فقد قال تعالى : فى سورة الممتحنة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

بيعة النساء بعد الهجرة .

## إرسال مُصْعَب بْن عُمَيْر إلى المدينة :

٣١٧ ـ انصرف القـوم الى يثرب تحفهم بركة الله ، ونعمة الايمان ، فبعث معهم مصعب بن عمير الذي يلتقي في النسب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) الممتحنة

في قصي بن حكيم ، فهو كما جاء في نسبه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ٠

وقد أرسله اليهم ، ليدعو الى الله تعالى من لم يؤمن ، وليعلمهم ، ويفقههم في الدين ، ويقرأ عليهم القرآن ٠

ويذكر البيهقي بسنده عن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما بعث اليهم مصعبا حين كتبوا اليه أن يبعثه اليهم ، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة (١) ٠

وانا نرجح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي اختار لهم مصعبا ، وأنه قرر أن يبعثه اليهم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم ، فما كان من المعقول أن يتركهم صاحب الرسالة ، وقد استجابوا لله وللرسول من غير أن يرسل اليهم من يعلمهم ، ولعلهم قد كتبوا الى الرسول أيضا ، فالتقت رغبتهم مع ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ذهب اليهم مصعب بن عمير ، ومعه علم الاسلام ، وعلم القرآن ، فأخذ يعلمهم مبادىء الاسلام ، وعباداته ويقرئهم القرآن ، ولذلك سمي في المدينة ( المقرىء ) ٠

وقد نزل عندما قدم المدينة عند أسعد بن زرارة ٠

وكان يؤم المسلمين بالمدينة فى الصلاة ، لانه أعلمهم بالقرآن وبالاسلام، اذ جاء ليعلمهم ، فهم منه بمقام التلميذ من الاستاذ ، ولانه رسول رسول الله صاحب الرسالة ، فهو نائبه ، والنائب يستمد ممن أنابه السلطان ، ويضيف الرواة سببا آخر مستمدا من العصبية الاولى ، وهو أن الأوس كرهوا أن يؤمهم خزرجي ، والخزرج كرهوا أن يؤمهم أوسي ، فكان الوفاق على أن يؤمهم مصعب ، ونرى أن السببين الاولين كافيان ، وهما الاليق برسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروي أنه يتبادل الامامة مع مصعب ، ابن زرارة ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥١

## أول جُمعة أقيمت بالمدينة المنوّرة:

٣١٨ ـ هذا عنوان أخذناه من سيرة ابن هشام ، رواه ابن اسحاق ، ونقول فيه : ان هذه البيعة والاتصال بقبائل يثرب كان بعد الاسراء والمعراج، حيث فرضت الصلوات الخمس، والجمعة قائمة مقام صلاة الظهر ، وهي احدى الخمس • وكان لابد أن تقام الجمعة في المدينة بعد أن فشا الاسلام ،وسارت في الطريق لتكون مدينة اسلامية ،يأمن فيها المسلم على نفسه وعلى دينه ، والجمعة تقوم حيث الأمن ، واستقرار الامور على الوجه الاسلامي الذي يبتغيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه •

لقد أخذ أسعد بن زرارة الذي نزل عنده مصعب بن عمير رضي الله عنهما وذهبا الى جبل هزم النبيت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات وكانت عدتهم يومئذ أربعين رجلا •

روى ابن اسحاق بسنده عن أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك حين ذهب بصره قال : كنت اذا خرجت به الى الجمعة ، فسمع الآذان صلى على أبي أمامة ، أسعد بن زرارة ، فمكثت حينا على ذلك لا يسمع الأذان لجمعة الا صلى عليه واستغفر له ، فقلت في نفسي ، والله ان هذا بي لعجز ، ألا أساله ماله اذا سمع أذان الجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، فخرجت به في يوم جمعة ، كما كنت أخرج ،فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه ، واستغفر له ، فقلت : « يا أبت مالك اذا سمعت الجمعة صليت على أبي امامة، فقال : أي بني كان أول من جمع بنا في المدينة في هزم النبيت من حرى بني بياضة في مكان يقال له بقيع الخضمات قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا » (١) •

ولم يكن عمل مصعب وأسعد بن زرارة من بني النجار مقصورا على اقامة الصلوات ، بل أخذا يدعوان الى الاسلام في يثرب •

فقد جاء في السيرة لابن اسحاق وفي البداية والنهاية لابن كثير • أنهما أخذا يدعوان الى الاسلام بني عبد الاشهل ، وبني ظفر ، وهما من أقوى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢١ ص ٤١٥ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥١

الانصار صوتا ، وأبعدهم ذكرا ٠واليكما جاء في البداية والنهاية : كان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط ( البستان ) واجتمع اليهمارجال ممن أسلموا ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير يومئذ من بني عبدالاشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه، فقال سعد لاسيد ، لا أبالك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانهمهما أن يأتينا ديارنا ٠٠ فأخذ أسيد بن خضير حربته ، ثم أقبل اليهما ٠ فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، قد جاءك ، فاصدق الله فيه ٠٠فوقف عليهما أسيد متشتما ، ثم قال : ما جاء بكما الينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟اعتزلاني ، ان كان لكما بأنفسكما حاجة ، وقال غلام : أتيتنا في دارنا رعديد الغريب لتسفه ضعفاءنا بالباطل، وتدعوهم اليه ٠

فقال مصعب لاسيد : « أو تجلس فتسمع ، فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره » قال أنصت ،ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن ٠

فقال مصعب وأسيد ، والله لعرفناالاسلام في وجهه ، في اشراقه وتسهله، قبل أن يتكلم ٠

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ، قالا له تغتسل فتطهر ،وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ٠٠ ففعل ما طلبا اليه ، ثم قال لهما : ان ورائي رجلا ان اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله اليكماسعد بن معاذ ٠

ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله ،لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ٠

فلما وقف على النادي ، قال سعد مافعلت ٠ قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالانفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارةليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ، ليحقروك ٠

فقام سعد مغضبا مبادرا ، مخوفا للذي ذكر له من بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج اليهما سعد ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا ، انما أراد أن يسمع منهما فوقف متشتما ، ثم قال لاسعد بن زرارة والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ، ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره .

قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ان يتبعك لا يتخلف منهم اثنان .

قال مصعب : أو تقعد فتسمع ، فان رضيت أمرا رغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد ، أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، وعرض عليه الاسلام ، وقرأ عليه القرآن ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ ﴾ (١)

فعرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم في اشراقه وتسهله .

ثم قال سعد لهما : كيف تصنعون اذا أنتم دخلتم في هذا الدين ، قالا تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادة الحق .. وقد أخذ حربته بعد أن فعل ما أشار به ، فأقبل عائدا الى نادي قومه فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا نحلف بالله لقد عاد اليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، وقف داعيا للاسلام ، ويقول :

يا بني عبد الاشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة قال فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسله (٢) .

---

(١) الزخرف

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣

اجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ في منزل أسعد ، وأخذوا يدعون الى الاسلام ، حتى فشا في يثرب فأسلم بنو عبد الاشهل رجالا ونساء ·

وقد فصلنا القول في دعاية مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ، ونقلنا لك المجاوبة التي جرت بين الزعماء والكبراء، فان الاستماع الى كلمات الرجال، كما جرت على أفواههم تصور حالهـــم ونفوسهم ·

لقد كانوا ينتهون من المجاوبة الى الاصغاء الى دعوة الحق واتباعها من غير تلكؤ ، وان هذا يدل على صفاء نفوسهم، وحيث خـــلت النفوس من المنازعـــة بالشرف ، والمنافسة ، في الفخر ، فانها تتجه الى الحق بقلب سليم ، فتســارع الى الدخول فيها ، وقد أحسوا أن في الاتباع منجاة لهم من التفرق والنزاع الذي أداهم الى الحرب ، وعضتهم بنابها، وفوق ذلك كانت وصلتهم ارهاصـــات بذكر النبوة المحمدية كان يستفتح بها اليهود عليهم ·

# العَقبَة الثانيَة

٣١٩ ـ جاءت العقبة الاولى بعد اللقاء الاول بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والخزرج وبهم انتقل خبر الاسلام الى يثرب التي أعدها الله تعالى لتكون المدينة الفاضلة ، مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم كان في العقبة الاولى التعريف بمبادىء الاسلام ، والبيعة بها ، على أن تكون هذه البيعة الميثاق الذى أخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية في العقبة بعد أن فشا الاسلام ، وكانت تمهيدا للانتقال الى المدينة والهجرة ، ويظهر أنها كانت في آخر موسم حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، والعقبة الاولى كانت في الموسم الذي قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالايواء والنصرة ، كما يتبين ذلك .

ويظهر أن خبر اتصال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتسرب الى قريش ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم ، اذ رأوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة الى التوحيد من بين ظهرانيهم الي العرب ، وانهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم .

وقد رأينا كيف يتعقبه أبو جهل وأبو لهب ، ويتناوبان .

لذلك عندما جاء مصعب من يثرب هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الاوس والخزرج ، وقد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الاسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبي سلول الذي أكله بغض الاسلام والمسلمين ، حتى صار رأس النفاق في المدينة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبنيها ، ويثيرها ، حيثما وجد الى ذلك سبيلا .

ولقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حذره من ناحيتين ، من ناحية قريش الذين احتسبوا بأن أمرا يدبر من ورائهم ، ولقد كان يرى عيونهم

تبث من حوله ، حتى ان الرسول صـلى الله تعالى عليه وسلم ليقول لوفد الأوس والخزرج عندما التقى بهم في العقبة :« ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبـة ، فان عليكم من المشركين عينا، وان يعلموابكم يفضحوكم » ٠

والناحية الثانية من أولئك المشركين الذين صحبـوا المسلمـين من الأوس والخزرج ، ولعله صلى الله تعالى عليـه وسلم فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش، وفريق المشركين الذين صحبوا وفد الايمان ٠

ولهذا لم يلتق بهم في أول حضورهم، بل ضرب لهم موعدا في أيام منى ، فلم يأخذ عليهم البيعة في أول لقاء ٠

فروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك ٠ قال : « خـرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ٠٠ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين » ٠

ويقـول كعب في هذه الرواية :فنمنا تلك الليلة في قومنا في رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خـرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان ٠

هذه رواية كعب بن مالك ، وروى أنهم كانوا سبعين ، ومعهـم امرأتان ٠

التقى النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، في الميقات المحدود ، والمكـان المعين ، وقد صحبه في هذا اللقاء عمه العباس بن المطلب ، وهو على دين قومه، وانما صحبه ليتوثق له ، ويطمئن عـلى نصرته ، وقد قال في هـذا اللقاء : « يا معشر الخزرج (١) ، ان محمدا منا،حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا، ممن هم على مثل رأينا فيه فهو في عـز من قومه ، ومنعة في بلده ، وانه قـد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحـوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ،فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم

(١) قال ابن هشام كانت العرب يسمون هذا الحي الخزرج ، خزرجها واوسها ، ولعل ذلك لانهم كانوا أكثر أو أظهر عند قريش ٠

ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده ٠

عندئذ قال قائل الاوس والخزرج ،قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ٠

فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا الى الله ، ورغب في الاسلام ٠

وقد طلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ففعلوا ٠

## البيعة الثانية :

٣٢٠ ـ هذه هي البيعة الثانية ،كما جاءت بذلك الروايات المتضافرة وقد انقسمت البيعة الى قسمين :

أحدهما ـ لتوثيق مبادىء الاسلام ،وقد روى الامام أحمد في هذا القسم : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « تبايعون على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ٠ وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم » ٠

والقسم الثاني ـ خاص بنصرته صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وأن يمنعوه ٠

ويروي ابن اسحاق عن أبي أمامة أسعد بن زرارة أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم اذا فعلنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أسالكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأسالكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ٠

وروى الامام أحمد أيضا عن عبادة بن الصامت أنه قال : انا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وعلى أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه

لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ٠

هذه روايات متعددة في ألفاظ البيعة ومعانيها ، ولا تخالف بينها ، بل يكمل بعضها بعضا ، واذا كانت نقصت بعض العبارات من رواية، فان الرواية الاخرى تكملها ٠

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نتيجة البيعة «أخذت وأعطيت» أخذ عليهم العهد لله بالتوحيد والطاعة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعطاهم الوعد بالجنة ٠

ولقد أعطوا الوعد بالنصر والايواء عن بينة من ربهم ، فقد بين بعضهم لبعض ما في الوعد بالنصرة من تبعات، سيتحملونها ، ولنذكر لك بعض ماتذاكروه قبل أن يصفقوا بالبيعة ، أو في عنفها ٠

قال العباس بن عبادة بن فضلة الانصاري أحد بني سالم بن عوف :

هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ٠ قالوا نعم ٠

قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا انهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، على نهكة المال وقتل الاشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال ، وقتل الاشراف ٠

ولقد قال البراء بن معرور أحد النقباء مجيبا قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما طلب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم٠ قال رضي الله تعالى عنه ٠

نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع ، أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا من كابر ٠

واعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : « يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا ــ وانا قاطعوها ، يعني اليهود ــ فهل عسيت ان فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا » ٠

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

ولقد قال ابن هشام الهدم الهـــدم« يعني الحـرمة » أي ذمتي ذمتكـم ، وحربي حربكم .

ولقد قال رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم بعد أن تمت البيعة : « أنتم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى بن مريم وأنا كفيل على مدتي .

بهذا تمت البيعة الثانية ، وكانت ايذانا بالهجرة ، وكان أساس قيامهـــا ما يكون من حماية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد كانت حماسة الانصار لهـذه البيعة شديدة ، وبعضهم أراد تنفيذها ، ومحاربة قريش في عقر دارهم لقـــد قال العباس بن فضلة الذي نقلنا كلامه آنفا : يا رسول الله ، والذي بعثـــك بالحق ، ان شئت لنميلن على أهـل منى عذابا بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم .

## علم قريش بالبيعة :

٣٢١ ـ كان حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلم المشركون بالبيعة قبل أن تتم في موضعه ، لانهم كانوا يبثون العيون لمعرفة أخبار الخزرج والاوس، اذ كانوا يتوجسون منهم خيفة.

لقد رجع أهل البيعة الى منازلهـــم فلما أضحوا غدا عليهم ناس من جـــلة قريش ، حتى جاؤوا الى منازلهم .

فقالوا يا معشر الخزرج ، انه قـد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حـربنا وانه والله ما من حي من العرب أبغض الينا من أن تنشب الحـرب بيننا وبينهم منكم .

وقد كان من بين أهل يثرب مشركون مثلهم ، وقد اجتهد الذين مال قلبهم للايمان وأسلموا أن يخفوا عنهم أمـر البيعة وما يتصل بها ، لذلك انبعث من أولئك المشركين من يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمنا ، فصدق القرشيون مقالتهم

وقد روى ابن اسحاق أن القرشيين أتوا عبد الله بن أبي بن سلول الذي صار من بعد رأس المنافقين ، وكان من المشركين ، فسألوه عند أمر البيعة ، فقال لهم ، ان هذا الامر جسيم ، ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا ، وما علمته • كان الامر بالنسبة لقريش أول الامر ظنا ظنوه ، ولم يكونوا قد استوثقوا من صدقه ، فكان التكذيب كافيا ، لازالة الظنة ، ولكن لم يطمئنوا•

لذلك أخذوا يتحرون صدق الخبر ، ليطمئنوا ، فلما نفر الناس عن منى ، وجدوا أن البيعة قد تمت ، أو أن ماظنوه ظنا قد وقع •

راعهم ذلك ، فخرجوا في طلب القوم الذين بايعوا ، فلم يلحقوا بهم ، ولكن أدركوا منهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكان كلاهما من النقباء ، وقد استطاع المنذر ألا يمكنهم منه ، فأعجزهم اتباعه •

وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمته (١)،وكان ذا شعر كثيف •

ولقد حكى سعد حاله ، فقال :«فوالله اني لفي أيديهم ، اذ طلع عليَّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء الوجه شمشاع حلو من الرجال ، فقلت في نفسي ان يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلما دنا مني كلمني كلمة شديدة، فقلت في نفسي : لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله اني لفي أيديهم ، اذ أدلى لي رجل ممن معهم ،فقال ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ، ولا عهد • قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم • تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية •قال ويحك • وخرج ذلك الرجل اليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما ان رجلا من الخزرج يضرب بالابطح ويذكر أن بينكما وبينه جوارا ، قالا ومن هو • قال سعد بن عباد قالا صدق والله انه كان ليجير تجارنا ، ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، فجاءا فخلصا سعدا •

---

(١) جمته مجتمع شعر الرأس من مقدمه

ذكرنا هذه القصة بطولها • ليتبين أن قـريشا أحنقهم ، أن استجيب طلب محمد ﷺ أن يجد المأوى لدعوته في يثرب وظهر غضبهم في تتبع القـــوم وفي الاذى الذى أنزلوه بسعد بن عبادة ،وهو الذي أدركوه ، وغيره قد اجتازوا الطريق ، ورحلوا ، قبل أن يصلوا ،ولو أدركوهم فوق السبعين لا يعلم الا الله كيف تكون المعاقبة • ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الاسلام ولو قليلة وقـوة الشرك ، وان كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف أوشك عـلى نهايته ، والله ولي الصابرين •

# ابتداء الهجرة

٣٢٢ ـ وجد المسلمون أنه صار لهم مأوى ينتقلون اليه، وشعر المشركون أن الاسلام خرج نقيا طاهرا ظاهرا قويا من أرضهم ليكيل لهم الضربة بمثلها ، والايذاء يدفعه ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد صار له قوة تناوئهم ان أرادوا به كيدا ، وأنه قد تلتف عليه قبائل العرب قبيلة قبيلة، وما شعروا بالندم على أن حاربوه ،ولم يمكنوه من الدعوة ، بل لاقوه هو وصحبه بالاذى والاستهزاء ، ولكن الندم لم يعرهم ، لانهم سادرون في غيهم • وقد استولت عليهم المداوة ،ومن استولى عليه العداء ، وسيطرت البغضاء ، لا يرعوي ، ولا يتجه الى الرجوع عما هو فيه ، وكلما ازداد قوة ازدادة حدة ، ولا ندم مع الحدة ، لان الندم شعور بسلطان الحق • وليس للحق سلطان في قلوب المشركين الذين استمكن الشرك والتعصب في قلوبهم ، فلا تزيدهم مظاهر القوة في الحق الا عتوا واستكبارا ، ولا ننسى أن المنافسة بين العشائر والتنازع بين الشرف هي الأصل في الاعراض ، وتثبيت الكفر في القلوب ، وكلما ازدادت قوة الدعوة حسبوا أن ذلك زيادة لشرف بني هاشم أهل الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه •

ولذلك اشتد كلبهم على المسلمين الذين بين ظهرانيهم ، لما رأوهم يخرجون الى قوة يتجمعون بها ، ولم يخرجوا فارين بدينهم ، كما خرجوا في هجرة الحبشة مرتين ، بل هم في هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى ، وهدايته •

وذلك هو الفرق الواضح بين هجرتي الحبشة ، وهجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب ، ولذلك لم ترعهم هجرتا الحبشة ، بل أثارت اشفاق بعض قريش كعمر بن الخطاب ، كما ذكرنا ،أما الهجرة الى يثرب ، فلقد ازعجتهم وأثارت غضبهم ، وان كان ثمة اشفاق، فعلى أنفسهم لا على غيرهم •

هذا شعور المشركين من قريش عندما بايع أهل يثرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما شعور المؤمنين الصابرين فقد ابتدؤوا يحسون بنصر الله تعالى لهم ، وأنهم صار لهم قوة ، تدفع عنهم وبهم ذل الاستضعاف والاستهزاء ، كما قال تعالى :

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝﴾ (١)

## النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة :

٣٢٣ ـ أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد البيعة الثانية ـ يحرض المؤمنين على الهجرة الى يثرب ، وأهل يثرب من الاوس والخزرج يدعون الى دين الله تعالى ، وينشرونه بين أهليهم واخوانهم حتى صاروا كثرة كاثرة في المدينة ، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحوا كالحواريين لعيسى عليه السلام بيد أن الحواريين لم يكونوا عددا كثيرا ، وكان الانصار عددا كثيرا من بعد .

روى البخاري ومسلم بطرق مختلفة عن رسول الله قال : « رأيت في المنام اني أهاجر الى أرض بها نخل ، وذهب وهمي الى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هي يثرب » وروى الزهري عن عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يومئذ بمكة للمسلمين « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين ، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورجع الى المدينة من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين .

ويذكر ابن اسحاق في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برواياته أن الاذن بالهجرة أو الامر بها ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله تعالت كلماته :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

(١) القصص

صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

ونرى أن هذه الآيات الكريمات نزلت بالمدينة ، لان سورة الحج مدنية ، ولأن الآيات تنبىء عن أنهم أخرجوا بالهجرة من ديارهم ، وان الاذن من الله بالخروج والاخراج قبل الهجرة ،والسبب مقدم على المسبب وان الامر فيها اذن بالقتال ، وهو بعد الهجرة ، بعد أن صارت قوة متجمعة في يثرب التي صارت مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

## الإذن للمؤمنين بالهجرة :

٣٢٤ ـ أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للمؤمنين بالهجرة ، ويبين لهم أن في يثرب الايواء والنصرة ،وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها » .

بعد هذا الاذن الصريح الذي يكاد يكون أمرا،خرج المسلمون مهاجرين أرسالا ، آحادا وجماعات ، ولم يجد المهاجرون السبيل ذللا سهلا ، بل كانوا يجدون معوقين من قريش ، لان هؤلاء بعد أن علموا ببيعة الانصار أدركوا أن المسلمين بمكة يتجمعون باخوانهم في يثرب التي صارت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذوا يترصدون كل من هاجر ، فان استطاعوا منعه منعوه ، فحاولوا أن يمنعوا أم سلمة وزوجها ، وتركوه يهاجر دونها ، وهي بارادة مؤمنة صبرت وهاجرت وحدها ، حتى وجدت من أهل المروءة من عاونها على هجرتها :

وأحيانا كانوا يتحايلون على المهاجرين بالكذب حتى يردوهم ثم يعذبونهم غير موفين بعهد أو ذمة ، ولنضرب لذلك مثلا ، بأحد المهاجرين وهو عياش بن أبي ربيعة .

---

(١) الحج

يروى أن عياشاهذا عندما هم بالهجرة اخرج اليه أبوَ جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وكان ابن عمهما وأخاهمـــا لامهما ، فتبعاه ، حتى قدم المـدينة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد هاجر بعد ، بل كان لا يزال بمكـة وقالا له : ان أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له عمر وكان معه : « يا عياش انه والله ، ان يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمـل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكـة لاستظلت، فقال وهو مخدوع : أبر أمي، ولي هناك مال فآخذه • قال له عمر :والله انك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما • فلما أبى ذلك قال عمر الرفيق الشفيق ، أما اذ فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هـذه ،فانها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من أمر القوم ريب ، فانـج عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل :يا أخي ، والله لقد استغلظت بعـيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه • قال بلى فأناخ وأناخها ليتحولا عليها ، فلما استووا بالارض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة ، ففتناه فافتتن، وخرج من الاسـلام مكرها ، وقلبـه مطمئن بالايمان •

وكان صاحب عمر في الهجرة ، ومعهما صاحب ثالث ، وهو هشـام بن العاص أدركه أهله قبل أن يصـل الى المدينة ففتنوه عن دينه ففتن •

قال عمر صاحب الرواية كلها ، وكان قد صحبهما في الهجـرة ، « كنا نقول لا يقبل الله ممن افتتن ، وفي رواية عبد الله ابن عمر عن أبيه قوله ما الله بقابل ممن افتن صدقا ولا عدلا ، ولا توبة ، قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون هم لانفسهم ذلك •

ولعل هذا الاعتقاد الذي سكن قلب عمـر الفاروق ، وسكن قلوب أولئك المؤمنين الاولين ، انما هو لكي يتحملوا أقصى ما يمكن من البلاء ، وليكـون صبرهم تحريضا لغيرهم ، فقوة الايمان تسري من أقوياء النفوس الى ضعفائها، وان الماء العالي يهبط الى السـافل ،لتتوازن النفوس كالسوائل •

لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة أنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

لما نزلت هذه الآية لم ينس عمر الكريم صاحبيه اللذين كانا على نية مرافقته ، ورافقه أحدهما ، ثم افتتن في دينه وافتتن الآخر قبل أن يسافرا ، ولانه لم ينسهما أرسل اليهما في صحيفة هذه الآية الكريمة ، أرسلها الى هشام بن العاص الذي افتتن أولا ــ فلما قرأها فهمها بعد أن استعصى عليه فهم ما يقصد عمر من كتابتها اليه ، وعرف أنها أنزلت فيه وفي أمثاله ، ممن كانوا قد قنطوا من رحمة الله تعالى .

وهنا رواية أخرى تقول : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالمدينة قال : من لي بعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج الى مكة مستخفيا فلقي امرأة تحمل طعاما ، فقال لها أين تريدين يا أمة الله : قالت أريد هذين المحبوسين ( تعنيهما ) فتبعها ، حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لاسقف له ، فلما امسى تسور عليهما ، ثم أخذ ردة ( أي خنجرا ) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه ، فحل القيدان ، ثم حملهما على بعيره .

## استخفاء المؤمنين بالهجرة :

٣٢٥ ــ من أجل هذا التتبع الشديد من المشركين ، كان المؤمنون يتسللون في هجرتهم لواذا استخفاء من ظلم قريش ، الذي انبعث من خوف تجمع المؤمنين بيثرب لينقضوا عليهم ، ويمنعوهم من فتنة الناس في دينهم ، وكان

---

(١) الزمر

الاقوياء منهم يختارون التستر، ليظفروا بالهجرة في أمان من الاذى ، الا عمر بن الخطاب الذي أبى الا أن يجهر بالايمان في كل موطن من مواطن مكة ، وأبى الاستخفاء ، فهو في الهجرة أيضا أبى الاستخفاء ، وخرج مجاهرا بالهجرة متحديا من يقف في سبيله .

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في الهجرة أنه قال: «ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الاعمر بن الخطاب ( رضي الله تعالى عنه ) فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة ،والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ،ثم وقف على الحلق واحدة، واحدة فقال: شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل امرأته ، فليلقني وراء هذا الوادي » (١) .

وقد يسأل سائل أن المشهور أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه صحب في رحلته عياش بن أبي ربيعة . وكان في عزمته أن يصحبهما هشام بن العاص، فكيف نوفق بين هذه الرواية المشهورة ورواية علي كرم الله وجهه ، ونقول في الجواب عن ذلك ، ان الجمع بين الروايتين ممكن ، ومتى أمكن الجمع يتعين تصديق الروايتين ، اذ لا ترد احداهما الا اذا تعذر التوفيق بينهما .

والتوفيق ممكن وظاهر ، اذ أن الصحبة كانت فى السفر ، وواضح أن السفر يكون بعد اعتزام النية والاصرار ، وقد كان متفقا معهما على أن يلتقيا معه في مكان يقال له التناضب من أضاة بني غفار .

والواقعة التي رواها علي كرم الله وجهه كانت وهو لا يزال بمكة ، وقد أعلن الهجرة ، فهو قد قال ما قال معلنا هجرته ، متحديا قريشا ، ثم أخذ طريقه الى المكان الذي اتعدوا فيه ، فوجد عياشا ، وتخلف عنهما هشام ، اذ افتتن في دينه ، واستجاب لهم وقلبه مطمئن بالايمان .

كانت هجرة المهاجرين سرا ، أو على استخفاء من قريش .

---

(١) راجع فى هذا أشهر مشاهير الاسلام للمرحوم رفيق العظيم ، طبعة ١٩٧٢ ( دار الفكر العربى ) .

وكانوا ينزلون في مهجرهم على الانصار ، فينزلون معهم في بيوتهم فعمر بن الخطاب حين انتقل الى المدينة ولحق به أهله وأخوه زيد بن الخطاب ،وعمرو بن سراقه وغيرهم ، نزلوا على رفاعة بن عبد المنذور بن زهير في بني عمرو بن عوف في قباء .

ونزل طلحة بن عبيد ، وصهيب بن سنان ، على ضبيب بن اصاف ، وهكذا غيرهم نزل في منازل الذين آووا ونصروا ، وكانوا ، يرحبون بهم ، وكانهم بين أهليهم وذويهم ، لان الايمان الصادق جمعهم ، ومحبة الله ورسوله فاضت عليهم ، فجعلتهم أحبابا على مائدة الرحمن ، وقد علموا فضل اخوانهم المهاجرين الذين صبروا عند الصدمة الاولى ، وأوذوا في أنفسهم وأخرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، فجعل الله تعالى من خوفهم أمنا ، ومن ذل ضعفائهم عزة اذا اعتزوا بعزة الله تعالى ، وكان بهم بتوفيق الله أن صارت كلمة الله تعالى هي العليا ، وقد قال تعالى في المهاجرين والانصار :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

ويقول سبحانه تعالت كلماته :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢)

فالسابقون الاولون هم الذين هاجروا فارين بدينهم ، مجتمعين في ظل الله تعالى ، ولا ظل غيره ، والانصار الذين ولوهم في السبق ، وفتحوا لهم

(١) الحشر (٢) التوبة

ديارهم ، اذ فتحوا لهم قلوبهم ، وآثروهم على أنفسهم ، أولئك لهم الفضل الاول في السبق الى اتباع الرسول ،والذين دونهم اتبعوهم باحسان ،فهؤلاء لهم فضل السبق ، والآخرون لهم فضل الاتباع .

## هجرة النبي صلى الله عليه وسلم :

٣٢٦ ـ أخذ المسلمون يهاجرون زرافات ووحدانا مستخفين ، وقليل منهم من هاجر معلنا ، كما فعل عمر رضي الله تعالى عنه ، فقد أعلن هجرته وتحداهم أن يمنعوه ، وعلي كرم الله وجهه يخص عمر بأنه الذي أعلن وتحدى ولعل ما انفرد به عمر رضي الله عنه هو هذا التحدي ، ولا شك أن من الاقوياء من يعلن ولا يختفي ، كسيد الشهداء حمزة بن المطلب ، فما كان لمثل حمزة في قوته وبأسه وايمانه أن يختفي ، وفوق ذلك فان عشيرته من بني هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبدالمطلب ليرضوا أن يرهقوا حمزة في ارادته ، أو لا يوافقوه على هجرته ،وقد رضي العباس بهجرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما تدل على ذلك خطبته في العقبة الثانية ، حيث كانت البيعة الثانية على الايواء والنصرة ، بل لو سايرنا التصور العقلي المنطقي لقلنا ان العباس كان يرحب بهجرة حمزة ليكون بجوار ابن أخيه ، ينصره مع الناصرين .

ما بقي من المؤمنين من يثبت أنهم لم يهاجروا قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا علي وأبو بكر ، فأما علي فهو مع النبي وقد ثبت أنه هاجر بعد النبي بأمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى من بعده ليرد الودائع ، أما أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان يهم بالهجرة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستبقيه ، ويشير اليه بمعاريض القول بأنه قد يكون صاحبه ، ثاني اثنين .

لقد قال ابن اسحاق في السيرة :«أقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين، الا من حبس أو فتن الا علي بن أبي طالب ، وأبو بكر بن قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيرا ما استأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تعجل لعل الله تعالى يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعد للهجرة من منذ البيعة الاولى عندما التقى بالأوس والخزرج ، بدليل هذه المبايعة ، ثم كانت البيعة الثانية بيعة الايواء والنصرة دليلا على أنه اعتزم الهجرة وأرادها ، ثم من بعدها أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو أمرهم بأن يهاجروا ، فهاجروا زرافات ووحدانا • مستخفين في الاكثر، معلنين في الاقل ، فكانت الهجرة ترتيبا للدعوة ، وخروجا من موطن لاقوة للاسلام فيه الى بلد يكون للاسلام فيه قوة ، ويكون له فيها السلطان لانشاء دولة اسلامية فما كان من المعقول أن ينفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مباديء الاسلام في مكة ، وهي في ظل الوثنية ، ويحكمها مشركون ، فالزكاة لا يمكن جمعها الا في ظل سلطان عادل يجمعها من الاغنياء ، ويردها على الفقراء ، وتنفيذ مبادىء المساواة والاخاء ، ودعوة المسلمين الى التراحم ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة لبناء دولة فاضلة ، ولا القصاص العادل، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل ، وما كان ليحارب الربا الجاهلي ، ما كان يمكن شيء من ذلك الا في ظل الله تعالى ، وبدولة اسلامية تنفذ أوامر الله تعالى ، وتبعد الناس عن نواهيه ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يقيم رأيا عاما فاصلا ، يقوم المنحرف ، ويرشد المسترشد ، ويكافيء المحسن الا في ظل دولة اسلامية، وعلى ذلك فالهجرة كانت أمرا مقررا ، ولابد منه لتقام دعائم الاسلام ، ولتثبت أركانه ، وتعم في الوجود الانساني دعوته ، وليست الهجرة جاءت بسبب حادث وقع ، أو خوف لامر متوقع •

## ما اقترن بالهجرة المحمدية:

٣٢٧ ـ اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش ، فظنها كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هي سبب الهجرة، وأن الهجرة كانت أمرا مسببا لها ، ولكن الهجرة كانت أمرا مقررا ، وتنظيما محكما •

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

(١) الانفال

فهم يدبرون من جانبهم أم الله تعالى يدبر أمرا ، قد وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وهو الهجرة ،والامر الذي مكروا به وتآمروا عليه خلاصته ما ذكرته الآية .

رأى المشركون أن مكة قد خرج الذين اتبعوا محمدا منها،ليتجمعوا،وليكونوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقض على المشركين ، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد وأتباعه ، فلابد أن تكون تلك القوة عليهم ، وأن عليهم أن يتداركوا الامر قبل أن يستفحل ، وأن تتحقق المآرب .

واذا كان الاتباع قد هاجروا ، ولم يبق الا ضعيف أو عبد ، فان محمدا لا يزال بين ظهرانيهم وهو الرأس وغيره أتباع ، فاذا نالوا منه ، فقد تحقق مآربهم .

قال ابن اسحاق في سيرته : « لما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، وغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم عرفوا أنهم أصابوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم » .

اجتمعوا في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب ، وكانت مجتمع أمر قريش ، لا يقضون أمرا ذا بال الا فيها ، اجتمع في الندوة كبراء قريش، ودلف عليهم رجل من نجد ، حضر جمعهم، قيل انه ابليس ، وان لم يكن هو فهو مثله خبثا .

تشاوروا في أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم،فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فاجمعوا فيه رأيا .

فقال قائل منهم احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذي كانوا قبله ، ومن مضى منهم من هذا الموت .

قال الشيخ النجدي : ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلأوشكوا

ان يثبوا اليكم ، لينزعوه من أيديكم ،ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروافي غيره ٠

فقال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا ، فوالله ما نبالي أين ذهب،ولا حيث وقع،ان غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت ٠

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، فوالله لو فعلتم ماأمنتم أن يحل على حي من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم ،حتى يطأ بهم بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ،فروا فيه رأيا غير هذا ٠

فقال أبو جهل بن هشام ، والله انيلي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا نسيبا وسيطا فتيا ، ثم نعطى كل واحدمنهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ،فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم ، جميعا، فيرضوا منه بالعقل ( أي الدية )فعقلناه لهم ٠

قال الشيخ النجدي:القول ما قال هذاالرجل ، هذا الرأى الذي لا رأي غيره ٠

انتهوا الى ذلك فاعلم الله تعالى نبيه بما دبروا ، وأمره ألا ينام الليلة على فراشه ٠

## تنفيذ المؤامرة :

٣٢٨ ـ ان القوم ائتمروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ،ولكن الله تعالى أعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، ولقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة كان في ذلك الوقت ، ونزل قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)

(١) الاسراء

وأن دخول الصدق كان بدخول المدينة ،والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة ، كما فسر قتادة ، وهـكذاكان خروجه من مكة وهي أحب أرض الله تعالى اليه لدعـــوة الحق ولنصرتهواعزازه ، وكان دخوله المدينة صدقا ، لانه بسبب ارادة نصرة الحق ، واعـلاءشأنه ، فخروجه صدق ، ودخوله صدق، وكلاهما حق ٠

ان قريشا في عتمة الليل الذي بيتوافيه تنفيذ مؤامرتهم بقتل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أحاطوا بداره ، ليقتلوه اذ يخرج اليهم ، ولم يحاولوا أن يدخلوا الى منامه ، وقـــال السهيلي فى تعليل ذلك : « ذكر بعض أهـــل التفســـير السبب المانع لهم منالتقحم عليه في الدار ، مع قصر الجدار وأنهم انما جاؤوا لقتله ، فذكـــر فيالخبر أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض :والله أنها السبة في العرب أن يتحـدث عنا أننا تسـورنا الحيطان على بنـــاتالعم ، وهتكنا سر حرمتنا ، فهذا هـو الذي أقامهم بالباب ، وأصبحوا ينتظرون خروجه » ٠

عندما أعلم الله نبيه بأمرهـــم كانمحملا أمانات من القوم ، فكانت عنده ودائع للناس ، وليس بمكة أحـد عندهشيء يخشى عليه الا وضعه عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما يعلم منصدقه وأمانته ، وكان ذلك مع شـــدة العـــداوة والمنـــاواة من أكبر المشركين ٠

ولذلك خلف عليا رضي الله تعـالىعنه ، وكرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وجعله ينام في مكان نومه صلى الله تعالىعليه وسلم ، وقال لعلي كرم الله وجهه : نم على فراشي ، وتسج ببردي هـذاالحضرمي ، فنم فيه ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم فنام علي المؤمنالمصدق لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الشجاع الجلد القوي الذيلا يهاب الموت في سبيل الله ، وكان اذ ذاك في نحـــو الثالثة والعشرين ، أوالثانية والعشرين ٠

## اجتمـاع المشـركين فى العتـمة :

٣٢٩ روى ابن اسحـاق ٠ بســـنده عنكعب القـــرظي أنهـــم لما اجتمعـوا له عليـــه الســـلام ، وفيهم أبو جهلقـــال أبو جهـــل ، وهـم على بابه : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتموه عـلىأمره كنتم ملوك العـرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد نومكم فجعلت لكم جنـانكجنان الاردن ، وان لم تفعلوا كان فيكم

ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلكم نارا تحرقون فيها • فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال نعم أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس ۝١ والقرآن الحكيم ۝٢ إنك لمن المرسلين ۝٣ على صراط مستقيم ۝٤ تنزيل العزيز الرحيم ۝٥ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ۝٦ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ۝٧ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ۝٨ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ۝٩ ﴾ (١)

مر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم يروه ، وقرأ عليهم هذه الآيات ، وسواء أصحت الرواية التي تقول ، انه خاطبهم أم لم تصح ، فانها لم تغير من اللب شيئا ، بل الحقيقة أنه مر عليهم ، وتلا عليهم تلك الآيات البينات ، وحثا التراب في وجوههم ، وانصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق •

أما المشركون المؤتمرون الذين كانوا يريدون قتل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم استمروا في موقفهم منتظرين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرج ليقتلوه ، حتى أتاهم آت ممن لم يكن معهم • ويظهر أنه قد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج ، فقال لهم ، ما تنتظرون هاهنا ؟ فقالوا محمدا : فقال : خيبكم الله ، قد والله خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم مضى لحاجته ، أما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذي أتاهم ، فجعلوا يتطلعون ، فيرون عليا في الفراش ، متسجيا ببرد

---

(١) يس

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فيقولون ، والله ان هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك ، حتى أصبحوافقام علي من الفراش ، فقالوا والله لقد صدقنا الذي حدثنا ٠

## النبي مع صاحبه إلى الهجرة وطريقهما :

٣٣٠ ـ كان أبو بكر يريد الهجرة ، كما هاجر أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلما هم بالهجرة ،قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعجل ، ويقول ابن اسحاق استأذن أبوبكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة ، فقال له : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا ، وقد طمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم ، انما يعني نفسه ، ولقد عظم ذلك الظن في نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما في داره ، يعلفهما اعداداً لذلك ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي كل يوم الى بيت أبي بكر في طرفي النهار اما بكرة ،واما عشية، كما تروي عائشة رضي الله تعالى عنها ، وتقول حتى اذا كان اليوم الذي أذن فيه للنبي بالهجرة ، والخروج الى مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها فلما رآه أبوبكر ، قال : ما أجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الساعة الا لامرحدث ٠٠ قال الرسول لابي بكر ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال رسول الله الصحبة » ٠

قالت راوية الخبر فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي، ثم قال يا نبي الله ، ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا ٠

كان هذا في الليلة التي أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يأتمر به القوم ، وأذن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما خرج ، وقد غشيّ الله تعالى على أبصارهم كانت الرحلة الشاقة ، وكانت الهجرة المباركة ، وقد أخذت لها الاهبة ، وأعدت لها العدة ٠

عندما أخبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر باذن ربه له بالهجرة، وأخبره عليه السلام بالصحبة تجمعهما، قال الصديق « يا نبي الله ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا » ٠

وقد استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط ،وكان لا يزال على الشرك ، وأبوه من بني بكر ، وأمه من بني سهم بن عمرو ، قد استأجره أبو بكر ليكون دليلهما في الرحلة ، وقد دفع اليه أبو بكر الراحلتين ، فكانتا عنده يعدهما ، ويرعاهما حتى يحل ميعاد الخروج عليهما ، ويروى أنه أهدى ، فضلاهما لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فسأله الرسول عن ثمنه ، فذكره ، وقال هي لك .

وكان الميعاد بينهما وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأبو بكر خرج من خوخة لابي بكر في ظهر بيته ، وذلك للامعان في الاستخفاء حتى لاتتبعهما قريش ، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة ، وقد اتعدا مع الدليل على أن يلقاهما في غار ثور بعد ثلاث ليال .

وقد دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روى ابن نعيم قائلا : «الحمد لله الذي خلقني ، ولم أك شيئا اللهم أعني على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والايام ، اللهم اصحبني في سفري ، واخلفنى فى أهلي ،وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فأذلني ، وعلى صالح خلقي فقومني ، واليك ربي فحببني ، والى الناس فلا تكلني ، انت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والارض ، وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الاولين والآخرين أن تحل علي غضبك ، وتنزل بي سخطك ،أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجاه نقمتك ،وتحول عافيتك لك العتبى عندي خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة الا بك» .

ومن قوله عليه السلام حين خرج من مكة ، ونظر الى البيت « انك لاحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك اخرجوني منك ما خرجت » واخراجهم كان بالاذى ومنع الدعوة .

بهذا الدعاء الضارع ابتدأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رحلته المباركة التي آتت أكلها للانسانية كلها، لانها كانت ابتداء عموم الدعوة .

وقد كانت فكرة الهجرة بعد العقبة الثانية وفي عامها ، فقد انتهى الحج ، وابتدأ التفكير في الهجرة النبوية ، وقد هاجر المؤمنون قبله ، وقالوا ان هجرته عليه السلام لم تكن في المحرم ولا في صفر ، ولكن قد بدأت ، ولعلها

ابتدأت مع ابتدائه ، وقد وصلوا الى المدينة في الثاني عشر من ربيع الاول على أصح الروايات ، وكانت فى يوم الاثنين .

ولقد روى الامام أحمد عن ابن عباس : « ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبىء يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين .

## الرسول وصاحبه فى غار ثور:

٣٣١ ـ كانت الهجرة هي النصر الاول ، بل هي أعظم النصر ، لان النصر الذي جاء من بعدها كان ثمرة لها ،فهي باب للفتح ، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الاول ، وذكر محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه في غار ثور هذا ، اذ قال تعالت كلماته :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى غار ثور ، وهو على مسافة أربعة أميال من مكة بأسفله ، وسار هو وصاحبه الصديق فجعل أبو بكر يمشي أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقال اذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك واذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك ، ويروى أنه قال اذا كنت أمامك خشيت الطلب ،واذاكنت خلفك خشيت الرصد .

وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب: « لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة انطلق الى الغار ، ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي ، وساعة بين يدي ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب ،

---

(١) التوبة

فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد ،فأمشي بين يديك ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بكر ، لو كانشيء لاحببت أن يكون بك دوني • قال نعم ، والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيالى الغار ، قال أبو بكر مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء لك الغار فدخل حتىاذا كان ذكر أنه لم يستبرىء الجحر ، فقال:مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء،فدخل فأستبرأ ، ثم قال أنزل يا رسول الله ، فنزل ، ثم قال عمر : والذي نفسي بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر»(١)•

مكث رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم مطمئنا الى وعد الله ، راضيا بالمشقة في سبيل الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وقد رضي أن يفارق مكة ، وهي أحب بلاد الله في سبيل اقامة الدولةالاسلامية ، التي لم يمكنه أهلها من الدعوة ، وحاولوا قتله ، وكانت هذهالمحاولة مع عنادهم ، وكفرهم ، وجحودهم بالآيات سببا في أن يخرج يريد أرضا لدولة الاسلام في غيرها •

علم المشركون ، أو العتاة منهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج، وأن الذي نام مكانه علي ، وأنهم ترصدوا عليا ، وهم يحسبون أنهم يترصدون النبي ليقتلوه ، حاولوا أنيعرفوا من علي أين ذهب النبي ، فلم يجدوا عنده ما يطلبون ، فأخذوايتقصون أثره ، ويتأثرون خطاه ليعرفوا أين يكون ، وأطلقوا في الاسواقوالاماكن من يأتي به حيا أو ميتا وقد اقتفوا أثره ، وتتبعوه ، حتى وصل بهمالامر الىجبل ثور الذي بغاره الصاحبان ولكن آية الله تعالى أن جعلت العنكبوتينسج نسيجه ، وكأنه من سنين ، وأن حمامتين عششتا على بابه ، فكانت آيةحسية من خوارق العادات ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحدثلاثبات نبوته الا بالقرآن ، لانه المعجزة الكبرى الباقية الى يوم الدين ، وهوحجة على الخليقة في كل الاجيال ،ولكل الاجناس •

جاء رجال قريش يطلبون النبي صلىالله تعالى عليه وسلم ، وقد انتهى بهم الاثر الى الغار ، ولكنهم وجدوا ما وجدوا وقالوا اذ رأوا نسج العنكبوت لم يدخل أحد ، وهم لو ألقوا بأنظارهم الىداخله لرأوا الرسول وصاحبه ، ولكن صرف الله تعالى أنظارهم ، والنبي صلىالله تعالى عليه وسلم آمن مطمئن ، ولذا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج (٣) ص ١٨٠

كان قائما يصلي ، وأبو بكر يرتقب ،فلما أتم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، قال أبو بكر خائفا على النبي عليه الصلاة والسلام ان قومك يطلبونك أما والله أني لأئل (١) على نفسي ،ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم« لا تخف ان الله معنا » .

هذا ما كان من القوم ، وما كان يجري داخل الغار ، وكان أبو بكر قد دبر الامر بالنسبة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقد كلف ابنه عبد الله أن يأتيهما وهما في الغار بأخبار قريش ،وما تدبر من أمرها ، وهو غلام شاب ثقف مدرك لقن ، فيدلج من عندهما فيصبح مع قريش بمكة ، ولا يسمع أمرا يكيدون به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ،فيريحها عليهما وهما في الغار ، وذلك في ساعة العشاء ، فيبيتان وارسال لبن الغنم تصل اليهما ، حتى اذا جاء الغلس ،أخذ عامر بن فهيرة الغنم ، وعاد الى مكة ، فيكون من اللبن غذاء ، ويذهب سير الغنم بآثار من يجيئون الى الغار ،حاملين أخبارا ، أو حاملين طعاما .

وكانت أسماء بنت أبي بكر تعد لهما سفرة من الطعام في جراب ، ولما لم تجد ما تربط به قطعت نطاقها ،فربطت بقطعة منه على فم الجراب، ولذلك سميت ذات النطاقين ، وكانت تذهب بالطعام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه كل يوم ، أو كلما أمكنتها الفرصة .

## سُراقة والسَّير الى المدينة :

٣٣٢ ـ مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الغار ثلاث ليال ، حتى يسكن طلب قريش ، ويئسوا من أن يصلوا اليه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبعدها خرجا قاصدين الى المدينة ، ومعهما دليلهما المشرك ، ولكنه كان أمينا عليهما ، غير مدلس ولا ممالىء ، فسلك بهم طريق الساحل ، حتى لا يتبعهم أحد من قريش ، لانهم لا يتصورون أنه يسلك هذا الطريق وهم يتتبعونه ، ويقتفون طريقه ، وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا مائة ناقة كما أشرنا من قبل .

---

(١) هي من آل المريض أو الحزين بمعنى رفع صوته وصرخ عند نازلة تنزل به .

وقد طمع سراقة بن مالك بن جعشم في أن ينالها ، وقد روى ابن اسحاق عنه أنه قال :

لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة مهاجرا، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . فبينما أنا جالس في نادي قومي ، اذ أقبل رجل منا ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علي آنفا ، اني لاراهم محمدا وأصحابه فأومأت اليه بعيني أن اسكت ثم مكثت قليلا .. ثم أمرت بفرسي .. وأمرت بسلاحي .. ثم أخذت قداحي أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتي (١) ، فاستقسمت ، فخرج السهم الذي أكره ، وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ مائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسي يشتد عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت ما هذا، ثم أخرجت القداح فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره ، فأبيت الا أن أتبعه ،فركبت في أثره فبينما فرسي يشتد بي فعثر بي، فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فركبت في أثره ، فلما بدا القوم ورأيتهم عثر بي فرسي ، فذهبت يداه في الارض ، وسقطت عنه، ثم انتزع يداه من الارض وتبعهما دخان كالاعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع عني، وأنه ظاهر، فناديت القوم ، فقلت أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لاأريبكم ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله قوله ، وماذا تبغي منا ؟قلت تكتب كتابا يكون بيني وبينك .

يلاحظ أنه ذكر له ما كان يسمى اليه ، ولكنه عندما رأى ما رأى ، وعلم اليقين في الرسالة ، استوثق من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم منصور بأمر الله تعالى .

فكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا ، ثم ألقاه اليه .

وقد استمر سراقة حافظا لهذا الكتاب ، حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة ، ثم فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حنين والطائف ذهب سراقة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتاب ، ويقول في ذلك « دنوت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فرفعت يدي بالكتاب ، وقلت يا رسول الله،هذا كتابك لي أنا سراقة بن جعشم،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا يوم وفاء » .

---

(١) الدرع

أعلن سراقة اسلامه ، ويظهر أنه كان مؤمنا بصدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يوم أن رأى ما رأى ،ولذلك أراد أن يأخذ هذا الكتاب .

وقد سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن سقي الابل الضالة قائلا : الضالة من الابل تغشى حياضي ، وقد ملأتها لابلي هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال الرسول الرحيم : نعم في كل ذات كبد حرى أجر .

ولقد حسن اسلامه فرجع الى قومه ،وساق الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صدقته .

## الركب يسير في طريق الصحراء :

٣٣٣ ـ لم تكن الرحلة المباركة سهلة ، لان الطريق في الصحراء ، ليس سهلا في ذاته ، بل هو طريق وعث تجتاز فيه الرمال والوهاد والآكام ، وقد اختار الدليل طريقا هو أشد طرق الصحراء وعورة ، وذلك لكيلا تتبعهم قريش اذا سار في الطريق الذي ألفوا السير فيه ، وقد يكون معبدا الى حد مناسب للصحراء .

لقد سلك بهم طريق الساحل ، ولم يكن مألوفا في الوصول الى يثرب منه ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق في سيرته يذكر الاماكن التي مر بها فهو يقول :

لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن ( أريقط ) سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما ( النبي وأبي بكر ) على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عساق ، ثم سلك بهم على أسفل أمج ، ثم استجار بهما حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهم الخرار ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهم مدلجة محاج (١) ، ويقال له مجاج ، ثم سلك بهم مرجع محاج ، ثم تبطن بهما مرجع ذي الغضوين ، ثم بطن ذي كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الاجرد ، ثم سلك بهما سلم ، من بطن أعداد مدلجة تعهن ( وزن فعلل ) اسم عين ماء ، ثم على العبابيد .. ثم أجاز بهما الفاحة .

---

(١) فى معجم البلدان لياقوت ( مجاج )

قال ابن هشام : ثم هبط بهم العرج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، رجل من أسلم يقال له أوس بن حجر ، على جمل له يقال له ابن الرداء الى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهم ثنية الفاعن يمين ركوبة ، حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل (١) .

هذا هو البيان الذي ذكرت فيه أسماء الاماكن التي مر بها ذلك الركب المبارك ، فما ذكر كله أسماء أماكن في الصحراء العربية ، وهي مجاهل فيها ، ما كان ليعلمها الا خبير بها ، وهو ذلك الدليل الذي كان عليما بها ، وكان أمينا على من معه مع بقائه على الشرك .

وهذا البيان يدل على مقدار صعوبة الرحلة ، حتى أجهدت الرواحل ، واضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تغيير الراحلة .

## أم معبد والشاة العجاف:

٣٣٤ ـ هذا خبر عن امرأة نقية طاهرة مخلصة ، التقى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المديد في أثناء رحلته ، وقد ظهر في لقائه بها عليه السلام من خوارق العادات ، مما يضاف الى خارقة خروجه عليه السلام ، وقد وضع الله تعالى على بصرهم غشاوة ، فلم يروه ، ويضاف نسج العنكبوت في الغار ، والى تعشيش الحمام عليه ، والى غوص قوائم فرس سراقة ، وعثرته عدة مرات

فان كل هذه خوارق عادات حسية ، لا تقل عن معجزات موسى وعيسى الحسية ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحد قريشا بها ، ولم يتحد الوجود الانساني بها ، بل تحداه بالقرآن المعجزة الكبرى .

والخارق الذي بدا في المرور على أم معبد ، هو أن اللبن در من شاة عجفاء حائل لا لبن فيها ، وسقى جميع الركب ، وتكرر السقي ، وشاركهم أهل المنزل

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤٩١ ، ٤٩٢

الذي نزل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، واليك القصة كما رواها البيهقي بسنده عن أبي معبد الخزاعي :

ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة هاجر من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله ابن أريقط الليثي ، فمروا بخيمتي أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزه جلده، تحتبي ، وتجلس بفناء الخيمة • فسألوها هل عندها لحم أو لبن ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك ،وقالت لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، واذ القوم مرملون مسنتون( أي في سنة جدب ) •

فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا شاة في كسر خيمتها ، فقال عليه السلام : ما هذه الشاة يا أم معبد؟فقالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال عليه السلام : فهل بها من لبن ؟ فقالت هي أجهد من ذلك • قال عليه السلام : تأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ،وذكر اسم الله تعالى ، ودعا باناء لها يريض الرهط (١) ، فتفاجت واجترت فحلب منها ثجا حتى ملأه ، وأرسله اليها، فسقاها ، وسقى أصحابه ، فشربوا عللا بعد نهل (٢) ، حتى اذا أرووا شرب ( أي عليه السلام ) آخرهم ، وقال ساقي القوم آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ، فغادروه عندها ،ثم ارتحلوا •

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا لانقي بهن فلما رأى اللبن عجب ، وقال من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة في البيت ، والشاة عازب ؟ فقالت : لا ،والله انه مر بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت ، وكيت • فقال صفيه ،فوالله اني لاراه صاحب قريش الذي تطلبه • فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه تجلة(٣)،ولم تزر به صعلة(٤)، قسيم وسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أكحل،أزج ، أقرن ( أى سيد ) في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ،

---

(١) أى يشبع الجماعة ، وتفاجت معناها فرجت بين رحليها
(٢) النهل الشرب الأول والعلل الشرب الثانى ـ النقى المخ
(٣) التجلة : ضخامة البطن (٤) الصعلة : صغر الرأس

حلو المنطق ، فصل لانزر ، ولا هذر ٠كان منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس وأحملهم من بعيد ، وأحسنهم منقريب ، ربعة ، لا تنساه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصـــن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظـــرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، انقال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا لامره محقـود ، محســـود ، لا عـابس ولا مفند ٠

فقال بعلها : هذا والله صاحب قـريش الذي تطلب ، ولو صادفته لالتمسن أن أصحبه ، ولاجهدن ان وجـدت الى ذلك سبيلا ٠

هذه قصة أم معبد ، وهذه أقوالها ،وقد أشرنا الى ذلك في صفات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمها كما جاءفي كتب السيرة عاتكة بنت خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم ٠٠ وأبو معـــدزوجها ـ اسمه أكثم بن عبد العزى بن معبد بن ربيعة بن أضرم ، فهو من أبناءعمومتها ، وقيل انه أسلم ، وهاجر ٠

## خوارق أخرى من معجزاته ﷺ :

٣٣٥ ـ سار الرائد الذي سلك بالنبي وصاحبه غير الطريق الجاد ، وسار في طريق غير مطروق ، مر بأماكن كثيرة ، وقد حدثت في هذه الطريق خوارق للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلهايتعلق بمسير الســـائر في الصحـراء وحاجته الى الزاد والماء ، فكانت الخوارق تجيء مناسبة لذلك ٠

وقد روى البيهقي بسند عن قيس بن النعمان قال : « لما انطلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه مستخفين ، مروا بعبـــد يرعى غنما ، فاستسقياه اللبن فقـــالما عندي شاة تحلب ، غـير أن هنـــاك عناقا حملت أول الشتاء وقد أخدجت (١) ، وما بقي لها من لبن ، فقال عليـه السلام ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلهـاالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبوبكر بوعاء فحلب ، فسقى عليـه السلام أبا بكر ، ثم حلب ، فسقى الراعي ، ثمحلب ، فشرب صلى الله تعالى عليه وسلم، أخذ العجب الراعي ، فقـال من أنت ،فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال عليـه الصلاة والسلام : « وتراك تكتم عليحتى أخبرك ؟ قال نعم ، قال النبي صلى

---

(١) أى ألقت ولدها بعد أن صار تام الخلق، ولكن نزل قبل أوانه ، ويقال أيضا اذا ولدته قبل تمام الحمل ناقص الخلق

الله تعالى عليه وسلم فاني محمد رسـول‌الله • فقال الراعي المخلص أنت الذي تزعم قريش أنه صابىء !! قال انهـم‌ليقولون ذلك ، قال فاني أشهد أنك نبي وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لايفعل‌ما فعلت الا نبي ، وأنا متبعك ، قـال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انك‌لا تستطيع ذلك يومك هذا فاذا بلغـك أني قد ظهرت فأتنا » •

وقد روى هذا أيضا أبو يعلى :

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الله‌بن مسعود أنه قال : « كنت غلاما يافعا، أرعى غنما لعتبة بن أبي معيط بمكة ،فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسـلم ، وأبو بكـر ، وقـد فرامن المشركـين ، فقـال يا غـلام عندك لبن تسقينا » فقلت اني مؤتمن ،ولست مساقيكما فقال : هل عنـدك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت‌نعم ، فأتيتهما بها ، وأخذ رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الضرع ،فدعا،فحفل الضرع ، وجاء أبو بكر بصخرة منقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبو‌بكر ، وسقياني ، ثم قال للضرع أقلص فقلص • فلما كان بعد أتيت رسـول‌الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، فقلت علمني من هذا القـول الطيب : يعني‌القرآن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انك غلام معلم ، فأخذت‌من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيهـا أحد » •

وهذه القصة لعلماء السيرة فيها كلام ، ذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه كان من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأوذوا في سبيل الله ، وهاجر الى الحبشة ، والقصة توهم أنه كان اسلامه في أثناء رحلة النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم •

وكلام علماء السيرة ، لا يمنع أصل‌القصة ، ولب الخوارق للعادة ، فان ذلك ثابت في الصحاح ، وربما كان الكـلام‌منصبا على السياق ، لا على أصل الواقعة وغيره ثابت بلا ريب •

وقد سقنا ذلك الكلام ، وليس فيه‌تطويل ، لانه صدق ، ولا تطـويل في نقل الصادق من الاخبار •

وان هذا كله يدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء على يديه من الخوارق الحسية ما يزيدعلى التسع التي اختص بها موسى عليه السلام ، وليست فى دلالتهـا الروحيةأقل من معجزات عيسى عليه السـلام ، اذ أحيا الموتى باذن الله ، واذ أخرجهـامن قبورها باذن الله واختلاف النـوع لا يدل على ضعف الروحانية في خوارقمحمد صلى اللهتعالى عليه وسلم ،فالاسراء والمعراج خـارق للعادة مادي روحي ،وغوص فرس سراقة ، ونبع اللبن بين أصابعه وتكرره يدل على قوة روحيـةلا تقل عن احياء الموتى ، ومع ذلك لم يتحد النبي صلى الله تعالى عليـه وسلمالا بالقرآن الذي انزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا ٠

# ما يشتمل عليه القسم الأول ( العهد المكي )
# من كتاب خـــاتم النبيين


٣ ــ تــقديم

١١ ــ محمد رسول الله وخاتم النبيين

١٥ ــ تمهــيد

١٥ ــ الاضطراب الفكري ١٧ ــ المجوسية ١٨ ــ المانوية ١٨ ــ المزدكية
١٩ ــ البَرْهَمَة ٢١ ــ هل للبَرْهَمَة أصل سماوي ٢٤ ــ كتبهم
٢٧ ــ الكونفوشيوسية ٢٨ ــ عقيدة الصين القديمة ٣٠ ــ وثنية اليونان والرومان
٣١ ــ مزج الفلسفة بالدين ٣٢ ــ التثليث في الفلسفة .

٣٧ ــ العرب

٣٨ ــ دخول الوثنية أرض العرب ٣٩ ــ لم ينسوا الله في وثنيتهم ٤١ ــ القلوب فارغة من ايمان

٤٣ ــ أرض النبوة الأولى

٤٥ ــ إدريس عربي ٤٦ ــ هود نبي الله كان عربياً ٤٧ ــ صالح عربي
٤٨ ــ إبراهيم أبو العرب المستعربة وإسماعيل .

٥٠ ــ بناء الكعبة

٥١ ــ شعيب ومدين ٥٣ ــ موسى كـُلـّف الرسالة في أرض العرب ٥٦ ــ أرض العرب مأوى الفارين بدينهم ٥٧ ــ النصرانية ٦٠ ــ أصحـــــاب الأخـــدود
٦١ ــ اختصاص الجزيرة العربية ٦٣ ــ الله يعلم حيث يجعل رسالته .

٦٧ ــ مكة المكرمة

٧١ ــ أول بناء في مكة وبلوغها هذه المنزلة ٧٣ ــ إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر
٧٦ ــ مكة موطن تقديس لأجل الكعبة .

٧٩ ــ المكان والزمان

٨٢ ــ الجزيرة العربية موطن النبوة ٨٣ ــ شرف الزمان ٨٥ ــ هداية السماء في أرض العرب .

٨٨ ـ البشارات
٩٠ ـ محمد رحمة للعالمين ٩٣ ـ محمد في التوراة ٩٥ ـ محمد في الانجيل
١٠١ ـ محمد من أوسط قريش نسباً
١٠٨ ـ النسب الطاهر
١١٢ ـ قصي ١١٤ ـ عبد المطلب
١٢١ ـ عبد الله
١٢٢ ـ الأم ١٢٥ ـ صفات سامية في آمنة ١٢٨ ـ الجنين المبارك
١٣٠ ـ أصحاب الفيل ١٣٢ ـ رد عبد المطلب على أبرهة ١٣٤ ـ إهلاك ابرهة
١٣٥ ـ ولد الهدى
١٣٥ ـ ولادته بعد وفاة أبيه صلى الله عليه وسلم .
١٣٨ ـ ظواهر تعلن مكانته صلى الله عليه وسلم
١٤٠ ـ بشارات بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ١٤٢ ـ تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم
١٤٣ ـ ارهاصات النبوة يوم مولده
١٤٨ ـ أسباب رضاعته صلى الله عليه وسلم
١٤٩ ـ ارضاعه ١٥٣ ـ اخبار شق صدره ١٥٦ ـ سفر أمه به إلى يثرب
١٥٨ ـ موت الطهور آمنة .
١٦٣ ـ في حضن عبد المطلب
١٦٦ ـ في كنف أبي طالب
١٦٨ ـ عمله صلى الله عليه وسلم
١٦٩ ـ حماية الله تعالى (له) ١٧٢ ـ إلى التجارة ١٧٣ ـ شغفه بالتجارة
١٧٤ ـ ارهاص بالنبوة في رحلته الأولى ١٧٧ ـ ابتداء بشارات النبوة ١٧٩ ـ تجارته
١٨١ ـ مشاركته في الأمور الجامعة ١٨٢ ـ حرب الفجار ١٨٥ ـ حلف الفضول
١٨٨ ـ زواجه صلى الله عليه وسلم
١٨٩ ـ خديجة تشرف بسيد الخلق ١٩٠ ـ تجارة محمد في مال خديجة ١٩٢ ـ بحيرا يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٩٤ ـ الأملاك ١٩٩ ـ أغناه الله وواساه
٢٠٣ ـ إعادة بناء الكعبة
٢٠٧ ـ بناء قريش ٢١٢ ـ الحمس

٢١٩ ـ التكامل الإنساني في محمد صلى الله عليه وسلم
٢٢١ ـ وفور عقله
٢٢٦ ـ بلاغته صلى الله عليه وسلم
٢٣٨ ـ الخلق الكامل
٢٤٢ ـ أخلاقه خارقة للعادة ٢٤٤ ـ ما وصفه به الواصفون ٢٤٦ ـ هيبته صلى الله عليه وسلم ٢٤٩ ـ العفو والتسامح ٢٥٤ ـ حياؤه صلى الله عليه وسلم
٢٥٩ ـ جوده صلى الله عليه وسلم ٢٦٣ ـ شفقة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٦٨ ـ صدقه وأمانته وعفته صلى الله عليه وسلم ٢٧٠ ـ وفاؤه صلى الله عليه وسلم
٢٧٣ ـ العابد
٢٧٣ ـ عبادته قبل البعثة ٢٧٧ ـ حبه للاعتزال ٢٨٠ ـ عبادته بعد البعثة
٢٨٣ ـ زهده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة
٢٨٦ ـ زهده صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ٢٨٩ ـ قوت الزاهد
٢٩٦ ـ الصابر المصابر
٣٠٠ ـ الصابر في الدعوة إلى ربه
٣٠٥ ـ العادل الأمين
٣٠٦ ـ من عدله بعد البعثة ٣٠٨ ـ المساواة في العدالة
٣١١ ـ المثل الكامل في الشجاعة
٣١٢ ـ شجاعته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ٣١٤ ـ شجاعته صلى الله عليه وسلم في ميدان القتال ٣١٧ ـ الشجاع في كل أحواله ٣١٩ ـ رجولة المرسلين
٣٢١ ـ حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٢٣ ـ جمال تكوينه صلى الله عليه وسلم
٣٢٤ ـ ما حبب إليه من الدنيا ٣٢٦ ـ خاتم النبوة
٣٢٧ ـ صفات النبي صلى الله عليه وسلم
٣٢٩ ـ البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم ٣٣٠ ـ آثار البشارات برسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٣٣ ـ اثبات الرسالة المحمدية بالانحال ٣٣٦ ـ ما جاء في الكتب السابقة ٣٣٦ ـ من البشائر بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السالفة ٣٣٩ ـ الحائر يرجع إلى الحق ٣٤٠ ـ عالم ورقة بن نوفل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٤١ ـ علم النبوة عند سلمان الفارسي ٣٤٦ ـ يهود تخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم
٣٤٨ ـ تواتر الأدلة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٣٤٩ ـ ما جاء من أخبار الكهان
٣٥١ ـ تحقيق البشارة برسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ٣٥٢ ـ جاء الحق وزهق الباطل
٣٥٣ ـ موطنه صلى الله عليه وسلم مكة الأمية

٣٥٧ ـ البعثة المحمدية

٣٥٩ ـ التجلي الأعظم ٣٦٠ ـ نسكه وخلوته صلى الله عليه وسلم ٣٦٢ ـ روايات في خلوته صلى الله عليه وسلم ٣٦٤ ـ ابتداء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم ٣٦٧ ـ تأييده صلى الله عليه وسلم بروح القدس ٣٦٩ ـ قلق الزوجة الصالحة ٣٧٠ ـ إلى ورقة بن نوفل ٣٧٢ ـ فترة غياب روح القدس ٣٧٣ ـ مدة الفترة ٣٧٥ ـ الشهر الذي نزل فيه الوحي ٣٧٧ ـ أول ما نزل من القرآن ٣٧٩ ـ مراتب الوحي وشكله .

٣٨٥ ـ دعوة الحق

٣٨٦ ـ مراتب الدعوة ٣٨٨ ـ الدعوة خفية

٣٩٠ ـ أول من أسلم

٣٩٢ ـ الإسلام في بيت النبوة ٣٩٥ ـ أول أسرة في الإسلام

٣٩٢ ـ الإسلام في بيت النبوة ٢٩٣ ـ إسلام علي كرم الله وجهه ٣٩٥ ـ أول أسرة في الإسلام .

٣٩٧ ـ النور يشرق من بيت النبوة

٣٩٨ ـ إسلام أبي بكر ٤٠٠ ـ تتابع المخلصين

٤٠٢ ـ فرضية الصلاة

٤٠٥ ـ وأنذر عشيرتك الأقربين

٤٠٧ ـ دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين ٤٠٨ ـ بين أبي طالب وأبي لهب ٤١٠ ـ أبو لهب وموقفه من الدعوة والدعاية ٤١٢ ـ دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين

٤١٣ ـ فاصدع بما تؤمر

٤١٦ ـ فضل القرآن

٤١٩ ـ استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٤٢١ ـ السابقون السابقون

٤٢٣ ـ انتشار الإسلام ٤٢٤ ـ الإسلام يخرج إلى القبائل

٤٢٧ ـ المناوأة

٤٣٠ ـ انكار المشركين لليوم الآخر ٤٣٢ ـ أثر دعوته صلى الله عليه وسلم ٤٣٣ ـ منافسة العرب لقصي

٤٣٧ – تلقي الناس للدعوة
٤٣٨ – موقف قومه صلى الله عليه وسلم من الدعوة ٤٤٠ – صور اعتراضهم على الدعوة
٤٤٢ – الذين استجابوا لله وللرسول
٤٤٣ – المؤمنون والجهر بالدعوة ٤٤٤ – خلاصة قول
٤٤٦ – إسلام حمزة
٤٤٨ – إسلام عمر
٤٥٢ – بين عهدين
٤٥٤ – محاولة كفه عنهم لاستمالته
٤٥٥ – لقاء أهل مكة به صلى الله عليه وسلم لاستمالته ٤٥٧ – محاولاتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٥٨ – جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم
٤٦٠ – خلاصة مطالبهم منه صلى الله عليه وسلم ٤٦٤ – بغيتهم وفشلهم
٤٦٥ – الاستعانة بأهل الكتاب
٤٦٦ – بعث قريش لاحبار اليهود
٤٧٠ – اسماعهم القرآن
٤٧١ – استماع المشركين للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٧٥ – الايذاء والفتنة
٤٧٦ – ايذاء الضعفاء ٤٧٦ – بلال واخوانه ٤٧٨ – آل ياسر وغيرهم
٤٧٩ – التهديد بالتشنيع ٤٨١ – مصابرة النبي صلى الله عليه وسلم ٤٨٢ – الأذى ينزل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ٤٨٤ – مهابة محمد عليه الصلاة والسلام
٤٨٦ – لماذا لم يرهبهم بهيبته صلى الله عليه وسلم
٤٨٩ – الهجرة إلى الحبشة
٤٩٢ – متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء ٤٩٣ – رسل قريش للنجاشي في المهاجرين
٤٩٦ – متابعة الكيد بالمهاجرين ٤٩٨ – هدوء المهاجرين في الحبشة ٤٩٨ – خديعة
٥٠٣ – النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر في مكة
٥٠٣ – لقاؤهم بأبي طالب ٥٠٦ – حماية شيخ مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم
٥٠٨ – المقاطعة
٥٠٩ – الأرضة تمنع اسم الله من مواثيقهم ٥١٢ – نتيجة المقاطعة

٥١٤ ـ الرسول مستمر في دعوته
٥١٩ ـ سعي في نقض الصحيفة
٥٢٣ نقض الصحيفة فعلا
٥٢٤ ـ انطلاق الدعوة الاسلامية
٥٢٧ ـ عام الحزن
٥٣٠ ـ أبو طالب وايمانه ٥٣٦ ـ خديجة ٥٣٨ ـ ما كان بعد موت أبي طالب
٥٤٠ ـ حماية الله للنبي صلى الله عليه وسلم ٥٤٢ ـ المهابة مع المحبة
٥٤٦ ـ محمد عليه الصلاة والسلام في الطائف
٥٤٨ ـ عداس والنبي صلى الله عليه وسلم ٥٤٩ ـ دعاء وعفو وإجازة
٥٥٠ ـ سماع الحق له
٥٥٤ ـ في جوار المطعم بن عدى
٥٥٦ ـ انشقاق القمر
٥٦١ ـ الإسراء والمعراج
٥٦٤ ـ الإسراء بالجسم ٥٦٧ ـ المعراج بالروح ٥٧٢ ـ الاسراء والمعراج في صحاح السنة
٥٧٦ ـ انتشار الاسلام في البلاد العربية
٥٧٨ ـ وفد نصارى نجران ٥٨٠ ـ عرض الرسول نفسه على القبائل
٥٨١ ـ جماعات تقبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ٥٨٥ ـ ما بين الروم والفرس
٥٨٨ ـ عرض الاسلام على القبائل ٥٨٩ ـ ابتداء الاتصال بأهل يثرب ٥٩٠ ـ يوم بعاث
٥٩٢ ـ بدء اسلام الأنصار ٥٩٤ ـ العقبة الأولى والبيعة الأولى ٥٩٥ ـ ارسال مصعب
ابن عمير إلى المدينة ٥٩٧ ـ أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة ٦٠١ ـ العقبة الثانية
٦٠٣ ـ البيعة الثانية ٦٠٥ ـ علم قريش بالبيعة
٦٠٨ ـ ابتداء الهجرة
٦٠٩ ـ النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة ٦١٠ ـ الاذن للمؤمنين
بالهجرة ٦١٢ ـ استخفاء المؤمنين بالهجرة ٦١٥ ـ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم
٦١٦ ـ ما اقترن بالهجرة المحمدية ٦١٨ ـ تنفيذ المؤامرة ٦١٩ ـ اجتماع المشركين في
العتمة ٦٢١ ـ النبي مع صاحبه إلى الهجرة وطريقهما ٦٢٣ ـ الرسول وصاحبه
في غار ثور ٦٢٥ ـ سراقة والسير إلى المدينة ٦٢٧ ـ الركب يسير في طريق الصحراء
٦٢٨ ـ أم معبد والشاة العجاف ٦٣٠ ـ خوارق أخرى من معجزاته صلى الله عليه وسلم

رَقم الإيـداع ٦٤ / ١٩٨٦
دَار الكُتب لقطَرية